

لويس ديث دل كورال

من العالم الجديد إلى العالم القديم



ترجمة علي منوفي

رحلات

من العالم الجديد
إلى
العالم القديم

*

من العالم الجديد إلى العالم القديم
أدب رحلات
الطبعة الأولي : ٢٠١٦
رقم الإيداع : ٢٠١٥/٨٦٩٠
الترقيم الدولي : ١ -٨٥-٦٣٠٦-٩٧٧-٩٧٨
الغــلاف : حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادى ـ القاهرة .
تليفــون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني : www.kotobkhan.com



من العالم الجديد
إلى
العالم القديم

لويس ديث دل كورّال

ترجمة د. علي المنوفي



إصـدارات

مجلة الغرب (ش. م)

١٢ ش باربارا دي براجنثا

مدريد (١٩٦٣)

مسجل تحت رقم ٦٢-٤٢٨٠

رقم الإيداع ١٩٦٣-١٤٥٠٢ .M

Del Nuevo Al ViejoMundo

Luis Díez del Corral

Revista De Occidente

Madrid 1963

© Depósito legal: M14502 1963

فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

دل كورال، لويس ديث

من العالم الجديد إلى العالم القديم : أدب رحلات / تأليف لويس ديث دل كورال؛ ترجمة علي المنوفي. - القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

٥٢٠ ص، ٢٤ سم

تدمك : ١ - ٨٥ - ٦٣٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - العالم القديم - وصف ورحلات

أ- المنوفي، علي (مترجم)

رقم الإيداع : ٨٦٩٠

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تنويــه

أتوجه بالشكر للزميل الفاضل الدكتور/ كمــال جــاد الله

أستاذ الأدب الفرنسي بقسم اللغة الفرنسية

كلية اللغات – جامعة الأزهر .

على ما قام به من جهد رائع في ترجمة النصوص الفرنسية في هذا الكتاب

لمحة موجزة عن المؤلف

لويس ديث دل كورال (١٩١١-١٩٩٨)

هو أحد ابرز المفكرين الأسبان ومؤرخي الفكر، محامي في مجلس الدولة (١٩٣٦). كان استاذ كرسي تاريخ الفكر والأنماط السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة مدريد (١٩٤٧) كما شغل منصب المستشار الثقافي للسفارة الأسبانية في باريس (١٩٤٨) هو عضو عامل في كل من أكاديمية سان فرناندو للفنون الجميلة (١٩٧٧) والأكاديمية الملكية للتاريخ (١٩٧٣) والأكاديمية الملكية للعلوم الأخلاقية والسياسية والتي تم انتخابه فيها كرئيس شرفي.

حصل علي مدار حياته علي الكثير من الجوائز والنياشين التي نبرز منها: الجائزة القومية في الأدب (١٩٤٢)، وجوقة الشرف الفرنسية (١٩٥٣)، و الجائزة الدولية مننديث بيلايو (١٩٦٦).

والدكتوراه الفخرية من جامعة السوربون (١٩٨٠)، ووسام الاستحقاق المدني الذهبي الأوربي (١٩٨٧)، وجائزة أمير أستورياس في العلوم الاجتماعية (١٩٨٨).

وتتسم أعماله بانها كانت تضع أعمال خوسيه أورتيجا إي جاسيت نبراسا لها وبذلك أسهمت في تحسين وتجديد المعرفة بتاريخ الفكر السياسي الليبرالي. أضف إلي ذلك أن كتاباته تعكس اهتماماته بتاريخ المؤسسات الأوربية وموضوعاتها وكذلك الفن والمشهد العام والرحلات والأدب. ومن الأمور الدالة علي البعد العالمي لإسهاماته تلك الترجمات لبعض أعماله الي عدة لغات وخاصة كتابه "نشوة أوربا" حيث ترجم الي اليابانية. وفي باب نشاطه كمؤرخ يمكن إبراز الأعمال التالية:

- ميورقة، (١٩٤٢)، الجائزة الوطنية في الأدب.
- الليبرالية النظرية (١٩٤٥).

- نشوة أوربا، قراءة تاريخية لزمننا، (١٩٥٤).
- مقال عن الفن والمجتمع(١٩٥٥).
- عن التاريخ والسياسة(١٩٥٧).
- وظيفة الأسطورة الكلاسيكية في الأدب المعاصر.
- من العالم القديم الي العالم الحديث. (١٩٦٣).
- العقلية السياسية لتوكيفيل مع تسليط الضوء علي باسكال (١٩٧١).
- المملكة الأسبانية في الفكر السياسي الأوربي. من ماكيافيلي الي همبولت (١٩٧٦).
- بيلاثكيث، الملكية وإيطاليا (١٩٧٩).
- الفكر السياسي لتوكيفيل(١٩٨٩).

جري نشر الأعمال الكاملة في أربعة أجزاء من خلال مركز الدراسات السياسية والدستوية(١٩٩٨).

مقدمة

هذا الكتاب هو حصيلة رحلتين أولاهما إلى الأراضي الأمريكية، خلال الفترة من التاسع من أكتوبر عام ١٩٥٥ حتي الثامن من يناير لعام ١٩٥٦؛ أما الثانية فكانت إلى الأراضي الأسيوية خلال الفترة من بداية نوفمبر ١٩٦١م حتي الرابع من يناير لعام ١٩٦٢م. كما تتضمن صفحات الكتاب أيضاً رحلتين أخريين استغرقتا ما يقرب من شهرين إلى دول في الشرق الأوسط، وكان ذلك خلال فصل الربيع من عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦١. غير أن طبيعة هذه التجربة تمثلت في مجرد إشارات عابرة، دون الأخذ في الحسبان رصد ملامح تجربة هاتين الرحلتين.

يتسم عنوان الكتاب بنوع من الغموض، "**من العالم الجديد إلى العالم القديم**"، وهذا يعني أن هناك ترتيب في المسار؛ إلا أنه يعني أيضاً موقفا إزاء المشاهد العامة وثقافات الأماكن، أي أن هذا يستهدف اكتشاف ما هو قائم في تلك المناطق مما هو قديم وما هو مغرق في القدم، أي أن الكتاب يتناغم مع الرؤية الأصيلة التي عليها الرّحالة الذي يتسم بسمة مهنية وهي أنه مؤرخ.

ربما، لهذا السبب، يمكن أن يؤخذ على بعض الفصول البعد العلمي أو الدراسي بالنسبة لكتاب في أدب الرحلات. غير أن الذي كتب سطور هذا الكتاب هو - على الأقل - من تولد لديه الانطباع بأن الأفكار الأكثر تجريدية، التي صادفها، كانت مرتبطة بكثير من الحدس المحدد بشكل كبير. أكد فيكتور هوجو في بعض كتاباته أن النظرة الغامضة أدت إلى فك أسرار عصر الملك لويس الخامس عشر في marteau de porte. ومما لاشك فيه أن هذا الصنف من الهرمينوطيقا يتسم بالمخاطرة كما أن الكاتب ليس واثقا على الإطلاق من

نجاحه؛ إلا أنه يمكن أن يضمن أن التأويلات واسترجاع الماضي التي نراها على صفحات هذا الكتاب تتماشى مع النداءات الملموسة للغاية.

كانت الرؤية والتنظير عند اليونانيين من الأنشطة الشديدة الصلة ببعضها لدرجة يمكن معها أن تكون في كلمة واحدة. ومن الواضح أن كلا منهما قد انفصلت عن الأخرى منذ قرون، إلا أنه يجدر هنا أن نذكر بأصول مصطلح "نظرية" ولو أن ذلك يمكن أن يكون مجرد عزاء لهؤلاء الذين هم في حاجة إلى استناد عملية التأمل على أسس المعاني؛ وتحديدا نقول إن اليونانيين كانوا على استعداد دائم لأن يقدموا النبوءة الملائمة لمن يطلبها، وأن يقدموا نموذجا نمطيا لمؤرخهم الرحالة العظيم هيرودوت الذي يعتبر ليس فقط أبا علم التاريخ القديم وإنما التاريخ الحديث من المنظور العام والمقارن. وسيرا على نهجه أخذ توينبي، منذ زمن ليس بالبعيد، محبرة báculo السائل وريشته، بتؤدة يحسد عليها وسار على النهج القديم.

يبدو أنه لا مناص من الإشارة إلى كتاب آخر، هو "نشوة أوربا" El rapto de Europa... الذي يرتبط بالكتاب السابق لأسباب منها أن أغلب الرحلات التي تناولها كان باعثها الأول محاضرات ترتبط بموضوعات تناولها؛ فمن حيث المبدأ يبدو أن الكتب تتضارب مع بعضها: فالكتاب الثاني "**نشوة أوربا**" يتناول انتشار ثقافة في العالم ينظر إليها على أنها ثقافة منتصرة؛ أما الكتاب الآخر فإنه يحاول أن يكون منفتحا على التعددية في الثقافات الإنسانية بتنوعها الأكثر عمقا. لكن هناك أيضاً ذلك الوعي المتأورب بهذه التعددية وهذه القدرة على الشعور بها. والشيء نفسه بالنسبة للموقف النقدي، حيث الأمر مؤسف للجميع في كثير من الجوانب، وهو أن هذا الموقف وضع تلك الثقافات في وضعية توسعية بشكل فريد بسبب ما عليه من توجه عقلاني وعالميتها المسيطرة.

يتسم عنوان الكتاب بأنه شديد المنطقية فيما يتعلق بالفصول الخاصة بأمريكا، فالرؤية المتعلقة بمدنها وأراضيها تميل إلى الماضي، أي نحو ماضي شديد الصلة "**بالعالم القديم**" وخاصة مع أسبانيا. من الممكن في هذا المقام أن يستاء بعض القراء من هذه النعرة الوطنية التي تعتبر ذات نبرة حماسية إزاء ما قامت به أسبانيا في تلك الأقاليم الصعبة التي توجد في جبال الأنديز أو منطقة الكاريبي؛ وبغض النظر عن أن هذه الجولات البطولية

تشكل العنصر الأساسي لهذا الفخار الذي يمكن أن نشعر به نحن المتحدثين بالأسبانية، فإنه من غير المشروع استخدام تلك الصفة بالمعنى السيئ. وإذا ما كان هناك شيء مؤكد بالنسبة لمن يطوف بالقارة الجديدة فهو حقيقة ما قام به الأسباني، من خروجه من وطنه وضرب بجذوره في أقصى الأصقاع في هذا الكوكب. كما أنه عاش طوال العصور الوسطى في إطار التعددية الثقافية، ولم يكن صعبا عليه، في بداية العصر الحديث، التعايش في مجتمع له نفس المصير، مع شعوب أوربية أخرى ومع شعوب تعيش في أقصى بقاع الأرض حول المحيط الباسفيكي.

وربما لأجل هذا، يكتب روسو في كتابه "**إيميليو**" عن الأسباني الرحّالة، الذي أخذ يتضاءل فضوله ما يلي:

" بينما يهرع الفرنسي الي الفنانين في بلد ما، ويقوم الإنجليزى برسم إحدى التحف الفنية، ويحمل الألماني ألبوما من عند جميع العلماء، فإن الإنسان الأسباني يقوم في صمت بدراسة نظام الحكم والعادات والسياسة وهو الوحيد، من بين هؤلاء الأربعة، الذى، عند عودته إلى بلده، يكتب عن كل ما رأى ملاحظة نافعة لوطنه".

وإذا ما كانت رؤية روسو المفاجئة تبدو سليمة بالنسبة لهذا الكتاب، هذا إذا ما باعدنا جانبا ما هو كريه في مصطلح "المفيد"، يمكن القول بأن كتب الرحلات يتم تأليفها وقراءتها لقضاء وقت ممتع بالمعنى النبيل للكلمة. ولهذا ففي القرن الذي عاش فيه روسو كانت كتب الرحلات معنونة بشكل جذاب على النحو التالي: "مناحي الجمال في إيطاليا"، و"مناحي الجمال والتسلية في الدنمارك والنرويج" و"الدولة ومناحي الجمال في سويسرا". إنها عناوين جميلة وجذابة ولا يمكن قراءتها دون الشعور بالرغبة في شد الرحال دون أن يخمن آفاقا مليئة بالمتع الكثيرة الموعودة، طبقاً لما يقوله بول هازارد Paul Hazard.

وفي أيامنا هذه نجد أن آفاق الترحال أكثر رحابة وأكثر إثارة للمشاكل مقارنة بما كانت عليه على زمن روسو. وحقيقة الأمر أن أكثر القرى تواضعا في بوليفيا أو الهند لازالت تقدم، لمن يتمكن من النظر إليها، الكثير من المتعة.

لأسمح لنفسي قبل الانتهاء من كتابة هذه السطور أن أعلن على الملأ تقديم شكري العميق للبروفسور تاكهيكو كوجيما Takehico Kajima الذي فعل الكثير من أجل

دخولي إلى المشهد العام لبلده العزيز، وكذلك للسيد خوان بيرث دي تطيله، وإلى صديقي العزيز خوسيه لويس ألبارث حيث تكرّموا عليّ بمراجعة الفصول المتعلقة بإسبانو أمريكا واليابان كل في تخصصه.

الباب الأول

أمـريكـا

I- أمريكا من الجو

السفر جواً له جانبه الطيب وجانبه السيئ، مثل كافة الأمور في هذا العالم وخاصة ما ينشأ عن التقنيات المستخدمة في أيامنا. ومن الشائع أن نسمع التعبير عن الأسف لحالة العجلة التي يتسم بها السفر جوا، حيث يستوحش المرء الطرائق الأكثر بساطة في الانتقال والتي كانت تسمح للإنسان أن يرى، عن قرب، المشهد العام والتفاعل معه بشكل حميم. كما نسمع أيضاً مقولة تشير إلى انه من الأفضل أن نعرف بلدا من الداخل، وهذا فيه منطق، وأن نعرفه بطريقة متأنية مقارنة بأن نعرف عددا كبيرا من البلدان بشكل سطحي وذلك من خلال اللجوء إلى الوسائل المثيرة والخطيرة التي يتم تقديمها من خلال الملاحة في الجو والتي حولت القارات إلى محافظات وحولت الأرض إلى بلد أصغر حجما بمعنى أننا إذا وضعنا مسافات فعلية لوجدنا أن ذلك ينطبق على بلجيكا في زمن نابليون.

أدى تقصير المسافات إلى نوع من تقليل اهتمام الإنسان بالمشهد الطبيعي أو الاجتماعي، مما أدى إلى فقدان ذلك الثراء الذي يتجلى في إبراز التفاصيل والتناقضات، أي هذه الحياة المكتملة الملامح التي كان ينجح في رؤيتها الرحالة عندما كانوا يسافرون على عربات تجرها الخيول أو حتى في القطار. يمكننا اليوم أن نطوف بالقارة الأمريكية في غضون عدة أسابيع بينما نجد أن ألكسندر فون هومبولت A. von Humbaldt، كان استغرق في بداية القرن التاسع عشر خمسة أعوام لزيارة بعض البلدان الواقعة بين المكسيك والبيرو. غير أنه في الوقت الذي نعود فيه ونحن نكاد نكون خاوي الوفاض كان هو قد عاد ممتلئ اليدين ليس فقط بالمعلومات بل أيضاً بكثير من الحدس والأفكار؛ كما أنه كان في حاجة إلى عشرين عاما إلى أن يودع ما اكتشفه في ثلاثين مجلدا رائعا تحت عنوان "رحلة إلى الأقاليم الاستوائية equinoxiales في العالم الجديد خلال الفترة من ١٧٩٩ حتى ١٨٠٤".

من البدهي أن عددا غير قليل من تأملاته يعتمد على أساس، لكنها أحيانا ما تميل إلى المبالغة في النقد الذي يحرض عليه الاحتجاج على التقنيات الحديثة ومبتكراتها وهذا أحد سمات بعض الذين يفخرون بتوجهاتهم الإنسانية ورقيّهم. وأفضل من الاحتجاج المبالغ فيه أو الحماس الساذج لهذه المخترعات الغير عادية والتي وضعتها الصناعة الحديثة بين أيدينا، هو التمييز بين النتائج الجيدة والسيئة التي تصاحبها والعمل على الإفادة إلى أقصى حد من الميزات والحيلولة دون التبعات السيئة. وعندما أقول نتائج فإنني لا قصد فقط تلك الظاهرية بل أيضاً تلك المتعلقة بالموقف الإنساني للرحّالة بمفهومه العميق.

عادة ما تثير فينا الكلمة وواقع الماكينة أصداء مادية لكن لا نجد في أي مكان أن هناك ما كُتبَ عن أنه لا يمكن أن تثير أصداء بطولية وشعرية وربما يصل الأمر إلى ما ورائية. تمتلئ المطارَات والطائرة بوجوه كأنها مسوخ لأناس يذهبون إلى مكان ما لفعل شيء ما بأسرع طريقة ممكنة دون أن يشغلوا أنفسهم على الإطلاق بالطريق أو بكيفية قطع المسافات، وهذا أقل بكثير جدا مما عليه المسافر بالقطار أو السيارة الذي يدخل عليه المشهد العام والقرى التي يمرّ بها وإيقاع الزمن الذي يمر به من خلال نافذة عربة القطار أو الزجاج الأمامي للسيارة شاء أم أبى. وعندما يسافر المرء بالطائرة يبقى المشهد العام بعيدا جدا ولا تكاد توجد عقبات في الطريق اللهم إلا مسافة ضيقة في السيارة يتحرك فيها. ونتيجة لذلك تتحول الرحلة إلى شيء من الفراغ والتجديد، أي إلى مجرد عملية انتقال جسدي، إذا ما اعتاد المرء ذلك.

ومع هذا فمن بين الكثير من الناس الذين ينامون ويقرأون بطريقة غير متسقة أو يتسلون بالكتابة على الآلة الكاتبة وتعتلي وجوههم مشاعر كل يوم يتم اكتشاف وجوه لأشخاص يعيشون هذه المغامرة الإنسانية الرائعة التي هي الطيران. هناك وجوه يعتليها التفكير حيث يمكن تخمين الفخار الذي تشعر به بالمشاركة في هذه النتائج التي جرى الكفاح من أجلها طوال آلاف السنين من الجهد الذي يبذله البشر في باب العلم والتقنية والخيال والتنظيم الاجتماعي. هناك وجوه أخرى تتسم بالبساطة والقوة لأناس من الرياضيين الذين يعرفون عن طريق التجربة أنه لا يمكن مقارنة أي وسيلة حمل بتلك التي تقوم بها الطائرات عند الإقلاع، حيث تتركز كل القوة الممكنة في العجلات لدرجة تصل إلى فقدانها وظيفتها حيث تنتقل إلى الطيران لكنها تعتبر الأداة الأرضية لهذه الركوبة الميكانيكية.

من الضروري أيضاً أن يوضع في الحسبان الخيال الشعري للأدب الغربي حتى يمكن اعتبارا من فرضياته الأكثر راديكالية، فهم عملية الطيران بواسطة طائرة، ولا يقتصر الأمر على الفرضيات بل على آنيته؛ إن كل فارس جيد كان شغوفا بأن يمتد وجوده النبيل في إقليم الهواء الخفيف ولو كان ذلك على حساب عملية تحول ملحوظة للغاية مثل تلك التي تشهد تحول الركض المُتعَب لحصان دون كيخوته ونيثرونتي إلى طيران في الهواء من خلال "كلافيلينو Claviléno". جعلتنا الطائرات نعيش بشكل أقرب إلى ذلك الذي تخيله ثربانتس أو ليوناردو... ويدخل في ذلك هوميروس؛ والأمر هو أن ركاب الطائرة عندما يفتحون بطنها للخروج يبدون وكأن أحد سماتهم ما عليه أبطال حصان طروادة.

كما أن خيال الشعوب الشرقية يدخل في دائرة هذا الاختراع الأمر الذي يساعد على انتصاره على مستوى الكرة الأرضية. هذا الشكل الأسطوري الذي عليه التنين والذي ظل ممتدا عبر الزمان تحول في منطقة الشرق الأقصى إلى واقع ملموس من خلال محركات الطيران. ولابد أن هذا الشبه الذي أوجده، علميا، الرجل الغربي كان يشعر به أيضاً الصيني بشكل صادق ومقدس، وهو رجل أخذ يركب الطائرة وهو لا يزال يؤمن بعقائده الأبدية؛ فالتنين الذي يتبدى وكأنه رمز على طائرات خطوط CAT، أي الطائر الميتولوجي Garuda، أو سيارة Vishun التي تعتبر علامة مميزة "للخطوط الجوية الهندية" إنما هي، بشكل بدهي، أكثر جدّية ولها أكثر قوة رمزية عند الركاب من أبناء السكان الأصليين مقارنة بالرموز التي جرى اختيارها بشكل تلقائي من لدن شركات الطيران الغربية التي تتسم بالعقلانية الكاملة والنفعية.

من المسلّى النظر إلى الماكينة السوبر التي عليها طائرات DC-7 أو سوبر Constelación على أنها حيوان أسطوري، والإحساس بصوت محركاتها على أنه عملية شهيق وزفير لتنين غربي، أو النظر إليها ببساطة أو أنها نسر عملاق يحملنا بين مخالبه كأننا ذرات لقاح. وليس ذلك صعبا ذلك أنه عندما تصل إلى مستوى ارتفاع الطيران العادي، تتباعد الطائرة عن نقل ذلك الشعور الخاص ببذل الجهد والانتقال، كما تبدو تحت الشمس الساطعة معلقة في الهواء وكأنها واحدة من هؤلاء النسور العملاقة التي كنا نتأملها ظهر يوم من أيام الصيف والخوف يملؤنا ونحن صغارا.

تطفو إلى الذهن صور وأخيلة أكثر بساطة ولَعُوبة بما في ذلك صور الطيارات الورقية التي كان يحملها أولئك الرجال الضخام البنية في الحدائق أثناء طفولتنا. تقوم المراوح (مراوح المحركات) بالدوران كثيرا لكن العين البشرية التي تتسم بالبطء في التقاط الحركة لا تكاد تميز الدوران بشكل حاسم، فعندما تقوم المحركات بالدوران يتأتى عنها ما يشبه النسيج غير الملموس مثلها مثل الطائرات الورقية وهو نسيج من الحرير، أو كأنه قوس قزح أو خيوط عنكبوت من الأحلام تقوم بهدهدة المسافرين وتسلية الملائكة غير المرئيين؛ أو ربما تأتي هذه المراوح لتكون من خلال دورانها الذي لا ينتهي بمثابة تمثيل ملائكي، أي ملائكة جدد من ملائكة ريلكه التي تتمخض عنها بشكل معجز الميكانيكا المعقدة للمحركات الانفجارية.

وإذا ما قارنّاها بالطائرات ذات الموتورات المنعكسة reacción لاتضح أن هذه الأخيرة مبتورة إذ تفتقر إلى تلك الأطراف الشعرية والجوهرية، وفي الداخل يشعر المسافر بأنه أسير، بدرجة كبيرة، ماكينة انطلقت في الفضاء. فالطائرات ذات المراوح تغوص أكثر في الفضاء وتسبر أغواره وتعتمد على أنسجته غير المرئية لكنها لا تلتهمها. تتحرك في الهواء بحرية وكأنها طائر ضخم الحجم أو كأنها كائن ملائكي وخاصة عند الهبوط، ذلك أن هبوطها ليس بأن تترك نفسها تسقط أو أن تدخل في النهاية المحتمة لمسار ينتهي أمده ببلوغ الهدف بل أنها تقوم بعملية اقتراب محسوبة وعملية توقف بطيء وكأنها تعود إلى العش أو أنها أدت رسالة ما تتسم بالمهابة.

عندئذ تتبدى لنا الأرض باعتبارها مستقر الإنسان. في هذه الجغرافيا الأمريكية الشاسعة، لا زالت ترى، وبشكل عام، بعض القطاعات الكبيرة من سلسلة الجبال أو الخلجان إضافة إلى أن مسطحات الأطراف وخطوط الشاطئ تتلاقى نحو المركز الحضري الذي نقترب منه. إنها أول رؤية للمدينة التي سنقضي فيها عدة أيام؛ غير أننا لا نبتغي فقط الحالة الحضرية بشكل منعزل بل في إطار السياق الجغرافي الضخم الذي كثيرا ما يتسم بتفرده في كثير من الأحيان مثل ريو دي جانيرو وسانتياجو وكيتو ويوغوتا والمكسيك في القارة الجديدة.

إذا ما وصل المرء إلى المدن الأمريكية بطريق البر أو البحر من الصعب تكوين صورة لهذا الذي هي عليه من صورة معقدة وشديدة الضخامة؛ وها هو الشد والجذب الدرامي بين الحقل والمدينة، أي ذلك الملمح الذي ربما كان الأكثر راديكالية في أي مدينة مقارنة بغيره من الملامح ألا وهو اختيار موقعها، وهنا ننظر إلى الحالة الأوربية، حيث يمكن اكتشافه من فوق برج أو هضبة قريبة. إلا أن الأمر يختلف في الحالة الأمريكية إذ أن أبعاد المكان تتطلب الصعود إلى أعلى لآلاف الأمتار لإدراك ما عليه... أو أن يصل المرء إليها بالطائرة. وعندئذ يمكن للمسافر أن يتكون لديه بالفعل مفهوما ليس فقط عن الشكل الذي عليه الرقعة العمرانية أو صلته بما يحيط به من الحقول بل بتموقعه الجغرافي أيضاً، أي بوضعيته كخليج أو مرتفع ومنخفض أو واد في إطار السمات الغاية في الضخامة التي عليها الطبيعة الأمريكية حيث نجد أن الظاهرة الحضرية ليست مجرد شيء تم إعداده كما أنه مرغوب من الطبيعة مثلما هو الحال في حوض البحر الأبيض المتوسط أو اليابان، بل إنه شيء تم فرضه على يد الإنسان بشكل بطولي وبروح وثّابة وأنه يجب العناية به بشكل يومي حتى يواصل العيش.

وبعد ذلك يقوم المسافر بتفحص تلك الرقعة العمرانية التي رآها، بشكل فيه عمومية، من الجو، ويقوم بفحص المكان ناصية بعد ناصية والتكوين المعماري لتلك المدن ذات الطابع الاستعماري ثم ينزلق تحت الأسطح الرمادية اللون والمتكورة التي تبدو عليها الكنائس من الطائرة وربما يتجاوز حدود الكتلة المعمارية حتى يصل إلى جوار البركان العظيم الذي بدا لحظة هبوط الطائرة أن يكسو الأفق بغيمه لكن إذا ما رؤي من جانب سوف تتجلى عظمته أمام الزائر.

تصبح الأرض والمدينة أكثر ثراء وتنوعا مما شوهدنا عليه عند أول نظرة غير أنه لا يمكن نسيان الانطباع الأول، من الجو، وهو انطباع يبقى كأنه إطار عام تندرج فيه التحليلات الخاصة. وعندما تحين لحظة الرحيل، نجد المسافات تقصر بين الآثار والميادين والملاعب والأحياء السكنية وتدخل كلها متراكمة في إطار الرقعة العمرانية التي تتسم بثرائها الواسع الذي يفوق ما كانت عليه من خلال رؤيتها عند الوصول لكنه وجود متسق دائما ويترك في مخيلة المسافر الانطباع بوجود صورة أكثر عضوية وحقيقية عن المدينة التي

زارها مقارنة بتلك الصورة التي يمكن أن تتكون عنها فيما إذا كان خرج بالقطار وعبر الكثير من الأرباض غير واضحة المعالم.

سوف يتذكر الرحّالة المدينة وخاصة في أفقها المحدد وهو أفق يتسع أمامه ويضيق حسب درجة ارتفاع الطائرة، ويميل هذا الأفق إلى صورة إسطوانية حيث نجد أبراج الكاتدرائيات لا يكاد يلمح لها ظل في الميدان الذي تطل عليه ولا تكاد تبرز هضاب بانثيو Panecillo أو سان كريستوفل S. Cristobal حيث جرى من عليها تأمل الرقعة العمرانية. ويدخل في هذا تلك القمم العالية الموجودة بالقرب من المكان حيث تصبح صغيرة كما أنها تدخل بشكل مرتب في تلك "الأستامبا" الجغرافية التي يخرج بها المسافر.

يعتبر المسافر بالطائرة فوق القارة الأمريكية بمثابة هاو لجمع الأسطوانات الجغرافية والآفاق الأسطوانية الشكل المحددة الأطراف من تلك التي تمكن تخزينها في الذاكرة بكل ما فيها من تنوع دقيق ومركز للمشاهد، وأن هذه لها صدى لطيف على الأسماء عندما تقوم الذاكرة بوضع إبرة الحب فوقها.

II- سلفادور الخلجان وأمريكا البرتغالية

" سان سلفادور دي باهيا لكل القديسين " ؛ هذا هو الاسم ذو الطابع المسيحي المحض الذي كان يطلق على العاصمة القديمة للبرازيل، هي مدينة بها مطار شديد البعد عنها ولا يكاد يرى منها شيء لحظة الهبوط عندما يكون الاقتراب من المدرج من الشمال، كما لا يمكن رؤية الرقعة العمرانية للمدينة أثناء الانتقال عبر الطريق الطويل الذي يربطها بالمطار والذي يسير بمحاذاة الشاطئ وعلى جانبيه مجموعات من النخيل الملساء التي يتأرجح جريدها برشاقة ويتناغم مع تلك الأمواج التي تتكسر على الشاطئ الرملي. هناك عدة " أخصاص " Choza تتبدى وكأنها تحيي الزائر رغم أنها ملفوفة وسط النباتات الاستوائية، يلي ذلك عدة شوارع ضيقة ذات طابع كولونيالي، وبعض الكنائس في الجانبين الأيمن والأيسر، لكن لا تكاد ترى ملامحها المعمارية، وهناك ميدان فيه وقار متكلف يتم اجتيازه بسرعة . . . ثم يجد الرحالة نفسه عند مدخل واحد من الفنادق الحديثة للغاية في أمريكا الجنوبية ، الذي يقع وسط المدينة ، دون أن يدري شيئا عن وضعيتها كرقعة عمرانية.

من نافذة الغرفة، يُرى إلى جوار الفندق حصن بشكله الكلاسيكي النجمي الذي تحيط به خنادقه، وبعد ذلك هناك الحديقة بنخيلها العالي إضافة إلى بعض الآثار المقامة على قاعدة مرتفعة أسوة بما هو موجود؛ وبعيدا بعض الشيء هناك مجموعة من المنازل التي تبرز فوق هضبة غير مرئية.

تتموج الأرض كثيرا تحت منازل السلفادور بحيث نراها تحمل طابع العصور الوسطى أكثر من حمل بصمة المدن التي أقامها الأسبان في العالم الجديد، لها شوارعها الممتدة في خط مستقيم على أراض سهلية أو أنها تريد أن تكون كذلك. عكس ذلك نراه في المدينة البرازيلية حيث يلاحظ أنها تتسم بعدم استقامة سطح الأرض بحيث يتم صعود المنحدرات

الوعرة بمساعدة عامل من السكان الأصليين، وهو يعمل على المبالغة في الشعور بالإرهاق ردعا لمن تسوّل له نفسه تقليده: في هذه الحالة فإن الأمر يتعلق بالقراصنة الذين يكثرون على الشواطئ البرازيلية ويجبرون المدن على الإحتماء بالجبل وكأن الأمر شبيه بما كان يحدث في حوض البحر المتوسط.

ليس من الضروري السير في الشوارع المتعرجة في المدينة صوب الجزء العلوي فيها والأكثر نبلا، إذ هناك مصعد رائع يؤكد ظهور ملامح الحياة الحديثة في العاصمة القديمة، حيث يوفر المصعد الجهد على السائر. غير أنه بدلا من إلغاء اختلاف الارتفاعات يزيد منها حدة حيث يبرز المدينة وكأنها حصن على مرتفع. تضم مدينة سلفادور، مثلها في ذلك مثل كثير من المدن في أوربا العجوز، تجمعين سكنيين مختلفين: أولهما يسمى Cidade baixa أي "المدينة السفلى" وهي المنطقة الواقعة إلى جوار الميناء، أما ثانيهما فيسمى praira، إضافة إلى المنطقة العليا التي تأسست عام ١٥٤٩ على يد طومي سووزا T. Sousa أول حاكم عام للبرازيل. وسيرا على تقاليد قديمة أيضاً نجد مركزها عبارة عن ميدان واسع أعلى الهضبة تحده المباني الأكثر أهمية في المدينة ما عدا أحد الأضلاع الذي يبدو مفتوحا وذلك لوضع مواقع المدفعية الدفاعية ضد "كناسّي البحر".

تتسم المدينة بأنها ذات طابع حربي ذلك أن هذا الميدان تصاحبه أيضاً حصون كثيرة سواء كانت داخل الرقعة المعمارية أو على أطرافها إذ هناك حصن باراّ Barra، ومنسرات، وساو بدرو، والمار Mar . . . الخ؛ وكان لكثير من الكنائس أيضاً دور دفاعي كأنها حصون مثل كنيسة سان أنطونيو وسان بنيتو. كما أن داخلها يفصح عن كثير من ذكريات البطولات التي قام بها "حُكّام العموم" G. generales، الذين كانوا يتسمون بميولهم الحربية بالضرورة أكثر من نواب الملوك virreyes الأسبان، رغم أن اللحظات الأكثر صعوبة بالنسبة لمدينة سلفادور ارتبطت باللحظة التي تم فيها توحيد أسبانيا والبرتغال الأمر الذي أدى إلى قيام الهولنديين باحتلال الميدان عام ١٦٢٤م حتى تم تحريره خلال العام التالي على يد فرقة أسبانية برتغالية بقيادة فادريك دي طليطله Fadrique de T. .

كان تاريخ أمريكا البرتغالية أكثر صعوبة من تاريخ أمريكا الأسبانية ذلك أن مدنها الأكثر أهمية لم تكن لها دفاعات جغرافية طبيعية بل كانت على حافة البحر وبالتالي فهي

معرضة للهجمات والاحتلال المستمر الذي تقوم به شعوب أوربية أخرى. ظلت البرازيل طوال سنوات طويلة عبارة عن واجهة بحرية، أو مجموعة من المدن الموزعة على شاطئ طويل للغاية وتعيش صعوبة الاتصال الأرضي فيما بينها. ولم تفلح في إمكانية الحفاظ على استقلال هذا البلد الأمريكي، الذي يلفت الانتباه بشدة، الحراسة المستمرة التي يقوم بها سكان القرى والمدن وكذا الجهود المستمرة التي لم يبخل بها أهلها عندما كانت الظروف تتطلب ذلك وهي كثيرة.

وانطلاقا من موقعها الجغرافي، نجد أن كل واحدة من المدن البرازيلية كانت تابعة بشكل مباشر للغاية للوطن الأم؛ فالمناخ الاستوائي الذي لا تخفف منه الارتفاعات، مثلما هو الحال في المرتفعات في الأنديز جعل المدن البرازيلية في حاجة مستمرة للموارد الزراعية القادمة بانتظام من "العالم القديم" بما في ذلك السلع الغذائية. أما بالنسبة للسكان، فإن انتقالهم من أحد شطآن المحيط الأطلنطي إلى الشاطئ المقابل كان أمراً سهلاً وكثير الشيوع في حالة المدن المقامة في سلسلة الجبال Cordillera. وتبرهن الآثار الفنية، وخاصة في الأعمال الفنية، علي هذا النوع من العلاقة الحميمة التي كانت للبرازيل مع العالم القديم.

لا نجد في كنائس سلفادور أو قصورها أي إشارة للميل نحو الأشكال الفنية المهجنة، وكذلك الشيء نفسه بالنسبة لعدم التخلي عن المدارس الأقليمية. ما نستوحشه هو التراث الفني والعملي operario للسكان الأصليين وما يتميز به من توجهات توجد في الأعمال التي يتم التكليف بها من خلال إضفاء الطابع المحلي من خلال الأشكال المتعلقة بالبيئة المحلية أو من خلال إبراز بعض الجوانب في الأشكال الفنية المستوردة الأمر الذي يجعلها قابلة للفهم لدى السكان الأصليين، وهذا ما كان يحدث في الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطوريات السابقة على ما قبل اكتشاف العالم الجديد. الأمر بالنسبة للفنانين الأوربيين هو أن الأرض هناك كان لها تراثها وحكّامها وكثيرا ما نجحوا في السير على إيقاعها في الوقت الذي كانت فيه أراضي أمريكا الأطلنطية عبارة عن نوع من السبورة التي لم يكتب عليها شيء حيث كان يمكن الكتابة بحرية مطلقة.

هنا يمكن القول بأن المشاريع الخاصة بدور العبادة والقصور والمستشفيات... الخ، في السلفادور وفي المدن البرازيلية الأخرى، كانت تأتي معدة سلفا في معظمها من لشبونة،

ولم يقتصر الأمر فقط على المشروعات وإنما تعدى ذلك إلى الكتل الحجرية، فها هي كاتدرائية سلفادور، أي الكنيسة القديمة لطائفة اليسوعيين، والتي أسهمت في رسم جزء حاسم من تاريخ البلاد، تعتبر صورة طبق الأصل لدار العبادة التي كانت لتلك الطائفة في سانتاريم Santarem، وليس هذا فقط بل جرى بناؤها باستخدام "كتل حجرية بيضاء" منقولة من لشبونة. كنيسة Conceicao da Praia التي كانت في منتصف القرن الثامن عشر أجمل كنيسة أقيمت في البرازيل، مشيدة بكتل حجرية مقطوعة ومعدة من لشبونة. وليست أكثر أمريكية من المباني الرومانسية التي أعيد بناؤها في متحف The Cloistes في نيويورك.

وإذا لم يقم المسافر بالتأمل كثيرا في الحصون والكنائس والقصور وباقي المباني الأثرية وحول اهتمامه بالمارّة في الشوارع لوجد أن التناقض شديد للغاية.

كانت البرازيل منذ بداياتها الأولى ملتقي melting-pot أي بلد متعدد الأعراق، ذلك أن البرتغاليين لم يصلوا بشكل مباشر إلى أمريكا بل وصلوا إليها من خلال أملاكهم في كل من آسيا وأفريقيا؛ فمن آسيا أخذوا الميل إلى الحركة والمغامرة التجارية وهو اتجاه دخل عليه تجديد عاما وراء آخر عندما تصل إلى Bahía، الخليج، المراكب التي كانت تعود من Goa إلى البرتغال. كما اتسم استعمار البرازيل بأنه ذو طابع بحري إذ أن النفاذ إلى داخل البلاد تم أيضاً من خلال المسارات المائية مثلما هو الحال بالنسبة لنهر سان فرانسيسكو الذي يجري موازيا للشاطئ. تحول نموذج الاستثمار التجاري الأسيوي إلى الأساس والدافع وراء التوسع الدائم في البلاد، وظل ذلك حتى القرن السابع عشر حيث شهد التوسع البرتغالي الكبير على طول وادي نهر الأمازون وتركز حول البحث عن التوابل حيث فقد البرتغاليون آنذاك هيمنتهم عليها في المشرق.

قام البرتغاليون بنقل الأيدي العاملة من أفريقيا إلى البرازيل وهي الأيدي التي أنشأت البلد الجديد؛ ولما كان النبات الضعيف في حاجة إلى عناية فإن الجنس الأبيض في المنطقة الاستوائية الأمريكية كان في حاجة إلى الجنس الأسود وعليه وقع عبء العمل في الحقل والصناعات والمناجم طوال فترة الاستعمار. كان الأفريقي أكثر التزاما وقدرة على العمل وأكثر ثقافة مقارنة بالأمير ندو amerindo الرحّال في الغابات البرازيلية، وبالتالي حلّ محله

بسهولة رغم أنه قام في الوقت ذاته بدور الوسيط بين ذاك وبين البيض. وهنا نجد أن الأوربي كان يشعر بالميل أكثر إلى الرجل الأسود منه إلى الرجل الهندي وكان ذلك لعدة أسباب منها الأسباب النفعية ومنها أن ذلك يرجع إلى مفاهيم مسبقة طبقاً لما يقوله جواو ريبيرو[1]. وبذلك تمكن الأسود من القيام بدور رئيسي في تطور البرازيل سواء على الصعيد الاجتماعي أو الجغرافي نظرا لتأقلمه الكامل على المناخ الاستوائي.

غير أنه في سلفادور لا يمكن الحديث عن الأسود بل عن السود، بصيغة الجمع، ذلك أنه إذا ما كان هناك أمر ملحوظ في شوارع المدينة فإنه يتمثل في التعددية العرقية للأفارقة. كان العبيد الذين حُملوا إلى البرازيل قادمين من مناطق عديدة في القارة ابتداء من تلك المناطق القريبة وحتى جزر "الرأس الأخضر" وصولا إلى موزمبيق، وقد أتوا ليشكلوا في القارة الأمريكية عينة مكثفة لكافة أعراقهم وسلالاتهم، ولنقلها بشكل أفضل حيث كانوا أكثر من مجرد عينة ذلك أنهم لم يقتصروا على الانخراط مع بعضهم وإحداث التعايش بين مختلف الأنماط الإثنية بل تعدوا ذلك إلى التهجين عندما اختلطوا ببعضهم البعض ومع الهنود والبيض. ولهذا فإن "شارع الساباتيروس" Rua dos Sapateiros يعتبر واحدا من الأماكن الشديدة الجاذبية التي يجب تأملها على الكرة الأرضية كما أنه واحد من الأماكن التي تتسم بضرورة النظر للسلالات التي فيه من خلال نظرة فيها كرم ومرونة. هذا النهر البشري الذي يجري فيه يعتبر ملخصا ورمزا حيا لمسار لا يتوقف لتزاوج السلالات، على مدار أربعة قرون، بين أناس قادمين من ثلاثة مناطق في العالم اختلطت دماءهم ببعضهم في تكوينات شديدة التنوع وغابت عن كل هذا العقدة العنصرية.

تزداد حالة الاستغراب أيضاً بسبب هذه الرقعة العمرانية التي تتحرك داخلها هذه الكتلة البشرية الشديدة التنوع؛ ومن المعتاد أن نرى في الأقاليم الأكثر إثارة للغرابة في هذا الكوكب أن لها مركز جذب من الناحية الإثنية أو الثقافية أو الفنية؛ ففي أفريقيا أو آسيا نجد أن وجود سوق عادي أو سوق عائم يعادله تأصّل السكان الذين هم فيه وكذلك المناخ الملائم الذي يلفهم جميعا مثل القشرة التي تغطي الثمرة؛ وإذا ما رأينا جملا أو مئذنة أو هيكلا pagoda لوجدنا أنها رموز تشير إلى منظور بعيد؛ غير أن الذي يسترعى الانتباه هو القاسم

---

(١) تاريخ البرازيل، ريودي جانير و١٩٥٥ ص٩٦.

المشترك، في إطار التنوع البشري، من خلال الزي وأنماط الحياة في مدينة مثل القيروان أو بانكوك. تكتشف العيون بهذا الشكل إستامبا مقصوصة، بها مركز للتسرب لا يضع الضمير الإنساني في حرج. إلا أن الحالة الخاصة بالخليج لا يمكن الفرار منها، ففي وسط الحي البحري وما به من مشاهد فريدة تعلو الأبراج الرفيعة لكنيسة Conceiçao da Praia التي تحول دون قيام الرحّالة برصد هذا العالم الغريب الذي يمتد أمام ناظريه. يحدث الشيء نفسه في تلك المناطق الأكثر ارتيادا في المدينة والتي استحقت لأهميتها لإقامة دار للعبادة أو مبنى فخم.

تقدم لنا مدينة سلفادور الخليج مجموعة إنسانية شديدة التنوع بشكل لا يصدق لكنها موزعة بين شوارع وكنائس ذات الأسلوب الأوربي الصرف دون أن تكاد تكون هناك رابطة من المفترض أن تكون بين الناس الذين يتجولون وبين المكان، تستجيب أغلب دور العبادة، سواء بين الداخل أو الخارج، وسواء من حيث الغنى الزخرفي الذي عليه الأجزاء البارزة أو الواجهات مثلما هو الحال في التفاصيل الدقيقة في غرف حفظ المقدسات الرائعة، نقول لكافة قواعد فن البارّوك، وهو توجه بارّوكي ذو طابع شديد المدنية ذلك أن النوافذ الكبيرة الموجودة في الواجهة تقوم بدور إدخال الضوء إلى الكورو وتضفي عليها طابع القصور، كما أن الدهاليز والشرفات التي تفتح على البلاطة تضفي جوا من البهجة على المكان وكأنه صالة احتفالات تشبه ما عليه الحال في كثير من الكنائس في وسط أوربا - وهذا هو أساس التأثيرات القوية على العمارة البرتغالية خلال القرن الثامن عشر؛ كما أنها مختلفة عما عليه الجوّ العام الكنسي والديني رغم ما عليه من فخامة وثراء زخرفي بين الكنائس الأسبانوأمريكية.

وبالنسبة للكنائس الأكثر شهرة الموجودة في سلفادور، من النادر العثور على أشكال مرنة تضم سمة الطيبة والفنية التي يفترض وجودها من يقيمون الشعائر. يوجد داخل الكنيسة الرائعة التي يقدس فيها(سيد النهايات الطيبة) Senhor de Bomfin، لوحات تحمل صور معجزات، ومرايا والأسياج الحديدية والنذور؛ وكل ذلك موضوع بشكل فيه رقة ما عليه توزيع القطع في الصالونات الأمر الذي يجعلها تنسلخ عن التوجه التقي. إذا ما ألقينا نظرة على أية قرية من إقليم إكستريما دورا الأسباني أو إقليم أليتنجو Alentejo البرتغالي لوجدنا أن هناك توجها ديمقراطيا مقارنة بأغلب كنائس المدينة البرازيلية حيث

تبدو إذن من أبراجها الرشيقة ومن منصّاتها الراقية وكأنها قطع موسيقية لموزار من أجل التسلية التعليمية للسود. أن يسير المرء في شوارع سلفادور هو بمثابة العيش في توتر درامي على كافة الأصعدة. حيث يبدو الأمر وكأنه السير في سالزبورج التي يسكنها الأفارقة، أو كأننا نصغي أذّننا للموسيقى الممتعة لرباعية تعود للقرن الثامن عشر، بينما يدخل عبر الأذن الثاني قعقعة أوركسترا موسيقى الجاز.

ومع هذا ففي كلا المجموعتين الأوركستراليتين تناغم بشكل جيد. ورغم حداثة مباني ريو دي جانيو هناك عقلانية تبدو أنها فوق الفوارق السلالية، حيث نجد أن المكونات الأثنية للسكان تبدو أكثر اختلافا. وفوق الرُّبى العالية الفاصلة بين مجموعات ناطحات السحاب يعيش السود في عششهم وكأنهم سكان من كوكب آخر. هناك أيضاً مبان شديدة الحداثة وكذا بروليتاريا في سلفادور المدينة التي تعتبر الرابعة في البرازيل من حيث تعداد السكان، وهي مركز صناعي مهم إلا أن المنشآت الحديثة يبدو أنها تدخل في إطار حضري موحد وأنها بما عليه من ماض تاريخي تبدو وكأنها قادرة على أن تعكس التناقضات الاجتماعية والإثنية التي عليها سكانها.

تولى المصير التاريخي قولبة كل هذا، وهو ما ذهب بهؤلاء السكان الأقدمين إلى تلك المدينة المقامة على أرض غريبة، والمكونة ليس فقط من أفكار وأساليب بعيدة عن القارة الجديدة وإنما يدخل في ذلك المواد المستخدمة في البناء التي تم جلبها من العالم القديم. ومهما كانت درجة إخضاع الأفارقة فإنهم يحملون مسمى المحتلون الأوائل في باب المناداة بحقوقهم أمام المغامرين البيض وهذا ما يحدث في مقاطعات منطقة الأنديز. وبالنسبة للقطاع المطل على الأطلنطي في أمريكا الجنوبية نجد أن القارة لا تفوح منها تلك الرائحة الخاصة بأرضها من خلال السكان الأصليين، ولو كان ذلك في إطار الكتل الحضرية على الأقل، بحيث تكون هذه الرائحة قادرة على إزاحة اتهامات السكان الأصليين. وصل البيض والسود في آن معا وكأنهم شركاء في مهمة واحدة بغض النظر عن الاختلاف الشديد الذي يتعلق بدور كل فئة. قاموا معا ببناء تلك المدينة التي هي سلفادور دون هدم أو استخدام مبان قديمة، حيث قام فريق بالجهد البدني بينما قام فريق آخر بتقديم الأفكار والأساليب. لم يحدث صدام بين الطرفين لأن كل طرف كان يتحرك في إطار مختلف رغم اختلاط دماء هؤلاء بأولئك.

كانت القارة الجديدة تعتبر مسرحا يكاد يكون خاليا في القطاع المطل على المحيط الأطلنطي، حيث نجد أن سكانها من البدو كانوا مدعوين ليفسحوا مكانهم لهذه المجموعة الجديدة من السلالات الآتية من الشاطئ الآخر للمحيط. لم تزل تلك المسئوليات الأخلاقية المترتبة على عملية الانتقال هذه بالسرعة التي حدث فيه المشهد المأساوي؛ غير أن الأمر هو كما يحدث في التراجيديات الحقيقية وخاصة عندما يبلغ مداها ذلك الذي حدث بالنسبة للسكان الأصليين في المنطقة الاستوائية أو ما تحتها في أمريكا، حيث يبدو أنها تعكس fatum غامض يتجاوز البشر. فمن الجانب العنيف للقوانين البيولوجية نجد أن القارة الجديدة ليست أرض أحد no man's land مهيأة لدخول سكان من الشاطئ الآخر للأطلنطي.

لا تسهم هذه الاعتبارات في حقيقة الأمر في إيضاح ذلك الغموض الذي يتبدى أمام أي رحّالة يزور العاصمة القديمة للبرازيل. هناك اختلاط بين الأساليب والمناخ والسلالات والقارات في هذه المدينة وذلك ليكون هناك منتج اجتماعي شديد التعقيد. غير أن الأمر الأكثر غرابة هو أنه يتمخض عنه إيقاع عام يتمثل في الحيوية والمزاجية المرحة. أنه أمر نراه في الجو العام ويبدو أنه يكاد ينساب من البرج الشديد الرقي لإحدى الكنائس ومن الزليج الذي يعود إلى القرن الثامن عشر في "الجامعة" أكثر من تجليه في الحركات العفوية لفتاة أو قطعة القماش الملونة المعلقة على كتف أحد العمال الذين يتصببون عرقا في الميناء. ورغم الهدوء الاستوائي انطلاقاً من أحداث يوم عمل عادي يتبدى جنون السعادة والأخوية الذي يتفجر ينبوعه في الكرنفال.

III- سانتياجو دي تشيلي أو الأسرية

عندما يستعد الرحّالة، بعد التجربة البرازيلية، لعبور القارة بالطيران فوق جبال الأنديز، فإنه مصمم على مواجهة كافة أنواع المفاجآت والتضاريس الجغرافية، فمنطقة الأحراش Pampa هي منطقة مأهولة بعض الشيء بالمقارنة بالغابة إلا أن القلائل من السكان الذين يعيشون بها في تجمعات سكنية عبارة عن قرى، وكذا رعاة الخيل الموزعين هنا وهناك يزيد من الإحساس باللانهائية لهذه الرقعة التي تجتازها الطائرة على مدار ساعات تثير الملل، أما الرقع العمرانية الصغيرة الموجودة على الأرض فتزداد صغرا لتصبح ميكروسكوبية ذلك أن الطائرة تزداد ارتفاعا لتتجاوز سلسلة الجبال العالية Cordillera.

تتوجه النظرات متسائلة نحو الغرب بحثا عن الكتلة الزرقاء لذلك السياج الجبلي المتوقع بينما نجد في الأسفل منطقة الأحراش تسير في مشهدها الذي لا يتغير وكأنها تلح على الرحّالة بما عليه من شكل هندسي ذي بعدين وذلك حتى يتبدى البعد الثالث عندما تطل سلسلة جبال الأنديز على المشهَد بشكل مفاجئ ترأسها قمة أكونكاجوا Aconcagua التي يبلغ ارتفاعها سبعة آلاف متر.

إنها حجاب جغرافي غاية في الضخامة وستار يضم أمورا أرضية غامضة. هذه المرتفعات الشديدة الوعورة وذات القمم الجليدية والمشهد الذي لا زرع فيه ولا نبات تعطي الانطباع بأنه يتم الانتقال بين عالمين الأمر الذي يؤدي إلى مضاعفة درجة الاستغراب التي شعر بها المرء في أمريكا الأطلنطية. وسرعان ما يتوقد الفضول ذلك أن الستار بدأ يتم رفعه، بمعنى أن الطائرة أخذت مرحلة الهبوط، عبرت الطائرة هذه السلسلة الجبلية في غضون عشرين دقيقة وأخذت تتهيأ للهبوط بسرعة في سانتياجو الواقعة إلى جوار ذلك الحائط الضخم.

يتمثل الأمر في شكل انزلاق قوى على أحد جوانب الستار الشديد الانحدار الذي يسترد قمة ارتفاعاته الشاهقة في السماء بينما يقترب نحونا عمق الوادي المركزي لشيلي، ويتبدى أمام ناظري الرحالة المتهيئ ليكتشف في هذا الركن القصيّ من الكوكب - وهو الركن الذي حظي باسم أسباني للغاية هو "إكستريما دورا Extrema dura" - الذي يحده أكبر المحيطات وأعلى سلاسل الجبال؛ إنه فردوس غريب صنعته الطبيعة من خلال الهضاب والألوان الشديدة الغرابة والنباتات غير المعروفة... الخ.

ومع هذا، فإن أول شيء يمكن أن يلفت الانتباه هناك في الأسفل هو مجموعة من الأشجار تشبه أشجار الزيتون المعوجة، والكائنة أمام مصنع يبدو أنه يقوم بتكسير الحجارة العادية التي يتم قطعها من أي من الهضاب. وبعد مرور هنيهة نجد صنفا نباتيا آخر يتبدى في صورة صفوف من أشجار الحور الفاصلة بين الحقول المختلفة التي يتم ريّها مثلما هو الحال في أي منطقة من مناطق المزارع في حوض نهر إيرو بأسبانيا. هناك بيوت صغيرة متواضعة متناثرة تضم عدد الزراعة والأعمال الحقلية الأمر الذي يؤدي إلى القضاء على الآمال الجمالية المتعلقة بهذا الفردوس الأرضي الغامض، وتتلقى الآمال في هذا المقام ضربات أخرى هي أرباض سانتياجو.

تواصل الطائرة طيرانها ودورانها لتصبح مهيأة للهبوط وكذلك لتقدم للزائر فرصة يتخلى فيها عن خيالاته وأحلامه قبل أن تطأ قدماه الأرض. ثم تتولى الشوارع أمر القضاء المبرم على الشعور بالدهشة التي كان المرء مهيأ لها.

كلما ابتعد المسافر، الذي يستحثه الفضول، عن موطنه الأصلي تزداد نظرته حدة وكأنه يضع فوق عينيه منظاراً للرؤية من بعيد وذلك حتى يتمثل الأشياء في سياق ما هو مثير. وهنا نجد أن المساحات الشاسعة جغرافيا وكذا المدن الأمريكية تساعد في المقام الأول في مثل هذه الإطلالة السياحية؛ ولهذا فعندما يسير المرء في سانتياجو دي شيلي، وخاصة ذلك الرحالة القادم بعد رؤية المساحات الشاسعة في ريو دي جانيرو أو بوينوس أيرس سوف يعيش حالة صدمة مستمرة تواجهه من خلال واجهات المباني ذا الحواف الشديدة القرب من السطوح. والأمر هو أنه رغم أن المباني الحديثة في عاصمة شيلي تبدأ من الأرض مصحوبة ببوادر وجود عدة أدوار، فإن الأرض لا تسمح بذلك، أي بتطوير نظرية الأدوار

المتوقعة ويصبح المشهد وكأننا نرى ناطحات سحاب مبتورة وتكاد تكون على درجة الارتفاع التي عليها المنازل الأكثر تواضعا من تلك المشيدة خلال القرن التاسع عشر. الشوارع تتسم بأنها ضيقة بدرجة ملحوظة ومأهولة للغاية بالمارّة ومعنى هذا أن قرب الأشياء من نواظر الرحالة يجعله يتخلى عن رؤيته إلى ما هو أبعد من ذلك وأن تتحول النظرة إلى نظرة تقليدية أسرية وكأنه يتمشى في شوارع سرقسطة أو بلنسية.

وبالفعل نجد هناك في الجوار، أي على الأرصفة وعلى الأشجار التي زرعتها البلدية، ذلك التراب النمطي الذي نجده في تلك المدن الزراعية في شبه جزيرة أيبيريا، وعندما يعبر المرء إحدى النواصي كثيرا ما يصطدم بوجوه تبدو وكأنها معروفة من ذي قبل وربما كانت مألوفة، وكأنها وجوه لأحد الأقرباء الذي أتى من محافظة بعيدة ولا نكاد نراه إلا قليلا. البناءون هم كذلك من ذوي الوجوه المألوفة، ويضعون فوق رؤوسهم طاقيات ورقية مثل البناءين في مدريد وذلك اتقاء لأشعة الشمس الحارقة مثلما هو الحال في الهضبة الوسطى في إقليم قشتاله. وعندما يتعب المسافر من التجوال في الشوارع – وسرعان ما تلفظ الكنائس من داخلها ذلك الفضول – يجلس تحت الشجر على مقعد مستطيل كائن في الميدان الرئيسي وسرعان ما يشعر وهو يجلس بذلك الشعور التي تشعر بها الظهور المتعبة من عناق قوى تلاقيها بها تلك المقاعد المتواضعة الشائعة الانتشار في حدائق شبه جزيرة أيبيريا. كما تشبهها أيضاً في تلك اللمبات الموجودة في الأمام؛ كذا وبالنسبة لماسحي الأحذية الذين يأتون ويطلبون منكم تقديم خدماتهم وهم يحملون مقعدا مثل مقاعد الأطفال.

وبشكل لا إرادي تجري مراجعة الأشياء المعروفة، أي تلك الأشياء التي لا تكاد تُدْرَك من شدة معرفتنا بها. ولا يدركها في الأساس ذلك السائح الذي قطع آلاف الكيلومترات ويظن أنه يعيش إيقاع الحياة العادية. غير أنه لما لم يكن هناك ما يمكن فعله أكثر من ذلك في سانتياجو يسلط انتباهه على التفاصيل الأكثر بساطة والتي تتسم بأنها ذات جاذبية أكثر من الأمور المألوفة. كم من مرة بعد تُرى فيها تلك الطريقة في التراجع إلى الخلف من قبل ذلك الشخص المخالف في الرأي في تلك الدردشات ذات الطابع الريفي؟. وها هو ذلك الأتوبيس المتهالك الذي يجري أمام الكاتدرائية ويشهد شكله على عمره الذي يرجع إلى ما قبل الطوفان. ألا يتطلب الأمر، من أجل مواصلة السير، المهارة المعروفة للميكانيكيين من الناطقين بالأسبانية وليس ذلك لتصنيع محركات انفجارية بل الأمر هو أن

يمتد العمر الافتراضي لهذه المحركات إلى ما لا نهاية؟ وعندما نترك الميكانيكا والأنماط المتطورة للحياة الاجتماعية نجد كثرة الأطفال وسعادتهم الحيوية حيث ينزلق بعضهم فوق قطعة من الخشب مركبة فوق عجلات صغيرة من الحديد تحدث ضجيجا وجلبة تؤذي السمع. أين شوهد هذا ماعدا أي من عواصم المحافظات في شبه جزيرة أيبيريا؟

غير أن الأمر المثير للفضول هو أن أغلب وجوه الشبه التي تُرَى لا تبدو وكأنها موروث مباشر، أي أنها من بقايا العصر الاستعماري؛ فكل ما بقي من ذلك العصر لا يتجاوز الثلث الأخير من القرن الثامن عشر إذا ما كنا نتحدث عن الآثار، باستثناء كنيسة "سان فرانثيسكو" التي تحملت الزلازل والفيضانات المدمرة لنهر "مابوتشو" Mapocho. تُرى إذن سانتياجو اليوم على أنها شيدت في أغلب أجزائها بعد الاستقلال، إلا أنها تسير على خط تطور تلقائي يسير بشكل متواز مع كثير من المدائن في الحاضرة القديمة ويصل الأمر في هذا إلى التفاصيل الدقيقة؛ ولهذا فإن الطابع المتأسبن لسانتياجو دي شيلي يبرز بشكل أكبر مقارنة مما عليه الأمر في المدائن التاريخية لأمريكا، حيث نرى أن ما هو أسباني يتجلى وكأنه شكل من الأشكال التي بقيت رغم مرور الزمن أو تجمد على ما هو عليه وينتقل بكم إلى أزمنة بعيدة ليست هي أزمانكم. ونظرا لعدم وجود قاعدة تاريخية واضحة الملامح بالنسبة لشيلي فإن الطابع الأسباني للحياة يتسم بالأصالة والمعاصرة والحميمية، فلا شيء يثير إعجابكم سواء كانت الآثار أو الأشياء التي تثير الدهشة أو العبارات الكلاسيكية في اللغة أو أية إشارات يقوم بها أشخاص آخرون، كل شيء معروف لكم وشائع ويوحي وكأن المرء قد عاد إلى منزله.

هذا هو السبب الذي من أجله سرعان ما يصبح له أصدقاء في سانتياجو حيث يتأتى عن التعامل معهم نوع الرتابة الناجمة عن الثقة والمودة وكأننا نعرفهم ليس فقط في الجامعة أو أننا قمنا سويا برحلة بل نعرفهم في مرحلة الطفولة وهربت هذه الصورة من ذكرياتنا، ورغم هذا بقي أثر اللطف الذي لا يمحى. وهنا يمكن للدردشة في أحد المقاهي أن تمتد لساعات وساعات أي أنها تتجاوز حدود الزمن وتخرج عن أي إطار منطقي من خلال ذلك التبادل البسيط والشديد الحميمية، أي من خلال الدردشة وهي أفضل سمة ثقافية في العالم المتحدث بالأسبانية ولا زالت قائمة في الأراضي الشيلية في حماية اللامركزية الجغرافية وتظل طازجة، وتظل عقبرية لكنها أخذت تفقد مكانتها على أرض الحاضرة القديمة(أسبانيا).

ذهبت في إحدى الأمسيات – وكان من الضروري فعل ذلك – إلى حدائق "سانتالوثيا" الواقعة في منطقة هضبية خلف تحصين أقامه Valdivia . يتم الدخول إلى المكان من خلال باب ضخم شيد من الآجرّ الذي يتسم بخصوصية الحفاظ على واحد من التروس الموروثة عن الأسرة النمساوية . ويُؤدي المسار إلى ميدان صغير بالحديقة به مقاعد مستطيلة شيدت من السيراميك سيرا على هذا الأسلوب الإشبيلي الذي أسهم في نشره "المعرض الأيبيري الأمريكي" في كافة البلدان التي شاركت فيه . وفي وسط الميدان هناك تمثال لمن أسس المدينة وهو يتقلد اللباس الحربي armadura على طريقة الملوك القوط في كثير من الطرق في شبه جزيرة أيبيريا . وتحت التمثال هناك مركب صغير مكوّر كان يثير في النفس ميول الطفولة الدفينة .

وهناك جبال الأنديز بكتلتها الرهيبة في العمق ، وبذلك نجد تناوبا بين هذا وبين جمال الحديقة المليئة بالأطفال والأزواج ، ويمكن القول بأن كتلة الأنديز كانت تحميهم وتضمهم وتتبدى لا على أنها ستار واق من الأعاجيب الغريبة وغير المألوفة بل الأعاجيب الحميمة التي انتقلت إلى طرف قصيّ في العالم ووصلت إلى ركن عظيم في الظاهر لكنه إنساني وله طابع أسري حميم وصغير وكأنه نبضات قلب طفل .

IV- على متن قطار في الهضاب

من المزايا المختلفة للسفر بالطائرة هناك واحدة وهي أن هذا السفر يعتبر إعادة اكتشاف السفر على سطح الأرض ومزاياه على سبيل التقابل بين الوسيلتين. ومن الواضح أن القطار الصغير الذي يربط بين "لاباث" و"بوتوسي" Potosi يقوم بتحقيق ذلك الهدف. فالأرض وعرة والقطار يتسم بعدم القدرة الميكانيكية الجيدة وكذا الهواء الذي يحيط بهذه المنطقة الوعرة حيث يمر القطار والذي يشعر به المرء ليس فقط من خلال الرئتين بل من خلال غلاية القطار البخارية، وهذا كله يسهم في أن يكون القطار بطيئا للغاية.

لم يكن يهم أن يكونوا وضعوا أربعة قاطرات إثنتان في الأمام وأخريان في الخلف حتى يتمكن القطار من صعود هذا الوادي الوعر الذي توجد فيه "لاباث". ومن المنطقي أن هذا العدد المبالغ فيه طبقا للمنظور الأوربي يسهم في إضفاء الانطباع بأننا أمام لعبة مبتكرة تتمثل في هذا القطار؛ غير أنه حتى لو كانت القاطرات كبيرة وأكثر قوة لأصبح الانطباع الخاص عن القوة الميكانيكية مرتبطا بشكل نسبي بحجم المشهد. تمكن القطار من إثارة مشاعر عامة أو شعرية تتسم بالاستغراب بالنسبة للحقول المؤنسنة في أوربا لكن يا له من إحساس بالقوة يمكن أن يتاتى عنه هذا القطار السريع وهو يتحرك أمام تلك الكتلة الضخمة من الجبال، مع قمة إيمّاني Illemani، التي تصل إلى ستة آلاف وستمائة متر ارتفاعا!

تبدو مدينة "لاباث" الواقعة في قلب المنطقة الوطيئة التي تتدثر بها من الرياح الشديدة البرودة سواء القادمة من puma أو من المناطق الشديدة الانحدار وكأنها تضاريس إنسانية صغيرة لا تكاد تُحدث تغييرا على السلام الجيولوجي المُهَدِّد الذي هو المشهد الطبيعي؛ وتدخل في هذا أيضاً مجموعة النباتات الشجرية التي استكنت ولم تجرؤ على تسلق الحائط الشديد الوعورة والذي يعتبر بمثابة القاعدة لـPuma حيث تُرى وكأنها شيء

مصطنع. تأخذ أهمية المدينة وأشجارها في التضاؤل كلما زاد صعود القطار بصعوبة بين أشعة الشمس في المساء. ويمكن أيضاً أن يحدث أي انهيار أرضي أو نوع من السيول الهابطة والتي تضرب بقوة نسبية الكتلة الجبلية التي تولد فيها ويؤدي كل هذا إلى زوال عاصمة البلاد من الوجود.

ليس الأمر مجرد انطباع شخصي فبعد أن جرى تأسيس المدينة بقليل، عام ١٥٤٩م، شعر سكانها بالفزع من هذا المشهد الجيولوجي وفكروا في نقلها بالقرب من بحيرة تيتيكاكا Titicaca بشطآنها المليئة بالهنود، ولفعلوا ذلك منذ زمن، لولا أنهم قاموا على مدار أعوام سابقة باستخراج كميات كبيرة من الذهب من ذلك الوادي الضخم وهو وادي خوسافات Josafat الذي يوجد في شوكيابو Chuquiavo حيث تستقر مدينة لاباث؛ كما أن هناك سببا آخر وهو الأسطورة القائلة بأنه توجد تحت الجليد الموجود على قممها كنوز مهمة لأحد المعابد. إلا أن نهر الوادي الذي كان يضم جزيئات من الذهب كان يمثل تهديدا قائما للمدينة التي شعرت بالكرب للموقف الذي هي عليه حيث أعلنت عن نفسها أنها شديدة السلمية من خلال اسمها، ومن خلال هذا المنخفض الكبير انطلقت مياه بحيرة كبيرة صوب الأمازون، وهي بحيرة أكبر من تيتيكاكا، عندما جرى سحب ألسنة المناطق الجليدية، كما أنه في نهاية القرن الثامن عشر حاول الهندي توباك أمارو الرجل الذي كان على رأس تمرّد قام به السكان الأصليون أن تتكرر الظاهرة نفسها ولكن بطريقتهم وذلك بالقيام بإقامة سد في بداية لوادي ليقوم بعد ذلك بفتح الطريق أمام المياه المخزنة ويدمر المدينة التي شيدها الذين أتوا إلى المكان.

وعند الوصول على مستوى (المرتفع) puma ومع برودة هواء الليل، يكتسب القطار سرعة أكبر، وربما كان ذلك ملحوظا بشكل كبير في قلة جلبة الصوت عند الصعود واللطف في تواضعه المتكلف. وتحديدا بدت الحركة أكثر خفة عندما تخلص القطار في أورورو Oruro من الوحدات المخصصة لكوتشا بامبا Cochabamba المليئة عن آخرها بالمسافرين الذين ذهبوا ليقضوا في هذا الوادي الطيب احتفالية القديسين والموتى؛ لكن لم يتعد الأمر مجرد خيال فيما يتعلق بزيادة السرعة الناجمة عن الخيال العصبي الذي عليه المسافر الذي وصل إلى ارتفاع لا يكاد معه يداخله النوم.

كان إيقاع الانتقال والحركة الناجمة عن الحركة الليلية للقطار مصحوبا بالسهاد الذي عليه البركان أمر غير حقيقي بسبب تضاريس المشهد حيث كان من الممكن تأمله بشكل ممتع خلال الساعات الأولى من الصباح؛ هو عبارة عن مشهد باهت دون أن تكون له حدود في الأفق ودون أشجار أو صخور أو أية حدود مباشرة من أي نوع تتعلق بها العيون حتى يتولد الانطباع بالانتقال والحركة. فآفاق البصر تمتد أرض رطبة على مستوى واحد وقادرة على قتل أي نوع من الفضول وأي حركة، بحيث تحتقر كل هذا في السكون. كان القطار يمر بالقرن من بحيرة بوبو Poopé أي ذلك الوعاء الممتد، غير العميق وغير المتصل بالبحر حيث تمتد المياه التي تصبها بحيرة تيتيكاكا بعد مسار يمتد لثلاثمائة كيلومتر حتى تتبخر بفعل أشعة الشمس ويتأتى عنها نوع من السراب يزيد من الشعور باللاواقع الذي يشعر به المرء عند المرور بالمرتفع Puma. قبل هبوط الطائرة في مطار مدينة "لاباث" كانت تتبدى عن بعد الملاءات الضخمة المكونة من الملح في كل من كايباسا Caipasa وأيوني uyuni حيث تمتدان في القطاع الجنوبي الغربي للبحيرة وهي مناطق وطيئة ومستوية بشكل يزيد عن الحد الأمر الذي يحول دون وجود جليد، كما أنها مرتفعة وواسعة بشكل يزيد عن الحد لتكون ملاحّات، أضف إلى ذلك أنها كانت كبيرة في باب التمرد على نظام المستويات البصرية حيث لا تكاد البحيرة تترك مجالا لمشاهدة قطاع رفيع من مياهها. وفي الخلف هناك كتل سريعة التقلب ذات شكل بارّوكي ولون بنفسجي تبدو وكأنها تطفو أو مشدودة بفعل الجاذبية ولا ندري كيف يمكن تصنيفها، هل يمكن أن تصنف كجبال أو كسحب. غير أن الأمر الأكثر تحديدا في هذا المشهد الضخم هو تلك الكتل الرأسية التي ترسم من خلال رقابها الطويلة السنة اللهب التي ترعى على شواطئ الغابة وهي ذات شكل تجريدي وغامضة وكأنها رسومات تعود إلى العصر الحجري الحديث.

ولما كان بقي من الوقت يوم كامل حتى الوصول إلى بوتوسي يجد الرّحالة نفسه وقد تسلحت بالصبر من أجل الكفاح ضد مرور الوقت، بمعنى أن يترك له حرية الحركة. وهنا من الأجدر السكون حتى لا يتعب المرء جسده الذي يتعرض بشكل دائم لتجربة الصعود إلى ارتفاع قدره أربعة آلاف متر ويصل الأمر في بعض المناطق إلى خمسة آلاف متر، كما أن النشاط بأكمله يتركز طوال ساعات وساعات في النظر والتأمل ويصحب ذلك حركة غامضة للخيال التي يشجع عليها المشهد القائم.

هناك مسطحات ضخمة من الأراضي ذات اللون الأبيض، وغير المزروعة، لكن تنمو فيها نباتات عبارة عن عشب ذي لون أخضر باهت يميل إلى الصفرة، ألا وهو hicho الذي يستخدم في رعي حيوان اللاما Guanaco الوحشي واللامة والألباكا alpaca. وأحيانا ما تظهر زراعات قليلة معلنة بذلك عن وجود قرية مع وجود فجوات لا تكاد تحدث أي خدش على مستوى الأرض حيث يتم إنتاج الـ quimoca والـ oca وكذا، على سبيل الخصوص، الـ Papa التي يتم تجفيفها لتصبح بعد ذلك عبارة عن chuno نشا البطاطس الذي هو أساس غذاء السكان الأصليين. يتجلى شظف العيش في عدم التناغم القائم بين الحقول الشاسعة المزروعة وبين منازل القرى التي ترعاها آخذين في الحسبان طبيعة الأرض.

غير أن عملية البقاء في حدود الحد الأدنى هذه، طبقا للظروف المناخية الشديدة الصعوبة، لها جدارتها لست أدري كيف كما أن لها أفق موعود. وتحديداً فإن ذلك عندما يحدث بعيدا عن التقنية السائدة وبمبعد عن البلاد التي تزدهر فيها فإنه قد درأ عن نفسه مخاطرها. الإنسان هنا يحظى بنوع من ضمان البقاء أمام المخاطر المتزايدة التي يتعرض لها من قبل الجماعات الأخرى الأكثر تقدما. كتب توينبي يقول وهو يتجول في الأماكن المرتفعة في البيرو: «إذا ما أقدم العالم المتحضر على تدمير ذاته في بعض الأحيان إعمالا لتطبيقات التكنولوجيا والجنون والإثم فإن هؤلاء الفلاحين المرتبطين بالأرض سوف يستمرون في حياتهم وتناسلهم حتى يعيدوا إعمار الأرض من جديد عندما تنتهي موجة التدمير المسموحة. هل ربما يكفي ألف عام حتى يتمكن الروّاد من الفلاحين المقيمين في جنوب كندا الفرنسية من الالتقاء بالرواد من الفلاحين الهنود من الكيوتشو الذين هم في الشمال وموجودين بين أطلال ميامي أو هيوستن، وفي ذلك اليوم سوف نجد أن العالم الجديد قد أعيد تسكينه»[1].

وكنوع من التكريم لهذه الحالة الفريدة التي يواجهها الإنسان والتي تمثلها القرى الواقعة في المناطق المنحدرة، يتوقف القطار عند هذه القرى. ومع هذا يصعد إلى عربات

---

(1) Arnold J. Toynbee: East to West. A Jurney round the World, London, 1958, page 15.

القطار أو ينزل منها بعض الهنود بملابسهم الأصيلة، وترتدي النساء القبعات وتحملن أمتعتهن الشخصية على ظهرهن حيث أحيانا ما تكون هناك طفلة صغيرة مسالمة للغاية مثل والدتها. البيوت مشيدة من الطوب اللبن دون دهان وغير مرتفعة كما أن الحواس لا تكاد تلحظ وجودهم اللهم إلا من خلال الألوان الزاهية وصوت بعض سيارات النقل التي تسير في طرق لا تكاد تكون موجودة وتقترب من محطة القطار. تتوارى أيضاً أسماء القرى المكتوبة بحروف متحركة مفتوحة مثل جالي كامبا Galicampa وتشاياباتا Challapata وبانثا. . Panza.

ظل الأفق في زواله على مدار العديد من الكيلومترات في ذلك الشريط الحريري لبحيرة بوبو Poopo حيث يلتقط البصر المرة تلو الأخرى، وكأنه غريق، تلك الإشارات المحددة التي ترسم في الأفق البروفيلات العليا لحيوانات اللاما Uamas؛ لكن إذا ما رؤى عن قرب سوف تحدث حالة الحيرة نفسها. أين إذن يمكن تصنيف اللاما؟ أطلق الأسبان عليها خراف جبال الأنديز، غير أنها تشبه الجمل أيضاً وليس هذا بقليل وبها شبه بالحمار وكذا بالحية من خلال رقبتها الطويلة التي تنتهي برأس صغيرة على شكل زائدة دودية وتطل عليكم بنظرة بلهاء متحدية.

من الصعب كذلك التمييز بين اللاما في ألباكاس alpacas واللامة الوحشية guanacos ونوع آخر منها يطلق عليه vicunas، وكلها من "السلالات نفسها" طبقا لما يقوله الكثير من كتّاب الحوليات الذين قاموا بدور الباحثين في شأن الطبيعة وانتهى بهم الأمر بتطبيق معايير تمييز، ذات طابع إحصائي، على تلك القطعان التي وجدوها في أراضي البيرو. وحتى القرن الثامن عشر نجد أن من يقومون بتصنيع القبعات من جلد اللامة الوحشية vicuna غالبا ما يقعون في خطأ تسميتها باللاما Uamas والباكاس Alpacas ويطالبون على هذا الأساس أن يتسلموا جلد ذلك الحيوان الظريف والذي كان له قبل أن يتم استئصاله.

نذهب إلى أبعد من هذا بالتساؤل لم كل هذا التصنيف والتبويب والاستخدام المنطقي وذكر الأحداث التاريخية بشكل محدد في تلك الأصقاع؟ الأمر الذي يسير بوتيرة جيدة في هذا التبت الأمريكي يسير على النحو الذي عليه التبت الآسيوي وهو العزلة

الصوفية والفكر الميتافيزيقي والاعتقاد بتناسخ الأرواح - وهذه جوانب غير جوهرية ومثيرة للحيرة في ظاهرها - وحلول الأشياء.

ومع هذا كانت تلك الأرض واحدة من المسارح الأولي التي جرى فوقها هذا التوسع الكوني للروح الفاوستية faustico التي عليها الغرب حيث قامت هنا بواحدة من المهام العقلية المهمة عن إرادة واختيار. هذه الأرض التي ترتفع من خلال أكبر النتوءات الموجودة على ظهر الكرة الأرضية كانت تضم تحت جلدها الرقيق والحسّاس والأشقر الضارب للصفرة كنوزا مادية لا تصدق عبارة عن معادن ثمينة التي بمجرد استخراجها من بطن هذه الأرض، يتم نقلها على ظهر حيوانات اللاما الغير وحشية لتصل بعد عدة شهور إلى أشبيليه، ثم تبدأ من هناك في الانتشار في كافة الأسواق الأوربية ويتضاعف عددها، وتحدث، بهذا الشكل، ثورة اقتصادية تفتح الباب أمام الرأسمالية الحديثة.

يا له من جهد كبير في العمل على أن يصل إلى أمبريس Amberes أو جنيف رطل من الفضة! أول شيء هو استخراج المعدن من ارتفاع يصل إلى أربعة آلاف وخمسمائة متر، وهنا تدخل عناصر كثيرة هي العمّال وحيوانات النقل والخشب والعدّة المستخدمة والكثير من الغذاء لتلبية حاجات الكثير من الأفراد الذين ينتقلون لمسافة مئات الكيلومترات. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة النقل إلى المحيط الباسفيكي عبر أراضي شديدة الوعورة حتى الوصول إلى ميناء أريكة Arica؛ ثم تبدأ الرحلة الأولى بالمركب صوب البرزخ Istmo، كما أن النقل يكون عبر الأرض والنهر حتى الوصول إلى بلدة "Nombre de Dios" أو "بورتوبيلو" Portobelo، حيث أنها محطة رئيسية في "قرطاجنة الهند" ثم تستمر الرحلة بحرا صوب أشبيليه في شكل رتل تقليدي من المراكب، وكان ذلك بدأ منذ عام ١٥٦٤م تحميه مراكب حربية ضد مراكب القراصنة؛ وهناك من الناس من لا زال يؤمن بالمقولة التقليدية المعتادة التي تشير إلى عدم قدرة السلت الأيبيريين على التنظيم العقلاني والتوجه نحو الحداثة في المسألة الاقتصادية، وهنا عليه أن يطوف بتلك الأقاليم غير المأهولة.

كما أن عليه أن يطوف بها ذلك الذي يعتقد أن التنظيم النفعي والعقلاني يتسم بأنه نشاط خاص ونوعي وجديد ظهر أمام الإنسان الحديث بمثابة أنه عضو لا مناص منه، في الوقت الذي تسند إليه فيه مهام أقل عملية هي أصلا من سمات الأداء لدى إنسان العصور

الوسطى. لم يكن على رجال المناجم والحكام الذين كانوا يجولون في أعالي البيرو أن يتخلوا عن السياق الذين يعيشون فيه وهو الاتصال بالقديسين ورجال اللاهوت الأسبان، ذلك أن الميل القوي إلى ما بعد الحياة الدنيا كان حافزا لصعود هذه المناطق الوعرة التي تتجاوز أي شيء في العالم؛ كما أن الأصول المتبعة في الهضاب الأيبيرية التي تنحو إلى التصوف جعل من عملية صعود تلك التضاريس وسكنى الهضاب والمرتفعات في الأنديز أمرا ممكنا.

ليس الأمر مجرد تكهنات بل هناك علاقة مباشرة شديدة الوضوح، وفي الوقت ذاته نجد القديسة تيرسا تصعد إلى جبل الكرمل، واصل أخوتها الأربعة صعود "قمة الأنديز"؛ وبالنسبة للأخ الأكبر، إيرناندو، نجده وقد برز في احتلال Quijos كيخوس، ذلك أنه عندما حَمِيَ وطيس المعركة قام هو وجنود آخرون بالصعود على مرتفع عال للسيطرة على منطقة كانتَ في حوزة الهنود وتمكن الأسبان من خوض المخاطرة والسيطرة عليها وهناك برزت كثيرا عظمة الكابتن إيرناندو دي أومادا "H. de Ahumada".

كتب أغسطين، عام ١٥٨٢م، وهو في كيتو، إلى نيابة الملك في البيرو يطلب عونه بغية الخروج برفقة مائة رجل "للسيطرة على محافظة شهدها بعض سكان الجوار وقالوا عنها أنها غنية بالسكان والذهب الذي شوهد وجوده هناك، ومن خلال ما تمت رؤيته ومشاهدته يعتقد أنها بلدة Dorado التي جرى العمل على السيطرة عليها عدة مرات وراح ضحية هذه المحاولات ألف قائد وجندي، وأن هذه البلدة شديدة القرب من "أبيلا" التي تعتبر بلدة تابعة لهذا الأقليم والتي تبعد عن المكان الذي نحن فيه مسافة سير لثمانية أيام"[1].

كانت هذه البلدة، الدورادو، التي حلم بها رودريجو شقيق تيريسا حيث شاركها تلك الرغبة أثناء الطفولة في الاستشهاد وحملات الفروسية، شديدة الخطورة. وبعد السير عبر أراضي "نهر الفضة" R. de la plata عبر مرتفعات الأنديز ليموت وهو يحارب "الأراوكان" araucanos عام ١٥٥٧م أي العام نفسه التي بلغت فيها القديسة نضجها وسلامها الروحي.

---

(1) Ruben vargas ugarte "مخطوطات بيروائية في مكتبات في الخارج" ليما ١٩٣٥م الجزء الأول ص٢٤٥.

يعتبر خوسيه دي أكوستا، من جماعة اليسوعيين، واحدا من أشهر الرحالة إلى أعالي البيرو وهو مؤلف كتاب عنوانه "التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند" الذي قال عنه فون هومبولت في تلك الأيام بأنه "بغض النظر عن الاعتبارات الخاصة بالرياضيات فإننا نجد فيه أسس ما نطلق عليه اليوم الجغرافيا الفيزيائية". ومن البدهي أن هذا الكتاب جرت كتابته على يد من ألف أيضا كتابا في التبشير، وهو كتاب يعتبر نموذجا في بابه وأن كلا الكتابين يعطيان الانطباع بأنهما كتبا أو تم تصوّرهما، بروح غاز، وروح وثنية وكثير من الظواهر الطبيعية.

يعتبر كتاب الأب أكوستا رفيقا جيدا في الرحلة إلى بلدة بوتوسي، والأسباب في ذلك كثيرة نذكر منها أن هذا الكتاب يضم بين دفتيه أول محاولة للتوصل إلى تفسير منطقي لظاهرة تسمى soroche أو "الشعور السيئ في المناطق المرتفعة" كانت ظاهرة جديدة لم يتطرق إليها كل من أرسطو وبلينيو، وربما ذلك لأنهما كانا، مثل الشعراء والمتخصصين في علم الميتولوجيا من القدماء، في حيرة من الأمر ومعهما عدد لا بأس به من آباء الكنيسة التي أضفت الطابع المسيحي على المفهوم الأولمبي للسعادة. وحتى ذلك الحين كان "فراى بارتولوميه دي لاس كاساس" يعتقد أن الفردوس كان موجودا في الإقليم الثالث للهواء وأنه يتسم بالهدوء والرقة" وأنه "فوق الرياح والأمطار" وأنه يقف في الدراجات العليا التي تم بلوغها من خلال مياه الطوفان[1]، وذلك دون إدخال أية تغيرات في المفهوم الأولمبي المسيحي اللهم إلا إسقاط ذلك المفهوم على العالم الجديد.

لم يتأخر سبر أغوار البيرو في هدم ذلك المفهوم ذلك أنهم عندما كانوا يعبرون المناطق المرتفعة في جبال الأنديز والتي كانت ضعف ارتفاع مثيلاتها في أوربا، كان الوضع الذي عليه الرحّالة كان بعيدا عن تلك الصورة التي كان ينتظر أن تكون فروسية. وقد خَبَرَ ذلك الأب أكوستا ووصفه لنا بشكل دقيق عندما عبر سلسلة بارياكاكا pariacaca، ولحق الخط يؤكد "أنه لو استمر ذلك أكثر مما كان عليه لكان الموت أمر محققا". كان موتا غريبا ناجمًا لا عن تحطم الجسد بل العكس هو أنه ناجم عن الإعلاء من شأن الجسد نظرا لخفة الهواء الذي كان يتم استنشاقه.

---

(1) Ruben vargas ugarte "مخطوطات بيروانية في مكتبات في الخارج" ليما ١٩٣٥م، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

ولما كان رجلا روحيا فإن ابن الأقاليم هذا كان يؤمن كثيرا بالهواء والرياح حيث خصص لهما جزءا كبيرا من الفصل الذي كتبه عن العناصر في كتابه "تاريخ . . . " . كتب الأب أكوستا يقول[١] : "يدخل إلى أحشائنا وفي كل لحظة يزور القلب وبهذا يطبع عليه سماته ، فإذا ما كان هواء فاسدا فهو قاتل ، أما إذا كان صحيا فإنه ينشط القوى . وفي نهاية المطاف يمكن أن نقول أن الهواء فقط هو كان مناحي الحياة للبشر" . الهواء إذن هو عنصر شديد التغير ويتضمن الكثير من الأسرار ، ويتذكر الأب أكوستا ، في هذا المقام العبادة التي قالها القديس خوان spiritus ubi vult spirat . كما أنه من بين كافة أنواع الهواء نجد الهواء الخاص بالمناطق الشاهقة الارتفاع في الأنديز يتسم بالخفة وبالتالي لا يكاد يُحسّ به أو بدخوله إلى الجسم" بمعنى أنه "يمر بالأحشاء" ويحدث أثره على كروب القلب" .

و "كروب القلب" التي يتم الشعور بها في مرتفعات الأنديز والتي ظل تأثيرها على مدار حياة رجل الجماعة اليسوعية[٢] إنما هي ظاهرة يتم الشعور بها في كافة الأنحاء باستخدام مصطلحات يبدو أنها مأخوذة من كتاب للقديسة تيريسا التي كانت تعني بشدة بكل ما يحدث لأخوتها في مساراتهم في العالم الجديد خاصة وأنها كانت شديدة التأثر بموت رودريجو ، الأمر الذي جعل أحلامه في الطفولة حقيقة بعد ذلك "لقد مات شهيدا إذ مات دفاعا عن الدين" .

سلط ثربانتس نظراته هو الآخر على المرتفعات في الأنديز ، ما الذي كان يمكن أن يحدث لدون كيخوته لو كان قد حصل على شارة القاضي في مدينة لاباث وهي التي كان يطلبها بشغف؟ غير أننا عندما ننظر إلى الكيفية التي جاءت عليها كتابة رواية دون كيخوته لوجدنا أنها لا تمت إلا بصلة واهية للمغامرة الأمريكية . وهذا ما كان يفكر فيه شخوص هذه المغامرة عندما تمكنوا ، على ما يبدو ، من الحصول على جزء مهم من الطبعة الأولى لكتاب ثربانتس .

---

(١) تاريخ الهند الغربية ، المجلد الأول الفصل CXLV في "الأعمال المختارة لفراى بارتولوميه دي لاس كاساس" B.A.E . ، مدريد ١٩٥٤ ص٥٢ .

(٢) أشار إلى ذلك سلفادور دي مادارياجا في "إزدهار الأمبراطورية الأسبانية في أمريكا" الطبعة الثانية ، بوينوس أيرس ، ١٩٥٩م ص١٣٩ .

V- الصعود إلى بوتوسي Potosi

تكاد الحقول التي يمر منها القطار تكون صحراء جرداء بمجرد مغادرة المحطة؛ لم تعد هناك هذه الموجات من الهنود التي كانت من سمات عصر نيابة الملك، حيث كانت الطرق آنذاك، طبقا لما يقوله أحد كتّاب الحوليات، "تبدو وكأنها مغطاة بالبشر وكأن المملكة تتنتقل من مكان لآخر". هناك سُبْع الهنود يدفعون الضرائب و يقطنون في منطقة شاسعة محيطة بمدينة بوتوسي، والتي تصل من الناحية الشمالية إلى كوثكو Cuzco في البيرو المعاصرة، ومن الناحية الجنوبية حتى تاريخا Tarija بالقرب من الحدود الأرجنتينية؛ وكان الهنود يأتون إلى هذه المنطقة الوعرة برفقة أسرهم أثناء تلك الفترة التي كان فيها استغلال المناجم هناك على أشده، ووصل الأمر بتعداد السكان الذين يتم انتقالهم إلى أربعين ألف فرد في العام.

هناك أحد شهود العيان الذي وصف بدقة تلك الرحلة البطيئة التي يقوم بها الهنود من محافظة تشوكيتو Chuquito، حيث يصعدون كل عام إلى تلك المنطقة المرتفعة: "كان كل هؤلاء يذهبون إلى المكان بشكل منتظم تصحبهم زوجاتهم وأبناؤهم وعندما يراهم المرء مرتين وهم يصعدون، يمكنني القول بأن إجمالي العدد سبعة آلاف؛ وكان كل هندي من هؤلاء يصحب ما لا يقل عن سبعة خراف أو ثمانية إضافة إلى بعض حيوانات اللاما paco من الذكر أو الأنثى للطعام؛ هناك آخرون ممن هم أكثر رغدا يحملون معهم ثلاثين أو اربعين خروفا، وهؤلاء كانوا يحملون معهم غذاءهم المكوّن من الذرة ونشا البطاطس chuno وبطاطينهم إضافة إلى حصائر لاتقاء البرد القارس هناك ذلك أنهم دائما ما ينامون في العراء. . . وعلى بعد مائة فرسخ نجدهم يستغرقون شهرين في هذه الرحلة إذ لا يمكنهم أن يجعلوا رؤوس القطعان التي ترافقهم تسير بسرعة وكذلك أبناءهم الصغار الذين كانوا

يمشون وأعمارهم تتراوح بين الخامسة والسادسة "[1]. كما نقرأ في مصدر يرجع إلى نهاية القرن الثامن عشر يتعلق بالهنود الميتاي Mitayos في إقليم تيتيكاكا أن ما يفعله هؤلاء الناس شبيه بما يقوم به "الروبيان" ذلك أن هذا الأخير يستهلك ما هو مزروع أينما مرّ، بينما أولئك يعيشون على القطعان بذبح الأبقار والخرّاف للتغذية ولا يرحمون اللاما المملحة على أساس أنهم خدم الملك . . ".

وفي هذه الحالة فإن الملك الكاثوليكي، كان كما هي العادة بالنسبة لملوك كثيرين، الوريث المباشر لإمبراطورة كوثكو Cuzco، وبالتالي كان يحظى بهذا العمل الجماعي الذي كان يقوم به الفلاحون من خلال الاقتراع على العمل بالسخرة وكان يحظى بشبكة رائعة من الطرق الضرورية للحفاظ على إمبراطورية غازية مترامية الأطراف. وهنا يتحدث كتاب الحوليات في البيرو عن هذه الطرق وخاصة الفارس بدرر ثيثا دي ليون الذي طاف بالبلاد بعد إحلال السلام بها مباشرة ووصف جزءا مهما من الطريق الرئيسي الذي كان يبدأ في كيتو Quito ويمر بكوثوكو ويعبر المرتفعات البوليفية ثم يهبط إلى توكومان Tucumán لتكون النهاية في شيلي. كان طول الطريق ألف ومائتي فرسخ وكان فيه أماكن للراحة أو قصور كل ثلاثة أو أربعة فراسخ وكانت كل هذه المباني معدة جيداً. ويمكن مقارنة هذا الطريق بالطريق الذي أقامه الرومان والذي نطلق عليه في إسبانيا "طريق الفضة"[2].

يسير شريط السكك الحديدية موازيا لذلك الطريق حتى محطة "ريو مولاتو" R. Mulato ثم ينحرف من هناك متجها صوب بوتوسي، ثم يترك خط السكك الحديدية لرافقه، إذ من خلال بلدة توبيثا Tupiza يتصل ببلدة Quiaca وعندها مع شبكة السكك الحديدة الأرجينيتية. إنه الاتصال الأكثر قصرا بين أعالي البيرو و القارة القديمة من خلال بوينوس أيرس، ولقد قام الأسبان باستكشاف هذا الطريق منذ وقت مبكر. كانت أول حملة انتقلت من البيرو صوب "ريو دي لابلاتا"، لمجرد إنهاء الصراعات التي كانت بين

---

(١) كونوكلوروكوربو: قصة شاطر العميان السائدين (الجزء الثاني، الفصل الخامس عشر)، في "العلاقات التاريخية الأدبية في أمريكا الجنوبية" B.A.E. مدريد ١٩٥٩م ص٣٥٤.

(٢) بدرو ثيثا دي ليون "حولية البيرو، الفصل الحادي عشر" مؤرخون أوليون للهند" الجزء الثاني B.A.B. مدريد ١٩٤٧م، ص٣٩٣.

أنصار ألماجرو وأنصار بيثارّو. وكانت هذه الحملة مكونة من الكابتن دييجو دي روخاس وفيليبي جوترث ونيكولاس دي إيريديا حيث استطاعت الوصول إلى الحصن المقام إلى جوار النهر الكبير على يد سباستيان كابوتو، لكن دون وجود إشارات على وجود سكان "لما كان دييجو دي روخاس قد مات بسبب قذيفة عبارة عن سهم مسموم وجهه إليه الهنود، وبعد ذلك قام فرانثيسكو دي مندوثا بإلقاء القبض على فيليبي جوتيرث وأمره بالعودة إلى البيرو وسط مخاطر شديدة، كما أن فرانثيسكو دي مندوثا نفسه توفى عندما عاد بعد اكتشاف النهر، وتحديدا توفى مع قائده الميداني روى سانشيث دي إينوخوسا، فمن خلال نيكولاس دي إيريديا لم يتم اكتشاف تلك الأجزاء بالكامل، وذلك لشغف بعضهم لبعض، الأمر الذي جعلهم يعودون إلى البيرو[(١)].

كان من الضروري استغلال مناجم بوتوسي عام ١٥٤٥م وذلك حتى يتم تشغيل الطريق المهجور، غير أن إعادة التشغيل كان يجب أن تكون بقوة غير معهودة في إطار اقتصاد طبيعي مثلما كان عليه الإنك Incas، والسبب في ذلك يكمن في الأساس في عدم معرفة العجلة وأحصنة الجرّ. لم تكن طرق الاتصال مصممة للنقل التجاري أو انتقال الأعداد الغفيرة بل لانتقال الصفوة الإدارية وكذا المبعوثين الجوّالين الذين كانوا ضرورة قصوى لاستمرار الأداء في إمبراطورية ضخمة كانت تجهل الكتابة. كما أن السخرة كانت قليلة على زمن حضارة الإنك الأمر الذي حال دون حدوث تبعثر للسكان بل كان هناك انتقال مؤقت إلى أقاليم مجاورة؛ بينما كان الأمر بالنسبة للسبعة آلاف مسافر الذين كانوا يأتون كل عام إلى بوتوسي من محافظة تشوكيتو Chuquito بناء على السخرة التي تفرضها نيابة الملك كان هناك ثلثهم هم الذين يعودون إلى منازلهم.

لم يتأخر الأوربيون في إحداث الخلل على موروث الإنك حيث كان يحدوهم الحسّ الديناميكي والقوى للعمل في المناجم، فبعد سنوات قليلة من استغلال مناجم بوتوسى أخذت تتحرك قوافل من التجار انطلاقا من بوينوس أيرس مرورا بتوكومان؛ وكانت هذه القوافل تحمل إلى هذا المقصد الجديد للتجارة الدولية مختلف أنواع البضائع الآتية من مناطق مختلفة من العالم سواء كان ذلك بطريقة مشروعة أو غير مشروعة: هناك الأغذية والشمع

---

(١) بدرو ثيثا دي ليون. العمل المشار إليه سابقا، الفصل CVII، الطبعة المشار إليها، ص٤٤٨.

لإضفاء المناجم والبغال والخيل من قرطبة والعبيد الهنود من جنوب شيلي والسود الذين كان البرتغاليون يقومون ببيعهم والمنسوجات الأوربية والصينية، وبمرور الوقت ظهرت تجارة الزئبق من القارة العجوز عندما انتهى ما كان في Huanacavelica في البيرو.

وفي مقابل هذا التيار التجاري كان هناك تيار آخر خفيّ من العملة ينطلق من المرتفعات العالية حتى بوتوسي. نعرف أن هناك ما يقرب من مليون بيزو كانت تهبط كل عام بشكل سرّي صوب ريو دي لابلاتا، وهو مبلغ مهم للغاية إذا ما وضعنا في الحسبان أن الإنتاج الرسمي من مناجم هذه المنطقة المرتفعة Cerro خلال الفترة من عام ١٥٥٦م حتى ١٧٨٣م وصل إلى ١٦١ مليون بيزو تلقاها التاج إضافة إلى ٨٢٠ مليون بيزو تلقاها رجال المناجم الأمر الذي يعني أن الناتج السنوي كان عبارة عن أربعة ملايين. إذن نجد أن إجمالي اقتصاد إقليم لابلاتا يدور حول هذا النشاط الخاص بالتهريب وهو نشاط كان ذا روابط قوية نشأت بين بوتوسي وبوينوس أيرس، وعندما قامت النيابة الجديدة للملك عام ١٧٧٦م في ريو دي لابلاتا ضُمَّ إليها إقليم أعالي البيرو وجرى انتزاعه من نيابة الملك القديمة القائمة في ليما.

نتوفر على إستامبا (صورة) حية لهذا الطريق لكن هذه الصورة ترتبط به – للأسف – عندما أخذت تتهاوى صورته؛ نجد هذه الصورة في كتاب "شاطر العميان السائرين" الذي نشر عام ١٧٦١م باسم مستعار هو concolorcorvo. مؤلف هذا الكتاب هو السيد ألونسو كاريّو دي لا بانديرا المولود في بلدة خيخون والمعين على وظيفة الزائر المشرف Comisìonado visitador بغية إعادة تنظيم البريد من بوينوس أيرس حتى ليما، كما أنه في الوقت ذاته واحد من الأدباء الكلاسيكيين في باب الأدب المنتج فى عصر نيابة الملوك.

تعتبر شخصية السيد ألونسو مختلفة بشكل واضح عن سابقيه من أوائل الأوربيين الذين مرّوا بهذا الطريق، ومنهم دييجودي روخاس وقادة آخرون؛ كما أنه يختلف عن صورة أول دليل مرشد لنا في الأراضي البيروانية وهو بدرو ثيثا دي ليون. أصبحت لمسة الفكاهة التي عليها "الشاطر" الذي عاش خلال القرن الثامن عشر لاذعة أكثر وأكثر تحررا مقارنة بقصص الشطار المعروفة؛ كما أن الكتاب يتوفر على ما هو تقرير عن موظف عن عصر النهضة، وأيضا عن بايدكر Baedecker، كما تغيرت أيضاً ميول وتوجهات

المؤلف؛ فرغم أن السيد ألونسو عاش وتزوج في ليما نجده يكشف لنا عن نفسه على صفحات كتابه في أنه يتجاوز حدود نسبته إلى البيرو وأنه رجل مناجم، بمعنى أنه أرجنتيني أكثر ومربي ماشية. ارتبط قلبه بمحافظة توكومان الواسعة بأراضيها الخصبة وبأنها خلاء وأنها واعدة ومنها يسافر إلى المناجم سنويا ما يقرب من خمسين ألف بغلة إلى أعالي البيرو رغم انحطاط الإنتاج في المناجم وذلك لتقضي هذه الحيوانات سريعا في الطرائق الوعرة في الأنديز بينما يشفق عليها كثيرا المشرف على البريد في هذه الأصقاع.

قام هو نفسه بتقديم الصورة التي رسمها، والتي تتسم بأنها ترجع إلى القرن الثامن عشر، وأنه تنقل في أصقاع "ريو مولاتو R. Mulato" وأن هناك الكثير من ملامح الصوف الخشن الهندي Sempiterno لا زالت قائمة، إضافة إلى الأحذية الإنجليزية القوية كان لديه دواسّات صنعت في أستورياس من خشب قوي ولها غطاء حديدي حيث يضع فيها قدمه حتى العقب ويحفظ نفسه من أية رطوبة، وعلى هذا خرج معهم من بوينوس أيرس ووصل إلى ليما على كرسي له مقعدة قوية للغاية، دون أن يكون لديه فراء أو أي شيء آخر يتقي به البرد؛ كما لم يستخدم على طول الطريق أية عباءات Poncho أو دثار أو قبوا حاميا Cabriolé أو قفازات أو شماسي، لكنه كان يسير وهو ملتحف جيدا من الداخل. وكان يقول إن ما عدا ذلك كان معطّلا"[١].

اتضح أن ذلك هو في حقيقة الأمر برهان جيد على الوضع ذلك أن المسافة الفاصلة بين ليما وبوينوس أيرس تبلغ ألف فرسخ.

أما بالنسبة لنا نحن المسافرون في القطار صوب بوتوسي فالأمر أفضل من الحالة السابقة، إلا أن انتقالنا ليس افضل بكثير مما كان عليه طاقم الخيل لديه وخاصة عند صعود المنحدرات الوعرة المؤدية إلى ممر الكوندور Cóndor، الذي يقع على ارتفاع خمسة آلاف متر، وهو النقطة الأعلى التي يبلغها القطار في عالمنا هذا. تئن الماكينة وهي تجر الوحدات القليلة في فضاءات جرداء، فلا يكاد المرء يسمع صوت شلال أو همهمة جدول مياه. غير أن الذي يوجد في الجزء العلوي هو طبقة مهلهلة من الجليد. وفي جبال الأنديز نجد أن الأماكن المرتفعة أكثر هدوءا مما عليه المرتفعات في الإلب أو جبال البرانس ذلك أن ليس

---

(١) العمل المشار إليه سابقا، الجزء الأول، الفصل العاشر، الطبعة المشار إليها، ص٣٤٠.

هناك ماء، غير أن هذه المرتفعات تفرض نفسها ربما بسبب جفافها وصمتها المطبق. وعندما تبدأ الشمس في المغيب تكتسي أعشاب hicho باللون الذهبي وتتقافز فيما بينها وتجري حيوانات اللامة vicunas ذات اللون الذهبي المتلألئ وكأنها حيوانات مقدسة من حيوانات الشمس تحتفظ بها لنفسها وتغذيها بالرحيق الخالص [١]. وهو رحيق يحتوي على أكبر قدر من الحيوية التي تساعد تلك الحيوانات على القفز والجري بينما الرحالة الجالس صامتا في مقعده يشعر بأن الجسد أخذ يتهاوى وخارت قواه رغم أنه لا يقوم بأية حركات أخرى غير تلك الضرورية لبلوغ فنجان القهوة أو كأس الكونياك.

النظرة هي التي لم تتأثر كثيرا بما عليه الجسد، غير أنها كانت تبدو قبل ذلك فاحصة وأكثر رضا وكأنه الأمر عبارة عن أن الاقتراب إلى هذه المناطق المرتفعة هو بمثابة رؤية تتجاوز حدود الطبيعة. وهنا فإن الحالة المعنوية التي عليها الرحّالة تجد صدى أفضل لها من خلال الصفحات التي كتبها الأب أكوستا مقارنة بما كتبه ذلك الموظف الذي ينسب إلى عصر التنوير والذي يشعر بالرضا الشديد ويميل إلى التوجه الوضعي. وإذا ما كان ابن الأقاليم قد مرّ بهذه المناطق لكن ليس على ظهر بغلة، يهتز أثناءها بمرور الهواء، بل جاء وهو جالس في مقعد في القطار من وراء نافذة، لتمكن من الحيلولة دون مواجهة الصعاب الطارئة ولترك لنا تأويلا وتفسيرا أكثر روحانية لهذه الظاهرة.

أخذ القطار ينزل في أراضي تتسم بتنامي تنوعات تضاريسها وألوانها بشكل ملحوظ مقارنة بأشعة في المساء التي تضيء المكان وكأنها ركائز معدنية على سطح الأرض. وهذا هو على الأقل ما يبدو بالنسبة للأسبان مثلما هو الحال في أمر مشابه بشكل مباشر ألا وهو أنه في نهاية القرن الثامن عشر كانوا يتوجهون بالشكر للعناية الإلهية من خلال أحد كتاب الحوليات [٢] الأكثر رومانية في ذلك القرن ذلك لأنه أزاح عنهم الكثير من الدمار ذلك أنه عند اكتشاف المناجم القائمة في المرتفعات كسا ثروات المناجم بألوانه " وذلك ليرتاح الإنسان وليتعافى من جهله.

---

(١)

(٢) بدرو بيشتي كانيتي إى دومنجث "الدليل التاريخي والجغرافي والفيزياتي والسياسي والمدني والقانوني لحكومة وقيادة محافظة بوتوسي"، الجزء الأول، الفصل الأول، "سلسلة الثقافة البوليفية"، بوتوسي ١٩٥٢م، ص٤٥.

وكلما استمر القطار في طريقه كلما أخذت تتوارى ملامح التعدين، فهناك رقع في الأرض مغطاة بطبقة من النباتات، كما تظهر من بين الأودية المزروعة رغم ما بها من فقر مدقع الأمر الذي يذكرنا بما عليه بعض الوديان في حوض البحر المتوسط. وهل لأنه بعد تجاوز المناطق الجرداء نجد الرحّالة القادم من حوض نهر إبرو Ebro يكتشف في الفضاء الموجود أمامه أركانا تكاد تكون مألوفة لديه؟. ليس الأمر مجرد إنطباعات عشوائية، فالشاعر روبين داريو يؤكد ذلك في قصيدة له بعنوان "إلى بوليفيا" حيث تم الجمع بين تجربتيه في كل من الأنديز وحوض البحر المتوسط:

أثناء الأيام زرقاء اللون في طفولتي الذهبية

كنت معتادا على التفكير في اليونان وبوليفيا:

في اليونان كان هناك الرحيق الذي يهدي من حرقة الشوق،

وفي بوليفيا كنت أجد عبقا قديما.

هو العبق الناعم الذي يعطيه الكوكا الجبلي

أو روح آلة الكنا quena التي تنتحب من خلال القصبة... [1]

يا لها من مقارنة مذهلة أتت من ريشة من كان شديد الحماس للغناء من خلال الفلوت الحيوي لرّب "الخبز" لأن لفظة quena هي الاسم الذي يطلق على الموسيقى التي تنساب في أعالي البيرو، وهي عبارة عن فلوت مصنوع من عظم القصبة tipia.

أخذنا نقترب من بوتوسي، وقام رفاق الرحلة بمساعدتي على التعرف عن بعد على هرم Rico Cerro. ومع هذا بقيت أمامنا ساعتان حتى يصل القطار إلى هناك ثم يتعرج، ذلك أن المدينة توجد على الجانب الآخر ومن الضروري صعود منحدرات صعبة. وفي هذا المقام يبدو أن بطء القطار أخذ طابعا يكاد يكون كنسيا. أخذ القطار يقترب رويدا رويدا وبوقار شديد بحيث يصبح لدى الرحّالة الوقت الكافي ليخرج من ذلك الجو الأسطوري الذي خلفته "مدينة بوتوسي الإمبراطورية النبيلة والوفية" التي كانت المركز التجاري لمنطقة الهند ومركز القارة الجديدة وكافة أنحاء الأمبراطورية الهسبانية.

---

(١) الأشعار الكاملة، دار نشر أجيلار - مدريد ١٩٦١ ص ١١٢٠.

"هذه المرتفعات هي الأعلى والأكثر ثراء من نوعها وهي مرتفعات بوتوسي، التي تعتبر علامة على قدرة الله وهي المعجزة الطبيعية الوحيدة"، حيث جرى رسمها بدقة هندسية بارعة وأصبح شكلها مخروطيا "غاية في الجمال لدرجة تبدو معها وكأنها مصنوعة يدويا وتبدو وكأنها كومة ضخمة من القمح". ليس هناك الكثير من التضاريس الجغرافية التي حظيت بالمدح والثناء مثلما عليه súmaj-Oreko بمعنى "المرتفع الجميل" في اللغة التي يتحدث بها السكان الأصليون حيث يطلق عليها أنها "إمبراطور الجبال" و"جسم الأرض وروح الفضة" و"الأعجوبة الكاملة والدائمة في العالم" و"العملة التي يتم بها شراء السماء" و"البوق الذي يمسع صوته في كل مكان"... الخ.

هذه ليست مدائح جاءت من عنديات الرحالة المادحين بل هي عبارة عن أشكال نجدها في أسلحة المدينة التي نرى صورها على الوثائق المتعلقة بالأوامر الأمبراطورية والملكية رغم أن بلوغها كان كلف سكانها وزنهم. فالترس الأول للإمبراطور كارلوس الخامس نجد فيه جبلا تحت صفر ثم التاج الأمبراطوري وعلى الجانبين الأعمدة مع عبارة Plus ultra وهذه العبارة:

أنا بوتوسي الغنية

في هذا العالم أنا الكنز

أنا ملك الجبال

ومحل حسد الملوك

وفي الترس الشعار الذي منحه الملك فيليبي الثاني للمدينة هناك شكل آخر لا يكاد يكون متواضعا: "إلى الإمبراطور العظيم، وإلى الملك الحكيم يُهدي إليه هذا الجبل الأشم من الفضة والذي به سيغزو العالم بأجمعه".

تلتصق بشبكية العين صورة "المرتفع الغنى" ذلك أن طريق السكك الحديدية يبدو أنه قد صُمّم بغرض تنويم الرحّالة قبل الوصول. تمر ساعات الليل، وفيها تبدأ الأضواء التي تأتي إلى المخيلة بذكرى "لاس جوايراس las guairas" وأفران الصهر، التي يصل عددها إلى حوالي ستة آلاف، مشتعلة وتساعد الرياح في "المرتفع" على ذلك وكذا المناطق

المرتفعة المجاورة على "شكل المصابيح" و"تتحول إلى حجرة ذات لون ذهبي" ويساعد على إذكاء النار بها، طبقا لقول كتّاب الحوليات، النجوم المبعثرة بكثافة في سماء هذه المنطقة الاستوائية الشديدة الارتفاع. غير أن اللمعان الذي يصدر عنها في الوقت الحاضر لا نظير له، ذلك أن الأنوار المضاءة في أعلى الجبل تتسم بأنها قليلة وهادئة وسرعان ما تبدأ في تكوين شكل مصطنع على حرف V علامة على النصر كلما اقترب القطار من المدينة، وهذا طبقا لما يقوله رفاق الرحلة، الأمر الذي يعني تأميم المناجم مؤخراً.

لكن لو كانت الأضواء قليلة وثابتة أعلى "المرتفع" نجدها كثيرة ومتحركة وسط الميدان الكبير في بوتوسي، ويحمل هذه الأضواء أناس يسيرون في احتفالية لا ترى إلا قليلا بسبب الحائط البشري الذي يقف خلفها. ركبت سيارة جيب لتذهب بي إلى مكان إقامتي في اتجاه مرتفع ابتداء من محطة القطار لكنها لم تستطع مواصلة طريقها فنزلنا منها لنتأمل المشهد الذي أمامنا عن قرب. كان المشهد عبارة عن استعراض أنظمة عمال المناجم يرتدون لباس العمل ويطوفون الشوارع والميادين الرئيسية في المدينة احتفالا بالعيد السنوي لعملية التأميم المذكورة. كانوا يسيرون ببطء من عمق الميدان الكبير بينما الظلام يكسو المشهد ولم تكن هناك أضواء إلا تلك التي كان المتظاهرون يحملونها في أيديهم وهي أضواء شديدة القرب من وجوههم الأمر الذي يسهم في تشويه ملامحهم ويضفي عليهم طابع الجديّة المقنعة.

وبالقرب من المكان الذي نحن فيه ترتفع الأسوار القوية "لبيت سك العملة"، وبعد ذلك بقليل نجد واجهة كنيسة ماتريث التي لا تكاد تُرى وسط الظلام والتي تطل أبراج الأجراس فيها على الميدان بقوة. وفي إطار كل هذا وكذا الجديّة الشديدة تطفر على ذهن الرحّالة الأسباني ذكريات الاحتفاليات الدينية المتقشفة خلال الأسبوع المقدس في قرى ومدن قشتالة القديمة؛ كما أنهم كانوا يسيرون في الاحتفالات وكأنهم يحملون أنصابا بين صفوف الذين يبدون أنهم من التائبين. لكنها كانت أنصابا تتضمن لوحات كلاسكية تتعلق بموضوعات تثير الجدل والحرج مشيرة إلى مغزى ما يحتفلون به. كان كل شيء يسير بانتظام، دون صياح أو مزاحمة وكان يتم في صمت لا يقدر على القيام به إلا الهنود البوليفيين حيث هم قادرون على فعل ذلك من بين البشر كافة.

VI- المرتفع الغنى Cerro

كانت أول زيارة لنا بالطبع إلى المرتفع الغني الذي يطل عاليا على المدينة الإمبراطورية أو، بمعنى أصح، على المدينة التي لا قيمة لوجودها إلا بوجود "المرتفع" وأنها بدأت كمركز لاستغلال مناجمه التي تمتد تحت قدميها. لازال الجبل يقدم صورته وكأنه هرم، أو جبل مقدس، ولا يستغرب المرء شيئا أنه كان في عصر إزدهاره بمثابة قاعدة بصليب كبير، مثلما نرى ذلك في اللوحات التي وصلت إلينا.

إلا أن الشكل الذي كان يتسم بتفرده عند حلول المساء، وكأنه مخروط غامض من الظلال، كان يتلألأ الآن تحت الشمس التي ترسمها ألوان مختلفة: الورود والليلك Lilas والألوان البنية والرمادية والأقحوانية والذهبية والأرجوانية. تكثر الألوان الدافئة والمائلة إلى الاحمرار وكأنها ناجمة عن جروح بسبب الحُفَر وضربات السكين في البطيخ. كما لا تبدو جروحا سطحية. أما الأنقاض المتبعثرة فكان لها، بسبب لونها العميق، شكل الأحشاء، أو شكل المقاطع الجيولوجية التي تم اقتطاعها من أحشاء الجبل. كتب كانيتي[1] يقول: كان "المرتفع" محرّما كأنه جرس صغير، كما أن كثرة تلك الأعمال القديمة والحديثة وتداخلها مع بعضها من داخل أحشائها تبدو مثلما علية الحال في الفراغات التي نجدها في إسفنجة".

وفي عملية استغلال حديثة للمنجم نجد أن التعديلات التي تطرأ على الأرض يمكن أن تكون بداهة، أكبر بكثير من تلك التي تُرَى في "المرتفع" الشهير، لكنها تتم بشكل ممنهج باستخدام وسائل ميكانيكية في الحفر والنقل ونادرا ما تظهر على أنها منطقة جبلية متهدمة مثل ذلك الذي نراه هناك. كان العمال الذين عملوا في المناجم أثناء عصر نيابة

---

(١) العمل المشار إلهي سابقا، الجزء الأول، الفصل الثاني، ص٥٧.

الملك لا يمتلكون إلا عدة وأدوات بدائية للغاية، ولهذا، وكذلك بسبب النظام الفردي، أو الفوضوي في إرساء حق التنقيب، تمكنوا من مهاجمة الجبل من مختلف جوانبه - أي أن هناك أكثر من خمسة آلاف فتحة منجم - وكأنه الجبل ثور يستعصى على الموت.

هذه الصورة العضوية ليست مجرد تشبيه وانتهى الأمر، ذلك أن "المرتفع" كان يبدو أمام رجال المناجم الذين كانوا يستغلونه وكأنه كائن حيّ. ولم يكن الأمر عبارة عن معتقدات شعبية. فها هم أهل الاختصاص والعلميون ودارسو المناجم يفترضون أنه منجم قادر على إعادة التوالد. وفي هذا المقام يؤكد الأب كالانشا Calancha أن "المعادن التي يتم قطعها من صخرة بوتوسي فإنها إذا ما كانت هذا العام ذات القراريط الرسمية، فإنها في غضون أربعة أعوام تنمو وتصبح مستوفية الشروط". نجد أيضاً أن ألونسوباربا، بشهرته، من خلال كتابة **"فن المعادن"** يشير إلى أنه يوجد في بطن "المرتفع" "عملية ولادة دائمة للفضة". ثم نصل إلى نهاية القرن الثامن عشر لنرى أن هناك من كانوا يعتقدون أنه تم العثور في عمق الجبل على ينابيع من هذا المعدن. وبناء على هذه المعتقدات والحاجات الملحة للعاصمة ورخص الأيدي العاملة من السكان الأصليين ليس من المستغرب مواصلة الحفر في الجبل من كل مكان في عملية بحث لا ترتوي رغم انتهاء أفضل العروق التي تحتوي على المعدن ورغم امتداد الدهاليز ورغم عمليات الغرق الكثيرة.

وإضافة إلى الحظ العاثر الذي جلبه الناس للجبل يجب أن نضع في الحسبان تلك الخاصة بموقعه الجغرافي الذي يصفه كتّاب الحوليات بشكل قاتم للغاية وكأن ذلك نوع من التبرير لأعمال الذبح غير الرحيم الذي يتعرض له. وهنا يشير بدور بيثني كانيتي مؤكدا "أنه أصبح مسطحا وجافا وأجرد قاحلا وباردا ولا حياة فيه"[1]. وكتب لويس كابوتشي في نهاية القرن السادس عشر يشير إلى "انه لا توجد فيه حياة أو في الجوار، وليس هناك أي نوع من الأمور التي تقيم الأود اللهم إلا بعض البابا (اللاما)... والشعير الأخضر الذي لا تنضج حياته بسبب البرد الدائم وهو في هذا يزيد على ما هو في كل من قشتالة القديمة وفلاندس، لعدم وجود الوقت الكافي لكافة العناصر حتى تؤتي الأرض ثمارها للإنسان الذي يسيطر عليها. الأرض إذن هي جرداء ودون أي شجر أو خضره".

---

(١) "عرض عام للمدينة الإمبراطورية بوتوسي" في "العلاقات التاريخية الأدبية في أمريكا الجنوبية" طبعة لويس هانك B.A.E - مدريد ١٩٥٩ ص٧٥.

هذا الوقت والسلام غير الكافي بين العناصر كان كنوع من التعبير الظاهري عن تلك المراحل الرهيبة والقوية التي جعلت من الجبل هرما من الفضة، وأن الجبل لا زال يلدها في جوفه. أضف إلى ذلك أن هذا الوضع ساهم كحام لكل هذه الثروة التي حفظها الله وخبأها على مدار سنوات عديدة – طبقا لما يقوله كابوتشي[1] – وذلك حتى تكون الملاذ وطوق النجاة لأمتنا. وعلى هذا جعل الله هذه الممالك الدنيوية غنية وهو يعرف نوايانا التي تميل بشدة على تلك المعادن، لأنها لو لم تكن موجودة لكان التبشير قد واجه صعوبة في أرض شديدة البعد ووعرة". "إنها أكثر ثروة في العالم" وضعها الله كطعم في مركز غير مأهول في أمريكا الجنوبية حتى يتم تحويل أهلها إلى المسيحية.

تبدو هذه الاعتبارات وكأنها فريسية على آذاننا، لكنها لم تكن كذلك بأي حال من الأحوال بالنسبة للأسبان خلال القرنَين السادس عشر والسابع عشر. في ذلك الحين كان هناك ترابط حميم بين علم اللاهوت والتعدين والإمبراطورية، ومنذ العصور الرومانية فإن التوجه الخاص بالسيطرة السياسية كان مصحوبا بالرغبة في الحصول على المعادن الثمينة، وعندئذ كانت شبه جزيرة أيبيريا البلد الوحيد من بين البلدان التي حكمتها روما التي قدمت لها الكثير لتشفى غليلها ورغباتها المشروعة في الثراء. وها هو الدور يحل على أسبانيا للقيام بوظيفة العميدة الذي كان قبل ذلك في يد urbe وشاءت العناية الإلهية أن تضع، رهن ذلك، القارة الجديدة من أجل استخراج تلك الثروات وتسود العالم والقيام بالدور الذي حبتها به.

مألوفة تلك الإشارة إلى بلينو Plinio في كتب العصر التي تعني بـ"التاريخ الطبيعي للعالم الجديد"، ورغم أننا لا نعدم ذلك الإعجاب بالعصر القديم الذي نراه في عصر النهضة نجد عددا غير قليل من الصفحات إطراء للتمكن من تجاوز ذلك العصر. ولا شيء يثير الدهشة في أن يكون العالم الجديد وخاصة بما له من تضاريس جغرافية وثروات طبيعية المكان الذي يبدأ فيه إنسان العصر الحديث التخلص من موقف الإذعان للعالم القديم وتبجيله وأن يجرؤ على إعلان اتخاذ خط جديد في الطرق التي كان يسير فيها. لم يعرف الرومان مثل هذه الكنوز الضخمة التي عليها بوتوسى، ولم يكن عليهم القيام بجهود أو

---

(١) المصدر نفسه ص٧٧.

حملات بطولية كتلك التي قام بها الأسبان من أجل استغلال تلك الثروات. أضف إلى ذلك أن تقنياتهم كانت أقل. عرف الرومان فائدة الذهب من خلال الزئبق لكن لم يعرفوا ما يتعلق بالفضة، الذي تم اكتشافه في "أسبانيا الجديدة" وتم إدخاله إلى بوتوسى على زمن السيد/ فرانشسكو دي طليطلة هذا النائب العظيم للملك؛ كان ذلك عام ١٥٧١ من على يد بدرو فرناندث دي بيلاسكو، مما جعله يتلقى جائزة قدرها أربعمائة ألف بيزو النصف منها من الخزانة الملكية والنصف الآخر من العاملين في الزئبق.

لم تكن فائدة الزئبق، المستخدمة فيه تقنية غاية في التعقيد، بالشيء الجيد في نظر الأسبان والجدير بالحكم على الأنشطة التي تحتم في هذا السياق. لم يكن الأمر عبارة عن تحويل عناصر طبيعية واستعمالها. الأمر كان يتمثل في أن الزئبق يسهم في تنقية الفضة بشكل أفضل مما عليه أية عملية أخرى، الأمر الذي يجعل هذا المعدن يفصح عن سماته في أنه معدن كامل. وكانت هناك اعتبارات أخلاقية ودينية تحدث تأثيرها على مملكة "الطبيعة" من خلال تقسيم المعادن بين صنفين: كاملة وناقصة؛ فهذه الأولى تشكل ثلاثية وهي الذهب والبلاتين والفضة. أضف إلى ذلك أن تقنية الزئبق كانت تساعد على الحصول على فضة شديدة النقاء دون أن تختلط بها معادن أخرى من ذلك الصنف غير النقي، والتي تختلط بها في المناجم، الأمر الذي يجعلها أكثر كمالا وتفردا في ذاتها.

ولهذا فنظراً للميل الشديد الذي كان الناس عليه، في ذلك العصر، فيما يتعلق بالقياسات لا نستغرب أن تنبثق عن تقنية إفادة الفضة من الزئبق حكم عالية الشأن. كان يُنظر إلى العمليات والمراحل المكونة من الطحن والنخل والغسيل والعجين (التخمير) والطبخ وأعادة طبخ الخلطة ومرورها لتكون تحت المدقّة ثم الغربلة ووضعها في المعْجن ثم الفرن فالحوض الخشبي والتغطيس والعصارات والأفران، نقول كان ينظر إليها على أنها نوع من العمل الشاق المضني الذي يتعرض له المعدن حتى يصل إلى درجة النقاء. كانت تلك المراحل تبدو نوعا من التمثيل لما ورد في الكتاب المقدس عن الطيبين sicut argentums justes probatum terrae, purgatum septerplum. ومتى يتم تنقية الفضة الخام يجب أن يتم عمل مراحل سبعة وهنا كتب الأب أكوستا[1] أنه لكي يتم تنقية الفضة وجعلها خالصة ونظيفة من التراب والطين الذي نشأت فيه يجب فعل ذلك سبع

---

(١) التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند. الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر، الطبعة المذكورة، ص١٠٦.

مرات من التنقية والتطهير، وهي سبع مرات تتسم بالمشقة الشديدة حتى تصبح الفضة نقية وخالصة والشيء نفسه نراه في تعليمات الرّب".

لا يمكن شرح تاريخ بوتوسي بدون علماء الأخلاقيات ورجال اللاهوت الذين عملوا كعمال مناجم، ولا يمكن فهم رجال المناجم الذين يعملون كعلماء الأخلاقيات ورجال اللاهوت، وهنا فإن الشخصية الأكثر بروزا في تاريخ التعدين في بوتوسى تتمثل بلا شك في القس ألبارو ألونسو باربا الذي كان كاهنا في إحدى الكنائس في المدينة ومؤلف كتاب "**فن المعادن**". وبالنسبة لميجل مونتالبا من طائفة الدومنيكان نجده وقد حصل على تصريح حصري لعشرين سنة لمعالجة المعادن السوداء negrillos من خلال استخدام نظام سرّي اخترعه بواسطة الزئبق. هناك أيضاً جونثالو كاريو من اليسوعيين، ١٦٧٤م، حيث كان يُعد من بين رجال الدين الذين أفادوا من الموقف. نجد أمامنا الإمبراطورية والفضة والدين وقد ارتبط الثلاثة برباط وثيق؛ كتب أحد المؤرخين من جماعة الفرنسيسكان، خلال القرن السابع عشر[1] يقول "تعيش بوتوسي من أجل الرخاء بهذه الرغبات المحمودة مثل التي تقوم بها أسبانيا... إنها تعيش لتكون سوطا ضد التركي، وليحسدنا عليها المورو وترتعد منها فرائص فلاندس وتخشى منها انجلترا، تعيش، تعيش كأنها عمود ومسلة للإيمان!".

نجد أيضا لويس كابوتشي رجل المناجم الوحيد الذي رسم لنا مشهدا حيا لاستغلال المناجم في بوتوسي في نهاية القرن السادس عشر، وفيها ورد وصفه للتقنيات وكذا قائمة بأنواع عروض الفضة الكبيرة والصغيرة والهنود البارزين والعاملين ومقاسات المناجم وحالات العمق التي عليها... الخ، وكان كل ذلك من منظور رجل دين. وهنا فإن تديّنه هو تديّن وطني وصاحب مصلحة ولا يتوانى عن إخراج الأحداث التوراتية من سياقها مثلما يحدث ذلك عندما يشرح روعة ونقاء "العرْق الثمين" الذي يعتبر أفضل ما في المرتفع cerro، والذي يرتفع على سطح الأرض وكأنَه قمة تمتد إلى ثلاثمائة قدم طولا وثلاثة عشر عرضا"، وأن هذه القمة تم اكتشافها وتعريتها من خلال "الطوفان" لكنها ظلت تقاوم قوة المياه واندفاعها"[2].

---

(١) ورد ذكره عند لويس هانك "مدينة بوتوسي الإمبراطورية": فصل لم يكتب في تاريخ العالم الجديد. دار نشر سوكري، ١٩٥٤م، ص٦٨.

(٢) العمل السابق، ص١٠٥.

وحقيقة الأمر استغرب بأن الهنود لم يستغلوا منجما مرئيا وواضحا لكن المؤلف نفسه سار على نهج تقليد قديم بأن أضاف بأن الهنود عندما أرادوا استغلال المرتفع cerro مات الكثير منهم كما أنهم "سمعوا أصواتا في الهواء تقول إن هذا الكنز محفوظ لأناس أفضل".

وعندما وصل الناس إلى المكان الذي فيه، وكدليل لسيادتهم وعظمتهم التي يعضدها في هذه الحالة وجود كل هذه الثروة الطبيعية بدأ حفر أول منجم في القمة نفسها على ارتفاع ٤٨٩٠ مترا، بمعنى أن ذلك كان أعلى من "مونت بلانك" Mont Blanc. وهناك كان يبرز "العرق الغني" بامتداده كأنه "رمح مُشرع إلى أعلى" إضافة إلى عروق أخرى ليست أقل شهرة في المنطقة المجاورة: هناك عرق Descubridora أو Centenso، وعرق Estano وعرق Mendieta.

هناك شيء إيجابي وهو أن أعمال الحفر أخذت تزداد عمقًا كلما تم الحصول على جزء من المعدن من ذي الجودة العالية، وهو ما يسمى tacana كما أن الزائر ليس مضطرا للصعود إلى تلك الارتفاعات حيث يتمكن من شفاء فضوله التنقيبي من خلال فوّهات المناجم على مستويات أدنى، وما عليه إلا أن يرضى بإضافة شيء من الإرهاق من وحي خياله من جراء ما يعنيه تسلق مائة متر أخرى تضاف إلى الـ ٤٣٠٠ التي عليها والتي ترهق الجسم لمجرد السير دون أن يقوم بتكسير العرق باستخدام القلنسوة barreta، أو أن يصعد السلالم "المسحورة" المصنوعة من قطع من جلد الأبقار المعوجّ وهو يحمل على ظهره ربعين (٢٣ كجم) من المعدن.

وفي نهاية القرن السادس عشر كانت هناك في "المرتفع" Cerro دهاليز يبلغ امتدادها سبعمائة بارا (٨٤سم للوحدة)، كما أن السلالم تتوالى بشكل لا نهائي في كل مسافة عشرين مترا مع وجود بسطات لها. ويمكن أن يتخيل الرحّالة بسهولة درجة معاناة الهنود "الميتاي" بمجرد إلقاء نظرة على تلك الفوّهات الرهيبة غير المضاءة، وها هي الآن مضاءة بالشموع التي يتم "ربطها بالإصبع الإبهام، وهي الشمعة التي يحملها من يتقدم مجموعة من ثلاثة هنود من الذين اعتادوا الصعود والهبوط في آن معا" وكان الهنود يصلون وهم يتصببون عرقا ويلهثون، وعندها يذهب الحرّ ويأتي البرد الذي عادة ما يرونه على أنه عزاء

من التعب بأن يقال لهم أن ذلك ليس شيئا وأنهم لم يأتوا إلا بالقليل من المعدن أو أنهم يتأخرون كثيرا أو أن ما يحملونه ليس إلا ترابا أو أنهم سرقوا ما أتوا به[1].

العمل في المناجم ليس بالأمر الهين في أي من المناطق أو العصور، غير أن الأمر في ظل الظروف الجغرافية التي عليها بوتوسي ونظرا للتمييز القائم ليس فقط من حيث المستويات الاجتماعية بل كذلك السلالية والجنون من أجل الثراء الذي كان عليه رجال المناجم الذين كانوا في طليعة العقليات الجديدة لما يسمى ما قبل الرأسمالية نجد أن الظروف المهنية تتسم بصعوبة شديدة، وخاصة عندما يحدث على العوائد الهامشية انكماش يفضل نفاذ أفضل صنف من المعدن وبالتالي كان من الصعب تقديم مرتبات مرتفعة ومزايا أخرى كانت قائمة في البداية لدى الهنود، وبالتالي لم يكن بوسع المسئولين عن تجنيد العمّال في المناجم إلا تطبيق أعلى قدر من الصراحة. وفيما يتعلق بوصف طبيعة العمل في المناجم البيروانية خلال منتصف القرن الثامن عشر، والذي جاء من لدن كل من أنطونيو دي أُيُوَا وخورخي خوان في كتاب بعنوان "الأخبار السرية لأمريكا" نجده يتضمن صفحات محزنة للغاية لأسباب كثيرة من بينها ما حدث من تغيير على مشاعر من ينتقدون.

وليس الأمر أن هذه الانتقادات لم تكن موجودة أو لم تكن جلية وواضحة وجريئة منذ بداية النشاط التعديني في المناجم، احتجاجا على الأعمال الحقيرة التي كان يقوم بها الهنود وكذا الأوربيون. وهنا فإن رجال الدين الذين كانوا يعتبرون بوتوسي على أنها "عامود أو مسلة الإيمان" كان الأمر ينتهي بهم إلى اكتشاف أمور في "هذا المرتفع الملعون" عبارة عن "هوّة حقيقية في طرائق المعاملة الإنسانية". هناك أحكام متضاربة للغاية لم تكن لتصدر بالضرورة عن أناس مختلفين بل كانت كثيرا ما تصدر عن الشخص نفسه؛ وهنا نذكر مثالا هو خينيس دي سيبولبيدا الرجل الذي كان من أشد أنصار النظرية الكلاسيكية حول قوانين الطبيعة حيث كان يخفف من حدة رؤيته بشيء من الرحمة معتبرا أن التبشير كان المقابل للجهود التي كان الهنود مطالبون بها ذلك أن هذا المسلك "يكسب الإنسانية طابع الفضيلة كما أنه هو الديانة الحقيقية وهذان هما أفضل من الذهب والفضة"[2].

---

(١) لويس كابوتشي، المصدر السابق، ص١٠٩.

(٢) Democrates Alter في "جريدة أكاديمية التاريخ" مدريد XXI ص٣٣٣.

غير أن هذا لم يكن حجة في غفران الكثير من الاعتساف والقسوة التي ارتكبها الأسبان في العالم الجديد. لن تتمكن القوانين الرحيمة والنوايا الطيبة من محو قسوة الأفعال. لكنها كانت أفعالاً تتمخض عن نتائج ملموسة يهفو إليها كافة الأوروبيين، ولم يكن أي منهم شديد الحساسية لما يحدث في بوتوسي، رغم أن ذلك يضم بشكل مقنع بعض قطرات العرق والدم اللذين كانا يصدرا عن العاملين الهنود، وعندما يجلس المرء ليفكر في الأمر من منظور أخلاقي فلا يمكن غفران الاستيلاء عليهم من خلال أعمال القرصنة والإتيان بهم محبوسين في سحّارات الغليونات أو بيعهم وشرائهم كما لا يمكن غفران المجئ بهم إلى ارتفاع يبلغ أربعة آلاف متر. وهنا فإن الخطيئة الأولى كانت تتجلى مصحوبة بالأعمال الشاقة للغاية التي يقومون بها وأن ذلك لا مثيل له إلا بالأحداث الشاقة في تاريخ الغرب.

إن من يخرج من أحد الحجور socavon القائمة على أطراف "المرتفع الغني" يتوجه ببصره نحو الأفق فيكون أو ما يواجهه هو الضوء الشديد الواضح، فالمرتفعات صافية وتتبدى عن بعد، ولا تكاد النباتات تغطي بنيتها الجيولوجية، والحديث هنا ليس عن الإنسان فقط ولكن عن الحيوان والشجر حيث لا يكاد يكون هناك وجود لهم. ما هناك هو أن الضوء يقطن في هذه المنطقة الشاسعة وغير ذات الفائدة؛ وفجأة، عند سفح الجبل، نجد العيون تكتشف الرقعة العمرانية لمدينة عظيمة.

من البدهي أنها مدينة صغيرة استنادا إلى الفراغات القائمة بين المنازل والمباني المنعزلة عن الجوار. هناك كنائس ذات بناء قوي ومتين ترتفع معزولة رغم أن بنيتها لا توحي بأنها كنائس مشيدة وسط الغلاء بل هي علامة على أحياء زالت الآن من الوجود. يواصل البصر تأمله في الأطلال الموروثة عن العظمة القديمة ثم يأخذ في رسم حدود المدينة وهي حدود كانت أكبر في بداية القرن السابع عشر (وطبقاً لشهود موثوق بهم) مقارنة بأشبيلية بأرباضها. لم تقتصر بوتوسي على رقعتها المعمارية فقط. ثم يكتشف البصر في سفح المرتفع Cerro مباني تكاد تكون مهدمة مطلة على البحيرات القديمة والتي كانت شديدة الأهمية لحياة المدينة حيث كان يتم استخدام المياه حيث يقوم به من يسكنون على الشاطئ ويقومون بطحن المعدن عندما تم إدخال نظام الاستفادة من الزئبق.

تُعتبر البحيرات التي وصل عددها إلى اثنتين وثلاثين عام ١٦٢٣م علامة على ما عاشته التقنية التقديمة التي استخدمت في بوتوسي وظلت كذلك حتى مرحلة متقدمة من القرن السابع عشر؛ كما أنها لا تزال حتى اليوم عنصرا جوهريا من المشهد العام للمدينة مسجلة بذلك الطابع الهسباني للمكان. إن كل شعب يحمل برفقته مصيره التاريخي بما في ذلك صعوبة الطقس، وهنا فإن الأيبيريين واصلوا عيشهم في الهضاب الأمريكية وهم يتشوقون للمياه مثلما كان حالهم في وطنهم الذي يتسم بقلة المياه. وهنا قال الأب أكوستا[1]: "وكان الأمر بالنسبة لاستخراج الفضة هو أن الناس يتمنون عاما طيبا في بوتوسي مثلما هو الحال في أماكن أخرى لطلب العيش".

وفي بعض الأحيان يشعر الناس بضيق شديد، على غرار ما حدث عام ١٥٨٣م والعام التالي له، من حيث قلة الأمطار الأمر الذي حال دون قيام المصانع بطحن الخام مما جعل البنائين يقومون بتعلية السدود مع المخاطرة بدرجة أمانها. وقد حدث ذلك في يوم ١٥/ ٣/ ١٦٢٦م عندما تحطم السدّ على بحيرة كاريكاري Caricari أو القديس إلدفونسو، وقضى على كثير من الجهود التي بذلت على مدار سنوات طويلة "حيث دخلت المياه إلى كافة المصانع الواقعة فوق البلدة وعلى معظم تلك التي كانت على الشاطئ Ribera وحطمت العجلات وقلبتْ كل شيء من المطارق الخشبية وهدمت الحوائط وأغرقت المنازل ودمرت كل شيء فيها بقوة وعتو"[2]. مات ما يزيد على الفي شخص غرقا، كان الأمر يبدو وكأنه واحدة من الكوارث التي تحدث في أيامنا هذه.

تلا ذلك مرحلة طويلة وصعبة لإعادة البناء لكن دون تجاوز للإنشاءات القديمة في باب القوى الهيدروليكية. كما أخذت مناجم "المرتفع" Cerro تنضب رويدا رويدا فوجد العاملون في مجال الزئبق في المدينة أنفسهم مضطرين إلى البحث عن معادن جديدة خلال القرن الثامن عشر وقاموا بتنظيم مراكز استغلال للمناجم في كل من محافظة ليبث Lipez وتشيكاس Chicas وشايانتا Chayanta. وبذلك فإن تلك الدفعة الصناعية التي شهدتها بوتوسي نجدها وقد امتدت إلى المقاطعات الأنديزية المحيطة بها التي أصبحت هي الأخرى

---

(١) التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند، الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، الطبعة المشار إليها، ص١٠٦.

(٢) كانيتي: العمل المشار إليه سابقا، الجزء الأول، الفصل الخامس، ص٩١.

عرضة للتأثيرات ذات الطابع الجمالي الذي كانت عليه "المدينة الإمبراطورية" حيث تحولت في غضون الفترة من ١٦٥٠م حتى ١٧٥٠م إلى واحدة من المراكز الفنية في كافة أنحاء نيابة المملكة Virreinato؛ ولكن الوسائل الفنية لاستغلال المناجم والتي كانت ذات يوم شديدة التقدم أخذت تتراجع في هذا المقام قياسا على ما لدى الأوربيين كلما تقدمت السنون في هذا القرن وبالتالي أخذت المدينة تعيش مرحلة أفول خلال النصف الثاني من القرن المذكور، حيث تناقص عدد سكانها مع نهاية القرن إلى النصف أي إلى ٢٥٠٠٠ نسمة وهو سدس تعدادها في عصر الازدهار. هذه هي الحالة التي وجدها عليها سيمون بوليفار عندما دخلها "المدينة الإمبراطورية" والتي كانت آخر المعاقل للسلطة الملكية في أمريكا الجنوبية.

هذا أمر شديد الدلالة سواء بالنسبة لبوتوسي أو بالنسبة للأنشطة الاستعمارية التي قامت بها أسبانيا في أمريكا؛ وليس أقل من ذلك دلالة الرمزية والبلاغة التي تحدث بها المحرّر؛ فمن فوق ذلك الجبل الشهير الذي يقع في مركز الجغرافيا والتاريخ الجوهري للهند أراد بوليفار أن يعلن أمام الدنيا كلها تحقق الكلمة التي قالها على جبل آخر في احتفالية مهيبة ورثنا منها صورة حية بفضل ما كتبه الجنرال ميلر، ذلك الإنجليزي الرائع، عن استقلال البيرو وبالتالي عن بوتوسي آنذاك بدرجة كاملة.

كان الشتاء قد ولّى منذ فترة وجيزة وأخذت تهب رياح عاتية مصحوبة بدرجة حرارة شديدة الانخفاض لكنها لم تنجح في تفريق الجمع ونشوة الفصاحة. فبعد تناول الغداء والأنخاب الوطنية وأخذت أعلام الدول التي تحررت مؤخرا ترفرف في المكان أعلن بوليفار "أننا نحقق انتصاراتنا في كل مكان ابتداء من شواطئ الأطلنطي وخلال خمسة عشر عاما من الكفاح الذي قام به العمالقة تمكنا من هزيمة بناء الطغيان، الذي كان قد تشكل بهدوء على مدار قرون ثلاثة مليئة بالاغتصاب والعنف. . . يا لها من متعة أن ترى العديد من ملايين الرجال الذين استردوا حقوقهم بفضل إصرارنا وجهدنا! وبالنسبة لي وأنا أقف اليوم فوق هذا الجبل من الفضة الذي يسمى بوتوسي والتي كانت عروق المعدن الشديدة الثراء فيه جرن أسبانيا على مدار ثلاثمائة عام فإنني لا أرى كل هذا الثراء يساوي شيئا عندما أقارنه بالفخار بالنصر وحمل راية الحرية ابتداء من الشواطئ النارية أورينوكو Orinoco لأقوم برفعها هنا في قمة هذا الجبل الذي يثير ما بداخله استغراب الكون وحسده" . . .

VII- فن شديد الرفعة

تتسم الزيارة "للمدينة الإمبراطورية" بأنها أكثر تعقيدا بالنسبة للرحّالة مقارنة "بالقمة الثرية"! رغم وجودها على بضع مئات من الأمتار في الأسفل كما أنها لا تتمتع بما عليه القمة من منحدرات وهضاب. وليس من المشروع في هذه الحالة أن يقوم الخيال بإكمال البيانات التي تحاول أن تمليها عليه الأحاسيس بل يجب بذل الجهد لإعادة رسم تلك التجربة الإنسانية الفريدة التي تمثلت في العيش في مدينة بهذه السمات. ويجب على الرحالة الزائر لهذه المدينة الإمبراطورية أن يضني نفسه سيرا وألا يقتصر أداؤه على مجرد تأمل الكنائس وهو جالس أمامها على أحد المقاعد الخلفية بل عليه أن يصعد إلى مقصورة الكهنة وكأن الأمر حفل عُرس لأحد الأشراف، من العاملين في حقل التعدين، وربما عليه أن يصعد ذات مرة إلى أعلى برج الأجراس. لا يمكن له أن يقنع بالتطواف في صحن المكان وفي الطابق السفلي لدار "سك العملة" بل عليه أن ينزل إلى ما تحت الطابق الأرضي الذي لا زال قائما حتى الآن حتى يرى القواديس التي كانت تحمل المعدن "malacates" المصنوعة من الخشب بغية درفلة الفضة، وكذا ماكينات سكها، ثم يصعد أيضاً إلى الطابق العلوي الذي تحول الآن إلى متحف ذي صالات لا حصر لها.

ومن يتمكن من خوض تجربة التواجد في بوتوسي، يجد أن ليس هذا عبارة عن إطلالة بل رؤية البنية كاملة كما أن الأمر عبارة عن ممارسة للرياضة. يشارك الذهن أيضاً في الأمر بشكل شديد الفعالية رغم أن ذلك يمكن أن يكون بشكل غير منظم ذلك أن أداءه يتلقى تأثيرات ناجمة ليس فقط عن صعوبات في التنفس وضربات القلب بل ناجمة عن المخ نفسه الذي يبدو وكأنه بطيء في الأداء بسبب ذلك الألم الغربي الناجم عن العيش في

غير أن هذا السياق الفسيولوجي لا يقتصر على توليد الشعور بالثقل. هناك المرتفعات. غير أن هذا السياق الفسيولوجي لا يقتصر على توليد الشعور بالثقل. هناك شعور آخر يتولد إلى جانب ذلك الآخر وهو الشعور بالخفة التي تكاد تصل إلى النشوة أو العيش في الأوهام. وعندما يطوف الرحالة بالمرتفعات وهو يركب القطار يتولد ذلك الشعور نفسه والذي يرجع، على الأقل، إلى امتناعه عن القيام بأي نوع من النشاط غير الضروري كما يرجع إلى ذلك الخلط الذي يتركه المشهد العام في شبكية العين وهو مشهد غير محدد الملامح وتكراري. يحدث أمر شبيه أيضاً في بوتوسي حيث يجد الجسد نفسه مجبرا على شد عضلاته، رغم أن ذلك بشكل تدريجي، من أجل أن يسير في الشارع أو يصعد سلم أحد الأبراج، وهنا يداخله هذا الشعور الغريب وكأنه كائن ملائكي رغم عدم اتساق حركته أو كأنه شبح مُقيّد.

يبدو هؤلاء الهنود الذين يمشون في الشوارع دون إحداث جلبة وغير عابئين بوجودك وكذا بكل ما يحيط بهم، يبدون وكأنهم يعيشون بطريقة فيها شرود، وكأنهم كائنات من الأشباح؛ أي كائنات غريبة تلتحف العباءات Ponchas ذات الألوان النحاسية ووجوههم التي يعلوها الهزال وقبعاتهم الضخمة ذات الألوان الزاهية والحواف الطويلة والشكل المخروطي من أعلى والتي تبدو وكانها مأخوذة بشكل مباشر من القبعات القرطبية. نجد أيضاً أن هنود منطقة كوتشابامبا "Cochabamba" يصنعون قبعات تبدو أنها متأثرة بالموديل الأيبيري نفسه لكن الشكل المخروطي العلوي أوسع وأقل ارتفاعا مما عليه القبعات في بوتوسي وهذه الأخيرة هي قبعات أصبحت علامة على المدينة الكائنة على ارتفاع شاهق كما أنها شاهدة على الشكل اللاواقعي الذي عليه سكانها الأصليون.

وفي لاباث La Paz نجد أن القبعات التي يضعها أبناؤها من الهنود سواء الرجال أو النساء تتسم بأنها على شكل فطْر hongo ذي لون رمادي أو مائل للحمرة الأمر الذي يجعلهم جميعا يبدون كأنهم حوَذيون. كان موديل القبعات الأوربية في العاصمة لاحقا على ما هو في بوتوسي أو كوتشابامبا، ومع ذلك فإن استخدام القبعات التقليدية لهاتين المدينتين لم يكن شديد القدم والدليل على ذلك ما ورد من وصف كُتّاب الحوليات لما يضعه السكان الأصليون على رؤوسهم حيث يكثر استخدم لفظة "بونيه" bonete وهو وصف لا يمكن أن يكون شديد الاختلاف عن الوصف الذي عليه قُبعّات بوتوسي.

يعلم الله تلك المناسبات والأسباب التي من أجلها يضعون مثل هذه الأشكال الغريبة. ومن خلال خورخي خوان وأنطونيو دي أيّوا نتوفر علي معلومات شديدة العناية بصناعة القبعات وأنه في عام ١٧٣٧م حدثت ثورة حقيقية في طريقة الصناعة وكان ذلك نتيجة لظهور قبعة إنجليزية في ليما والتي بمجرد أن تعرضت للإثراء أصبح سرّ صناعتها في يد واحد من ضباطها. غير أن تلك الثورة اقتصرت على قبعات من وبر اللامة vicuma ذي اللون الأسود وليس الأبيض ذلك أن هذا الصنف الأخير كان يتم تصنيعه في بوتوسي[1]. اضف إلى ذلك أنه بمجرد ابتعادها عن المذاق الإنجليزي بغض النظر عن الشكل الذي عليه اليوم، أصبحت شديدة الشيوع في "العاصمة الإمبراطورية".

ربما كانت القبعات الخاصة بمدينة بوتوسي ذات أصول لاهوتية ذلك أن المبشرين أصروا بشكل كبير على تغيير الملابس والرقصات والاحتفالات التي يقوم بها الهنود، وكان الهدف من ذلك قطع صلتهم بتراثهم والعمل على أسبنتهم. حدثت هذه التغيرات في المقام الأول بمناسبة حالات التمرد التي قام بها الهنود في أعالي البيرو خلال القرن الثامن عشر؛ وعندئذ جرى إلغاء الألقاب والوظائف التي كانت للزعماء المحليين cacique وصودرت صور الإنك التي تركوها في منازل النبلاء من الهنود، ومُنع منعاً باتاً ارتداء الملابس القديمة وكذا maskapaicha، أي ذلك الشريط الإمبراطوري، والكراكولات التي كانت تعلن أصواتها الحزينة عن الحداد الجماعي على موت أحد النبلاء. ويمكن القول بأنه أريد أن يوضع في هذه القبعات الخاصة بمدينة بوتوسي نوع من الترياق ضد هذه الآلات الحزينة، وقام بذلك أحد الآباء الذين يتبعون جماعة الفرنسيسكان أو بعض القضاة Corregidor من إقليم الأندلس السفلى، اللهم إلا إذا كنا نعرف أن بوتوسي لم تكن بحاجة لمثل هذه الإحلالات في الملبس، فقد كانت المدينة الوحيدة التي لم تشارك في تلك الحركات شبه الثورية واستحقت بذلك المزيد من الألقاب، فإلى جانب تسميتها بالمدينة النبيلة والإمبراطورية أضيف إلى ذلك عام ١٧٨٣م مسمي "المدينة الشديدة الوفاء"

---

(١) خورخي خوان وأنطونيو دي أيوّا "الأخبار السرّية لأمريكا" الجزء الثاني، الفصل التاسع، بوينوس أيرس ١٩٥٣م ص٤٤٧ وما يليها.

كانت عملية أسبنة ملابس الهنود ذات طابع فيه عفوية ورحمة نظراً للإعجاب الذي كان بالنسبة لما كانت عليه أنماط الحياة، ويزيد من هذا ما كان عليه أبناء الطبقة العليا في المدينة. ولاشك أن هذه الخطوات كانت شديدة الشبه بتلك التي كانت البداية في صناعة "البدَل" الشعبية في مختلف المحافظات الأسبانية. وهنا نقول أن هؤلاء المئات من الهنود الذين يتجولون في السوق الرئيسي للمدينة هم الذين فضلوا - على الأقل - ارتداء تلك الملابس الجديدة وظهروا بها أمام مدخل كنيسة سان لورنثو، حيث نجد في تلك الواجهة أقصى تعبير عن توجهات مدرسة الباروك.

من حقائق الأمور هو أننا هنا بعيدون عن تلك الأنماط الفنية الشديدة الالتزام بالقواعد في الفن الأوروبي فحاملات الواجهات هي نتاج هذا الدمج بين العمود السليماني Salomónica والعمود الذي على شكل امرأة Cari'atide، غير أنه في الوقت الذي يحتفظ الصنف الأول من هذين النمطين بسلسلة التوريقات أسفل بدن العمود (القاعدة imoscapo) إضافة إلى الزخرفة التقليدية المكونة من عناقيد العنب وورقه، نجد النمط الثاني وقد تحول الشكل النسوي للعمود إلى امرأة هندية indi'atide ذات ملامح سلالية، وتغير ثوبها peplo إلى تنورة عبارة عن أوراق تضم بتلات صغيرة وكبيرة لزهرة كبيرة متفتحة متوافقة في هذا مع ما عليه هوى الهنود. كانت المدينة تبذل جهدا كبيرا لأوربتهم غير أنها في منتصف الطريق تقدم لهم أشكالا فنية مهجنة من السهل فهمها.

بوتوسي هي واحدة من أفضل المدائن التي قدمت ثمرات معمارية مهجنة أسبانية هندية وكان ذلك لأسباب منها أنها تعج بعد كبير من المُخلَّطين نظرا لعدم وجود كثير من النساء البيضاوات الناجم عن قسوة الطقس. وتعتبر كل من كنيسة سانتا تريسا وسان فرانثيسكو ولاميرثيد وسان برناردو وواجهات منازل إيرِّيرا Herrera ومنازل ماركيزات سانتا ماريا دي أوتابي أمثلة جميلة لهذا التزاوج الجمالي. غير أن الأثر الأكثر جمالا أو الأكثر بروزا وشهرة ربما تمثل في كاسا دي لاس ريكو خيداس Casa de las Recogidas حيث تعكس، في إطار المقابلة بينها وبين التوجهات الفنية الأفقية التي عليها أغلب الفنانين الكبار في بوتوسي، دينامية باروكية حقيقية في الأعمدة التي تنسحب بحثا عن تأثيرات أعمق.

لا يركن هذا الاختلاط الفني البوتوسي إلى مجرد الجمع بين العناصر المعمارية والزخرفية الأوربية وبين العناصر الأمريكية بل يضم أيضا عناصر مدجنة في مجموعة

الكنائس ذات الأشكال القصاعية في السقف من هذا الصنف والتي من بينها نبرز كنيسة سانتو دومنجو والكنيسة القديمة سان مارتين التي تقع في أحد الأحياء السكنية المثيرة فنيا التي يعيش فيها السكان الأصليون. وهناك احتمال كبير في أن المصلين كانوا يؤدون الصلوات وهم راضون تحت القصاع الموجودة في السقف ذات الطابع المسرحي - حيث نجدها هناك ذات أشكال جذابة وبها أخشاب استوائية لها رائحة طيبة - وليس تحت قباب دور العبادة ذات الطابع الغربي الصرف.

لم يتوقف من قاموا بتشييد المدينة الإمبراطورية عند حد إبراز ما هم عليه من ثراء في الجمع بين الموضوعات الفنية والأشكال والأساليب التي تقادمت بشكل أو بآخر، بل كانوا يبذلون جهدهم بطموح شديد في تطبيق المثاليات الأكثر نبلا في العمارة في الغرب. هناك الأكثر شهرة ونبلا في بوتوسي، وهو عمل خرج من لدن هندي "عالي الشأن في مجال التحجير"، سباستيان دي لاكرون" الذي شيد في البداية برج Compañía حيث الشكل الأيوني jonico التوسكاني الذي عليه الواجهة التي في الوسط واستخدم في ذلك أربعين عمودا منحوتة أطلق عليها أعمدة سليمانية موزعة بين برج الأجراس والواجهة، وهذا طبقا لما جاءنا به كاتب الحوليات والمؤرخ بارتولوميه أرسانز دي أوروسا إي بيلا. وهنا نجد أن من الصعب العثور على نموذج مماثل لبرج الأجراس هذا الذي يعلو مستوى "بيت سك العملة" مطلا على السماء الصافية لبوتوسي "بعظمة ما له من عقد النصر الذي كان لروما القديمة"[1].

وبالنسبة للهندي الذي شيدها نجد أنه لم يشعر فقط بأنه مواطن من أبناء المدينة الإمبراطورية الأمريكية بل بأنه أيضاً شريك في المثاليات الإمبراطورية الرفيعة التي عليها الغرب، حيث جرؤ على أن يضع أعلى الواجهة عقد النصر، وليس عقدا يمر من تحته الناس أو ليكون بمثابة مفخرة للمواطن الذي يشعر بالزهو بأنه إنسان له وجود عندما يمر من الأبواب الضخمة - بل حتى يمكن ربط وتثبيت الأجراس الموجودة على أقصى ارتفاع في تاريخ المسيحية.

---

(١) إنريكي ماركو دورتا "الباروك في حديقة بوتوسي الملكية". كراسات "سلسلة الثقافة البوليفارية" ١٩٥٥م، ص٣٤.

يتجه الفن الأوربي ليعلو شأنه في مرتفعات بوتوسي ولا يقتصر الأمر على الفن المعماري بل يمتد أيضاً إلى الرسم وهذا هو الأمر الذي يتسم بأنه فريد ومذهل ذلك أن هذا الفن، من بين الفنون الأوربية خاصة، كان فنا مطبقا في مدن تقع على ارتفاع أمتار قليلة من مستوى سطح البحر وأحيانا تحت مستوى سطح البحر كما هو الحال في هولندا أو فنيس. والعكس من ذلك تماما نجده في العالم الجديد حيث نجد أن الرسّامين الأكثر شهرة ولدوا وعملوا في المدائن الواقعة على ارتفاع كبير من مستوى سطح البحر؛ ومن المثير للفضول أنه في إطار نيابة الملك في البيرو ورغم أنها شديدة القرب من البحر وأنها مركز فني من الطراز الأول نجد أن مدينة ليما لم تنجب لنا رساما على الدرجة التي عليها إبن مدينة كيتو ميجل دي سانتياجو وإبن مدينة كوثكو ديجوكيبي تيتو أو ملتشور بيرث أوليجين الذي ولد في كوتشابامبا والذي عاش طيلة حياته في مدينة بوتوسي.

ما هي أوجه الأصالة التي عليها هذا الفنان الأخير الذي من المؤكد أنه له شهرة كبيرة في كافة أنحاء أمريكا الجنوبية وعمل خلال العقود الأخيرة من القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر على أعلى منصة للرسم صعد إليها فنان على الإطلاق؟

الإجابة صعبة، إذ، من حيث المبدأ، يصعب أن يجدها المرء في المشهد العام. من الواضح أيضاً أن هذا المشهد العام يكثر في أعمال هولجين Holguin لكنه مأخوذ بصفة عامة في النقوش واللوحات ذات الطراز الفلامنكي. وعندما كان الرسّامون في المدينة يغمضون عيونهم تقريبا عن المشهد العام المحيط بهم لم يكن هناك داع لأن يفتحها مُخَلَّط mestizo أمام هذا المشهد الطبيعي الضخم في منطقة الأنديز. وما يصل إلى لوحاته من العالم القريب منه ليس إلا أمورا عادية من مشاهد الحياة اليومية مثل تلك الملعقة الخشبية التي كان يستخدمها المسيح ليقدم بها الطعام للقديس بدرو دي القنطرة، والعباءة المائلة للحمرة والمخططة على أكتاف ملاك، وضفائر "chola" للعذراء مريم وهي في طريقها إلى مصر، والإناء الذي كانت تغسل فيه الأحفضة. . . الخ.

غير أنه إذا لم يكن من الممكن أن يكون المشهد العام للأنديز حاضرا في لوحات رسام هندي، كان ممكنا أن يختار هذا بين الموضوعات التي يقدمها له الرسم الأوربي وخاصة تلك العناصر التي تتسق مع عالمه. هذا هو بلا شك السبب في كثرة الكائنات الملائكية في لوحات

بيرث هوجين، والتي نجدها بشكل عام في كافة اللوحات في فن الرسم في أعالي البيرو. والشيء الذي يلفت الانتباه بشكل خاص هو العناية بالكائنات الملائكية ورؤساء الملائكة التي رسمها فنانون مجهولون لكن حازت قبولا واسعا أثناء حكم الملك كارلوس الثاني، حيث نجدها متكررة على حوائط الكثير من الكنائس في أعالي البيرو والتي تشكل نوعا من النظريات الطقسية وتوجد تحت السقف ذي الأشكال القصاعية، ورغم ذلك نجدها في العالم الدنيوي، أي في شيلان من الحرير مطرزة بألوان زاهية وجميلة وفي أكمام واسعة ومفتوحة على الرسغ وشريط عريض على الرأس يعلوه رأس رائع الألوان بينما الأيدي مشغولة ببندقية طويلة إما بإطلاق ما فيها من شحنة أو شحنها.

تعتبر ملائكة الرسّام هوجين أكثر بساطة من هذه الشخصيات الأسطورية التي تشكل واحدا من المشاهد الأكثر إثارة ومتعة من تلك التي نراها أمام الكنائس البوليفية؛ كما أن هؤلاء الملائكة يحملون ملامح خاصة بسكان السلسلة الجبلية. هناك الملائكة الذين يطيرون بسرعة بالقديس بدرو ريجالادو P. Regalado في لوحة بوتوسي؛ وهناك كبير الملائكة جبريل، ملاك البشارة في سوكري Sucre؛ وهناك الكثير من الكائنات الملائكية التي تملأ اللوحة التي تصور يوم الحساب في سان لورنثو دي بوتوسي، حيث نجد بعضها يحمل سمات السكان الأصليين، ويتحركون في فضاء المكان بتلقائية فريدة وكأنها كائنات تطوف "بالهواء الشديد النعومة" على قمم الأنديز طبقا لمقولة الأب أكوستا، الأمر الذي بدا لها وسطا شديد السهولة بالنسبة لحركتها.

يحدث الشيء نفسه لهؤلاء البشر الذين يميلون في ملامحهم إلى الأشكال الملائكية والمتصوفة، وهذه الشخوص هي من الأمور الشديدة الشيوع في لوحات الفنان ابن مدينة بوتوسي حيث يقوم برسمهم من خلال نظرة قوية تتسم بالطرب الشديد وكأن اللوحة مطلوبة لتعكس الوضع الذي عليه المناطق المرتفعة، وهذا ما يتجلى أيضاً فيما يتعلق بالتمثيل التصويري للنور. وإذ ما نظرنا إلى هالة النور الذهبي التي تحيط برؤوس القديسين، ليس فقط من خلال التصوير الشعبي لكوثكو Cuzco بل من خلال بعض اللوحات للفنان ذات الطابع الذاتي لأمريكا الجنوبية، لوجدنا أن ذلك لا يرجع فقط إلى ميول إلى ما هو قديم، بل مما لا شك فيه أنها تستلهم إيحاءات مشهد طبيعي حيث يكتسب الضوء أهمية شديدة ودور بطولة. والدليل على أن الأمر ليس مجرد نزعة قوطية هو أن

توجهات الرسم عند هوجين تطورت في الاتجاه ذاته الذي كان عليه كبار الفنانين الباروك من الأوربيين، وهو عبارة عن أن "الضوء هو ممثل وبطل فريد في اللوحة وذلك بإزاحة شبه كاملة للظلال والإعلاء من شأن القيم ذات الشكل من خلال الاختلاف في الدرجة"(1).

غير أنه في إطار وجود سلسلة المرتفعات الشاهقة هذه فإن السماوات القريبة تجذب الأشياء نحوها، كما أن الأرض تتسم بقوة جاذبية إضافية، وهذا ما يتجلى في لوحات الفنان محل التعليق من خلال أشكال الأجساد، فطالما أنها لا تتمكن من الصعود إلى هذه القمم ترتطم بالأرض. نعرف أن كلا من خوسيه دي ميسا وتيرسا جيسبرت ناقدان ضليعان في دراسة الرسم في أعالي البيرو، وقد لفتا الانتباه إلى حالة التضاؤل والقزمية التي تُرى في اللوحات الكبرى لبيرث هوجين، حيث نجد أن ما يسيطر على شخوصه ويبرز هو الوجوه والأيدي والجزء الأكثر تعبيرا عن الجسد، وما تبقى من ذلك نجده منكمشا أو "مكرمشا"؛ ويرى الناقدان وجود شبه بين هذه الطريقة في الرسم وبين النقوش الحائطية للراقصين في "باب تياهواناكو Tiahuanaco التي تعتبر الأثر الأكبر في أعالي البيرو الذي يرجع إلى ما قبل عصر اكتشاف أمريكا، وأنه يرجع إلى ردود أفعال مشابهة إزاء السباق الواحد الذي يتسم بالتفرّد. وقالا أيضاً(2) في منطقة الأنديز الوعرة يشعر الإنسان بانه صغير وينكمش ثم يختبئ في ركن قصيّ من روحه، ويبقى أمام الله، وأمام عظمته التي يعبر عنها من خلال الخلق".

إنها عملية انكماش وإعلاء، وهي وعي بالتضاؤل الحيوي الذي عليه الإنسان وما يبرز ذلك؛ وهاتان هما صفتان متلازمتان فيما يتعلق بالتجربة الإنسانية في الأنديز مثلما عليه الحال في مذهب المانيرزم manerismo (التقصيّ والمظهرية) والهروب والتعبيرية الواقعية في لوحات بيرث هوجين. ويحدث الشيء نفسه في مدينة بوتوسي نفسها التي كانت حياتها تتردد بين قطب الحركات الاقتصادية الأقل اعتبارا وقيمة والخيال الهذياني الذي نراه وقد مثّله الفنان في لوحة "متحف أمريكا بمدريد" والتي تعتبر إحياء لذكرى

---

(1) خوسيه دي ميسا وتيرسا جيسبرت، "هوجين والرسم في أعالي البيرو أثناء نيرة نيابة الملك" لاباث ١٩٥٦م، ص٧٢.

(2) المصدر السابق، ص٧٦.

دخول أسقف دي تشاركاس، فرأى ديجو مورثيو روبيو دي أونيون، المدينة الإمبراطورية بوتوسي، عدة أيام، عندما كان ينتقل إلى ليما ليشغل منصب نائب الملك بالنيابة في البيرو.

تعتبر اللوحة إنتاجا أمينا للحفلات التي تنظمها المدينة؛ وهنا فإن الصفحات التي خصصها مؤرخها لوصفها، بار تولوميه أرسانز دي أوروسا إي بيلا[1] تتوافق مع المناظر المرسومة وتساعدنا على التوصل لفهم أفضل لمعنى المشاهد المتعددة التي تتضمنها اللوحة الضخمة. وخلال زمن قليل للغاية تمكنت بوتوسي من تجهيز الاستقبال بأن أقامت عقود نصر ضخمة وشارعا واسعا من الخشب وكذا ما يقرب من مائة وعشرين عقد من الفضة المشغولة. تظهر في اللوحة أيضاً، طبقا لوصف كاتب الحولية، الواجهات "وقد ازدانت من أعلى إلى أسفل بالزينات المعلقة والمتنوعة، من الساتان والقطيفة وألف سجادة"، كما أن الرسام أضاف من عندياته لوحات معلقة في الشرفات وكلها ذات موضوعات ميتولوجية.

لا يكاد يُرَى شيء من المدينة في المشهد الرئيسي الذي تصوره اللوحة، وهي مدينة مغطاة بالزينات مثلما يحدث في الاحتفالات المنيفة. وهنا يجب تدقيق النظر في الجزء المستطيل للتعرف على ميدان ريجو ثيخو P. Regocijo في بوتوسي، لحظة اقتراب الأسقف من كنيسة ماتريث. غير أنه إلى جانب ذلك الجزء هناك آخر ليبرز بأمانة شديدة "القناع" الليلي الذي جهزه المتخصصون في الزئبق والذي ظهر فيه "الأثنى عشر بطلاً من المشهورين، حيث يتم الاحتفال بالشهرة ويدخل ضمن هذا العدد القيصر كارلوس الخامس والسيد رضوان دي النمسا والسيد Cid وكلهم مدججون بالسلاح... وبعد ذلك الأثنتا عشرة عرافة وهن يرتدين ملابس فخمة ويمتطين صهوات الجياد... ويلى ذلك الإثيوبيون يصحبهم ملكهم المتوج بالمجوهرات والثياب".

لم يظهر أي شيء من الجبال أو السحاب أو الشخصيات الرفيعة الشأن أو رجال المجمع الكنسي، واقتصر الأمر على هذه الأخيلة المسرحية حيث فرضت نفسها كواقع مرئي - إضافة إلى صور القديسين والملائكة - نقول فرضت نفسها على ريشة الرسّام الأول في منطقة الأنديز. حدث الشيء نفسه بالنسبة لرسامين آخرين في أعالي البيرو، وحتى

---

(١)

يتمكن المرء من تكوين فكرة عن حياة كوثكو Cuzco من المهم اللجوء إلى اللوحات المجهولة المؤلف التي تزين كنيسة سانتا أنّ في العاصمة القديمة للإنك التي لا تكاد مبانيها ترى من وراء الستائر Colgaduras ومذابح الكنائس وعقود النصر المقامة بمناسبة الاحتفالية الكبرى لذكرى صلب المسيح، حيث كانت تطوف بها عربات مغطاة بطبقات من الفضة المشغولة وتحمل صور عدة جماعات دينية والفرسان الملكيين الذين يرتدون ملابسهم طبقا لتقاليد الإنك وهي ملابس مطرزة ومصحوبة بكافة الألقاب المتعلقة يكونهم فرسانا للجماعات الحربية وما على الرايات ورجال الدين الذين يرتدون ملابسهم الموشاة وأناس من مختلف السلالات والأوضاع الاجتماعية.

VIII- ألف ليلة وليلة في بوتوسي

نظرا للأهمية والقيمة العالية للآثار التي يمكن أن نشاهدها في المدينة الإمبراطورية نعرف ما كان ينفق على الملابس والجواهر ومأدبات الطعام والاحتفالات الدنيوية أو الدينية أو الجنائزية ، وكانت تصل إلى أرقام فلكية وهي أرقام أعلى بكثير مما كان يتم استثماره في المباني التي ظلت قائمة حتى الآن. كتب كانيتي [١] يقول : "التعبير عن الاستغراب للمبلغ الطائل من الفضة الذي أنفق على الاحتفالات والهدايا ومناحي أخرى دنيوية، وأنه لم يستخدم نصف عشره في عبادة الله" . وبعد ست سنوات على اكتشاف مناجم "المرتفع" Cerro فإن الأخماس الملكية التي تم تلقيها من قبل التاج وصلت طبقا لما كتبه بدرو ثيساليون [٢] "إلى أكثر مما كانت عليه عندما كان الأسبان في الطبلبة Atabaliba، كما لم يوجد مثله في مدينة كوثكو عندما تم اكتشافها" . وفي ظل هذه الثروة الضخمة ظهر سوق كان يتجاوز كثيرا كافة أسواق البيرو، حيث وصلت قيمة المبيعات في يوم واحد إلى أربعين ألف بيزو ذهبية "وأظن أن هذا لم يحدث في أي سوق في العالم" .

لم يكن ذلك الرقم مجرد ذكر لرقم بشكل اعتباطي ذلك أن إضافة قيمة الأشياء – وهذا ما أضافه كانيتي نفسه، الذي زار بوتوسي عام ١٥٤٨ بعد ثلاث سنوات على تأسيسها – كانت هناك أسواق كثيرة حيث كانت تباع فيها أنواع من المعاطف مثل Ruanes والأقمشة بسعر يكاد يكون زهيدا مثلما عليه الحال في إشبيليه" . ويقص علينا لويس كابوتشي أن الأنبذة "القوية والخفيفة" التي تنتجها قشتالة كانت تصل إلى بوتوسي وقد "أصبحت عالية الجودة" ، كما أن المعاملة التي شهدتها المدينة التي اقتصرت على

---

(١) المصدر السابق، الجزء الأول الفصل الاول، ص٣٩.

(٢) المصدر السابق، الجزء CX، الطبعة المشار إليها، ص٤٤٩.

الملابس القادمة من المصدر نفسه كان يصل حجم تجارتها إلى مليون ومائتي ألف بيزو. ظل استهلاك المنسوجات مرتفعا حتى نهاية القرن الثامن عشر، وهنا نجد كونكولوركوربو يكتب مشيرا إلى أن أفضل شيء في المدينة نجده "في الملابس الرائعة ذلك أن عوام النساء كان لهن أكثر من حُلَّة موشاة بالفضة والذهب وكأنهن أفضل مما عليه أميرة أستورياس"[1].

لا تتوقف الحوليات عن سرد العدد اللانهائي من المبيعات الثمينة الآتية من مختلف بلدان العالم إلى المدينة الإمبراطورية وليس فقط من البلاد الأوربية؛ كانت هناك ملابس حريرية تصل من الصين، وهناك الشمع الأبيض والسجاد من أفريقيا، والماس من سيلان، والعطور من شبه الجزيرة العربية، وقماش grana والزجاج والعاج والأحجار الثمين والباغة Cary من الهند الشرقية والتوابل والمسك، والغاليا Galia (حب المسك) والخزف الأبيض النفيس من ماليزيا malaca و Terranate وجوا Goa في الهند... الخ. وبالنسبة للوضع في بوتوسي لم تقتصر التجارة على المنتجات الغالية الثمن، رغم أن هذا كان أمرا معهودا آنذاك، بل امتدت إلى البضاعة الضرورية مثل الغذاء والأنشطة الأخرى في مدينة تقع وسط صحراء جرداء كما أنها كانت مع هذا المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أمريكا.

وبعد خمسة وعشرين عاما على تأسيس بوتوسي أصبح تعداد سكانها مائة وعشرين ألفا ثم زاد العدد ليصل إلى مائة وستين ألفا عام ١٦٥٠م بينما لم يتجاوز تعداد سكان ليما الخمسة عشر ألفا؛ وفي نهاية القرن الثامن عشر زاد عدد السكان حتى وصل إلى خمسين ألفا. وفي عام ١٧١٣م، أي عندما هبط الإنتاج في مناجم "المرتفع"، كان تعداد سكان المدينة الإمبراطورية تسعين ألفا وظلت آنذاك المدينة الأكبر في أمريكا. ولكن مع مرور السنوات خلال ذلك القرن تفوقت عليها مدينة المكسيك التي وصل تعداد سكانها عام ١٧٧٢م إلى مائة وإثنى عشر ألفا. أما بالنسبة للمستعمرات الكائنة في كل من فيرجينيا وماسوتشي تس massachussetts فلم تكن إلا عبارة مدن صغيرة جدا كأنها أطفال في سنّ التأتأة في الوقت الذي وصلت فيه شهرة بوتوسي إلى كافة أنحاء العالم وبثروتها من الفضة لدرجة أن أطلقت عليها عبارة " يساوي واحد بوتوسى " "Vale un Potosí".

---

(1) المصدر السابق، الجزء الثاني، الفصل الحادي عشر، ص٣٤٢.

كانت بوتوسي أول Far-West في العالم الجديد ولم يتم تجاوزها إلا حتى وقت قريب. كانت السلالات الأكثر تنوعا تختلط ببعضها في هذا الملتقى المرتفع؛ فهناك الهنود الذين أتوا من مختلف الأصقاع والذين تزاوجوا فيما بينهم ومع البيض؛ وهناك السود الذين أتوا من خلال مدينة بوينوس أيرس، والأجانب الذين أتوا من مختلف البلدان، وهم كُثُر مقارنة بمن كانوا في أية مدينة أخرى من الهند الغربية. وفيما يتعلق بعرَفاء القرن السادس عشر، نجد أن الأراشيف سجلت أسماء فرنسيين وإيطاليينَ وفينيسيين ويونانيين ومغاربة... الخ. كان البرتغاليون كثيرين في بوتوسي، وخاصة ابتداء من عام ١٦٤٠ عندما انفصلت بلادهم عن إسبانيا الأمر الذي أثار قلقا شديدا لدى سلطات شاركاس" Audiencia de Ch.. أما بالنسبة لمن جاءوا من نابولي لوحظ أن أعدادهم كانت آخذة في التزايد مما كانوا عليه عام ١٦٥٦م حيث كانوا يحاربون في صف واحد ضد الأندلسيين والبيروانيين، وكانوا حلفاء للباسكون والقطلان"[1]. أما بالنسبة للأقاليم الأسبانية فكانت كلها ممثلة في المدينة الإمبراطورية وذلك من خلال كل "أمة" واختلطوا بالسكان الأصليين، وصار شجار فيما بينهم كنوع من الإمرة الإقليمية لكل وهي أمر من الأمور التي يتسم بها أهل شبه جزيرة أيبيريا، كما أن هذه السمة أصبحت أكثر حدة في القارة الجديدة منذ السنوات الأولى للاستعمار. أضف إلى ذلك كانت هناك ثروات كثيرة وكان الصراع عليها قويا ذلك أن الجوانب القانونية والاقتصادية لم تكن حاسمة وواضحة كما أن المشاعر تتأجج بشكل أدى إلى أن تتحول المصادمات الخفيفة إلى معارك شوارع وذلك بعد أن تأسست المدينة منذ أعوام قليلة.

وفي عام ١٥٤٨م، أي العام الثالث على تأسس المدينة تسببت المعارك "بين القوميات" في وفاة أربعين فردا، من عام ١٥٨٥ حتى ١٥٨٨. وفي عام ١٥٨٦م تسبب المختلطون mestizos في حدوث تمرّد، وقبل ذلك بثلاث سنوات جرؤ شخص يدعي خوان فرناندث على القيام بمؤامرة لينصب نفسه ملكا على بوتوسي. كان ينوي السيطرة على المدينة بتعاون إخوته الذين يقيمون فيها، "ورغم أن فرناندث كان متزوجا إلا أنه اختار أرملة هي ماريا ألبارث وذلك ليتقاسم العرش معها". لكن السلطات تمكنت من

---

(١) بارتولوميه أرسانز دري أوروسا إي بيلا"، العمل المشار إليه، الجزء الأول، الكتاب التاسع، الفصل التاسع ورقة رقم ٣٢٥ V.

القبض على فرناندث قبل البدء في مشروعه؛ ومع هذا فإن تلك لم تكن المرة الأخيرة في إطار ما ولّدته الثروة الموجودة في بوتوسي من حُمى الطموح الذي لا حدود له.

وهناك من مثل هذه الأحداث ما يكفي لكتابة مجلد كبير مثل تلك المؤامرة التي اشتعلت غير أنها بين السيد/ جونثالو لويس دي كابريرا والمقرر القانوني "لإدارة شاركاس A. de Charcas، السيد خوان دياث دي أورتيث، اللذان حاولا، من بين تصرفات أخرى، أن يُدْخلا عبر نهر لابلاتا عام ١٥٩٩م عدة مئات من الإنجليز إلى شوكيساكا Chuquisaca وذلك لاستخدامهمْ في أعمالهم التعددية. ظلت بوتوسي على مدار زمن طويل المدينة الكبرى التي هي رمز الازدهار والقلاقل. هناك الاحتفالات والتحديات واللعب والخيانة والقتل والحرب، إذ ازدهر كل ذلك وكأنه إنتاج طبيعي لمجتمع في حالة تخمر وشديد البعد عن المراكز السياسية القائدة. وتحولت المعركة الفظة إلى متعة لقضاء الوقت وإلى نشاط اجتماعي مسموح به لدرجة أن أعضاء المجلس الكنسي كانوا يذهبون إلى الاجتماعات وهم مسلحون بالسيوف والبنادق تحميهم الدروع والزرد.

ولما لم تكد تمضي سنون كثيرة من القرن السابع عشر كان يتواجد في المدينة في وقت واحد سبعمائة أو ثمانمائة مغامر من المحترفين ومائة وعشرون من النبلاء، نذكر منهم السيدة/ كلارا، التي كانت تثير الرعب في القلوب بسبب ما كانت عليه من جمال وثراء طبقا لروايات كتّاب الحوليات، حيث كانت المرأة الأكثر خلابة في بوتوسي إذ كانت تعرف تزيين منزلها الضخم بكل شيء جميل آت من الشرق ومن أوربا، وحتى يتم عرض كل هذا الجمال وغيره من الأنشطة المشروعة كانت بوتوسي تتوفر على مسرح به كراسي يصل سعر الكرسي من أربعين إلى خمسين بيزو وكانت تجرى عروض تقوم بها فرق أربعة من الهزليين. أضف إلى ذلك أنها كانت تضم منذ نهاية القرن السادس عشر أكثر من أربع عشرة مدرسة للرقص. وحتى يتم إقامة احتفال ديني خلال تلك الفترة المذكورة قام أحد الحكام بتنظيم حفل ضخم في حديقة تم إعدادها مسبقا وحبس بها في النهاية كافة أنواع الحيوانات من تلك التي كانت على سفينة نوح."[1].

---

(١) Vid. لويس هانك "بوتوسي" المدينة الإمبراطورية: فصل لم يكتب في تاريخ العالم الجديد، ص١٥ وما تليها.

لم تصل الحياة المزدهرة في أي بقعة من بقاع الهند الجديدة مثلما وصلت إليه في تلك الأيام الزاهرة التي عاشها "المرتفع الفضي" Cerro de la Plata. كتب سلبادور دي ما دارياجا[1] "لم يعش الإنسان حياة أكثر حرية من تلك التي استطاعت فيها أن تركض قنطورات ولعه بالحقول الخاصة بواقع يتسم بأنه إيجابي وسحري تناقضا مع ما هو من الأحداث اليومية، وهو في الوقت ذاته ضمن مناخ مليء بالتهيؤات والرؤى التي يتم استلهامها من السماء ومن كهوف الجحيم، التي تم قبولها على أنها كائنات عادية مثل الكائنات الأخرى المخلوقة من لحم ودم. وصل الأمر بالحياة إلى هذه الدرجة من التجلي أدت إلى أن يكون الجحيم والفردوس، والمسرح والقصة وكتب الفروسية وقصص ألف ليلة وليلة تعيش على الأرض نفسها وتتنفس الهواء نفسه الذي يثلج صدور الرجال والنساء سواء في النهار أو الليل".

يتضمن كتاب "تاريخ المدينة الإمبراطورية بوتوسي" الذي ألفه بارتولوميه أرسانز دي أوروسا إي بيلا آلاف المشاهد التي تثير الدهشة الشديدة حيث يختلط فيها الأمر، بإيقاع قوي، بين السعادة والمأساة، واللعب والموت. وذات يوم طيب من عام ١٦٥٦ - في معرض الحديث عن واقعة شائعة ولافتة للانتباه - كان يلعب في "حيَل خوان بيُو" الأخوان سيلبيرو، من مواليد بوتوسي، مع بدرو دي أوربيان من الباسك، وَلما "كان العدو المشترك يحاول دائما إثارة المشاكل، تمكن من ديك Gallo الذي دخل بدوره في الدهاليز أو المماشي حيث كانت توضع الشموع، فطرده الفتيان، وفي هذه اللحظة قام الباسكي بحركة، كما قفز "الديك" أعلى المائدة وترك روثه فوقها فقال واحد من الأخوين سيلبيرو ها هو الريال مشيرا إلى الروث، لكن لما كان أوربيا قصير النظر عمل بما قيل له ففتح يده بسرعة فاتسخت بما كان يعتقد أنه ريال. غير أنه لما كان شديد الحرص وفكها واصل اللعب مع كل هؤلاء الذين كانوا هناك" لكن كان هناك باسكي آخر بين المتواجدين ملأه الغيظ فخرج ليثأر لكرامة ابن بلده. "هاج الجمع وماج وجرى إخراج السيوف من أغمادها في الشارع وأخذوا يضربون بعضهم البعض، وقتلوا السيد/ خوان دي باريّاجا باسكونجادا"[2]. ثم

---

(١) العمل المشار إليه سابقا ص٢٧٤.
(١)

عادوا للعراك في اليوم التالي وتسبب ذلك في مقتل فرد آخر، وفي الأيام اللاحقة واصل الريال الزائف إحداث أثره السيئ.

تتسم الحكايات الأنثوية بأنها متميزة للغاية في الحوليات الخاصة ببوتوسي. لا يمكن لخيال لوبي دي بيجا أن يصل إلى هذا الحد سواء فيما يتعلق بالمعاناة أو ما يتعلق بالمغامرة وأدوار البطولة. "وذات ليلة عندما خرجت هاتان الفتاتان/ السيدة إيوستاكيادي سووسا والسيدة/ أنا برنتا في سمت الرجال، قام إثنان من الخدم بقتل القاضي المذكور بالبندقية". وفيما يتعلق بالوصية السادسة فإن هاتين الفتاتين كانتا دقيقتين ذلك أنه "طوال أربعة عشر عاما، وفي غيبة الوالدين، أخذتا تسيران على سمت الرجال وطافتا بأغلب أجزاء البيرو، وعندما عادتا بعد مرور تلك السنوات وكانتا على وشك الموت سويا قالتا إنهما لا زالتا عذراوين لأنهما حافظتا على عفتهما".

وفي عام ١٦٠٦ هناك قصة حب على شاكلة قصة روميو وجولييت، نظرا للكراهية "الوطنية" التي كانت عليها الأسرتان؛ كانت هذه القصة بين السيد نيكولاس بابلو بونثي دي ليون والسيدة/ مارجريتا أستيتي، حيث تضمنت تلك الواقعة الشهيرة التي حدثت في فندق aposento دي شوكيساكا حيث كان يقيم الزوجان الجدد وهما "السيد/ دييجو دي موندراجون، ابن عم المتوفى، حيث أخذ سيف السيد/ نيكولاس ودخل إلى حيث كانت مارجاريتا وكانت نيته ومقصده مهلكين لدرجة أنه وصل إليها وهو يحمل خنجرا alfanje ويمسك بشعر رأسها ويذبحها، وعندما وجدت مارجاريتا أنها في خطر محدق لم تحرك يديها العاريتين والبيضاوين، وأعطاها الله القوة حتى تتمكن من إيقاف ذراع العدو. وهذا ما فعلته، بحمية ملحوظة حيث أمسكت الخنجر بكلتا يديها والذي كان يقبض عدوها عليه بقوة، ولما استعملت كل قوتها وجهته نحو الوجه حيث كان اتجاه نصل السلاح وتمكنت من إحداث جرح في وجه الباسكي إبتداء من الأنف حتى الرأس وغرسته في وجهه لمسافة ثلاثة أصابع وهنا وقع مغشيا عليه". خرجت مارجاريتا لتساعد زوجها وهي تحمل الخنجر في يدها بينما جسده مغطي بملاءة قرمزية اللون لأنه كان لا يرتدي إلا القميص"، و"في وقت وجيز تمكنا من دحر ثلاثة من أعدائهم إضافة إلى ذلك الذي تركته يصارع الموت"[1].

---

(١) المصدر السابق، الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل التاسع، ورقة ١٤٧.

لم يقتصر دور المرأة في بوتوسي على مجرد هذه التصرفات البطولية الإجبارية بل كان شائعا دخولهن في معارك تتعلق بالمبارزات الرسمية، وأحياناً ما يشاركن في الدفاع عن الغير مثلما حدث عام ١٦٤١م حيث شاركت السيدة/ جراثيانا جونثالث أخاها السيد بدرو في مواجهة تحد قاتل ضد شقيقتين هما: السيدة كتالينا والسيدة أنخلا "الطفلات الأميرات" إبنتا السيد/ أغسطين مورالس، حيث إستردتا شرفهما ولم يكن ذلك بموت المذنب فقط بل أيضاً من خلال سلوك الأخت التقية "صاحبة الحجة القوية وهذا هو الأمر الرئيسي، وكذا في أمر الخيل والسلاح"[1].

هناك حالة أخرى من حالات استرداد الشرف رغم أن ذلك في معرض مختلف، وهو المشاركة في البذخ الذي كانت عليه الحفلات التي كانت تعقد بمناسبة الأحداث الملكية وهذا ما يمكن أن يحدث في مدينة شديدة الارتباط بمصير الملكية الكاثوليكية ومصيرها. وفي عام ١٥٥٦م، أي بعد تأسيس مدينة بوتوسي بأحد عشر عاما شاركت في احتفالية تتويج فيليبي الثاني من خلال احتفالية استمرت أربعة وعشرين يوما وتكلفت ثمانية ملايين بيزو. لكن الأمر الأكثر إثارة للإعجاب والذي يصعب فهمه هو أن المدينة أنفقت ستة ملايين في جنازة فيليبي الثالث "والشيء نفسه مع باقي ملوك قشتالة"، طبقا لما أشار إليه كانيتي[2] فأي كمية من قماش القطيفة والقناديل velon وأتعاب المرتلين في الكنائس وأي كمية من الركام على القبر يمكن أن تكلف ستة ملايين بيزو!

لا زالت بوتوسي تسير حتى الآن على مثل هذه العادات الجنائزية الخاصة بحالات وفيات العظام وكذلك الأمر بالنسبة للملكية الكاثوليكية التي كانت عرضة للخطر، ومع هذا حظيت بهذا الدعم، وهذا ما نسمعه حتى اليوم من صوت يعتبر شاهدا على ذلك عبارة عن قصيدة رومانثية مجهولة المؤلف ترجع لعام ١٨٠٠م جاءت على لسان تلك المدينة الإمبراطورية التي كانت تحتضر:

إلى مليكي الكاثوليكي
الذي أهبه آخر نفس من عمري

---

(١) المصدر السابق، الجزء الأول، الكتاب الثامن عشر الفصل العشرون، ورقة ٢٦٣

(٢) المصدر السابق، الجزء الأول، الفصل الأول، ورقة ٣٧

يقدم له كل أتباعه
أنفسهم بكل تواضع
أعترف أني أدين له
بكياني وديانتي
وأن عزائي الوحيد
هو الموت في حمايته
وإلى كافة أبنائي المحزونين
أتركهم في يده الشريفة
متمنية أن تسمعهم وتنظر إليهم
لكونك أب وعاهل.

طُبعت هذه القصيدة في سلسلة كراسات تسمى "سلسلة الثقافة البوليفية" التي يديرها السيد/ أرماندو ألبا، وهو أيضا يرأس إدارة المتحف والأرشيف التابعين لدار سك العملة. وفي هذا المقر النبيل تجري الآن عملية ترتيب الوثائق ودراستها عندما كانت دار سك العملة تقوم بأداء مهامها، وفي الأدوار السفلى لها هناك الماكينات القديمة المستخدمة في سك العملة، وليس هذا فقط بل هناك آلات الطباعة اللينوتيب Linotipias وكذا ماكينات الطباعة وذلك بغية تصحيح خطأ كبير وقعت فيه بوتوسي أثناء قرون الأزدهار التي عاشتها: ففي خضم كل هذه الثروة لم يتم – حسب علمنا – نشر أي كتيّب فى المدينة الشهيرة.

لم تتوقف كتابة الحكايات والقصص والحوليات، ووصل عددها إلى المئات ذلك أن أهل بوتوسي كانوا يشعرون بالفخر بماضيهم كما أنهم كانوا مولعين بإبرازه وذلك لدعم "مطالب" المدينة أمام البلاط. لكن الزمن أتى على هذه المخطوطات واختفت أو أنها في انتظار من ينتشلها وينفض عنها التراب وهي موضوعة في الأراشيف والمكتبات، وقد وصل طابع التلاشي هذا الذي عليه المدينة إلى هذا الحد وهو أن أهلها لم يشاؤوا ترك مطبوعة حتى تكون عونا للأجيال القادمة، تحكى إحتفالاتها وثرواتها ومغامراتها وقصصها التي تضارع قصص ألف ليلة وليلة.

ومع هذا لم تغب ذكراها، إذ قامت الفصول التي تحكي حوليات مدينة بوتوسي بسد الفراغ في هذا المقام من خلال الاستلهامات الرومانسية لكتّاب بوليفيين ومن الدول المجاورة، نذكر من بينهم ريكاردو بالمان وبيشنتي ج. كيسادا، وموديستو أومستي، وخوان مانويل أبونتي، وخوليو قيصر بالديث... الخ، إلا أن القلم في مثل هذه الحالة قام بإدخال المزيد من عدم الوضوح بالنسبة لماضي المدينة الإمبراطورية بدلا من فعل العكس.

وفي الوقت الذي نجد فيه أرفف المكتبات عامرة بالكتب التي تتحدث عن الأب/ لاس كاساس فإن الفصل الأكثر إثارة للانتباه في تاريخ الهند الغربية، وهو الفصل الحاسم في باب التاريخ العام، لم يطبع بعد. وهذا أمر يبدو مؤشرا على موقف الهجر والإهمال من قبل المؤرخين المتخصصين في تاريخ أمريكا فقط ولكن كذلك بالنسبة للاعتساف الذي استخدم في إبراز الموضوعات الجديدة بالبحث. وهنا من المناسب أن يقوم أبناء بوتوسي وسوكري Sucre بإيقاف النيران المضرمة وذلك باستخدام تلك الوثائق المحفوظة في "بيت سك العملة" و"الأرشيف الوطني البوليفي"، أضف إلى ذلك تحفيز دراسة ونشر كل تلك الوثائق المبعثرة بين الأراشيف والمكتبات في جميع أنحاء العالم. كان من الأمور الأكثر إمتاعا أثناء الإقامة في بوتوسي ثم سوكري - أو قبل ذلك في لاباث، بفضل كرم وسخاء السيد/ خوسيه دي ميسا - أن أتلقى، بعدما طفت بهذه المدائن وبالجوار فيها وأعجبت بها، بواكير من الكتب التي كتبها دارسون معنيون بالسهر على دراساتهم، وأن أقضي وقتا ممتعا بالحديث مع هؤلاء الذين يقومون بإعادة كتابة تاريخ هذا الماضي التليد معتمدين على المصادر نفسها.

لم يقتصر الأمر على حوارات أكاديمية يجربها المؤرخ بل بشيء أكثر حيوية وأصالة حيث شارك في هذه المهمة أسبان من المقيمين في بوتوسي، من هؤلاء الذين يمارسون النشاط التجاري والتعديني وهو نشاط أكثر تواضعا مقارنة بما كان عليه الحال أيام لويس كابوتشي. كانت الدردشات تعقد في البيت الذي نزلت فيه ضيفا، وهو بيت لزوجين من الذين يعملون في حقل التجارة ولدا في مدينة ويلبه Huelva الأسبانية. البيت الذي نزلت فيه يشبه كثيرا بصحونه ودهاليزه تلك البيوت التي توجد في إقليم الأندلس الجنوبي، وهو بيت يُزيد من هذا الإحساس بفضل اللهجة الأندلسية لأصحابه وذلك يتناقض بقوة مع السياق الجغرافي المحيط. إلا أن إقليم الأندلس هو الأم لأمريكا حتى بالنسبة للأماكن

الموجودة في المرتفعات، وفي حالتنا هذه نجد أثره كسب الدعم القوي الذي جاء من لدن مالقي (من مالقة) أصيل، هو الذي تأملت سحنته الصامتة وبشرته السمراء على الطرف الآخر من العربة المطعم (عربة الطعام) عندما كان القطار يمر بمنطقة الكوندور Condor واتضح أن هذه هي لمن قام باستخدامه. أما وجهه الذي كان يبدو آنذاك ساهما وشاحبا بفعل التواجد في المناطق المرتفعة فذلك يرجع بشكل أكبر إلى داء الجبال والملل الناجم عن السفر في الخط نفسه يوما بعد آخر بكثرة تزيد على ما يقوم به القضاة أو التجار أو رجال البريد خلال عصر نيابة الملك Virreal.

استمرت حياة الأسبان الأوربيين – كما كان يقال ذلك قبل الاستقلال – على وتيرة نشاطها الكبير في مدينة بوتوسي التي تقلصت في زماننا هذا، وأصبحت بادية وكأنها شديدة الارتباط بحياة البوليفيين وهذا بناء على الثقة التي تسود في التعامل والاهتمام الذي يبديه الجميع في باب الإحياء البيبليوغرافي للشخصيات التي تشكل موروثا مشتركا. وها هو مؤلف أول كتاب مهم طبع في "سلسلة الثقافة البوليفية"، السيد/ بدرو بيشنتي كانيتي إي دومنجث من الناس المحتمين، عشية الاستقلال، رغم مولده في باراجواي، بالملكية والسلطة في شبه جزيرة أيبيريا على العالم الجديد، كما أنه كان من أنصار السخرة ويدافع عنها أمام هؤلاء الذين يدافعون عن إلغائها – ومن المعتاد أن يكونوا أسبانيا أوربيين – وهذا ما اتضح في دراسة[1] عن الكتاب وعن مؤلفه قدمها جونار مندوثا مدير "الأرشيف القومي لبوليفيا" وعقله المدبر. لكن لا تهم كثيرا الأيديولوجية التي عليها كانيتي والحقل الذي يقف فيه ويدافع عنه، فكتابه يشكل أفضل مصدر للحصول على معلومات تعرفنا بحياة مدينة بوتوسي في نهاية عصر نيابة الملك.

ورثت أسبانيا من خلال قلم أحد أبناء الرعية الوفي والموظف الكريّو Criolle، في إطار احتضار أملاكها في الهند الغربية، آخر شهادة عظيمة مكتوبة عن حياة المواطنين وهي شطية حياة محل تقدير وإعجاب. لكن تلك لم تكن اللحظة الأخيرة في مجد بوتوسي. وبالنسبة لمبنى بيت سك العملة، الذي ألف فيه كانيتي كتابه، والمبنى الذي يعتبر واحدا من

---

(١) جونا مندوثا "الدكتور السيد بدرو بيشنتي كانيتي والقصة الفعلة والسياسية لبوتوسي" جامعة سان فرانثيسكو خابير، سوكري ١٩٥٤م.

المباني الكبرى التي شيدت في أمريكا أثناء العصر الأسباني واستخدمت في بنائه موادا وطرائق فنية من الطراز الأول، نجد أنه شيد خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما كان الحال قد وصل بالمناجم الموجودة في "المرتفع" إلى انحطاط واضح. وبالقرب من هذا المبنى هناك كنيسة ماتريث التي تعتبر واحدة من النماذج الكبرى من بين الكاتدرائيات المشيدة في أمريكا وربما كانت آخر هذه المنشآت.

ليس ذلك العمل نتاج جهد من أحد كبار العرفاء المحليين الذين ساروا على الميول الخاصة بالسكان الأصليين من حيث نماذج دور العبادة في أوربا. إنما هو عمل يتسم بالبساطة والدقة تولي أمره معماري شديد الاحتراف. جرى تشييد المبنى خلال تلك الأيام الصعبة التي شهدت الكفاح من أجل الاستقلال، وهذا في حد ذاته دليل على أن حكومة نيابة الملك ربما فضلت أن تترك في المدينة الإمبراطورية شاهدا على تلك السلطة المحتضرة لهذه الإمبراطورية، وذلك من خلال دار عبادة كبرى تسير على الأسلوب الباروك الأسباني المحض والذي يخلو من أية ملامح لها صلة بما عليه الأسلوب نفسه في الإقليم الذي شيد فيه[1]. غير أن الأمر لم يكن نوعا من مخالفة التقاليد المتبعة في البلاد بل هو رسالة وحيدة محملة بالقيمة الفنية والروحية. وعلى "ميدان ريجوثيخو" الجميل تطل واجهة كنيسة ماتريث وعلى جانبيها برجا الأجراس اللذان يتسمان بالرشاقة، ويرتفعان الى عنان السماء الزرقاء الصافية في الصباح ولا نجد فيها ما يشين أو أن هناك ملمحا للوداع.

---

(1) إنريكي ماركو دورثا: العمل المشار إليه سابقا. ص٥٠.

IX- نزولا نحو مدينة سوكري Sucre

خلال الأزمنة الكلاسيكية لمدينة بوتوسي كان يتم النزول إلى مدينة سوكرى، ذات الأسماء الأربعة – لابلاتا، تشوكيساكا، وتشاركاس وهاهي الآن تسمى سوكري – وكان ذلك يتم من خلال طريق كانوا يطلقون عليه اسما شائعا هو "لاديريّاس" (البطيحاء بسبب تعرجاته وتضاريسه الصعبة في سفح الجبل"[1]. وهناك احتمال كبير في أن خط السكك الحديدية الذي يؤدي إلى مقر "الإدارة" القديمة Audiencia يأخذ المسار نفسه، وربما – على الأقل – لا يتغير كثيرا عن المسار القديم حيث يستغرق المرور به سبع ساعات لقطع خمسة وعشرين فرسخا، وهي المسافة بين المدينتين، طبقا لما تشير إليه الحوليات، ورغم الجهد الكبير الذي تقوم به القاطرة في الطريق من لاباث إلى بوتوسي فإن طريق شوكيسا ليس إلا عملية هبوط من أعلى إلى أسفل.

كان الشك ينتاب من في العاصمة فيما إذا كان الطريق مفتوحا أمام الركاب أم لا، ذلك لأنه عبارة عن خط بسيط تابع لشركة من شركات التعدين. لكن المخاوف لم تكن حقيقية بفضل الله وكان من الممكن النزول إلى تشوكيساكا القديمة حيث أن زيارتها ضرورية للغاية ومرتبطة ببوتوسي.

لم تكن العربة التي تنزلق على القضبان عربة قطار بالضرورة؛ لكنها كانت تبدو كذلك عندما وصلنا إلى المحطة في الصباح الباكر، ولكن عندما أخذت الوحدات تتحرك قامت كل وحدة بالحركة على طريقتها وكل له الموتور الخاص به وظلت كذلك منفردة ومستقلة عن بعضها وأخذت تصور صفاراتها وكأنها حافلات تسير في الطريق المزدحم

---

(١) كانيتي، العمل المشار إليه، الجزء الأول، الفصل الأول، ص٤٤.

الذي يسير في خط يكاد يكون موازيا لطريق السكك الحديدية. وأحيانا ما تبدو هذه الماكينات وكأنها في سباق وتبدو كأنها سوف يسبق بعضها بعضا غير أنه لما كان هناك شريط واحد للسكك الحديدية كانت مجبرة على فرصة الماكينات القادمة من الخلف وأنها يجب أن تظل في الطابور.

كانت السرعة ضئيلة للغاية لدرجة أن هذه الألعاب الظاهرية يمكن أن تسير عليها دون أية مخاطرة لم تكن هناك "دواوين" في العربات مثلما كان يحدث في الحافلات، ولما كان هذا شائعا في الأتوبيسات لم يكن هناك متسع لأي فرد. فالأغلبية العظمى من الركاب من الهنود باستثناء بعض المولدين مثل السائق. كنا في جماعة واحدة متلاصقين ومتضامنين ويواتينا شعور أفضل بقرب الآخر وجوار بعض الخلايا التي تشكل، مع خلايانا، النسيج نفسه؛ يصبح التلاحم أكثر قوة بفضل المشهد القاحل الذي أمامنا: ففي الداخل هناك كتلة بشرية متلاحمة، ولا يوجد أحد في الخارج. حيث كان هناك بعض المارّة أو بعض الرعاة الذين يمكن أن يقللوا من حدة إيقاع المشهد الخالي.

وطبقا لما يقصه كونكولور كوربو Concolorcorvo فإنه أثناء السير في الطريق من بوتوسي إلى شوكيسكا، هناك مكان وحيد يمكن فيه تقديم علف للبغال المستخدمة في البريد، أما بالنسبة للجمهور كان هناك "تامبو الجديد" Tambo Nuevo. وهذا التامبو هو عبارة عن فندق صغير، وهو أيضا عبارة عن مقرات وأماكن للبيع تسير على نهج ثقافة الإنك. وكان هناك من بينها اثنتان في الطريق الفاصل بين بوتوسي وتشوكيساكا: هناك في المقام الأول "فندق بارتولو"، ثم "الفندق الجديد". كان هناك فندق سابق يقع على بعد أربعة فراسخ من بوتوسي لكنه غير مستخدم ذلك أنه كان يقع بالقرب من ينابيع مياه معدنية يؤمها كثير من أهل المدينة وأحدثوا ضجة كبرى في المكان المخصص للبريد بسبب قيام "الرجال والنساء بالاختلاط ببعضهم والاستحمام سويا دون أدنى حياء أو اعتبار للمدير.. ، وبالتالي حدثت فوضى عارمة حتى بين الأشخاص الذين لم يكن بينهم أي صلة"؛ هناك سبب آخر وهو قيام المرضى والأصحاء باستخدام المياه نفسها وظل ذلك لمدة ثلاثة أيام دون تغييرها أو تبخيرها"[1].

---

(١) كونكولوركوربو. العمل المشار إليه، الجزء الثاني، الفصل الحادي عشر، ص٣٤٣.

ولابد أن المكان الذي توقفنا فيه هو ذلك الذي ينسب إلى "الفندق الجديد" (تامبو الجديد) طبقا للمسافة وللوصف الذي قدمه كونكور كوربو. وكان سبب الوقفة هو أن يقوم السائقون والركاب بتناول طعام الغداء: كانت أطعمة فلكلورية والتي تبدو وكأنها ختم وعلامة، في منتصف سلسلة الجبال، على تلك الطائفة التي تقيم في المكان طوال الرحلة وتعيش في حالة تبادل دائم وتلاصق جسدي والشهيق والزفير والرائحة والنظرات، وكذلك الصمت بصفة خاصة.

ومع هذا فما يتم الذهاب إليه في مدينة سوكري ليس الفلكلور أو السكان الأصليين بل عكس ذلك تحديدا: أي المدينة ذات الملامح الأسبانية في أعالي البيرو، والتي كانت منوطة بها المسئوليات القيادية الكبرى في كافة أنحاء البلاد. فإلى بوتوسي كانت تأتي من كافة الأرجاء منتجات متعددة وضرورية للحياة فيها، وكانت تتلقى من شوكيساكا مادة أكثر أثيرية من أية مواد أخرى، لكنها ضرورية للغاية في الحياة الاستعمارية الأمريكية: إنها العدالة، أي العدالة، والقانون حيث لم يكن يختص بإقامتها مباشرة ذلك المجتمع الذي يعيش في العالم الجديد بل كانت تصل إليهم من خلال قنوات تأتي من مدريد. هناك تعارض فريد للغاية بين حياة اجتماعية سريعة الإيقاع وغير مسبوقة وبين أجهزة قانونية سياسية متراكبة كانت تعمل في إطار الآلية اليونفرسال للملكية، وهذا التفرّد مقتصر على العالم الأسبانو أمريكي وخاصة في الأقاليم الشديدة التنوع التي تضمها الأمبراطورية، كما أنها غنية بحيواتها الخاصة بها التي تتسم بالأصالة مثلما هو الحال في أعالي البيرو.

ومع هذا فإن هذه الازدواجية في حالة كل من بوتوسي وتشوكيساكا لها ما يبررها بشكل كبير نظرا للظروف الشديدة الخصوصية التي كانت فيها الحياة في المدينة الإمبراطورية، إنها مجتمع حضري يقع في منطقة تقع على ارتفاع ٤١٠٠ مترا فوق سطح البحر ولا يمكن أن تكون كاملة السمات وبالتالي كان عليها أن تتنازل وتنقل بعض الأجهزة الضرورية لحياتها إلى مركز حضري هو في موقع جغرافي أفضل مثلما هو الحال في تشوكيساكا الواقعة على ارتفاع ٢٧٠٠ مترا فوق مستوى سطح البحر. ورغم أن المسافة الفاصلة بينهما تبلغ خمسة وعشرين فرسخا من الأرض الوعرة، كانت المدينتان، بوتوسي وتشوكيساكا، تشكلان من المنظور الاجتماعي والبيولوجي ما هو أكثر من مدينتين توءمين

أي مدينة واحدة، والرقعة المعمارية نفسها، والطريق الوحيد الذي يمر منه القطار كان يقوم بدور ليس الطريق الفاصل ولكن الشارع الكبير وكأنه شارع ربط.

كان يسير في هذا الشارع - عادة - الهنود وهم يحملون ثمار بحيرات chancas أو المزروعات وذلك لتزويد أسواق المدينة الإمبراطورية؛ وهناك أيضاً الهنود ولكن بشكل متقطع وخاصة الهنود الميتاي الذين هم في الأعم الأغلب من القرى التي كانت مجاورة لتشوكيساكا. وفي الطريق نفسه كان بعض سكان بوتوسي يهبطون بين يوم وآخر لحل مسائلهم القانونية والإدارية. كانت عاصمة نيابة الملك شديدة البعد بينما كانت إدارة تشاركاس Audiencia تتولي أمر المهام الحكومية، وتسهر على الحفاظ على النظام والإدارة الجيدة للمدن الواقعة في إطار حدودها الإدارية. وكانت تسهر بشكل خاص للغاية على رعاية "الخزانة الملكية" وعلى توزيع الهنود وهذه قضايا رئيسية ويومية في حياة بوتوسي.

وهربا من حياتها الهائجة كان ينزل منها - أي من المدينة الإمبراطورية، بعض سكانها بحثا عن الهدوء والأمن وذلك في حماية "الإدارة الملكية في تشوكيساكا". وأحيانا ما يتحول الأمر إلى عمليات هجرة جماعية لأمم بأكملها من تلك التي لا يمكن لها أن تتحمل تجاوزات المنافسين، مثلما حدث عام ١٦٢٢م "لأمة" الباسكونجادا" (الأصل الباسكي). كانوا يتسمون بالجفاء ويشعرون بالسخط. ومن المؤكد أنهم يتحدثون اللغة الباسكية خوفا من أن يشي بهم أحد، وكانوا يأتون إلى تشاركاس بأسمائهم التي تفوح منها رائحة منزل محاط ببنات الزان haya - بدرو دي ثاراتي وخوان أوتشوا دي ليجاربورو ودومنحو دي بيداورّيتا، وجابريل دي ريكالدي وإستيبان دي الداياجا وكريستوفل دي ليزاردي... الخ - "ليطلبوا علاجا لتفادي الموت وللجروح والمطاردات حيث كان يطردهم أبناء المحافظات الأسبانية الأخرى إلى تلك الأماكن لمدة ستة أشهر، ويصبحون من المتسولين والقتلة"[1].

هناك صراعات عنيفة ومعارك شديدة القسوة تحدث بسبب الكراهية التي تأصلت وطالت والناجمة عن أسباب اقتصادية، ذلك أننا نعرف أنه في عام ١٦٠١ كان الباسكيون

---

(١) Vid. جونار مندوثا ل. "الحرب الأهلية بين الباسكيون وبين أمم أخرى في بوتوسي" وثائق الأرشيف الوطني لبوليفيا (١٦٢٢-١٦٤١) في "كراسات سلسلة الثقافة البوليفية" بوتوسي، ١٩٥٤م، ص٤٠.

لديهم ثمانون رأساً من حيوان اللامة ingenio من إجمالي ١٣٢ رأسا كانت في بوتوسي، وكان ذلك أمرا من الصعب حله في نظر "الإدارة الملكية" غير أنه عندما كان المجرمون عبارة عن أفراد منعزلين ومن العوام كان يطبق عليهم سيف العدالة وأحيانا ما يتم ذلك بشكل غاية في السوقية وهذا مثلما نراه في حالة "الوبري" vicuma، بدرو جليقي. كان هؤلاء، الوبريون يسمون هكذا لأنهم كانوا يضعون على رؤوسهم قبعات من وبر اللامة أو بسبب نمطية الحياة التي يعيشونها" وهي حياة شبيهة بحياة تلك الحيوانات في منطقة الأنديز التي تتسم بسرعة الحركة. وكانوا مجموعة من الورثة، خارج نطاق الزمن، للغزاة الذين لم تعد أمامهم أرض لغزوها، فكانوا يعملون بالأجرة لدى العصابات المختلفة التي تستخدمهم كأداة لارتكاب الجرائم والتنفيس عن الكراهية. ومن هذا الصنف من "الوبريين" هناك نموذج شديد الخطورة هو بدرو جاييجوس، حيث تم التمكن منه بعد مطاردات عديدة وقتلته سلطات تشوكيساكا بفضل عملية ماكرة قام بها أحد شركائه وتم شنق جثته وقص رقبته بعد موته وجرى الإلقاء بأشلائه الأربعة في الطرق وعرضها ليكون عبرة للجميع كما وضعت رأسه في ميدان بوتوسي معلقة في خطاف حديدي.

هناك احتمال كبير في أن هذا التمثيل العنيف بالجثة تسبب في إحداث الفزع لدى بعض السيدات في بوتوسي من هؤلاء اللاتي كن ينزلن إلى تشوكيساكا لتلد وقد هالها ما حدث رغم ما كان عليه من جرأة وبسالة. وطبقا لرواية بعض المؤرخين ففي غضون خمسين سنة منذ تأسيس بوتوسي لم تر المدينة أي وليد لأبوين أسبانيين ذلك أن البرد الزائد عن الحد والهواء الجليدي كان يتسبب في مقتل الأطفال عند ولادتهم أو قبل ذلك بخمسة عشر يوما. كما أن أول طفل تربّى وولد في بوتوسي، طبقا لرواية الأب كالانشا، كان عام ١١٩٨م، وهو السيد نيكولاس فلورس، وكان هذا جائزة بفضل الثقة المقدسة التي وضعها والداه التقيين في القديس نيكولاس دي تولنتينو. ورغم أن حالات الميلاد التي تمت بنجاح أخذت تزداد شيوعا بعد ذلك، طبقا لما يقصه كانيتي[١] حيث نسب حالات الفشل السابقة إلى أن المنازل لم تكن مريحة خلال الأزمنة الأولى، غير أن هذه المنازل المريحة كانت أكثر عددا في مدينة تشوكيساكا تلك المدينة اللطيفة والتي كانت النساء تقصدنها من أجل الولادة وخاصة اللواتي يستطعن ذلك.

---

(١) العمل المشار إليه. الجزء الأول، الفصل الأول، ص٤١.

لم تقتصر العلاقات القوية بين المدينتين على الجوانب التي أشرنا إليها سابقا، بل تعدى ذلك إلى جانب آخر شديد الأهمية بالنسبة لحياة بوتوسي، وهو ذلك الخاص بالتقدير لعملتها. ومن بين الأسباب التي جعلت العملة الأسبانية في الهند الغربية أساسا للمعاملات الدولية وفي العالم أجمع على مدار ثلاثة قرون هو أن التاج الأسباني حافظ بقوة على درجة نقاء (القراريط) العملة ووزنها. ولم يكن أحد يشك في جودة العملة الأسبانية لأنها كانت تتمتع بضمان قانوني وأخلاقي من قبل الملكية الكاثوليكية، وهنا تتجلى من جديد النتائج الإيجابية والحديثة لبعض السمات المحددة التي تبدو أنها متخلفة من حيث الظاهر، ومرتبطة بالعصور الوسطى والعقلية الأسبانية آنذاك.

وإذا ما كان لدى الأسبان حسّ نفعي وحسابي أكبر بالنسبة للحياة لم يكونوا ليضعوا في اعتبارهم هذا الاحترام الشديد لقيمة العملة. فالميزان الذي تم التأكد من دقته في بوتوسي كان أمرا شديد القداسة وهو فوق الحسابات والمصالح الخاصة، كما أنه يحظى بدعم الصليب والسيف وهما أداتان كانتا بمثابة رمز يتجلى من خلال الأسقف ورئيس إقليم تشاركاس Audiencia. هناك اللاهوتيون والدعّاة من جانب وهناك موظفو التاج من جانب آخر، حيث يقوم الجميع بالعمل الدؤوب حتى تخرج من هذا العالم المتلاطم الأمواج والذي لا يهدأ في بوتوسي عملة حقيقية يمكن أن يثق فيها كافة التجار على ظهر الأرض مهما كانت نوعية الخداع التي عليها من يتداولونها. من الصعب أن نتصور أنه لو كانت بوتوسي الخاضعة في استغلال مناجمها على يد "شركة الهند الغربية" تسير على نفس الشاكلة التي عليها، لو كانت أداة من أدوات الاستعمار الهولندي والفرنسي والإنجليزي، من حيث ضبط موازينها وديناميكية الأداء فيها في إطار أول مظهر للرأسمالية، وهذا يرجع إلى استقلالها الذي لا يضارع ونزاهتها.

من المهم في هذا المقام أن نبرز كيف أن الأب أكوستا يتحدث عن برد الفضة بنغمة رجل مهذب يتلقى الاعترافات في مقر الشركة "إن الميزان شديد الحساسية، كما أن الأوزان أو الجرامات كانت شديدة الصغر لدرجة لا يمكن معها إمساكها بالأصابع بل بملقاط، كما أن الميزان كان يتم تحت ضوء القنديل بحيث لا يكون هناك تيار هواء يمكن أن يؤثر على الميزان، ذلك أن هذا الفارق الصغير جدا في الوزن يمكن أن يغير من سعر وقيمة عود من الفضة. حقا هو أمر شديد الحساسية ويتطلب مهارة عالية يفيد منها أيضاً الكتاب المقدس في

مواطن عدة وذلك للتدليل على أن الله يختبر عباده وللفت الانتباه للاختلاف القائم بين الأنفس وخاصة بالنسبة لـ Jeremías، النبي الذي لقبه الرب بلقب "الحكّاك" ensayador وذلك حتى يوضح القيمة الروحية للبشر وأعمالهم، وهذا من تجارة "روح الله التي تقوم بوزن أرواح البشر"[1].

تواصل قضبان السكة الحديد نزولها ومعها تزداد مساحات الخضرة التي تغطي السفح كنوع من الإعلان عن الوادي الذي يرويه نهر بيلكومايو pilcomayo بمجراه الواسع المليء بالحصى ومياهه العكرة أحيانا والغزيرة خاصة بالنسبة لمن سار في هذا الطريق آتيا من "لاباث" ولم يجد حتى شجرة أو نهرا. وفي الجانب الشرقي لسلسلة Corolillera حيث توجد مدينة سوكري، هناك وفرة من البحيرات أكثر عددا مما هو في المناطق الجبلية كما استطاعت أن تفتح لنفسها مجرى لتفريغ ما بها وتكوّن عن ذلك أنهار ذات أهمية مثل النهر الذي يتحدث عنه بيلكومايو الذي يمتد في الأراضي Chaco البوليفية وأراضي باراجواي، كما أنه يتسبب هناك في إثارة مشاعر الأسى بفيضاناته وما يغرقه من أماكن وهذا واحد من أحد التناقضات العنيفة في الطبيعة الأمريكية.

تشعر العيون بالرضا بما يحدثه تيار من المياه وياله من حجم كبير لا يشعر به إلا أبناء بوتوسي الذين اعتادوا على عدم رؤية المياه اللهم إلا من خلال البحيرات وبقايا مياه ناجمة عن ذوبان الثلوج أو تلك المياه التي أسهم افنسان في تجميعها لتشغيل الطواحين الموجودة على الضفة Ribera لنهر قليل المياه ومستخدم في الصناعة! هناك الكثير منهم من الذين يشكرون تهاون "السلطة الملكية" التي أهملت في استكمال الجسر الكبير بيلكو Pilco وبالتالي كانوا مجبرين على خوض النهر مستعينين بأهل الخبرة في هذا وهم Chimbadores حيث كانوا يقومون بعملهم من خلال حفر فجوات مجرى النهر ويجعلوه بذلك شديدة الخطورة في الخوض بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون عبوره دون إرشاداتهم، حتى أثناء فترات انخفاض منسوب المياه.

هذه المعجزة التي جاءت من لدن مجرى نهر بيلكومايو تتكرر بعد فترة وجيزة ذلك أن خط السكك الحديدية يعبر نهرا آخر وهو نهر كاتشيموتشو Cachimocho الذي يعبر

---

(١) التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند الغربية" الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر، الطبعة المشار إليها ص١٠٦.

واديا أكثر ثراء وكثافة سكانية. كان نهر الكاتشيموتشو بحقوله الشهيرة وكأنه -في نظر كتّاب الحوليات - مدينة أرانخويث Aranjuez في تشوكيساكا. وحقيقة الأمر أن كان هناك بالفعل بيوت وسط المناطق الخضراء وهي بيوت ذات شيء من الأهمية شيدت لبعض الأسر في مدينة سوكري دون الحاجة إلى استخدام أرض المكان بتحويلها إلى حدائق أو غابات شجر الحور، ذلك أن الخضرة في تلك الأصقاع تعتبر أمرا عظيما يكاد يكون أفضل من أي حديقة فرنسية Chateau. وبالنسبة لهذه المنازل نجد أن السيد ألونسو كاريّو أليا كونكولوركوربو وجد لها "شبيها في إقليم كانتابريا وهو بيوت الأشراف"؛ غير أنه من الضروري في هذا المقام أن نصحح ما قاله بيدكر Baedecker، وحتى يتولد الانطباع بأن المرء موجود في إقليم كانتابريا من الضروري الولوج بشكل أكبر في المنطقة الاستوائية والوصول إلى مدينة كيتو. وفي المنطقة المحيطة بمدينة تشوكيساكا يمكن أن تكون المقارنة بمدينة أرانخويث أكثر منطقية أو ببعض الودية الضيقة التي تفتح لها مكانا بصعوبة في "السلسلة الأيبيرية".

يسير القطار بعض الوقت بمحاذاة النهر، وهنا يبدو بالفعل وكأننا ننزلق نحو شرق الأندلس، ويتولد لدينا الانطباع كرَحّالة بأنه يلج فى حقول كبيرة لكن الوادي يظل ضيقا حيث يوجد محددا بالمرتفعات القريبة منه بشكل أو بآخر. أما في كوتشا بامبا فإن السلسلة الجبلية قد تخلت عن مكانها لتفسح المجال لواد واسع ويافع حيث تقع المدينة في وسطه. لم تتمكن مدينة تشوكيساكا من الكثير من هذا كما أن منازلها البيضاء اللون تنتشر تحبط بها الشمس والهضاب.

X- التحرر والولاء

تدخل الرطوبة الثرية والضئيلة، في آن، في تشوكيساكا وتغطيها بالشجر والزهور إضافة إلى نعومة تتناثر في الضوء الذي ينفذ إلى المكان، ثم تأخذ شكلا ولونا في واجهات المباني وفي تصرفات السكان. إنها نعومة تجوب الفضاء وسرعان ما ستختفي من الأراضي البوليفية عند تجاوز المرتفعات الواقعة الي جوار سلسلة الأنديز، وعندها سوف ينزل الرحّالة إلى محافظة سانتا كروث في حوض نهر الأمازون. تعتبر الأودية التي تحيط بكل من مدينة سوكري وكوتشابامبا أمراً انتقاليا بين الجفاف الشديد الذي نراه في مرتفعات الأنديز، وبين الرطوبة التي ليست أقل شدة في الغابات الاستوائية. إنها لحظة توازن جغرافي تعتبر بمثابة قاعدة لنوع آخر من التوازن الاجتماعي والتاريخي الصعب.

نشعر بالدهشة إزاء الغالبية العظمى في أمريكا المتحدثة بالأسبانية، وهذا ما لا ينتظره الرحّالة، أي أنها كان يمكن أن تكون على شاكلة ما يراه في أوربا وفي كثير من البلدان الأسيوية، وكأنها ثمرة الأرض نفسها. غير أن المدن في بوليفيا تقدم لنا مفاجأة فريدة: فقد بناها الرجال في هذه الأرض وبذلوا جهودا مضنية وهذا ما نراه في بوتوسي، أو كانت جهودهم أقل من ذلك لكنها مستمرة وهذا ما نراه في مدينة سوكري الحالية. وهنا لا يدري المرء ما الذي يثير إعجابه بشكل أكبر هل هي التصرفات الفروسية التي تؤكد ذاتها من خلال المدينة الإمبراطورية في مواجهة الإطار المحيط، أم هل يعجب بالدقة والرشاقة التي عليها مدينة تشوكيساكا. وجد السيد/ ألونسو كاريّو، أثناء رحلته الطويلة في أمريكا الجنوبية، أن مدينة تشوكيساكا هي "المدينة الأكثر تخطيطا مقارنة بكافة المدن التي رآها وأنها تضم الكثير من السكان حسني الهندام على شاكلة ما يمكن أن يجده المرء في بوتوسي وأورورو Oruro وباث، وكوثكو وهوامانجا Huamanga فيما يتعلق بالجنس الناعم.

ومن حقائق الأمور أن الطبع يظهر على الملامح، كما أن الاتصال برجال الأدب يجعلهن جذابات، كما أن تواجد المتنافسين وكذا القساوسة الأغنياء يساعد على جذب أفضل البضائع في المناطق المجاورة، وأحيانا كثيرة تأتي من مناطق بعيدة"[1].

كان رجال الدين والقضاة والمدرسون الجامعيون، في جامعة سان فرانثيسكو خابير وأغنياء تجارة الزئبق الذين انسحبوا من العمل بحثا عن راحة مستحقة، يسهمون في تنقية أداء البوليس النسائي في تشوكيساكا وكذا البوليس العام في كافة أنحاء المدينة. كما أن منازل المدينة تبدو أفضل تنظيما وحظوة بالعناية مقارنة بما هي عليه في بوتوسي. تكثر في المدينة البيوت الكبيرة ذات الواجهات والشرفات التي تحظى بالكثير من العناية، ولها صحن كبير ومساحات غرفها كبيرة، وتكاد تصل إلى قصور حقيقية. ظلت أغلب المنازل التي ترجع إلى القرن الثامن عشر على حالها تقريبا حتى وقع الزلزال عام ١٨٤٨م، ورغم هذا فلا زال هناك عدد مهم من هذه المنازل قائما في المدينة وخاصة المنشآت الدينية وهي مبان تتسم بالدقة في الأسلوب المعماري والزخرفي جديرة بالإعجاب في واحدة من المدائن التي يصعب الوصول إليها في الهند الغربية.

وإذا ما استثنينا كنيسة سان فرانثيسكو ذات المكونات من أشكال زخرفية مدجنة وهي القصاع، سيرا على النموذج الذي عليه كنيسة في كيتو تحمل الاسم نفسه، إضافة إلى بعض الكنائس الأخرى، لوجدنا أن مدينة سوكري يسيطر عليها فن الباروك الذي يسير على نهج أفضل نماذجه الموجودة في أوربا. هناك بعض المباني التي تسير على الأسلوب المختلط السائد في الأنديز، كما أنه أسلوب غاية في الأهمية في مدن أخرى في أعالي البيرو، لكنها تتسم بأنها مجموعات صغيرة مثلما نرى ذلك في دير لاس مونيكاس وهو بناء يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وقام به أحد العرفاء في بوتوسي الذي شرب أصول الصنعة على يد ذلك العلامة مجهول الاسم الذي تولى في تلك المدينة بناء "بيت ريكو خيداس". وبشكل عام فإن الإسهامات المعمارية القادمة من المدينة الإمبراطورية، بوتوسي، كانت تفقد الشكل الضخم الذي كان السمة الأساسية في حياتها، وأخذ يتطور

---

(١) كونكو لوروكوربو. العمل المشار إليه سابقا، الجزء الثاني، الفصل الثاني عشر، الطبعة المشار إليها ص٣٤٦.

في تسوكيساكا إلى أشكال أكثر رقيا وتوازنا وأكثر أوربية مثلما هو الحال بالنسبة لمقر كبار رجالات "الإدارة الكنسية والمدينة".

كانت تشوكيساكا تختلف اختلافا واضحا، مقارنة ببوتوسي، من حيث الهدوء، فبينما كان سكانها يقتتلون فيما بينهم لأي سبب كانت تتسم شوارع تشوكيساكا، حتى مع نهاية القرن الثامن عشر، عندما كان يخرج للتنزه فيها أحد كبار المسئولين في "الإدارة الملكية" كان التجار يغلقون محالهم لمرافقتهم وملاطفتهم. كما أن سكان تشوكيساكا كانوا دائما يدخلون - وما زالوا يفعلون حتى الآن - من الباب الرائع المسمى "عذراء جوادالوبي" للولوج إلى الكاتدرائية، وهي المركز الكنسي لأعالي البيرو، وكانوا دائما ما يشعرون، ولو كان ذلك في اللاوعي، بأنهم يدخلون مقرا ضخما. كانت الواجهة تنسب إلى فن الباروك، في نهاية القرن الثامن عشر، حيث نجد الكثير من العناصر الزخرفية التي يتأتى عنها هذا التناقض بين النور والظل ولها واجهات علوية منحنية انحناء رشيقا ودون الميل إلى الأذواق الخاصة بالسكان الأصليين. وهذا لا يعني أن ذلك كان تحديا لهم أو أنه أمر مفروض عليهم، بل إن الباروك هو فن يتسم بالرشاقة وأنه فن متفهِّم من أجل أن يبقى على جنسية مزدوجة هي الأوربية والأمريكية.

ظلت تشوكيساكا وفية للأساليب الأوربية وظلت على ذلك عندما لم تتمكن الأنماط المعمارية في المدينة من أن تقدم لها نماذج تواكب العصر الذي تعيش فيه. وهنا فإن الكاتدرائية نفسها ومعها واجهة كنيسة "عذراء جواد الوبي"، تفصح في داخلها عن دقائق أسلوب الروكوكو الفرنسي في أنقى صوره. وإذا ما أردنا نموذجا أدق لوجدناه في كنيسة سان فيليبي نيري التي أقيمت خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، حيث تمثل تعبيرا عن أفضل عمارة تسير عل قواعد هذا الأسلوب في تلك الأصقاع وكذا الرغبة في أن تواكب الحياة في الغرب التي كانت تحكم تشوكيساكا.

يدعونا هذا النموذج لتأمل، ليس فقط من الناحية الجمالية بل من الناحية السياسية، في تلك الواجهة الرشيقة وما عليه الأبواب في كنيسة سان فيليبي نيري من جمال، وما عليه أعمدتها المربعة pilastras التي تتسم بتوازنها الرائع، كلها تعبر عن التأثير الفرنسي الذي كان ينفذ من خلال ميناء بوينوس أيرس ويصل إلى قلب أمريكا الجنوبية، حاملا معه الكثير

من المخاطر على الأملاك الأسبانية في القارة الجديدة. غير أنه سوف يكون خطأ كبيرا القول بأن استقلال الهند الغربية كان قد انبثق بشكل مباشر من الأفكار الثورية الفرنسية. إذن كان الاستقلال عملية شديدة التعقيد حيث تضافرت مجموعة من التيارات والتوجهات ذات الأصول الأيبيرية مثلما نجد ذلك في تاريخ استقلال بوليفيا التي تعتبر مثالا واضحا في هذا المقام.

ومن الأمور ذات الدلالة والفائدة القوية في هذا المقام زيارة المبنى الذي اجتمع فيه أول "برلمان للجمهورية" بما فيه من سقف من زخارف على شكل القصاع الخشبية والكورس المرتفع، على الطراز الباروك والمستتر oculto الذي كان يلقى بضوء مُصلى موضوع فوق اللوحة المحاطة بالأعلام والخاصة بالجنرال سوكري Sucre. ولا يمكن للرحالة إلا أن يتذكر كنيسة سان فيليبي نيري التي اجتمع فيها أشهر زعامات "برلمان قادش" حيث شاركهم في الحضور عندئذ بعض النواب الأمريكان. من البدهي الإشارة إلى أن المقر الذي اجتمع فيه ممثلو بلد تعداد سكانه مليون نسمة هو أصغر من المقر الموجود في العاصمة. ومن البدهي أيضاً، سواء في مدينة قادش أو مدينة سوكري، أن الأماكن المهيأة بشكل أفضل لمثل هذه الاجتماعات هي المنشآت الدينية، إلا أن المستخدمين المعتادين لها، وهم رجال الدين، لم يتخلوا عن القيام بدور مهم في الحالتين. كانت الهيئات القانونية والسياسية الجديدة تريد أن يُطعِّم بعضها بعضا على شاطئ الأطلنطي سيرا على موروث قديم. وهنا نجد أن سيلبيو ثابالا[1] يقول: "هؤلاء الذين قاموا منذ المعركة من أجل الاستقلال بالدفاع عن مفهوم الحرية في الحياة غير ملزمين بالتخلي عن الماضي الأسبانو أمريكي في مجمله، ذلك أنه يتضمن قيما يمكن أن تقدم المساندة والتحفيز لذلك الدفاع نفسه".

وكان على مدينة تسوكيساكا أن تكون المركز القائد في الجمهورية الجديدة، لأنها كانت كذلك في عصر نيابة الملك: فإبتداء من أعالي البيرو والحدود الخاصة بتلك كانت تتوافق مع الحدود الإدارية التي تتبع "السلطة الملكية لشاركاس"، وتحقق الاستقلال دون أي قلاقل داخلية قد تذكر. وحقيقة الأمر أنه في عام ١٨٠٩م انفجرت في كل من

---

(١) "الفلسفة السياسية الخاصة بغزو أمريكا". المكسيك ١٩٤٧م، ص١٥٣.

تشوكيساكا ولاباث انتفاضات عفوية، غير أن هذه الانتفاضات وكذا القوات الانفصالية الأرجينتينية التي أخذت تتقدم نحو أعالي البيرو منيت بهزيمة على يد الملكيين، الأمر الذي يشير إلى أنه أثناء حروب الاستقلال الأمريكية عاشت الأراضي التابعة "لسلطة تشاركاس" بشكل سلمي تحت إشراف الجيش الأسباني إلى ما بعد الانتصار الذي تحقق في أياكوتو Ayacucho حيث لم تكن محافظات أعالي البيرو جزءا من هذا الاستسلام.

عندما تقدم الجنرال سوكري في أراضيها لم يكن من الصعب عليه أن يقضي على القوة الأسبانية في توموسلا Tumusla؛ إلا أن البلاد أصبحت تعيش موقفا فيه حيرة وكأنها مركب في مهب الرياح، وأسهمت في ذلك التغيرات التي حدثت بالنسبة لحدودها الإدارية أثناء العقود الأخيرة للنظام الاستعماري. كانت المدينة تتبع نيابة الملك في البيرو حتى عام ١٧٧٦م؛ لكن عندما تم في ذلك الحين إنشاء نيابة الملك الجديدة وهي "ريو دي لابلاتا" جرى ضمها إليها، ثم جرى انفصالها وإلحاقها من جديد بالبيرو عام ١٨١٠م خوفا من الفورات الثورية في بوينوس أيرس. وهنا فإن منطقة أعالي البيرو الكائنة في مرتفعات الأنديز ابتعدت منذ ذلك الحين عن التقلبات المحيطة بها من خلال نظام استقلال ذاتي فعلي بالنسبة لنيابات الملك التي عاشت حالة تناحر فيما بينها، وهذا ما أدى بها إلى أن تصبح دولة مستقلة تحت الإشراف المباشر لسوكري وكذا الإدارة العليا لبوليفار "المشرِّع" الجديد للجمهورية الوليدة.

كان ذلك واحدا من المواقف المهمة التي كانت تُرَى في خريطة العالم الجديد خلال القرن التاسع عشر، رغم أن الأمر كان يتطلب في نهاية المطاف التحول الضروري والملّح مثلما كان يحدث في أغلب الأحيان بالنسبة لموقف قائم سلفا. كانت مراكز التعدين ومدنها العجيبة التي أسسها الأسبان السبب الجوهري وراء قيام الجمهورية الجديدة. ورغم أنه كان يتواجد بها نسبة كبيرة من السكان الأصليين مقارنة بباقي البلدان الأمريكية فقد تأسست كافة المدن البوليفية المهمة - مثل لاباث وأورورو وسوكري وكوتشابامبا وبوتوسي وتاريخا ... الخ - على يد الأسبان، كما أن الغالبية العظمى منها كانت مطبوعة بالعقلية الغربية وأنماط حياتها وذلك بسبب الدور الحاسم الذي لعبته في شروق شمس العالم الحديث.

وخلاصة القول هو أن بوليفيا هي موروث بوتوسي: أي النبل والموروث الأليم. ففي تلك الفترة التي صعد فيها سيمون بوليفار إلى أقصى مكان مرتفع في "مرتفع الفضة" Cerro ليعلن للعالم نهاية ملحمته، توقف استغلال مناجمها وكذا كافة مناجم البلاد تقريبا بسبب التوترات الاجتماعية الناجمة عن حروب الاستقلال وما تلاها من حروب أهلية؛ أضف إلى ذلك هبوط سعر الفضة في الأسواق العالمية. وفي هذه الأثناء كانت المدينة الإمبراطورية يبلغ تعداد سكانها عندما زارها بوليفار ٢٥ ألف نسمة، ثم أخذ يتناقص بسرعة حتى وصل إلى ثمانية آلاف نسمة، وبذلك تحولت إلى رمز حيّ لما آلت إليه البلاد.

كان يمكن أن يقوم البلد المجاور، باراجواي، بالابتعاد عن باقي أنحاء العالم، وأقام حائطا للصين تحت إمرة الجنرال فرنسا، والسبب أنها كانت أثناء فترة الحكم الأسباني بلدا ذا اقتصاد مغلق بفضل نظامها الكنسي المسمى hortus reclusus. غير أن الحالة البوليفية كانت على النقيض تماما من الحالة السابقة فقد شكلت اليوتوبيا المُعَاشة أيضاً في أعالي البيرو توجها بعدم الانغلاق وعدم العمل على البحث عن الكمال الهادئ بل الانفتاح على العالم أجمع استناداً إلى قاعدة اقتصادية مرتبطة بالتبادل التجاري الدولي. المحصلة إذن هي التهاوي الصارخ للثروة الرئيسية للبلاد الأمر الذي جعلها تعرف أقسى المتاعب التي تعرض لها بلد من آسيا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر.

في منتصف ذلك القرن كانت الخزانة البوليفية تتغذى على الضرائب التي يتم تحصيلها على نبات الكوكا وكذلك الاحتكار التجاري لمادة الكينين. ولم تكن هذه الدخول ذات أهمية مقارنة بذلك العائد من وراء استغلال مناجم الفضة، أضف إلى ذلك أنها غير مستقرة. وفي نهاية القرن أخذت تجارة مادة الكينين تتهاوى وكان على بوليفيا العمل على الإبقاء على وجودها الصعب من خلال البحث عن بديل وذلك من خلال استخراج الكاوتشوك؛ غير أنه عندما أصبحت البرازيل جزءا من محافظة أكري Acre اعتبارا من عام ١٩٠٣م حالت دون تمتع بوليفيا من احتياطياتها المهمة من هذه المادة الخام الأكثر أهمية وكان ذلك قبل وقت قصير من قيام شيلي بالاستيلاء على منتجات "السماد الصناعي guano" عندما أجبرت بوليفيا على التخلي عن محافظاتها المطلة على الشاطئ. وعلى هذا لم يكن أمام هذا البلد إلا العودة إلى العمل القديم وهو استغلال المناجم، بالاستفادة من ارتفاع الأسعار العالمية للمواد المستخرجة، رغم أن هذا الاستغلال لم يصل إلى استخراج المعادن "النقية" بل "غير النقية

مثل النحاس والقصدير". وأصبحت الأنشطة الصناعية رهنا للتذبذبات المضنية في الأسواق الرأسمالية.

لم تتوفر الجمهورية الصغيرة على قوات للدفاع عن أراضيها في مواجهة جيرانها الأفضل تموضعا وتوسعا، كما لم تتمكن من ذلك في باب الاقتصاد العالمي. كانت بوتوسي في موضع القلب منها، لكنها كانت قطعة جوهرية في الماكينة الاقتصادية الضخمة آنذاك. أسهم تفكك الإمبراطورية الأسبانية الناجم عن المشاعر الوطنية المتأججة في قطع تلك الشبكة الضخمة من العلاقات التي كانت ضرورية لبوتوسي وتركها بدون حماية تواجه مستقبلا مليئا بالمشاكل. وعندما نتأمل الخريطة الشديدة التفكك التي كانت عليها أمريكا اللاتينية خلال القرن التاسع عشر سوف نجد أن أغلب الموارد الضرورية لاستقلال بوتوسي وكذا غيرها من مراكز التعدين خلال العصر الكلاسيكي كانت تأتي من أقاليم خارج البلاد.

وعلى هذا أصبحت هذه المدينة تعيش موروثا صعبا بعد أن كانت من أكثر المناطق طموحا في العالم الجديد وأكثر مدنه أصالة؛ فمن جانب ورثت ذلك الثقل الميت لذلك المجتمع المصطنع الذي كان من الممكن أن يعيش فقط، بفضل ظروفه الجغرافية الفريدة والسياسية؛ التي تدخل في تراكب معقد ذي طبيعة اقتصادية وسياسية؛ ومن جانب آخر ورثت المدينة أيضاً روح التطاحن والفوضى التي كانت السمة الواضحة في مباني أعالي البيرو أثناء أفضل أوقاتها وقد زاد هذا التطاحن بسبب التوجهات التي سادت خلال القرن التاسع عشر الأمر الذي أسهم في إضعاف القوى الداخلية للبلاد وتفكيكها بسبب سلسلة من الحروب المؤسفة بما فيها آخر حرب ضد الباراجواى من أجل السيطرة على تشاكو Chaco.

تصبح بوليفيا إذن بسبب مصيرها غير العادي بلدا مريضا. هو مريض جغرافيا وكذلك في كل نواحي الحياة الاجتماعية، وليس هناك أي بلد آخر في عالم آسبانوأمريكا المثير للمشاكل يستحق دراسة إكلينيكية مثل هذا البلد، فليس هناك أي بلد مثله قام كثيرون من الأجانب بإصدار أرائهم بتوصيف أمراضه. هناك الكثير من الأرفف التي تملؤها تقارير الدراسات الخاصة بشأن الثروات الطبيعية في البلاد وحالتها المالية والإدارة الضريبية والملكية

الزراعية والتربية العامة ووسائل الاتصال. . . الخ. كما لا تقدم الدراسات التي يقدمها المؤرخون، وهنا نجد أن أحد العارفين بماضي هذا البلد وحاضره وهو لويس هانك يقول بأن "الموقف الحالي في بوليفيا يرجع إلى عام ١٥٤٥ أي تاريخ اكتشاف تلك الثروة الطائلة من الفضة في بوتوسي، والتي سرعان ما تحولت إلى واحد من أشهر المناجم في العالم"(١).

هناك بعض المؤرخين الذين يقولون بأن بوتوسي هي المسئولة عن فرض نمط اقتصادي اجتماعي ضار، حيث أعلى من شأن الربحية السريعة للمناجم وترك الزراعة مهملة لدرجة أن نموها كان معرضا لخطر شديد وأسهم في استمرارية مجتمع إقطاعي. لا يعدم المنطق بشكل ما الطرح الذي يقدمه أولئك المؤرخون، شريطة ألا ننسى أن بوليفيا مدينة لبوتوسي ليس فقط بالأنماط الاجتماعية الإقطاعية بل بتلك الأخرى التي كانت شديدة التقدمية على زمانها كما أنها تدين لها بوجودها بخيره أو بشره. هناك احتمال كبير في أن يكون مستقبل بوليفيا في الزراعة والرعي، وليس في المناجم، وخاصة الزراعة في المحافظات السفلى وهي بني beni وسانتا كروث. لكن ما لا يمكن التنويه به هو أن الأسبان لم يقوموا بوضع نظام لاستغلال الثروات الطبيعية، قائم حتى اليوم، سواء خلال القرن السادس عشر أو الثامن عشر.

ورغم أن هذا البلد هو واحد من الأقاليم في الهند الغربية التي دفعت – ولا زالت– ثمنا غاليا لانضمامها السريع والمثير إلى العالم الغربي، لا يُرى بين سكانه، وربما كان ذلك على الأقل سائدا بين أوساط المثقفين، تلك النقمة على الماضي الأسباني الذي يرى في جمهوريات أخرى واضحا من تلك ذات الطبيعة الأفضل وكذا المصير التاريخي. فهؤلاء الناس الذين يعرفون تاريخ بوتوسي بعمق وكذا تاريخ باقي المدائن الأخرى في أعالي البيرو، يعرفون جيدا تلك المعاناة والكوارث التي تحملها السكان الأصليون. وليس من الضروري أن يكون المرء على دراية كبيرة بالوثائق التاريخية، إذ يكفي التنزه في الأحياء الشعبية لاكتشاف آثار ماض قاس في المنازل وأنماط الحياة وعلى الوجوه الصامتة لسكانها. غير أن الأفراد الأكثر وعيا بالمصير التاريخي لوطنهم، ليس فقط بالنسبة للماضي بل فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل، وكذلك انخراطهم في أحزاب سياسية تنوي القيام بتحولات

---

(١) أمريكا اللاتينية (قارة في مرحلة تخمّر) – المكسيك ١٩٦١م، ص١٦٧.

اجتماعية عميقة وهذا ما فعلته، رغم ذلك تدرك كلها أن مصير البلاد لا يرتبط أكثر بأهواء الذين يقومون باستغلال المناجم بل بالمصير المزدوج الذي وهبها المعاناة والفقر وكذا الفخار المذهل والمفاجئ وكذا كيانها فوق كل اعتبار.

ومن الأمور المثيرة للدهشة في التاريخ أنه لكي يتم البدء في المراحل الدينامية لما قبل الرأسمالية في العالم الحديث، هذا قبل إغراقه بشكل مسبق بالنقود، هو الإفادة من نشاط شعب يجهل استخدام العملة. فإذا ما كان هناك بلد من البلدان وجد نفسه يسير على أحد الأنماط الاقتصادية التي هي على طرف النقيض مما كان ستطبقه الرأسمالية الحديثة فإن هذا البلد هو الإمبراطورية الجماعية لثقافة الإنك. فمن خلال لعبة سيئة لعبها القدر نجد أن الفلاحين الذين كانوا يعملون في الزراعات المشتركة ويسيرون على عاداتهم، تحولوا إلى جماعات ما قبل البروليتاريا وذلك بفضل الظروف الجغرافية والعرقية. كما أنه لعب لعبة سيئة أيضاً بالنسبة لأصحاب الأعمال في بوتوسي، فهذا الموروث العظيم المتمثل في المرتفع الغني بالثروة لا زال يحدث تأثيره السلبي على الناس من ذوي الأصول الأسبانية من أبناء القارة العجوز. وإذا ما نحينا جانبا تلك النظريات التي تساق حول عدم القدرة الفطرية، وأخذنا نبحث عن سبب تاريخ محدد ودقيق به الملامح الرمزية لاسم ويساعدنا على فهم جوانب القصور الرئيسية في عقلية الأسبان وسلوكها الاقتصادي سواء كان في أفضل لحظاته تاريخيا أم اليوم فلا يوجد سبب آخر يضارع ذلك الذي يحمله ذلك الاسم الأسطوري وهو بوتوسي.

وربما يندرج تحت هذا الاسم أيضا أحد أكبر الديون التي يدين بها الأسبان للإنسانية، وليس هذا لأسباب اقتصادية فقط ولكن لأسباب أخرى أكثر قوة تصل لدرجة الملحمية. ولهذا أيضاً فإن الحنين الرومانسي للقومية البوليفية لا يمكن إرواؤه بواسطة مفاهيم ضبابية ترجع إلى ما قبل العصر الاستعماري. ومن هنا فإن الأطلال الأكثر شهرة في البلاد، وربما في أمريكا الجنوبية كلها، وهي أطلال تيا أوانكو Tiahuanaco، لا يمكن أن تكون ذلك الجذر الرومانسي لجوانب ثقافية للسكان الأصليين، على شاكلة ما هو موجود في كوثكو أو المكسيك، ذلك أنها كانت أطلالا ترجع إلى وقت بعيد قبل مجيء الأسبان. والأولى في هذا المقام هو أنه بدلا من إرواء العطش الرومانسي من أطلال معبد لا تعرف عنه شيئا يجب إرواء عطش قلب البلاد من خلال ما هو موجود من الكتل الحجرية والوثائق

والأساطير التي تعيش عليها المدن التابعة لنيابة الملك والتي نجحت في أن تعيش فصلاً من الفصول المضنية والرائعة - والمأساوية أيضاً - في إطار التاريخ العام للعالم الغربي.

XI- بحيرة تيتيكاكا من حيث أنها متوسطية

كانت المياه الداخلية ضرورية لتطوير الحضارة في صورة جرعات مناسبة تصل عن طريق نهر أو المتوسطي، غير أن أمريكا الجنوبية ليس بها إلا القليل من هذا، ففيما يتعلق بالبحار الداخلية نجد أن أمريكا الوسطى تتوفر على خليج المكسيك والكاريبي، أما أمريكا الشمالية فتتوفر على البحيرات الكبرى والتعرجات العميقة في الشواطىء، لكن أمريكا الجنوبية تتولى استغلال شواطئها بشكل حاسم ومغلق وهذا ما يصل إلى أقصى مداه على الشاطىء المطل على المحيط الباسفيكي بسبب مرتفعات الإنديز. أما بالنسبة للأنهار فإن كثرتها المبالغ فيها وكذا الحالة المناخية المسيطرة جعلت من هذه الأنهار غير صالحة في كثير من الأحيان لتطوير الثقافة البشرية. وهنا نجد أن أفضل وديان الأنهار، وهو وادي نهر بلاتا، أخذ يقوم بدور مهم ليس منذ وقت بعيد.

غير أن القانون العالمي السائد حول الأصول المائية للثقافات البشرية الكبرى لم يحد عن مساره في حالة أمريكا، بل تأكدت صحته لأقصى مدى بسبب أنه تم الوفاء به بالكامل. توفرت أمريكا الجنوبية أيضاً على تطوير ثقافاتها السابقة على العصر الاستعماري، على المتوسطية Mediterraneo، وهو اعتماد قليل إلا أنه يمكن أن يفخر بوجود اسمه مقارنة بأسماء أخرى ذلك أنه ليس فقط موجودا بوفرة ومحاطا بالأرض من كل جانب بل يقف فوقها على ارتفاع شاهق أعلى بكثير من المرتفعات الموجودة في شبه جزيرة أيبيريا، أي أنها على ارتفاع ٣٨٧٠م فوق مستوى سطح البحر.

ها هي بحيرة تيتيكاكا التي يبلغ مسطحها المائي ثلاثة أضعاف أكبر بحيرة أوربية وهي كونستانثا Constanza إضافة إلى عمق مشابه لها، تضم ثروة مائية قادرة على حماية نفسها من التغيرات المناخية في الفصول المختلفة والقيام بدور الوسيط في المناخ العام. وهذا يعني

القيام بملحمة جغرافية حقيقية نظرا للظروف غير المواتية المحيطة بها والتي فرضت عليها التدهور المستمر والبطيء. اكتشف الجيولوجيون وجود قاعدة من الغيْرين توضح بجلاء انخفاض مستوى مياه البحيرة حوالي ٢٥ مترا ونقصان كمية المياه إلى النصف. سجل العلماء أيضاً وجود بحيرة أخرى مجاورة لكنها أوسع من الأولى كانت تتغذى على مياه بحيرة تيتيكاكا لكن لم يتبق من هذه البحيرة إلا بحيرة بوبو Poopó، حيث تجري نحوها المياه القادمة من تلك ليتحول الأمر بعد ذلك إلى مذبحة شمسية ضخمة.

ورغم أن الأسبان لم يأتوا من بلد قاحل، لم يتمكنوا من فهم هذه الظاهرة العملاقة التي تتمثل في تبخر المياه وافترضوا أن المياه تفتح لها "طريقا في بطن الأرض ثم يؤول بها الحال، كما هي العادة بالنسبة للمياه في أي مكان، إلى البحر". كان هناك سبب أخلاقي وميتافيزيقي حتى يفكر الأسباني على هذا النحو: "حيواتنا عبارة عن أنهار تصب في البحر/ ألا وهو مجرى الموت". غير أنه من المهم عند الحديث عن حالة بحيرة تيتيكاكا أن نقلب المفهوم الخاص بأبيات الشعر السابقة - حيواتنا عبارة... - وسوف يشعر هؤلاء الذين لم يقرؤوا أبيات الشعر من مرثية خورخي مانريكي بالمفاجأة عندما يعبرون على شواطئ البحيرة، ويعرفون، كما يعرف الجيولوجيون اليوم، أن البحر ليس المصب النهائي بل هو أصل مياه البحيرة! الأمر هو أن الحوض المغلق الذي عليه بحيرة تيتيكاكا تكون من مجموعات من المرتفعات المحيطة أتت من تحت سطح البحر ووصلت بها إلى أربعة آلاف متر ارتفاعاً؛ وفي هذا المقام هناك دليل دامغ على هذه الظاهرة الغريبة هو أن مياه البحيرة لا زالت تشهد وجود أحياء مائية - Caballitos de mar- تعيش فيها على مدار ملايين السنين ابتداء من ارتفاعها من تحت البحر وتوفر لديها الوقت لتتأقلم على المياه العذبة والباردة للبحيرة من خلال بعض التغيرات التي عليها ومن أمثلة ذلك انكماش حجمها.

هناك الحد الأدنى من الشبه بحوض البحر المتوسط أو ما يماثله، وبالتالي لعبت بحيرة تيتيكاكا دورا حيويا بهذا الشكل على مدار تاريخ أمريكا الجنوبية سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية والدينية. وعلى شواطئها أمكن استئناس اللاما llamas وممارسة نشاط الزراعة وخاصة في النباتات الدرنية الضرورية لغذاء شعوب العالم الجديد وكذا القارة العجوز مثل البطاطس. وعلى شواطئ البحيرة أيضاً أقيمت الآثار التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ في أمريكا الجنوبية سواء في القطاع الشمالي للبحيرة، أي في بوكارا

Pucara، على الأراضي البيروانية، أو في الجنوب، في تياوانـا كـو Tihaunaco، وكلـها ثقافات سابقة على ثقافة الأنك مما جعل جزيرة تيتيكاكا الموجودة وسط مياه البحيرة تـشرف بوجود أحد أفضل النماذج المعمارية وبالتالي أصبحت الجزيـرة مهـد الـشمس الوليـدة مـن جديد بعد الطوفان مثلما هي أيضاً مهد ملوكهم.

تعتبر تياواناكو واحدة من الشواهد الأكثر قدما في الثقافات الهندية التي عاشت قبـل الوصول إلى مستوى الحياة الحضرية ولهذا السبب تحديدا نجـد أن تلـك الآثـار مبعثـرة وغـير مرتبة ورغم أن المرء يمكن أن يشاهدها برفقة أحد رجال الآثار فإنه لا يـستطيع أن يباعـد عـن ذهنه الـشعور بـالحيرة. مـن الـصعب إذن بالنـسبة للـهاوي والمتخـصص أن يلخـصا هـذه المجموعة من المنحوتات والحفر والأكوام في وحدة واحدة، والأكثـر مـن هـذا الـتمكن مـن الكشف عن البعد الاجتماعي والديني لهذا الجهد المعماري العمـلاق الـذي تمثـل في القـدرة على نقل كتل حجرية يبلغ وزنها مائة طن.

كانت تياواناكو حقلا من الأطلال عندما وصل إليها الأسبان، لكنهم لم يتمكنوا من معرفة الكثير عن أصولها. وها هو الفارس بدرو ثياثا دي ليون بفضوله المعرفي خلال عـصر النهضة يطوف بأشهر الأماكن الأثرية في البيرو - حيث نجد بعضها وقد استمر أربعـة قـرون قبل أن يكتشف[1] - ويحصل من السكان الأصليين الذي سألهم في تياهواناكو، عـن إجابـة، لكن هذه الإجابة تمثلت في أنهم "سمعوا من أجدادهم أن أصبح الصباح فوجدوا ما وجـدوه هناك". كما لم يكن من الممكن في تياهواناكو كتابة مـوروث شـفاهي مثلمـا هـو الحـال في الآثار الإنكية، ولم يجد هذا الفارس Cieza إلا القبول بهـذه الافتراضـات الحقيقيـة والـتي تكتنفها المخاطرة وعبر عن أسفه من خلال عبارة ترجع إلى عصر النهضة تقـول "لمـا لم يـتم العثور في هذا العالم الجديد للهند الغربيـة علـى حـروف مكتوبـة فلـيس لـدينا إلا الحـدس بالنسبة لكثير من الأمور"[2].

غير أن الاعتماد على "الحدس" وأن "الأمور غامضة" لا ينقص من الأمر شيئا بـل يجعل الكتل الحجرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الاكتشاف ذات مذاق آثاري بالمعنى الحـرفي

---

(1) Vid J.A. den Mason: The ancient civilization of Peru. Pelican Book, 1961, page 93.

(٢) العمل المشار إليه سابقا الفصل CV الطبعة المشار إليها ص٤٤٦، ٤٤٧.

للفظة المشتقة من المفردة اليونانية التي تعني البداية[1]. وهذا الغموض الراديكالي للبداية في حالة العالم الجديد هو شديد القرب من الحاضر عنه من القديم؛ وبذلك فإن أطلال تياهوناكو توجد بالنسبة لنا على بعد زمني من عدة قرون الأمر الذي يشكل ثلث الفترة الزمنية التي تفصل بينها وبين الأهرامات المصرية. غير أنها تتسم بأنها أكثر غموضا لهذا السبب نفسه. ترك الزمن التاريخي بصماته على الأهرامات من خلال النصوص المقدسة المنقوشة على حوائطها واستمر حتى يومنا هذا كأمر مثير للتفكير لكنه مرتب طالما أن الكتل الحجرية في تياهوناكا لا تحمل أية نقوش كتابية كما أن المرحلة الزمنية التي ترجع إليها قطعت فجأة ولا ندري متى وكيف، قبل أن يكون للإنسان الأوربي تواجد هناك.

لابد أن ما حدث كان دراميا ومفاجئا وهذا بسبب التنظيم الرفيع المفترض في المجتمع الذي قام بتشييد معبد تياهوناكو باستخدام كتل حجرية ثقيلة للغاية ومجلوبة من محاجر بعيدة. وفي سلسلة جبال الإنديز كانت العبادة تحتم بذل الجهد الجسدي الذي يكاد يصل إلى درجة الجيولوجية وهذا ما كان يتجاوز الجهد المبذول عادة. تظهر في كل مكان فيه المنحوتات الموجودة في تياهوناكو وتحت الملابس أو في الشعر ووراء ملامح الوجوه تلك الكتلة ذات الشكل المتعدد الزوايا. ويدخل في هذا تلك النقوش الغائرة الخاصة "ببوابة الشمس" الشهيرة حيث تبدو وكأنها ملصوقة على سطح العمارة المكونة من كتلة حجرية واحدة وكأنها رسومات لقطعة نسجية تم تثبيتها على السطح. ولهذا وانطلاقا من النجاح الخاص في المواءمة بين التأثير الجمالي للعناصر سواء من حيث المنظور القريب أم البعيد تعتبر "بوابة الشمس" وهي غارقة في الضوء في المنطقة الوعرة، واحدة من الآثار الأكثر تفردا في الفنون التي ترجع إلى ما قبل عصر الاكتشاف.

لكن ليس من حق الشمس كهنوتيا أن تستولي على ذلك الأثر رغم أنه يُنسب إليها حسب التعبير الشائع، فذلك الإله الذي نراه في الباب من المؤكد أنه بيراكواتشا Viracocha؛ وطبقا للأب أكوستا" خرج هذا الإله من بحيرة كبرى هي تيتيكاكا واستقر به المقام في تياجواناكو Tiaguanaco قبل قيام إمبراطورية الأنك على يد الهنود "الكوياس" Collas الذين يقيمون في إقليم تيتيكاكا ونظراً لأنه يطلق عليه اسم كوياو

(١) Vid المؤلف: مقالات حول الفن والمجتمع، مجلة "الغرب" مدريد ١٩٥٥م، ص٧٥ وما يليها.

فإنه محاط بالأساطير والأرباب الذين لهم صلة بما هو مائي، وهذا ما نعرفه من Collao خلال الشاعر جارثيلاسو دي لايبجا" من سلالة الإنك، الذي يعتبر أفضل مفسر للميتولوجيا والتاريخ في وطنه أفضل من كتاب الحوليات الأسبان، نظرا لمعرفته لغة السكان الأصليين وصلته القوية بتلك الأساطير والوقائع مثلما "رضعتها أنا"[1]. كان الهنود "الكوياس" يفخرون - طبقا لما يقصه علينا الكاتب الكبير - بأنهم من أشياء كثيرة: فبعضهم من بحيرة تيتيكاكا وآخرون من ينبوع كبير، ومن نهر أو من "كهوف ومن أماكن ضيقة ذات صخور كبيرة".

وفي الوقت الذي استمرت فيه طبيعة العقلية الدينية للسكان الأصليين شائعة بين هؤلاء الذين يعيشون على شواطئ بحيرة تيتيكاكا ظلت المبادئ الميتولوجية المائية مسيطرة على المكان وشمل ذلك بكل تأكيد تياهواناكو. كما أن العبادة الشمسية كانت شديدة الارتباط ببعضها البعض مثلما حدث ذلك مرات عديدة في القارات الأخرى[2] ابتداء من مصر وحتى اليابان وكان ذلك من خلال تأسيس نظام سياسي مركزي، والشيء نفسه حدث أيضاً مرات عديدة في جبال الأنديز حيث اختلطت الأساطير الخاصة بالكون بالأساطير السياسية وأبرزت مرة أخرى التراسل في العلاقة القائمة بين "الآلهة والملوك". وفي هذا السياق نجد جارثيلاسو دي لابيجا يدرك هذه الظاهرة عندما كتب أن الإنك العاشقين والفلاسفة والعلماء في الجمهورية كانوا يقولون بأنه "عندما نشرت الشمس أولى أشعتها على جزيرة تيتيكاكا" بعد الطوفان " لتغير العالم، كان ذلك برهانا ووعدا بأن في ذلك المكان نفسه ستضع أول مولوديها اللذين سوف يقومان بتنوير وتعليم أولئك الناس وإخراجهم من الطور الحيواني الذي يعيشون فيه مثلما فعل ذلك الملوك في وقت لاحق".

فرض الإنك انتصار ما هو ديني سماوي على ما هو مائي وكان ذلك تحديدا في مكان ملائم للتغيير، ووجد الإله الأنديزي نفسه مضطرا أن يذعن أكثر من إله البحر اليوناني (Poesidón) للإله زيوس الذي جعل من المياه مسرحا لتجلياته الكونية وكذا تجلياته السياسية. لكن رغم التدهور الذي حلّ به إلا أنه لم يُهزَم، وكذلك الأمر بالنسبة لبحيرة

---

(١) "تعليقات فعلية من الإنك" الكتاب الأول، الفصل العاشر في "الأعمال الكاملة لجارثيلاسودي لابيجا الإنكي" B.A.E. - مدريد ١٩٦٠م الثاني، ص٣٨.

(٢) العمل المشار إليه سابقا، الجزء الثالث، الفصل ٢٥، الطبعة المشار إليها، الجزء الثاني، ص١١٩.

تيتيكاكا التي لم تُهزَم بأشعة الشمس الحارقة. وقبل ذلك، عندما يتناقص منسوبها فإن مياهها تفسح المجال أمام أراضي رطبة وطازجة وتعتبر أماكن فريدة في المرتفعات مقارنة بسطح البحيرة.

نرى في المسافة المكونة من عدة كيلومترات والفاصلة بين تياهواناكو وبين جواكي Guaqui الواقعة على شاطئ بحيرة تيتيكاكا مشهدا ثريا بالمزروعات والخضرة ورؤوس الماشية والمساكن. كان إقليم الكوياو Collao، على مدار القرون، واحدا من المناطق الكثيرة السكان والمتطورة في كافة أنحاء البيرو. وإذا ما كانت الأطلال التي نجدها في كل من بوكارا Pucara وتياهواناكو تقدم لنا الشواهد على أهميتها قبل وجود الإنك فالكنائس الجميلة المنتشرة في الإقليم تبرهن على الأهمية التي ظلت عليها أثناء فترة نيابة الملك. وكلما اقترب الرّحالة من البحيرة كلما زاد الانطباع عنده بأنه في مُقَام قديم للإنسانية وتطفر على ذهنه ذكريات أقاليم أخرى شبيهة في العالم القديم، وتسير حيوانات اللامة، التي تحمل عدد الفلاحة، بقوة مقارنة بتلك التي نجدها في المرتفعات في طريق الأرض المزروعة، وبذلك يزداد الغموض بالنسبة لهذا النوع وتواجده، ورغم أنه لم يكن هناك نخيل أو حتى أشجار فإنها – أي اللامة – تذكرنا بشكل ما بالحمير، وتذكرنا بشكل آخر بالجمال في وادي النيل.

هناك مساحة صغيرة من هذه الأرض اليافعة، رغم أن البحيرة نفسها توحي بانطباع كأنها ترغب في أن تنسحب من المكان لزيادة الأرض المزروعة. هناك تأخر بعض الشيء في اكتشاف مياهها المتوارية تحت ستار من النباتات المستخدمة في العلف التي تنمو ليس في الطين الواقع على حافة البحيرة وإنما تحت المياه، وحتى يتم الإفادة من هذا العلف المغذي نجد الحيوانات تدخل إلى تلك المناطق المائية ولا تظهر منها إلا رؤوسها وظهورها. ويمكن القول بأن هذه الحيوانات تبلل نفسها لمقاومة العطش القوي الذي يسيطر على المرتفعات وتتحول إلى حيوانات برمائية، أو أن الثيران غير الحريصة أغرقت نفسها – وها هي غاية في الهدوء – لعدم خبرتها بعالم السوائل. يقلدها الناس، فعلى متن القوارب المصنوعة من الأثل junco الأصفر والتي يطلق عليها توتورا Totora ولها قلاع من المادة الخام نفسها، يشقون عباب المياه للصيد ونقل البضائع أو ليعيشوا متعة العيش، كنوع من الاحتجاج على مصيرهم ووضعيتهم في هذه الجغرافيا، في مجموعة من القرى العائمة.

وسرعان ما تمكن الأوربيون، وهم أناس يركبون البحار، من اتخاذ مواقع لهم في ذلك البحر المتوسط الغريب الذي يقع وسط المنطقة الجبلية، وأخذوا يبحرون فيه ويستغلونه. ولقد وجد ثيثا دي ليون السفن الشراعية ذات القلعين bergantines لخوان لادريّرو الرجل الذي يهوى قياس أعماق ذلك البحر الصغير. ومن بين الظواهر المهمة التي تكمن وراء الجهد الذي بذل في عملية الغزو كانت عملية أعداد مساقط للمراكب على الأرض proyección وذلك لبلوغ مياه بحر الجنوب وكذا بحيرات المكسيك أو بحيرة تيتيكاكا وكأنها قذفت بآلة المنجنيق إلا أن الهدف الأصعب في البلوغ كان هذا الأخير ولم يكن ذلك بسبب ارتفاعه الشديد بل لعدم وجود أخشاب صالحة لبناء السفن على مدار مئات الكيلومترات في الجوار.

لم تبحر هذه المراكب ذات الصواري المزدوجة على مدار سنوات كثيرة في بحيرة تيتيكاكا. وسرعات ما تمكنت منها الأعاصير التي كانت تهب على المكان طبقا لما يرويه لنا الأب أكوستا. وأخذا في الاعتبار هذه المخاطر نجد أن المركب التي تقوم بأداء مهمة نقل البريد بين ميناء جواكي Guaqui في بوليفيا وميناء هول Hull في البيرو، كانت على شكل يختلف عن الشكل المعتاد في المراكب التي تشق عباب البحيرات حتى تصل إلى شكل يتماشى مع تلك التي تبحر في المحيطات. جرى بناء المركب في ورش "هول" الإنجليزية وتم نقله قطعة قطعة على ظهور الدواب في الدروب الأنديزية مثلما هو الحال في المركب ذات الصارين التي تحدث عنها لادريّرو، وعندما بدأ تعويم المركب في مياه بحيرة تيتيكاكا لم يكن هناك حتى ذلك الحين خط السكك الحديدية الذي يربط موانئ المحيط الباسفيكي.

كانت هناك خطوات الإبحار التي تحدث بعد الانتهاء من الزيارة التفتيشية الدقيقة التي يقوم بها رجل الجمارك، وكانت هذه الخطوات بمثابة خطوات تحدث في ميناء بحري حقيقي، فكان يسمع صوت الكرات والسلاسل وتضرب مراوح الرفّاس المياه المخلوطة بالزيت؛ كل ذلك في إيقاع يتناغم مع الأصوات الصادرة عن القيادة التي يمثلها بعض ضباط البحرية الذين يرتدون الزي. وفي هذا الجو، نجد أنه عند صعود المسافر من الكابينة إلى ظهر المركب واكتشاف تلك القمة البعيدة المكسوة بالجليد في "السلسلة الملكية" يتبادر إلى ذهنه أنه يغادر أحد الموانئ الموجودة في المناطق الجبلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط أو النرويج في فصل الشتاء ذلك أن عيونه اعتادت رؤية سطح المياه على أنه أمر عادي.

ومع هذا فسرعان ما يتولى الضوء ونوعية الهواء إزاحة ذلك الانطباع. إنها أمسيات متوهجة على هضاب عالية وهذا ما يمكن أن نراه في العديد من الأصقاع على ظهر هذا الكوكب. إلا أن مشهد الغروب في مكان شديد الارتفاع والذي ينعكس على صفحة مياه بحيرة ضخمة لا مثيل له إلا في بحيرة تيتيكاكا. توجد في ذلك المكان علاقة تراسل فريدة بين الزجاج المائي وبين الشمس إذ هما قريبان من بعضهما وبدون ضباب أو نسمات هواء وبالتالي يرسل كل طرف منهما إشعاعه للآخر ويتبادلان درجات الألوان ويقومان بالتزين بشكل فيه خفر ليعيشا تجربة رائعة هي مرور السحب في الفضاء النقي الذي يفصل بينهما.

يبدو أن الحياة التي لا نراها في الصخور والأراضي الأنديزية قد تواجد أثرها على الأجسام المتبخرة التي تعبر في الهواء وتقوم بتغييرها وجعلها تمر بكافة تدرّجات الخلق. تتركز الغازات السحابية فجأة وتتجلى حادة كأنها سكاكين على أشكال سحابية أخرى حيث تتحول من ثور رمادي إلى حبة عنب كبيرة ذات لون محمر. وفي غضون دقائق محدودة يظل دخان أسود على المشهد الجليدي، وكأنها ظُلَلٌ كثيفة من قماش ثم تتلاشى لتصبح صدَفًا وبعد هنيهة تتحول إلى ياقوتات. تتشكل ألوان قوس قزح بشكل مستمر وأحيانا ما تأخذ اتجاها معاكسا وتضفي اللمعان على ما كان يبدو أنه مطفأ وتسهم في تحويل فرن البنفسج إلى أمل أخضر أو انتصار للون الأصفر الرائع.

تأخذ المياه لونا يميل إلى العتمة لكن في الوقت نفسه تنعكس على صفحتها ذات اللون الرمادي المائل للون الرصاص درجات لون السماء التي تقوم المركب بتحريك المياه وتموجها بتكثيف تلك الانعكاسات؛ ويبدو الأمر وكأنه في توافر مع أساطير الإنك التي تتحدث عن قرب شروق الشمس الأخرى، أو كأن الكنوز التي ألقى بها الهنود في المياه عند مجئ الأسبان تتلألأ تحت سطح المياه. ورغم الظلال التي تتنافى الطبقات السفلى من الجو تواصل المياه تلألؤها ببعض بقايا الضوء التي تكتسب قوة من داخلها، وأحيانا ما يكون ذلك في شكل محدد: فعندما يشعر البط غير المرئي بالفزع لاقتراب المركب وبعد الجري خوفا، مع ما يصحب ذلك من تحريك الأجنحة أمام مقدمة المركب ثم تبدأ في طيران، تضفي عليه الشمس بعضا من اللون الأبيض مع آخر خيوط ضوئها.

ومجمل القول هو أننا نشهد انتصار ميتولوجيا الإنك، حيث تأخذ المياه في اكتساب اللون الداكن وتصبح غير مرئية بعد ذلك بينما نجد الضوء في الأعلى لا يكاد ينتهي. كانت الشمس هي العنصر المسيطر على القبة الزرقاء طوال النهار ثم يمتد أثرها بعد مغيبها ويقال عندما يزحف الليل أن تلألؤها تجسد في شفق النجوم. والسبب هو أن النجوم فوق بحيرة تينيكاكا تتسم بكثافتها وكثرتها وتتلألأ مختلطة بالشفق بحيث لا تبدو نجوما مختلفة عن قرص الشمس بل هي جزيئات من جسدها الذي تقطع وتناثر في الفضاء.

لهذا تتسم السماء ليلا في هذا المكان بعدم الوضوح على صفحة مياه البحيرة، كما أن أهل بابل واليونانيين لم يقوموا بتوضيح هذا المشهد من خلال رؤيتهم الفنية التطبيقية: وبالنسبة لنصف الكرة الأرضية السماوي (الجنوبي) لم يتم تحديده بقوة وحيوية الخيال البشري بالشكل الذي نراه عليه في الجزء الشمالي والذي يتبدى أمام أعين أي إنسان رغم أنه قد يعرف القليل جدا عن أسماء بعض النجوم. ومما لاشك فيه أن الإنك توفرّوا على صور طقسية للسماء لكنها لم تصل إلينا من خلال وصف أو مخطوطات تعرفنا بما فعلوه على شاكلة ما خلفه لنا من معلومات متقدمة في باب الفلك كل من المايا والأثتيك. أما بالنسبة للأوربيين نجد أنهم عندما بدأوا يتأملون السماء ليلا وما بها من نجوم كانوا شغوفين بشكل يزيد عن الحد بفهمها أو كانت الشكوك تحيط بهم أثناء النظر عندما يتمكنون من أن يروا في الفضاء أبواقا وبجعا وبرج العذراء.

من الأمور ذات الدلالة المهمة الموقف الذي كان عليه اثنان من الأسبان اللذين كانا على درجة كبيرة من الشغف المعرفي، خلال القرن السادس عشر، بالأعاجيب الطبيعية في الهند الغربية؛ أراد فرناندث دي أوبيدو أن ينزع "صليب الجنوب" وذلك حتى تقوم "صاحبة الجلالة" بمنحه له وذلك من أجل تحسين أسلحته الأسرية "تعبيرا عن الاحترام لما قمت به في هذه الأماكن من الهند الغربية"[1]. أما بالنسبة للأب خوسيه دي أكوستا فقد رأى أنه في الجزء الآخر من الشمال هناك عدد أكبر من النجوم ذات الحجم الأكبر" ولم ير في القطاع الجنوبي نجوما تزيد على الشكل البوقي bocino والعربة"، أضف إلى ذلك أنه

---

(١) التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية، الجزء الثاني، الفصل الحادي عشر، I.B.A.E.، مدريد ١٩٥٩م، ص٤٥.

يكتشف "أجزاء غامضة وسوداء في السماء" وهي "أشياء لا أتذكر أبدا أنني رأيتها عندما كنت في أوربا"[١].

لكن لا يمكن أن يكون ذلك اليسوعي الرحّالة، على حق فيما يقول، وهو يبحر في البحيرة التي تقع في منطقة شديدة الارتفاع وهي تيتيكاكا. فحقيقة الأمر أنه لم يستطع التمييز بين النجوم ولم يكد يتخيل أنها يمكن أن تكون في هذا الخضم الهائل من النجوم وتحديدا بسبب هذا العدد اللانهائي من النجوم. كما أن "صليب الجنوب" يصعب اكتشافه. هناك زوجان من الألمان اللذين كانا قادمين على متن المركب وأرادا رؤية ذلك الصليب، فطلبا مني العون فقمت بذلك ذلك أن بعض الأصدقاء علموني كيفية اكتشاف ذلك في سماء بوتوسي. بدأنا بمحاولة تحديد واحدة من الجهات الأربع التي يحمل الصليب اسمها، لكن المركب غيرت اتجاهها عدة مرات وذلك مرورا ببعض المضايق وشبه الجزر ليلا ولا ندري في أي اتجاه نسير. كنا نرى الرمز البسيط للمسيحية في كل مكان، لكنه غير محدد الملامح ولم ننجح في اكتشافه بشكل كامل بين النجوم.

طلبنا معونة أحد البحارة لكن لا جدوى، وطلبنا بعد ذلك مساعدة أحد القبطانات الذي كان يتلعثم برأسه الممتدة نحو السماء دون أن يحسم أمره ويطلعنا على أي من المجموعات النجمية. يبدو أن هناك صليب زائف وصليب حقيقي "صليب الجنوب" وكانت السماء تتبدى أمامنا مسيحية. واصلنا الإبحار على غير هدى تحت سماء تغلي بالشرر النجمي وهو شرر يتضاعف، ولكن بشكل أكثر غموضا، فوق صفحة مياه شديدة الهدوء.

---

(١) العمل السابق، الجزء الأول، II، الطبعة المشار إليها، ص٨.

XII- كوثكو، ليلا

من المناسب الدخول ليلا إلى تلك المدن الشهيرة بفنونها أو تاريخها، إذ عندما يتم اكتشافها في ضربة واحدة، في وضح النهار تكون الصدمة عنيفة في كثير من الأحيان وهنا تنزوي الحالة المعنوية تصبح في حالة دفاع عن النفس وتقلل شعورها بالانفتاح الشديد على كل شيء حتى تتمكن من تحمل كل هذا الزخم من الانطباعات. ومن الأفضل في مثل هذه الحالات أن نضع كأسنا تحت تيارها ولكن بكمية أقل ألا نكون مترعين بحيث تكون مرتبة وقابلة للإدراك وهذا لا يتم إلا من خلال الظلام على سبيل المثال.

تبدو المدن ليلا بما تحويه من كنوز وكأنها صَدَفة نصف مفتوحة، وإذا ما كان حقيقة أن الظلام يشوه شكل كنوز المدينة ويجعلها شبحا فإنه يقدم ميزة للزائر إذ يقدم له مناظير جزئية للرقعة العمرانية التي تتسم بأنها شديدة التلاحم نهارا، كما أنه يسمح له بأن يتكون لديه منظوره الشخصي يفضل صمت الليل - وعلى أية حال من الضروري، في حالة مدينة كوثكو، الدخول ليلا.

ومع هذا كان ما حدث في حالتي نوعا من الصدفة، أو من أجمل تصاريف القدر، ومختلف عما كان مقررا في جدول المواعيد الخاصة بالسكك الحديدية البيروانية إذ تعطلت القاطرة في محطة بونو Puno، إذ لم تعد هناك قوة للبخار وربما كان ذلك بسبب صعوبة الحفاظ عليه وسط هذا الهواء الغريب والجاف في هذه المناطق المرتفعة، فكان علينا أن ننتظر عدة ساعات حتى يصل ضغط البخار إلى المستوى المطلوب، وكانت ساعات قضيناها وسط هذا الهدوء والجو النقي على شواطئ بحيرة تيتيكاكا، حيث كانت الشمس ساطعة وظلت كذلك حتى حلول الظلام.

ترك القطار في محطة خولياكا Juliaca بعض العربات التي كانت متجهة نحو أريكيبا Arequipa والمحيط الباسفيكي، وبعد أن ترك القطار وراءه كلا من بوكارا وايابيري Ayavire، وهما من الأماكن الشهيرة بأطلالها ومقابرها، أخذ يسير بين الصخور في خط ملتو متجها إلى Paso de la Raya التي تقع على مسافة تصل إلى ٤٦٠٠م فوق مستوى سطح البحر. غير أن اللحظة التي شهدت أقصى قدر من الضوء لم تكن هناك في المنطقة المرتفعة بل كانت عندما نزل القطار متجها نحو كوثكو وتوقف في محطة أرصفتها مليئة بأشكال روستيك مصنوعة من الطين المائل للون الأبيض والمدهون بأشرطة ذات لون بني تتكسر عليه أشعة الشمس وكأنها تقوم بتكسير هذه الأشكال الهشة المصنوعة من الطين. كان هناك الكثير من القطعان من الثيران التي تقوم برعايتها بائعات جالسات على الأرض وقد بسطن تنوراتهن الملونة والتي كانت بمثابة الضد للون الأبيض الذي عليه البضاعة، وكن جالسات في هدوء يكسو وجوههن السلام الذي لم تستطع العجلة التي عليها المشترون أن تغيره حتى يأخذوا المبلغ المتبقي قبل أن يتحرك القطار.

لم يكن الأسبان يكتفون بإدخال البقرات والثيران في أعالي البيرو بل أتوا معهم بالصورة الطوطمية التي لا زالت باقية بما هي عيه من بعد نفعي - إناء - والتي توجد في ثيران قونقة Cuenca. إلا أن تلك التي توجد في المناطق المرتفعة في الأنديز تكسب في الصوت بسبب أفواهها الواسعة وكذا الأجراس المعلقة في رقابها والتي تبدو على شكل جلد رخو سيرا على الأنماط الأيبيرية. يبدو الأمر وكأن النموذج الحيواني في شبه جزيرة أيبيريا أصبح أكثر قيمة وثراء بانتقاله من يد الغزاة إلى يد السكان الأصليين، وأصبحت أكثر استئناسا وجديرة بالإعجاب.

كان محزنا أن ينتهي الضوء دون أن يكون هناك بهاء الشفق في الوقت الذي كان فيه القطار يمرّ بواد ذي حوائط وردية ويسير بحذاء المجرى المقدس لنهر أوروبامبا urubamba. لكن لم يذهب ضوء النهار تماما، إذ حافظت عليه الصفحات التي كنت أقرأها ضمن كتاب "التعليقات الملكية" حيث تجلت قريحة جارثيلاسو دي لابيجا ابن حضارة الانك ورسم لنا صورة مثالية للإمبراطورية الشمسية لأجداده. وتوجد هذه الصورة أيضاً في جرس كان في القاطرة يتم من خلاله الإعلان عن مروره، ودائما ما يتم

قرعه فيصدر منه صوت نقي وواضح وشفاف دون وجود أي شوائب نفعية وميكانيكية وكأنه نابع من جرس للراهبات.

وسط هذا النور الذي تتشربه العيون والمسام أثناء هذه الرحلة الطويلة والهادئة وسط المرتفعات والتي كان خلاصتها الإيقاع المُلح للجرس الصغير، أخذت تتجلى مدينة كوثكو القديمة في صورة عكس هذه الصورة إذ كانَت غارقة في ظلام دامس، ولم يكن ذلك فقط مقتصرا على ظلمة فلكية وإنما ظلمة آثارية، كما تجلي تحت سدول الليل المكان الأكثر بساطة على الأرض. وها هي الكتل الحجرية تبدي زواياها المرتجلة على الضوء القليل الصادر عن لمبة حيث يظهر وجه الكتلة الخشن المكون من المادة الخام وقد تواءم بالكامل مع سياق الليل. السير ليلا في كوثكو ليس سيرا في مدينة يلفها الظلام وقد حرمت من الضوء بل هو سير في مدينة استردت مع غروب الشمس ذلك العالم المناقض للعالم الدنيوي وهو عالم يتسم بالعمى والعمق وملائم للأسوار الحجرية العالية فيه تلك التي لا توجد بها فتحات أو قوالب معمارية وتتسم بوجود منحدرات كأنها تسير صوب فتحات مناجم وسط أحشاء الليلة تحت الأرض الـ Ctonica.

في دراسة بعنوان "**أصل العمل الفني**" لمارتين هيدجر نجده يستخدم عبارات مضمخة بالمفاهيم الميتولوجية بدرجة ما ويتحدث عن الأرض "die Erde" في إطار الإبداع الفني. الأرض هي عند الفيلسوف الألماني هي تقديم الذات وهي "الظهور" غير البعيد عما ينغلق ويتخفى بشكل دائم. الأرض تتسم بأنها ذات مضمون ديري أمام الدنيا بمعنى أنه انفتاح وشفافية، وها هي المقابلة الإغريقية القديمة بين المادة والشكل وأبعادها الكونية تتجلى بشكل ما، وفي إطار لغة أخرى، من خلال إشارات حدسية ومفاهيم، من خلال ذلك التقابل الذي يطرحه هيدجر. كتب الفيلسوف الألماني يقول[1]: "إن ما يحتوي عليه العمل من ملمح فني إنما يتمثل في ذلك الشد والجذب بين العالم والأرض، فالعالم يميل في ركونه على الأرض ليسيطر عليها وهو لا يسمح، من منطلق أنه الذي ينفتح، بأنه إنغلاق. تبذل الأرض جهدها وكأنها المستترة من أجل أن تجذب العالم وتمسك به... وعندما يقوم العالم بترتيب العمل الفني وإنتاج الأرض فهذا يحفز من هو مناوؤه.

(1) Holzsege,Frankfurt a.M. 1950 pags 37 y 38

لكن العالم لم يسهم إلا قليلا في ترتيب العمل الفني في ثقافة الإنك أو الفترة السابقة على ظهورها وكل ما يظهر على سطحها! تعتبر العمارة السابقة على عصر الاكتشاف تعبيرا فنيا رائعا هو تشييد الأسوار التي تعتبر نوعا من التكريم المبسط للأرض، وهو تكريم مناسب للغاية ومكتمل لدرجة أن الأرض عندما تتلقاه تبدو وكأنها على وشك امتصاصه. وها هي الكتل الحجرية المستخدمة في بناء قلعة ساكساهوامان Sacsahuaman التي تتسم بأنها شديدة المادية وشديدة الأرضية تبدو وكأنها تحتج على عملية البناء التي يناقضها قانون الجاذبية القوى.

يمكن أن تكون هناك كتلة حجرية ثقيلة الوزن في العمارة الهلنستية، غير أنه لما تم رفعها على مسافة عالية عن الأرفف أصبحت لا تفخر بوزنها بل على العكس تبدو وكأنها تطفو في الهواء في توازن كامل بين الشكل والمادة. وفي حالة برج الأجراس القديم في كاتدرائية شارتر Chartres الذي يرى إذا ما دقق المرء ببصره قليلا، وهنا يجد في الأعلى حجم الكتل الحجرية به، لكنه يبدو وكأنه ليس كرة تحمل صفات الطفو في الهواء بل أوتي قوة الصعود. المادة تتسم بأنها شديدة الصياغة النهائية، أما الأرض، في شكلها المعلق في صورة صخرة، فقد هزمتها الشفافية التي عليها العالم وليس هذا فقط بل قُذِفَ بها ككتلة نجمية نحو المنطقة الشديدة الشفافية فيما وراء العالم Trasmundo.

لكن يحدث العكس في قلعة ساكسا هوامان حيث نجد أن هذه الكتلة الضخمة الواقعة على مسافة أشبار قليلة من الأرض تبدو وكأنها تتوق إليها وتعمل على القضاء على تلك الكتلة الصماء الواقعة تحتها. هذا التحليل ليس مبعثه فقط ضخامة حجم الكتلة، بما هي عليه من بساطة في التشكيل بل بما لها من الجوهر الفني الذي يتم التعبير عنه من خلال الحجم حيث الكون، الذي هو العالم، في لعبة درامية مع المكوّن الأرضي. وهنا لا يهم معرفة نمطية تركيب الكتل فوق بعضها؛ يتولد في حقيقة الأمر الانطباع نفسه أمام الكتل الصخرية التي لم يتم تهذيبها وهي أنها متراكبة ووضعت كأنها طين صلصال ومرصوصة دون ملاط، مقارنة بالانطباع بأننا أمام كتل حجرية متعددة الزوايا لكنها تم إعدادها بعناية لتتكامل مع جاراتها من الكتل الحجرية الأخرى، ومع هذا يصل وزن بعض هذه الكتل إلى ما يقرب من مائتي طن مثلما عليه الحال في الحصن المذكور سابقا. يحدث الشيء نفسه بالنسبة لمبنى كوريكانشا Coricancha أو ما يسمى بمعبد الشمس رغم أنه متواضع البناء، حيث نجد أن الأطلال لا زالت قائمة لكن أصبحت جزءا من كنيسة سانتو دومنجو.

تبدو الكتل الحجرية المستطيلة deandesita، في ظل هذا النمط الأخير من البناء، وكأنها مراتب مدوّرة تقع على المسطح النظري للحائط. غير أن المشهد الذي تتبدى فيه ليس تكوينا خلويا، إذ أن الكتل الحجرية القائمة تتكامل مع بعضها بشكل تام رغم عدم استخدام الملاط، حيث لا يمكن أن ندخل بينها نصل سكين. والهدف من وراء هذه الدقة في العمل هو إعطاء الانطباع بوجود سور جيولوجي مكون من قطعة واحدة وجرى إلغاء فردية كل قطعة، ويمكن قول ذلك، سيرا على المذهب الأرسطي في تكوين الأجسام من المادة والشكل hilaomorfismo، إن ما يوجد أمامنا وهو "نوع من إضفاء الصفة الدنيوية" على عمارة الإنك ليس إلا في أدنى درجة، كما أنه شديد القرب من قطب العلاقة الخاصة بالمادة أو الشكل. وتبدو الأرض في هذا وكأنها لم تكد تخرج للنور ولم يكد يقرب منها الإزميل، وأنها تمكنت من الشكل الذي أُعطى لها وأنها تمثلته وحولته إلى مجرد إبداع "لمادتها الخام". وبالنسبة للشكل الذي عليه الكتل الحجرية، فرغم أنها عبارة عن أشكال هندسية، تبدو وكأن ليس لها هدف آخر إلا أن تفصح بدرجة لا تثير الاستغراب عن الداخل النقي للصخرة.

وهذا هو مكمن القيمة الخاصة ومتعة المفاجأة في محاولة تأمل أسوار كوثكو - أو الأواني المنتفخة panzuda والترابية -، وهذه القيمة لا تدخل عن طريق العين بل من خلال عضو بسيط في الملمس لا يعرف عن التشققات أو التجعدات شيئا، له زوايا وليس استخداما هندسيا بل هو مجرد مقاومة مادية وهو عضو ينتمي إلى ما هو ذو طبيعة دنيا في فسيولوجيتنا، يكاد يكون إلى جوار ما هو بيولوجي وليس ما هو معدني في جسدنا المركب organo.

يتسم الفن المعماري السابق على عصر الاكتشاف بأنه شديد الالتصاق بالطبيعة وأن الأسلوب ما هو إلا إضافة ولهذا فإن عظمته تبدو وكأنها مُعَارة، وأنها شيء من لدن الطبيعة وليس من صنع الإنسان، وما فعله هذا مجرد إضافة بسيطة تتمثل في جمع الكتل الجيولوجية أو التناغم مع الأبعاد الضخمة التي عليها "السلسلة الجبلية"، وهذا ما نراه في ماتشو بيتشو.

والشيء المثير في هذه المدينة التي لم تكتشف إلا منذ عدة عقود يكمن في التداخل والتناغم بين العمارة وبين المشهد الرائع. هناك دار عبادة تابعة لجماعة ثيسترن (فرع من

البندكت) أو دار عبادة يونانية تتداخلان مع الجو الطبيعي غير أن طريقة هذا التداخل مختلفة للغاية فدار العبادة الأولى جعلت لنفسها حقلها وإطارها، أما دار العبادة اليونانية فقد تمكنت من إحداث التوازن مع الجو المحيط وأصبحت في خدمة طبيعة تتسم بالضخامة وبالتالي لا يوجد هارموني وتوازن اللهم إلا إذا كان التوازن نوعا من الإذعان، أو، إن صح القول، توازن الحد الأدنى. والسبب هو أن الأبعاد واسعة للغاية، أما تلك الأخرى فهي القائمة بالقرب، تحت الأقدام وتتسم بعدم الوضوح والعمق وأنها تشكل في حد ذاتها نوعا من المنصة الجيولوجية وبالتالي فكل ما قام به المرء فوق هذه المنصة ينظر إليه على أنه شديد الصغر كما أن الكتلة التي تحمله قد التهمته. ما مغزى أن يتم إقامة أبراج للكنائس تلبية لطموح مثير للسخرية بسبب وجود المكان في مرتفعات شاهقة، وليس هذا فقط بل إن هذه الأبراج يمكن أن تزول من الوجود بسبب ما عليه من الطبيعة الزلزالية التي تنتقم من كل ما يريد أن يبرز ولو في إطار الحد الأدنى!

كان على المهندس المعماري أن يتواءم مع المكان وأن يكون خادما للطبيعة وأن يقنع بالتواضع فيما يتعلق بالارتفاعات وذلك من خلال تدرج الدهاليز وكذلك تمهيد الأرض وتراكم الكتل الحجرية. أي أن العمل ينبغي أن يكون عملا هندسيا بدلا من العمارة الحقيقية وألا يبرز كثيرا ذلك الجهد الابتكاري للعقل بتجسّده من خلال الجهد الجسدي. ولهذا فإن قصيدة بابلو نيرودا لماتشو بتشو أمكن أن تكون أغنية للعاملين الذين شيدوا بعرقهم ودمائهم "المدينة العالية بالحجارة السلالم":

اتركني أنسى، أيها الحجر العريض، ضخامة الكتلة.
والمقاسات التراسندنتالية والكتل الحجرية لقرص العسل
وفريق العمل، اتركني اليوم أن تنساب يدي على الزاوية ذات الدماء الحارة والمسوح
....
....

أرى الكائن القديم، خادم، النائم
في الحقول، أرى جسدا، ألف جسد، رجلا، ألف امرأة،
تحت المطر الأسود، وقد اكتست الأجساد باللون الأسود من المطر والليل،

ومعها الكتلة الحجرية الثقيلة للتمثال . . . . .[1]

كما أن البارتينون Partenón أقيم بعرق ودم آلاف المهنيين والعبيد وقام على الاستغلال الاقتصادي للمدن اليونانية الخاضعة لأثينا، لكن "الكتلة الحجرية الثقيلة" لا تنجذب فوق هؤلاء الذين قاموا برفعها. كما أن الكتل الحجرية ليست ثقيلة الوزن ولا تحمل بصمات جهد جسدي وانتزعت منها المادية، وأسهمت فكرة المهندس المعماري في تشكيل المادة إلى هذه الدرجة التي تمكن فيها من إلهاء عين المشاهد عن الجهد الذي بذله العمال بما في ذلك تذكر وجودهم.

وهنا يجدر التساؤل بحق: هل هناك أثر يقوم أكثر على نقاء العالم مقارنة بمدينة ماتشو بتشو؟ هل هناك أطلال امتصها الضوء وذابت في وضح النهار وهي محاطة بالدائرة التي لا تنتهي للقمم الأنديزية المحيطة بها؟ غير أن الوضع يتعلق بعالم طبيعي، وعالم لا يتبدى من خلال الإبداع الفني باستخدام الكتل الحجرية بل يحدث العكس أي يضمها ويثبتها. أراد الإنسان أن يقيس نفسه بعظمة الطبيعة في منطقة الأنديز لكنه استند إليها وأفاد منها وأعلن نفسه أنه من رعيتها، بينما نجد أبراج الأجراس القوطية تبدأ من عموم شكل السهل، الذي يتسم بأنه مثير للملل ويعمه الضباب، لتتوه في عالم سماوي ابتكرته لنفسها.

وللأسباب نفسها نجد أن المباني التي تنسب إلى الانك تتسم بالبساطة الشديدة في مضمونها المعماري. وهنا كتب ألفريد متر A. Metraux [2]. "تعيد القصور والمعابد والمنازل إنتاج أخصاص الفلاح الكيوتسو الذي بقي على قيد الحياة، ولكن بدرجة تتسم بالعظمة في كثير من الأحيان في وديان الأنديز . . . . . وما ينقذنا من هذا الملل في التشكيل هو تقنية البناء وكذا ما عليه الواجهات من حدة". وكان الاستخدام الرأسي والخارجي للكتلة الحجرية هو الذي أضفى على عمارة الإنك السمة الضخمة، وهنا نجد أن السقف إما ألا يكون موجودا أو أنه أعد من مواد هشة مثلما هو الحال في الأخصاص الريفية. ففي كوريكانشا

---

(١) "النشيد العام"، بوينوس أيرس، ١٩٥٥I، حشل. ٣٥.

(٢) الإنك"، باريس، ١٩٦١م، ص١٣٨.

"نجد أن جارثيلا سودي لابيجا يصف السقف بأنه في معبد الشمس Coricancha نفسها أو في معبد الشمس "كان السقف من القش لأنهم لم يتمكنوا من وضع القرميد".

لا ترتبط قوة الحوائط بوظيفة معمارية بل سرّها هو الرغبة في أن تتجلى عظمتها المشروعة المقدسة في حد ذاتها. وربما لا يولى علم الآثار الذي يتولى دراسة عصر ما قبل الاكتشاف اهتماماً كبيراً بهذه القيم المعمارية، نظرا لتوجهه الوضعي، حيث ينسب مضمونا نفعيا لفن الإنك وهذا توجه يكذبه طغيان المادة الحجرية في البناء. فالجدران نفسها التي تشكل بسقوفها فراغات مغلقة كانت مصدر اتهام لعدم نفعية كتلها نظرا للثقل البسيط للمادة التي تحملها، وهذا السقف ليس له قيمة نظرا للطابع الهش والإضافي الذي عليه، كما أن كل ملك إنكي كان يترك القصر الذي كان يعيش فيه سابقه ليبني لنفسه قصرا آخر. وعندما دخل الأسبان الكوثكو Cuzco كانت المدينة عبارة عن مقرّات مسورة تسويرا قويا، وكل واحد من هذه المباني كان مكرّسا لذكرى الملك المتوفى وبالتالي فإن المعنى الأرضي والجيولوجي للبناء كان يلتف بدلالة جنائزية.

ولم يكن الحجر فقط، بل إن الذهب والفضة كانا ضالعين في هذه العمارة الجنائزية "كانت الحوائط الأربعة في المعبد – طبقا لما يقوله جارثيلا سو دي لابيجا في معرض وصفه لمعبد كوريكانشا Coricancha – مغطاة من أعلى إلى أسفل بألواح وطبليات من الذهب. وفي غرفة حفظ المقدسات التي نطلق عليها "المذبح الكبير" كان هناك قرص الشمس المصنوع من شريحة من الذهب يبلغ سمكه ضعف باقي الشرائح التي تغطي الحوائط.... كان شديد الضخامة لدرجة غطت معها غرفة المقدسات في المعبد من حائط إلى الحائط الآخر..... وعلى جانبي قرص الشمس هناك أجساد الملوك الذين توفوا مرتبين حسب أقدميتهم وكأنهم أبناء الشمس، وهم محنطين بحيث يبدون (لا ندري كيف) أنهم أحياء. كانوا جالسين على كراسي من الذهب موضوعة فوق الطبليات الذهبية حيثما كانوا معتادين على ذلك".

ما هو الانطباع الذي يخرج به الإنسان الحديث في هذا المدفن المشيد من جدران صلدة ودون فتحات نحو الخارج؟ هل يمكن للضوء أن يدخل من خلال السقف بقوة كافية حتى ينعكس على قرص الشمس الذي هيؤوه فنيا ودينيا ليكون على شاكلة الإله النجم أو أن

تتلألأ تلك القطعة الذهبية الضخمة من خلال اللمعان البارد للمعدن الثمين الذي تم اكتشافه في أعماق أحد المناجم؟ هل يمكن لقرص الشمس أن يعكس ما هو بداخل الكهف المعماري ويحوله إلى عالم ونقاء أو أنه كان مجرد أسير الأرض؟

من الطبيعي أن الأوربيين رأوه على أنه مجرد قطعة من مادة معدنية، وكان الرجل الذي اكتشفه محظوظا عندما جرى غزو المدينة، وهو "رجل نبيل من أوائل الغزاة يسمى مانثيو يسراً دي ليجيثانو. . . . أكبر لاعب لكافة الألعاب ولأن الصورة كبيرة لعب بها وفقدها في ليلة واحدة"[1]. ليس هناك مصير أكثر حزنا أو تحللا وسط هذا العتو. وبالنسبة للحوائط الإنكية استطاع الغزاة أن يهبوها وظيفة أكثر كرامة، فظلوا يكلفون أبناء السكان الأصليين بالبناء ثم يقومون بملء الفراغات المحيطة بالتراب حتى تكون بمثابة المنصات لكنائسهم ومنازلهم التي تبلغ ما عليه القصور بشكل أو بآخر. كما فعلوا الشيء نفسه مع سلسلة لا تنتهي من الأحواض التي كان السكان الأصليون يزرعونها على شواطئ أوروبامبا Urubamba والشيء نفسه مع كافة المجتمع وكافة مناحي الثقافة حيث دفن كل هذا تحت ثقل الكتل الحجرية المستوردة.

لهذا يجب أن نرى كوثكو ليلا وهذا لأن الحوائط الضخمة تجد نفسها في إطارها الطبيعي حيث تبدو بأنها تضعكم في اتصال مباشر من، خلال جذورها، مع الأحشاء الأمومية للأرض حيث تبدو وكأنها زخرفة مفرغة خفيفة لبناء ضخم غير مرئي.

في ظلمة ليل كوثكو يتبدى بشكل واهن فوق الحوائط الضخمة بياض المباني الكولونيالية التي ترنو إلى فلق الصباح، لكن النظر لا يتوه في خضم النور أو في الذكريات التاريخية بل يبقى مرتبطا بالتواجد الصامت والظليل للحجر الحي: وهو حيّ في بساطته الراديكالية وأصبح قاعدة شديدة الصلابة لبُنى فنية واجتماعية التي نادرا ما حظيت بالإمكانيات التي كانت تقدمها لها الأساسات.

---

(١) الإنكي جارثيلا سودي لابيجا، العمل المشار إليه، الجزء الثالث، الفصل العشرون، الطبعة المذكورة، الثانية، ص١١١، ١١٢.

XIII- يوتوبيا الهند الغربية في الإكوادور

صحراوي ذلك الشريط الضيق الذي يقع بين الأنديز والباسفيكي ابتداء من شمال البيرو وحتى قبل الوصول بوقت قصير إلى بالبارايسو Valparaiso ، والأمطار الآتية من الباسفيكي لا تروي إلا الشاطئ حتى خمس درجات عرض تحت خط الاستواء، أي في إقليمي تومبث Tumbez وبيورا Piura، وهما إقليمان مجاوران للحدود مع جمهورية الإكوادور. وإلى الجنوب قليلا تقدم السماء كنزها المائي عدما تصطدم بالواجهة القريبة للسلسلة حيث تأخذ المياه مسارها من خلال أنهار متجهة صوب البحر دون أن تكون هناك إمكانية للسيطرة عليها فهذه التي تستخدم في الري تتعرض للتسرب أو البخر قبل أن تصل إلى الشاطئ.

وابتداء من مطار ليما تدخل الطائرة في مسارها الذي توجد تحته الواحات الكبيرة جدا وتنكمش عند اقتراب سلسلة الأنديز من الشواطئ، وينكمش معها السهل وتستمر على هذا الحال في الارتفاع حتى تتشكل "السلسلة الجبلية البيضاء" . لقد انحرف الطيار عن الشاطئ حتى يمكن أن نرى قمة أواسكاران Huascaran عن قرب وهي واحدة من أعلى القمم في الأنديز، حيث يلمع الجليد ذو السمات الهندسية فوقها تحت أشعة الشمس دون أن تكون هناك سحب أو حتى نتف من الضباب في الجوار ويصبح المشهد وكأنه ماسي.

كما أن الجو نقي تحت الطائرة عندما تعود وتسير بمحاذاة الشاطئ، وأثناء الشتاء الفصلي الذي يستغرق الشهور من يونيو حتى أكتوبر ينتشر في هذا المكان وبشكل يومي الضباب الذي يطلق عليه garuas ، وهو ضباب يسهم في التقليل من جفاف الأرض. غير أنه مع بداية شهر نوفمبر اختفت هذه الظاهرة، كما تكثر حوادث الطرق حيث تُرى بشكل

دقيق وكأنها تحت المجهر. غير أن ما يظهر عن بعد على سطح البحر الذي لا ينتهي ليس إلا ما يشبه تراكمات بسيطة تميل إلى اللون الأبيض وغير مجدية.

أخذ عدد الواحات يزداد وكذا حجمها، فها هي واحة موتشي Moche أكبر من واحة سانتا Santa؛ لكن بحيرة تشيكاما Chicama أكبر من هاتين، وكذا معها واحة jequetepeque فيكي تيبكي، وإلى جوارهما هناك واحدة لامبايكي lambayeque وهي واحات شهيرة في الحفائر الآثارية التي ترجع إلى ما قبل عصر الاكتشاف. وكلما اقتربنا من خط الاستواء تبدو الخضرة وكأنها تكسب المعركة مع الجفاف. ومع هذا فقبل مغادرة أراضي البيرو من الضروري أن تمر الطائرة على صحراء سيشورا Sichura الشاسعة حتى يتضح بجلاء ذلك الشكل الموحش الذي عليه الشريط الشاطئي المطل على المحيط الباسفيكي حيث يبرز جفافه على مدار ما يقرب من ثلاثة آلاف كيلومترا بالمقارنة بالمياه التي نراها في أكبر المحيطات وكذلك المياه الأخرى المفترضة التي توجد في سلسلة الجبال التي تعتبر أهم سلسلة جبلية على ظهر الكرة الأرضية بعد سلسلة جبال الهيمالايا.

وقد يقال أن وجود هذه المنطقة القاحلة ربما يرجع إلى مجموعة من العوامل غير المواتية أتت بها الطبيعة وجعلتها مناقضة للقوانين الطبيعية للطقس؛ وإلى هذا يرجع - ربما - ذلك التغير المفاجئ في المشهد كلما اقتربت الطائرة من جواياكيل Guayaquil ويصبح الأمر وكأنه تم القضاء على المؤامرة واستعاد المشهد التوازن العادي في تلك الأصقاع من الكرة.

وخلافا لما يحدث على الشواطئ البيروانية، نجد هنا أن الأنهار الصغيرة التي تنزل من "السلسلة" استطاعت أن تشق لنفسها في مصب جواياكل مجرى كبيرا يتجه صوب البحر وتعانق مياهه المياه المالحة. وإلى جوار تلك المجاري النهرية نطل لأول مرة على الغابات الاستوائية وهذا تناقض تام مع المشهد الصحراوي الذي تركناه للتوّ. فكافة الأراضي التي نراها من نافذة الطائرة تتسم بكثرة الخضرة اليانعة فيها عندما تأخذ الطائرة في الهبوط، ابتداء من المناطق المنخفضة التي تكثر فيها الزراعة وتشقها أفرع النهر والمصبات ويشمل ذلك الأطراف المغطاة بالأشجار والسافانا التي تفيد في الرعى.

كانت الغابة أكثر اتساعا مع نهاية العصر الاستعماري رغم ما تعرضت له من استغلال منذ اليوم الأول للغزو حيث كانت تتم الإفادة من الأخشاب في كل الأغراض في

المدن الساحلية وكذا المناطق الجبلية التابعة لنيابة الملك. وعندما قام كل من خورخي خوان وأنطونيو دي ايوا بزيارة جواياكيل في منتصف القرن الثامن عشر أثارت دهشتهما ما عليه المكان من غابات يانعة ومتنوعة وهي غابات من السهل استغلالها بفضل مصبّات الأنهار والقنوات الضيقة التي تتفرع من النهر وتدخل إلى تلك الغابات لمسافات طويلة.

كانت أخشاب تلك الغابات مناسبة بشكل كبير لصناعة السفن ولهذا فإن مصب النهر جواياكيل شهد البدء في قيام الغزاة بصناعة أولى سفنهم، كما أن هذه الترسانات ظلت تعمل حتى بداية القرن التاسع عشر حيث كانت من أهم الترسانات على شاطئ الباسفيكي. أكد بعض القضاة ممن يتوفرون على معلومات جيدة وموضوعية بشأن هذه الأنشطة البحرية أن وفرة الأخشاب وجودتها في جواياكيل "لا توجد في أي مكان من أمريكا كما لا توجد في أي مكان آخر من أملاك الأمة الأسبانية أو الأملاك التابعة لملوك آخرين".

وفي إشارة خاصة إلى خشب guachapeli "فهو خشب يحظى بأكبر إعجاب ويعتبر فريدا من نوعه وسط الأخشاب التي تم اكتشافها حتى الوقت الحاضر، حيث يستخدم في صناعة بدن السفينة"، وهناك خشب ماريا maria الذي يستخدم في صناعة صواري السفن التي لم يسمع بها ذلك البحر". وعلى هذا فبفضل هذه المواد الخام الرائعة أصبحت السفن في جواياكيل تصل إلى ضعف حجم السفن الأوربية طولا مثل تلك السفينة التي كانوا يطلقون عليها مسمى مقدسا مسموحا به في أسماء السفن "المسيح العجوز"، حيث جرى إطلاق هذا الاسم نظرا لطول عمر السفينة لدرجة أنه لا يعرف متى صنعت أو من هو الذي بناها"[1].

من المعروف أن مراكب جواياكيل كانت تحتوي على عناصر غريبة تم جلبها من بعيد مثلما هو الحال بالنسبة للأغلبية العظمى للسفن التي يتم تصنيعها في الهند الغربية. هناك الخيش والقطران اللذان كانا يستخدمان في صناعة هذه السفن، لكن يتم جلبها من المكسيك وكذا الحبال من شيلي حيث كان يزرع نوع من القنب ذو جودة عالية بالمقارنة بما هو موجود في شمال أوربا، أما الحديد فمن بيثكايا Vizcaya. وتتويجا لكل هذه العناصر القادمة من أماكن مختلفة كان السود يكادون يصلون في الأداء إلى أن يصبحوا صناع السفن

---

(١) العمل المشار إليه، الجزء الأول، الفصل الثاني، الطبعة المشار إليها، ص٥٥.

كانت الإمبراطورية الأسبانية تشهد في عقر دارها عمليات تبادل بين البشر في هذه الترسانة. والمنتجات القادمة من الأقاليم التابعة لها والشديدة التنوع.

ليس من الضروري إطلاق العنان للخيال أو قطع مسافات طويلة حتى يدرك المرء كل هذا التنوع، فمنذ اللحظة الأولى لانطلاق الطائرة من السهل النهري والحار في جواياكيل، أخذ يظهر إقليم جبلي يبدو وكأنه على طرفي نقيض في درجات التنوع الجغرافي.

تكاد تكون معظم المدن الأسبانوأمريكية، ابتداء من سانتياجو دي شيلي وحتى المكسيك مقامة إلى جوار جبال ذات أصول بركانية وكأنها تخضع لمصير شديد الإيبيرية من حيث هذه الجغرافيا الشديدة الصعوبة، إلا أن كيتو تفوز بقصب السبق، فها هي سلسلة الجبال تضيق عند المرور بجمهورية الإكوادور حتى تصبح مجرد أجزاء متقطعة وذلك على بعد خمسين كيلومترا وهي المسافة الفاصلة بين شاطئ الباسفيكي والمصادر التي تلقى بمياهها في نهر الأمازون. ومع هذا ففوق هذا الشريط الضيق الذي ينقسم إلى سلسلتين واحدة شرقية والأخرى غربية نجد الأشكال المخروطية البركانية شديدة الانتشار بشكل غير معهود في سلسلة جبال الأنديز نفسها، وكأنها عندما تصل إلى مركز المنطقة الحارة، تريد أن تعبر عن قوتها ولو كان ذلك بشكل احتمالي.

هناك قمة Chimboraz في السلسلة الغربية وهي أعلاها جميعا إذ تصل إلى ٦٣١٠ مترا ارتفاعا وبعدها قمة كوتوباكسي Cotopaxi في السلسلة الشرقية أو الملكية؛ غير أن هذه وتلك ترأسان سلسلة من المرتفعات الجيولوجية العملاقة التي تشكل الطريق الأعظم الذي يمكن تخيله في باب النقل البري أو الجوي، هناك بعض العقبات الجغرافية التي تتقاطع معها ولكنه تقاطع معتدل يسهم وجوده في ظهور مناطق منعزلة صالحة للسكنى في منطقة صغيرة. وفي واحدة من هذه المناطق، جوايّابامبا Guayllabamba، التي تكونت تربتها من الركام البركاني الآتي من بركان كوتوباكسي Cotopaxi ومن بركان إلينيثا Iliniza وكايامبي Cayambe إضافة إلى براكين أخرى تتخلل السابقة، تقع مدينة كيتو إلى جوار بيتشنشا Pichincha.

وها هي الطائرة التي عبرت بسرعة من الدلتا الأستوائية لجواياكيل تفاديا للسلاسل الجبلية العالية، تأخذ على الفور في النزول التدريجي في هذا المنخفض لتهبط في مطار

العاصمة، بينما ترتفع القمم الجبلية البركانية الجليدية إلى عنان السماء أمام الرحّالة المشدوه الذي لم يتمكن من إدراك التغيير المفاجئ للمشهد. ورغم أن المعارف الأدبية والتصويرية المتعلقة بمدينة شهيرة مثل كيتو أسهمت في إثارة الدهشة الشديدة لدى الرّحالة الذي ربما يعرف مدنا أخرى في إسبانوأمريكا تقع في مناطق مثيرة للدهشة، من الصعب عليه أن يتخيل الموقع المحدد لهذه الحاضرة التي يقترب منها وسط هذا المشهد الضخم الذي يلف المكان، كما تزداد درجة استغرابه بعبوره خط الاستواء.

ومع هذا فسرعان ما تهدأ حدة هذا الاستغراب المصحوب بالشكوك والتساؤلات عندما ينظر الرحالة من نافذة الطائرة حيث تطالعه بإجابة مختلفة عما كان يتوقع، فبدلا من أن ترى عيناه الغابات والصحراوات وأنواعا أخرى غريبة من الزراعات ترى وجه شبه لا يصدق بما يراه في وطنه. وبدلا من استخدام المفردات المعتادة يجدر استخدام الكلمات التي استخدمها الأسبان الذين أصابتهم الدهشة عندما اكتشفوا بيتهم في مناطق لا يتوقع أن يُرى فيها ذلك. كتب بدروثيث دي ليون[1] يقول: "تقع مدينة كيتو تحت خط الاستواء الذي يعبر على بعد سبعة فراسخ منها. إنها أرض، تلك الواقعة ضمن حدودها الإدارية، جرداء على ما يبدو، لكنها شديدة الخصوبة ذلك أنه تتم عليها تربية كافة أنواع قطعان الماشية بكثرة وكذلك يزرع فيها ما ينتج الخبز والخضراوات والفواكه والطيور. إنها أفضل أنواع الأرض وهي شديدة الشبه بالأرض الأسبانية سواء في النباتات أو في الطقس ذلك أن الصيف يبدأ في شهري أبريل ومارس ثم يستمر حتى شهر نوفمبر. ورغم المكان بارد إلا أن يتم عزق الأرض كما هو الحال في أسبانيا".

لكن ما معنى أن يجد المرء مناطه بالنسبة لأوربي من عصر النهضة وأن يجد إيقاع فصول السنة وأن يجد نباتات شبيهة بتلك التي اعتاد عليها. نقولها باختصار أن يجد مقره ومستقره على الأرض في قارة أخرى في منطقة تقع بين أكبر محيط في الدنيا وبين الغابات البكر الأوسع في هذا العالم على ارتفاع ألفين وثمانمائة متر وفي وسط المنطقة الحارة التي لا يمكن المرور بها طبقا للحكم الصادر عن السلطات العليا في الزمن القديم؟

---

(١) المصدر المذكور، الفصل الحادي عشر. الطبعة المذكورة ص ٣٩١.

يتجاوز الأمر فكرة امتداد ما اعتاد عليه ليصل إلى يوتوبيا كبيرة، وإلى شيء "يخرج عن المألوف" في حقيقة الأمر وهذا ما يتضح إذا ما تذكرنا ما يوجد فوق خط الاعتدال عندما يتم النزول من النتوء الجبلي الذي تقوم عليه كيتو: يكاد يكون مثل مسار الأمازون وبعد ذلك مسار الكونغو وبحيرة فيكتوريا وكينيا، ثم نجد جزر سومطرة وبروناي Borneo يقطعها خط الاستواء؛ وفي نهاية المطاف هناك بعض الجزر البولونيزية. ومن بين كل هذه المناطق نجد أن تلك الخاصة بكينيا تتوفر على طقس به شبه ما بما يتوفر في جمهورية الأكوادور، لكن أين يمكن أن نجد شيئا شبيها باليوتوبيا القريبة وشديدة الواقعية التي هي كيتو؟

عادة ما نكون غير منصفين مع ما تعنيه لفظة يوتوبيا، وفي هذا المقام يكفي أن نلقي إطلالة على الكتب التي ترجع إلى عصر النهضة من تلك التي نراها أكثر تعبيرا عن الفكر اليوتوبي خلال العصر، لنجد أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربة الاكتشافات الجغرافية دون أن يكون أي من هذه الكتب من تأليف كاتب برتغالي أو أسباني. هناك "اليوتوبيا" لتوماس مور حيث يفتتح هذا الكتاب ذلك الصنف من المؤلفات عام ١٥١٦م ويدور حول قصة بحّار برتغالي اسمه رفائيل إيتلوديو الذي رافق أميركو بسبوثيو A. Vespucio في آخر ثلاث رحلات قام بها إلى العالم الجديد. وهناك كتاب "أطلانتا الجديدة" لفرانسيس بيكون وهو كتاب ظهر بعد ذلك بمائة عام ويدور حول أرض بعيدة، لكنها تدخل في إطار التوسع الأسباني، ومع هذا هي في عزلة مقصودة. ترحل المركب التي تكتشف أطلانتا الجديدة من البيرو، وظلت على مدار عام متجهة صوب الصين واليابان وكان بحارتها يتفاهمون باللغة الأسبانية مع سكان الجزيرة.

لفت سيلبيوثابالا في كتاب المعنون "**يوتوبيا توماس مور في أسبانيا الجديدة**" الانتباه لأول مرة نحو التأثير الإنجليزي على المستشفيات التي أسسها السيد/ فاسكو دي كيروجا أسقف ميتشواكان، وقد استخدم هذا الأسقف ومعه فراي/ خوان دي ثومارّاجا، أول أسقف للمكسيك، نسخة من كتاب "**اليوتوبيا**" ودونّا ملاحظات وهوامش أفلاطونية كما أن هذا الكتاب لم يكن قد نفذ مثلما حدث بالنسبة لطبعات لاحقة. كان من الطبيعي أن تجد اليوتوبية السياسية للمتخصصين من الأوربيين في الدراسات الإنسانية لنفسها أول محاولات لتطبيقها في العالم الجديد الذي كان بمثابة مصدر إلهام، أو كان - على الأقل -

ذريعة ومسرحا مناسبا للحديث عن المجتمع المثالي. لكن من الخطأ التفكير بأن اليوتوبية الإسبانوأمريكية الحقيقية هي أن يصل المرء إلى هناك وقد انعكست صورته في مرآة الدارسين في أوربا الشمالية.

يعتبر الفكر اليوتوبي مكونا أساسيا في اكتشاف أمريكا واستعمار العالم الجديد ابتداء من مراحل الإعداد لرحلة كيستوفر كولومبس. وسرعان ما اتخذ شكله في صورة تجارب شديدة التحديد مثل تلك التي بدأت عام ١٥٢٠م على شواطئ "الأرض اليابسة" وكان ذلك من لدن يوتوبي لايكل وهو الأب بارتولوميه دي لاس كاساس، ورغم الفشل الذريع الذي مُنيَ به لم يتوقف لحظة واحدة طوال حياته المديدة من المطالبة القوية ببذل الجهد من قبل الأَسبان في الهند الغربية. وهنا كتب في بيرث دي تطيلة[1] في هذا يقول: "لم يحدث أبدا أن طولب بالعمل الجماعي لأمة في إيثار ما هو جماعي على ما هو أناني، حتى تتقدم خطوات أبناء آدم على الأرض مثلما حدث، ولم يحدث قط مثلما حدث في المطالبة بإقامة مدينة الله. لكن هل كان الأب/ لاس كاساس يعلم أن هناك شعبا قادرا على تحمل هذه التضحية؟ هذه لا تبدو مهمة عبقرية قابلة للتحقق من خلال إنسان شديد الخبرة وذكي. فتحت المطالب الضيقة كان الحل في hortus conclusus، ومن المنطقة المحظورة إلى التوجه الكنسي".

تتجلى هذه الصورة التي عليها hortus conclusos اليوتوبي الكنسي بشكل شبه دائم أمام العمل الاستعماري في الهند الغربية رغم أنه نادرا ما يتم تطبيقها بكل حذافيرها وهناك أسباب عديدة لذلك منها أنه ظهرت صور يوتوبية منافسة. ففي الوقت الذي تمكن فيه الأب/ لاس كاساس من القيام بالاتفاقيات الأولى في التبشير تحت إشرافه حصريا على أرض يابسة تمتد إلى ثلاثمائة فرسخ، كان فرناندث دي أوبيدو يقوم بعقد اتفاقيات أخرى وذلك حتى يتم منحه مائة راهب من سانتياجو حيث يجب أن يرافقوه في حكم سانتامارثا. وإذا ما كان ذلك الراهب الشهير من طائفة الدومنيكان يصرّ على "أنه عادة ما يكون من المفضل أن يكون هناك راهب واحد بدلا من مائتي محارب" فإن ذلك المبشر الآخر والمؤرخ كان يريد منع الدخول في hatus conclusus على القضاة والنواب والرهبان "يبدو لي في

---

(١) دراسة نقدية أولية " للأعمال المختارة لفراي بارتولوميه دي لاس كاساس B.A. . مدريد ١٩٥٧ صcxII

حقيقة الأمر أن هذه الأرض إما أن بها ينابيع من الرهبان أو أنها تمطر رهبانا - كتب هذا وهو يرى مرافقي الأب/ لاس كاساس يسيرون معه في شوارع سانتياجو بعد أن أصبح أسقف تشيابا، "وكانوا يسيرون اثنين اثنين لدرجة وصل عددها إلى ثلاثين وهم يرتدون كل زيه من تنورة ووشاح وقلنسوة بدون عباءات، ووراءهم الأسقف. كان ذلك يبدو مشهدا دينيا هزليا، وها هم الآن يبدؤونه..." (1).

هناك يوتوبيات أخرى إلى جوار هاتين وربما كانت ذات مصالح ولكنها ليست أقل فخامة، وهي مدعاة لبذل المزيد من الجهد مثل يوتوبيا نهر الدورادو El Dorado حيث لم يقتصر الإغواء فيها على حملات الاستكشاف التي كانت تهدف تحديدا إلى البحث عن اليوتوبيا بل أسهم بشكل عام في تحفيز وتثبيت دعائم الشركات الكبرى في الهند الغربية. كان الأمر كذلك بالنسبة لمدينة بوتوسي وباقي المدن التي تقوم باستغلال المناجم، حيث كان لكل مثاليته من الحياة الاجتماعية.

وكما هي العادة في كافة اليوتوبيات نجد أن تلك الخاصة بالهند الغربية كانت تريد أن تتحقق بكل نقائها وخاصة البعد الكنسي. وهناك نجد أن وصل الأمر ببعض الفرنسيسكان في أسبانيا الجديدة إلى المطالبة بالفصل بين الأمتين الهندية والأسبانية وذلك بتكوين "جمهوريتين مستقلتين" لكل واحدة "حكومتها الرهبانية"، أي حكومة السكان الأصليين الذين عندما يُعزلون عن الأسبان وعلى غير صلة بهم يتمكنون من بلوغ "شكل جديد من الذات المسيحية الذي يضم إلى المزايا ميزة أخرى حتى جعل الفصل أمرا في متناول اليد، ألا وهي أن يبقى المرء على نفسه في حالة صحية طبيعية" (2).

لكن المكسيك كانت مهمة للغاية حتى يمكن وضع كل هذه الغايات محل التنفيذ، وما تم أن ذلك يمكن أن يكون أمرا واقعا في الأقاليم الكائنة في أطراف "إمبراطورية الهند الغربية" حيث يمكن تحقيق hortus conclusus كنسي مثلما هو الحال في قرى اليسوعيين

---

(1) التاريخ العام والطبيعي للهندس الغربية "الجزء الثالث والثلاثون"، الفصل ٤١٧، الطبعة المشار إليها، الرابعة، ص٢٦٤.

(2) خوسيه أنطونيو مارابال "اليوتوبيا السياسية الدينية للفرنسيسكان في أسبانيا الجديدة" "مجلة الدراسات الأمريكية" إشبيليه، ١٩٤٩م، ص٢٠٦.

في الباراجواى. وحتى في هذه الحالة يجب وضع المصلحة السياسية للتاج في الحسبان حيث أطلق العنان للقدرة التنظيمية لجماعة دينية واحدة لتتولى في تلك الأقاليم الطرفية وضع حاجز ضد محاولات دخول البرتغاليين صوب بوتوسي.

تعتبر جمهورية جوارانسي R. de los Guaranis، التي استمرت مائة وخمسين عاما واحدة من المحاولات اليوتوبية الناجحة في تاريخ الإنسانية ولهذا السبب نفسه يصبح الأمر درسا يحتذى فيما يتعلق بالثراء الذي يمكن أن تكون عليه المثاليات اليوتوبية في استعمار العالم الجديد. ومثل هذه المهمة الضخمة والصعبة لم تكن ممكنة التحقق دون أن تكون هناك جرعة كبيرة من اليوتوبيا. لكن قسوة المهمة التي كانت في حاجة إلى أن يحلق الخيال عاليا قطعت الطريق عليها وجذبتها إلى مستوى سطح الأرض من خلال التنسيق بين التوجهات المختلفة المخطط لها. كانت الإمبراطورية واللاهوت والفضة تشكل، في إطار توجهاتها الحصرية والتنازع فيما بينها، ثلاثيا موحدا.

كانت الملكية الكاثوليكية تسهم في أن يكون الأمر على هذا النحو؛ فمن جانب هناك سمتها الكاثوليكي وتحديدا هناك الإدارة التي تقوم بدورها في توزيع المناصب الكنسية بعد المشورة التي يحصل عليها الملك السيد/ فرناندو من المقر الرسولي؛ ومن جانب آخر هناك الحاجة الملحة للمال التي كانت تجبرها على الاهتمام يوما بعد يوم بأعمال المناجم من خلال الموظفين المكلفين برعاية مصالحها الاقتصادية التي كانت تهدف في النهاية لخدمة قضية الدين.

هذه العقلية الهسبانية نفسها كانت تنحو للمواءمة، بشكل صادق رغم أنه نفعي، بين الغايات المختلفة التي كان يتوخاها الغزاة منذ الأيام الأولى، وهذا ما اعترف به، وباسم الجميع، برنال دياث دل كاستيّو عندما كان يقول بأنه جاء إلى العالم الجديد لعبادة الله وجعل الناس أغنياء. هناك تنويه آخر فيه مسحة من السخرية تعبيرا عن الموضوع جاء من لدن كاتب الحوليات، مؤرخ المجلس de cámara، لوبث دي جومارا، عندما وضع على لسان إيرنان كورتيس العبارة التالية: "السبب الرئيسي لمجيئنا إلى هنا هو إعلاء المسيحية والتبشير بديانة المسيح، رغم أن تلك المهمة تسهم في إضفاء الفخار علينا وعموم الفائدة وهذا ما لا يستقيم إلا نادرا".

كانت مدينة كيتو، انطلاقا من القصور العامة العديدة وكذا الخاصة وكنائسها وأديرتها وما عليه الشكل المتميز للسكان الأصليين الذين يرتدون ملابسهم على طريقة القرن الثامن عشر، واحدة من المدن التي تدخل الكثير من التوجهات المتناقصة الموجودة فيها في إطار هارموني. غير أن هذا لا يحول دون أن تتبدى المدينة أمام ناظري الرحالة وهي في صورة أكثر يوتوبية مقارنة بالآثار المتواضعة التي بقيت من القرى التبشيرية الموجهة من خلال نظام تعاوني صارم وهادئ وروح يوتوبية محكمة.

XIV- كيتو و"مدينة الشمس"

هناك يوتوبيا عظيمة تحمل طبيعة عصر النهضة، وتحديدا في نهايته؛ وهي يوتوبيا تستحق عناية خاصة إذا ما أردنا فهم التوجه اليوتوبي السائد في الهند الغربية الذي نراه مشفرا في عاصمة الإكوادرو: إنها **"مدينة الشمس"** التي أعدها راهب طائفة الدومنيكان توماس كامبانيا والتي نشرت عام ١٦٢٣م. ورغم أن كامبانيّا إيطالي لكنه كان فردا من الرعية للملوك الذي كانوا يحكمون في الهند الغربية، ولما كان من الجنوبيين الجيدين أمكنه أن يفهم بشكل أفضل المتخصصين في الدراسات الإنسانية من شمال أوربا وطابعهم الجغرافي الخاص.

كان الراهب الإيطالي على مسافة ملائمة حتى يفهم الهند الغربية الأسبانية على النمط اليوتوبي. فلم يكن شديد القرب منها مثل الأسبان أو شديد البعد عنها مثل الأوربيين الشماليين، كما أن اهتمامه ومنظوره لم يكن آنيا رغم أن ذلك كان حيا ليسمح بظهور نواب الملك في أمريكا بصفتهم عُمُدا أساسية في المفهوم الرسولي لهذه الملكية العالمية.

إذا ما تأملنا كتاب توماس مور الذي يبدأ بأن يصف لنا الحدائق والمراعي في فلاندس وانجلترا، لوجدناه يواصل من خلال صفحاته وراء نوع من الضباب، الذي يسيطر على نهر التايمز وذلك عندما يصف لنا ملامح جغرافية في العالم الجديد وهي سمات لا توجد لها علاقة قوية تشبه تلك العلاقة القائمة بين جغرافيا الهند الغربية دي قشتالة حيث نجدها تنقسم إلى نصفين من خلال خط الاستواء، وكذا مع أغلب أجزاء أراضيها بما في ذلك كافة المدن المهمة الواقعة بين مدار السرطان ومدار الجدي. وبذلك نجد أن من الملائم للطابع الأسباني بشكل كبير هو أن يكون عنوان كتاب كامبانيا Campanilla **"مدينة الشمس"**

وأنها على شاكلة كيتو، أي أنها شديدة الأهمية في إمبراطورية الشمس لحضارة الإنك حيث تقع على نفس خط الاستواء.

كانت هذه وجهة نظر تختلف عن تلك السائدة في العصر القديم والعصور الوسطى، ذلك أن أغلب القامات الإنسانية، ومن بينها نجد أفلاطون وأرسطو، كانت ترى أن المناطق الحارة غير قابلة للسكنى. ومع هذا لانعدم وجود بعض المؤلفين الذين لا يوافقون على هذا الرأي مثل طولوميو (البطلمي) Ptolomee الذي عاش في أفريقيا؛ وفي هذا المقام أخذ كتاب الحوليات في الهند الغربية يبحثون عن هذه الآراء المواتية بغية الحصول على الضمان الكلاسيكي الذي كان ضروريا للغاية في عصر النهضة حتى ولو كان الأمر يتعلق بالواقع المرئي.

يخصص الأب/ باتولوميه دي لاس كاساس في كتابه "تاريخ الهند الغربية" عدة فصول عن الموضوع حيث أثنى على الموسوعية المعرفية التي جاءت من لدن ألبرتو مانجو الذي أعلن أنه من أنصار إمكانية سكنى المناطق الحارة. غير أن الأسباني يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ويرى احتمالية كبيرة للافتراض القائل بأن المنطقة الاستوائية في الهند الغربية يوجد فيها الفردوس على الأرض. وهنا نجد لاس كاساس يسوق كافة الحجج والمصادر الخاصة بالأوطان والشعرية والميتولوجية والفلكية. . . الخ، وذلك في عرض شيق للغاية، كما يبرز من بينها سببا له علاقة حميمة بالفلسفة اليوتوبية لكامبانيّا وباليوتوبيا التي أصبحت حقيقة على أرض الواقع وهي كيتو: نعرف من خلال فيرجيل والقديس جيورنيم أنه كان في أثيوبيا الواقعة بالقرب من خط الاعتدال الفلكي "مدينة الفلاسفة يطلق عليها أريم Arim"[1] أو "مائدة الشمس" حيث كان هؤلاء يعيشون ويتلذذون بالطعام الخفيف واللذيذ الذي هو طعام الحكمة وعلم الفلسفة".

من الطبيعي أن تستند النظرية الفردوسية للأب لاس كاساس علي حجج أكثر قوة وشخصية، جاءت من واقع تجربته على الأرض اليابسة رغم فشل مهمته أو أن هذا كان بسبب هو تحديدا: هناك الطبيعة الغنية والعظيمة والنعمة تطل من كل جانب وكذلك "الطهارة والحرية والبساطة والطيبة التي عليها الناس" وهذا يعني أن "في تلك الأماكن،

---

(١) "تاريخ الهند الغربية" الجزء الأول، الفصل CXLIII، الطبعة المشار إليها، الثانية ص٣٨٢.

وبالقرب منها كانت العناية الإلهية حاضرة وأن الفردوس الأرضي موجود" وأن "من ينكر هذا أو يشك فيه فليس له صفة إلا أنه أحمق وأنه غير جدير"(١).

يمكن العثور على اعتبارات مشابهة لهذه السابقة، رغم أنها ليست شديدة القطعية، عند مؤرخين آخرين للهند الغربية. ها هو الأب خوسيه دي أكوستا وقد هب للدفاع عن المنطقة الحارة وخصص جزءا كاملا من إجمالي الأجزاء السبعة لكتابة "**التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند الغربية**"، وجاء هذا الكتاب مكونا من أربعة عشر فصلا شديدة الدقة؛ كما أنه يخمن بتأييد النظرية القائلة بأنه يمكن العثور في هذه المنطقة على الفردوس، ولكن جاء ذلك في صورة أكثر اعتدالا ونسبية بالمقارنة برؤية لاس كاساس. هذا اليسوعي لا يشير "بخوف" إلى "الفردوس الجميل الذي تتحدث عنه الكتب المقدسة" بل "أقول ذلك فيما لو كان هناك فردوس على الأرض حيث يمكن العيش في ظل مناخ هادئ ورقيق" مثل ذلك الذي يوجد في بعض مناطق الهند الغربية ويصل في هذا إلى درجة يفترض فيها أن السعادة المثالية التي عليها "حدائق الإليزيه" والتي عليها Tempe الشهير وكذا "ما يحكيه أفلاطون أو يتخيله، عن جزيرة أطلنتيدا Atlantida، وهنا من المؤكد أن البشر يمكن أن يعثروا في تلك الأراضي على الفردوس إذا ما كانوا حسني النوايا وأرادوا أن يكونوا سادة وليس عبيدا لأموالهم وجشعهم"(٢).

نجد في كتاب الأب أكوستا أن أسطورة الفردوس على الأرض في البلاد الأمريكية تحولت إلى إمكانية إقامة الجمهورية المثالية على هذه الأرض من خلال الإصلاحات الأخلاقية والاجتماعية المناسبة.

من المفترض أن يكون كامبانيّا على إطلاع بهذه الكتابات التي تتسم بأنها قديمة للغاية وجديدة في آن معا حول افتراض وجود فردوس استوائي في العالم الجديد. وعلى أية حال نجده يجعل مدينته اليوتوبية تتموقع على خط الاعتدال الفلكي وهي في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية تقريبا. وبالنسبة لجزيرة تابروبانا Toprobana التي رسا على شواطئها القائد البحري الذي اكتشف "مدينة الشمس" ووصفها، فقد كان ينظر إليها قديما على

(١) "تاريخ الهند الغربية" الجزء الأول، الفصل CXLV، الطبعة المشار إليها، الثانية ص٣٨٩.

(٢) "التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند الغربية"، الجزء الثاني، الفصل XIV، الطبعة المشار إليها، ص٥٢.

أنها الإقليم الذي يعيش فيه سكان الجانب الآخر، طبقا لما يؤكده سولينو Solino كتابه Polyhistor (الفصل ٥٦) - وهو الذي أشار إليه أيضاً الأب لاس كاساس - وأنه إذا ما كان على اتفاق مع أو وصف البطلمي لها عادة ما يرى مدينة سيلان. ومع هذا فهناك احتمال كبير في أن يكون كامبانيّا فكر في جزيرة سومطرة الواقعة جنوب خط الاعتدال الفلكي Sotto حيث يصفها بأنها " gentiismo non retinendo¨ hodie post navigattionem Luistanorum est nulibi foelicius habitari[١].

عند الحديث أيضاً عن جزر آسيوية كانت هناك مدن أسبانية هي بمثابة طليعة للمدن الأمريكية حيث كانت تتمتع بسمات مذهلة من درجة الشبه التي تجمعها بتلك التي ابتدعها كامبانيّا في كتابه. تتوفر مدينة الشمس على سمات عظيمة، مثل مدينة كيتو، في جوايا كيل تساعد سكانها على إقامة علاقات قوية مع الهنود والصينيين والسياميين وغيرها من الشعوب الآسيوية. وهذا في حقيقة الأمر ملمح شديد الأسبانية لمدينة كامبانيا وليس الحديقة المُسيّجة hortusconclusus مثلما كنا نراه في كتب اليوتوبيات، حيث نرى أن المدينة مفتوحة على النقل العالمي طبقا لما كان يحدث بالنسبة لمدن الهند الغربية التي هي جزء من الآلية الاقتصادية الضخمة وكذا الآلية الإدارية والثقافية للمملكة الكاثوليكية رغم صعوبة التضاريس التي تحيط بها.

وعندما ننتقل من فحص الظروف الجغرافية العامة لمدينة الشمس وموقعها وبنائها نكتشف أيضاً وجوه شبه مذهلة مع المدينة الاستوائية. وإذا ما صعد كامبانيا على سطح هضبة لوجد أن منازل كيتو بتوزيعها الهندسي وكأنها رقعة شطرنج تكاد تكون معلقة في الهواء أي فوق منطقة غير مسطحة وأن فوارق الارتفاعات في هذه الرقعة تصل إلى مائة متر في ثماني أو عشر نواح من المباني، وبالتالي فإنها تقوم على أقواس غير مرئية تتكئ على تلك المنكسرة. وبهذا توجد كحاضرة معمارية متشابكة ومتضافرة، بمعنى أنها تتسم بالعظمة وهذا مثلما كان يحدث بالنسبة لحاضرة كامبانيّا حيث نجد قصورها الكبيرة "شديدة الترابط فيما بينها" "لدرجة يمكن معها أن تقول أنها عبارة عن مبنى واحد"، و"في منتصف ارتفاع

---

(١) Vid "مدينة الشمس" للأب نوربرتو بوبيو، تورينو، ١٩٤١م ص٥٥، هامش رقم ٦.

تلك القصور - يضيف الكتاب[1] - تبرز سلسلة من البوائك التي تمتد على طول الناحية، وفوقها هناك دهاليز، كما أن هذه الأقواس تتكئ على أعمدة جميلة ذات قواعد عريضة وكأننا نرى صالات الأعمدة أو أديرة الرهبان".

تتسم المدينة اليوتوبية (الفاضلة) عند ابن طائفة الدومنيكان وابن بلدة كلابريا في إيطاليا - وهذا ما تم التعليق عليه مرات عديدة - بأنها مدينة ديرية على شاكلة ما هو في جنوب إيطاليا. والشيء نفسه أيضاً بالنسبة لمدينة كيتو، ولكن بدرجة أكبر مما عليه المدن في البحر المتوسط، وكذا بالنسبة للغالبية العظمى للمدن الأسبانوأمريكية، حيث كانت مدن رهبان بالدرجة الأولى لكن ذلك من منظور ثقافي وسياسي الذي يميز اليوتوبية للدومنيكاني، الذي كان يتغنى بالمفاخر الكونية وبما وراء البحار في الملكية الكاثوليكية. كان دير الرهبان هو الملمح المعماري الرئيسي في مدينة الشمس ومدينة كيتو وكوثكو وأريكيبا Arequipa وليما أو المدن المماثلة التي تقع في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وهو نمط معماري يتكرر في المقر الديري لكل واحدة من الجماعات الدينية التبشيرية الكبرى. وبالنسبة للرحّالة الأوربي فإنه مهما بلغت درجة اعتياده على عمارة الأديرة في أسبانيا وإيطاليا نجده يشعر بأنه تائه وسط كل هذا الطوفان من الصحون Patio والأديرة والسلالم والمصليات وقاعات الطعام... الخ التي توجد في أديرة مثل دير سان فرانثيسكو أو دير لامرثيد في كوثكو، وسانتو دومنحو في ليما أو دير الفرنسيسكان في كيتو، حيث يبدو أن كل دير منها قد تحول إلى ما يشبه المدينة الحقيقية.

وحتى نحصر أنفسنا على كيتو نشير إلى أن دير سان فرانثيسكو كانت مساحته ثلاثين ألف متر مربع، وبه ثلاث كنائس وسبعة صحون وحديقة إضافة إلى القباب القوية التي كانت تحمل جزءا كبيرا من الدهليز والصحن الرئيسي كنوع من معالجة عدم وجود الأرضية على ارتفاع واحد. ولا يوجد إلا القليل من الأديرة في أمريكا الجنوبية يمكن مقارنتها بهذا الدير رغم أنها يمكن أن تكون أكبر مساحة، وتكمن هذه المقارنة في الجوانب المعمارية والكنوز المتمثلة في المنحوتات والرسم وكافة أنواع الفنون الزخرفية، إضافة إلى الوظيفة التي يقوم بها في التطوير الثقافي في أمريكا الجنوبية. احتل الدير مكانا مميزا للغاية في

---

(1) Vid ترجمة. "يوتوبيات عصر النهضة" المكسيك، ١٩٤١، ص١٣٨.

المدينة التي أعطته اسمها، والسبب هو أن الرهبان الشحاذين تمكنوا من إقناع الحاكم سباستيان دي ابن القصر ليغير اسم المدينة الحديثة التأسيس، سانتياجو، لتصبح سان فرانثيسكو دي كيتو، وهو الاسم الذي لا زال في محاضر المجمع الديري المعظّم، والمدن وبلدية هذه المدينة الشديدة النبل والوفاء.

وفي هذا السياق نجد التركيبة الدينية والمعمارية في كيتو تتسم بنوع من الشذوذ مقارنة بالمدن الإسبانوأمريكية حيث تتسم بالتوازن في توزيع رقعتها رغم أن هناك أولوية لجماعة سان فرانثيسكو – وليس غريبا إذن أن ينسب إليها ما يقرب من نصف جيش المبشرين – بالمقارنة بينها وبين جماعة سان أغسطين وسانتو دومنجو ولامرثيد، وهي جماعات انضمت إليها في بداية القرن السابع عشر "جماعة يسوع"، ثم جماعة الكابتشينوس (الرهبان الكابوتشي) في منتصف القرن المذكور ولكن من بعض الأقاليم. كان تميز دير سان فرانثيسكو واضحا في كيتو، فهناك مبانيه التي استنفدت الكثير من الجهد والموارد لدرجة أن الجماعات الدينية الأخرى لم تبدأ في بناء كنائسها وأديرتها إلا بعد مرور سنوات من الربع الأخير من القرن السادس عشر، ولم تتمكن من بناء الكثير حتى بداية القرن التالي.

وفي هذا المقام الجديد الذي تتم فيه مقارنة كيتو بمدينة الشمس نجد أنه إزاء ما هو مرسوم في "يوتوبيا" توماس مور، ليس هناك إلا دار واحدة للعبادة بها وقد شيدت بطريقة تثير الإعجاب على قمة الجبل، نشير أيضا إلى الموقع المتميز الذي عليه الدير في كيتو ذلك أن رهبانه كانوا مميزين عند قيام القيادات الكنسية cabildo بمنحهم قطعة أرض تدخل في دائرة قصر للإنكي هوينا كاباك Huaina Capac. أيضاً نجد أن الدير مميز منذ تأسيسه بما بذله من دم ذلك الذي بدأ المهمة وهو فراي خاكوبو ريك دي مارسيلار، المولود في جانتي Gante، وهو، طبقا لما يقال، أحد أقرباء الإمبراطور كارلوس الخامس. وتشير هذه الأقوال أيضاً إلى أن الإمبراطور ساعد بشكل جوهري على إقامة الدير الكبير، وذات يوم وجدوه مستغرقا في التفكير وهو في واحدة من شرفات قصره في طليطلة يتأمل أملا في أن يلمح أبراج دير ابن عمه، وهي أبراج لابد أنها شديدة الارتفاع استنادا إلى ما أنفق عليها من مال.

وبغض النظر عما يقال، فمن الملاحظ وجود هذه السمة الملكية الإمبراطورية التي عليها دير سان فرانثيسكو سواء من حيث التجليات المعمارية أو التنويعات الأسلوبية التي

كان الرهبان الأوائل من الفرنسيسكان الذين وصلوا إلى كيتو من الفلامنك، مثلما هو الحال في المكسيك، إضافة إلى القشتالي بدرو دي ريدونياس وكان يرافقهم فنانون من شمال أوربا - جاكوم الفلامنكي، خيرمان الألماني - الذين أسهموا بعملهم في بناء وزخرفة الكنيسة تعاونا مع فنانين كثيرين آخرين من المدجنين الذين شاركوا بالعمل هناك، نعرف أيضاً أن من بين طوابير جيوش الغزاة كان هناك أكثر من مائتي مسلم اعتنقوا المسيحية، وهم من الذين كان يُشهد لهم كثيرا بمعارفهم في فن صهر المعادن وتصنيع الأسلحة النارية. تضمن هذا الجيش أيضاً عددا جيدا من المشارقة Levantiscos أو اليونانيين، تحت إمرة بدرو دي كانديّا تلك الشخصية البارزة، وهم من المتخصصين في صناعة المدافع، وكذا - بمساعدة الهنود - في صهر الخوذات والدروع الخفيفة من الفضة والنحاس المخلوط حيث كانت غاية في الجودة[1]. ظل الكثير من هؤلاء الناس في كيتو حيث كانت من أبرز مدن أمريكا الجنوبية التي تقدم فرصا متاحة أمامهم للقيام بمهاراتهم المهنية. وإلى هذه التنويعة الكبيرة من الصنّاع الأوربيين انضم أبناء السكان الأصليين إذ سرعان ما بدأوا التعاون معهم، كما كان هناك آخرون قدموا من الشرق الأقصى ذلك أن الفرنسيسكان لم يقتصروا على استيراد القطع الفنية من الجماعات التبشيرية التي كانت تعمل في آسيا بل هناك أيضا الهند الشرقية حيث جاء هؤلاء للمساعدة في زخرفة الدير الكبير في كيتو[2].

كان ناتج هذا التعاون الواسع أمرا ملحوظا في منطقة التقاطع في كنيسة سان فرانثيسكو حيث نجد العقود الرئيسية المدببة تقوم على قواعد مزخرفة بكوّات نمطية على أسلوب عصر النهضة وفن الفلامنك، وعلى الجانبين هناك حوامل أيقونات مصنوعة من الخشب المشغول والمطلي باللون الذهبي حيث تلاحظ البصمة الهندية الصينية في الكرانيش الخاصة بالحليات المعمارية المتموجة، كما أن المركز مزخرف على شكل قصعة ثمانية الأضلاع وله إفريز عريض به ثماني وأربعون صورة نصفية. وهذا البذخ الفني يزداد قوة

---

(١) إنكا جارثيلاسو دي لابيجا: "غزو بيرو". من الجزء الثاني من "التعليقات الملكية للإنك" المجلد الثالث، الفصل الثالث عشر، الطبعة المشار إليها، الثالثة ص١٩٦.

(٢) خوسيه جابريل ثايارّو "النحت في الأكوادور"، من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، مدريد ١٩٢٩، ص٢١-٢٣.

أمام الزائر عندما يدخل الكنيسة حيث تلك الواجهة التي تتسم بأنها تحمل الأسلوب الفني الإيطالي المحض بأعمدتها فى شكل مجموعات وواجهاتها التي ترتفع رويدا رويدا فوق السلم الكبير الذي تم تشييده طبقا للوحة المرسومة guabado التي أعدها سيرليو Serlio من nicchione في برامانتي Bramanté. وإذا ما كانت هناك دار عبادة في العالم يمكن لها من خلال نمطيتها الإيطالية ومسكونيتها أن توحى خيال كامبانيّا فإنها كنيسة سان فرنثيسكو في كيتو.

كما أن كامبانيا سوف يشعر بالرضا عندما يرى صحون الدير، وهو عبارة عن حدائق نباتية حقيقة. حتى يمكن رعاية النباتات الأوربية، وكذا صحون الأديرة claustro المزخرفة بالرسوم من كل نوع، حيث تعلم في هذا المكان العديد من أجيال الفنانين من الهنود وعرفوا أسرار الإيمان والمفهوم الفعلي والتاريخي الذي عليه الغرب وكذا الفنون الأوربية. هناك ايضاً الحوائط السبع التي تحيط بدار العبادة الرئيسية في مدينة الشمس مغطاة بمشاهد مرسومة رائعة تمثل، في سياق جدير بالإعجاب، العلوم والفنون الميكانيكية والمخترعين في العلوم والأسلحة والمشرِّعين... الخ. أضف إلى ذلك، يقص علينا القائد البحري في الكتاب[1]، "رأيت في مكان مميز صور المسيح والحواريين والإثنى عشر، الذين يعتبرون جديرون بكل تبجيل وهم في مكانة أرفع من البشر. كما رأيت في الجزء الآخر الواقع أسفل البوائك صورة قيصر، والإسكندر وبيرّو وهانيبال وأبطالا آخرين...".

تتسم هذه الخلطة الضخمة من العناصر الدينية والسياسية والعلمية والفنية بأنها سمة من سمات المدينة كامبانيا، وكذا تلك المدن الديرية في الهند الغربية، غير أن القلة القليلة منها يمكن مقارنتها بمدينة كيتو الفرنسيسكانية. أدخل فراي/ خادوكو البذور الأولى للقمح في أمريكا الجنوبية، وسيرا على نهج المدرسة التي أسسها في المكسيك ابن بلده بدرو دي جانتي كرّس جهده، وبحماس، لتربية السكان الأصليين، وواصل من جاءوا بعده المهمة التي بدأها حيث تم توسيع المدرسة الديرية في سان أندرس، حيث رجال الدين يقومون بتعليم الهنود ليس فقط القراءة والكتابة والعقيدة المسيحية بل كافة أنواع الحرف المفيدة والفنية.

---

(١) الطبعة المشار إليها ص١٤٥.

ومن الأمور التي تتسم بأنها تسترعى الانتباه وذات الدلالة هو أن أول هيئة يتم فيها تعليم الفنون في أمريكا الجنوبية كانت تقع على خط الاستواء كما أن تاثيرها كان طويل المدى، حيث وصل من الجهة الشمالية حتى تونخا Tunja القصيّة الواقعة شمال بوغوتا، ومن الجنوب وصلت إلى شاركاس Charcas التي تقع وسط بوليفيا الحالية. غير أن من يتأمل مدينة كيتو بعظمتها، آخذا في الاعتبار الإسهام الكامل لكامبانيا، يذهب إلى ما هو أبعد من هذا بكثير. سلط بعض المعلقين الضوء على أن الصورة المحددة والتطبيقية لمدينة الشمس تتسم بأنها متنوعة وكذا ما يتعلق بالرؤية العامة لها سواء من الناحية المسكونية أو الكوزمية التي نراها في كثير من كتابات المفكر الإيطالي؛ غير أن وجهتي النظر هاتين تتلاقيان وتتكاملان، فالمدينة اليوتوبية (الفاضلة) ليست شيئا منعزلا ومحاطا بأربعة جدران في معمل تجارب اجتماعية بل هي عبارة عن التحليل الميكروسكوبي لوحدة سياسية متكاملة في جلاكسيا كبيرة حيث تستطيع نظارة الدومنيكان أن تلمحها بكل ملامحها. وفيما يتعلق بالواقع التاريخي، نجد أن السيد/ فرناندو، الرجل الذي أسس الوحدة الإسبانية وكذا إمبراطورية الهند الغربية حصل من خلال تنصيبه في المنصب الديني الرفيع Patronato على أداة رائعة للتوفيق بين الخلايا الكنسية، التي لا تعد، في إطار ملكية كانت تميل، بسبب كاثوليكيتها لأن تتماهى مع القضية الرهبانية الرومانية، سيرا في هذا على أماني كامبانيا.

لا يوجد مُغَنٍّ تمكن من أن تكون الملكية الأسبانية قابلة للقياس حسب صوته وانتشار أسلوبه مثلما تمكن من ذلك ابن كالابريا Calabria. كتب في مؤلفه Discorsi aiprincipi d'Italia يقول "منذ خلق العالم لم تكن هناك إمبراطورية بهذه الضخامة وإثارة الإعجاب مثل الإمبراطورية الأسبانية اليوم. . . الإمبراطورية الأسبانية ضخمة للغاية لدرجة لا تكاد تصدق وبها الكثير من الأعاجيب لدرجة تبدو معها أنها أسطورة في نظر من لا يفهم جغرافية الكون والقوة الطاغية في هذا الزمن. . . إذا ما نظرت حول أفريقيا، ابتداء من الغرب وحتى الجنوب نجد أن بها أربعين مملكة مثل أسبانيا؛ أضف إلى ما سبق سيطرتها على معظم المحيط وهذا شيء لا يقدر بثمن. . . . وبذلك لا يوجد مُلك في العالم، ولم يوجد قبل ذلك أبدا، يمكن أن يمثل عشر الإمبراطورية الأسبانية، وليس هذا إلا معجزة إلهية".

وينتهي كامبانيا بقوله بأن الإمبراطورية الأسبانية التي تضم كافة الأمم والعالم "هي نفسها ملكية المخلص". كانت العناية الإلهية وراء ما فعله كريستوفر كولومبوس "وكأنها

حمامة تحيط بها المياه" وهي تحمل اسم المسيح بكل مقاطع الكلمة التي يتكون منها اسمه. تتقدم الأمة الأسبانية بحملاتها الاستكشافية المغامرة في المحيطات في مهمة الخلاص، وإذا ما كان تعداد سكانها كبيرا فقد خلت منهم. ورغم أن الأفراد كانوا مدفوعين بحمى الفخار والثروات فإن عملهم أسهم فى نشر الكتاب المقدس quadam divino instinctu agitatur.

وبعد التطواف بأمريكا الأسبانية يمكن فهم الفكر السياسي الكوني لكامبانيًا، والعكس صحيح، فإن ذلك الفكر هو واحد من أفضل المداخل لفهم الإسهام الأسباني في الهند الغربية.

وعندما يسير المرء، بعد الحديث في المجلس الموقر في "بيت الثقافة في كيتو" خلف كبير الدير من خلال السلالم والصحون والدهاليز والمصليات والمطاعم... الخ التي هي مكونات دير سانتو دومنجو، حيث هناك "معهد الثقافة الإسبانية"، ليصل إلى قاعة المحاضرات، يشعر المرء بتجلى المسيح. هناك سجادة وراء ظهري ومنبر على اليسار والمقاعد التي يجلس عليها الجمهور والخشب الرائع المشغول الذي صنع منه حامل النوتات والجو العام للصالة بما فيه من لوحات عديدة ومذابح صغيرة، كل ذلك يشعر المحاضر بالحيرة حيث ينظر إلى نفسه شزرا بشكل مستتر، حتى يتواءم مع الجو المحيط ويتمنى لو وضعوا على كتفيه حُلّة الشماس.

لكن لن تكون حُلّة الشماس بل ملبس أكثر فانتازية ولا واقعية، لدرجة لا يكون معها موجودا. كما أنه يكتشف نوعا من التغيير على صوته عندما يبدأ الكلام، وكأن الكلمات تخرج من فم شخص آخر غيره. يشعر بالخجل بعض الشيء من هذا الصوت الذي يخرج منه وكأنه أخذه عارية من الحب Hob الميتافيزقي من مدينة الشمس وليس واعظا، ولا يوجد فيه أدنى لجلجة بل حيرة واضطراب.

يا له من تعقيد يتمثل في الوظائف الاستبدادية في يوتوبيا كامبانيا وكذلك في المدن الديرية في أمريكا الأسبانية! هناك العديد من المهام والأنشطة التي كانت تقع على عاتق الرهبان والتي تصل، من ثقلها، إلى الانزلاق إلى طريق التدهور حتى وصلت إلى حالة محزنة عبر عنها كل من خورخي خوان وأنطونيو دي أيوا في تقريرهما المعنون "الأخبار السرية

لأمريكا" الذي تم تقديمه للبلاط. وتتسم الصفحات المخصصة للحديث عن عادات رهبان كيتو بأنها فاضحة.

لكن لم يختف البعد اليوتوبي للمدينة في هذا التقرير لهذا السبب سواء كان بالنسبة لها أو للإقليم التابع لها، ويقتصر الأمر هنا إلى تحولها في هذا المقام إلى ما عليه عصر التنوير. لقد انضم كل من خورخي خوان وأنطونيو إلى الحملة التي نظمتها "الأكاديمية الملكية للعلوم" في باريس، لقياس عقد مائدة خط الزوال de meridiano، وكانا يميلان طبقا للوظيفة التي يقومان بها إلى اليوتوبية العلمية والمفيدة لعصر التنوير، وأصابتهما الدهشة بالثروة التي كانت في البلاد والتي يمكن مقارنتها بما عليه أفضل المناطق في البيرو. لكن الطبيعة في ذلك البلد لم تقتصر على وضع ثرواتها تحت الأرض مثلما نجده في مرتفعات البيرو بل حبتها الطبيعة "بوفرة من المواد الغذائية الطيبة للغاية وناس أشداء وعدد وافر من الأنهار والجداول وبالتالي تصبح مريحة بالنسبة للآلات والطواحين المستخدمة في استخراج المعادن... الخ"[1]. كانت الطبيعة شديدة السخاء في إقليم كيتو لدرجة أن هجر مناجمها الغنية للغاية إنما يرجع إلى حالة الوفرة في البلاد الأمر الذي يؤدي إلى حدوث نوع من الكسل عند السكان".

كانت كيتو تواصل بصورتها كمدينة فاضلة وسوف تظل كذلك لمن يتأمل المشهد العام فيها، وفي الوقت ذاته سوف تطل مدينة حميمة وكأنها مدينة من عالم آخر. هناك القليل من الذكريات الناتجة عن الرحلة إلى القارة الجديدة التي أصبحت محفورة في الذاكرة ومنها الخاصة بتلك الأمسية التي تجولت فيها، بعد تناول طعام الغداء، في طريق البراكين بناء على دعوة من ملاك ذلك المطعم الذي تناولت فيها الغداء وكان مكونًا من خُضرة من إقليم أستورياس الأسباني، وهم - أي الملاك من الذين ينتسبون إلى الأسر - الأكثر عراقة في المدينة.

كانت السيارة تهتز من جراء الحالة السيئة التي عليها الطريق وربما كان ذلك بسبب طبيعة الأرض البركانية التي تسير فوقها، وعلى الجهة اليسرى كان الهرم الضخم Cotopaxi يقترب وهو يرتدي قبعته المكونة من الجليد الدائم. نزلنا من السيارة لنتأمل الهرم بهدوء وملأ العين بياضه، لدرجة بدا معها أن الوادي كان مظلما عندما بدأنا السير فيه

---

[1] العمل المشار إليه، الباب الثاني الفصل التاسع، الطبعة المشار إليها، ص٤١٩.

من جديد حتى رأينا مدينة لاتاكونجا Latacunga بمساكنها الشديدة البياض والمتلألئة وكأن البركان نفسه هو الذي شكلها بواحد من تجشؤاته وليس برماده بل من خلال الجليد المتراكم عليه.

XV- سانتو دومنجو بين العالم الجديد والعالم القديم

تعتبر عاصمة جمهورية الدومنيكان العاصمة الوحيدة التي تنسب إلى العصور الوسطى في أمريكا، ومن البراهين على ذلك الآثار الرئيسية الثلاثة التي توجد بها وهي الكاتدرائية وبيت القائد ومستشفى سان نيكولاس، من حيث العناصر المعمارية والزخارف. تنسب المستشفى بتخطيطها وأسلوبها إلى تلك السلسلة من المستشفيات التي أقامها الملوك الكاثوليك في طليطلة وسانتياجو وغرناطة. وبالنسبة للقصر الذي شيده السيد/ دييجو كولومبوس عام ١٥١٠م ليكون بلاطه، الذي لم يدم طويلا، هو عبارة عن مبنى ذي طبيعة تجمع بين ما هو حربي وما هو مقر إقامة ريفي حيث تتداخل فيه عناصر من العصور الوسطى مع عناصر شرقية وأخرى ترجع إلى عصر النهضة، كما أنه يذكرنا بقصر سالدانويلا Saldanuela الذي شيد بعد ذلك في سارّاثين sarracín بالقرب من مدينة بُرْغش Burgos[1]. أما بالنسبة للكاتدرائية التي جرى تشييدها بسرعة خلال الفترة من ١٥٢٣م و١٥٣٧م، وهي الأولى في أمريكا تاريخيا وتراتبيا، فهي عبارة عن مبنى مكون من ثلاث بلاطات تكاد تكون على مستوى واحد من حيث الارتفاع، وهي بكاملها ذات أسلوب قوطي إيزابيلي سواء من حيث المخطط والأعمدة والسقف والعقود والحليات الوردية الشكل وسلاسل الكرات. . . الخ.

يسبق الباب الرئيسي للكاتدرائية فناء أو دهليز ذو حوائط في نهاياتها شُرّافات حيث يضفي عليه طابع المعبد الحصن ومن خلال الهدوء الاستوائي يتواءم مع "بوابة سان دييجو" التي تقدم رسالة الهدوء هذه ولكن بطريقة أقل غموضا، حيث تعرضت لهجمات

---

(١) إيروين والتر بالم "الآثار المعمارية لمدينة تروخيّو الإسبانية" ١٩٥٥، الطبعة الثانية ص١٠٦ وما يليها.

القراصنة ولعوادي الزمن، كما أن هناك "برج التكريم" الذي يمتد على أطراف أوثاما Ozama. ينسب الباب إلى السور القديم المكون من حوائط عالية وغير عريضة وذات طابع العصور الوسطى بشكل ملحوظ وهي التي بدأ بناؤها عام ١٥٤٣م، كما أنها الجزء المتبقي من حصن كبير يمكن القول عنه، من خلال المخططات المحفوظة في أرشيف الهند الغربية، بأنه كان يشكل مقرا محصنا ثانيا وله أسوار ذات شرّافات وبرج على شاطئ النهر وبوابة تحميها مكعبات سميكة تربط الحصن بالمدينة[1].

ومن كان يصعد إلى ذلك المكان في منتصف القرن السادس عشر يخرج بانطباع مفاده أنه لم يغادر الأقاليم الأطلنطية للقارة العجوز بما عليه من سمات العصور الوسطى. كان من المنطقي أن تحدث الأمور على هذا النحو، ذلك أنه إذا ما كان العصر الحديث يبدأ بالاستكشاف واستغلال العالم الجديد فمن غير الجيد أن تحمل المدينة في باب الدخول إليها سمات العصر الحديث. كانت توجد في سانتو دومنجو بعض التجديدات التي تعبر عن روح جديدة، فالشوارع كانت مصممة علي شكل خطوط مستقيمة مشكلة مربعات كما أن المباني كانت تقام بإيقاع محموم لدرجة يمكن وصفه بأنه إيقاع أمريكي إضافة إلى مفهوم جديد للمكان والزمان إذ وضع في الاعتبار ليس الحاجات الآنية للسكان وإنما للمستقبل كذلك.

كما أن العناصر الاقتصادية الكامنة وراء نمو المدينة كانت جديدة بالطبع، وكان ميناؤها الميناء الأهم في العالم الجديد وظل على هذا النحو حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر حيث كانت تتركز فيه عمليات النقل بين القارتين، ومن موانيه أبحرت الحملات التي قامت بغزو بويرتوريكو وكوبا والعديد من الأقاليم الكائنة على الشواطئ القارية. وهناك جزء كبير من الأموال التي يتم تحصيلها من الفدية والغزوات وما يقوم الموظفون بتحصيله جرى استخدامه في إقامة المباني. وقد قام الأب/ لاس كاساس، وفرناندث دي أوبيدو بوضع قائمة دقيقة للإنشاءات الأولى التي تمت، حيث كان هناك ميل لتشييد منازل قوية البنيان والتي بقى منها الكثير حتى أيامنا هذه مثل بعض المنازل التي أمر الحاكم نيكولاس دي أو باندو ببنائها في شارع فورتاليثا.

---

(١) دييجو أنجولو إنيجيث، باوتستا أنطونيلي، "التحصينات الأمريكية خلال القرن السادس عشر"، مدريد ١٩٤٣م، ص٢٩.

أصبحت سانتو دومنجو، بفضل هذه الجهود، حاضرة ظاهرة تلفت الانتباه وكان ذلك في وقت قصير. كتب فرناندث دي أوبيدو العارف الجيد بأفضل المدن الأوربية "هذه المدينة مشيدة تشييدا حسنا ولا تضارعها أي بلدة في أسبانيا حيث كانت حسنة البناء بشكل عام ومقارن وتفوقت في هذا على مدينة برشلونة الشهيرة"(١). يؤكد الأسقف أليخاندرو جيرالديني، الأسقف الثاني في سانتو دومنجو، والناقد الجيد من حيث أنه إيطالي المولد وصديق "ليون العاشر"، بعد وصوله بوقت قصير إلى المكان، ١٥٢٠م: "أنني أعجبت برؤية هذه المدينة الشهيرة التي تأسست منذ خمسة وعشرين عاما، ذلك أن مبانيها مرتفعة وجميلة مثل المباني الإيطالية، كما أن ميناءها يستقبل كافة السفن القادمة من أوروبا، وشوارعها مستقيمة وواسعة والتي يمكن لشوارع فلورنسا أن تكون غير قادرة على المنافسة في هذا".

لكن مثل هذه المدينة التي ازدهرت في غضون خمسة وعشرين عاما منذ أن تأسست تعاني التوقف شبه المفاجئ في نموها لنفس الأسباب الكامنة وراء عظمتها. وتحديدا نجد أن الأنشطة التي كانت تتم فيها هي التي فرّغتها من جوهرها، وفي هذا المقام كتب فرناندث دي أوبيدو يقول "إن من منطلق هذا المكان تم اكتشاف أفضل مكان وتسكينه وتزويده بأفضل ما في الهند الغربية وكأنه عبارة عن رأس وأم ومرضعة لكافة أجزاء هذه الإمبراطورية". وفي منتصف القرن وبعد غزو المكسيك وتحويل لاهافانا إلى الميناء الذي تجتمع فيه الغليونات والسفن الآتية والراحلة من العالم القديم إلى العالم الجديد، انكمشت مدينة سانتو دومنجو لتصبح مدينة ثانوية. ومن جهة أخرى أسهمت عمليات نهب المدينة على يد قوات Drake، في التاسع من يناير لعام ١٥٨٦م في وضع اللمسة النهائية لانحطاط المدينة وقام الإنجليز في هذا المقام وفي غضون زمن لا يتجاوز شهرا بعملية تدمير المدينة بشكل ممنهج لإجبارها على دفع فدية كبيرة يقدمها سكانها الهاربون؛ وطبقا لما يقصه أحد الضباط المرافقين لـ Drake فإنه لما كانت "المنازل رائعة البناء وعالية كلفنا الكثير من الجهد هدمها وتدميرها".

لا تعتبر سانتو دومنجو المدينة الوحيدة ذات طابع العصور الوسطى والقوطية في أمريكا بل إذا ما أراد الزائر أن يوجه عنايته بالجزء القديم فيها - التي أنقذت بشكل شبه كامل من عمليات الغرق الكثيرة - لا يكاد يجد شيئا آخر إلا مدينة من مدن العصور الوسطى.

---

(١) "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية" الجزء الثالث، الفصل العاشر، العمل المشار إليه، الطبعة الأولى، ص٧٧.

ولقد جاء الأسلوب البلاتيري إلى العاصمة عندما بدأت مرحلة الانحطاط ولم يترك هذا الأسلوب بصمته إلا في زخرفة المصليات الكاتدرائية وواجهات بعض المنازل وكذا وجهة الكاتدرائية نفسها، التي تعتبر، طبقا لرأي أنجولوانيجيث[1]، إلى جوار كاتدرائية سان أغسطس في أكولمان Acolman (المكسيك)، النموذج الأفضل المعبر عن الفن البلاتيري في أمريكا. توقف التاريخ الفني لسانتو دومنجو في لحظة حرجة وذلك بإضافة بعض "الأعمال على الطريقة الرومانية" في المصليات الكاتدرائية، ذلك أن الكنائس والمنشآت المدنية التي أقيمت بعد ذلك وأعيد بناؤها خلال القرن الثامن عشر لا يمكن مقارنتها بتلك التي كانت قائمة ولا بتلك التي أقيمت بشكل متزامن في مدن أخرى في الهند الغربية.

وفي الوقت الذي نجد فيه أن أغلب المدن في العالم القديم والعالم الجديد أخذت تتجدد في الوقت الذي ظهرت فيه الأساليب الجديدة، نجد أن أول عاصمة في أمريكا قد توقفت عن ذلك وتقوقعت في صورتها القوطية، ويمكن أن نذهب في القول إلى أنها كانت صورة العصور الوسطى المتأخرة. وهنا فإن أسوار سانتو دومنجو التي تم تصميمها بطموح مبالغ فيه كانت تضم مساحات كبيرة دون بناء، الأمر الذي يذكرنا ما كانت عليه المدن الرومانية مثل أوتون Autun التي انكمشت وأصبحت رقعا معمارية صغيرة وقفزت فوق الأسوار شبه المهدمة لتستعيد صورة الفراغات التي كان الناس يسكنونها قبل ذلك.

وفي سانتو دومنجو كان الأمر عبارة عن فراغات لم تتم سكناها أبدا كما أن الطبيعة الهجومية كانت مركزة أكثر مقارنة بالمنطقة الدافئة سواء تعلق الأمر بمملكة النبات أو مملكة الحيوان. وعلى هذا فأثناء نزاع وقع عام ١٦٢٧م يقر حارس الكاتدرائية "إذا ما شوهد هناك ذات مرة الماعز في تلك المدرسة إضافة إلى بعض الحيوانات الأخرى فالأمر هو أن من المعتاد أنها تسير في الشارع في صورة قطعان بحثا عن طعام... لكنها عندما تدخل الكنيسة الكاتدرائية فإن ذلك لشرب المياه المباركة من الأحواض، كما يتم ذلك في أيام العظات ذلك أنها لا تقلق من يقوم بالعظة حيث يتم إغلاق أبواب الكنيسة الكبرى أثناء ذلك"[2].

---

(١) "تاريخ الفن الأسبانوأمريكي"، برشلونة، ١٩٥٥م، الطبعة الأولى، ص١٠٣.

(٢) فراي ثيبر يانودي أوتريرا O.M.C. "جامعات سانتياجو دي لاباث وسانتو توماس الأكويني والسيمنار الكنسي في مدينة سانتو دومنجو دلي لا إيسلا الأسبانية"، سانتو دومنجو، ١٩٣٢م، ص ١٣٢، مأخوذ عن والتر بالم، العمل المشار إليه، الطبعة الأولى، ص١٣٠.

ومما لاشك فيه أنه بعد انتهاء العظة الدينية يعاد فتح أبواب الكاتدرائية للسماح للماعز أن تروي ظمأها المداري في هذا المكان المقدس. يعتبر الطابع الفرنسيسكاتي بأنه تلقائي في المنطقة الاستوائية في جزر أنتياس الأنتيل، وتوجهه ليس شديد التميز قياسا على ما هو عليه في أوربا، فعلى الإنسان أن يسير قليلا بما في ذلك الأرض الجميلة الظليلة ويتآلف مع الحيوانات وباقي عناصر الطبيعة.

يالها من متعة غامرة ألا يشعر بها الجسد عندما يترك نفسه ليطفو فوق المياه الدافئة في أحد خلجان الكاريبي! ويصل الأمر في هذا إلى النظر إلى أسماك القرش التي تكثر في مياهها، والتي تحميكم منها حقول المرجان بينما تسلمون أنفسكم لحلم وردي وأنتم تطفون فوق المياه الشفافة على الشاطئ، على أنها ليست "الأخوة الذئاب" بل هي عبارة عن حيوانات مائية أليفة عندما نراها وهي تنساب برؤوسها الضخمة المبططة وحركتها الإنسيابية عبر القنوات المفتوحة بين حوائط المرجان التي تشكل جزءا من حديقة حيوان مفتوحة، تقع على بعد عشرات الكيلومترات من العاصمة. وها هي الأحياء المائية تتبختر هناك بألوانها وأشكالها الغريبة التي لا تقل غرابة وإثارة للدهشة عن العصافير التي تقوم بشكل مستأنس بالطيران بين الأغصان اليافعة للشجر وسط خضرة تكاد تكون زرقاء بما فيها من حيوية.

وعندما تصدر الببغاوات بأنواعها Loros y papagayos أصواتها الحادة تطرق طبلة الأذن بعنف مثلما تفعل ذلك ألوانها بشبكية العين. إنها أشكال من الطبيعة تلك العناصر الاستوائية التي تحدث تأثيرها على الحواس بقوة أكبر من تلك الصادرة عن عالم الحيوان وعالم النبات في المنطقة الدافئة رغم أنها تتوفر على نعومة أكثر من كونها حادة. كما أن الضربة التي تتلقاها الحواس تتسم بقوة أكبر عند الأوربيين الذين اكتشفوا للتو العالم الجديد، فبعد نسيان أنماط التلقي التي اعتادوا عليها في العالم القديم أصبحوا أكثر قدرة على إدراك هذه الأعاجيب غير المسبوقة التي تقدمها لهم الطبيعة الأمريكية.

وربما نجد في هذا المقام جونثالو فرناندث دي أوبيدو، الرجل الأكثر حساسية ضمن الأسبان الذين طافوا بكافة مسارح جزر الكاريبي والأرض اليابسة المحيطة بها خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، ثم قضى بعد ذلك آخر عشرين سنة من حياته في

قصر سانتو دومنجو ليقوم في هدوء باجترار وترتيب كل ما رآه ليقدم لنا صورة متسقة عن الأعاجيب في نصف الكرة الجديد وكأنه كاتب حوليات "لجلالة القيصرة".

لم يكن الأمر يتعلق بالعودة إلى العالم القديم رغم أنه كان موجودا دائما في ذاكرة المؤرخ العظيم، فعلى مدار عمره المديد لم يتوقف عن تأليف كتب الفروسية والمآثر والحروب والأنساب والعظماء؛ وفي سن التاسعة والسبعين أنجز في المقر الدومنيكاني "من **بلغ سن الخمسين من المحاربين والمشاهير والأقل شهرة من الملوك والأمراء والدوقات والماركيزات والكونتات والفرسان والأشخاص المعروفين في أسبانيا**"، وكان هذا العمل هو آخر أعماله التي توج بها حياته التي بدأها في خدمة هؤلاء المشاهير.

عندما بلغ الثانية عشرة من العمر دخل كغلام في بيت الدوق الشاب/ دي بيّا إيرموسا، ابن أخت الملك الكاثوليكي، ثم انتقل بعد ذلك بقليل لخدمة ابنه الأمير السيد/ خوان، بصفته وصيف غرفة. وأخذ يتنقل مع البلاط حيث شهد الفتى فرناندث دي أوبيدو الأحداث الحاسمة التي وقعت عام ١٤٩٢م "كنت غلاما، وفتى صغيرا، أثناء حصار غرناطة وشهدت تأسيس مدينة "الإيمان المقدس" في ذلك الجيش، ثم رأيت بعد ذلك دخول الملوك الكاثوليك مدينة غرناطة عندما تم تسليمها لهم، وشهدت طرد اليهود من قشتالة، وكنت في برشلونة عندما جُرح الملك كما قلت، وشهدت هناك مجيء القائد البحري/ كريستوفر كولومبس مصحوبا بالهنود الأول الذين جيء بهم في أول رحلة للاكتشاف، وعلى هذا لا أتكلم عن شيء سمعته في أي من هذه الأمور الأربعة بل عما رأيته"[١].

أخذ يطوف بعد ذلك، وهو لا يزال غضا، على مدار ثلاث سنوات، في المشاهد الأكثر شهرة في أوروبا. وبعد وفاة الأمير السيد/ خوان، أخذ يطوف ببلاط آل Gonzaga, Sforza وبورخيا وملوك نابولي، وأبرز في هذا ما عليه من مهارة، لا تقارن، في تقطيع أشكال مدن الورق باستخدام المقص حيث كان ذلك نوعا من الموضة في عالم الفن الأمر الذي هيأ له الدخول في علاقة مع شخصيات بارزة من شخصيات عصر النهضة الإيطالي رغم أصوله المتواضعة وعصاميته في تربية نفسه. وعندما استقل المركب عام

---

(١) التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية، المجلد الثاني، الفصل السابع، الطبعة الأولى، ص٣٠.

١٥١٤م صوب العالم الجديد، حمل معه المعرفة بالعالم القديم – وسوف يطوف بعد ذلك بفلاندس – وكانت أعلى بكثير مما هو معتاد في مثل هذه الرحلات إلى الهند الغربية بما في ذلك ما يتعلق بعلية القوم، وهذا أمر ينبغي أن نضعه جيدا في الحسبان حتى نفهم طبيعة إسهاماته، وإذا ما كان كتاب "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية" – كما يشير في هذا خوان بيرث دي تطيلة – واحدا من "الكتب الضخمة والحية والاتصالية بشأن الأحداث والانفعالات التي يشعر بها الإنسان الأوربي عندما يتم الإفصاح عن طبيعة المكان الواقع وراء الأطلنطي"[1]، فما ذلك، في المقام الأول، إلا أن الكاتب، انطلاقا من خبرته الحيوية المديدة، التي تتذبذب بين آفاق الأرستقراطية والصعلكة، أوربي صميم.

لكن لا يوجد لدى مأمور سانتو دومنجو حنين أوربي أصيل مثل ذلك الذي ربما شعر به الأسقف جيرالديني ذلك الشاعري المتحمس، والذي شعر بالتضرر كثيرا من الرطوبة والحرارة الخانقة كان برنو للعودة إلى بلده الأصلي إيطاليا. كان أيبيريا محضا يعرف أن مهمته كانت مجازية. فالأحداث الحاسمة التي وقعت عام ١٤٩٢م التي عاشها فرنانذث دي أوبيدو بشكل مكثف جعلت حياته موحدة ومرتبطة كذلك بعمله على الطرف الآخر من الأطلنطي، وهذا ما يشير إليه في الصفحات الأخيرة في عمله العظيم. كان موجودا في "سانتا في" لحظة التعامل القائم بين كولومبوس والملوك الكاثوليك" وعرفته ورأيته مرات عديدة وكذا باقي الرجال الرئيسيين الذين كانوا معه. . . وها أنا قد وصلت إلى هذه المرحلة من العمر حيث بدأت تجاوز سن السبعين لكني سوف أستمر في كتابة قصص هذا الأمر العظيم في سبيل الله طالما أوتيت نعمة البصر والصحة واليدين والاستعداد لكتابة ما سوف يأتي إلى أسماعي من أخبار". وعلى مدار ما يزيد على نصف قرن من الزمان كانت هناك وحدة صميمة بين العالمين الجديد والقديم في فكر وأعمال ذلك المؤرخ البارز للهند الغربية.

يمكن أن تكون الهمة والعزيمة لأهل إقليم اكستريمادورا من الصفات المهمة في باب اكتشاف أراضي جديدة وغزوها، ولكن ليس من أجل الكشف عن أعاجيبها الطبيعية، إذ الأمر في هذا بحاجة لدفعة حيوية مصحوبة بالحساسية والذكاء التحليلي والاستنتاجي مثل

---

(١) حياة فرنانذث دي أوبيدوَ وكتاباته: دراسة أولية "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية B.A.E"، مدريد ١٩٥٩م، الطبعة الأولى، ص VII.

ذلك فعله فرناندث دي أوبيدو، وهو الذي رآه أليخاندرو فون همبولت هو ومعه اليسوعي/خوسيه دي أكوستا على أنه أب علم الجغرافيا الحديث. فإذا لم تكن هناك حساسية عالية تتم العناية بها في أفضل المدارس الأوربية، وإذا لم تكن هناك معارف مسبقة بالثقافة القديمة وثقافة العصور الوسطى، وهي ثقافة يتم استيعابها بشكل جيد كلما كانت نابعة من تربية الذات، فلا يمكن في حقيقة الأمر أن تكون هناك القدرة على إدراك الألوان الفريدة لفراشة استوائية أو المكان الرائع الذي تتنقل فيه أو مشهد البراكين.

عندما يصعد فرناندو دي أوبيدو إلى فوهة بركان ماسايا Masaya في نيكاراجوا فإنه يتمتع بتجربة أوربية مسبقة نابعة من صعوده إلى فوهة Vulcano بمعنى فوهة Vesubio عندما ذهب إلى نابولي كحارس لملابس مليكته. وقد حالت هي دون أن يكون له رد فعل شعبوي وأن يتأمل المشهد الطبيعي بعيون فرحة كقرطاجني: "الميدان شديد الاستدارة" وتحت "الكثير من الببغاوات الطائرة من ذات الأذيال الطويلة" ويفتح عمق البركان وهو في حالة غليان هادئة وبطيئة، كما يتبدى المشهد وكأن الأمر عبارة عن مباراة أجزاء الحصان "ciento a caballo" وهذا النوع من الربط بين الأشياء يدفع فرناندث دي أوبيدو أنه من كثرة رؤية السلاحف وغيرها من الحيوانات "ذات السمات نفسها" "أمكن تعلم تلك الأنماط التي بها يتم حماية الخيل في المعارك".

يتسم الوصف الدقيق الذي يقدمه فرناندث دي أوبيدو بأنه يعكس معارف عديدة ومهارات فنية، فكاتب الحوليات هذا قادر على رسم النباتات غير المعروفة بعد وصفها، ولهذا يمكن أن يكون لديه وعي أكثر عمقا من مجرد التعبير عن استغرابه للأشكال النباتية التي تتلو الكلمة وكذا ريشة الأوربي، مثلما هو الحال في تلك الشجرة "المتفردة عن باقي الشجر، ويبدو لي أن ليس لها اسم آخر له صلة ببَرِّيتها وأطرافها التي لم يسمع عنها ولم تُرَ في أي مكان آخر، بل هي عملاق فريد من نوعه بين الأشجار"[1]، وبإحساس موسيقي يسجل صوت الطائر perico-Jilguero، ومن خلال كف اعتادت على المداعبة يعرض أمامنا حالة الـ "bivana" الذي يتخذ مسار شعره مسارا معاكسا لكافة الحيوانات الأخرى التي شهدتها لأنه عندما أمسح على شعره ابتداء من الرأس وحتى الذيل يتراجع

---

(١) "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية"، الجزء العاشر، الفصل الأول، الطبعة المشار إليها، الثانية ص١٨.

القهقرى أو معاكس للوضع العادي". تدخل أيضاً الذائقة في السياق، فعلى سبيل المثال عندما يتعلق الأمر بالسمك نجد أن الكاتب لم يقتصر فقط على قراءة كل ما كتبه بلينيو Plinio وأنه كان شاهد عيان على كافة الأشكال الاستوائية بل وصل به الأمر إلى "تناول الكثير من هذه الأصناف"، أضف إلى ذلك أنه يقدم نصائح بدقة ومعرفة من قام بمغامرة كونه مساعدا paje في تلك المطاعم الفاخرة للأمراء في عصر النهضة، حول أفضل طرائق الطهي.

كم كان يعجب تيزيانو Tiziano أن يرسم ذلك "القط القرد" في البيرو، ذي الذيل الطويل "حيث كان نصف جسمه بما في ذلك الرأس والأطراف الأمامية مغطى بريش ذي لون رصاصي، إضافة إلى خليط من الألوان الأخرى. وابتداء من نصف جسم هذا "القط"، في الخلف، نجده بالطرفين الخلفيين مغطى بجلد أملس وذي لون أشقر وكأنه لون أُسُودي فاتح. كان هذا القط أليفا للغاية ويزيد حجمه عن شبر قليلا"[1]. كان صوته كأنه بلبل أو عُلُعُلة Calandria بشكل رائع" كما كان يتمتع بشهرة انتسابه لأخت غير شقيقة للأمير أتاباليبا Atabaliba، أي أتاوالبا Atahualpa. ونظرا لغرابته تم إرساله للإمبراطورة إيزابيل، لكنه مات في الطريق دون أن تراه المرسل إليها أو أن يراه حاكم سانتو دومنجو.

لكن كان خط المؤرخ أفضل في حالة أسد جلبه محاسب من البيرو، مقارنة بحالة "القط القرد" ووضعه بضعة أيام في قلعة أصحاب الجلالة التي كنت المسئول عنها، ثم أعطيته بعد ذلك لنيافة السيد الأستاذ/ ألونسو دي فونت مايور، أسقف هذه المدينة وكذا مدينة دي لابيجا Vega، ورئيس السلطة الملكية حيث هو مقيم هنا. هذا الأسد، يوجد اليوم في منزله" ليس أقل من هذا المُقام يستحق ملك الحيوانات، وهو حيوان أكثر سلمية عما عليه مثيله في العالم القديم في حقيقة الأمر، رغم أن هناك احتمالا كبيرا بأن هؤلاء الجيران من علية القوم في سانتو دومنجو، الذين كانوا يرون، أنه بمجرد وجوده "أخذ جو الجزيرة يتسم بالهدوء والاستئناس" وأنهم اعتبروا أن الطابع الهادئ للأسد في منطقة الأنديز علامة أخرى على سيادته الطبيعية على القارة الجديدة.

---

(١) المصدر السابق، الجزء السادس، الفصل LII الطبعة المشار إليها، الأولى، ص٢٢٣.

هناك القليل من الاعتساف والكثير من الأصالة عندما يتحدث فرناندث دي أوبيدو عن الطيور، وخاصة الطيور البحرية، فخلال عمليات الانتقال الكثيرة عبر المحيط استغل ذلك المؤرخ وقته المتوفر والكثير في تأمل الطيور التي كانت تطير حول الأشرعة وكذا الأسماك التي كانت تتنقل إلى جوار جسم المركب. لم يقم فرناندث دي أوبيدو بحساب الأيام أو عدد الفراسخ التي قطعها بحرا، ولكن كان يمكنه تحديد المسافة التي تفصله عن العالم الجديد وذلك من خلال حاملي الرسائل الذين كان يرسلهم عبر الهواء. في بداية الأمر كانت هناك الزلاجات Patines التي كانت تسير فوق الأمواج أو خلفها" في مطاردة الأسماك الطائرة. وفي منتصف الطريق عبر المحيط كانت تظهر rabo de Junco؛ وعلى بعد مائتي فرسخ من الجزر كانت تأتي طيور البط المائي rabibrocados لترحب بنا، وبعد ذلك يأتي الدور على "العصافير البلهاء" التي كثيرا ما يتم اصطيادها باليد"، وفي نهاية المطاف تظهر الطيور المائية alcatraces والنوارس.

كان من الطبيعي أن يكون الأوربيون الذين يذهبون للتجوال في العالم يعنون عناية خاصة بكل ما يتعلق بعالم الحيوانات والطيور وأن يروا بإعجاب أسراب الطيور المهاجرة التي كانت تعبر منطقة الكاريبي بكثرة واستمرار لدرجة أن فرناندث دي أوبيدو فكر في "أن هذه الطيور التي تعود هي نفسها... وأنها تطوف العالم وتلف حوله"[1]. لكن نجح الأوربيون أيضاً في أن يكتشفوا في الطيور في منطقة الأنديز حنانها وحميميتها مثلما هو الحال في طيور السنونو التي هي أكبر مما هي عليها مثيلاتها في أسبانيا كما أن الذيل مشقوق أكثر والصوت أكثر قوة وأنها لا يتم "تربيتها على أنها طيور داجنة هنا، وربما يرجع ذلك إلى أنه قد شيدت منذ زمن قصير منازل من الحجر".

ومما لاشك فيه أنها كانت تنتظر مجيء أناس من البنائين من العالم القديم وذلك لاستكمال وجودها وسكن المكان إلى جوار الإنسان. ومما لاشك فيه أنها كانت تتنقل بين شرّافات الحصن عندما مات قائده العجوز وهو يقبض على مفاتيح الحصن طبقا لما قصّه علينا أحد شهود العيان. كان موتا رمزيا: فتلك المفاتيح التي كانت تستخدم في فتح أبواب أول قصر في الهند الغربية لم يكن دورها هذا فقط بل امتد إلى فتح مغاليق الأعاجيب التي لا تحصى وسرعان ما أدركها الإنسان الأوربي.

---

(١) المصدر السابق، الجزء الرابع عشر، الفصل التاسع، الطبعة المشار إليها، الثانية، ص٧٤.

XVI- رثاء مولّدة mulata في هايتي

رغم أن الرحّالة لا يتوفر على صور "طبقة مخروطية estrato esféricas" للإقليم، يمكن من خلالها أن يكون على إطلاع على البانوراما العامة له، فإنه من خلال التخيل بعض الشيء يمكن له إعادة بناء هذه الصورة وذلك من خلال دمج البانوراما الجزئي الذي يراه من الطائرة. وهذا لا يكلف الكثير من الجهد، ذلك أن الصورة الطبوغرافية التي يكتشفها، نظرا لصفاء الجو في الكاريبي وشطآنه وجباله المبتورة، تتجلى بوضوح أمام النواظر في خطوط واضحة من خطوط كأنها كارتوجرافية، ويمكن مواءمتها مع الصور المجاورة لتشكيل صورة إجمالية حية للحوض البحري الذي يوجد في الجنوب، محددا بكتلة القارة، ومن الغرب من خلال البرزخ وشبه الجزر في أمريكا الوسطى، ومن خلال جزر الأنتيل في الشمال، ومن الشرق من خلال ذلك العقد من الجزر الصغرى. أخذت الطائرة تُسْلكها في خيط طريقها، ولا تكاد تترك جزيرة منعزلة، بما في ذلك جزر الأنتيل الكبرى، كما أَن الشاطئ الجزيرة أخذ يتراءى وسرعان ما كن تحت الطائرة أو أنه انزلق في الأفق فوق بحر فيه زرقة متلألئة لا تضاهيها زرقة أخرى.

لكن الطائرة لا تقوم فقط بالمرور – في طريقها – على هذه الأجزاء الجغرافية الفريدة بل تُسْلك أنماطا فريدة من الحياة الإنسانية. هناك قصة قديمة ترجع إلى عدة قرون، ذات إيقاع خَفيف الحركة ومعقد أخذت تتكثف من خلال هذا المشهد الخاص بجغرافيا الجزر وتصبح مسرحا لثقافات شديدة التنوع، هبت عليها فجأة، في شكل الاستغلال الاقتصادي والحياة الحضرية والأزياء والمعتقدات الدينية... الخ، وتضمخ كل هذا بهذه السلسلة اللونية والحارة التي هي السكان السود. فمن خلال الظروف الخاصة بالطقس أخذ

الأوربيون يعزفون عن الاتصال المباشر بأراضي الكاريبي ووضعوا وسيطا في هذا يتمثل في السكان القادمين من أفريقيا. إنها منطقة تقاطع وتلاق جغرافي وتاريخي! حيث أسهمت أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية فيها، وكذلك أفريقيا بتنوعات سلالاتها، وأوربا من خلال الكثير من البلدان والثقافات القومية.

في كوراثاو Curaçao هناك الهولنديون يقيمون في "البلاد الوطيئة" ولكن بشكل مصغر، من خلال المنازل المشيدة من الطوب المحروق والواجهات المتعرجة والقنوات على الأبواب ومعها المراكب الشراعية والطواحين وكأننا أمام إقليم هولندي عشق الهواء والحركة وطار إلى هناك بفضل عاصفة قوية وحطّ في قلب الكاريبي. ولا يمكن للضباب أو الجليد، أن يبررا، في حقيقة الأمر، كل هذه الاحتياطات البرجوازية؛ فالمدن الأوربية في الشمال هي أقل قدرة على الانتقال مقارنة بالمدن الواقعة في الجنوب، ولهذا نجد الاستغراب من وجود مدن اسكندينافية أقامها المستعمرون الدانماركيون في جزر بيرخنس Virgenes التي يتخيلها المرء ويعيد تصورها ثم يضعها إلى الناحية اليمنى في الأفق البعيد وهو يشعر بالألم لعدم القدرة على رؤيتها.

وعلى العكس من ذلك نجد في الطريق هايتي تلك المستعمرة التابعة للغال، فرغم مرور قرن ونصف على وجودها منذ استقلالها فمن السهل أن نكتشف فيها أنماطا حضرية تتمثل في المنازل الريفية ذات الطابع الذي يشبه البيت الكبير chateau، وكذلك المقاعد في الكنائس أو القبعات التي تضعها النساء السوداوات.

يتسم الوجود الأسباني في بحر الكاريبي بأنه أوسع وأكثر أصالة. نعم، أسبانيا ليست موجودة هناك سياسيا من خلال مستعمراتها، لكنها هناك بشكل يضرب بجذوره من خلال شعوب مستقلة، ومن خلال وعيها التاريخي رغم أنها ضالعة في مدن وعادات وعبارات وكافة أنماط الحياة الشديدة الارتباط بما هو أيبيري، أي بأيبيريا النقية الطاهرة دون أية تشوهات تتعلق بما هو غريب في المحافظات الواقعة فيما وراء البحار.

غير أن تواجد انجلترا هو عكس ذلك، إذ هو غير مباشر، استعماري بدرجة كبيرة. والأكثر من إنجلترا هناك الإمبراطورية التي تعتبر البطل الاستعماري بتنوع السكان بشدة بما في ذلك القادمين من الشرق، الأمر الذي يضفي الطابع الهندي والإسلامي على جزيرة

ترينداد Trinidad. ومن خلالها أيضاً ستطل على هذه الثلة المتنوعة من السلالات والقارات التي هي الكاريبي.

سمح الترابط الجغرافي للإقليم للعديد من الشعوب الأوربية أن تجد لها مكانا مريحا في الأرض الجديدة ونقلوا إلى هناك، في حدود ما تسمح به الظروف المناخية والعقلية القومية، أنماط الحياة اليومية التي كانوا عليها، وفي الوقت ذاته كان كل واحد من الشعوب الأوربية يضع موضع التنفيذ الفكرة التي توفر عليها عن أمريكا وعن إمكانيات استغلالها سواء كان ذلك في باب الزراعة أو التجارة المشروعة بدرجة أو بأخرى واستغلال المناجم وإقامة المهاجرين.

وفي هذا المقام فإن منطقة الكاريبي عبارة عن حقل تجارب رائع بالنسبة لمؤرخ أو جغرافي يتولى من خلال حساسيته لما يرى وفضوله الذهني تحليل ألوان الطيف التي عليها العقليات القومية الأوربية المختلفة – وما تركته عندما تفككت من خلال المنظور الاستوائي.

اقتضى تشكيل تلك الأطياف مرحلة تاريخية طويلة، فالمشهد الخاص بجزر الأنتيل الذي رآه كولومبوس هو عبارة عن مشهد أضفيت عليه المثالية على طريقة "الأسلوب الغربي الجديد" الخاص بـ ديكاميرون Decamerone؛ وبالنسبة لحقل "الأسبانية" فقد تجلى في عيون ابن جنوة العظيم على أنه "بستان به عناصر تتجلى متكررة – من شجر ومياه ونسمة وزقزقة عصافير – مشكلة بذلك صورة مثالية للقوطية خلال عصر النهضة والتي استمرت تملأ صفحات كثيرة من مؤلفات الأب/ لاس كاساس. ومن هنا ليس بغريب أن يقوم والتر بالم[1] بعقد مقارنة بين الوصف العاطفي للمشاهد التي يقوم بتقديمها لنا هذا الدومنيكي في "**تاريخ الهند الغربية**" ولكن بالطزاجة التي عليها بينوزو جوزولي Benozzo Gozzoli.

يضفي الجشع الذي لا يرحم، من قبل الباحث عن المناجم، والذي سرعان ما ينتشر بين السكان البيض في الجزيرة، صورة تقليدية لا بسبب الاكتشاف في حقيقة الأمر، رغم

---

(١) العمل المشار إليه – الطبعة الأولى، ص١٤.

الجهد المأساوي لعمليات استغلال المناجم وإنما بسبب الوميض الأسطوري لماء الذهب الذي يضفي المزيد من الطابع القوطي - النهضوي على اللوحة، ورغم أن فرناندو دي أوبيدو، هو الرجل الذي ذهب إلى الهند الغربية في منصب رسمي هو ناظر أعمال الصهر، فهو واحد من أكثر الناس الذين يلحّون في ذلك الكتاب على هذا الوميض الذي يخلفه في الجزيرة "**الأسبانية**" وهذا "لن ينتهي ولن ينضب حتى نهاية العالم"[1]. غير أنه رغم الاختلاف في كثير من الأمور عن الأب/ لاس كاساس، جاءت أحكامه ذات طابع شخصي حول "الأسبانية" وبالتالي لم تكن شديدة الاختلاف مع الأب الدمنيكي عندما يكتب، على عادته المتشددة، قائلا: " هذه الجزيرة حارة للغاية وشديدة الملحية وشديدة اللطف"[2].

يبدي كلا المؤرخان إعجابهما بالطريقة التي تتوالد بها القطعان التي استوردها الأسبان، إذ بعد عدة سنوات من إدخال الأنواع الجديدة من هذه الحيوانات كان هناك من سكان "**الأسبانية**" من يملكون، كل واحد منهم، ما بين خمسين ألف وستين ألف رأس من البقر، "وكانت الأبقار ضخمة لدرجة أنها كانت مثل الجاموس". كانت الجزيرة مليئة بالخيل إناثا وذكورا وكذا الخنازير والقطط "الضالة" ثم تتحول إلى حيوانات مفترسة بفضل سخاء الطبيعة التي تحتضنهم. وإذا ما كانت قطعان الماشية ازدهرت كثيرا فلماذا لم يزد إنتاج السنابل وعناقيد العنب وباقي النباتات الأوربية؟

تجلت المنطقة الاستوائية في الأنتيل أمام الأوربي الذي هبط إليها حديثا على أنها منطقة دافئة بشكل كبير، ولهذا نجد صفحات مؤلفات كل من الأب/ لاس كاساس وفرناندث دي أوبيدو مقارنة "**الأسبانية**" بالجزر الشهيرة في العالم القديم وإنجلترا وصقلية وكريت وذلك حتى تُنعت الجزيرة الأولى (**الأسبانية**) بأنها تتفوق على الأخريات. وبالنسبة لجزيرة كريت لا يعترف لاس كاساس بأن لها ميزة عن الأسبانية اللهم إلا ما يتعلق بإنتاج النبيذ، غير أنه عندما يصبح المزارعون في الجزيرة أكثر مهارة سوف تُغِلّ الكثير لدرجة "أنه

---

(١) فرناندث دي أوبيدو "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية"، المجلد XLIX، الفصل الثالث، الطبعة المشار إليها، الخامسة، ص٢٤٠.

(٢) "قصة إطرائية" في "الأعمال المختارة لفراي بارتولوميه دي لاس كاساس" B.A.E. الطبعة الثالثة، مدريد ١٩٥٨م، ص٦١.

سوف تُنسى كل من كريت وكانديا Candia وليس هذا فقط بل ستتفوق على جواد القنال Guadalcanal وسان مارتين وتورو وريبادافيا وعلى تلك الأخرى الشهيرة في قشتالة".

ولم يكن فرناندث دي أوبيدو أقل تفاؤلا لكنه كان أكثر دقة فيما يتعلق بالنصائح الفنية بناء على ما لديه من خبرة إيطالية: فالقوة التي عليها أشجار العنب البرية في "الجزيرة الأسبانية" والتي لا يتم زرعها مثلما هو الحال في قشتالة، وإنما تمتد لتعانق الشجر، يمكن السيطرة عليها واستخدامها بنفس الطريقة المستخدمة في مملكة نابولي، حيث الأنبذة اليونانية المستخرجة من العنب... ويمكن ربطها بالصفصاف وبأشجار أخرى"[1].

كان من الطبيعي ألا يدرك الأسبان جوانب القصور التي عليها الطبيعة الخصبة في الأنتيل فيما يتعلق بالمزروعات، وقد ذهبوا في هذا المقام إلى أبعد من هذا عندما شعروا بالفخار لما هم عليه من أصحاب الأمر ووصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنهم تعودوا على الطقس بإخضاعه لإرادتهم. واستنادا إلى العديد من الشواهد نجد فرناندث دي أوبيدو يصل إلى اقتناع مفاده أن المناخ الحار في جزر الكاريبي كان يقل بشكل تدريجي منذ أن قام المكتشفون باستزراع نباتاتهم فيها! "وعلى هذا بدأت عملية إقامة الإقليم بناء على ما قام به الأسبان مثلما هو الحال بالنسبة للهنود والناس الآخرين والحيوانات وكافة ما على هذه الأرض"[2].

لكن هذا التفاؤل ذهب أدراج الرياح، فالمزروعات الأوربية لم تكن تتأقلم جيدا على المكان مقارنة بالحيوانات، كان العمل شاقا على المزراعين الذين وصلوا من شبه الجزيرة، كما أن هناك المغريات الأخرى هي خوض المغامرات والإثراء السريع من وراء استغلال المناجم في مرتفعات القارة، ذات الحرارة الشبيهة بما هو موجود في الوطن الأم ووفرة الأيدي العاملة والمدربة. وهنا فإن هذه الجزر أخذ يتناقص سكانها، وكانت البداية بالنسبة للسكان الأصليين، ثم جاء من بعدهم البيض وأصبحت مهيأة لاستقبال العمال الأفارقة.

---

(١) "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية" المجلد الثاني، الفصل ٢٤، العمل المشار إليه، الطبعة الأولى ص٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، المجلد السادس، الفصل XLVI، العمل المشار إليه ص٢٠٦.

لم تكن قليلة تلك المهمة الملقاة على عاتق علية القوم في سانتو دومنجو نظرا لهذه الحركة السكانية المأساوية ووصل الأمر بالأب/ لاس كاس أن كان ضالعا في سياسة الرقيق لبعض الوقت. لكن سوف تكون الصورة الحضرية للعاصمة وسيلة لتبرئة ذممهم، وهي المكان الذي شيدوه وظلوا فيه مقيمون إقامة دائمة. لم تبن قصور كثيرة وكنائس ومستشفيات، ولم يكن هناك في الجوار من مُلاَّك ووصيفات وأناس من ذوي الحسب والنسب غير هؤلاء الذين رافقوا نواب الملك وهم السيد/ دييجو كولومبوس والسيدة/ ماريا دي طليطلة ابنة شقيق الملك الكاثوليكي، حيث كانوا جميعا في مدينة جرى إعدادها لتكون عاصمة مجتمع من العبيد. وعلى أية حال فإن الدول الأوربية التي وصلت إلى كمالها السلالي في مثل هذا الصنف من المجتمعات لم تبدأ على هذا النحو.

لم تكن عاصمة "أسبانيا Espania" مجرد عذر لاحق بل كانت سببا محددا للغاية يشير إلى أن الجزء الشرقي للجزيرة الذي ينتمي إلى جمهورية الدومنيكان يتسم اليوم بشكل شديد الاختلاف سواء في التركيبة السكانية أو في نمط الحياة الأوربية عن ذلك الجزء الغربي منها الذي تشغله الآن جمهورية هايتي. وابتداء من عام ١٦٠٣م وعلى مدار قرن ونصف من الزمان جرى إصدار وثيقة مرسوم ملكية إخلاء السكان من المدن الأخرى والقرى في الجزيرة بسبب القرصنة والعصابات، وهم السكان الذين بقوا فانتقلوا للعيش بالقرب من العاصمة واستقروا في منازل حجرية تعرضت للأذى على يد الإنسان وعوادي الزمن، فظلت متواضعة لكنها كانت حياة نبيلة بالقرب من السلطة والكاتدرائية والجامعة.

ورغم الفقر والعوز الذي كانوا يعانون منه فإن هذا المجتمع لم يكن قادرا على العيش على ما تغله قطعان الماشية ومصانع السكر المنتشرة في الحقول المهجورة بل كان يعيش على المعونة الاقتصادية التي كانت تقدمها له "أسبانيا الجديدة" بما لديها من فائض في إنتاج المناجم، وكان كل هذا يصل كل عام على متن سفينة حيث كان وصولها إلى ميناء سانتو دومنجو يشكل الحدث الأهم والأكثر بهجة في العام. لكن كان يصل أيضاً إلى هذه العاصمة القديمة، بناء على حساب هذه الأموال، ومن حين لآخر، القضاة ورجال الدين والمدرسين ورجال الجماعات التبشيرية. . . الخ وقد جاءوا من العاصمة ومن بلدان أمريكية أخرى حيث كانوا يعيشون في مجتمع بطئ الإيقاع بدرجة شبيهة بما عليه الجزيرة، وإن كان ذلك بدرجة أكثر خفوتا مقارنة بمدن أخرى في الهند الغربية.

وفي الوقت ذاته نجد الطرف الغربي للجزيرة، يكاد يكون صحراء جرداء، بدأ يشهد منذ منتصف القرن السابع عشر نمطا آخر من المجتمع الاستعماري الذي أخذ يزدهر بإيقاع حيوي، ووصل من خلال الالتزام الديكارتي إلى قمة كماله في باب النظام الزراعي على يد العمالة المستعبدة. كان هناك عدد يتراوح بين نصف مليون وسبعمائة ألف أسود، وكان هذا العدد يزداد سنويا بمعدل خمسة وعشرين ألف فرد يتم اختيارهم، طبقا لمواصفات جسدية، على الشواطئ الأفريقية، وتحول هذا العدد بمساعدة شبكة واسعة من قنوات الري إلى أداة لتمويل الوادي الرئيسي لسانتو دومنجو Saint Domingue إلى جنة فيحاء. هناك ثلاثة أرباع البحرية الفرنسية، وهو ٧٥٠ مركبا أضيف إليها عشية الثورة الفرنسية سبعمائة مركب أجنبي آخر، وهذه كلها كانت مخصصة للتجارة بين المستعمرة والموانئ الأوربية، وأصبحت بذلك العنصر الأساسي الكبير في هذا الازدهار الضخم الذي عاشته بورديوه Burdees ونانت Nantes.

كان النظام الاستعماري الفرنسي يعمل بكفاءة كاملة من خلال الزراعات المكثفة والمقننة، لدرجة أنه لم يكن من الضروري أن تضاف أراض جديدة إلى الأراضي المزروعة، بانتزاعها من الأملاك التابعة لقوة أخرى في الجزيرة من القوى الصديقة، إضافة إلى فرنسا، خلال القرن الثامن عشر، حيث كانت ذات علاقات أسرية. وأسهمت هذه القوى أيضاً بما تنتج من لحوم وجلود في ازدهار المستعمرة الفرنسية حيث وَضُح تأثير ذلك في إعادة الروح للحياة مقارنة بما كان على زمن كارلوس الثالث، والتي كان إيقاعها فاعلا بشكل مواز في أقاليم أخرى من الهند الغربية، في سانتو دومنجو وفي أراضي أخرى تابعة لها إداريا.

كان هناك مهاجرون قادمون من أسبانيا وخاصة من جزر الكناري ذات المناخ الذي يجعل من هؤلاء الذين ولدوا فيها يتأقلمون بشكل جيد على المناخ السائد في جزر الأنتيل، وأسهم ذلك في إضافة حي جديد – مدينة سان كارلوس دي تنريفي – في العاصمة وكذا أخذ هؤلاء المهاجرون ينتشرون في أودية ومرتفعات الجزيرة، وأسهموا بذلك في إعادة الحياة إلى المدن الاستعمارية المهجورة أو أسسوا قرى أخرى في مناطق الحدود مع المستعمرة الفرنسية. وعلى هذا تحقق الحلم الذي كان يتمثل في وجود سكان من البيض في الجزيرة "الأسبانية" والذي كان يتحدث عنه كل من الأب/ لاس كاساس وفرناندث دي أوبيدو

ولكن بشكل جزئي، وكانت له نتائج حاسمة، من خلال عدد لا نهائى من الكوارث التي حطت على الجزيرة بكاملها، على مستقبل جمهورية الدومنيكان.

وفي نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد سكان سانتو دومنجو خمسة وعشرين ألف نسمة، وبلغ تعداد المستعمرة الأسبانية بكاملها مائة ألف، ثلثهم من العبيد، وثلث آخر، تقريبا، من البيض. كان الرقم نفسه - ثلاثون ألفا - الذي كان يوجد في Saint Domingue مقارنة بسكان من العبيد يصل عددهم إلى عشرين ضعفا.

وفي بلد تحكمه معايير شديدة الوطنية في باب الأداء الاقتصادي، كما أنه مقسم من خلال تمييز اجتماعي، كان للأفكار الثورية الفرنسية القادمة في نهاية القرن الثامن عشر تأثير ضخم عليه حيث وقعت توترات شديدة؛ هناك البيض والمولدون والعتقاء والعبيد يتصارعون فيما بينهم مشكلين فيما بينهم تجمعات مختلفة وشاركت معهم جماعات أوربية طبقا لمصلحة كل منهم الخاصة في هذا النزاع المدني.

كان تاريخ هايتي خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر تاريخ أنظمة شديدة الغرابة فهناك الملكيون والإمبراطوريون والجمهوريون وأنصار الانفصال والغزوات والتوحيد والانقسامات في الجزيرة وتدخلات أجنبية... الخ. كتبت صحيفة ليبرالي من باريس، عام ١٨٢٦م تقول "إن ثورة Saint Domingue أدت إلى حدوث وقائع شديدة الشبه بما حدث بفرنسا ونتج عنها الشيء نفسه الناتج عن الثورة الفرنسية. وكانت هذه الدروس المستفادة أفضل، أو أنها كانت تعبيرا عن حاجة إلى الحديث بصوت عال. أمريكا هي العالم الجديد حقا ولم تعبر الثورة المضادة مياه المحيط". وكانت هناك أسباب لذلك من بينها القضاء على كافة البيض في هذه المستعمرة القديمة.

وقعت في هايتي أول ثورة موجهة لا ضد نظام سياسي بل ضد الإنسان الأوربي، رغم أنها استخدمت أفكاره تقريبا، مثلما يحدث كثيرا؛ وكان الأمر في هذه الحالة عبارة عن سكان لا يدافعون عن أرضهم بل كان وطنا فرض البيض وجوده. وربما لهذا من المثير أن ندرس في هايتي ذلك الذي بقى من موروث ثقافي جرت محاولة استئصاله بشكل حاسم وهو موروث لم يكد يحظى بدعم المراكز الحضرية ذات الأهمية إذ كانت تميل إلى الحفاظ على أنماط الحياة الأوربية.

يرجع بقاء هذا الموروث ليس فقط لحيوية البذور التي قام مُلاّك المكان والموظفون والجماعات التبشيرية بوضعها وإنما للسمعة الطيبة التي كانت لأنماط الثقافة والحياة الفرنسية في أمريكا منذ فترة قصيرة. من المؤكد أيضاً أن "الصفوة" في هايتي بما يجري في عروقها من دم من أصول بيضاء رأت نفسها في مناسبات عديدة أنها أرقى ليس فقط من السكان السود في بلادها بل أرقى أيضاً من البيض والمولدين في الكاريبي من الذين لم يكونوا يتحدثون الفرنسية، أي هؤلاء الذين لا ينتسبون إلى عالم ديكارت وراسين ولم تكن لهم مثل أعيان مدينة بورتو أو برنس Port-au-Prince، ميول طبيعية للموضة الباريسية.

لم يكن الأمر مجرد مفاهيم اجتماعية للطبقات العليا بدءا برؤساء الجمهوريات الذين لم يتمكنوا من سكنى قصر نيابة الملك، فأخذوا يشيدون لأنفسهم قصرا على أسلوب فيدجي Vichy. هناك أيضاً الأسر التي تنتسب إلى البرجوازية الصغيرة في هايتي حيث قامت ببناء فنادق خشبية صغيرة خارج المدينة، كتقليد بذلك لتلك المباني التي جرى تشييدها في نهاية القرن الماضي في أي عاصمة من عواصم المحافظات في فرنسا. وبالنسبة لرجال الدين الذين حاولوا التقليل من الآثار السلبية التي كانت عليها الكاتدرائية القديمة المشيدة من الخشب نجدهم يؤسسون كاتدرائية أخرى أكبر من الحجارة ولها شكل وسط بين أسلوب كاتدرائية Chartres وأسلوب كاتدرائية "القلب المقدس". وإذا ما نظرنا إلى الميل الشعبي وجدناه يعيش في منازل أسقفها من الصفيح المجلوب من الأسواق وذو طابع فرنسي، حيث يتكاثر عدد كبير من القبعات ذات الأشرطة البنفسجية أو الوردية اللون وهي قبعات تسير على نهج المنطقة الاستوائية من تلك التي تتماهى مع آخر صيحات الموضة الفرنسية، في المجلات، في بداية القرن.

الأمر الملفت للانتباه هو وجود تسريبات لثقافة فيها اكتفاء ذاتي ورفيعة مثل الثقافة الفرنسية في وسط شديد البعد عن فرنسا سواء جغرافيا أو سلاليا، وهي تسريبات خفية ومختلفة بوضوح عن النمطية الأكثر اكتمالا التي تتواجد فيها الثقافة الأسبانية في جزر الأنتيل. ولهذا فإن الملاحظة تتسم بأنها أكثر صعوبة وجاذبية، كما أن مستقبل الظاهرة محل الملاحظة غير مؤكد، ذلك أن الخط العام لتمرد الجماهير في هايتي يجد في هذا حقلا خصبا للعمل.

قدمت لنا الصدفة فرصة ملاحظة خطوط الظاهرة عن قرب، وكانت عبارة عن الافتتاح الرسمي لـ Saison في واحد من الفنادق الرئيسية في "بورت برنس"، وإليه

حضرت الصفوة المدنية من العاصمة الهايتية وهي على وعي بتوجهها الفرنسي من خلال التجاوب مع دورها الاجتماعي الذي تفرضه الطبقة. يشعر المرء بالمفاجأة لوجود نساء، لسن بقليلات العدد، بتصرفاتهن العذبة والرشيقة في الحركة حيث يلاحظ أن الظُّرف الخاص بالسلالة قد ارتقى من خلال التربية في مدرسة تقع على شاطئ نهر السين أو لالوار Loire. وبالنسبة لطريقتهن في النطق وإيقاع أصواتهن فهو باريسي بدرجة مبالغ فيها والبشرة بيضاء وهذه مفاجأة لكن هناك مسحة من لون، وربما يلاحظ هذا عندما يكنّ قريبات من ضوء قوي، وهذا يبدو كما لو كان سمة شخصية أكثر منه ملمحا من ملامح سلالة، كانت العيون السوداء الواسعة تسهم في المنافسة مع البياض الظاهري للبشرة التي يلقى عليها حمّام السباحة بضوئه إضافة إلى الضوء الصادر عن الموائد المعدّة للاحتفالية الأمر الذي يضفي على الاحتفالية أصداء باهتة وغامضة.

تتجلى في المشهد الاحتفالي المتميز مائدة كبيرة في مكان مرتفع بالقرب من المسرح المخصص "للشو"، وخلفها هناك وجوه تكسوها السعادة في حالة حوار متبادل دون أدنى لَبْس سلالي من تلك الفئة التي تنسب إلى كبار المسئولين في البلاد ووسطهم رئيس الجمهورية. وعلى حلبة الرقص هناك عناصر ذكورية تتنقل بحرية ولا تترك مسحة من الشك فيما يتعلق بنقاء العرق الذي تنسب إليهن وهذا يدخل في تناقض مع الرؤوس الصغيرة والغامضة التي عليها المولدون، ها هو التجديد الاجتماعي يُحْدث فعله على شاكلة ما يحدث عادة من خلال الذكور البواسل وبمساعدة من الدولة؛ أما النساء فكما هي العادة أيضاً هن الأكثر حساسية والأكثر محافظة.

وإلى جوار المائدة التي نجلس عليها كان هناك شابان من المولدين من ذوي البشرة الشاحبة يتبادلان أطراف الحديث؛ كانا واقفين حتى يريا بشكل أفضل مغنية من بنما تسعد الجمهور والليلة بجسدها الممتلئ ورقصاتها الفجة - لم يكن من الممكن فهم ما يقوله هذان الشابان لكن يمكن استراق همهمتهما من خلال أصواتهما وكأنهما يلقيان أبياتا من شعر راسين. وفي الخلف هناك حمّام السباحة بمياهه الصافية التي يُرى خلالها الزليج الأبيض للجدران وقاع الحمّام الذي يلمع من خلال الأضواء الجانبية ووسط البياض الهش للمياه والظلمة الدامسة لليل، وهنا يمكن القول بأن هناك صراع صامت وغير متكافئ في صورة تنازع على مصير هذه المخلوقات الممتعة.

XVII- قرطاجنة والدفاع عن الهند الغربية

تبدو قرطاجنة الهند الغربية صورة استوائية طبق الأصل من مدينة قادش بمنازلها ذات الطابع المرح وأسوارها التي تصر بها الأمواج. وحقيقة الأمر أن بشرة الكثير من المارة تميل للسمرة، وبهم بعض الإعوجاج يتنزهون في الشوارع المستقيمة والمدهونة باللون الأبيض. إلا أن اللون هو عنصر أقل أهمية خاصة عندما أدت أنماط الحياة إلى كسر الحواجز بين السلالات، وبقي ظل القديس بدرو كلابير انطلاقا من كنيسته اليسوعية على حاله يوميا يفك عتق السود، بشكل إعجازي، الذين يتسلون بالرقص ويتناولون جيلاتي من الماركة الكلاسيكية" ورق من أمبروسيا Papeleta de ويركبون عربات حنطور أيام الأجازات أو أن يعنوا عناية فائقة بمسح أحذيتهم على شاكله رفاقهم في قادش البعيدة.

لا يفهم المرء كيف أن القائد رودريجو دي باستيدا الذي اكتشف خليج قرطاجنة أمكن له أن يطلق عليه هذا الاسم وليس اسم قادش حيث خرج من مينائها عام ١٥٠٢م على رأس حملة مكونة من مركبين شراعيين "على حسابه وعلى حساب خوان دي ليدسما وأصدقاء آخرين، " تتموّج الهضاب حول الخليج ، ذات هواء عليل مثلما هو الحال في روتا Rota وفي ميناء سانتاماريا. ولكن دون الهمة والحماس الذي عليه الربّى الشماء والقاحلة في قرطاجنة. كما أن المدينة ليست بمنجى من مكائد البحر في خليج بحري محمي على شاكلة المدينة الأخرى رفيقتها في أسبانيا، بل تقوم أسوارها خاضعة لفكرة دفاعية وأخرى تأملية على الشاطئ نفسه. كتب خورخي خوان وأنطونيو دي أُيُوا عن خليج قرطاجنة "أن الخليج عميق ومراسى جيدة وهدوء كبير ويصل الأمر في هذا المقام أنه عندما

تهب النسمات خلال فصل الشتاء لا يؤثر ذلك على حركة المياه في الخليج مثلما يحدث بالنسبة لنهر هادئ"[1].

ربما أدت حالة المقاومة التي أبداها السكان الأصليون لحظة مجيء المكتشفين إلى أن يستحضر هؤلاء في أذهانهم الشكل الجغرافي الصلد الذي عليه الميناء المتوسطي، والأمر هو أن باستيدا Bastida وجد أثناء حملته في تلك الأصقاع "أكثر الناس عدوانية على اليابسة"، وهم هنود من حاملي السهام، كانوا يطلقونها مصحوبة بنباتات سامة لا علاج لها، وإذا ما كان هناك علاج فالمسيحيون لا يعرفونه"[2]، في قرطاجنة قتل الكاريبيون - الذين أطلق اسمهم على البحر نفسه - بسهامهم خوان دي لاكوسا وهزموا القائد ألونسو دي أفيدا. وغير بعيد عن قرطاجنة، أي على نهر إنسينادا Ensenada قام الهنود من حملة السهام بشن هجوم مفاجئ وأجهزوا فيه على السفينة الشراعية التي قام بإرسالها جونثالو فرناندث دي أوبيرو ومعه آخرون. أيضاً غير قليل هؤلاء المبشرون الذين دفعوا حياتهم لقاء مهمتهم السلمية في التبشير.

كان هؤلاء السكان الأصليون من أخطر الناس الذين واجههم الأسبان في العالم الجديد حتى ذلك الحين، وكأن الأرض التي هم فيها مليئة بالمحاربين الذين أخذت تظهر حصونهم في نهاية القرن السادس عشر حول الخليج، كما أن المدينة نفسها أحيطت بأسوار وابراج واستحكامات ومصدات الأمواج، مشكلة بذلك نظاما دفاعيا يتكون من ثمانية وثلاثين تحصينا ليصبح نظاما غير عادي ليس فقط في العالم الجديد ولكن في تاريخ التحصينات كاملا.

ومن فوق دير بوبا Popa الذي كان بمثابة مكان للمراقبة يمكن أن يرى البانوراما الكامل للخليج مع ما به من حواجز طبيعية عبارة عن ألسنة من الأرض تتواتر نحو الداخل وكأنها مجموعة من الصناديق يوضع الواحد منها داخل الآخر، وفي الصندوق الأخير هناك الكنز محفوظا. وفي حالة قرطاجنة، كانت الصورة هي الواقع نفسه ذلك أن مخازن المدينة

---

(١) العمل المشار إليه، الباب الأول، الفصل الأول، الطبعة المذكورة، ص١٤.

(٢) جونثالو فرناندث دي أوبيدو "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية" المجلد الثالث، الفصل الثامن، الطبعة المشار إليها، الأولى، ص٧٢.

كانت تضم الكنوز القادمة من مناجم المملكة الجديدة. وفي مياه الخليج كان من الضروري على السفن المتوجهة للبرزخ أو تلك التي تنطلق منه متوجهة إلى شبه جزيرة أيبيريا محملة بالمعادن الثمينة الآتية من البيرو.

وفوق المدينة، على ربوة هناك، نجد حصن سان فيليبي دي باراخاس وهو حصن لا يكاد يكون له مثيل في العمارة الحربية الأسبانية[1] ونحو أسواره المنيعة، على شكل مائل، تقترب دفاعات حيّ خيستماني بحثا عن المساندة وهو حي ملاصق للمدينة لكنه يكاد يكون منعزلا بسبب مياه المستنقعات. ومن خلال الجسر المحصن شامباكو Chambacú يتم الوصول إلى حصن سان فيليبي الذي يعتبر النواة الأساسية لمكونات النظام الدفاعي.

أما نحو الغرب يمكن أن نلمح بوضوح تحصينا يسمى Postelillo (الباستيل الصغير) وهو جيد البناء وكأنه مهيأ لأداء مهمته على الفور، وهو يحمي المدخل إلى المرصد. وبعيدا عن هذا نجد تحصينات سان خوسيه مانثانيا وسانتا كروث أو الحصن الكبير حيث تسيطر على القناة التي تربط بين الخليج الخارجي والداخلي. ومن بعيد يمكن أن نرى أو نتخيل، طبقا للمخططات، كل من حصن سان خوسيه وسان فرانثيسكو في "بوكا-تشيكا الفتحة الصغيرة" حيث تقوم بحماية المدخل إلى الخليج من البحر. وفي النهاية هناك حائط قوي غير مرئي يوجد تحت المياه يحول دون استخدام "الفتحة الكبيرة" كما أنه من الصعب الدفاع عنه.

لا تعتبر قرطاجنة ميناءً خاصا بجزيرة أو مجرد محطة في المحيط أو ملجأ للمهربين أو ملاذا للقراصنة بل هي كما يشير اسمها، ميناء الهند الغربية، أي ميناء قارة ضخمة، تتسم بالغنى وشدة انحدار الشواطئ وتتطلب بذل جهود مضنية من أجل استخراج ثرواتها والانتفاع بها. وهنا تطفو إلى الذهن صور البلدان المتخصصة في استخراج المعادن والتي تحولت إلى رمز في صورة "المدينة الإمبراطورية" بوتوسي. يلاحظ أيضاً أن التناقضات شديدة القوة فهناك الارتفاعات والبرد والجفاف والهنود من جانب، وهناك المستنقعات والمناخ الاستوائي والغابات والسود من جانب آخر. غير أن هذا التناقض يتضح بقوة أكبر من المنظور الحربي، فأمام كل تمركز للتحصينات حول قرطاجنة، نجد القارة الشاسعة التي

---

[1] بدرو خوليو دوس ديس "قرطاجنة الهند الغربية ذلك الحصن المنيع" بوجوتا، ١٩٤٨م، ص٧٩.

تمتد إلى الخلف عزلاء، وكأنها أرض مفتوحة ليست لها أية مقار للتحصينات أو أبراج طلائع أو حصون أو أية دفاعات أخرى مهما كانت درجة تواضعها لحماية أوائل المبشرين من القبائل المحاربة في أماكن يصعب على الرحالة ولوجها.

لا يوجد هناك مشهد أكثر سلميّة في الكون يماثل ما عليه الهند الغربية حيث حلّ سلام إسباني، كما يتجلى هذا البعد السلمي للإمبراطورية الإسبانية عندما تتم مقارنته بالطابع الحربي الذي كان عليه أهل ما قبل العصر الاستعماري، حيث حل محلهم. فقد جعل الأثتيك Aztecas من الحرب مهمة دائمة وذلك لتقديم أضحيات بشرية قربانا لآلهتهم. أما بالنسبة للإنك Incas، فهناك القليل من التحصينات في كافة أنحاء الأرض يمكن مقارنتها بما هو موجود من حيث كبر المساحة ومتانة التحصينات التي تحيط بالكوثكو Cuzco. غير أن هذه التجهيزات الحربية انتهى أمرها أمام قوة لعدة مئات من المغامرين، وسرعان ما حل محلهم موظفو المملكة حيث استطاعت الحفاظ على سلام لا يكاد يعكر صفوه شيء طوال ثلاثة قرون اللهم إلا القليل من حركات التمرد التي قام بها السكان الأصليون.

أحيانا ما يكون شكل الكنائس والأديرة ذا طابع حربي مثل وجود الشرّافات والأسوار الدفاعية لكن ذلك كان استثناء. وسرعان ما أدرك الحكام أنه من خلال قوتهم الأخلاقية وتأثيرهما على الناس جعلوا من الأديرة الحصن الأخلاقي، ومن خلال هؤلاء - طبقا لما كان يقوله السيد أنطونيو دي مندوثا أول نائب للملك في أسبانيا الجديدة - كانت كافة الأراضي تحظى بالدفاع عنها، فمن خلال القدوة التي قدموها من خلال اعتناق المسيحية والعظات استطاعوا هزيمة الدوافع التي عليها الهنود ولم يقلق أحد أو يثر شغبا وأن من الأولى أن تكون هناك أديرة يقيم فيها رجال الدين بدلا من حصون يقيم فيها جنود في البلدات"[1]. لكن مشاعر وميول المسيحيين القدامى من الأوربيين الذين كانوا يمارسون القرصنة في الكاريبي كانت أكثر شدة من هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية حديثا في الهند، فلم يتركوا أنفسهم تقتنع بالحوارات المقدسة والتحذيرات الموجهة من قبل الرهبان. ولم يكن هناك مخرج آخر إزاء هؤلاء إلا إقامة الحصون.

---

(١) توركيمادا "المملكة الهندية" الجزء الأول ص٦٦٢، عن خ. أ. مارابال، العمل المذكور، ص٢٢٣.

وفي منتصف القرن السادس عشر جرت إقامة تحصينات في سانتو دومنجو وسان خوان في بويرتوريكو ولاهافانا والبرزخ وفي قرطاجنة نفسها رغم أن هذا لم يكن فيه أي نوع من الترابط أو أنه كان كافيا. وعندما زادت في نهاية القرن المذكور هجمات كل من الفرنسيين والإنجليز والهولنديين من بعد أولئك وأصبحت الهجمات أكثر خطورة لم يكن هناك من حل إلا وضع نظام تحصينات تدافع عن النقاط الضعيفة - في القارة الجديدة، وكان ذلك ابتداء من مضيق ماجلان وحتى شبه جزيرة فلوريدا مرورا بالشواطئ البرازيلية والجزر والشواطئ الخاصة بالكاريبي ناحية القارة وكذا خليج المكسيك. كان ذلك واحد من المشروعات الطموحة التي جرى تنفيذها وبالفعل تم تنفيذ أغلب مكوناته في عصر الإمبراطور فيليبي الثاني، وكان ذلك تحت الإشراف الفني لباوتستا أنطونيلي، الذي ينسب إلى أسرة من المهندسين الإيطاليين كانت في خدمة الأسرة النمساوية الحاكمة في حروب على مدار عدة أجيال.

قام باوتستا بعدة أنشطة تتعلق بمهنته كمهندس في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي شمال أفريقيا كما قام بالسفر إلى أمريكا أربع مرات[1]، حيث طاف بشواطئها من أولها إلى آخرها وقام بوضع المخططات الخاصة بدفاعاتها وأدار في كثير من الأحيان الأعمال الإنشائية للتحصينات مثلما حدث في سان خوان في بويرتو ريكا ولاهافانا وسان خوان دي أبوا، وبورتوبيلو، وخليج فونسيكا وميناء كاباّيوس في بنما... الخ. أتى إلى قرطاجنة مرتين وأخذ يضع الدفاعات العاجلة بعد هجوم دراك Drake على الموقع، إضافة إلى تلك التحصينات الأخرى الأكثر أهمية والتي كانت تتطلب المزيد من الوقت في التنفيذ ولكن هناك التزام دائم بتعليمات المهندس الإيطالي.

كان هناك بعدان لتحصينات قرطاجنة بخطوطها الأفقية؛ فمن ناحية كانت ترتبط بالمباني الحربية الأخرى في الكاريبي، أي التحصينات ذات طابع العصور الوسطى في سانتو دومنجو حيث اقترح المهندس الإيطالي أنطونيلي إضافة تحصينات أخرى ذات طابع أحدث، وهناك الحصن المنيع لمقدمة Morro سان خوان في بويرتوريكو الذي تعلو أسواره الحجرية ذات اللون البني على المياه الشديدة الزرقة وهي أسوار تم تدشينها قبل الانتهاء من

---

[1] دييجو أنجولو إنيجث "باوتستا أنطونيلي، التحصينات الأمريكية خلال القرن السادس عشر"، مدريد، ١٩٤٢م.

بنائها ذلك أنها بمدفعيتها التي بلغ عددها اثنين وثلاثين مدفعا من خلال صد هجوم دراك وهاوكنز الذي مات أثناء المعركة؛ وهناك حصن "الملوك الثلاثة" في المورّو (الطرف) حيث يتولى وهو في الطرف الآخر أمام لاهافانا الدفاع عن الخليج وعن مدخلها.

كان قبل ذلك جرى بناء حصن "القوة" الذي أضاف إليه أنطونيلي حصن "لابونتا" واستخدام السلاسل في إغلاق الميناء، الأمر الذي جعل ذلك يستحق لقب "مفتاح العالم الجديد ومقدمة حصون الهند الغربية" ففي مياه ذلك المكان كان من المعتاد أن يُرى في منتصف القرن السادس عشر عدد من المراكب يتراوح بين عشرين وثلاثين، التي كانت الأساطيل والقوة البحرية لأسبانيا الجديدة و"الأراضي اليابسة" بما فيها من معادن ثمينة وذلك قبل عبور الأطلنطي من خلال طريق برمودة Bermudas وجزر الأزور. وأدى وجود الترسانات الأكثر أهمية في صناعة السفن في الهند الغربية إلى زيادة القيمة الحربية لمدينة لاهافانا، إلا أن النمو المطرد في تعداد السكان أدى إلي تقليل الطابع الحربي الذي كانت عليه، كما كان ذلك عائقا أمام بناء مناسب للكاتدرائية، بينما نجد في قرطاجنة أنه تم ردم قناة الاتصال بنهر ماجدا لينا خلال السنوات الأولى للاستقلال، وبذلك ضاعت الأهمية التجارية لمينائها، وأصبحت في صالح بارّانكيا Barranquilla، حيث حافظت على طابعها الحربي الذي زاد مع مرور الوقت.

كان لقرطاجنة بعدان أولهما البعد البحري والحربي بالنسبة للكاريبي وأوربا، وثانيهما هو البعد الأرضي والمسالم الذي ينظر صوب القارة التي جاء إسبيتوزا الإندبزي ليموت في أحد سلاسل جبالها غير بعيد عن القلعة الحصينة. كانت قرطاجنة تقوم جغرافيا واقتصاديا على نظام استغلال المناجم وهذا سبب وجودها، كما أن ذلك كان مكلفا في الحفاظ على أمنها. والأمر هو أن قرطاجنة والمناجم قطعا من الماكينة السياسية الاقتصادية نفسها ولم يكن هناك منطق أن يوجد شق دون الآخر. ولهذا هوجم المكان عدة مرات وتم الاستيلاء عليه لكن من قاموا بذلك لم يتأخروا كثيرا في مغادرته، فمن الأمور الأكثر أهمية من البقاء في الميناء هو أن تبحر الغليونات محملة بالمعادن الثمينة والسيطرة عليها فجأة أو الانتظار بعض الوقت واستقبالها كمقابل ربحي لمعاملات تجارية.

هنا نجد سر البقاء الطويل الأمد للإمبراطورية الأسبانية. وفي نظرنا يبدو غريبا أن تظل واقفة على قدميها زهاء ما يزيد على ثلاثة قرون رغم أنها مترامية الأطراف ورغم الهجمات المتكررة التي تعرضت لها على يد الكثير من الأعداء، لكن هذه الهجمات كانت سطحية في حقيقة الأمر، إضافة إلى أن منفذيها كانوا حريصين ألا تكون هذه الهجمات قاتلة "رغم أن إصرار دارك وعقليته - كما أشار إلى سلفادور دي مادارياجا[1] - هيأ لهم الأمر ليفوزوا بأطواق النصر والثروات على حساب التجارة الأسبانية ورغم مغامراته الرائعة لم يعد أن يكون إلا قردا لئيما يجري فوق ظهر فيل". والرأي نفسه ينطبق على من هم على شاكلته.

وحقيقة الأمر هو أن هذه الطفيليات التي في الكاريبي، المدفوعة أحيانا بمصالح محددة وأحيانا رغبة في القيام بدور بطولي أو سيرا على الجدلية التي يحدثها الفراغ، كانت تبدو وكأنها تثير ضيق الفيل الهندي بشدة، لكن حجم الأفراد الذين يكونون هذه الطفيليات يمكن التخلص منه بضربة مفاجئة. ولنقل هذا بعبارة أقل مجازية أن أعمال الحرب في الكاريبي كانت تعني بالنسبة لباقي الأوربيين بذل جهد كبير إذ يتطلب ذلك نقل الرجال والسفن والعتاد من القارة العجوز وهو جهد أعلى بكثير من الجهد الذي تبذله أسبانيا للدفاع عن نفسها أو القيام بهجوم مضاد ذلك أنها تتوفر على الكثير من الرعايا والوسائل الاقتصادية في المدن الأمريكية. وكان اختلال توازن القوى واضحا انطلاقا من الموقع الجغرافي لدرجة أنه يتم استعادة المواقع التي تم الاستيلاء عليها بعد هنيهة قصيرة.

في عام ١٦٢٤م فرض الأسطول الذي يقوده السيد/ فدريكي دي طليطلة السلام في جزر الأنتيل وطرد المحتلين من جزيرة سان بارتولوميه وجزيرة سان كريستوفل، وبعد ذلك بقليل قام بمطاردة القراصنة وغيرهم ممن هم على نفس الشاكلة حيث لجأوا إلى جزيرة "السلحفاة" Tortuga ثم استسلموا عام ١٦٣٥م وسلموا الحصن الذي أقاموه لقوات فوينمايور. ولم يتأخر دياث بيمينتا في إنقاذ "أرض العناية" أو سانتا كتالينا. ورغم أنه جرى من جديد إعادة بناء الحصن في جزيرة السلحفاة عام ١٦٤٠م وجد المدافعون عنه أنفسهم مجبرين على الاستسلام من جديد لجنود الحوض "Cuenca" عام ١٦٥٤م.

---

[1] العمل السابق، ص١٧٣.

وحتى ذلك التاريخ وخلال ثلاثة أرباع قرن من العدوان المستمر اقتصر الأعداء الثلاثة الكبار المناهضين لأسبانيا على احتلال مؤقت لجزر ليست لها أهمية ولم يكن ذلك نصرا بحريا أو عسكريا تحت أي ظرف من الظروف، كما لم يتمكنوا من وضع أقدامهم في الأملاك الأسبانية في القارة رغم ما بها من شواطئ ممتدة مثل شواطئ فنزويلا التي لم تكن بها أية تحصينات.

ورغم أن الأمر لا يتعلق بالتقليل من شأن النظام الدفاعي المتمثل في إقامة التحصينات التي خططها أنطونيلي، ولا يتعلق بالقوة البحرية الأسبانية حتى منتصف القرن السابع عشر والتي قامت أسرة البوربون بإدخال إصلاحات عليها بعد ذلك يمكن القول بأن القارة بما لها من مساحة شاسعة وما بها من تنظيم ضروري كانت خير تحصين. وإذا ما تحدثنا عن إدارة إمبراطورية الهند الغربية، التي درسها خوان دي سولورثانو إي بيراجو J. Sololorzano خلال السنوات التي أشرنا إليها، نجد أنها كانت تضم نيابتي الملك وأحد عشر سلطة إقليمية ومحكمة (وهذا أكثر خمس مرات مما هو في اسبانيا) والعديد من القيادات العامة والمحافظات والعُمديَّات الكبرى ودوائر خاصة وبيروقراطيات أصغر شديدة التعقيد. أما في ما يتعلق بما هو روحي، هناك بطرياركية وستة مطرانيات وثلاثين أسقفية ومائتي صاحب مقام dignidade وعدد لا يحصى من الكنائس الصغيرة والأديرة التي تمتد في مساحة تصل إلى ٤٩٠٠ فرسخ وأكثر"[(١)].

هذا التنظيم الضخم لا يمكن أن يستمر إلا إذا كانت هناك رحلات بحرية مكثفة حيث وصلت إلى ذروتها عام ١٦١٠م ثم أخذ العمل يهبط تدريجيا ابتداء من عام ١٦٢٢م. كتب كل من هوجت Huguette وبيير كنو P. chaunu يقولان "إن مقارنة حركات الملاحة الكبرى في تلك الأزمنة... توضح أن حركة الملاحة من أسبانيا إلى أمريكا كانت الأكثر كثافة"؛ ولم تكن المراسلات الورقية الإدارية أقل من ذلك وهذا ما يؤكده وجود مستندات محفوظة في "أرشيف الهند الغربية". ورغم عدم وجود المستندات بالكامل فإن الأخبار التي

---

(١) "السياسة الهندية"، إهداء، ٢١، الكتاب الخامس، الفصل ١٥، مدريد "الشركة الأيبيرية الأمريكية للنشر"، ش.م. المجلد الأول، ص١٢، والجزء الرابع، ص٢٤٨.

تنقلها إلينا هي طبقا لهذين المؤرخين[1] : بالمقارنة بكثافة الإبحار في ذلك الوقت فإن النقل البحري الأسباني الأمريكي يتسم بأنه غاية في الضخامة، "وليس أقل من ذلك ضخامة مراسلات الجهاز الإداري الموجود نسخ منها في أرشيف الهند" إذ أنه أكثر ثراء ودلالة بالمقارنة بمستندات موجودة حتى الآن عن النقل البحري خلال النصف الأول من العصر الحديث.

لم يكن أمرا مثيرا للعاب السيطرة على كل هذه المساحة الجغرافية والإدارية الهائلة التي هي عبارة عن الهند الغربية التابعة لقشتالة أو حتى وضع العراقيل حقيقة أمام الأداء الجيد لهذه الماكينة. "ألا تعرفون أنتم - يقول أحد الفرنسيين في كتاب "الناقد اللاذعي" لبلتسار جراثيان[2] - أن حدث ذات مرة أن الأسطول لم يأت في أحد الأعوام بسبب حادثة ما ولم يتمكن أي من أعداء الملك من محاربته؟ والآن مؤخرا عندما تغير وضع الفضة بعض الشيء في البيرو، ألم يشعر بالقلق كافة أمراء أوربا وكافة الممالك الأخرى هناك؟".

وإذا ما تهدمت الإمبراطورية الأسبانية الضخمة كالفيل، لكان على الأعداء الظاهرين أن يساعدوا في أن تنهض إذ أفادوا منها كثيرا مقابل ثمن زهيد، ومن تنظيمها الضخم الذي لم يكن هناك إنسان حصيف ليجرؤ على القيام بذلك. كتب مونتسكيو.[3] لقد جرأت على القول في مكان ما بأنه تم ترك الأسبان يعبرون إلى الهند وكان يجب مراجعة إعادة الهنود وإقصاء الإسبان إذ كان لابد أن نعيد إلى تلك المملكة كل هذه الشعوب المبعثرة ولو كانت نصف تلك المستعمرات فقط قد تم الاحتفاظ بها لكانت أسبانيا القوة الأكثر مهابة في أوربا.

كان الإنجليز والفرنسيون يدركون جيدا من خلال تجربتهم في كل من جامايكا، وجزر سانتا دومنجو حجم الفوائد التي تدرها عليهم المهام الاستعمارية المكثفة والمقننة. وعندئذ لم يتُه المرء في سلاسل الجبال والغابات في القارة إذا ما كان عائد هذا الاستغلال

---

(١) هوجت وبيركنو "أشبيليه والأطلنطي" (١٥٠٤ - ١٦٥٠م)، إحصائيات، الجزء الأول ص١٢، الجزء الدراسي، المجلد الثامن، ٢، ١ ص١٠، باريس ١٩٥٥-٩.

(٢) الجزء الثاني، كريسي، الثالثة.

(٣) الرسائل الشخصية cxxi.

المتعب غير مجز؟ وحقيقة الأمر هو أن الاحتكار التجاري الذي كان لدى أسبانيا كان يعني نوعا من المتاعب بالنسبة لباقي الدول الأوربية الأخرى، لكنه كان نظاما احتكاريا هشا من الناحية العملية؛ ففي عام ١٦٠٨م أبلغ "مجلس الهند الغربية" الملك الأسباني أن المصالح الأجنبية في حمولات السفن ازدادت إلى ثلثي الإنتاج الأمريكي من الذهب والفضة، وفي عام ١٧٤٠م، طبقا لتقديرات موجزة بعض الشيء[١]، وصل الإسهام الأجنبي إلى السيطرة على تسعة أعشار إجمالي تجارة الهند الغربية الأسبانية.

لم يكن الوضع الفعلي الذي عليه الهند الغربية يبرر استخدام القوة بشكل كبير حتى يحل محل القوة الأوربية، ويتم وضع اليد على الإمبراطورية. وربما لم يحدث مثل هذا الاستخدام للقوة إلا مرة واحدة في عام ١٧٤١م عندما قام الأسطول الضخم الذي يقوده فيرنون Vernon وكان قوامه مائة وعشرين سفينة وثلاثين ألف محارب بالهجوم على قرطاجنة.

كتب أرنولد توينبي يقول "إن سقوط قرطاجنة كان سيُعد بمثابة أول خطوة في مشوار تتحول من خلاله الإمبراطورية الإسبانية إلى إمبراطورية بريطانية. فمن ميناء قرطاجنة كانت هناك قناة صناعية تم شقها لتصل إلى نهر ماجدالينا، وهذا النهر يفتح الأبواب نحو الداخل... ومن خلال مجرى النهر من الممكن فتح الطريق إلى شواطئ المحيط الباسفيكي، ومعنى هذا أن لو كان فيرتون نجح في قرطاجنة لأصبحت كافة الأملاك الأسبانية ابتداء من شاطئ الكاريبي وحتى وادي شيلي ومصب نهر لابلاتا تحت إمرة البريطانيين حيث كان من الممكن لهم احتلال كل ذلك بسهولة".

كانت نظرة المؤرخ الإنجليزي متفائلة بوضوح ذلك أنها تعني أن الإنجليز لهم صفة الانتشار وهذا ما لم يكن قد ظهر بعد في الأقاليم التي كانت بها في العالم الجديد. لم يشعروا بأي إثارة للفضول حتى ذلك الحين، أي هؤلاء البريطانيين الذين استقروا في أمريكا الشمالية، ليقوموا باستكشاف تلك الأراضي الشاسعة الممتدة على الجانب الآخر من "جبال بالاتشس" Montes Apalaches والتي تتسم بأنها أكثر سهلية وراحة مقارنة

---

(١) خوسيه دل كامبيّو أي كوسيو "النظام الاقتصادي الجديد للهند الغربية"، مدريد ١٧٨٩م عن كلارنس إتش. هارنج "الإمبراطورية الأسبانية في أمريكا"، نيويورك، ١٩٤٧م، ص٣١٥.

بالجبال في أمريكا الجنوبية، حيث لم يمرّ بها إلا مستكشفون أو رهبان - فرنسيون وأسبان.
وعلى أية حال فإن التحصينات المقامة في قرطاجنة الهند إضافة إلى إقدام وشجاعة المدافعين رغم قلتهم العددية التي تصل إلى واحد إلى سبعة في مواجهة المهاجمين وأن من يقودهم هو ذلك الرجل المجدوع - أي المقطوع الذراع والأعور والأعرج - الذي هو بلاس دي ليثو؛ استطاعوا أن يكسروا inovo تلك الحملة الضخمة.

سوف يكون أمرا غير مجد أن نقوم في العصر الذي نعيش فيه بإعادة استخدام تعبير الانتصارات القومية في مواجهة شعب أوربي؛ فانتصار قرطاجنة الهند الغربية كانت له آثار تاريخية ذات أمد بعيد؛ فهذا الانتصار يبرز الجوهر الذي عليه الإمبراطورية الأسبانية والتعقيدات والتيارات المرتبطة به وكذا تلك العقلانية التي كانت تحركها حتى ذلك الحين، أي في منتصف القرن الثامن عشر. وإذا ما تمكن الحصن المركزي لسان فيليث دي بارخاس من مقاومة الهجمات المتكررة التي قام بها الإنجليزي فما كان ذلك إلا لأن قواتهم أصيبت بالإنهاك من جراء الهجوم على تلك المعاقل السابقة على ذلك الحصن والتي كانت شديدة التحصين من خلال مالها من مدافع ومالها من سفن منتشرة في الخليج، كما أن النظام الدفاعي بالكامل كان ثمرة تخطيط أفضل المهندسين العسكريين في ذلك العصر - لم يكونوا أسبانيين في حقيقة الأمر ولكن كانوا من بلد يخضع في إجماليه لحكم ملوك الهند الغربية أنفسهم -؛ أضف إلى ما سبق أن أسوار هذه الدفاعات كانت من كتل حجرية مقطوعة بشكل ممتاز وملتصقة ببعضها بالأسمنت الأمر الذي يثير حسد المهندسين المحدثين ويفقدهم الأمل حيث حاولوا، ولكن بلا جدوى، أن يعرفوا سرّ البناء" وهذا ما قاله توينبي المؤرخ البريطاني نفسه.

يلاحظ أن الأسس الأولية للتحصينات كانت إيطالية لكن التنفيذ وقع على عاتق مجموعة من العاملين البيض أو الملونين الذين كانوا انضموا إلى العالم التقني الأكثر تقدما في الغرب، وكان هناك تلاحم فيما بينهم بدرجة أبرزتها الدفاعات المشتركة للحصن دون تمييز بينهم من الناحية السلالية. أي هناك تقنية مذهلة وكذا الإقدام والشجاعة والحس الجماعي - وكذلك بالنسبة للوباء ولكن ليس بالدرجة التي ينوه البعض بها - وبالتالي تضافر هذا مع الصيت الذي سبق الحملة والفشل الذي منيت به ليكون رأيا شديد النصرة لصالح

السيطرة الأسبانية في الهند الغربية، حيث تمكنت بلدانها بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على هذه الواقعة من الحصول على استقلالها دون أن تنتقل إلى يد قوة أوربية أخرى.

غير أن الأطراف الحقيقية المتصارعة في قرطاجنة الهند لم تكن القوى الأوربية بل كانت أمريكا الأنجلو ساكسونية وأمريكا الأسبانية. ولم يكن مجرد صدفة على الإطلاق أن يحظى الجيش الغازي بقطاع مهم من القوات التي تم تجنيدها في أمريكا الشمالية، كما لم يكن محض صدفة أيضاً أن يكون لورنس، الشقيق الأكبر لجورج واشنطن أحد أفراد هذه القوات، الذي كان أكثر ولاء للقائد Almirante مقارنة بتابعيه الأوربيين، وبالتالي فتخليدا لذكراه أطلق عليه اسم Mount Vernon، أي تلك الغربة الشهيرة التي كانت تسيطر على المشهد في بوتوماك Potomac. ها هي قرطاجنة الهند تتراءى في الأثر الأسري لمؤسس الولايات المتحدة، وحددت بذلك خطا فاصلا بين العالمين الذين هما جماع القارة.

XVIII- أمريكا وإقليم الأندلس

حتى نفهم جيدا كلا الإقليمين من الضروري أن ننظر إلى أمريكا انطلاقا من إقليم الأندلس وإلى هذا الأخير انطلاقا من أمريكا.

ليست هذه بنظرية جديدة فيما يتعلق بطرفيها، رغم أن هناك منذ عدة سنوات بدهية ويقينا بالصورة التي تبدوان عليها بصفة عامة من الطائرة. أشرنا في صفحات سابقة أن المسافر بالطائرة يقوم وهو يعبر تلك المساحة الشاسعة للقارة بقطع دوائر ورقعا حضرية تسكن في الذاكرة والتي يمكن له أن يسترجعها بسهولة ويقارن فيما بينها. حسن، خذوا عددا من هذه الدوائر أو الاسطوانات وضعوها تحت إبرة اهتمامكم وسوف تشعرون بالمفاجأة من درجة الشبه في الإيقاع والنغمة التي تحمل لكنة أندلسية واضحة يتم اكتشافها من خلال عدة تنويعات.

وقبل ذلك، أي منذ عدة سنوات، لم تكن هناك إمكانية التأكد من ذلك بشكل قاطع في مجال الموسيقى والملبس والعادات والشوارع والشرفات والأغذية والمماشي واللهو والدعة والأبراج الخ. وفي كلمة واحدة، رؤية إجمالي أنماط الحياة والثقافة لإقليم أوربي وقد انعكست في تنوع شديد في مختلف أجزاء القارة الشاسعة في نصف الكرة الغربي رغم الحفاظ على الولاء للسمات الجوهرية رغم اختلاف الظروف المناخية في الكاريبي أو جبال الأنديز أو إقليم بلاتا، وكذلك التنوع الشديد في الجانب السلالي المكون من الهنود والسود والبروليتاريا البيضاء. ومن الطبيعي أن تكون هناك أقاليم – مثل الكاريبي وليما وجنوب المكسيك – حيث يلاحظ فيها التأثير الأندلسي بوضوح أكثر، ونادرا ما يمكن أن نجد إقليما في أسبانو أمريكا وقد نجا من هذا التأثير.

وعند الانتقال من مدينة إلى أخرى كان من الضروري السفر لمئات أو آلاف الكيلومترات سواء بحرا أو برا لا نجد مدينة إلا وتعرضت لأنواء الطبيعة الحادة التي عليها الأراضي الأمريكية؛ وما كانت تتمتع به كل بلدة من سمات خصوصية نجدها تذوب في إطار ما هو قاسم مشترك وعام وبذلك تتحول السمات الأندلسية للحياة إلى ظواهر شعبية في الحضارة الحضرية ولكن مع بعض التمحيص، غير أن الطائرة أزالت المسافات التي كانت تضفي العتمة على ذلك الجو الأسري للمدن الأسبانو أمريكية، وأضحت كلها جلية أمام ناظري الرحّالة في إطار تجربة حيوية واحدة وكأنها معلقة على حائط أحد معارض الصور. ربما فقد الرؤية العمق، والأبعاد الجغرافية المحددة وكذا الإنسانية لكن فيما يتعلق بوجهة النظر محل حديثنا فإن المكاسب هي أمر ملحوظ.

وفي الوقت الحالي وعلى مدار عدة أشهر يمكن أن تكون هناك في الذاكرة الحية صور الشرفات الخشبية في ليما ويمكن مقارنتها بمثيلاتها في قرطاجنة الهند، وكذا مقارنة الأسيجة في بوتوسي بتلك التي في كويرنا باكا Cuernavaca، ومقارنة السقف ذي القصاع الزخرفية المدجنة في سوكري بأمثاله في كيتو، وكذلك النطق بالثاء على الطريقة الشيلية مع الظاهرة نفسها في بويرتو ريكو . . . الخ. وليس الأمر عبارة عن مقابلات باردة تقوم على صور فوتوغرافية حيث المضاهاة بين عمود مربع وعمود مربع آخر وخطا بخط مع مكونات اثنين من المباني الأثرية. يمكن أن يكون ذلك ممكنا عندما تكون الأشكال الفنية أكثر تجريدا عن تلك التي عليها كل من إقليم الأندلس وأمريكا، وبالتالي فإن المقارنة هنا هي بين كيانين حيين سواء من الناحية الاجتماعية أو الجمالية، لا زالا حاضرين في شبكية العين التي التقطتهما من وسطهما الحي واحتفظت بهما بعناية شديدة لتصفهما إلى جوار كيانات أخرى توائم في مدن شقيقة رغم بعد المسافة التي قد تبلغ آلاف الكيلومترات.

ومن الجانب الفني والثقافي فإن هذه الكيلومترات ليست متماثلة في العالم القديم والعالم الجديد، فاجتياز مائة كيلومتر في إقليم الأندلس أو إيطاليا يساوي آلاف الكيلومترات في أمريكا حيث من المهم تعويض المسافة الفاصلة من خلال السرعة التي عليها وسائل المواصلات. فقبل ذلك، أي عندما كانت وسائل المواصلات شديدة البطء في العالم الجديد مقارنة بالقديم، لم تكن هناك إمكانية للحصول على صورة متسقة إجمالية أو للأقاليم الأكثر أهمية مثل تلك التي كان يمكن الوصول إليها في بورجونيادي لا أومبريا

Umbria أو إقليم الأندلس السفلى. كان للصورة الأمريكية لمطبة مختلفة من حيث التراتب الجغرافي والاجتماعي والتاريخي، حيث تتبدى أكثر ليونة كما أنها باهتة وليس لها ملمح مميز. وما قامت به الطائرة هو تصحيح تلك التشوهات حيث تحولت إلى وسيلة ضرورية للتأكد، على سبيل المثال، من الطابع الأندلسي الجوهري في كافة أرجاء إسبانو أمريكا.

يكفي في هذا المقام الحديث عن تلك المقارنة المطلوبة بين أمريكا وإقليم الأندلس حتى تطفو هناك الحاجة إلى تطبيق مناهج مختلفة لرصد المفهوم عن كل واحدة من المنطقتين. ففي إحدى هذه الحالات يصبح الأمر عبارة عن أكثر من نصف قارة موزعة بين شقي الكرة الأرضية مع ما يصحب ذلك من تنوع في المناخ والسلالات، وفي الحالة الأخرى نجد الأمر عبارة عن إقليم واحد من العالم القديم ومن القارة الصغيرة. فكيف إذن تجري محاولة عقد مقارنة بين إقليم صغير بقارة شاسعة اللهم إلا إذا قمنا بتطبيق مقاييس متنوعة على كل واحد من الإقليمين بحيث يتم تصحيح تلك الفروق الواضحة للعيان! ولكن سيقال، ألا يعتبر هذا التصحيح نوعا من الاعتساف؟ فكيف يعقل أن نقول أنه في باب التكوين الثقافي للعالم الجديد كان هناك إسهام حيوي ليس آتيا من بلد بكامله من العالم القديم وإنما من إقليم واحد من أقاليمه؟

لكن حقيقة الأمر تشير إلى أن إقليم الأندلس ليس مجرد إقليم أوربي شأنه شأن إقليم قطالونيا، أو توسكانا أو بورجونيا؛ إقليم الأندلس هو أقل وأكثر. هو أقل لأنه التحق متأخرا بالحضارة المسيحية الغربية وبالتالي لم يتمكن من تكوين شخصية أصيلة على نهج الأقاليم الأوربية طوال قرون العصور الوسطى. ولهذا السبب يعتبر إقليم الأندلس إقليما ذا شخصية سلبية أكثر منها إيجابية بدرجة مهمة حيث نرى فيه، على سبيل المثال، أن الأساليب الفنية خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة تتبدى فيها ملامح مستوردة وأحيانا ما يزيد هذا حيث تلاحظ سمة بارزة من الغزو السياسي[1].

---

(١) Vid del autor "حول إقليم الأندلس" في "مقالات حول الفن والمجتمع" مدريد، مجلة الغرب، ١٩٥٥م، ص١٤٥-١٨٦.

هبط القشتاليون إلى الأندلس وهم يحملون معهم أساليبهم الفنية وتنظيماتهم القضائية ونواياهم في السيطرة الاقتصادية ولغتهم التي كادت تكتمل وملأوا ما يسمى بالـ " الجوال " الجغرافي بالأنماط الواقعة في أقصى أراضي الغرب بأنماط حياة مستوردة. لم تكن أنماط حياة قشتالية ؛ فمن خلال الغزاة الذين قدموا من الهضبة الوسطى كان يتبدى الإبداع المشترك للغرب كاملا، وعلى هذه الأرض التي جرى ضمها مؤخرا قام بإطلاق الكثير من أنماط حياته بإغداق وخاصة الجوانب الفنية الحاضرة للعيان وذات الدلالة.

وخلال عشرات من السنين وبحماس بالغ أقيمت على الأرض الأندلسية آثار تمثل التنوعات التي عليها الأساليب الفنية خلال العصور الوسطى والعصر الحديث وكأن كانت هناك رغبة ملحة في تعويض الزمن الذي ضاع وإلباس المكتسبات الأرضية الجديدة بكافة سمات التواجد الفني للغرب. إقليم الأندلس هو أكثر من مجرد إقليم في هذا المقام إذ يحتوي على ما أنتجته ثقافات أخرى وهو ذلك الإقليم الواقع في مقدمة المركب الأوربي وأخذ يتبدى وهو يرتدي قناعا يلخص فيه الغرب ملامحه قبل الإبحار في مياه البحار الواسعة في كوكب الأرض.

لكن لم تكن فقط ملامح الغرب بل كانت ملامح الشرق، ذلك أن الأندلس لم تقتصر على كونها أرضا مفتوحة على التوجهات والتيارات القادمة من الشمال بل أيضاً على تلك القادمة من الجنوب ومن الشرق. لم تكن الأندلس فقط آخر أراضي الغرب بل كنت ايضاً آخر أراضي الشرق العربي والشمال الأفريقي، كما أن وظيفة التلقي التي قامت بها فيما يتعلق بالتيارات القادمة من العالم المسيحي، قبل ذلك بعدة قرون أسهمت بدورها في الإطار المتعلق بالتأثيرات القادمة من الشرق والجنوب. هذا الدور الذي يتمثل في التلقي الشامل الذي قام به إقليم الأندلس ليس أمرا فيه غموض بل كان يقوم على عدة طبقات، تتجلى بوضوح في أي مدينة أندلسية، بمستوياته المختلفة المحددة الأساليب الفنية والمنابع التي أتت منها ابتداء من الكاتدرائية التي تنسب إلى شمال أوربا وحتى مقر الإقامة المورسكي مرورا بالقصر الإيطالي والمعبد الباروّك أو الركوكو أو المنزل ذى الطابع الفينيقي، ومن يدري فيما إذا كان من تارتسيا.

هذا الطابع الذي عليه إقليم الأندلس، من حيث أنه ملتقى، وتبيان لتيارات، هو أنه تلك الوردة المتفتحة على كافة أنواع الرياح، أصبح، من المنظور الفني ومن جوانب أخرى تتعلق بأية مدينة في باطقة، مصدر عناية واهتمام من أجل فهم المهمة التي قام بها إقليم الأندلس في العالم الجديد. كانت مهمة اكتشاف هذا العالم واستعماره غربية وأوربية في المقام الأول ولكن دون هذا التزمت الذي يفخر به الأوربيون من أهل الشمال، فالبعد الشرقي لا يمكن أن يكون غائبا في مهمة كان لها مدلول كامل في الكرة الأرضية، فعندما يتمشى الزائر في "لاباث" أو في كيتو ويتأمل قبة ترجع إلى عصر النهضة أو قبة ذات تقاطعات أو سقف مزين بالقصاع على الطريقة المدجنة بما له من ألوان غير واضحة في جو كأنه كهف فإنه لا يشعر بالانتقال وكأنه غيبة نظام أو أنه نوع سطحي من الجمع بين الأشتات بل هو تعبير عن رغبة بناءة مرنة تعرف الإفادة مما هو وطني وعملي وفي الوقت ذاته مما هو صوفي حيث يوجد في آن معا في شغف مدجن.

وإذا ما تسلح من يقوم بتشييد مبني في الكاريبي أو الأنديز أو الهضبة المكسيكية، بالحلول المختلفة والمتنوعة للغاية التي كان يقدمها المتحلف الأندلسي الواسع، لأمكنه مواجهة المشاكل المتعددة التي تعترض طريقه. ويا لها من قيود تكبل الأيدي- وكانت على هذا النحو -، أي أيدي المعماريين المتمرسين الذين يسيرون على القوانين الفنية مثل الفرنسية أو الإنجليزية! لكن المعماري الأسباني، أي الأندلسي أو القشتالي و ابن إقليم إكستريما دورا، الذي كان يبحر من إشبيليه وقد تدرب جيدا من خلال السياق الذي عاش كان على النقيض من هؤلاء إذ كان يتمتع بحرية كبيرة ليشيد مدنا صغيرة أو كبيرة على شاكلة قادش على شاطئ البحر، أو يشيد مدنا مثل وبذة ubeda عندما يكون المسطح في منطقة مرتفعة أو يشيد مدنا أكثر تواضعا شبيهه بمدينة شيذونه Sidona أو شريش Jerez دي لوس كابا بيرّوس. كان يمكن أن يختار أيضاً، قبل إقامة كاتدرائية، بين الأشكال المتعلقة بعصر النهضة التي ترى في كاتدرائية غرناطة التي تحمل بصمات ترجع إلى العصر القديم مثلما نجد ذلك في كاتدرائية المكسيك وبويبلا، أو الأشكال الأكثر تواضعا والقوطية الأسلوب مثل كاتدرائية بايثا Baeza أو كنيسة بالوس Palos، إضافة إلى السمات الشرقية التي عليها المسجد الجامع بقرطبة - طبقا لما يُرى في المصلى الملكي الملحق بدير الفرنسيسكان دي شولولا Cholula الذي يقع بالقرب من المكسيك.

كان من السهل تنفيذ تلك الاختيارات ذلك أن إقليم الأندلس لا يقدم فقط هذا التنوع الشديد في الأساليب والأشكال الفنية ـ أو في الجوانب الأخرى للحياة ـ بل هناك ترابط داخلي بينها الأمر الذي يجعل الانتقال من توجه إلى آخر ممكنا وكذلك الجمع بينها وخلطها. يتسم التنوع غير العادي في الأشكال الفنية بالتوازن في إقليم الأندلس وذلك بفضل تجذره في الحياة وبسبب الموقف الذي ينظر إلى الأمور بشكل نسبي وخاصة المتعلقة بالمضمون الموضوعي للثقافة ابتداء من مركز حيوي له كيان حقيقي. ولم يحدث في أي مكان مثل هذا أن رأينا أنماط الثقافة يتولد عنها الكثير من أنماط الحياة الأصيلة. يفتقر الفن الأندلسي لغايات فنية كبرى وكثيرا ما تظهر عليه بوادر الضعف من منظور المنطق الفني، ولكن ما يفتقده في الالتزام الصارم بالقواعد يكسبه في المرونة والتمثل وكذلك في القابلية للنقل.

ونظرا لأن الفن الأندلسي شديد الارتباط بالحياة وشديد التأقلم على الفرد والذي تحول إلى ملبس شخصي فإنه من السهل نقله، فأي من المستعمرين يمكن أن يحمله معه في قاربه إلى أمريكا دون الحاجة إلى أمتعة كثيرة وإلى كتب تتعلق بالعمارة. ثم بعد ذلك، عند وصوله إلى هناك، يمكن أن يفرده على طريقته ومواءمته طبقا لمتطلبات الجو المحيط وطبقا للسكان الأصليين ويقدم بذلك الفرصة لإيجاد تكوينات جديدة وإنما أخرى من التأقلم الحيوي. الفن الأندلسي إذن لا يقدم فقط أشكالا متنوعة وسلسلة من التكوينات بين هذه الأشكال في عملية التوسع في أمريكا بل ربما يقدم ما هو أكثر أهمية الا وهو موقف مسبق، أو ميل إلى الجمع بين عناصر مختلفة يمكن أن تكون جديدة وغير معروفة بالمرة مثل تلك التي ترجع إلى الثقافات السابقة على العصر الاستعماري أو تلك القادمة من الشرق الأقصى من خلال المحيط الباسفيكي، إلا أنها سرعان ما تندمج مع باقي العناصر ذلك إذا تم النظر إليها من منظور مسبق وهو القدرة على التزاوج الفني الذي يستكن في وعي بدائي وحيوي بالفن.

وبناء على كل ما سبق نجد أن التأكيد على أن إقليم الأندلس وضع بصمته الخاصة في طول العالم الجديد وعرضه لكن هذا لا يستلزم أن يكون أهله هم الذين استعمروا هذا العالم بشكل اساسي، إذ أن عملية إضفاء الطابع الغربي علي أمريكا وقعت على عاتق كافة الأطياف السكانية الأيبيرية بدرجة كبرت أم صغرت، وكان ذلك بدءا من الأيام

الأولى؛ فرغم ضم الهند الغربية للتاج القشتالي اكتسب أهل أرغن والذين اعتنقوا المسيحية مكانة مهمة ضمن الموظفين في بلاط فرناندو الكاثوليكي.

وبعد عشرات قليلة من السنين على الاكتشاف نجد جونثالو فرنانـدث دي أوبيـدو يكتب: "رغم أن الذين كانوا يأتون هم من حاشية الملوك الأسبان فمن من النـاس يمكنـه أن يوفق بين الباسكي والقطلاني إذ هما من إقليمين جد مختلفين؟ كيف سيتوافق الأندلسي مع البلنسي وإبن بربيجنان Perpignan مع القرطبي والأرغني مع ابن جيثكـوا والجليقـي مع القشتالي (حيث هناك شك في أنـه برتغـالي) وأيـن الإقليم الجبلـي في أستورياس مع ابـن نابارة... الخ؟"[1]. كانت مشكلة يصعب حلها، ذلك أنه إذا ما كانت المنافسات بين عدة أقاليم في شبه جزيرة أيبيريا تجرى السيطرة عليهـا مـن خـلال القـرب الجغـرافي بـين أهلـهـا، فالوضع في العالم الجديد هو أنهـم كـانوا يتعايـشون في إطـار حملـة واحـدة ومدينـة واحـدة ويقومون بمهمة واحدة وهم مدفوعون دائمـا بالـصراعات الداخليـة بـين مختلـف "الأمـم" الأيبيرية".

ومع هذا فرغم الأهمية التي كانوا عليهـا في بـاب الإبحار والمناجم، وخاصـة أهـل الباسك وأناس آخرين من شمـال شبه جزيـرة أيبيريـا، فهـي، مـن خـلال بنـاء الكنـائس والقصور، ومن أنماط الحياة الموروثة جيلا بعد جيل، وصلت إلينا بتلـك الـسمة الأندلـسية الواضحة أو سمة أحد أقربائه من أبناء إكستريما دورا. لكـن لا يعنـي هـذا أن أهـل باطقـة كانوا أكثر ذكاء حتى يتركوا بصمتهم على ذلك الموروث الذي خلفته شبه جزيـرة أيبيريـا في أمريكا، بل يرجع السبب إلى الأصول الأندلسية التاريخية للأندلس ذلك أن ابن هـذه المنطقـة هو نتاج كافة الـسمات الفرديـة الإقليميـة في شـبه جزيـرة أيبيريـا والانعكاسـات الـسياسية المرتبطة بهذا والمتمثلة في العديد من الممالك في شـبه الجزيـرة الأمـر الـذي أدى في النهايـة إلى وجود إقليم يضم "الأقاليم كلها".

تمخض عن عمليـة إعـادة الغـزو في آخـر مراحلـها حـدوث تماسـك متـسارع علـى المستويين الاجتماعي والثقافي الأمر الذي أسهم في تقليل التناقضات بـين مختلـف الأقـاليم في

---

(١) العمل المشار إليه سابقا، الجزء الثاني، الفصل الرابع عشر، الطبعة المشار إليها، الأولى، ص٥٢.

شبه الجزيرة. وفي هذا المقام اشار خوسيه ماريا سلباتيرا[1] إلى "أن كل شيء يضمه إقليم الأندلس وهو لهذا خلاصة أسبانيا أو جوهرها، وبالنسبة للأجزاء الأخرى من الأمة فإنها لا تضم كافة السمات الأسبانية ولا تعبر عنها جميعا، وهي كانتابريا وجليقية وارغن وقطالونيا والشاطئ الشرقي Levante وقشتالة نفسها، إذ أن هذه كلها هي أجزاء أسبانية. ولكن في الأندلس نجد جماع كل ذلك. . . تلقت أمريكا الذات الأسبانية من خلال إقليم الأندلس على أساس أن هذا الإقليم يمثل المضمون الأكثر نقاء لما هو أسباني وما هو أصيل وبالتالي فهو المضمون الشامل". وبالنسبة للسمات الأبرز في الحياة في أسبانو أمريكا وهي التباهي والطلعة وسمة "البهوية" والنفور من البخل والسخاء وحسن استقبال الضيف والشعور بعظمة النسب ومتعة الحياة؛ هذه كلها، طبقا للكاتب الباسكي، ذات أصول اندلسية: "يمكن العثور على هذه السمات مبعثرة هنا وهناك في أقاليم أسبانية أخرى، لكن عندما نبحث عنها كلها في حزمة واحدة لا يمكن أن نجدها إلا في إقليم الأندلس".

اكتشف خوسيه ماريا سالباتيرا، ذلك الكاتب الذي كان يعرف العالم الجديد كما لم يعرفه أحد من أبناء جيله، الطابع الأندلسي العميق لأسبانو أمريكا، ولابد أنه قد وجد ما يؤكد صحة نظريته إذا ما كان قام بالمزيد من الرحلات، إضافة إلى التي قام بها، تلك الرحلات التي أصبحت سهلة إلى الأماكن البعيدة في الأنديز يفضل السفر جوا. وربما يحدث الشيء نفسه بالنسبة لأهل جيله أو الجيل اللاحق له من الذين كتبوا صفحات مهمة تتعلق بتجربتهم الأمريكية بعد أن قلصوها على بلادهم مثلما هو الحال عند رامون دل بابيّ انكلان وخوسيه أورتيجا إي جاسيت.

يحكى لنا الفونسو رييس كيف أن السيد/ رامون دل بابي إنكلان قرر في واحدة من شطحاته المعهودة السفر إلى المكسيك، حسب قوله، لأن المكسيك لفظة فيها حرف X؛ ثم يعلق الكاتب الأمريكي في هذا[2] المقام ردا على أونامونو الذي كان يرى هذا الرأي،: "آه أيها الحرف x يا حرفي، الصغير في حد ذاتك لكنك الكبير إذ تنظر إلى الجهات الأربع: كنت

---

(١) "الغزاة: الأصل البطولي لأمريكا" مدريد، ١٩١٨م، ص٢٣ وما يليها.

(٢) "ميول واختلافات"، المكسيك ١٩٤٥م، الطبعة الثانية، ص٥٨.

ملتقى الاتجاهات! وفيما بعد، فمن خلال كافة أعمال بابيّ إنكلان اعتقد أنني أرى حرف x من Méjico ينتشر هنا وهناك وكأنه تذكار ملحاح!". وهذا ما حدث بالفعل إذ تندلع المكسيك من خلال هذا الطرف الموجود في وسط الكلمة ولا يقتصر ذلك على وجودها في أعمال السيد رامون دل بابيّ إنكلان بل فيها نفسها وفي حياتها وفي أكثر سماتها الحميمة فنيا وروحيا ذلك أن هذا البلد يعتبر ابن إقليم الأندلس ولكن بطريقة معينة خاصة خلال القرن الثامن عشر، وهذا الإقليم هو "ملتقى الاتجاهات" x الذي اندلع في العالم القديم وذلك من خلال طول أذرعه والقوة الحيوية التي تضمها بنيته.

من يسافر إلى إقليم الأندلس يجد نفسه حائرا بين الكثير من الأمور المثيرة للإعجاب فبأيها يعجب أكثر، هل يعجب بكثرة الأصداء التي يجدها هناك أو وبتنوع الروافد التي يتلقاها والقادمة من أماكن بعيدة ومتنوعة من مختلف أرجاء الكرة الأرضية، أو بالنجاح في الجمع بينها وتمثلها. هناك في إقليم الأندلس، وخاصة في الفن، مركز ثابت رسا على الأرض وعلى مرفأ الحياة، لكن هناك أيضاً شوق وحنين ووعد بالبعد، وطموح للأخوة والأبوة وهنا يتساءل المرء عن السبب الكامن وراء هذه الرغبة في التوسع في الوقت الذي تنتهي فيه الأرض في الغرب Occidente.

لا تقدم الأراضي القريبة في أفريقيا الإجابة على هذا ذلك أن مضيق جبل طارق - خلافا لما جرى عليه القول - يفصل بين عالمين مختلفين في جوانب كثيرة: إذ هنا أرض يتلاشى فيها ما هو شرقي وأرض أخرى يتركز فيها ما هو غربي ويكتسب قوة. أما الإجابة على هذه القضية فهي بعيدة، إذ نجدها عل الشاطئ الآخر من الأطلنطي: في أمريكا ابنة الأندلس.

XIX- المكسيك والشعور بأنها أسبانيا الجديدة

كانت أسماء البلدان التي قام الغزاة بوضعها للأراضي الأمريكية الجديدة عبارة عن استجابة لعادة شديدة القدم بين الشعوب المُستعمرَة انطلاقا من تطبيق مفاهيم ربط ذهنية في العقل البشري. لكن ليس هناك من بين الأسماءَ الكثيرة من شبه جزيرة أيبيريا التي أطلقت على أراضي العالم الجديد، ابتداء من مسمى "الجزيرة الأسبانية، أو الأسبانيولية"، اسم يتوافق مع الإيقاع الحيوي وصدق المشاعر إلا اسم "أسبانيا الجديدة" الذي أطلق على المكسيك.

إنه لأمر مهم ومثير للشجن أن نشهد بوادر هذه الأحاسيس الشجية من خلال الصفحات الخشنة الأسلوب التي سطرها الجندي - كاتب الحوليات برنال دياث دل كاستيوّ، والتي تعتبر شهادة صادقة على التجربة التي عاشها الغزاة. كان هناك رد فعل تلقائي، لا مناص منه، عندما شاهدت الأعين الأوربية لأول مرة "سلسلة جبال نيفادا" ومنازل وحقول ومدينة وبالتالي فهذه جغرافية تستدعي إلى الذهن جغرافية شبيهة بها في شبه جزيرة أيبيريا، ثم يأخذ اسمها آفاقا جديدة وينتشر على لسان الدخلاء لاستيعاب الظاهرة الجديدة التي سرعان ما اعتادوا عليها من جراء ربط أوجه الشبه.

الأمر لم يكن قد أتى إذن بناء على وجوه شبه خارجية وإنما نبع في الأساس من خبرات حيوية محددة وعميقة - يتم التعبير عنها من خلال حدس موجز، ويتم تسجيلها من خلال نفحات لونية حية. عندما دخل جنود إيرنان كورتيس بلدة ثيمبوال Cempoal تعجبوا لأنهم لم يروا أكبر من هذا "ولما كانت البلدة بها الكثير من المساحات الخضراء ومأهولة بالرجال والنساء، والشوارع مزدحمة كما هي عادتنا في مشاهدتها تقدمنا بآيات

الشكر لله "[1] ثم يواصل برنال دياث قائلا "جعلونا نقيم في مساكن جيدة جدا وكبيرة حيث اتسعت لنا جميعا، وقدموا لنا الطعام ووضعوا أمامنا سلالا من البرقوق، إذ كان موسمه، وخبزا مصنوعا من الذرة، ولما كنا جوعى ولم نر مثيلا لهذا حتى ذلك الحين أطلقنا على تلك البلدة اسم Villaviciosar ، بينما أطلق آخرون مسمى إشبيلية" كانا اسمين يكادان يكونان متماثلين ذلك أن ليست هناك مدينة أخرى تعلو على أشبيليه من حيث جمالها و "دعتها" viciosa .

وبعد ذلك عندما اتجه الجنود صوب المناطق الجبلية الباردة والوعرة صوب المكسيك طفر إلى أذهانهم نوع من الصدى المتعلق بالقرى والأراضي في شبه جزيرة أيبيريا "عندما رأينا اللون الأبيض يكسو الكثير من الأسطح ومنازل القائد وكذا المعابد المكسيكية Cues والمصليات adoratorios في المناطق الجبلية الشديدة الارتفاع بدا كل ذلك شديد الشبه ببعض البلدان في أسبانيا بلدنا فأطلقنا عليها اسم "قشتالة البيضاء" ذلك أن بعض الجنود البرتغاليين قالوا إنها تشبه "القلعة البيضاء" في البرتغال، وعلى هذا أطلق عليها هذا الاسم" . ما ورد في ذاكرة برنال دياث الرائعة كان حقيقيا، عندما أخذ يسطّر في جواتيمالا قصته بعد ما يقرب من نصف قرن على معايشته الأحداث: "والآن، فإن ما أكتبه، يتجلى أمامي بالكامل وكأنه حدث بالأمس"[2] . كما تبدو كذلك حاضرة أمام نواظر القراء إذ يجري تبييض الحوائط بالجير في تلك القرى المكسيكية .

هناك أيضاً صورة أكثر تحديدا وذات طابع شخصي نقلها لنا مكتشف Cholula نفسه، ألا وهي روما المكسيكية، التي كانت تحتوي على ثلاثمائة وستين teocallis أو دارا للعبادة مثلما كان يمكن أن يكون بها العدد نفسه من الكنائس بعد ذلك. ترك الجيش الصغير العدد التابع لكورتيس الجبال وراءه واتجه صوب الهضبة متخذا طريق تلاسكالا Tlascala إلى المكسيك، وهناك تم اكتشاف بلدة Cholula تشولولا التي كانت "بلدة كبيرة ومحصنة تحصينا جيدا للغاية وبها معابد مكسيكية كبيرة ومرتفعة في الوادي وكانت تبدو من بعيد شبيهة في هذا المقام ببلد الوليد في قشتالة القديمة" . وهنا ليس هناك أجمل من

---

(١) العمل المشار إليه، الفصل LXI ، الطبعة المشار إليها، ص٥٣ .

(٢) العمل المشار إليه، الفصل LXXXVIII ، الطبعة المشار إليها، ص٨٤ .

هذه العبارات في المقارنة عندما يتم الإطراء على المدينة القشتالية التي يعرفها برنال دياث جيدا حيث أنه من مواليد "مدينة دل كامبو" m. del Campo.

هناك الكثير من الإشارات إلى أقاليم أو مدن في شبه جزيرة أيبيريا ويمكن ذكرها في هذا المقام في الصفحات التي كتبها ابن مدينة دل كامبو العظيم وكذلك من كتاب الحوليات الخاصة بغزو المكسيك. هناك مقارنات شبيهة أيضاً في الحوليات الخاصة بأراض أخرى في أمريكا، حيث جرى تعميدها بإطلاق أسماء من شبه جزيرة أيبيريا عليها: قشتالة الذهب، والأندلس الجديدة، وغرناطة الجديدة وقشتالة الجديدة وطليطلة الجديدة وإكستريمادورا وريوخا وجليقية الجديدة... الخ لكنها لم تكن إشارات تتسم بهذه الكثرة والثراء مقارنة بالحالة المكسيكية، وكان هذا منذ تلك الأيام التي قام فيها جنود حملة جريخالبا Grijalva بالإبحار على متن مراكبهم على شوائط يوقطان Yucatan ورأوا هناك شيئا مرتفعا وكأنه سراب "بلدة كبيرة مثل مدينة أشبيليه، لم تبد أنها أكبر أو أفضل، وكان يرى برج كبير بها" ولا شك أن هذه صورة أمريكية طبق الأصل من الخيرالدا.

لا يتعلق الأمر بوجود شبه وربط اعتباطي ونابع من الصدفة المحضة؛ ففي إطار الشعور بأسبانيا الجديدة نجد أن قوانين الربط بين الأشياء تلعب دورها في ذهن الإنسان بشكل مكثف ومضطرد حيث تقوم بربط وجوه الشبه المختلفة حتى تتمكن من رسم ملامح صورة متسقة تجعل من هذا البلد الجديد المكتشف حميما إلى نفس الذين وصلوا إليه حديثا وتصوّره في القلب والشعور بأنه وطن جديد وصورة طبق الأصل من القديم. وفي هذا المقام نجد إيرنان كورتيس نفسه يشير إلى هذه المشاعر التلقائية والعامة في كتاباته ويبثها بين مواطنيه ويكتب للإمبراطور في "الخطاب الثاني": فيما يتعلق بما رأيته وأدركته من وجوه الشبه الكثيرة التي تربط هذه الأرض بأسبانيا وبأشياء كثيرة فيها بدا لي أن الاسم الأكثر ملاءمة الذي يمكن إطلاقه على هذه الأرض هو أسبانيا الجديدة على البحر المحيط. وعلى هذا فباسم جلالتكم تم إطلاق هذا الاسم. وأتضرع لجلالتكم التكرم بالموافقة على أن يكون الاسم على هذا النحو.

صدر أمر، يطبق أيضاً على الأسباني الذي يأتي إلى المكسيك Méjico، بعد قرن ونصف على تطبيق هذه التسمية، بأن يلغي إطلاقها بعد أن جرى استخدام هذه التسمية،

بشكل دائم في اللغة الرسمية واللغة الخاصة، من قبل أهلها ومن قبل الغرباء، على مدار ثلاثمائة عام. ليس أمرا فيه صلف أو شديد النعرة الوطنية بل هو أمر حميم ورقيق ويكاد يكون فسيولوجيا. أخذت أمعاء الرحالة تتلوى ابتداء من اللحظة التي تدخل فيها الطائرة في الأراضي المكسيكية مخلفة وراءها الشاطئ بالقرب من بيرا كروث Vera Cruz . ومنذ أن أقلعت الطائرة من هافانا لم يحدث أي شيء يذكر في هذا المقام أثناء طيرانها فوق البحر أو فوق الأراضي الوطيئة في يوقطان، غير أنها عندما بدأت الصعود نحو القصر الجبلي الذي تقوم عليها العاصمة القديمة Anahuac، باغتت الأحشاء حركة شديدة. ومما لاشك فيه أن هذه الجبال العالية التي كانت تمر فوقها الطائرة ربما تبرر ذلك، لكن مرتفعات الأنديز كانت الأقوى في أمريكا الجنوبية، كما أن الرحالة طار فوقها مرات عديدة على متن طائرات كبيرة وصغيرة دون أن ينعكس ذلك على مشاعره.

وبغض النظر عن الأسباب العلمية التي يبحثها علماء الجغرافيا وعلماء الفلك يبدو من البدهي أن بعض البلدان تصدر عنها موجات غامضة تؤثر على بعض الناس من ذوي البنية الجسدية الحساسة. وتعتبر أسبانيا واحدة من الدول البارزة في مثل هذا الأمر؛ فوديانها التي أصابها النحر وجبالها الشماء hirustas ترتفع إلى عنان السماء وتؤثر على طبقات الغلاف الجوي بالارتفاعات أو الانخفاضات والضغط الأمر الذي يجعل المرء يشعر بالأرض قبل أن تطأها قدماه: ولا يتعلق الأمر فقط بسطح الأرض بل بشيء أكثر عمقا وحميمية، وهو شيء يمكن أن يرتبط بالجيوبوليتيكا وبفلسفة التاريخ أكثر من ارتباطه بالجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة. هناك جمارك غامضة في المرتفعات حيث تحذر الزائر المستغرق في قراءاته أو في أحلامه حيث انتهى للتو من عبور حدود البلاد الأكثر إثارة للحركة في الغرب الأوروبي، وتجعله يشارك في هذه الهزة التي تصدر على مدار آلاف السنين سواء عن الطبيعة أو التاريخ.

يحدث شيء شبيه لمن يعبر حدود المكسيك، والأمر هو أن طبقات الهواء غير المستقرة وكذلك الموجات الأرضية التي تصدر تجعله يستحق الدخول في هذا البلد الذي أطلق عليه أسبانيا الجديدة، ورغم تجاوز سلاسل الجبال المرتفعة والطيران فوق الهضبة المكسيكية لا يتوقف هذا المشهد الخاص بالمرتفعات أو انعكاسه على الطائرة. ولا يتعلق الأمر بسلاسل مستمرة بل بجبال منعزلة عن بعضها مقطوعة بشكل هندسي تحت عباءتها

الجليدية حيث تشكل حول العاصمة المكسيكية واحدا من المشاهد البركانية الرائعة فى أمريكا كلها وما يشبه هذا هو المنطقة المحيطة بكيتو.

لكن الوضع في حالة المكسيك هو أن المشهد أكثر إثارة لأنه يتبدى مضاعفا من خلال مساهمة الإنسان. وتنضم إلى الأهرامات الجيولوجية الكاملة أهرامات أخرى، أكثر مراعاة للخطوط الهندسية وقد شيدت وكأنها قواعد لدور العبادة وتتفوق بعضها على أكبر أهرامات مصر. كما أنها أكبر منها في البعد الدرامي ذلك أن المفهوم الأسطوري الذي ترمز إليه، والذي كلف الإنسانية الكثير في مختلف الجوانب، لا يسيطر بشكل تجريدي على واد صحراوي بل يتسم بإضفاء قوة يتمثل في الأشكال الطبيعية الضخمة، وربما لهذا السبب، ومن خلال جهد خارق للوصول إلى هذه السمة المقدسة جرى ريّ الجبل الأسطوري بالكثير من الدماء البشرية.

يتأتى عن تأمل هذا المشهد الطبيعي العظيم وكذلك اللقاء المثير مع تلك الآثار التي تعتبر أيضاً أمرا فريدا في باب الأضحيات الطقسية في تاريخ الأديان إحساس بالاضطراب لدى الرحالة الذي يقترب من العاصمة المكسيكية، ومع هذا نجده سرعان ما يهدأ عندما تطأ قدماه الأرض. هناك انطباع جيد من خلال أول لقاء مع الطقس المحيط، ورغم أننا في شهور الشتاء كانت الحرارة لطيفة، ويبدو أمرا مثيرا أن كلا من برنال دل كاستيو وإيرنان كورتيس أبرزا البرودة في تلك البلاد وكأنها واحدة من سماتها الجوهرية والمميزة. قبل ذلك كان الرحالة الذي يصل إلى تلك البلاد بعد أن مَرّ بأمريكا الجنوبية والكاريبي يواتيه الانطباع بأنه يعود المناخ الذي اعتاد عليه في أرضه.

وخلاصة القول، أن التجربة التي خاضها إيرنان كورتيس وجنوده لم تكن مختلفة رغم أنهم عاشوها بشكل شديد الاختلاف عن مواطن يعيش في أيامنا هذه حيث يسافر إلى المكسيك بعد أن قضى عدة أسابيع في الأنتيل ولم يقض سنوات طويلة مثل تلك التي قضاها معظم المستكشفين. وفي هذا كتب برنال دياث[1] يقول: "لما أتينا من جزيرة كوبا من بلدة بيَّاريكا (أي بيراكروث) وكان تلك الشطآن جميعها مرتفعة الحرارة جدا، ثم دخلنا منطقة باردة لكن لم يكن لدينا ما نلتحف به غير أسلحتنا، فشعرنا بالبرد الشديد فلم نكن

---

(١) المصدر نفسه، الفصل LXI، الطبعة المشار إليها، ص٥٣.

معتادين على البرد". شعرت بالبرد أيضاً الخيل التي كنا نمتطي صهواتها[1] - ذلك أن جوادين أصيبا بنزلة معوية وكانا يرتعدان، مما سبب لنا الشعور بالحزن الشديد خوفا من أن يموتا. وعندئذ أمر كورتيس أن يعود الخيّالة بهذين الجوادين إلى المخيّم من أجل علاجهما".

كانت الحيوانات الخمسة عشر، بينهم أحصنة ومُهرات، التي كنت تضمنها حملة كورتيس أكثر جرأة من الجنود، ولذلك كانت تحظى بعناية بالغة. أضف إلى ذلك أن الخيل أخذت تتأقلم على الأجواء الحارة في الأنتيل بشكل أفضل من الرجال، فرغم أنها كانت تتألم من المعاناة الناجمة عن البرد الذي عانت منه في الجبال المكسيكية، أخذت أجسامها تتأقلم عليه وتعود إلى المناخ الذي تربت فيه. كان الجنود مدفوعين بغريزة بيولوجية عمياء، حيث اتجهوا إلى أعلى الجبل في طريق متعرج نحو مرتفعات أناهواك Anahuac، وهي منطقة كانت تقدم لهم مناخا شبيها بمناخ الوطن وليس بسبب درجات الحرارة بل بسبب الارتفاع.

فضل الأسبان، بسبب نزوعهم إلى العادات القديمة إضافة إلى ملاءمة درجات الحرارة والبعد الاجتماعي، العيش في مناطق الهضاب الأمريكية وخاصة تلك التي توجد في المكسيك حيث كانت هي الأقرب في الشبه بالهضبة الوسطى في شبه جزيرة أيبيريا، وفي هذا السياق لا يتعدى ارتفاعها ٢٢٠٠ مترا فوق مستوى سطح البحر، بينما يبلغ ارتفاع المنطقة الجبلية في كوثكو حوالي كيلومتر إضافي فوق مستوى سطح البحر، ثم بوتوسي بزيادة كيلومترين. هناك مدن في أمريكا تقع في مناطق أقل ارتفاعا في أمريكا الجنوبية، مثل كيتو وسانتا في دي بوغوتا تتجاوز المناطق الهضبية في المكسيك بزيادة قدرها ٦٠٠ و٢٠٠ مترا على التوالي. هناك خط العرض فهو بدوره سبب آخر يزيد من وجه الشبه بين الهضبة المكسيكية والهضبة القشتالية، ذلك أن مدار السرطان يقسمه إلى نصفين، بينما نجد أن المرتفعات في كل من البيرو وبوليفيا تقعان بالكامل في المنطقة الحارة. وفي نهاية المطاف تجدر الإشارة إلى وجه آخر من وجوه الشبه يرتبط بسعة الأفق، أي "عظمة" الأرض طبقاً للعبارات التي استخدمها إيرنان كورتيس.

---

(١) المصدر نفسه، الفصل LXVIII، الطبعة المشار إليها ص٦٠.

لا يتفق الجغرافيون المحدثون مع الرؤية التي تحدث عنها ألكسندر فون همبولت عن الهضبة المكسيكية وأنها متسقة بشكل يزيد عن الحد؛ فهم يرون أنها تضم عدة أقاليم مختلفة بوضوح فيما بينها على أساس التضاريس الجغرافية. إلا أن الرحالة الذي سار إثر خطوات الجغرافي الألماني الكبير في القارة الجديدة يتوصل إلى النتائج نفسها التي توصل إليها سابقه حيث تقوم هذه الأخيرة أيضاً على تجربة رحّالة. وإذا ما تم استثناء المرتفعات البوليفية في أمريكا الجنوبية التي لم يقم همبولت بزيارتها والتي لم تدخل في دائرة وصفه لوجدنا أن المرتفعات الأكبر مساحة في هذه المنطقة عبارة عن وديان مستعرضة يصل عمقها أحيانا إلى ١٤٠٠ مترا وكانت بذلك تعوق سفر السكان اللهم إلا إذا كان ذلك على صهوة جواد أو سيرا أو أنهم محمولون على أكتاف الهنود الذين يسمون بالحمّالين. "في المكسيك، كان الأمر عكس ذلك، إذ كان ظهر الجبل هو الذي يشكل الهضبة، ومعنى هذا أن مسار المنطقة المرتفعة هو الذي تحدده السلسلة الجبلية"[١]. وبذلك لم تكن هناك عقبات مهمة تحول دون سير العربات من العاصمة حتى" سانتا في" في محافظة المكسيك الجديدة والواقعة على مسافة ٢٢٠٠كم.

وانطلاقا من منظور الجغرافيا البشرية يصف همبولت هذه الاستمرارية التي عليها المرتفعات في بوجوتا أو كيتو أو كاخاماركا Cajamarca، حيث لا يتجاوز أي من هذه المرتفعات مساحة ٤٠ فرسخا مربعا وهي عبارة "عن جزر وسط المحيط الجوي"[٢]. لا نستغرب إذن أنه كان يجب على هذه المنطقة أن تنتظر شيوع النقل الجوي للخروج من عزلتها الإجبارية. كما أن الرحّالة لا يشعر أيضاً بهذا النوع من الانفراجة عند وصوله إلى المكسيك وتمكنه من ترك وسيلة مواصلات إجبارية للغاية من أجل التنقل في أسبانوأمريكا ليسلم نفسه لمتعة التجوال في الحقول المكسيكية الواسعة على الأرض السهلية.

يبدو أن الأرض المكسيكية أكثر انخفاضا مما تبدو عليه في الواقع، إذ يبدو أن جبالها المرتفعة التي يكسوها الثلج الدائم تطل من سهل يقع في المنطقة الدافئة، ومن خلال خلل في منظور رؤية عين الرحالة يرتفع هذا "بسبب تأثير جمال المنظر"، وهذا ما تذكره همبولت

---

(١) "مقال سياسي حول مملكة أسبانيا الجديدة" الطبعة السادسة، القشتالية، المكسيك ١٦٤١ الجزء الأول ص٣٤٨. "كوزموس" ترانس، لندن، الجزء الخامس ١٨٥١م، ص٤٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٠.

بانفعال علي صفحات كتابه "كوزموس"[1] بعد أربعين عاما على تطوافه بالمكان. إنه انطباع طيب خادع وهو انطباع يساعد الأسباني على التأقلم على الجغرافيا المكسيكية. المناطق المرتفعة في أسبانيا الجديدة أكثر ارتفاعا من الهضبة الوسطى في أسبانيا، وهي أكثر بروزا في الأفق وأكثر قوة وكأنها تتوعد من خلال أسلوبها البركاني أيضاً. غير أن الذي يسير في الطريق الفاصل بين بركان بوبوكابتتل Popocatepetl وإكستاكسيهواتل Ixtaccihuatl والمؤدي من المكسيك إلى بويبلا دي لوس أنخلس مرورا بـ شولوتا، يخرج بانطباع يشير إلى أن ذلك المشهد الرائع ما هو إلا أعلى تجلّ للمشهد في أيبيريا، لكن لا يدري أيها، أو عدد منها أو كلها، وكأن كل هذه المشاهد محصلة ريشة فنان عبقري.

كما أن الضوء الذي يكسو المكان، وهي الشمس التي تلف كل شيء، يقوم بصهر التضاريس الخاصة بالمشهد ويتولى إدخالها إلى ذهن المُشاهد. هناك المناطق الجليدية والسهول المزروعة والمنازل حيث تبدو وقد وجدت بينها القبة السماوية الشديدة الزرقة دون أن يؤثر ذلك على رؤية من يشاهد المكان جزءا جزءا والسبب هو أن الموجات الضوئية تدخل خلسة إلى عينيه. ويمكن للرحّالة كذلك أن يرى الشيء نفسه الذي رآه الفونسو رييس الذي غنى للشمس هناك في مونتريّ Monterrey:

كانت السماء زرقاء؛
والبيت كله من ذهب.
كثير من ضوء الشمس
يدخل إلى العيون!
وعمق البحر في الأمام،
حيثما اتجهتُ،
رغم أن هناك سحب في العمق،
آه كم تثقل الشمس عليّ!
آه كم من الألم الذي يحدثه في الداخل
هذا الصهريج الشمسي،

---

(١) كوزموس، الطبعة المشار إليها، الخامسة، ص٤٠٥.

الذي يرحل معي[1].

يبدو ضوء الشمس في المكسيك – سواء في الصباح أو في منتصف النهار أو عند المساء – في نظر الأسباني الذي يعيش في قشتالة، وكأنه عنصره الخاص به، رغم أنها أقوى درجة، وأحيانا أخرى، يواتيه الإحساس بأنه ينظر إلى الضوء عندما يكون الارتفاع أقل وينعكس الضوء على حوائط المدن الناصعة البياض، وكأنه واحد من هذه الأسماك القادرة على العيش في الأنهار والبحار، وأنه انتقل ليعيش في وسط أكثر كثافة وملوحة. غير أنه عندئذ، أي عندما تصبح أشعة الشمس صافية في ميادين بويبلا وتنعكس على الواجهات الباروّك الرخامية أو ينعكس الشعاع على الزليج ذي الأصول القادمة من بلدة طلبيرة بمنازلها، فإن الشبه الطبيعي بما هو في شبه جزيرة أيبيريا يبلغ مستوى الشبه الروحي.

في المكسيك نجد أن بلدة بويبلا دي لوس أنخلس هي مدينة الأبراج والقباب حيث أسطحها مغطاة بالزليج الذي يتلألأ تحت ضوء الشمس مشكلا نوعا من المعزوفة اللونية حول الكتل المستديرة المتقشفة المتراكبة التي تشكل جسم الأبراج العالية – على الطراز الهندسي لإيريرا Herrera- للكاتدرائية المشيدة من كتل حجرية "ذات لون يميل إلى زرقة الأسكوريال" طبقا لمقولة أحد المطارنة. وفي كل مكان يجري اكتشاف وجود جو مألوف عبارة عن ملامح فنية أو مشغولات يدوية مثل التي توجد في إسبانيا. ولا يقتصر الأمر على الكاتدرائية بل في كل واحدة من الثمانين كنيسة ذات الحجم الكبير التي توجد في المدينة، وفي الصحون المغطاة بالزليج في المستشفيات وفي الأسقف الجصية المنحوتة والمدهونة في المصليات وفي الواجهات الباروّكية التي تجمع بين الضوء والظل وفي البوائك الظليلة التي تفوح منها رائحة القنب.

الأمر تحديداً هو هواء الحميمية والأسريّة الكبرى لكنها أسرية لا يترتب عليها تبعية أو تدهور في المدرسة الكولونيالية أو عاصمة إقليم، فلقد أصبح جذع الشجرة الأسرية أكثر نبلا من خلال الثمار الواردة من أعالي البحار، ذلك أن الموضوعات الكبرى

---

(١) ألفونسوربيس "الأعمال الشعرية" المكسيك ١٩٥٢م، ص١٢١.

والأساليب ذات الأصول المتعددة التي تلتقي عند ذلك الجذع تتجلى في المكسيك وهي تحمل حرية جديدة لكنها تحتفظ بنمطية إسبانية لا تمحى، رغم أنها لا تحمل أي طابع ذي نَعرة قومية منفرّة.

وهنا ليس بمستغرب أن يتولد لدى زائر تلك الأصقاع الطبيعية والحضرية الانطباع الحقيقي بأنه يجد نفسه في "أسبانيا جديدة".

XX- من الاسترداد Reconquista إلى الغزو

يتسم الإحساس "بأسبانيا الجديدة في البحر المحيط" بسمات أساسية مختلفة عن ذلك الذي كانت عليه دول أوربية أخرى عندما بدأت - بعد وقت طويل بعد مجئ الأيبيرين - في إطلاق مسميات على أقاليم موجودة في أمريكا الشمالية مثل "فرنسا الجديدة" أو "هولندا الجديدة" أو "إنجلترا الجديدة". فالأمر في هذه الحالة عبارة عن أراض تقع على الشواطئ وعلى نفس خط العرض تقريباً الذي عليه القارة العجوز حيث أنها أقرب إلى موانيها وذات مناخ شديد الشبه بما هي عليه كما أنها غير مأهولة بالكثير من السكان، حيث بدت في هذه الحالة وكأنها تنتظر الإنسان الأوربي لتنعكس عليه ملامحها وكأن صورتها تنعكس في المرآة.

لكن شعوب شمال القارة العجوز لم يتقدموا بسرعة لتطل وجوههم في المرآة الجغرافية ولم يفعلوا مثلما فعل الأسبان في أسبانيا الجديدة بما في تلك المرآة من تقلبات. وحتى عام ١٦١٤م لم يكن قد أطلق على الإقليم اسم "إنجلترا الجديدة"، الذي دشّنه الكابتن جون سميث، أثناء قيامه برحلة استطلاعية فيه لصالح "شركة تجار فيرجينيا" C. Mercaderes de Virginia. وفي عام ١٦٢٠م، أي بعد قرن من الزمان على وصول كورتيس إلى المكسيك، قام من أتوا "Mayflwa" بتأسيس أول مستعمرة دائمة في البلاد. وبعد ذلك بأربع سنوات - ١٦٢٤م - بدأت المستعمرة الهولندية الأقدم أولى خطواتها في "هولندا الجديدة"، لكن عندما انتقلت إلى يد الإنجليز المدينة الأكثر أهمية، وهي نيويورك الحالية، لم يكن تعداد سكانها يتجاوز الألف وخمسمائة نسمة بعد أربعين عاما على وجودها.

وقبل ذلك التاريخ بعشرين عاما كانت الإقامة الدائمة لفرنسا في كندا، في "بورت رويال" عام ١٦٠٤م، ثم تأسست كيبك بعد ذلك بأربع سنوات. غير أنه في عام ١٦٦٠م،

أي بعد ثلاثين عاما على بداية المستعمرين التابعين "لشركة فرنسا الجديدة" لم يكن في كندا بكاملها أكثر من ألفين من الفرنسيين، وهذا رقم أقل من الأرقام التي بلغها عدد أفراد بعض الحملات التي خرجت من ميناء نهر الوادي الكبير في بداية القرن السادس عشر.

كان من الممكن لموجات المهاجرين المكثفة التي كانت تخرج بانتظام من مصب النهر الباطقي (نهر الوادي الكبير) خلال النصف الأول من القرن السادس عشر أن تتوجه نحو الشواطئ الشمالية في العالم الجديد بغية تأسيس أسبانيا الجديدة هناك على طريقة أسلوب تأسيس إنجلترا الجديدة أو فرنسا الجديدة مثل تلك التي سوف تظهر بعد ذلك بقرن من الزمان، ذلك أن هذه الأرض كانت معروفة بوضوح لدى البحارة الأيبيريين منذ وقت مبكر؛ ففي عام ١٥٢٦م قام لوكاس باثكيث دي أيلون بتأسيس مدينة تسمى سان ميجل في الموقع الحالي الذي توجد فيه جيمس تاون Jamestown في إقليم فيرجينيا، حيث كانت المكان الأول للإنجليز على الشاطئ الأمريكي؛ وفي وقت شبه متزامن تمكن البحار البرتغالي استيبان جومث الذي كان في خدمة التاج القشتالي من اكتشاف مصبات أنهار كونكتيكوت connecticut وهاديسون وديلاوير Delaware.

فشلت الحملة الأولى بموت قائد المستعمرة، وبالنسبة للحملة الثانية عاد القائد منها بعد عشرة شهور من سفره دون أن يترك هناك مقرّ إقامة دائم رغم أنه عثر "على أرض خصبة طبقا لخطوط الطول والعرض التي نحن عليها" وهذا ما قاله بدرو مارتر دي أنجليريا[١]، كانت أرضا سهلية للغاية "وكان فيها أشجار صنوبر والكثير من أشجار السنديان من تلك التي تثمر agallas والسنديان الذي يثمر البراعم وأشجار العنب البري والقسطل والفواكه الصغيرة والصفصاف والبوص الذي يوجد في البراري الأسبانية والجوز والتوت والتوت الأسود و Zerbos ونبات الغار والكثير من السماق zumaque ونبات المروحة palmito مما هو في أسبانيا كما أنه من نوع جيد للغاية". كما طاف رجال الحملة التابعة لإيرناندو دي سوتو بأقاليم كثيرة توجد في الجنوب الشرقي لأمريكا الشمالية الحالية وكذا حوض نهر المسيسبي، حيث وجدوا نباتات شبيهة. غير أنه نظرا للعثور على منتجات طبيعية من تلك المألوفة لديهم قلل من أهمية هذه الاكتشافات والسبب، طبقا

---

(١) "عن الأفق orbe الجديد". Dec، الثامن، الفصل العاشر.

لبدرو مارتر، هو "ما هي حاجة الأسبان لأشياء تعتبر شائعة بين الأوروبيين؟". وكان على المستكشفين أن يرحلوا صوب الجنوب ويبحثوا عن الثروات الموجودة في منطقة الاعتدال الفلكي وبعيدا عن البرد الموجود في الشمال".

لم يكن من الممكن أن يحوز اهتمامهم حيازة الأراضي التي تحتاج الكثير من الجهد بل الأرض المزروعة جيدا والمأهولة بالسكان في المكسيك والبيرو، فهي في الوقت الذي تقدم فيه الكثير من العناصر لإقامة البيض سرعان ما يتحول كل شيء فيها إلى حقيقة، من خلال موقعها الجغرافي المتميز وثرواتها، طبقا لخيال كتب الفروسية. كان ذلك هو الانطباع الذي كان عليه جنود كورتيس، طبقا لما كتبه برنال دياث دل كاستيو، عندما اقتربوا من عاصمة أنا هواك Anahuac: "ومنذ أن رأينا الكثير من المدن والبلدات المشيدة في المياه وعلى اليابسة، هناك الكثير من البلدات وكذا ذلك الطريق المستقيم المعبّد مثل ذلك المؤدي إلى المكسيك شعرنا بالإعجاب وكنا نقول إنها تشبه تلك الأشياء الجميلة التي كان يتحدث عنها كتاب الفروسية "أماديس دي جاولا" مثل الأبراج العالية ودور العبادة الهندية ومبان أخرى مقامة داخل المياه وكلها مدهونة بالجير ومشيدة بالحجارة وكان بعض جنودنا يقول بأن ذلك الذي يراه كان حلما"(١).

الأحلام التي تتحول إلى حقيقة هي تلك الأمور التي بمقتضاها يستطيع الرحّالة الأسبان أن يستقروا، وطالما لم يحدث ذلك فإنهم لن يكلوا من التجوال في الأرض وكثيرا ما يخلفون وراءهم الدمار وخيبة الأمل مثلما حدث ذلك بالنسبة لرجال الحملة التي يقودها إيرناندو دي سوتو، حيث لم "يتوقفوا ولم يرتاحوا أبدا في أي مكان: وأن هذا - طبقا لما كتبه فرناندو دي أوبيدو الذي لا يشعر بالكثير من الرحمة للمصائب التي يعاني منها الهنود - لم يكن عملية توطين أو استعمار وإنما كان إحداث الخراب على الأرض وانتزاع حرية السكان الأصليين وليس تحويل أي هندي إلى مسيحي أو صديق". كانوا يسيرون بلا توقف "حتى يعثروا على مُقام يروق لهم"(٢)، أي مجتمع منظم من السكان الأصليين من أجل الإنتاج وله ثرواته التي كدّسها أو كنوزه التي توجد في باطن الأرض حيث يتم استخدام

---

(١) العمل المشار إليه، الفصل LXXXVII، الطبعة المشار إليها، ص٨٢.

(٢) جونثالو فرناندث دي أوبيدو "التاريخ العام والطبيعي للهند الغربية"، المجلد السابع عشر، الفصل السادس عشر، الطبعة المشار إليها، الثانيةن ص١٧٢.

العمال المدربين من السكان الأصليين. كان ذلك هو الهدف القائم أمام نواظر كافة الأسبان من وراء مغامراتهم وتجوالهم في العالم الجديد، ثم استخدام الإجراء الأكثر سرعة في باب انضمام هؤلاء إلى الثقافة الغربية وتحولهم بذلك إلى عنصر فاعل في تطور تلك الثقافة.

لكن لا يعني هذا أن السيطرة على تلك الأقاليم لم يكلف الكثير من الجهد مثلما حدث من جهد في استعمار المناطق الباردة وغير المأهولة في أمريكا الشمالية. وفي هذا المقام أشار كارلوس بيريرا[1]. إلى أن "نصف الجهد، أو ربما ربعه، الذي كان يبذل في أراضي جنوب أمريكا كان كافيا لاحتلال تلك الأراضي التي تحولت بعد ذلك بقرون إلى مستعمرات إنجليزية. وطبقا لاختيار الأسبان اتضح ما يريدون أن يعمروه، لكن الإمبراطورية كانت قوية الأركان وربما كان من المستحيل تغيير أي شيء. كانت عمليات الاستكشاف في الشمال وكأنها بقايا موجات آتية من الجنوب".

كان ذلك تيارا متأصلا في التاريخ الأسباني، تمثل الأمر خلال العصور الوسطى الأيبيرية بكاملها في عملية انتقال نحو الجنوب بضم أراضي جديدة وفوقها كان يتم إقامة مدن ثرية بالمقارنة بما كان في قشتالة الفقيرة. هناك مشاعر وأحاسيس شبيهة بتلك التي كان عليها جنود إيرنان كورتيس ألا وهي التي كان عليها جنود كونت قشتالة/ سانشو جارثيا، عندما قاموا بعد سنوات قصيرة على مرور الحملة المدمرة التي قام بها المنصور بن أبي عامر، من تحقيق الانتصار برفقة حلفائهم من البربر ودخلوا شوارع عاصمة الخلافة أفضل مدينة في الغرب في ذلك الحين.

لم يكن الأمر مقتصرا على اكتشاف مدن جديدة وأسطورية بل شمل ذلك الأرض التي كانوا يقيمون عليها. وبالنسبة لآخر الأراضي التي تم استردادها في شبه جزيرة أيبيريا، وتحديدا عام اكتشاف أمريكا، نجدها كانت تشمل المقاطعات التي كانت تبدو منتسبة لقارة أخرى. فرغم أن مملكة غرناطة كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت تضم أرضا ومناخا جد مختلفين عما هو معتاد في أوربا فيما وراء جبال البرانس: هناك الوديان الثرية بجوار المرتفعات الشاهقة في شبه جزيرة أيبيريا وهناك الصحراء الجرداء إلى جوار الشريط الساحلي التي كانت تعتبر بداية للمناطق الحارة بما عليها من طقس وما فيها من نباتات. كما أن أهل

(١) "إسهام أسبانيا في أمريكا"، سانتياجو دي شيلي، S.2، ص٧٢.

البشرات Alpujarras يمكن أن نكتشف فيهم وجود إرهاصات لمشاكل ذات طابع ديني واقتصادي واجتماعي . . . الخ وهي المشاكل التي كان سيواجهها الأسبان في الهند الغربية .

كانت طولية للغاية عملية القفز من مملكة غرناطة إلى مملكة غرناطة الجديدة – والمعروفة أيضاً بالاسم الغرناطي وهو أرض القصور – إلى أمريكا الجنوبية وهي قفزة جغرافية، غير أنها من منظور الدينامية التاريخية لم تكن لتشكل إلا خطوة أخرى في الطريق. نعم كان هناك المحيط كحاجز لكن عملية الاسترداد لم تقتصر على كونها حركة على الأرض صوب الجنوب، بل حركة في البحر. فالصراع مع الإسلام الذي كان يسيطر على البحر أجبر الممالك الأيبيرية منذ وقت مبكر على العناية بأمر الإبحار "تطلبت مواصلة عملية الاسترداد – طبقا لريتشارد كوتزكي R. Konetzke[1] ـ التطوير المستمر للقوات البحرية في الدول المسيحية وذلك لغايات هي حماية أجنحة الجيوش في مسارها نحو الجنوب وكذلك من أجل فك حصار المدن الشاطئية، ومن هنا كان من المهم وجود قوات بحرية ذات أهمية".

لا ينبغي أن نشعر بالدهشة من هذا التوجه فعلى مدار قرنين تقريبا، خلال العصور الوسطى كانت هناك قوات بحرية أيبيرية على رأس القوات الأوربية سواء في المحيط الأطلنطي أو في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما أن السفن القشتالية كانت تشق عباب مياه الأطلنطي باقتدار قبل رحلة كولومبوس بوقت طويل، ابتداء من فلاندس وحتى جزر الكناري وغينيا وذلك في إطار رغبة عارمة في جلب ذهب إلى القارة العجوز وذلك حتى ترتوي من العطش للمعادن الثمينة، وكان هذا سابقا على الرحلات التي ستبدأ في أمريكا. كانت هناك رغبة قديمة عند الأسبان لا تتوقف ليشقوا عباب الماء أو السير في الأرض متجهين صوب الجنوب. وعلى هذا فإن "الركن الصغير" الذي كانت توجد فيه مقاطعة قشتالة تحول إلى مملكة قشتالة القديمة وأثمر هذا عن وجود قشتالة الجديدة وغرناطة – قشتالة الجديدة للغاية – وأخذ يتوسع إلى ما وراء الأطلنطي.

نورد في النشرة البابوية Inter Coetera divinae لأليخاندرو السادس، عنوانا رئيسيا للغزو الأمريكي، حيث يلاحظ بقوة وجود العلاقة بين عملية الغزو وعملية الاسترداد

[1] ريتشارد كوتزكي، "الامبراطورية الاسبانية" ترجمة، مدريد ١٩٤٦، ص ٢٣

في شبه جزيرة أيبيريا التي انتهت للتو. كانت الهند الغربية التي منحها البابا تبدو في نظر الشعراء والقضاة والكتّاب بعامة والرأي العام للناس بمثابة الجائزة التي حصلت عليها أسبانيا كمقابل ثمانية قرون من الكفاح ضد المسلمين؛ كما أنها أكبر من كونها تعويضا عن الهزيمة التي منيت بها خلال العصور الوسطى حيث كان ينظر إلى الاستيلاء على الهند الغربية على أنه وسام النصر. ولم تكن النشرة أو البراءة البابوية مجرد جائزة بل كانت عبارة عن الدعوة لمواصلة المسيرة على الجانب الآخر من المحيط والكفاح ضد غير المؤمنين وهذا ما كانت أسبانيا مؤهلة له بفضل قرون الاسترداد التي مرت[1].

لم يكن الأمر مجرد اعتبارات نظرية وتخيلية صادرة عن صفوة من الأقلية، بل إن جنود كورتيس لم يفعلوا شيئا إلا أن يكتشفوا ويبحثوا في كل ركن من الأراضي الجديدة عن منازل موريسكية وعمامات ومساجد وفقهاء. وعندما اقترب رجال كورتيس من "شولولا" خرج لاستقبالهم أناس من المدينة وهم يضربون الطبول والدفوف وكذلك الكثير من الناس الذين رأوهم أنهم بمثابة رجال الدين في مساجدهم وهم يرتدون الملابس التي يستخدمونها ويترنمون على طريقتهم كما كان الأمر في تلك المساجد" وابتداء من اللقاء الأول مع يوقطان Yucatán تولد لدى الأسبان – طبقا لما يقصه علينا برنال دياث دل كاستيو[2] – بأنهم دخلوا على أفريقيا الإسلامية: "شهدنا ونحن في السفن بلدة كبرى التي كانت تبدو من الشاطئ على مساحة فرسخين ورأينا أنها بلدة كبرى كما أننا لما لم نر في جزيرة كوبا بلدة بهذه الضخامة وضعنا لها اسما هو "القاهرة الكبرى".

كان السبب في إطلاق ذلك الاسم واضحا: لم يكن اسم بلدة مسيحية بل اسم بلدة لغير المؤمنين، وغير المؤمنين هم المور والقاهرة هي بلدة كبرى من المورو، ولهذا فإن تلك البلدة الكبرى والغريبة القائمة في يوقطان هي "قاهرة كبرى أمريكية". وحقيقة الأمر هي أن الاستغراب كان نسبيا، ذلك أنه عثر الأسباني في يوقطان أيضاً على بلدة كبرى أطلقوا عليها اسم إشبيليه، ولم تكن هناك فروق كبرى بين إشبيليه أو القاهرة أو غرناطة من المنظور الحضري بالنسبة لجندي بسيط من المشاركين في الغزو؛ أي أن الاتصال طويل الأمد

---

(١) Vid أنطونيو حزبي "الصراع على العالم الجديد" المكسيك، ١٩٦٠ ص١١٩.
(٢) العمل المشار اليه، الفصل الثاني، الطبعة المذكورة، ص ٢.

مع المورو كان بالنسبة للأسبان في الهند الغربية مثار مشاكل مع الغريب وكان أيضاً فرصة لإضفاء البعد النسبي على الأمر وإدراجه بسرعة في الأطار الجمعي.

حمل الإنجليزي إلى العالم الجديد أيضاً هذا الشعور المثير للجدل بشأن الغريب لكن بدرجة أقل فيما يتعلق بإضفاء النسبية عليه وتمثله. وهنا نجد أن أرنولد توينبي يبرز كيف أن مناهج الرعب التي اعتاد عليها الإنجليز في عدوانهم المستمر على بقايا "القطاع السلتي" في هيجلاند Highlands في إسكتلندا وفي مستنقعات إيرلندا حيث ذهبو بهذا العبء على الأطلنطي ومارسوه على حساب الهنود في شمال أمريكا. غير أن حقيقة الأمر هو أن إسكتلندا وإيرلندا لم يكن بهما مدن مثل غرناطة، كما أن الإنجليز لم يكن لديهم الدافع أن يتمثلوا الآخر ويستوعبوه مثلما فعل الأسبان عند السيطرة على تلك المدينة بعد وقت قصير من غزوها والتي كانت مركز الحياة القانونية في النصف الجنوبي لشبه جزيرة أيبيريا وكانت الضريح الجماعي للملوك وأرض أفضل قصر للإمبراطور.

وإذا ما كان هذا الانتقال حدث في حالة غرناطة – وقبلها في كل من طليطلة وإشبيليه - فلماذا إذن لا يتم تمسيح وأسبنة المدن الجديدة المسماة "القاهرة الجديدة في القارة"؟ إذن لا نستغرب أن يشير إيرنان كورتيس في الرسالة "الرابعة" التي سطرها في ١٥/ ١٠/ ١٥٢٤م بقوله، إلى الإمبراطور، أن المكسيك هي "من اليوم وحتى مرور خمسة أعوام سوف تكون المدينة الأعظم والأكثر كثافة بالسكان بين بلدات العالم" وأنه عندما يقومون بإرسال النباتات والبذور من أسبانيا "التي تتواءم مع مناخ هذه الأصقاع فإن ذلك مفيد في زراعة الأرض وجلب الأشجار – مثل الموريسكيين – وهنا "فإن جلالتكم المقدسة سوف تحظى بالكثير من العوائد والكثير من السيادة أكثر بكثير مما لديكم مما حباكم به الله".

لا يجب أن نستغرب أيضاً، واضعين في الحسبان سمات تاريخ أسبانيا خلال العصور الوسطى، أن غزو المكسيك أخذ يتحول فجأة إلى عملية استرداد حقيقي. فقد أعلن موكتيزوما أنه تابع للإمبراطور ويقدم الجزية وقامت، الليلة السوداء" بقطع ممارسة الحقوق التي يخولها ذلك الإعلان، وسرعان ما بدأ كورتيس مهمة استعادة ما فُقد، من خلال عقلية سياسية ومن خلال أسلوب حرب حيث أصبح هذان العنصران بمثابة استمرارية الملحمة الحربية ضد المورو على الشاطئ الآخر من المحيط. ومن الأمور بالغة الدلالة قيام كورتيس

بتأسيس بلدة "سيجورا دي لافرونتيرا" في مكان إستراتيجي يسيطر على طرق الاتصال بين الشاطئ وعاصمة البلاد ووضع لها هذا الاسم المماثل لاسم كثير من المدن والبلدان التي قامت بالسهر على حراسة حدود البلاد ضد المسلمين وكان لها استقلال مدني وحربي. وهذه الدلالة تزداد قوة إذا ما أخذنا في الحسبان أن تلك البلدة ولدت كعاصمة لأسبانيا الجديدة في البحر المحيط طبقاً لما شرحه كورتيس في رسالته إلى الإمبراطور.

كما لا نستغرب أيضاً أن تكون هناك هيئات كانت من سمات العصور الوسطى ثم خبا نورها في شبه جزيرة أيبيريا بانتهاء حرب الاسترداد مثل "المقدِّم" adelantado والقائد Almirante، لكنها أخذت تستعيد حياتها في العالم الجديد؛ كما لا نستغرب أن يحمل كورتيس لقب ماركيز وادي أواكساكا Oaxaca، ويصبح على رأس الحملة الكبرى ضد الجزائر التي تولى أمرها الملك كارلوس الخامس بنفسه. لم يفعل الرجل الكثير ولم يكن بمقدوره أن يفعل في هذه المناسبة وهو القائد الذي كان على رأس عدة مئات من المغامرين واستطاع بهم غزو المكسيك، لكنه الآن محاط بالقيادات ذات الصيت في أوربا. إلا أن وجوده في هذه الحملة ذات النتائج الكارثية كان له بعد رمزي. كان شاهد عيان على أن القارة الأفريقية تغلق أبوابها أمام التوسع الأوربي. وسوف يقوم هذا الحائط الجرانيتي للمسلمين بصد أعتى الحملات الحربية التي خطط لها الغرب بينما كان الباب مفتوحا بسهولة في العالم الجديد.

ليس حقيقة أن تبدأ أفريقيا عند جبال البرانس رغم أنه من حقائق الأمور أن ذلك الذي يعبر جبال البرانس يتولد لديه الانطباع بأن أوربا تنتهي بعبور هذه السلسلة ويبدأ ظهور قارة جديدة. لكن هذه القارة التي تبدأ، ليس عند جبال البرانس بل عند سفح بان كوربو Pancorbo ليست أفريقيا بل هي أمريكا، أمريكا الهند الغربية.

ويمكن أن نقول ذلك من المنظور التاريخي وليس الجغرافي رغم وجود وجه شبه غامض من الناحية الأرضية: أن القوس الفولاذي المشحون بالضغط الإسلامي أو السوري - طبقا لعبارة توينبي - لا ينطلق ضد القارة المجاورة وهي أفريقيا بل ضد أمريكا، ومع هذا فخلال عملية الغزو والاستعمار برزت السمات الجوهرية لحرب الاسترداد بطابعها الإسلامي واستمرت بشكل بدهي.

هناك أفاريز وأشرطة رفيعة ذات أصول موحدية في المنازل وهناك أعمدة مثمنة وأسقف في الكنائس وهناك تشبيكات موريسكية في الواجهات وهناك كراسي للكورس ذات صنعة مدجنة وسجاجيد وزليج وعادات منزلية ذات أصول شرقية ؛ هذه كلها ترافق الساكنين الجدد لأسبانيا الجديدة. لم يقتصر الأمر على عملية توفرهم على صيغ سلوكية معينة بل كانوا يقومون بتطبيقها على المشاكل الجديدة التي يطرحها واقع غير معروف، فإذا ما كانت المكسيك تتوفر على الكثير من الأخشاب الجيدة وكان النجارون المحليون يتوفرون على مهارات فنية لماذا إذن لا يقومون بتعليمهم بوضع سقوف الكنائس، من تلك ذات العقد وهي تقنية معمارية أقل تعقيدا من تقنية القباب؟ وإذا ما كان على العمارة الدينية أن تواجه المشاكل الجديدة الناجمة عن اعتناق المسيحية من جانب أعداد كبيرة من السكان الأصليين، فلماذا لم تظهر مرة أخرى في العالم الجديد الحلول التي توصل إليها المسلمون أمام مثل هذه المواقف عند زيادة عدد من اعتنقوا الإسلام وهي حلول لا تزال باقية في العمارة الأسبانية الموريسكية؟

لم يكن الأمر مجرد استمرار سلبي لقوالب تقليدية بل كان استفادة من الإمكانيات التي تتوفر عليها من أجل التطبيقات الجديدة في ظل ظروف شديدة الاختلاف والتي وضح أثرها في الظهور المتأخر على الأراضي المكسيكية لقوالب ذات أثر مدجن لا مراء فيه، فعلى سبيل المثال هناك زخرفة التشبيكات الموريسكية المستخدمة في الأسقف المقبية وتجلى هذا بحيوية في الشكل الخارجي الذي عليه الكنائس والقصور التي جرى إقامتها في المكسيك خلال القرن الثامن عشر. هناك عناصر فنية مدجنة أخذت تعود من جديد وهي تحمل بصمة شديدة الباروكية، كما ظهرت أيضاً، متأخرة بعض الشيء، عقود ذات فصوص (مفصصة) ذات أصول شرقية وقباب خلافية(عصر الخلافة) أو قباب التقاطع والعقود المتعددة الخطوط ذات الطابع القوطي . . . الخ.

كان الفن الأسباني على شاطئ الأطلنطي أقل ارتباطا بالتطبيق الحرفي للأساليب الفنية، مقارنة بفنون أخرى أوربية، ولهذا نجح في كثير من المناسبات في الإفادة من الإمكانيات التي تقدم أساليب من الماضي رغم أنه لم يكن هناك استلهام مباشر وواع لذلك.

من يدخل الصحن الكبير المسوّر في دير شولولا الفرنسيسكاني ويرى في العمق البنية المستطيلة والممتدة للمصلى الملكي التي تعتبر القطعة الأكثر اكتمالا وحفظا بين مصليات الهنود، ليس بوسعه إلا أن يتذكر مسجد قرطبة. فالفراغات الموجودة في المصلى والتي تفتح على الصحن جرى سدّها مثلما حدث أيضاً في حالة مسجد قرطبة، رغم أن من يقوم بالتجوال في كلا الأثرين ليس عليه أن يبذل الكثير من الجهد الذهني ليتخيل أنهما مفتوحان وتتجلى أمام أنظار الجمهور الأعمدة الموجودة في بلاطاتها العديدة في إطار مخطط مربع مع وجود الصدر في العمق testero الذي تكاد تحجبه غابة من العناصر المعمارية.

هذا لم يستلزم وجود وجوه شبه مثيرة كان على المعماري الذي شيد "المصلى الملكي في شولولا" أن يقوم بتقليدها بشكل مباشر طبقا لما هو موجود في مسجد قرطبة. وربما وضع في اعتباره - بغض النظر عن العناصر المحددة في المجال التأسيسي - النماذج التي عليها أماكن العبادة المعتادة في البلد الذي جرى غزوه، والأمر أن دور العبادة للأثتيك كانت تضم الناس الذين يحضرون في صحن كبير مسوّر حيث يحضرون عمليات التضحية التي تتم في مصلى تيوكالس teocallis. غير أنه بغض النظر عن المصادر التي تم استلهامها يبدو أن من تولوا أمر بناء المصلى الملكي في شولولا، وهم مجموعة من المبشرين والمهندسين المعماريين الفرنسيين، قاموا بالتغطية على أهدافهم من خلال إحلال أنماط مسيحية محل أنماط دينية وثقافية وثنية، وبذلك خاضوا ضدهم المعركة على أرضهم وهي معارك كان من الممكن التقليل من آثارها لو لم يكونوا قد توفروا في بلادهم على تجربة تحويل المساجد إلى كنائس أو على عادة الجمع بين الصيغ الفنية والثقافية وكذا الدينية ذات الطابع الشرقي والغربي المتأصل لدى الأسبان استنادا إلى تاريخهم خلال العصور الوسطى. المهم هو أنه عند الانطلاق من عقلية التسامح المعهودة والجامعة للأشكال الفنية والثقافية القادمة من المشرق يمكن قبول عملية الجمع بين الأشكال الفنية والثقافية في الغرب الأقصى الأمريكي.

وبالفعل نجد أن المصليات الخاصة بالهنود لم تكن مقتصرة بشكل حصري على السكان الأصليين بل استخدمت في كثير من المناسبات كمكان للاجتماع والاحتفال لكافة مجتمع عصر نيابة الملك. ومن أبرز ذلك الجنازة المهيبة التي نظمتها العاصمة بمناسبة وفاة كارلوس الخامس حيث أقيمت في مصلى للهنود وهو مصلى "سان خوسيه دي لوس ناتورالس"، لكن هذا المصلى زال من الوجود منذ زمن.

كان المصلى يتكون من سبع بلاطات كبيرة على مساحة مربعة ومفتوحة على الصحن أما السقف فهو من الخشب المشغول وكانت من دور العبادة الأكبر في المدينة. كان أيضاً برج أجراسها أكثر ارتفاعا ومميزا. بمعنى وجود صليب كبير من الخشب قائم في وسط الصحن وسط أشجار ضخمة، إلا أن هذا الصليب هو، طبقا لرأي بعض كتّاب الحوليات"، كان يرى قبل الدخول إلى المدينة بغض النظر عن اتجاه الدخول، وكان يولد الإحساس بالراحة عند السائرين الذين يرونه عاليا ومرفوعا.

كانت هذه هي الكنيسة التي اختارتها السلطات لجنازة الإمبراطور العظيم. وحقيقة الأمر هو أن المشهد لابد أنه كان غريبا رغم أن بطل الاحتفالية لم يكن يرفض ذلك وهو الذي يتسم بالدقة في باب الجنازات كما أنه كان شديد العشق لمسجد قرطبة ولقصور الحمراء.

كانت أشعة الشمس القوية تسقط على المكان لكن كانت أوراق الأشجار الضخمة تخفف من حدتها، ثم ينفذ الشعاع إلى ما تحت المسجد الأمريكي ثم ينعكس على ماء الذهب الهندي الذي كان الطبقة اللامعة التي تغطي المنصة التابوتية الرائعة التي صممها كلاوديو دي أرثينيجا، حيث كانت من طابقين وبها الكثير من الأعمدة الدورية الحادة في الجزء السفلي، إضافة إلى نسر ذي رأسين في الجزء العلوي يمسك بمخالبه كلا كرتي العالم كما هو الأمر بالنسبة لإمبراطور روماني جرماني تحول إلى سيد لجزء آخر من الكرة الأرضية.

وتدخل مع أشعة الشمس، تحت السقف، تلك النظرات المشدوهة للهنود وقد اختلطت مشاعرهم وهم يتجهون صوب المنصة التابوتية عبر سحب من دخان البخور التي كنت تخرج لتستمتع بالحرية وسط زرقة السماء وتنشر أريجها العربي الشديد الاختلاف عن ذلك الذي كانوا معتادين على تلقيه عند قيامهم بأداء الطقوس الخاصة بهم المسماة "ساحوميريوس Sahumerios"، أي هؤلاء السكان الأصليون الذين تحولوا جماعة، بناء على جهد عدة مئات من السلت الأيبيريين، إلى إتباع للأمير الأشقر جانتي Gante والذي احتفلوا بوفاته احتفالا مهيبا منذ سنوات طويلة.

XXI- بين روما والصين

يشعر أي إنسان يعرف الفن الأوربي بالدهشة عندما يدخل كاتدرائية المكسيك، أي المبنى الأكثر ضخامة الذي أقامه الأسبان في الهند الغربية والذي لم يعل عليه أي مبنى آخر في أمريكا كلها فيما يتعلق بضخامته، ولا يزال كذلك حتى القرن العشرين؛ ومثار الدهشة هو سياق الفخامة الذي يتجلى أمام ناظريه. يرجع تصميم الكاتدرائية إلى من قام بتصميم المنصة التابوتية بمناسبة جنازة الإمبراطور، ورغم أن الأعمال لم تبدأ في هذا المكان طوال حياته فإنها تتوافق مع الأسلوب الإمبراطوري الذي كان عليه ذلك النعش ذو الأعمدة الدورية والنسر المزدوج الرأس وكرتي العالم. وما كان ينظر إليه على أنه محصور وغارق تحت السقف المسطح المنخفض رغم ما كان عليه حجم الأعمدة الخشبية الحاملة له يكتسب روعة في العرض الذي عليه الكاتدرائية.

ولو لم يصطدم المبنى بعقبات كبرى بالنسبة للأساسات لكان أعظم من ذلك بكثير، فخلال منتصف القرن السادس عشر طرح كل من نائب الملك والأسقف ومجلس الأساقفة السبر على مخطط كاتدرائية إشبيليه التي تعتبر واحدة من أكبر دور العبادة في العالم المسيحي. غير أنه كان من الضروري البدء بالعمل كثيرا من أجل بناء فينيسيا المكسيكية على الأرض المليئة بالمستنقعات. وذلك من خلال وضع منصة أو قاعدة من الدبش والتربة بحيث تكون أرضية صلبة للكنيسة ولكافة ملحقاتها الإنشائية. وإذا ما أخذنا هذه الإنشاءات في الاعتبار ومن بينها بيت القربان المقدس الكبير وكذلك أعمال الأساسات تحت الأرض يمكن التأكيد على أن الكاتدرائية المكسيكية هي واحدة من أكبر دور العبادة المشيدة في تاريخ البشرية. غير أن من الضروري بالنسبة للزائر أن يتخلى عن الكماليات الباروك والكلاسيكية الجديدة للكاتدرائية وأن يبذل جهدا في تصورها على شكلها

الأصلي، هذا إذا ما أراد أن يعرف الرسالة التي لا زال المبنى يبحث بها والتي تعتبر أفضل تمثيل للروح التي استلهمت المهمة الهندية.

يعتبر داخل الكاتدرائية أنشودة عظيمة للعمود الكلاسيكي الذي يسير على نهج ذلك الذي بدأه دييجو دي سولويه D. de siloé في شبه جزيرة أيبيريا في الكاتدرائية الغرناطية. هي كاتدرائية أحدث في مخططها بالمقارنة بكاتدرائية مدينة دارّو Darro التي تحمل طابع العصور الوسطى، حيث نجد كاتدرائية العاصمة، المكسيك، تقوم بتطوير آخر شكل للكاتدرائية الأندلسية التي ترجع إلى عصر النهضة مثل تلك التي جرت إقامتها في جيانJaen في منتصف القرن السادس عشر على يد المعماري أندرس دي باندلبيرا A. de Vandelvira تلميذ دييجو سولويه. لكن الكنيسة المكسيكية تمثل خطوة أكثر تقدما في باب التعامل مع العمود الذي كلف البنائين الكثير من الجهد خلال القرن السادس عشر، من حيث أنه موضوع جوهري عبارة عن عمارة في الهواء الطلق تتألف من وحدات ملحقة ببعضها تقاوم التكامل فيما بينها في الإطار الداخلي والتوسعي لدار عبادة مسيحية.

نشهد من خلال الكاتدرائيات التي شيدها الأسبان على الأراضي المكسيكية تطورا يحدث على إشكالية جوهرية؛ فإذا ما نظرنا إلى كاتدرائية "وادي الحجارة" لوجدنا أنها تضم حوامل مكونة من أربعة أنصاف أعمدة ملتصقة بعمود مربع مركزي سيرا على النمطية المستخدمة في شبه جزيرة أيبيريا، على يد دييجو سيلويه وأندرس دي باندلبيرا، أي أنها تحافظ على المسافات المتبعة بشأن أشباه الأعمدة التي تقوم فوق قاعدة مرتفعة Pedestal وتحمل جزءا كبيرا من العارضة arquitrabe التي تنبع منها دعامات القباب. وبالنسبة للكاتدرائيات الموجودة في كل من المكسيك وبويبلا نجد أن ذلك العنصر الخاص بالعارضة اختفى رغم أنه قاعدة متبعة ويتسبب في الكثير من المشاكل، ثم تمتد أنصاف الأعمدة بأبدانها ابتداء من مستوى الأرض تقريبا حتى تصل إلى تاج يتسم بالخفة والبساطة، وفوقه تمتد، وذلك للربط مع شبه العمود المماثل والذي يقع فوق البلاطات الجانبية وكذلك البلاطة المركزية.

هذا هو حلّ شبيه بذلك الحل الذي توصل إليه المعماري إيرّيرا Herrera وخاصة في كاتدرائية بلد الوليد حيث يلاحظ وجود شبه واضح بينها وبين كاتدرائية أسبانيا الجديدة وخاصة كاتدرائية بويبلا، الأخت التوأم للمكسيكية. وبهذا نجد أن كاتدرائيات أسبانيا

الجديدة قامت بتطوير أسلوب أقل ميلا للنعرة الوطنية وأكثر يونفرسالية في العاصمة وبذلك يأتي هذا الأسلوب ليكون في مركز الدائرة لمراحل أكثر إبداعا ونقاء فنيا في تاريخ العمارة الهسبانية hispana وليس ذلك بشكل سلبي بل إيجابي من خلال ابتكار حلول لمواجهة مشاكل محددة في البناء، وربما تقدمت في هذا على الحلول المطروحة في شبه جزيرة أيبيريا مثلما هو الحال بالنسبة للأبراج الأربعة المقامة في الأركان والتي استلهمت النموذج الذي اقترحه برامنتي Bramante بالنسبة لكنيسة سان بدرو دي روما، والتي ربما بدأت في بويبلا دي لوس أنخلس قبل بلد الوليد.

ليس من قبيل الصدفة الطابع الكلاسيكي الذي عليه الكاتدرائيات المكسيكية بل هو انعكاس قوي للتوجه اليونفرسالي الذي كان الإيقاع الواضح في مهمة التحضر خلال عصر كارلوس الخامس وعصر من خلفه وهو ملك الأسكوريال. شعرت أسبانيا وهي في الهند بأنها وريثة روما وأنها مكلفة بأداء دورها في العالم الجديد إتباعا لما قاله فيرجيل.

كان خينس دي سيبولبيدا G. Sepulveda، المتخصص في الدراسات الإنسانية والذي يقف على النقيض من موقف الأب/ لاس كاس، هو الذي أعلن رسميا النظرية القديمة حول التبعية الطبيعية، واستلهم أرسطو في هذا بشكل مباشر، حيث قام بترجمة كتابه "السياسة" من اللغة الأصلية إلى اللاتينية؛ كتب يقول: "ما الذي يمكن أن يحدث لهؤلاء البربر بشكل أنسب؛ ولكن ليس بشكل محمود، من تحولهم إلى تابعين للإمبراطورية التي يقوم تابعوها بالتصرف بحكمة وتعليمهم الفضيلة والدين وتحويلهم من بربر، وهو مسمى لا يستحقون أن يكونوا بشرا، إلى أناس متحضرين في حدود ما أمكن لهم ذلك. وأن يحولوهم من سوء التصرف والشبق إلى أناس عقلاء وشرفاء ونقلهم من التبعية للشياطين إلى مسيحيين وعباد الرّب الحقيقي؟"[1].

ومن خلال توجه النص يمكن الاستنتاج كيف أن النظرية الأمبريالية الكلاسيكية، في إطار فَصْلها الحازم بين هؤلاء المسيطرين المتحضرين والبربر، تنتهي أو تخلص إلى دخول نوع إنساني في المسيحية وهو نوع من نفس الأصول والمصير الذي عليه كافة أفراده. هذا يعني إضفاء السمة التأصيلية للنظرية اليونانية اللاتينية وفي الوقت نفسه يوطد من مفهومه

(1) Demócrates Alter ed.cit., page 333.

اليونفرسالي بشكل يشبه كيف أن العمود الذي يؤكد استقلاله الذاتي، سيرا على قانونه الصارم، في كاتدرائية "وادي الحجارة"، ينتهي به الأمر بالانخراط في البنية التركيبية وفي الإطار الموحد لكل من كاتدرائية المكسيك وبويبلا.

يمكن الاعتراض بالقول بأن هذا الانخراط هو استجابة لتراث معماري من العصور الوسطى، والأمر هو أن العمود في تلك الكاتدرائيات، يفقد طبيعته رغم أنه مستدير وله أخاديد، ويتحول وكأنه وتر قوطي. ومن ناحية أخرى من البدهي أنه إذا ما تركنا القضايا المعمارية جانبا، لوجدنا أن الموقف الإسباني النهضوي على شاطئ الأطلنطي هو أقل معاداة لأسلوب العصور الوسطى وأقل معاداة لما هو دنيوي وأكثر تهجينا حيث يضم عناصر قوطية وأخرى شرقية مقارنة بما عليه شعوب أوربية أخرى وحتى نعرف ذلك ليست هناك مرآة أفضل من كتب الفروسية الخاصة بالمرحلة اليونانية الأسيوية – بما في ذلك سلسلة أماديس دي جاولا – حيث قضى الأسبان وقتا ممتعا بتأمل أنفسهم من خلال تلك الكتب خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، سواء كانوا على هذا الشاطئ من الأطلنطي أو على الطرف الآخر بدءا بالإمبراطور نفسه.

يجب أن توضع كتب الفروسية – أول أدب شعبي يبرز القدرات التجارية لفن الطباعة الذي اخترع حديثاً آنذاك – في الحسبان بدرجة كبيرة وخاصة تلك السلسلة المشار إليها سابقا، وذلك حتى نفهم عقلية الغزاة[1]. أن يوضع في الاعتبار أيضاً التوجه الغرائبي نحو الشرق وهو التوجه الذي ربما أثار كثيرا استغراب المختصين في الدراسات الإنسانية، حيث كانوا أقل بعدا، مما يتصورون، عن التراث الكلاسيكي ذلك أن روما كان لها وجه صوب الغرب ووجه آخر أكثر تعقيدا وميلا لما هو ديني متوجه صوب الشرق الأسيوي.

ربما كان من الأمور التي تساهم في فهم أكبر للتوجه الروماني الذي عليه أسبانيا في الهند الغربية أن نضع في أذهاننا نموذج بعلبك Baalbek أكثر من نموذج ماردة أو نيمس Nimes، شريطة أن يتم الاستغناء دوما عن أية مفاهيم تتعلق بالتوفيق بين المذاهب الدينية الواضحة للعيان في المدينة السورية، وهو نموذج تم السير على نهجه، بشكل كبير، من قبل السلطات الكنسية والمدنية خلال عصر نواب الملك دون أن يحول ذلك الدمج بين المشاعر الدينية العميقة التي عليها الأثتيك وبين المشاعر الجديدة التي أتى بها المبشرون.

---

(١) Vid إيرفنج أ. ليونار "كتب الغزاة". ترجمة. المكسيك، ١٩٥٣م، الفصل الثاني.

أشار روبرت ريكارد[1] إلى " أن المبشرين فضلوا الإقامة في التجمعات التي كانت المراكز السياسية الدينية قبل الغزو . . . وكانت هذه المراكز تضم معبدا teocallis أو أكثر، وهي دور عبادة أقيمت على قمة أحد الأهرامات، وبالتالي كانت هذه المنصات العالية الأماكن التي تم اختيارها لإقامة الكنيسة والدير". ويعتبر ظهور "عذراء جوادالوبي، القمحية اللون وذات السمات الهندية لأحد البسطاء من السكان الأصليين فوق جبل تيباك tepayac أحد مظاهر التدين الشعبي الشديد الصراحة منذ زمن أول أسقف للمكسيك، وكان ذلك تحديدا إلى جوار المكان الذي كان قبل عدة سنوات، على بدء المفاهيم الدينية الجديدة، المركز الذي كنت تعبد فيه الإلهة تونتزين tonentzin الإلهة الأثتيكية للأرض والحبوب.

من الممكن أن يكون قد تبقى في اللاشعور عند الهنود الذين كانوا يسيرون كل يوم في طوابير لا تنتهي، نحو المركز الديني الذي ربما كان الأهم في العالم المسيحي، نقول بقي لديهم ولو مسحة من المفاهيم الإيمانية السابقة. وسوف يظل فاعلا العرق الديني العميق المرتبط بالتضحيات الدينية العنيفة عند الأثتيك وهذا ما اعترف به فراي برنار ديتو دي ساهاجون بعد عدة عقود على الغزو حيث كتب يقول: "وفيما يتعلق بالديانة والثقافة الخاصة بآلهتهم لا أعتقد أن بقي في هذا العالم الوثني هذا التقديس لآلهتهم"[2].

عندما نأخذ في الحسبان هذا العرق الديني نجد أن السلطات الدينية أثناء فترة نيابة الملك تسامحت مع أشكال من التعبير الديني للسكان الأصليين وربما كان ذلك نوعا من الموازنة بين البعد الديني للصور، ومعها المعتقدات الدينية الشعبية، وبين المسكونية الخاصة بالإطار المعماري الذي اكتسب هو أيضا مسحة من اليونفرسالية السياسية من خلال الاحتفالات المدنية التي كانت تقام فيه بمناسبة أبرز الأحداث خلال عصر نيابة الملك. وعندما كان النائب الجديد للملك يتولى منصبه ويستقبل ثلة من السلطات وعلية القوم، في دائرته، داخل بازليكا جواد العربي إلى جوار حامية الهنود، والتي يوجد فوق تمثالها بنية معمارية مهيبة تضاهي صورة الكنيسة البرامانسية Bramanesca بشكل أكثر دقة، ربما، مما عليه الكنيسة الأكبر في العاصمة وهي بيلار دي سرقسطة التي شيدت قبل عام من إقامة المكسيكية، كان الأمر يبدو في عيون السكان الأصليين على أنه نوع من التنصيب والمسوح الأهلية.

---

(1) الغزو الروحي للمكسيك، باريس، ١٩٣٣م، ص١٩٦.
(2) التاريخ العام لأمور Cosas أسبانيا الجديدة، مقدمة، المكسيك، ١٩٥٦م، الجزء الأول، ص٣٠.

أما فيما يتعلق بالمصلى الذي يضم "البئر" المبارك "لعذراء جوادلوبى" ، والذي شيد بفضل الكثير من الصدقات الشعبية والعمل التطوعي الذي قام به الفنيون، واصل مصمم المصلى، وهو من أبناء المكان ويدعى فرانثيسكو أنطونيو بيرير يرو إي تورّس، واصل سيره على نهج أثر قديم متهدم يوجد بالقرب من روما في بداية القرن السادس عشر، وأعاد سيرليو serlio إنتاجه من خلال كتابه الشهير **"كتاب العمارة"**. ولما كان المكان متهدما لم يتمكن سيرليو من رسم السقف وبالتالي لم يكن أمام أنطونيو جيرّيرو إلا ابتداعه وقدم لنا واحدة من الأعمال المكسيكية الأصيلة وهو اليوم العمل الأكثر شهرة ضمن عمارتها. أبرز في السقف الألوان بدرجة غير مسبوقة في عاصمة نيابة الملك، بأن أضاف إلى ذلك التقابل اللوني بين الأحمر المخملي الذي عليه tezontle والأبيض الذي عليه chilueca، تلك المينا المتعددة الألوان بين الأبيض والأزرق الذي عليه الزليج الوارد من بويبلا الذي يكسو به القبة. نجد أيضاً الشكل الأسطواني المتواضع اللولبي الذي ينزل مكونا ما يشبه خصلة شعر مجعدة يسهم بدوره في هذا المشهد الجميل الكلاسيكي المكسيكي الذي هو المصلى الشهير البوثيتو Pocito.

ولما قامت أسبانيا بممارسة ميلها الروماني على طريقة بعلبك أكثر من نيمس أو ماردة عملا بالانفتاح التقليدي الذي عليه الإنسان الهسباني على الغرائبية الشرقية، تمكن أفراد الرعية من الأمريكان من أن يفتحوا أذرعتهم ليس فقط أمام العالم الخاص بالسكان الأصليين بل أمام ما هو آسيوي حيث تكثر القطع الفنية عددا وجودة في دور العبادة في أسبانيا الجديدة. هناك الحاجز الحديدي الضخم للكورس في كاتدرائية المكسيك، وهو أفضل حاجز في العالم الجديد، جرى إنتاجه في مكاو Macao، ورغم أن من قام برسمه، وهو نيكولاس رودريجث خوارث، كان يعيش في المكسيك، كان الفنيون من الصين ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كانت من الصين أيضاً المواد المستخدمة tumbaga و calaín (خليط من الذهب والنحاس، والفيروز). ومن العناصر ذات المصادر الآسيوية في دار العبادة هذه نجد التماثيل الصغيرة حوامل الكتب إضافة إلى تماثيل كثيرة من العاج معروضة الآن في متحف الكاتدرائية.

تكثر المنحوتات العاجية بوفرة في المكسيك، وفي هذا المقام يرى مانويل توسنت M. Toussaint أنه لا توجد كنيسة أو منزل إلا وعنده تماثيل للمسيح من هذه المادة الخام

كبرت أم صغرت أكثر إتقانا فنيا أو أقل[1]. كان قد تم جلبها من آسيا في غليون أكابولكو إضافة إلى قطع أثاث عديدة وقطع مدهونة بالورنيش وقطع من البورسلين الرفيع والمنسوجات وعدد – لمختلف الأغراض، ولم يكن ذلك من الصين فقط بل أيضاً من جاوه وسيام وكمبوديا ومن الأقاليم النائية في الهند، فحتى يتم ملء سحارات الغليونات الكبرى التي تقوم بالرحلة من أكابولكو كانت تلتقي في مانيلا سفن قادمة من مختلف البلاد الآسيوية ويشمل ذلك الخليج الفارسي. هناك أيضاً مواد خام جرى جلبها من المشرق وكان يتم استخدامها في الصناعة في أسبانيا الجديدة مثل "القطيفة والبطاطين والطرح والزركشي والكثير من الرايات"، ثم تباع كل هذه المنتجات في العالم الجديد وتخلق الكثير من فرص العمل لآلاف الأسر. ويندرج في ذلك فن العمارة حيث يلاحظ فيه التأثير الشرقي: "هناك قطع خشبية مشغولة ومدهونة – طبقا لما يشير إليه الناقد المكسيكي المذكور[2]. ربما كانت ذات أصول آسيوية، تشبه التشطيبات التي لا مثيل لها في كنيسة سان بريسكا في تاسكو Tasco وكأن السفينة أتت بها من الصين". يرجع حب الفن القادم من الشرق الأقصى في أسبانيا الجديدة إلى زمن قديم كما أنه كان أقوى، بالمقارنة، من ذلك التوجه السائد في أوربا وهو الميل إلى ما هو صيني؛ ولم يقتصر الأمر على هذا بل ذهب إلى ما هو أبعد حيث تحول إلى نوع من التعبير عن مصير تاريخي حقيقي. وقبل قرن من الزمان على انتشار الخشب الصيني المدهون في أوربا الشمالية كان فيليبي الثاني الكاتب العظيم وحامي حمى جزر الفيليبين يتلقى مكاتب مصنوعة من هذه المادة من خلال أسبانيا الجديدة. كانت قطع الأثاث الشرقية تتسم بأنها أكثر من كونها ميلا فيه نزق سواء كان ذلك في البلاط في مدريد أو في كنائس المكسيك وقصورها: ذلك هو مقابل رمزي ومكلف قادم من الأقاليم الأسيوية البعيدة وأسهم فيه الكثير من الرجال والمهام والشوق والمال سواء من أسبانيا القديمة أو الجديدة. وبعد دراسات دقيقة ثم التوصل إلى أنه خلال القرنين الأولين من الاستعمار أرسلت المكسيك إلى الفيليبين أربعة آلاف وخمسمائة طن من الفضة الأمر الذي يعني ثلثي الإرساليات التي كانت تبعث بها نيابة الملك إلى شبه جزيرة أيبيريا"[3].

---

(١) "الفن الاستعماري في المكسيك"، المكسيك ١٩٤٨م، ص٣٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٥.

(٣) بيير شانو "الفيليبين والباسفيكي الإيبيري" (القرن ١٦، ١٧، ١٨)، باريش، ١٩٦٠، ص٢٦٩.

غير أنه إضافة إلى هذا النزيف الذي تعنيه تلك المساعدة من المهم أن نضع في الحسبان الجهد المبذول في الحفاظ على المجرى حتى يستمر التيار. كانت رحلة الذهاب من أمريكا إلى آسيا تتم بشيء من السهولة إلا أن "رحلة العودة من الغرب" كانت عصية على السفن طوال أربعين عاما؛ وبعد كثير من حالات الفشل قام أحد البحارة من ذوي الخبرة، بناء على طلب من الإمبراطور فيليبي الثاني، بهذه المهمة. وكان هذا البحار يعيش في دير مكسيكي بعد أن انسحب من تجواله في أرجاء العالم. وفي اليوم الثالث من أكتوبر لعام ١٥٦٥م خرج من ميناء مانيلا صوب ميناء أكابولكو وكان قائد السفينة أندرس دي أوردانيتا A. Urdaneta رجل البحرية الذي كان قد انزوى في الدير؛ وبعد رحلة غاية في الصعوبة استغرقت أربعة أشهر حيث تناقص أثناءها عدد البحارة بسبب الموت والمرض لدرجة أنه لم يتبق في نهاية المطاف إلا بعض الأفراد الذين انحصروا في أوردانيتا نفسه وأحد البحارة، كما لم تتوفر لديهم القوة الجسدية ليلقوا بالهلب.

وفي نهاية المطاف تحققت "العودة من الغرب" عبر مياه الشمال من الباسفيكي، ثم تحول المسار بعد ذلك إلى مسار للإبحار انطلاقا من أسبانيا الجديدة التي ترجع اليها ملحمة اكتشافه، وليس أقل من ذلك جهدا الحفاظ على استمرار الخدمة في هذا الخط بشكل لا ينقطع خلال زمن طويل. كان السير في هذا الخط يعني المجيء إلى أوربا والعودة إلى البلاد، من خلال أسبانيا الجديدة، حيث قامت بذلك سفارة أرسلتها اليابان إلى الغرب، وكان هذا يعني من الناحية الجغرافية – عند اتخاذ المسار الأمريكي – الشرق الأقصى. وكنوع من التتويج لهذا الجهد التحضّري الضخم الذي دشنه الطريق الشهير عبر الباسفيكي، خرجت حملة، بعد عامين من بدء الكفاح من أجل الاستقلال، من أكابولكو متجهة صوب الفيليبين وهي حملة كان يقودها خابيير دي بالمس وهو يحمل معه الطعّم ضد الجدري الذي قد اكتشف حديثا بعد أن مد مصالحه في البَلاد الأمريكية.

لم يترتب على استقلال نيابة الملك هذه والقطيعة التي ترتبت بالتالي على الاتصال التقليدي بين أكابولكو ومانيلا، التي استمرت في يد الأسبان، إلغاء تجارة المواد الشرقية. وفي عام ١٨٢٤م قام مفوض الحكومة الإنجليزية ج. إي. طومسون G.A.Thompson، الذي أرسل في مهمة لتبيان حالة "جمهورية المركز" بالاتجاه صوب ميناء أكابولكو تنفيذا للمهمة التي جاء من أجلها، واصطدم بقافلة تتكون مما يزيد على ١٤٠ بغلة كانت محملة

بالغالي والنفيس. "لا يمكن تخيل ما كانت تحمل من أشياء والتي تتكون في الأساس من قماش الكريب القطيفة من الصنف النادر وكذا قماش "الموصلين" المطرز بالذهب والفضة وصديريّات من الحرير الموشي. لم أر في أوربا أبدا" ويختتم الدبلوماسي الإنجليزي ذلك قائلاً "لم أر في أوربا منسوجات صينية يمكن مقارنتها بهذه"[١].

إذا ما كانت روما حاضرة في أسبانيا بعالميتها الفنية والثقافية والدينية، هناك أيضاً حاضرة العالمية الأسيوية حيث تتكامل كلتاهما وكل له أبعاده المختلفة ودلالته؛ كان ذلك من خلال الكنائس والقصور وكذا الفن الشعبي نفسه ومن الأمثلة الطيبة على ذلك الفخار الطلبيري (نسبة إلى طلبيرة Talavera) المصنّع في بويبلا. وهي صناعة يرجع أصلها - كما يدل اسمها - إلى شواطئ نهر التاج، لكنها تلقت تأثيرات قوية آتية من الصين - قبل زمن طويل على إقامة مصنع لها في ميسين Meissen- وكانت هذه التأثيرات تقنية وكذلك بالنسبة للعناصر الزخرفية، كما تشبعت هذه الصناعة بالمثاليات الكلاسيكية المتوسطية لدرجة أن زليج بويبلا كان يصنّع بشكل محدب بعض الشيء لأنه كان يستخدم أساسا في زخرفة الكثير من القباب التي كانت في الإقليم. ولمزيد من التأثيرات على هذه الصناعة هناك أيضاً تأثيرات موريسكية محددة في إطار التوجه الفني المدجن الذي كان يستخدم الزليج لكسوة الجزء السفلي للحوائط.

أصبحت أسبانيا الجديدة ملتقى التيارات الجمالية والثقافية القادمة من أقاصى الدنيا، وهذا ما يسلط E.S.C. Northrop نورثروب عليه في كتابه The Meeting of East and West[٢]. كما تغنى بذلك برناردو دي بالبوينا شاعر "العظمة المكسيكية

تقسّم المكسيك العالم إلى نصفين
كما تنحني لها الأرض كأنها أمام الشمس
وفيها كلها يبدو أنها الآمرة
مع البيرو والمالوكو والصين،
والفارسي المولد وScita والمورو

---

(1) Marrative of an official visit to Guatemala, from Mexico, London, 1829, page 10.

(٢) Cap "الثراء الثقافي في المكسيك" نيويورك، ١٩٤٩، الفصل الثاني.

وكذلك البلاد الأخرى قريبة أم بعيدة،
مع فرنسا ومع إيطاليا بكنزها
مع مصر، والقاهرة الكبرى وسورية.

....

بريطانيا، اليونان، فلاندس وتركيا
مع الجميع يتم التعامل والتبادل.

وحتى الآن لا زالت هناك تأثيرات فنية وثقافية متنوعة تترك بصماتها على الفن الشعبي. من المشاغل الجذابة الطواف بمدن المكسيك وقراها وخاصة الأسواق وأماكن المهرجانات وإلقاء نظرة على داخل المنازل الشعبية وذلك لاكتشاف الألحفة وJerongos واللثام وغيرها من قطع الملابس والعناصر الزخرفية للسكان الأصليين التي اختلطت بتلك القادمة من سلمنقة ومن شريش دي لافرونتيرJerez de la fronteral، ليرى كيف يتم تبادل الأدوار بين الحيوانات الأثتيكية من الأضحيات وبين أبي الهول والجنيات والثيران المتوسطية، كما نرى على قطعة واحدة من الفخار المعابد والعصافير الصينية التي تتلألأ بألوان ايمنج Ming وقد أحاطت بها الحلية المدجنة(الجفت) greca.

تعتبر الجماجم المصنوعة من السكر من العناصر التقليدية في الاحتفالات الشعبية المكسيكية وهي ثمرة تراث ضارب في القدم وكذلك من أناس من الهسبان hispanica، إذ رسم هؤلاء الموت بملامح باروكية عنيفة، كما أنهم قاموا بطقس تناول "عظام القديسين" في "يوم الموتى". وكما هي العادة في أي من قرى شرق الأندلس يتم في المكسيك إحراق عرائس "ليهوذات" Judas محملة بالصواريخ وذلك في مكان غير بعيد عن المكان حيث هناك شمعدان من ذلك النوع الذي يشبه "شجرة الحياة" والذي كان يصنّع في ماتامورس دي إيروكار Matamoros de Irucar، موضوع فوق مائدة خشبية مدجنة بأفرعه الرمزية المعلق فيها نماذج للعذراوات والملائكة والبسطاء، وكذلك أدوات شعبية لكن لها صلة بشخصيات شجرة Jetsé.

XXII- الهند الغربية والمَلَكيّة الكاثوليكية وأوربا

أدت المفاهيم المغلوطة الخاصة بالنعرات القومية في باب التاريخ، ابتداء من العقود الأولى من القرن التاسع عشر إلى وضع عقبات وعراقيل أمام فهم الإسهام الأسباني في الهند الغربية. كان ينظر إلى القارة مقسمة إلى ثلاثة مناطق لغوية وثقافية كبرى وكان يبدو أنه لا مناص من التفكير في أن كل واحدة منها شهد عودة تجسد روح الشعب Volksgeist لكل واحد من الشعوب المستعمرة. وبدون التوقف برهة لتأمل الكثير من القضايا المتعلقة بالجغرافيا والسلالات والمهاَم والمستويات التاريخية فإن الاختلافات الواضحة في جوانب متنوعة من الحياة تبدو جلية عند مقارنة كل من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى بأمريكا الشمالية، ويتم إلصاقها بالموروث الروحي الذي خلفه الغزاة وراءهم. ومن جانبنا نحن معشر الأسبان كنا نرتكب خطأ مماثلا عند رد فعلنا على تزييف الأسطورة السوداء أو تلك الأساطير الأكثر شيوعا التي تلف مفهوم تعبير "أمريكا اللاتينية"، حيث كنا ننادي بحصرية أبوتنا للعالم الإسباني الأمريكي المترامي الأطراف، وكأن المملكة الكاثوليكية كانت دولة قومية وأن رعاياها نقلوا إلى الشاطئ الآخر للأطلنطي ثقافة إسبانية.

غير أن كافة شعوب العالم القديم كانت حاضرة في العالم الجديد منذ الساعات الأولى، وكل له وظائفه الشديدة الاختلاف وكذا الإسهامات في هذا الحدث الضخم الذي هو الانفتاح على العالم الجديد وضمه. وفي هذا المقام كتب جارثيلاسو دي لابيجا، ذلك الشاعر المهجن، وجود الثلاثي الذي شارك في الحملة على البيرو وهم فرانثيسكو بيثارّو ودييجو ألماجرو وإيرناندو لوكي، حيث قام بغزو ممالك جديدة "من أجل الأصدقاء والأعداء دون أي تمييز بينهما، ذلك أن المسيحيين يستمتعون بأعمالهم ومكاسبهم، وكذلك، الوثنيين واليهود والمورو والترك والملاحدة، حيث كانت الثروات تُنشر فوقهم في

كل عام يأتي منه الثلاثي الذي كسب الحرب". كانت تلك مشاركة لكنها سلبية ومع هذا فسرعان ما بدأ الأوربيون يمدون أيديهم بعنف نحو الكاريبي وذلك للمسارعة في الاستيلاء على المعادن الثمينة الآتية من الهند الغربية. وها هي القطع الثمينة من كنوز الملك موكتيزوما التي تم اختيارها بعناية على يد إيرنان كورتيس، كنوع من التكريم للإمبراطور، تتعرض لعملية سطو قام بها قرصان فرنسي، وآل بها الأمر إلى يد فرانثيسكو الأول؛ ولم يكن ذلك لتزيين حصون لوار Loire بل لصهرها، ذلك أن الأرستقراطيين الراعين لليوناردو دافنشي لم يكونوا من عشاق الفن السابق على عصر الغزو أكثر مما عليه جنود كل من كورتيس وبثارو"[1].

لكن الأجانب لم يقتصروا على أن يعيثوا فسادا في مياه الكاريبي منذ وقت مبكر بل سكنوا جزره "والأراضي اليابسة" التي اكتشفها إيطالي، كما نجد أن فرناندث دي أو بيدو، الرجل المنفتح على التعامل مع الأوربيين بناء على تجربته الشخصية، يأسف على "كثير من الاختلافات والناس والأمم التي اختلطت ببعضها والظروف الصعبة التي تعيشها الهند الغربية حيث أتوا إليها قاصدينها... وأن ليست هناك لغة في أي مكان في العالم إلا ومرت من هنا ويطلقون على أنفسهم مسيحيين"[2]. ومن الأمور ذات الدلالة البالغة أيضاً هو أن العيون الأوربية الأولى التي شهدت المعادن الثمينة في البيرو والمتنازع عليها كثيرا بما في ذلك من قبل المورو الأتراك، كانت عيني يوناني هو بدرو دي كانديا P. de Candía وهو واحد من ثلاثة عشر رفيقا لبيثارّو في حملته الاستكشافية.

لابد أن المشهد عاد إلى مقلتي ابن جزيرة كريت حيث الدهشة التي كان يشعر بها الأبطال في ملحمة هوميروس أمام الأشياء الثمينة عندما تمكن بجسده الضخم من المرور، "لأنه كان مدرّعا بالحديد كاملا من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه كما كان كث اللحية"، في شوارع تومبس Tumbez بعد أن استطاع أن يطوّع النمر والأسد اللذين أطلقا عليه للتأكد من أنه ابن الشمس، "واستخدم في ذلك صليبا من الخشب يزيد ارتفاعه على بارة (vara 84سم) كان يمسكه بيده اليمنى؛ وقد ثبت هذا، وبالتالي تم السماح له بزيارة

---

(١) Vid خوسية تطيلة، "المشغولات السابقة على الوجود الأسباني في أمريكا اللاتينية، فرناندوا الكاثوليكي" مذكرات الدورة ١ـ ١٩٦٠، ص٧١.

(٢) العمل المشار إليه، الجزء الرابع والعشرون، الطبعة المشار إليها، الثالثة، ص٣٥٥.

"معبد الشمس الذي كان مزينا بألواح من الذهب" وأن يتأمل الأدوات والسجاد من الذهب والفضة وكذلك الحيوانات المشوهة الخلقة باستخدام الوسائل التي كانت موجودة في حديقة الإنك Inca. وعندما عاد بدرو دي كانديّا بصحبة بيثارّو لغزو ذلك البلد الأسطوري رافقه عدد غير قليل من اليونانيين من الخبراء في صناعة مكونات المدافع و تشغيلها، ولما كان قائد الحملة "الجيدة للغاية والوفيرة العدد" "قام دييجو دي ألماجرو الموثو بقتله بالرماح ضيقا وغيظا" عندما أدرك أن بدرو دي كانديّا أعد العدة حتى يلقوا بمدافعه من عَلُ حتى يحول ذلك دون إيذاء جيش "الحاكم الجديد" باكا دي كاسترو، ذلك أن هذا العملاق ابن جزيرة كريت كان يريد أن تنحصر جهوده على خدمة صاحب الجلالة"[1].

كان جلالته يخطط في هذا المقام أن ربما كان من الأفضل أن يخدمه يوناني بدلا من القشتالي. وخدمة للملكية يمكن أن يبقي في كيتو رفاق بلد، بدرو كانديا وكذا المسلمون الذين اعتنقو المسيحية ضمن صفوف الجيوش الغازية، وكذا الرهبان الفلامنك الذين أسسوا الدير العظيم سان فرانثيسكو والفنانين والألمان والإيطاليون والمشارقة الذين قدموا لزخرفة ذلك المبنى "السابق على الإسكوريال الإكوادوري" . يلاحظ وجود العديد من الأساليب والموضوعات الفنية في هذا الأثر وكذا في منشآت أخرى في البيرو وفي أسبانيا الجديدة، ولم يكن ذلك مجرد ظاهرة ذات طابع جمالي وثقافي بل كانت ذات طابع سياسي أيضاً. كان من الممكن في حالة ملكيّة ترنو إلى أن تتحول إلى عالمية، بناء مبان ضخمة مثل هذه بناء على الفكرة القائلة بأن هذه استجابة، سواء من حيث الكم والجودة ، للإسهامات التي تلاقت فيها.

كانت هذه الإسهامات ذات أصول ومفاهيم شديدة التنوع حيث أنها أتت من بلاد شديدة الاختلاف فيما بينها ولها شخصيتها بحيث لا تجد نفسها مهددة بانتسابها إلى "المملكة الكاثوليكية" ذلك أن هذه كانت ذات بنية مرنة ومستوعبة من الناحية السياسية، لم تكن مملكة وحدوية ومركزية على طريقة المملكة الفرنسية أو الإنجليزية، بل كانت عبارة عن مجموعة من الممالك بعضها يوجد في شبه جزيرة أيبيريا وممالك أخرى خارجها حيث

---

[1] جارثيلاسو دي لابيجا" "غزو البيرو" الكتاب الأول، من الجزء الثاني من "التعليقات الفعلية للإنك".

كان هناك الأوربيون، إضافة إلى ممالك أخرى على الشاطئ الآخر للأطلنطي وقد توحدت فيما بينها بالرباط الحصري وهو التبعية لملك واحد.

لم يكن هناك أي اختلاف، من المنظور القانوني والسياسي، بين مملكة بلنسية وصقلية وأسبانيا الجديدة، أو بين نيابات الملك المختلفة التي كانت تمثل الملك نفسه. وإذا ما نحينا جانبا قضايا شائكة متعلقة "بالحالة النفسية للشعوب" لبدا لنا بجلاء أن لو كان إيرنان كورتيس من الغال galo أو الإنجليز لقام بالمزيد من الجهد أكثر من جهد إيرنان الأيبيري، حتى يرقّق المجتمع المكسيكي حتى يدخل في قالب الأنظمة السياسية التي كان على رأسها إما فرنثيسكو الأول أو إنريكي الثامن. ونظراً للطابع التوحيدي الذي عليه هؤلاء الملوك لم تكن لتظهر إمكانية إقامة نيابات للملك، خلال القرن السادس عشر، سواء كانت فرنسية أو إنجليزية، وأن تكون مستقلة من الناحية النظرية والعملية مثلما كانت نيابات الملك في الهند الهسبانية hispano.

لم يكن هناك أرقى من ذلك النظام الذي طبق على ما وراء البحار وهو النمط السياسي للتعايش والخاص بشبه جزيرة أيبيريا حيث كان ذلك محصلة تاريخها خلال العصور الوسطى. فعندما تهدمت وحدة المملكة القوطية بسبب الهجمة القوية للإسلام، بدأت حرب الاسترداد استنادا إلى وحدات سياسية صغيرة عبارة عن ممالك ملتفة حول شخصيات ملوك – قادة، يقومون بمهام فعلية للغاية مقارنة بزملائهم في أوربا الإقطاعية، وتمكنوا من توحيد الأنظمة السياسية التي كانوا رؤساءها بفضل علاقات الزواج. كان الأمر عبارة عن بنية سياسية معوّقة في بعض الجوانب لكنها دينامية وحديثة في جوانب أخرى وقادرة على الوصول إلى تكوين تجمع سياسي كبير بدأ بملوك أرغن، في خضم العصور الوسطى، من خلال سياستهم التوسعية في البحر الأبيض المتوسط.

عندما اعتلى كارلوس الخامس عرش إسبانيا كنت هناك مسحة طيبة من حسن الحظ، لكنه حظ تم التخطيط له بعناية ودقة ورغبة من أسبانيا. وفي إطار اليانصيب في باب التحالفات من خلال الزيجات الذي كان يلعبه الملوك في شبه جزيرة أيبيريا منذ قرون سيرا على التوجهات السياسية لممالكهم، نجد أن السيد/ فرناندو، جد الإمبراطور، كان من كبار اللاعبين في هذا، حيث قام من خلال عدة تحالفات أسرية مع الدول المحيطة بفرنسا،

العدو التقليدي لأرغن، بغية تكوين طوق سياسي له comme à la'avance le curieux empire habsbourgeois طبقا لما أشار إليه فرنان برادل[1].

أضف إلى ما سبق هو أنه رغم عدم تَشكُّل هذه الإمبراطورية بالشكل الذي نعرفه ظهر تجمع سياسي آخر مشابه خلال القرن السادس عشر. وقد أدى تفكك الخريطة السياسية في وسط أوربا بسبب "الإصلاح الديني" وعدم الحماية التي شعرت بها المدن الثرية في "البلاد الوطيئة" كنتيجة لإضعاف الإمبراطورية، وتفكك شبه الجزيرة الإيطالية وانقسامها إلى مدائن - دول، وتهديدات الإمبراطورية التركية.. الخ، أدى كل ذلك إلى ضرورة تكوين تنظيم سياسي أوسع وأكثر مرونة، على أن يكون هناك مركز آخر نحو الغرب، وأن يكون هذا التكوين أكثر تفهما للأراضي الأكثر ثراء وتقدما في القارة العجوز وهذا ما تبدى في وضع إطار له هو Limes القديم للإمبراطورية الرومانية.

هذه الخسارات التي وقعت في القارة العجوز تم الاستعاضة عنها بإضافة قارة جديدة، ولكن دون هيمنة سياسية رسمية في القارة العجوز، أي أن القوة الأوربية، التي يقع على عاتقها تنفيذ هذه العملية لم تكن مطلقة اليدين لفعل ذلك بسرعة، و كان من الممكن أن يزيد عدد القراصنة الفرنسيين والإنجليز الذين كانوا في الكاريبي إذا لم يكن لدى ملك الهند الغربية القوات الحربية المرابطة بشكل دائم وعلى مسافة قصيرة من باريس ولندن. وكان من الممكن أيضاً أن تكون هناك موارد أقل من مختلف الأنواع للقيام بمهمة بهذه الخطورة. وفي نهاية المطاف فإن اتخاذ إمبراطور الهند الغربية للقب الإمبراطوري أسهم في المزيد من الرفعة والقيمة والمرونة السياسية للمهمة وارتفعت درجة الوعي السياسي لدى من يتولون هذا المنصب.

تمكن كارلوس الخامس من الفوز باللقب الإمبراطوري بينما كانت تجرى الحملة على المكسيك، أي عندما قام كورتيس بحرق السفن ولكن قبل الاستيلاء على العاصمة. وكان من الممكن غزو العاصمة والسيطرة عليها بالطبع حتى ولو لم يحصل الملك القشتالي على اللقب الإمبراطوري؛ إلا أن الضم السياسي لذلك البلد الجديد كان يمكن أن تكون له أبعاد أخرى. وفي هذا المقام نجد المراسلات بين كورتيس والإمبراطور وكذا عدد المرات التي

---

(١) "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليبي الثاني". باريس ١٩٤٩، ص٥١٨.

يظهر فيها اسمه في المجالس التي ينسبها إليه برنال دياث وفي الكثير من الصفحات التي سطرها الجندي كاتب الحوليات، كل ذلك يدعونا إلى التفكير في هذا الاتجاه. فغزاة المكسيك كان يسيل لعابهم عندما كانوا يتحدثون عن إمبراطورهم السيد/ كارلوس "السيد العظيم" "الذي يلتف حوله الكثير من الأمراء العظام" وهو ذلك الرجل الذي عندما عرف "مدى عظمة موكتيزوما" فأرسلنا إلى هذه الأصقاع حتى نرى وحتى نعمل على أن يكونوا مسيحيين مثل إمبراطورنا ومثلنا نحن"[1].

لم تكن مجرد كلمات، فالمكسيكيون رابحون ذلك أنهم كانوا يتوفرون على فرصة كريمة لينضموا إلى هذا الصرح السياسي الضخم. وقد لوحظ منذ السنوات الأولى من حكم كارلوس الخامس ظهور أسلوب أكثر رفعة وتفهما في باب السياسة الخاصة بالهند الغربية، وقد تجلى هذا ليس فقط من خلال القرارات والتعيينات وإنما في آلاف التفاصيل الصغيرة - الساعة والنافورة، والصليب - التي يجدها الرحالة أمام ناظريه في كل خطوة يخطوها عندما يدخل الأراضي الأسبانوأمريكية، "وكأن ليس هناك مشاكل عويصة أمام حكمه في عالمين - كما يشير إلى ذلك مانويل توسنت أفضل من يعرف الفن المكسيكي خلال عصر نيابة الملك - حيث وصل عدد الهدايا التي قدمها لأسبانيا الجديدة لدرجة توحي بأنه لم يكن يفكر في شيء غير ذلك".

كان من الممكن أن يكون إمبراطور الهند الغربية شديد السخاء ورائعا في باب الهدايا الرائعة التي يقدمها للكنائس هناك إذ هو حامل لقب "الإمبراطورية المقدسة" وكذلك حامل لقب الإمبراطورية الجميلة التي هي عبارة عن عصر النهضة الإيطالي طبقا لتعبير جميل أطلقه كونراد بورداخ.

وإذا ما نظرنا إلى مؤسسي عصر النهضة وهم بترارك ودنتي وكولا دي ريندو، لوجدنا أن هذا العصر كان يعمل على تكوين قوة يونفرسال تقف في منطقة وسطى بين السياسة والدين خلال العصور الوسطى: "إنها هذه الإمبراطورية الروحية للثقافة اللاتينية المجدّدة، والتي عادت للظهور من جديد بفضل جهد الأمة الإيطالية". كانت هذه هي الإمبراطورية الثالثة وهي نوع من "إمبراطورية الرّب" شبه دينية، ومع هذا يجب أن يكون

---

(١) برنال دياث دل كاستيو، العمل المشار إليه، الفصل LXXXIX، الطبعة المذكورة، ص٨٤.

متوفرا في أذهان مؤسسيها وجود قاعدة هي "شبه جزيرة إيطاليا موحدة ومستقلة، رغم أنها يمكن أن تزدهر على أطلال الحرية، أي في ظل ازدهار الطغيان"[1].

لم يترتب على ذلك فقط انحطاط من منظور الأخلاقيات السياسية بل ترتب عليه إضعاف فعلي للبلاد حيث انقسمت إلى العديد من المدائن الدول وتعرضت للتشرذم بسبب الصراعات الداخلية والخارجية وحل بها الفساد بسبب انحطاط الالتزام بالـ Virtú (الفضيلة) التي تعتبر حجر الأساس، في رأي ماكيافلي، في حياة الأفراد والشعوب. كتب فيدريكوشا بود يقول "إن كتاب "الأمير" هو في آن معا خلاصة وتكثيف لأحداث قرنين من الزمان في التاريخ الإيطالي. وهناك ما هو أبعد من مجرد خلود ماكيافيلي المفترض؛ إنه العنصر الذي يجب أن يثير استغراب المعلقين، ألا وهو اهتمام ماكيافيلي الدائم، والذي يكاد يصل إلى درجة الهوس، بالحالة المزرية التي وصلت إليها حضارتنا".

لم يكن السقوط السياسي لإيطاليا محصلة أساسية لمصير محتوم وانتقام القوة من الروح طبقا لما كان يشير إليه خاكوبو بورخارد، بل كان المحصلة المنطقية للأحلام اللا واقعية واليوتوبية التي انطلقت منها. غير أن هذا الاستنتاج لا يعني هزيمة حقيقية ولا يجب أن يكون كذلك ذلك أن الإمبراطورية الأبولية (الإله أبولو) غير قابلة للتعرض للهجوم بسبب طبيعتها وينتهي بها الأمر بسيطرتها على من تمكنوا من هزيمتها. فقد تركت أسبانيا، تلك الأمة شديدة النهم armigera نفسها تتشبع بالأفكار العليا للنهضة الإيطالية، كما أخذت في الوقت ذاته تستحوذ على ما لدى الإمبريالية الجرمانية وذلك بفضل ما توفر لها من إمبريالية متبقية من العصور الوسطى؛ نجحت أيضاً في إعادة الحيوية للتوجه اليونفرسالي للبابوية وذلك بفضل حماسها التبشيري الذي اشتعل في إطار صراعها الطويل مع الإسلام.

وبهذا نجد أن العولمات الثلاثة للقارة العجوز عاشت نوعا من التلاحم والتواؤم، وإليها يمكن إضافة اليونفرسالية الجديدة وهي إمبراطورية الهند الغربية. تجاوز الأمر مجرد ترتيب أفكار أو مبادئ إذ كان تزامنا فعليا بين الألقاب والسلطات الاجتماعية تتعلق بشيء

---

(1) كونراد بوردخ, Vom Mittelalter zur Reformation, II Band, I Teil, I Hälfte, Berlin 1913, page 103

واحد حدث بسرعة مذهلة بما في ذلك بالنسبة لإيقاع العصر الذي نعيش فيه واعتدنا فيه على التحولات التاريخية المفاجئة. وفي غضون فترة هي ثمانية عشر عاما بالتمام والكمال، أي ابتداء من موت فرناندو الكاثوليكي (١٥١٥م) وحتى دخول بيثارّو الكوثكو (١٥٣٣م)، تراكمت على كاهل عاهل واحد تيجان الممالك الهسبانية hispanos وكذا الهيئات العديدة المتعلقة ببورجونيا وموكتيزوما وأتاوالبا Atahualpa، والإمبراطورية الجرمانية والأبولية الإيطالية والأرض البابوية بشكل تقريبي من خلال الضغوط التي مارسها البابا كليمنت السابع.

وفي عام ١٥٣٠، أي بعد ثلاثة أعوام على "نهب روما" استغرب الأوضاع بالنسبة لسيطرة كارلوس الخامس في إيطاليا، بقوة السلاح، استنادا إلى قاعدة الألقاب القانونية ذات الأصل الهسباني وكذا البورجوني والإمبراطوري، حيث جرى ضم هذه القواعد الثلاثة إلى التاج الذي يضعه عاهل الهند الغربية عندما جرى تنصيبه عام ١٥٤٠م، ألا وهو من سيكون بعد ذلك الإمبراطور فيليبي الثاني، حيث لقب بدوق ميلان. هناك القليل من المكائد - مستخدمين في هذا لفظة لهيجل - في التاريخ العالمي من تلك التي تتسم بالتعقيد وجرت الاستفادة بها لخدمة المهمة العظيمة وهي أوربة عالم جديد بسرعة.

ساهم الإيطاليون بشكل كبير في عملية الاكتشاف والاستطلاع وكذلك في أوربة القارة الجديدة وظل ذلك الجهد حتى بداية القرن الثامن عشر، كما أسهموا كذلك في الإفادة من مواردها. ومن الشائع عادة المبالغة في أهمية المرحلة الأولى وكأن كولومبوس كان قد علم القشتاليين الإبحار وكذا استعمار جزر الأنتيل سيرا على الإيقاع الذي كانت عليه الجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهنا ينسى من يفكرون بهذه الطريقة أنه عندما مر كولومبوس بجزر الكناري أمكن له أن يرى الثمار الناضجة الشديدة الشبه بتلك التي سوف يجدها في العالم الجديد، وليس على شاكلة ذلك المشهد الذي قرأه بشأن وضع الجمهوريات الإيطالية في شرق المتوسط. وعلى عكس ذلك الوضع نجد أن المؤرخين عادة ما يقللون من دور الإيطاليين في أمريكا ابتداء من اللحظة التي بدأت فيها سيطرة أسبانيا على شبه الجزيرة الإيطالية وبالتالي فإن الدور الإيطالي وإسهامه من خلال شبكة الأوعية التي كانت تربط بين مختلف أجزاء الإمبراطورية الكاثوليكية.

يُلاحظ أيضاً أن مختصرات كتب التاريخ العالمي الشائعة تسلط ضوءا أكثر على الوجود الهولندي في العالم الجديد مقارنة بالوجود الإيطالي أو الفلمنكي. لكن هذا ليس مثار مفاجأة ذلك أن المؤرخين عادة ما يخصصون عددا أكبر من الصفحات لسرد سير الحكام الهولنديين وملاحمهم في البرازيل أكثر من الحديث عن أعمال الحكام العموم البرتغاليين أو نواب الملوك من الأسبان. غير أن حقيقة الأمر هو أن الرهبان والرسامين والمعماريين والمهندسين والقائمين على أمر التعدين ورجال البنوك والجنود والتجار والنساجين والجنرالات والناشرين.. من الإيطاليين أو الفلمنكيين - الذين هم من رعايا ملوك الهند الغربية والذين يحظون بالكثير من الاحتكارات سواء كانت قانونية أو فعلية - تركوا أثرا أعمق في العالم الجديد مما تركه الهولنديون الذين كانوا يصولون ويجولون في مياه الكاريبي أو يقيمون في أقاليم شبه صحراوية وذلك حتى يستخرجوا المنتجات الاستوائية للمكان بفضل الأيدي الأفريقية العاملة.

ومن الحقائق الملموسة أيضاً مقابل ما سبق هو أن الهند الغربية تركت بصمتها العميقة في إيطاليا، إذ أتاحت الوفرة المالية التي كان عليها اقتصادها الفرصة أمام المملكة الكاثوليكية لتجمع الموارد والخدمات المتعلقة بالعديد من الرعية لمواجهة تفوق الأمبريالية التركية التي كانت تقوم على قاعدة اقتصادية لا تتسم بكثير من المرونة. وبدون خزائن المال الواردة من بوتوسي لم تكن أسبانيا لتتمكن من الإبقاء على إحدى وسبعين سفينة للتجوال في البحر المتوسط، حيث كان ذلك موجودا حتى عام ١٦٤٠م وبعدها، وكان من هذه السفن أربع عشرة سفينة لها قاعدتها في جنوة، وأربعة في سردينيا وعشرة في صقلية واثنتان وعشرون في نابولي، إضافة إلى سلسلة من الدفاعات والتحصينات التي جرى وضعها في عصر فيليبي الثاني للدفاع عن الشواطئ الإيطالية ضد هجوم الأتراك. وإذا ما كانت هناك دراسة اقتصادية فاحصة للإنشاءات التي أقيمت في كل من نابولي وباليرمو وميلان وروما وجنوه ربما تفصح عن هذا الكم الضخم من الأموال القادمة من الهند الغربية المستخدمة في الإبقاء على هذه المراكز.

يا لها من عملية تجسد مثاليات إنسان عصر النهضة واكتسابها القوة عندما هاجرت إلى ما وراء الأطلنطي وانتشرت واختلطت بواقع جديد حيث عاشت موقف الإعجاب بالعالم القديم وانفتحت بقوة وحيوية على المستقبل بشكل لا يمكن تخيله لو كان ذلك في

إطار الحدود الإيطالية! وهنا يتذكر المرء تلك الصفحة التي أخذ فيها برنال دياث دل كاستيو يقص" كيف أنه بعد أيام قليلة على قيام كورتيس بعرض "الكثير من الأحداث الملحمية للرومان" أمام الجنود وذلك حتى يقنعهم بها أمر به من إغراق المراكب، وبعد العرض عاد إلى الصف الجنود الأكثر اختلافا معه بعد أن ساق حججه "الخاصة بالنظر إلى كافة القصص بما في ذلك ما يتعلق بالرومان وبالإسكندر وكذلك من القادة الكبار والمشاهير الذين لم يكونوا ليجرؤوا على التراجع القهقري بمراكبهم". كانت إجابة كورتيس قاطعة وشديدة الحداثة مقارنة بما كان يمكن أن يصدره قائد آخر في الأراضي الرومانية Romagna "وفيما يتعلق بما تقولونه أيها السادة بأنه لم يحدث على الإطلاق أن قام أي من القادة الرومان من المشاهير بفعل أعمال عظيمة مثلنا، فهذا حق. ومن الآن فصاعدا، بفضل الله، ستقولون من خلال ما تفعلون، وسيذكره لكم التاريخ، وهذا أكثر مما فعله الأولون"[1].

(١) العمل المشار إليه سابقا الفصل LXIX، الطبعة المشار إليها، ص٦٢.

XXIII- ازدهار الباروك المسرف في العالم الجديد

أدى استخدام الأسلوب الأول المتعلق بعصر النهضة والأيبيرى في أوربة العالم الجديد إلى إيجاد أسلوب آخر ممكن حديث ومنتسب إلى شمال أوربا، بدأ في أمريكا الشمالية وكذلك في الكاريبي خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر، وقد ظهر في هذه البلدان التي أصبحت في تلك الفترة على رأس الحداثة sensu stricto في المجال الفلسفي والعلمي والسياسي والاقتصادي . . . الخ.

هو أسلوب يتعارض بوضوح مع الأسلوب المبدع في القرن الماضي وخاصة بالنسبة لحالة إنجلترا. فأمام النظام الاستعماري المتعدد التوجهات الذي عليه الهند الغربية الأسبانية، حيث هناك خليط من المقاطعات ذات الطقس الشديد الاختلاف وكذلك السلالات والطبقات والمواقف الاجتماعية لكن دون الوصول إلى العبودية وحرية المواطنين، نجد الأنجلو ساكسون يختارون نظامين مختلفين بشدة: من جانب هناك المستعمرة الكائنة على الشاطئ الشمالي الأوربي حيث الناس هناك أحرار ومتساوون، وقد حظيت هذه المستعمرة بالكثير من الهجرات المنتظمة والكثيرة خلال الفترة بين ١٦٢٠ و١٦٤٠ وكان ذلك بفضل دافع يوتوبي بالنسبة للحياة السياسية والدينية الكاملة؛ ومن جانب آخر، نجد جامايكا، ابتداء من عام ١٦٧٢م، تشهد سلسلة من الهجرات المفتعلة الأمر الذي أدى إلى وجود مجتمع للعبيد وهو مجتمع كامل في إطار نوعه.

ويطبق على النظامين، ولكن حسب كل، المنظور العرقي المتزمت، ففي مستعمرات الشمال هناك البيض مع زوال قطعي للسكان الأصليين؛ أما السود فهم في جامايكا، وحتى عام ١٧٨٧م وعلى مدار ما يزيد قليلا على قرن من الزمان تم نقل مليونين ومائة وثلاثين ألف أفريقي إلى الأنتيل الإنجليزية؛ كما أن السكان في جامايكا توزعوا حسب

النسب التالية: ١٠٪ من البيض و٨٦٪ من العبيد و٤٪ من البشر الأحرار من الملونين؛ وفي كوبا، عام ١٨٠٤، هناك ٥٤٪ من البيض، و٢٥٪ من العبيد، و٢١٪ من الأحرار الملونين. ويرى مادارياجا[1] "أن هذه الأرقام تعبّر عن مفاهيم حياة شديدة الاختلاف فيما بينها، كما ينعكس ذلك على جوانب أخرى من التناقض القائم بين الأنتيل الأسبانية والبريطانية، ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنه أمام الجامعات الدينية في كل من كوبا وبويرتوريكو كانت جامايكا حتى ذلك الحين خالية من أية جهة تتولى التعليم العالي". بدهية أيضاً الاختلافات في حالة المستعمرات الجنوبية مقارنة بأمريكا الأنجلوساكسونية، ذلك أنه لما كان هناك توازن بين السكان البيض والسود كانت الفوارق القانونية وكذا باقي الجوانب الأخرى فيما بينهما شديدة الوضوح.

كما يدخل هناك عنصر آخر للتمييز بين الاستعمار الإنجليزي والأيبيري وهو ما يتعلق بالحركة ومكان التواجد، فالمستعمرون الأنجلو ساكسون يستقرون عندما يبلغون شواطئ العالم الجديد وكأن توجههم كمزارعين يجعلهم يضربون بجذورهم في الأراضي التي تطؤها أقدامهم. وحتى عام ١٧٦٠م كانت بنسلفانيا المستعمرة الوحيدة التي يوجد بها مواطنون استقر عدد منهم على الجانب الآخر من Apalaches أبالاتشس، في وادي أوهايو Ohio اليانع. لكن هناك المزيد من المؤشرات في هذا السياق - التنقل - نجدها في حالة الاستعمار الهولندي، لكن هذا التنقل كان بحريا وتجاريا لكنه لم يكن بريا وبحثا عن الإقامة باستثناء مستعمرة الكابو Cabo.

وبعد سنوات قليلة من الرّسو على شواطئ البيرو قام الأسبان باستكشاف "السلسلة" وغابة الأمازون وأقاموا في أصقاع صعبة للغاية (مرتفعة)، ووصل بهم الأمر، على زمن الكونت مونتي ربي، إلى تنظيم جملة انطلقت من أسبانيا الجديدة واتجهت نحو القطب الجنوبي، وكانت على وشك بلوغ الهدف. وفي جاوه، حتى القرن الثامن عشر، لم تخضع الممالك المهمة للسكان الأصليين سواء من خلال الوسائل السلمية أو العنيفة وظل

---

(١) المصدر السابق، ص٣٧٧.

الأمر على هذا النحو حتى القرن التالي "حيث لن يتم استكشاف هذه المستعمرات حسب الأهمية من حيث الثروات الطبيعية الموجودة بها"[1].

الاختلافات ملحوظة أيضاً بين الاستعمار الأيبيري والاستعمار القادم من شمال أوربا (الأسكندينافي)، فلم تغب عن هؤلاء الرغبة التي كان عليها الغزاة والمستعمرون الأيبيريون، لكنهم كانوا يميلون إلى الخيال بشكل أكبر وليس إلى العمل الممنهج. ورغم أنهم لم يكونوا غائبين، وخاصة فيما يتعلق بأعمال استغلال المناجم، حيث أن الحظ هو العنصر الحاسم في الأمر وكذا العناية الإلهية والثراء المفاجئ والبذخ وما يترتب عليه من ترف وقد اختلط كل ذلك برغبة تبشيرية بين السكان الأصليين وإدماجهم. ولكن عند إدخال العقلانية على ما يسمى more geometrico "الأخلاق الهندسية" نجد أن العقلية الأوربية، في منتصف القرن، كانت تقنن في آن معا معنى المهمة الاقتصادية فيما وراء البحار. يتدخل عنصر آخر في ذلك وهو المخاطرة لكنها تأتي في شكل مضاربة برجوازية تجارية محسوبة ومنظمة.

من الأمور الجديرة بأن نبرزها في كلا نمطي المجتمع الاستعماري الأنجلو ساكسوني نجد الأنماط الحديثة للحياة السياسية التي تهيأت من خلال المفكرين الإنجليز خلال ذلك العصر. وفي حالة جامايكا يجرى تنفيذ المفهوم الآلي والنفعي في المجتمع لدرجة اللامعقول، وذلك من خلال تحويل المعبد إلى ماكينة للإنتاج الاقتصادي؛ ففي أمريكا الشمالية جرى إنشاء "بريطانيا الجديدة" الحقيقية ولم يكن ذلك بالاستيلاء المفاجئ على مساحات جديدة من الأراضي مثلما حدث في حالة أسبانيا الجديدة بل جاء ذلك من خلال القيام بعملية نقل أنماط حيوية إلى وعاء فارغ، جاءت من إنجلترا القديمة، رغم أن مصطلح "القديمة" في هذه الحالة لا يتضمن معنى ما هو تراثي بل ما هو حديث أي ذلك الذي ليس له مكان في المجتمع "المستقر" في إنجلترا. وتحت الغطاء الديني للمجتمعات الديمقراطية المتزمتة هناك نظام مجتمع نفعي يأنف من البذخ الذي عليه الرقعة الحضرية والميل إلى العظمة من خلال الترف الاجتماعي الذي كان سائدا في المجتمع المعقد، ونمطيته الأرستقراطية، في الهند الغربية التابعة لقشتالة.

---

(١) إنش. ريمنس "البلاد الوطنية في العالم"، ترجمة، باريس ١٩٣٩م.

وأيا كان الموقف المتخذ من العمل والاقتصاد في هذه المجتمعات المتزمتة والشديدة الاختلاف عن الهسبانية، من المهم الإشارة إلى أنه كان يقوم على قواعد دينية عميقة، الأمر الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان وذلك لمواجهة اتهام عادة ما يُكال ضد الاستعمار الأسباني للعالم الجديد من حيث أنه قام على أساس معتقدات قوية ومؤسسات دينية، وبالتالي يفهم من ذلك أنها كانت ذات أسس تحمل طبيعة العصور الوسطى.

هناك مفهوم تبسيطي للعصور التاريخية حيث يتم تجزئتها مصحوبة بنظرية غير مرنة تتعلق بالجدلية التاريخية بين العقل والإيمان، وقد أدى هذا إلى عدم إدراك الدينامية الحديثة التي أثبتت الاعتقادات والمؤسسات التي توصف بأنها ذات طبيعة العصور الوسطى تلك التي قام الأسبان بتطبيقها على أمريكا. وهنا نشير إلى ما كتبه كارل فوسلو[1] بالقول "بأن الميل إلى ما هو تراسندنتالي والنفور مما هو فان هو الذي جعل الأسباني قادرا على كسر الإطار الضيق للحياة الأوربية خلال العصور الوسطى من أجل هزيمة خصوصية الفردية للسادة الإقطاعيين وكذا للمدن والطائفية والانشقاقيين وأنصار الفردية، والكشف عن بلاد جديدة والطواف حول العالم وضم الكثير من الشعوب من مختلف السلالات واللغات في إطار إمبراطورية كونية كاثوليكية ضخمة. . . ".

كان ذلك بمثابة نوع من النقل الجسدي للمفهوم اللاهوتي للتراسندنتالية. ويتحول الإيمان إلى محرك لدينامية في المكان والمجتمع، طبقا لما كان يحدث أيضا – ولكن بمضمون وظروف جد مختلفين – في حالة الإنجليز. نجد أيضاً أن المعتقدات الدينية كانت عنصرا حاسما عندما انتقلت إلى الجانب الآخر من الأطلنطي وكذا في تكوين المجتمعات الاستعمارية حيث نجد أن الروابط بينها عادة ما تكون ذات طابع سياسي ديني حصري وهذا لا يبتعد كثيرا عن ذلك الذي ينسب إلى الهند الغربية الأسبانية. وبمرور الزمن نجد أن المحصلة العملية لهذه المعتقدات الدينية في أمريكا الأسبانية وفي الأنجلوساكسونية مختلفة عن كل منطقة بشكل واضح. وعلى أية حال يمكن الإشارة إلى أن كافة المفكرين الليبراليين الأوربيين الذين قاموا بتحليل المجتمع الديمقراطي للولايات المتحدة خلال القرن التاسع

---

(1) Die Badeutimg dar spanischen Kultur für Europ "en" südliche Romania, Leipzig 1950, pag: 268.

عشر أصيبوا بالدهشة لما عليه الأفكار الدينية من تجذّر في ذلك المجتمع، وهذا ما كان يتناقض مع القواعد الشديدة العلمانية التي عليها مجتمعات أقل ديمقراطية بكثير في العالم القديم.

وفي أمريكا، وبناء على أنها، تحديدا، مجتمع تأسس حديثا، نجد أن أسسه الدينية كان يجب أن تكون أكثر صلابة بالمقارنة بالمجتمعات الأكثر قدما والمُستَهلكة في أوربا؛ وعلى هذا كان من غير المسموح به، من منظور سوسيولوجيا الدين، التقليل من شأن الطابع التبشيري الاستعمارى الأيبيري ومقابلته بطابع الحميمية والتعددية المفتوح في باب العقلية الدينية التي كانت سائدة في أمريكا الإنجليزية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واستبعاد أي منظور ديني بحت، إذن، ما الذي كان أفضل من أجل أوربة السكان الأصليين في العالم الجديد من المنظور الراديكالي للمعتقدات: هل هو التزمت الديني والعرقي من الحماس الغيور على كسب أنصار للدين وكذا البعد السلالي، الذي هو من سمات عصر النهضة، للهسبان hispanos؟.

وإذا ما نظرنا إلى ما يتعلق بمفهوم الفضاء الاستعماري من الممكن القبول بأن كلا من الإنجليز والهولنديين طبقوا نظاما أكثر حداثة انطلاقا من اعتدالهم المحسوب مقارنة بالطابع المغامر الذي عليه الأيبيريون، ولكن بدون هذا الطابع المغامر لم يكن ليكتشف الكوكب، ولم يكن الهولنديون ليصلوا إلى جاوه. أما فيما يتعلق بما هو ملائم لتنظيم المجتمعات الأسبانو أمريكية المتنوعة أي بنية سياسية تحمل طابع عصر النهضة، وبالتالي فهي بنية غامضة وقديمة بعض الشيء كما هو الحال بالنسبة للمملكة الكاثوليكية، ليس من الضروري الكثير من الإصرار. إن الصورة الضخمة التي عليها مدينة المكسيك، والتي تبرز الحيوية التي كانت عليها البلاد خلال القرن الثامن عشر إنما هي خير برهان على ذلك.

وعند النظر إلى نيابات الملك من حيث الأداء الذي يتسم بأنه مستقل ذاتيا بدرجة ما نجد أنها تمكنت من مباعدة نفسها عن التذبذبات التي كانت تهز أسبانيا رغم أنها بدأت بأزمة المجمع الاقتصادي "أشبيلية - الهند الغربية". وعندما يغرق الجناح الأوربي لهذا البناء السياسي الضخم الذي هو الملكية الكاثوليكية، فإن الجناح الأمريكي له لم يقف عند حد البقاء دون أذى بل يذهب إلى ما هو أبعد وهو بلوغه ازدهارا كبيرا. لوحظ، بدهيا، في

أمريكا الانحطاط الذي كانت عليه الأسرة النمساوية الحاكمة في أسبانيا، وخاصة ما يتعلق بتدهور العلاقات الإدارية والاقتصادية، لكن ذلك كانت بدرجة أقل بكثير مما كان عليه الأمر في شبه جزيرة أيبيريا.

بدأ المجتمع المختلط الذي تأسس في الهند الغربية خلال القرن الماضي يؤتي أكله في إطار تيار مضاد يتسم بالحيوية في الوقت الذي يخبو فيه نور القوة الإبداعية للعبقرية الأيبيرية. وعلى هذا فعندما تجف الرِّيش أو تصبح مبتذلة في شبه جزيرة أيبيريا، نجد أفضل اللوحات تخرج من بين يدي الفنانين "الكريّو" أو المختلطين أو الهنود. عاش أفضل الرسامين الأسبانوأمريكيين خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر. وعند التجوال في أمريكا من الشمال إلى الجنوب يبرز في المكسيك كل من بلتسار إيتشابي ريوخا (B. Echavi R. (1632-1682 وكريستوبل دي بيالبا ندو C. de Villalpando (1645-1714م)، وفي كولومبيا نجد جريجوريو باثكيث دي أرتي ثيبايوس (G.V. de Arcez (1638-1711 وفي الإكوادور هناك ميجل دي سانتياجو (١٦٥٥، أول عمل له ١٧٠٠؟) ونيكولاسل خابيير دي جوريبار N.J. de Gorbar (1665-1736)؟) وفي بيرو دييجو كيسيي تيتو D. Puispe T. (1621-1681؟) وفي شاركاس هناك مليتشور دي أولجين (١٦٦٥؟ ـ ١٧٢٤؟).

كانت المكسيك على سبيل الخصوص البلد الذي دخل بقوة القرن الثامن عشر والبلد الأكثر ازدهارا وإبداعا على مدار ذلك القرن، فقد دخلت يد التجديد على كثير من مدنها وخاصة العاصمة كما تتبدى أمام نواظرنا اليوم بدرجة أكبر مما عليه باقي مدن العالم الجديد وأغلب مدن العالم القديم من تلك المدن ذات السمات العمرانية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر. ولم ينج من هذا التجديد القوي في عاصمة أسبانيا الجديدة إلا الكاتدرائية وأديرة الراهبات التي ترجع في أغلبها إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر.

بدأت عمليات التجديد خلال السنوات الأخيرة من حكم الملك كارلوس الثاني، واستمرت حتى أيام الاستقلال، وكان ذلك في إطار تطوّر أسلوبي عبارة عن مراحل ثلاثة؛ ففي المقام الأول هناك تلك المباني التي لا زالت تحمل الأنماط الموروثة عن عصر الباروك خلال حكم الأسرة النمساوية، وتبرز من بينها الكنيسة الدير سانتو دومنجو؛ ومن ناحية

ثانية هناك المرحلة التي وصفها مانويل توسنت باسم "أسلوب تشوريجيرا Churriguera، مستخدمين في ذلك المصطلحات السائدة في شبه جزيرة أيبيريا أو أسلوب الباروك المبالغ فيه بالمعنى المزدوج الذي عليه "ما وراء البحار" والمبالغات الأسلوبية. وفي النهاية هناك المرحلة الثالثة، الكلاسيكية الجديدة، التي تبدت بقوة خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وذلك من خلال أعمال لها أهمية كبرى وقيمة جمالية رفيعة مثل قصر "كوليج المناجم" C. de Minería والواجهة الخارجية للكاتدرائية.

تعتبر مدرسة الباروك المبالغ فيه المدرسة الأهم والأكثر أصالة من المدارس الأخرى، حيث لا تقتصر على العمارة بل انطلقت طموحة، مثل أي أسلوب حقيقي، لتدخل أيضاً عالم النحت والرسم وأغلب الفنون الزخرفية أو الصناعية. ومما لاشك فيه أن بعض المباني التي تحمل بصمات هذه المدرسة تبدو كأنها تجمعات أثرية بين أفضل النماذج في التاريخ العالمي للفن خلال القرن الثامن عشر. وهنا يمكن أن نشير فقط إلى بعض دور العبادة في العاصمة وهي كاتدرائية ساجراريو والثالوث المقدس وسان فرانثيسكو ولا إنثينينثا Ensenanza، إضافة إلى المدارس الرائعة vizcainas الباسكية وسان إلدفونسو حيث أنها مبان، ذات تصميم جديد، تشكل جزءا من السلسلة الطويلة للمنشآت المدنية التي تم تجديدها أو تشييدها على مدار القرن بدءا بقصور نيابات الملك وبمقر المجمع الكنسي Cabildo وانتهاء بحلبة مصارعة الثيران. يجب أن نضيف إلى ما سبق أربعين بيتا كبيرا على الأقل لها مرتبة السراى، كما أن أغلبها يحمل بصمات المدرسة الباروكية المبالغ فيها.

وطبقا لما يشير إليه الاسم الذي استخدمته السلطة العليا في المكسيك، في باب الفن في عصر نيابة الملك، فإن الدافع الذي يكمن وراء هذه الحركة الفنية أتى لإسبانيا الجديدة من أسبانيا القديمة. هناك القاعدة على شكل هرم منقوص والعقد المتعدد الخطوط والميل إلى المساواة بين الواجهة وحامل الأيقونات والميل إلى تغيير مواد البناء وتهذيب الكتلة الحجرية وكأنها قطعة من الخشب أو العكس. . الخ حيث أتى كل هذا من شبه الجزيرة. ومنها أيضاً قدم عدد غير قليل من الفنانين مثل: خيرونيمو بالباس، الذي أدخل القاعدة على شكل هرم ناقص، ولورنثو رودريجيث، مستشاره في واجهة ساجراريو في كاتدرائية العاصمة وهما أندلسيان، كما أن الفنان الكبير مانويل تولسا من بلنسية، وهو معماري في

كوليج المناجم، حيث عنى بالشخشيخة (رقبة القبة) وبواجهة الكاتدرائية، وهو الذي قام بنحت التمثال الضخم لكارلوس الرابع. وعندما يكون المعماريون من أبناء السكان الأصليين نجد قامات مهمة منها أنطونيو جيرّيرو وفرانثيسكو إدواردو ترس جيرّاس وداميان أورتيث دي كاسترو، حيث كانت لهم صلة قوية بالفن الأوربي من خلال أسبانيا. وعلى ذلك فإن آخر المعماريين من الأسماء المذكورة سلفا سار في بناء أبراج الأجراس في كادترائية المكسيك على النموذج المقام في كاتدرائية بمبلونة والتي شيدها بنتورا رود ريجيث.

هناك ناقد حديث هو جورج كبلر، يعتبر من النقاد الذين لهم باع طويل في باب الفن السابق على عصر الاكتشاف؛ لفت هذا الناقد الانتباه ضد الميل المبالغ فيه إذ كان يستلهم العقلية القومية، حيث يلمح بعض الإسهامات ذات الطابع المحلي في الآثار الأكثر رفعة في المكسيك "تعتبر الزخارف الجصية في مصلى روساريو في سانتو دومنجو في بويبلا وكذا غرفة عذراء النصر في ملقة متشابهان دون أن يميل المرء إلى ذكر ما قبل غزو أمريكا Preconquest American admixtures [(١)]. ويسلط الضوء بشكل خاص على أنه كيف أن العديد من العناصر المعمارية المكسيكية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر تستوحي قطعا أندلسية سابقة عليها. ومع هذا من غير المنطقي في هذا الصدد الحديث عن تبعية أو شيء من هذا القبيل. ومما لاشك فيه أن القاعدة الهرمية المنقوصة التي ولدت في عاصمة المملكة وجرى إدخالها أشبيلية انتقلت إلى مدينة المكسيك" حيث ضربت – طبقا لأنجولو إنيجث – بجذورها بقوة وحيوية لدرجة أنها تشبه نباتا محليا وليس منقولا" وحقيقة الأمر أنه مع مرور الوقت غزت هذه القطعة، "الهرم المنقوص"، حوامل الأيقونات في كافة أنحاء شبه الجزيرة لكن في مدريد فقط كان هناك معماري ذو شهرة، هو بدرو ريبيرا الذي أنشأ مدرسة ذهبت بهذه القطعة إلى الخارج وجعلتها مستخدمة بشكل ثابت في واجهات المنازل ودور العبادة"[(٢)]، وفي الوقت ذاته نجد أنها وصلت إلى أرض "أنا هواك" Anahuac واستخدمت في عدد لا نهائي من الواجهات التي استخدمتها في إطار تكوينات رائعة.

---

(١) الفن والعمارة في أسبانيا والبرتغال وأثرهما (١٥٠٠ـ١٨٠٠)، The Pelican History of Ant.، ص٧٨، ١٩٥٩.

(٢) دييجو أنجولو إنيجث: "تاريخ الفن الأسبانو أمريكي" الجزء الثاني، ص٥٥١.

هذه القطعة الباروكية، الهرم الناقص، كانت نوعا من المقابلة ورد الفعل الأكثر اكتمالا على الخطوط المنحنية التي تُرى في العمود التقليدي - بما لها من شكل هرمي منقوص ومكعبات وزوايا وحواف وأحرف وانكسارات وتناقضات عنيفة من الضوء والظلال - وكانت هذه القطعة مدعوّة لتقدم أفضل ما عندها تحت الشمس الحارقة في المرتفعات المكسيكية في إطار تكوينات كبيرة إيقاعية وقد تحررت من أية وظيفية تلصق لها، كما كانت متسقة مع الإطار الطبيعي المحيط والذوق الذي عليه السكان الأصليون. يحدث الشيء نفسه بالنسبة للعقد المتعدد الخطوط حيث يمكن البحث عن أصوله في التاريخ البعيد خلال العصور الوسطى وخلال العصر الشرقي الهسباني[1] لكنه قدم أفضل ثماره في أسبانيا الجديدة. وأسهمت مواد البناء من الـ tezontle المائل للحمرة والكتل الحجرية البيضاء chiluca في إضفاء السمة الطبيعية على الأشكال المعمارية، ولو كان هذا قليلا، فإن الأرض الرخوة الطرية التي شيدت عليها العاصمة أدت إلى أنه عندما فقدت الكثير من المباني قواعدها تركت - على ما يبدو - بصماتها الأرضية في الكنائس والقصور.

ومع هذا لا يشعر الأسباني الذي يتجول في المدينة التي ترجع إلى القرن الثامن عشر والأكثر ضخامة بين كافة المدن المتحدثة بالأسبانية، والتي لا يمكن مقارنتها إلا بالقليل من المدن الأوربية، إلا بالقليل من الاستغراب رغم تفرد المدينة جغرافيا واجتماعيا فهل هي أسبانيا القديمة أو الجديدة؟ هل ذلك سانتياجو دي كومبوستيلا أو مقر الكاتدرائية المكسيكية؟. الحد الفاصل يكمن فقط في اللكنة ودرجة البهرجة أو تشكيل المنحنى؛ لكن فيما يتعلق بالتجربة الشخصية لكاتب هذه السطور يمكن التأكيد على أنه لم يتمكن من فهم الرسالة الفنية للكوليخياتا Colegiata التي عمدّوها بها من خلال الكوّة الضخمة للمدخل المحاط بالمنحوتات وأبراجها الفخمة وكان يرمقها يوميا سواء بنظرة تأملية أو عابرة أثناء ذهابه وإيابه من المدرسة، وظل على هذا حتى اكتشف أعمالا أثرية مشابهة، أكثر قوة وفانتازية، يلفها شعاع نوراني فريد لا مثيل له، في الهضبة المكسيكية.

---

(١) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٥٥٣ وما تليها.

XXIV- الانعزال والتقدم

من المؤكد أنه يوجد في الفن المكسيكي خلال القرن الثامن عشر، في الكنائس الرائعة ذات الأسلوب الباروك المبالغ فيه ultrabarroco، طابع أكثر هسبانية hispanico وأقل أوربية مقارنة بالمباني التي ترجع إلى القرون السابقة. لم تصل الأنماط الباروكية في أي من البلدان في القارة العجوز إلى تلك العظمة الملموسة التي هي من أهم سماتها في شبه جزيرة أيبيريا وكذلك الأمر بشكل أكبر في أسبانيا الجديدة. وجدت المملكة الكاثوليكية نفسها مبعدة، في عملية السلام في أوترشتUtrecht ، عن الدائرة الفنية التي دخلت إليها الكثير من البلدان الأوربية وبالتالي وجدت نفسها مجبرة على أن تعتمد حصريا على قوتها. وعندما شعرت بالتهميش في باب التوجهات الجديدة ذات الطابع العقلاني والعاطفي الأوربي اشتعلت جذوة الباروك الهسباني، وسلط الضوء في أسبانيا الجديدة على الضوء والظلال والتكرار المفخم والميل إلى ما هو غير واقعي.

نعم، لقد نفذت روح عصر التنوير إلى بلاط أسرة البوربون ثم انتقل منه إلى الهند الغربية. وفيما يتعلق بالأسلوب اللاهوتي-الديمقراطي الذي يرجع للعصور السابقة نجد أنه عندما تنصهر المعتقدات نفسها في جسد جماعي واحد، ابتداء من الملك، وحتى آخر أفراد الرعية، فإنه يتم تغيير هذا بدرجة معقولة بأسلوب أكثر هدوءا وأكثر موضوعية وأكثر ثقافة وأرستقراطية والذي يمثله رمز حيّ هو شخص كونت/ اراندا ، كمقابل لشخص الكاردينال ثيسينروس. لكن لا يجب أن نبالغ في أهمية التوجه الجديد، ذلك أن أسلوب عصر التنوير اصطدم بعدة عقبات مهمة سواء كان في أسبانيا أو في الهند الغربية وذلك بسبب ما عليه من تنظيم اكتملت ملامحه قبل ذلك بقرنين من الزمان. لا يستوي القيام ببناء

مبنى كولونيالي، ذي مخطط جديد طبقا لمخططات العقلانية الجديدة، مع القيام بإصلاح منزل كبير حيث كان الأمر والنهي في يد الحوائط الصلدة وأساساتها الجغرافية والإثنية.

خرج أوتس كابديكي Ots Capdoqui إلى خلاصة مفادها أن الاستبداد التنويري لم يكن قادرا على حل "مشكلة الهندي"، رغم أنه تمكن من رفع المستوى العام للثقافة في الهند الغربية، ولم يقتصر الأمر على هذا بل خلق في نفوس المخلطين والكريّو نغمة كبيرة، ذلك أنه جعلهم أكثر بعدا عن ذي قبل عن الحياة السياسية والإدارية. وهنا فإن الإصلاحات في شئون البلدية الشهيرة التي أمر بها كارلوس الثالث أسهمت في المزيد من انحطاط المجالس، وليس الإعلاء من شأنها، من خلال زيادة التأثير الحاسم على قراراتها من قبل التاج[1]. لم يكن في كل ذلك نوع من الخلل بل كان هناك منطق استنتاجي يعتمد على مبادئ سياسية، ذلك أن الاستبداد التنويري في جوهره كان يميل إلى المركزية وإلى التمييز العرقي ولا يمكن له أن يتوصل لحل المشاكل العويصة في مجتمع مختلط.

ومن حقائق الأمور كذلك أن بعض الأيديولوجيات خلال القرن الثامن عشر ساعدت على التوصل سريعا لحل "لمشكلة الهندي". فالمثل الشائع في أراضي أمريكا الشمالية والقائل 'only a dead Indian is a good Indian' "الهندي المقتول هو الهندي الجيد"، كان يقدم شيئا أفضل من مجرد حل: إلغاء المشكلة. ومما لاشك فيه أن السكان الأصليين في مناطق الرعي في أمريكا الشمالية كان يميل بشكل أكثر إلى الموت مقارنة بذلك السلمي في المرتفعات المكسيكية - كتب ألكس دي توفيل A. deTocqueville يقول[2] "لقد سافرت إلى أصقاع شاسعة كان يسكنها الهنود النابضون بالحياة وهم اليوم لا وجود لهم... كانوا يشعرون بالشرور التي كانت تتراكم على رؤوسهم عاما بعد عام وأنهم سوف يهلكون عن آخر رجل فيهم إذا ما رفضوا العلاج: وأنه يجب استخدام القوة لإجبارهم على العيش...". لكن من يستطيع أن يصل إلى عمق الروح الجماعية؟ ربما أسهم العلاج في الوقت المناسب الذي كان يمكن أن تقوم به مجموعة من اليسوعيين

---

(١) خوسيه ماريا أوتس كابديك "الهيئات التأسيسية" في "تاريخ أمريكا والشعوب الأمريكية"، مدريد ١٩٥٩م، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق، الطبعة المذكورة I، ص ٢٣٥

الفرنسيين خلال القرن السابع عشر في هذا الميل الغريب للانتحار الذي أسهم بشكل حاسم في حل مشاكل سياسية ومشاكل تتعلق بالضمير.

ومن البراهين الواضحة الدلالة على أن عقلية القرن الثامن عشر لم تكن على استعداد لمواجهة المشاكل الضخمة القائمة في المجتمعات الأسبانوأمريكية، هناك حركة العداء نحو العالم الجديد التي انطلقت في منتصف القرن وانساق وراءها الكثير من العقليات الأوربية من الصف الأول. وسوف يقوم بوفون Buffón بالدفاع عن نظرية "عدم نضج" القارة الأمريكية، حيث نجد أن مملكة الحيوانات فيها هي الأدنى أو أنها ضعيفة مقارنة بما هو موجود في العالم القديم. وقد لاحظ ذلك علماء الطبيعة الهسبان خلال القرن السادس عشر. أما الجديد فكان هو الرؤية العلمية المصحوبة في آن معا بحكم الإدانة التي يغلفها.

وأمام البعد الأسطوري للسكان الأصليين والطبيعة في العالم الجديد التي صورها لنا الأب/دي لاسلي كاساس وكذا موتولينيا Motolinía وتركمادا Torquemada وكثيرون آخرون من الكتاب، هناك اتجاه آخر بدأ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ينحو إلى "إلغاء تلك الصورة الأسطورية بشكل راديكالي. وهنا يؤكد بوفون بشكل ساخر أن أكبر حيوان في العالم الجديد هو التابيارtapiar البرازيلي – أي الفيل الأمريكي – وهو يبلغ حجم عجل يبلغ من العمر ستة أشهر أو بغلة صغيرة". وينضم الي هذا كل من هوم Hume وفولتير ومونتسكيو ومعهم آخرون ممن يقللون من شأن العالم الجديد والذين من بينهم – في المقام الأول – نجد كاتبا أقل شأنا لكنه ناقم وفظ في المناقشات المحتدمة، ألا وهو البروسي دي باو De Pauw. وفي رد فعل يصعب فهمه نجد أنه عندما وصل العالم القديم إلى واحد من العصور التي ساد فيها التفاؤل بشدة يتعرض العالم القديم للهجوم والاستهجان، فلم يقتصر الأمر فقط على سكانه بل شمل عالم الحيوانات فيها وعالم النباتات والطقس وكذلك جيولوجيته.

أثر هذا الموقف الاحتقاري، الشديد التضارب من حيث المبدأ مع الروح الكوزموبوليتية لعصر التنوير، تأثيرا كبيرا على سكان الهند الغربية الهسبانية مقارنة بالتأثير الذي تعرضت له المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، إذ كانت أقل مساحة وأقل نضجا كما أنها تقع في منطقة جغرافية ممتازة وقادرة، بفضل هذا، على الدفاع عن نفسها

دون حاجة إلى أدلة وبراهين مثل تلك التي استخدمتها المقاطعات الموجودة في جبال الأنديز دفاعا عن نفسها. أضف إلى ذلك كان هناك هجوم مقنع يستكن تحت الشكليات العلمية والفلسفية موجه إلى ذلك البلد الذي ارتكب الفعلة غير الرصينة الراغبة في أوربة السكان الأصليين في هذه القارة المغضوب عليها. وانطلاقا من هذا هب عدد من الكتاب الذين يكتبون باللغة الأسبانية على شاطئ الأطلنطي للدفاع عن القارة الأمريكية حيث سلطوا الضوء على الظروف التاريخية الجديدة، وعلى ضوء عالم أوروبي عدائي وغير ميال للانتباه لما حوله، استمروا على نهج كتاب الحوليات الهندية العظماء خلال القرن السادس عشر.

أخذوا بذلك يعيدون إحياء روابط المصير التاريخي الذين يربط الشعوب المتحدثة بالأسبانية. لم يكن الأمر مجرد مشكلة أدب الصفوة، بل من الأمور بالغة الدلالة أن كلا من كلابيخيرو Clavigero ومولينا وبيلاسكو وموكسو Moxó ... الخ – أغلبهم من اليسوعيين – أشرعوا أقلامهم للمشاركة في هذه المعركة "ضد الطائفة الحديثة من الفلاسفة المعادين للأمريكان" والتي ربما بدأها بكلمات حامية أحد الكريّو الديناميين، في برلين تحديدا، المدينة التي شهدت أستاذية الكرسي لـ De Pauw، الأكثر نقمة بين أولئك الفلاسفة. كان اسم ذلك الفتى خوان بيثنتي جويس باتشيكو دي باديا، وكان في مهمة تطواف في أوربا من أجل "تحسين مستواه" بعد أن طاف، للغاية نفسها، بالكثير من الأقاليم في العالم الجديد، الأمر الذي يسّر له الحصول على الكثير من البيانات الإيجابية للرد على تلك النظريات الأكثر شيوعا وهي أن الرجال الأمريكان هم من أقل الناس ميلا إلى الشغف بالجنس وأن اللبن ينزل من أثدائهم[(١)].

كان ذلك الكريّو ابن أول كونت دي Revillagigedo ربيًا خيخيدو، نائب الملك في أسبانيا الجديدة، وهو المنصب الذي سيشغله هو نفسه بعد أن اجتاز دراسة الحربية في أسبانيا والتي برز فيه لدرجة اعتباره أفضل نائب للملك لأسبانيا الجديدة على الإطلاق. هذا الكونت ربيًّا خيخيدو، الذي كرمته المكسيك عام ١٩٣٣م، ينشر كتابه المعنون "رؤية الحاكم" Juicio de Residencia الذي يعتبر شهادة رسمية على أدائه الرائع في الحكومة، حيث قام بتجديد عاصمة نيابة المملكة وبذل جهدا لا يكل في تحسين إدارة العدالة

(١) أنطونيو خربي، العمل السابق، ص١٧٥.

والتربية والشئون الخيرية والمالية والزراعة والاتصالات والدفاع عن البلاد. . . الخ. كان ذلك النائب الملكي يعرف أن على أسبانيا القيام بإصلاح مسار حكومتها في الهند الغربية لكن تحت هذا يجب أن تحافظ على ولائها للتوجه التحضّري وهو توجه يصعب للغاية على الشعوب الأوربية فهمه في تلك السنوات التي عاش فيها.

كانت أسبانيا الجديدة هذه هي التي قام بتجديدها نواب الملك كارلوس الثالث المتازين والذين يبرز من بينهم كونت ربيّا خيخيدو آخر سلسلة نواب الملوك في تلك الفترة والتي كانت على وشك الانقطاع بعدما قام كونت جودوي Godoy بتعيينه؛ وكانت هي التي زارها ألكسندر فون هُمبولت في نهاية رحلته الطويلة عبر القارة حيث ترك لنا صورة كاملة عنها مستخدما مناهج جغرافية وإحصائية دقيقة، الأمر الذي يجعل من هذه الصورة وثيقة لا نظير لها لمعرفة ما كانت عليه مجتمعات نيابة الملك في آخر مراحلها.

نطالع لأول وهلة أن المكسيك بلد مكتمل يعيش حالة اكتفاء ذاتي "يقدم الأسبان الأمريكان - طبقا له - في إطار وحدة أسبانيا الجديدة وجواتيمالا النموذج الوحيد في المنطقة الحارة لأمة مكونة من ثمانية ملايين تحكمها قوانين وهيئات أوربية حيث يزرع هناك السكر والكاكاو والقمح والعنب كما لا يكاد يوجد هناك عبيد انتزعوا من الأرض الأفريقية".

ورغم أن المزارع الهندي فقير فهو حر كما أن حالته "أفضل بكثير من أقرانه من القرويين في كثير من الأماكن في أوربا الشمالية"[1]. وبالنسبة لمن يعمل في حقل التعدين في أسبانيا الجديدة "فهو يحصل على دخل أفضل بين كل من يعملون في هذا الحقل" حيث يحصل على راتب يصل إلى ستة أضعاف زميله الساكسوني. وختاما نسترشد بعبارة لتوينبي يقول فيها "إن البروليتاريا الخارجية" التي توجد خارج الغرب كانت أفضل حالا في المعاملة من "البروليتاريا الداخلية".

وإجمالا للقول فإن المستوى الاقتصادي في أسبانيا الجديدة كان أعلى مما كان عليه في أسبانيا، ذلك أن همبولت كان أشار إلى أن متوسط الدخل للفرد كان سبعة بيزو لكل مواطن في شبه الجزيرة مقابل عشرة بيزو لكل مواطن في أسبانيا الجديدة وأربعة عشر بيزو

---

(١) "مقال سياسي حول مملكة أسبانيا الجديدة" الجزء الثالث، ص١٢٠.

لكن ذلك لم يحل دون أن تكون المكسيك، البلد الذي ظلت مناجمه تنتج ثلثي الفضة الأمريكية حتى نهاية القرن الثامن عشر، عملية استثمارية جيدة للتاج الأسباني فمن خلال متوسط اليوميات التي قدرها الجغرافي الألماني بأنها أغلى خمس مرات مما عليه الهند البريطانية، ومع تعداد للسكان أقل خمس مرات، كان الملك الأسباني يتلقى من المكسيك ربحا صافيا - ثمانية ملايين بيزو - وهذا ضعف ما تتلقاه بريطانيا العظمى من الهندستان[1].

لم يترك همبولت أمر الكشف عن جوانب معتمة في ذلك المجتمع وعرضها، والتي كانت فيه مثل الفوارق بين السلالات والمجموعات الاجتماعية المضطهدة مقارنة بالبيرو على سبيل المثال. كانت توجد في المكسيك ثروات ضخمة جمعها من يقومون باستغلال المناجم وكذلك الإقطاعيون مثل حالة كونت بلنسية وكونت رجْلا وماركيز فوجواجا Fogoaga. كما أن بعض الأساقفة كانوا أكثر ثراء من الأمراء مَن الحكام الألمان. وعلى هذا فإن الجو المخيم في عاصمة نيابة الملك نوع من حياة البذخ شعر بها البارون فون همبولت إن لم يكن الفيلسوف، فهو ذلك الأرستقراطي المنفتح على العالم.

هذان التياران في شخصه كان يمكن لهما أن يتعايشا وذلك عندما تمكن الرحالة من اكتشاف سيدة فاضلة هي مدام ستايل المكسيكية "de schöne Rodriguez" ذات السمات الروحية التي تتفوق على جمالها الأنثوي[2].

كانت الطبقات القادرة في المكسيك تركز جهدها في حقيقة الأمر، على حقل رعاية الفنون الجميلة بأن ترسل أبناءها للدراسة في أكاديمية سان كارلوس، التي تأسست تقليدا لأكاديمية سان فرناندو في مدريد، والتي كانت تفتح أبوابها للطلاب دون تمييز بينهم في السلالة أو الطبقة الاجتماعية وتقدم لهم، في مجال التعلّم، "سلسلة من الأعمال الجصية الأكثر جمالا واكتمالا لا مثيل لها في ألمانيا"[3]. لكن كانت هناك هيئة أخرى تثير المزيد من الإعجاب، بها هسبان hispanos، مقارنة بتلك التي حازت إعجاب همبولت: إنها "كوليج التعدين" ففيها أمكن للطالب أن يتحدث لغته، إذ بالإضافة إلى المهنيين الجرمان في

---

(١) المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص١٨٨.

(٢) Vid هانوبيك "ألكسندر فون همبولت" ويزبادن ١٩٥٩م، الطبعة الأولى، ص٢١٦.

(٣) "مقال سياسي حول مملكة أسبانيا الجديدة"، الجزء الثاني، ص١٢٢.

هذا المركز كان هناك إثنان من المدرسين الأسبان وهما فاوستو الحويار F. Elhuyar وأندرس مانويل دل ريو، حيث درسا على التوالي في فيينا وفراى برج Freiberg، حيث كانت هناك أفضل مدارس التعدين في كافة أنحاء أوربا والتي كان همبولت نفسه طالبا فيها.

تمكن همبولت على مدار رحلته من ملاحظة المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الدراسات في علم النبات في الهند الغربية حيث ساهمت الحكومة الأسبانية في تطويره بدعمها الاقتصادي الذي فاق ما فعلته أي دولة أوربية أخرى. تمتد مدائح العالم الألماني أيضاً إلى تلك الفصول الأكثر تقديرا طبقا لروح العصر: المسارات البحرية، و"الطريق الفريد" الذي كان يجرى بناؤه بين حديقة المكسيك وبيراكروث والإنشاءات الهيدروليكية لتعريف مياه البحيرة، حيث تعتبر كل هذه من أفضل الأعمال في تاريخ الإنسانية، وشرطة المدينة ومشروعات القنوات الرابطة بين المحيطين والعمل على تنشيط التجارة الداخلية. . . الخ.

وفيما يتعلق بخدمات البريد التي تسمح للمقيم في باراجواي الاتصال بشكل منتظم مع من هو في المكسيك الجديدة أو كاليفورنيا الجديدة مع وجود مسافة تساوي المسافة بين باريس وسيام أو بين فيينا ورأس الرجاء الصالح، نجد أن هذه الروح الوثابة التي كان عليها همبولت واضحة ومتفاعلة مع ما يرى؛ "يطيب لي أن أشير إلى هذه الهيئات – يقول[1] - التي يمكن اعتبارها واحدة من أفضل الأعمال في الحضارة الحديثة. . . لقد أسهمت في تسريع انتقال الأفكار، وأصبحت شكاوى المستعمرات تصل بسهولة إلى أوربا كما أن السلطات العليا تتولي البت في مشاكل كان يمكن أن تظل مطوية للأبد بسبب المسافات الطويلة".

يلاحظ من خلال الصفحات الكثيرة التي سطّرها همبولت حالة الإعجاب التي كان يشعر بها إزاء النشاط الدؤوب الذي يقوم به التاج والإدارات المركزية المسئولة عن الهند الغربية لصالح الرعية من الأمريكان الذين كانوا يعيشون في أصقاع بعيدة ومتفرقة وهي جهود أحيانا ما يعيقها صغار الموظفين. كما أن من المؤكد أيضاً أن ذلك الجغرافي سوف

---

(1) "رحلة إلى الأقاليم الواقعة في الاعتدال الشمسي في القارة الجديدة" باريس ١٨١٤م، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص٥١-٥٢.

ينضم بصفته مشاهد متحمس إلى الجمهور الذي شارك في تكريم المدينة - أثناء إقامته في المكسيك - لملكها حيث نحتت له تمثالا من البرونز ووضعته في أفضل ميادينها.

من المؤكد أيضاً أن همبولت الذي عرف الملك كارلوس الرابع في أرانخويث Aranjuez قبل أن يبدأ رحلته، قد أدرك أن قدراته وسماته الشخصية كانت أقل من هذا المنصب الرفيع وأن الهدف الرئيسي له كان يتمثل في الهيئة التي كان يجسدها والتي تتسم بالسيادة والرفعة مع وجود البعد الشاسع حيث لا يكاد الناس يدركون السمات الفريدة لحامل اللقب، كما لا يكاد يتم اكتشاف تلك الملامح من خلال اللوحات التي رسمها جويا لكارلوس الرابع والتي لا تكاد تلمح في التمثال المنحوت من البرونز. كما لم يكن راعي هذه الاحتفالية على درجة رفيعة إذ كان الماركيز برانثفورتي Branciforte الذي صعد إلى منصب نائب الملك في أسبانيا الجديدة على يد الكونت جودوي بفضل صلة النسب التي تربطه به. لكن هذه النظرة الطيبة للهنود الذين كانوا يتابعون عن كثب عملية انتقال التمثال عبر شوارع المدينة من الورشة التي تم صهره فيها وحتى المقر الذي أقيم فيه، وكذلك متابعة القيمة الفنية للعمل كانت تنقذ الاحتفالية من المثالب الشخصية وتحولها إلى تكريم رمزي، يكاد يكون رثاء، من قبل الرعية في أسبانيا الجديدة لتلك الهيئة الأسطورية التي وجدوا فيها على مدار قرون ثلاثة سندهم وملاذهم.

رغم أن حجم هذا التمثال، الذي ابدعه مانويل تولسا M. Tolsá كان كبيرا - إذ يمكن أن يضم بطن الحصان خمسة وعشرين رجلا طبقا لرأي بعض المؤرخين - جرى صهره في المكسيك في بعض الأفران التي شيدت في مدرسة سان جريجوريو القديمة تحت إشراف سلبادور دي لابيجا الذي يتمتع بمهارة شديدة في صناعة الأجراس. كان التمثال ضخما ومنتفخا يبدو، ولا يزال حتى اليوم، وكأنه على وشك الصهيل مما يبدو عليه من حيوية نبيلة؛ ولاشك أن المبدع استلهم العمل الفنى جيراردون Girardon الذي يمثل لويس الرابع عشر. ولاشك أن ذلك نموذج مبالغ فيه بالنسبة لمن هو من نسله الذي كان يجلس على عرش مدريد. غير أن المهم أنه يتمثل في الإبداع الفني في حد ذاته ورفعة الأشكال والرمزية السياسية والكمال الفني. وفي كل هذا نجد المثال م. تولسا يتفوق على الفنان الذي

أشار همبولت[٢] إلى أنه "إذا ما تم استثناء تمثال مارك أوريليو في روما فإنه أكثر بهاء ونقاء أسلوبيا من كل ما بقي لدينا من هذا الصنف في أوربا". استلهمه[١].

استغرق البلنسي أربعة عشر شهرا لصهر التمثال، واستغرقت عملية نقله خمسة أيام حتى الميدان الكبير حيث كان موضوعا على عربة ذات ست عجلات من البرونز. وفي يوم ٢٨/١١/١٨٠٣م تم وضعه على القاعدة بعد أن جرى وضعه قبل ذلك فوق سلم شيد لهذا الغرض، وكانت عملية شديدة الدقة حيث كان نائب الملك وأقرباؤه من المراقبين لها وهم في شرفات القصر المجاور مباشرة. تم وضع التمثال على القاعدة المخصصة له في اليوم التالي وأثنى الجميع على عبقرية الآلات التي ابتكرها أ. تولسا لرفع ذلك الحمل الثقيل والنبيل.

لم يكن الإطار المعماري أقل عظمة ونبلا، فالميدان الكبير في المكسيك كان قد جرى تبليطه بالكتل الحجرية في عصر الكونت الثاني ربيّا خيخيدو، كما جرى تنظيمه من الناحية الحضرية على يد مدير العمارة في الأكاديمية الملكية سان كارلوس وهو السيد/ أنطونيو جونثالث بيلاثكيث، وذلك لاستقبال الضيف الملكي. كانت الأعمال الجارية في الكاتدرائية على وشك الانتهاء حيث كانت توضع اللمسات الأخيرة على رقبة القبة والأبراج والواجهة طبقا لمخططات أورتيث دي كاسترو وكذا م. تولسا نفسه. وبشكل متعامد على واجهة الكاتدرائية كانت تمتد واجهة قصر، نائب الملك، الطويلة والهادئة، في المكان الذي اختاره كورتيس لنفسه. وهناك نجد قصر الأسقفية Cabildo وبعض المباني الأخرى رفيعة الشأن تكمل الدائرة حول ذلك المقر الضخم حيث كان يوجد بداخله ساحة بيضاوية بعض الشيء يحيط بها سياج به أربعة سيج حديدية جميلة في أطراف المحاور. وخارج هذا السياج، وتحديدا في أركان الميدان جرى بناء أربع نافورات كنوع من الحماية لتمثال الملك. لا توجد ميادين كثيرة في التاريخ كله يمكن مضاهاتها بتلك الرقعة المعمارية العمرانية.

كان مناخا مختلفا عن ذلك الذي نراه في مصلى الهنود "سان خوسيه دي لوس ناتورالس" عندما كانت تعقد فيها الاحتفالات من أجل الإمبراطور كارلوس الخامس،

---

(١) مانويل توسنت: "الفن الاستعماري في المكسيك"، ص٤٣٦.

(٢) "مقال سياسي حول مملكة أسبانيا الجديدة"، الجزء الثاني، ص١٢٣.

فأمام الأثر المدجن الهش المشيد من الخشب هناك الأبراج القوية ذات الطراز الكلاسيكي الجديد، وأمام المنصة التي ارتجلها كلاوديو دي أرثنيجا C. de arcíniega، يوجد التمثال الأبدي المصنوع من البرونز؛ وأمام المزامير chirimias والإيقاعات الكنسية هناك النغمات المرحة الصادرة عن النوافير والأجراس. وعندما أطل نواب الملك من الشرفة - طبقا للجازيت المكسيكية - "هناك الصمت والترقب من جانب الأعداد الغفيرة التي تملأ الميدان الكبير وكافة شرفات المباني المجاورة والأسطح وكذلك أبراج الكاتدرائية حيث كان كل ذلك يشكل عملية ترقب جديرة بالإعجاب. . . ". وعندما أعطى نائب الملك الإشارة بدأ رنين الأجراس وتم قطع الستار الذي يغطى التمثال الملكي إلى نصفين.

يشرئب الحصان "الكبير البطن - طبقا لأسلوب وحرفية من صممه - من فرط السعادة التي عليها الأعمال البرونزية المماثلة، وإضافة إلى ذلك صوت انطلاق الطلقات من عشر قطع مدفعية تشريفا للتمثال حيث هناك خمسة صوب القصر وخمسة أخرى في الاتجاه المقابل. جرت تحية الأمراء الملكيين بثلاث طلقات عامة، وإلى أصوات الأجراس أفعمت الهتافات بالحياة من قبل الجمهور بينما كانت القوات تسير في عرض عسكري وقت تركت ستة حراس حول قاعدة التمثال. أضيئت المدينة على مدار ليال ثلاثة وجرت احتفالات شعبية وأرستقراطية[1].

كان الأمر نوعا من تمجيد الملكية، وودع إمبراطوريتها الهندية. وبعد عامين تم تدمير الأسطول الأسباني القوي في ترافلجار. وبعد ذلك بثلاث سنوات تمت الإطاحة بنائب الملك الذي افتتح ذلك الأثر، بعد شهور قليلة من تنازله المهين عن حقوقه في الهند الغربية لصالح نابليون تلك الشخصية التي تحظى بالفخار الشديد في إفريز الحائط Zócalo.

وفي عام ١٨٢٢م ظهر إيتوربيد Iturbide الذي لم يستمر إلا قليلا للاحتفال بتنصيبه إمبراطورا على الطريقة الأيبيرية من خلال مباراة لمصارعة الثيران، وترك الميدان الجميل ذا الطابع الكلاسيكي الجديد فضاء بينما نجد كارلوس الرابع يمتطي صهوة الجواد - يالسخرية القدر! - ويبحث عن ملجأ في صحن الجامعة.

---

(١) إنريكي لا فويونتي فراري، "نائب الملك إتوريجراي وأصول استقلال المكسيك"، مدريد ١٩٤١، ص ٣٣، ٣٤

XXV- من المكسيك إلى فيلادلفيا

لم يكن الإطراء على الوضع الذي عليه أسبانيا الجديدة من قبل العالم الألماني مجرد انطباعات شخصية أو جراء التفوق النسبي في الازدهار الذي كانت عليه أسبانيا الجديدة مقارنة بالأقاليم الأخرى في الهند الغربية.

قام العالم الألماني همبولت بزيارة الولايات المتحدة قبل العودة إلى أوربا واستقبل استقبالاً كريمًا من قبل الشخصيات البارزة في البلاد لدرجة أن الرئيس توماس جيفرسون استضافه أسبوعًا كاملاً في منزله وتناقش دائمًا مع العالم الألماني حول موضوعات فلسفية وعلمية وسياسية. كما استقبلته "جمعية الفلسفة في فيلادلفيا" التي تعتبر المركز الر ئيسي للحياة العلمية في الولايات المتحدة وكان استقبالها له كضيف شرف وسجلته كأحد أعضائها. ورغم كل هذه الحفاوة وكاختصار للتجربة الكاملة التي مرّ بها من خلال الكثير من المدن الأمريكية بدءًا بمدينة ليما وحتى نيويورك كتب يقول: "ليست هناك أية مدينة في العالم الجديد بما في ذلك الولايات المتحدة بها مؤسسات علمية قوية وعظيمة مثلما هو الحال في عاصمة المكسيك"[1]، وهو في هذا كان مقتصراً على تكرار الرأي نفسه الذي صدر عن رجل عظيم يتسم بالأمانة هو فرانثيسكو دي ميراندا رائد الاستقلال والرجل الذي قام بزيارة الجامعات في أمريكا الشمالية قبل ذلك بعشرين عامًا.

كان همبولت يعتبر أن العالم الجديد "عندما يفيد مما كانت فيه أوربا من كوارث وإنشقاقاتها سوف يحقق تقدمًا مذهلاً في طريق الحضارة" دون ذكر لاختلافات في هذا المقام بين أسبانيا الجديدة والولايات المتحدة، كما يعترف لهذا البلد الأخير بوجود ميزة هي النمو

---

(١) مقال سياسي حول مملكة أسبانيا، الجزء الثاني، ص ١٢٢.

السريع في تعداد السكان، لكن لم تكن أسبانيا الجديدة كذلك حيث لم يكن لديها عبيد، وهم الذين أبرزت من خطورتهم ثورة سانتو دومنجو.

وبعد معركة أياكوتو Ayacucho أخذت فكرة السير في خط متواز بشأن مستقبل المكسيك والولايات المتحدة تشق طريقها بمناسبة التعليق على "مقال همبولت" من خلال مقال نشر في "Le Globe"، الصحيفة التي لم تكن ذات ميل للعالم الهسباني في هذا الجانب أو ذاك من الأطلنطي. تقول المقالة بالنص. "هذه الأمبراطورية الشاسعة والغنية بمناجمها والزراعة فيها والتي يصل تعداد سكانها إلى ثمانية ملايين تتمتع بالسلام الداخلي وتنافس الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية، وهي إمبراطورية تحت نير الحكم الاستعماري الأسباني خلال القرن الثامن عشر ومع ذلك حققت تقدمًا سريعًا. وقد تجاهل هذه الحقيقة كتاب همبولت ولم يسلط عليها الضوء، وإذا كان الاستعمار لم يمنع زيادة الثروة فهل من غير الممكن أن نتوقع الحرية؟" [1]

الأمر المؤسف أن الحرية في الجمهوريات الأسبانوأمريكية لن تؤتي الثمار المرجوة منها. وفي هذا المقام نجد قصة قصر "التعدين Mineria" الذي كان في مرحلة التشييد أثناء زيارة همبولت للمكسيك إعمالاً لخطط مانويل تولسا التي جرى اعتمادها، عام ١٧٩٨م، له دلالة كبيرة. فلقد انتهى البناء في ١٣/ ٤/ ١٨١٣م وكلف ١٥٩٧٤٣٥ بيزو. "يلاحظ أن هناك قماش يتم القصّ منه" - طبقًا لكلمات مانويل توسنت - [2]. وبعد ذلك بأحد عشر عامًا، أي ١٨٢٤م كان المبنى مهددا بالسقوط بسبب الثقل المبالغ فيه الذي عليه القبة التي كانت فوق السلم. جرى تقديم ميزانية قدرها أربعمائة ألف بيرزو لإصلاح المبنى لكن "كانت التكلفة مبالغًا فيها في نظر الحكومة المكسيكية التي حصلت على استقلالها ولم يتم فعل شيء". وفي عام ١٨٣٠م قدم المعماري الفرنسي أنطوان فولارد عرضه واستطاع إصلاح القصر مقابل ٩٧٤٣٥ بيزو وبهذا تم إنقاذ عمل فني.

ما يثير الدهشة، لكن له دلالة مثل قصة المبنى، هو رأي مانويل توسنت. "يعتبر "قصر التعدين" أثرًا يرجع إلى عصر لويس السادس عشر، جرى ضبط كل شيء فيه سواء

---

(١) ٢١ إبريل ١٨٢٧م.

(٢) الفن الاستعمار في المكسيك، ص ٤١٦.

كان في الواجهة أم الشرفات، ويعتبر السلم والصحن من أجل وأبهى ما هو موجود في المكسيك. وفي هذا المقام شهد المكان الحفلات الراقصة الرفيعة المستوى خلال القرن التاسع عشر والصفة التي تطلق عليه، إذا لم أكن مخطئًا، هي هذه: "الرقي". وإذا كان هذا القصر في أي مدينة فرنسية لكان مثار فخر، ومع هذا فزيارته المرة تلو الأخرى والاستماع إلى تعليقات الأجانب الذين كانوا يرافقونني وجدوه أثريًا وباردًا وليس به مشاعر مقارنة له ليس فقط بالمباني الباروّكية الضخمة بل بكنيسة متواضعة في قرية! الأمر هو أن الباروّك وتنويعاته الشعبية آتية من أسبانيا، أي من أسبانيا الدرامية والفظة التي منحتنا ذاتنا من حيث أن هذه الأشياء الجميلة من القشور والشعر المستعار المترب، تبدو كأنها تحاول إطراء غرورنا لكن ما حدث هو إذلالنا بها".

ورغم أن المكسيكيين يحملون ألقابا ليست هسبانية فهم قادرون على التعلق بشدة بالتقاليد لدرجة تتفوق على أشد الحالات التي يمكن أن يكون عليها السلت الأيبيريون. والأمر هو أن أسبانيا هذه التي منحت لأسبانيا الجديدة ذاتها لم تقتصر على أن تستخرجها من أحشائها الروحية بل من كافة أنحاء العالم الأوربي خلال ذلك العصر. لم تكن كاتدرائية العاصمة أكثر إسبانية من "قصر التعدين" حيث كان كلاهما مستلهمًا من نماذج مختلفة فيما يتعلق بالمثاليات الجمالية الموروثة عن العصر القديم. غير أن الفارق يكمن في أن أسبانيا نجحت في تمثُّل الأساليب الفنية في عصر النهضة والباروّك وهضمتهما ثم قامت بتغذيتهما بعصيرها الخاص، بينما نجد أن أسلوب الكلاسيكية الجديدة لم ينفذ إلى الداخل وبقى ظاهريًا لكن لم يكن ذلك قليلاً جداً كما يشير التعليق النقدي المتمسك بالتقاليد للكاتب المكسيكي.

كان الأمر جد خطير ذلك أن الفن الباروّك المسرف ultrabarroco كان قد استنفذ آخر إمكانياته الأسلوبية، فلم يكن هناك المزيد ليتم تقديمه في باب القواعد العرفية المنقوصة والعقود المتعددة الخطوط تحت القباب المتعددة الألوان. كما لم يكن ممكنًا التراجع إلى الوراء، والتزام الاعتدال بدلاً من هذا البذخ الزخرفي أو تحويله إلي صيغ مانيرست Manierista وإلا لكان رافضا لدافعه الحيوي. الفن المتمسك بالتقاليد يمكن أن يعيش دون أن يأفل نجمه أو أن ينزلق في هوّة التكرار وذلك نظرًا لالتزامه بالقواعد المتبعة، لكن الفن الذي يقوم على إبداع الخيال، يجب عليه أن يسير إلى الأمام أو أن يقضي. بقي هذا الفن

الباروكي المكسيكي المسرف صامدا وبذل جهداً رائعاً لكن روح العصر الذي كان فيه كانت معولاً ضده، حيث كان هناك في أسبانيا الجديدة نداء بالبحث عن أشكال فنية جديدة تتسم بالبساطة والعقلانية والاتساق وأن تستلهم باترونات الفن اليوناني الروماني مع إدخال تجديدات عليه وعليها.

ولو كان همبولت شاهد القصر المخصص ليكون مقراً "لكوليج التعدين" لرأى أنه شديد الاتساق مع روح هذه الهيمنة. وربما انتقد المبالغة التي عليها بناء القصر حيث كان يتناغم مع مفهوم العظمة المعمارية التقليدية في الهند الغربية. كانت الأعمدة الكلاسيكية الجديدة الوافرة التي تقام في الولايات المتحدة أكثر بساطة، إذ كانت عادة من الخشب - بما في ذلك أعمدة مبنى الكابيتول. ومن البدهي أن روح الجمهورية الجديدة في المباني الفخمة وفي الكنائس وفي المباني العامة كانت في مرحلة تكوين سيراً على الأسلوب الكلاسيكي الجديد، وهو أسلوب لم يكن يعني أنه رشيق ورفيع ومتفاخر أو فخور، وهذه كلها صفات يطبقها توسنت على "قصر التعدين"، بل كان الأمر عكس ذلك إذ هناك التقشف والتزمت وروح المساواة والحسابات العقلانية.

إن من ينتقل بسرعة من المكسيك إلى فيلادلفيا، بينما لازالت حية صورة مباني عصر نيابات الملك التي كانت تقام، ثم يقوم بمقارنتها بالمباني المتواضعة المشيدة من الآجُرّ حيث اجتمع آباء الجمهورية الجديدة لمناقشة النصوص الدستورية أو رفع أمجادهم إلى الذات العالية Altisimo، ليس أمامه إلا أن يشعر شعوراً عميقاً بالدهشة لعدم الاتساق الواضح بجلاء بين المكونات المعمارية القائمة وبين نية العظمة الكامنة وراءها.

كم مرة تبلغ مساحة كاتدرائية المكسيك مقارنة بكنيسة سان بيتر أو سان لوك آند إيفاني، أو كم مرة تبلغ مساحة القصر المخصص لنيابة الملك مقارنة بـ independence Holl، إضافة إلى أن المباني في أسبانيا الجديدة لم تكن مشيدة من الآجُرّ والخشب مثل الأمريكية الشمالية بل من كتل الحجارة الجيدة مع مراعاة الأبعاد الأسلوبية لكل؟ غير أن هذه الضخامة التي تعتبر عنصراً مهماً في العمارة من حيث مدلولها الاجتماعي ليست كل شيء. كذلك هناك الكنائس المتواضعة في المدينة الأمريكية والمشيدة بأسلوب شبه كلاسيكي بسيط، وها هي الآن محاطة بناطحات السحاب التي تعكس الظهور المفاجئ

لعصر يتسم بالرخاء والازدهار في البلاد، بينما نجد ذلك القصر المنيف، قصر التعدين، وقد أصبح يبابا وغرق تحت وطأة عظمته، أي تلك العظمة الرومانية التي كانت على مدار ثلاثة قرون مصدر إلهام للمهمة في الهند الغربية لكنها الآن تبدو غير متسقة مع أسلوب الحياة المعاصرة.

ولنقل لو عاد الزمن إلى الوراء لوجدنا أن سكان المستعمرات الصغيرة في أمريكا الإنجليزية كانوا يتجهون نحو الغرب ويعبرون سلاسل الجبال والأنهار والصحراوات بينما كان مُلاَّك الإقطاعات الكبيرة من الهسبان يتراجعون، ولكان قد تحول المتزمتون إلى مغامرين وغزاة وأمامهم أحفاد الهسبان الذين يشعرون بفقدان الأمل أو يخرجون لساحة المعركة وهم متسلحون بأسلحة لا تتواءم مع الزمان وكأنها أسلحة دون كيخوتة. بدأت فكرة الحدود، الغائبة عن المجتمع الاستعماري الأنجلو ساكسوني، والتى اتسمت بالثبات على مدار فترة طويلة، تلعب دوراً حاسماً كعنصر دينامي في تطوره الاجتماعي، بينما نجد الجمهوريات الأسبانو أمريكية الجديدة التي تقولبت في الأنماط الإدارية الموروثة عن عصر نيابة الملك، والقيادات العامة والإدارات المحلية لا تميل من قريب أو بعيد للمغامرة أو التوسع وانحصر أمرها على الصراعات الداخلية. أما الفسيفساء المكونة من المستعمرات الأطلنطية في أمريكا الشمالية فقد وجدت شكلاً مرناً للتوحد بينما نجد أن الأقاليم الأكثر توحداً وترابطاً من الناحية الإدارية في الإمبراطورية الهندية تتفكك وتترك نفسها في كثير من الأحيان نهبا للتشرذم والنعرة الوطنية.

هذا التحول التاريخي البديل ضرب بقوة حتى وصل أعماق الحياة الروحية. وهنا نجد سلبًا دور دي مادارياجا يسلط الضوء على هذه المشكلة من منظور جيد: "كان الإنجليز، في حقيقة الأمر من ذوي التوجهات الاجتماعية رغم أن الظاهر أنهم أكثر أنانية؛ ورغم أن الأسبان كانوا يبدون أكثر ميلا ليكونوا رجال دولة وأكثر إبداعًا وأكثر ميلاً "لإضفاء صفة النبل" على المدن وعلى تأسيس الممالك فإنهم كانوا أنانيين. فالإنجليزي بما يربحه كان يضفي الطابع الاجتماعي على مغامراته ومكاسبه وغنائمه، أما الأسباني فهو بمستشفياته ومؤسساته وكنائسه ومدارسه والألقاب الاجتماعية كان يقيم أثرًا لأناه، وكان يؤسس شيئًا محبوسًا عليه... التوتر عند الأسباني كان يتجه نحو الاتساع أما عند الإنجليزي فهو إلى الأمام. كان الأسباني يرفع السهم من الكاتدرائية نحو السماء، أما الإنجليزي فكان

يجوب بمركبه بحار التاريخ متوجهًا نحو المستقبل الذي تخيله وأبدعه بشكل أفضل من أي أوربي آخر وأصبح البحار الأكثر كفاءة في مياه الطبيعة المائجة " .[(١)]

لا يمكن فهم هذه الكلمات – أو أنها كانت مكتوبة – في إطار الحتمية التاريخية حول السمات المفترضة للشعوب المستعمرة والشعوب المستعمرة في هذا الجانب وذاك الآخر من أمريكا . فخلال القرن السادس عشر نجد أن البحّارة الذين شقوا عباب تلك المياه الهائجة المائجة كانوا أيبيريين ولم يكونوا إنجليزيين، لم يكن الاختلاف جوهريًا بل كان متعلقًا بموقف تاريخي . وفي بداية القرن التاسع عشر حدث تغير عنيف في مسار الشعوب الأوربية حيث زادت قوة توسعهم في مختلف أنحاء الكرة الأرضية وكذلك في صفوف العالم المرتبط بهم وهو الذي أسسوه في العالم الجديد، وتوافق هذا التغير مع بداية عصر جديد ألا وهو الفترة المعاصرة .

وحتى يتيقن المرء من هذا التحول المفاجئ فليس عليه إلا أن يقارن بين وجهتي نظر لاثنين من كبار الرحّالة عبر الأراضي الأمريكية ، والذين يعتبرون من أبرز القامات خلال القرن التاسع عشر ؛ الأولى هي الخاصة بألكسندر فون همبولت ، أما الأخرى فهي لألكس توكيفيل Alexis Tocqueville مؤلف أفضل كتاب عن الولايات المتحدة كُتب حتى الآن . طاف توكيفيل بالولايات المتحدة من أولها إلى آخرها وكان ذلك بعد ربع قرن من قيام همبولت ببلوغ الأماكن الأكثر تقدمًا في توجهه نحو الغرب . فمن الناحية الشمالية وصل إلى كندا الفرنسية ، ومن الناحية الجنوبية وصل إلى نيو أورليانز ، حيث وجد الأثر الأسباني ، لكن دون أن تتوفر لديه أية نية في التعرف على الجمهوريات الأسبانو أمريكية . وهنا نجده يقتصر على إدراج عدة تعليقات حولها وهذه التعليقات هي تبيان لمفاهيمه المغلوطة من حيث أنه رجل إسكنديناڤي ، من النورماند ، وليس هذا فقط وإنما انسحب الأمر على آراء "الجانكي" (الأمريكان) المتعددة في هذا المقام .

الأمر عنده إذن هو أن السلالة الإنجليزية ، لا مراء في ذلك ، بلغت تفوقًا ملحوظًا على كافة السلالات الأوربية في العالم الجديد ؛ وهي الأعلى حضاريًا وقوة" . إنه يستخدم مصطلح "saces" بصيغة الجمع لأنه يضع في الحسبان الأربعمائة ألف فرنسي المتواجدين

---

(١) العمل المشار إليه ، ص ١٨١ .

في كندا، وهم الذين تم إخضاعهم سياسيًا، وليس هذا فقط بل جرى عزلهم وتجاوزهم من خلال الدينامية الاجتماعية التي عليها الأنجلو ساكسون. أما رأيه بالنسبة للعالم الأسبانو أمريكي فهو في الكثير منه إدانة لأنه عالم لم يضع في الحسبان الوضع الجغرافي الذي هو عليه "ففي هذا الجزء من العالم - كتب يقول - أليس هناك مساحة شاسعة من الأراضي شديدة الخصوبة وبها الكثير من الأنهار الكبرى البكر في كافة أنحاء أمريكا الجنوبية؟ ومع ذلك لم تتمكن أمريكا الجنوبية من تحمل الديمقراطية"[1] . . . كما لم تتحمل السلام. فهذه العزلة المفيدة التي تحمي بها الطبيعة الأسبان في أمريكا "لم تمنعهم من الاحتفاظ بالجيوش، فأشعلوا الحرب فيما بينهم بينما الأجانب عندهم هم في عداد المفقودين؛ وبالتالي لا يوجد سوى الديمقراطية الأنجلو أمريكية التي ظلت قادرة حتى وقتنا الحاضر على الحفاظ على السلام" ثم يختتم الرّحالة تأمله بالقول بأنه "لا يوجد على ظهر الأرض أمم على هذا القدر من التعاسة مثل ما هو موجود في أمريكا الجنوبية".

من الصعب في هذا المقام أن نعثر على أراء متعارضة للغاية لكل ما يقول ألكسندر فون همبولت في كتبه وفي مراسلاته قبل ذلك بربع قرن من الزمان. لقد قطع هذا الرجل آلاف وآلاف الكيلومترات عبر أقاليم صحراوية أو مأهولة بالسكان، والغابات والأودية المزروعة والسلاسل الجبلية حيث كان يخيم هناك "سلام هسباني"، وإذا ما كان به عيب كان سلامًا مبالغًا فيه. كتب يقول "قلنا ألف مرة ذلك، لكن الرحّالة يشعر دائمًا بأن عليه، أن يكرره وهو أن المستعمرات الأسبانية هي أرض مضيافة". "ربما لا يوجد أي بلد في العالم - في معرض ما يقصه على أخيه من كومانا عام ١٨٠٠م - يمكن فيه أن يحياه حياة هانئة وهادئة مثل المستعمرات الأسبانية التي أجوب أنحاءها منذ خمسة عشر شهرًا".

ما الذي حدث إذن خلال ربع القرن ذلك، أي الفترة الفاصلة بين هذين الرأيين المتعارضين بشكل راديكالي؟

---

(١) "عن الديمقراطية في أمريكا"، الجزء الثاني، الفصل الخامس، الأعمال الكاملة جاليمار، أباريس ١٩٥١م، الطبعة الأولى، ص ٣٢٠.

XXVI - التباعد بين الأمريكيات الثلاثة

من يقوم بتأمل خليج نيويورك من أعلى نقطة لتمثال الحرية لا يشعر بالميل إلى الاستغراق في التأملات التاريخية فالطبيعة تستوعبه في أحضان حاضرها لدرجة أن المشهد يبدو كونيًا أكثر منه جغرافيًا وكأنه قد بوعد عن أي إيقاع أو أحداث مؤقتة. ومن حقائق الأمور أيضًا أن هناك ملايين البشر يعيشون في ذلك المكان، لكنهم قاموا بإقامة مبان عملاقة، من أجل التواؤم مع المشهد، حيث تبدو الحياة في تلك المباني وكأنها قد صغرت أمام كل ما فعلته يد الإنسان. ومن خلال النظارات المكبرة يتم اكتشاف الحياة بصخبها على ظهر عابرات المحيطات وكأن النظارات المكبرة عبارة عن مجهر في معمل للكشف - في هذه الحالة - عن عملية إعداد تاريخية؛ هذه الناقلات تشق عباب المياه بهدوء تحت ضوء الشمس الساطعة خلال فصل الشتاء، كما تكشف النظارات المكبرة ما حول المباني العملاقة من حياة السكان. غير أنه إذا ما افتقر المراقب للموقف على الوسائل التي تقدمها له عيناه دون أية مساعدة لبدا الأمر شاسعا وساكنًا لدرجة عدم الحركة.

هذا المرصد الذي يقف فيه المشاهد يدعوه إلى مشهد أكبر من تلك المشاهد التي اعتاد عليها البشر، إذ هو ينسب إلى تمثال ضخم يمثل فكرة عظيمة، وهي أفضل فكرة تعتبر المحرك وراء الحياة في هذا البلد الكائن في أمريكا الشمالية؛ إنها فكرة الحرية. ونظرًا للتوجه الذي عليه fonce- idée "الفكرة - القوة" التي هي محور أية حضارة، فمن الطبيعي أن يكون التمثال الرمز في حالة حركة فيها جلال حيث يرفع شعلة تتحدى نارها شمس النهار. وعندما نرى التمثال مبعدًا ووسط العناصر المختلفة يبدو وكأنه أسطوري، أي كأنه جن يمسك بعنان الأرض، وعلى أمريكا الشمالية كلها بلد الحريات الحقيقية.

ومع هذا من المشروع أن نشهد على ملامح التمثال الضخم لمحة فيها تحد أكثر تحديدًا وتاريخية موجه نحو جزيرة قريبة، هي جزيرة استاتن Staten، إذ يمكن أن تحمل اسم جزيرة

"الطغيان" ذلك أن جورج الثالث جمع فيها، خلال صيف عام ١٧٧٦م، قوة محترمة مكونة من اثنين وثلاثين ألف محارب إنجليزي من ذوي الخبرة، وذلك حتى يتمكن من "إخضاع رعيته" التي اتخذت منه موقفا هو "موقف الأسد". كان هذا الوصف مبالغًا فيه ولو كان ذلك مقتصرًا على المنظور العسكري ذلك أن الجيش الذي كان تحت إمرة جورج واشنطن والذي يرابط على الجانب الآخر من الخليج، في جزيرة مانهاتن، ومرتفعات بروكلين، لم يكن يتجاوز ثمانية عشر ألف رجل، ومع هذا كان التعبير الثاني من الجملة أمرًا حقيقيًا عندما تمكن من هم ذوو الخبرة الحربية في المدينة من إجلاء الجنود الاستعماريين من المواقع التي كانوا يحتلونها وأجبروهم على مغادرة مدينة نيويورك التي استمرت طوال أمد الحرب في يد الإنجليز وتحولت إلى معسكر للأسرى.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها عبور المراكب، في حالة حرب، المياه التي تحيط بالجزيرة رغبة في الغزو. ففي عام ١٦٥٥م غادرت الخليج سبعة مراكب هولندية صوب Delaware بغية السيطرة على مستعمرات "السويد الجديدة" التي أقيمت على الشواطئ؛ وبعد ذلك بتسع سنوات كان هناك أسطول إنجليزي قادم من بوسطن حيث دخل الخليج حتى يحول المدينة التي كانت تسمى آنذاك "أمستردام الجديدة" إلى نيويورك، حيث حلت السيطرة الإنجليزية محل الهولندية. وبعد ذلك بسنوات قليلة، عام ١٦٧٣م، كان هناك أسطول هولندي آخر يقوم باستعادة المدينة مرة أخرى ومعها وادي هاديسن ولكن إلى حين.

كان هذا المقر الهولندي الصغير عرضة، منذ نشأته، لتهديدات بحروب رهيبة من الهنود الذين كانوا على وشك القضاء على وجود أمستردام الجديدة نفسها حيث يمكن أن نرى مبانيها المتواضعة مصورة بريشة الرسامين القدامى، محاطة بأسيجة مرتفعة من الخشب والمصحوبة بتحصينات ومعاقل خشبية. وحتى الآن يمكن أن نرى في المكان الموجود، غير البعيد عن الميناء البحري، الذي تخرج منه المراكب المتجهة نحو تمثال الحرية، أطلال تلك التحصينات التي تقف شاهدًا على الحياة وسط المخاطر التي كانت تحياها المدينة منذ البداية.

سوف يكون خطأ تاريخيا فادحًا التفكير في أن ذلك الماضي المتقلب والحربي كان بعيدًا عن مغزى تمثال الحرية، وبالتحديد عن الاثنين وثلاثين ألف محارب من أصحاب

الخبرة من الإنجليز الذين تجمعوا في جزيرة Staten القريبة والذين تسببوا في أن يمر جيش جورج واشنطن وسكان المستعمرات بلحظات كرب وضيق. وبدون هذا الضغط الحربي على زمانه ربما لم يكن تمثال الحرية بهذه الضخامة والرمزية للقارة بأكملها بما في ذلك القوى المستعمرات الجنوبية التي كانت تقوم على عمل العبيد. ولو لم تكن هناك هذه القوة والقدرة التي عليها المدينة ربما لم يكن بالمستطاع أن يظهر الاتحاد للنور، الذي تجاوز الأنظمة الاجتماعية والعقليات والمصالح الاقتصادية شديدة الاختلاف؛ ولم يكن من الممكن أيضًا الوصول إلى نهاية للنزاع الطويل بين فرنسا وإنجلترا من أجل السيطرة على أمريكا الشمالية والاستيلاء على إقليم كيبك دون ضغط حربي آخر سابق على هذا؛ جاء ذلك عام ١٧٥٩م بفضل الجهد الكبير الذي قامت به إنجلترا التي كان يتزعمها ويليام بيت حيث كان قادرا علي ارسال جيش إلى ما وراء البحار قوامه ستين ألف رجل.

هذه الأرقام هي أكبر بكثير من الأرقام التي أمكن لأسبانيا أن توفرها أثناء حروب الاستقلال الأسبانوأمريكية؛ ففي عام ١٨٠٤م كانت القوات النظامية في أسبانيا الجديدة، بما في ذلك القوات المتواجدة في المحافظات الداخلية تبلغ ٩٩١٩ رجلا[1]. كما أن كافة أعداد الجنود التي بعثت بها أسبانيا إلى هذه المساحات الشاسعة في الهند الغربية، خلال الفترة بين عام ١٨١٥م و ١٨٢٠م لم تصل إلى ذلك العدد الذي كانت عليه القوات الإنجليزية المرابطة في جزيرة staten. وطبقًا لحسابات ماركيز أمريّاس Amenillas فإن القوات التي تم نقلها عبر الأطلنطي خلال الخمس سنوات المذكورة وصلت إلى ٢٧٣٤٢ رجلاً. وبعد هذا التاريخ كانت الأعداد المرسلة أقل بكثير، ذلك أن الجيش القائم على إدارة الحملة الذي كان يرابط جنوب إقليم الأندلس ثار على قيادة رييجو Riego عام ١٨٢٠م، من أجل إسقاط النظام السياسي في العاصمة مدريد، وتم بالتالي عدم الذهاب إلى أمريكا، وخلال ثلاث سنوات من النظام الليبرالي كان من المنتظر حدوث أي شيء من وراء هذا التآخي الأيديولوجي بين شاطئي الأطلنطي.

ماذا تعني أي قوة حربية يبلغ عددها ٢٧٣٤٢ رجلاً أرسلت في حملات غير منتظمة وبشكل مرتجل لتنتشر فوق أرض تبلغ مساحتها ثلاثمائة ألف فرسخ مربع - أي عشرة

---

(١) فون همبولت "مقال سياسي حول مملكة أسبانيا الجديدة" الجزء الرابع، ص ١٨٩.

ملايين كم٢ - وهي بذلك أكبر عشر مرات مما عليه المستعمرات الإنجليزية عندما استقلت، وهي التي تقيم على أرض أقل مساحة وقابلة للتنقل فيها، فليس من المبالغة القول، عندما نضع في الحسبان عناصر ديمغرافية وأرضية وتكتيكية وإستراتيجية، بأن القوات التي أرسلت من شبه جزيرة أيبيريا إلى ما وراء البحار كانت أقل عدداً من القوات الإنجليزية خمس عشرة مرة أو عشرين.

ومن الأمور بالغة الدلالة أيضًا المقارنة بين مكونات القوات التابعة لكل من كلا المعركتين اللتين أديتا إلى محصلة حرب الاستقلال في كلتا المنطقتين. فبالنسبة للقوات المرابطة في أياكوتشو Ayacucho كان نائب الملك يتوفر على ٩٣٠٠ جندي، أغلبهم من الهند الغربية ولا يمكن أن يصل الأسبان من المحاربين من ذوي الخبرة إلى خمسمائة فرد؛ وأيًا كانت التحالفات الخطابية للسكان الأصليين الذين كانوا ينادون بقادة الاستقلال فحقيقة الأمر هي أن رباط الدم حملهم نحو أتاولبا Athualpa المنقسم على نفسه حيث شعر أنه قريب من نائب الملك الأسباني عنه إلى الجنرال سوكري في المعركة التي وضعت نهاية للإمبراطورية الأسبانية في أمريكا الجنوبية.

وفي المعركة المماثلة، التي كان فيها خمسمائة من العسكريين الأسبان في أياكوتو، نجد أن عدد المحاربين الإنجليز في أمريكا الشمالية، في يورك تاون، بلغ عددهم ثمانية آلاف، وهم الإنجليز الذين استسلموا للجيش الذي يقوم بالحصار، كما كان لا يزال هناك ثلاثون ألفا من الجنود الإنجليز في الأراضي الأمريكية.

واصلت أمريكا البرتغالية في طريق شديد الاختلاف السابق لتستقل عن البرتغال، ذلك أن هذه الأخيرة لم ترسل بجيش كبير العدد والعدة، على شاكلة ما فعلت إنجلترا، أو فرق مسلحة كما فعلت أسبانيا، فقد سافرت من موانئ لشبونة الأسرة الملكية بكاملها وعدد كبير من علية القوم من الموظفين وأناس من مختلف الفئات متوجهين إلى البرازيل، حيث بلغ عددهم خمسة عشر ألف فرد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها ملك أوربي بعبور الأطلنطي متجهًا صوب الأراضي الواقعة في أعالي البحار، وها هو يفعلها ملك البرتغال وقد أخذ معه الدولة بنفسها.

وفي السابع من مارس ١٨٠٨م دخلت السفن خليج جوانابارا Guanabara، شديد الاتساع، بشكل سلمي ومهيب حيث كانت تبحر الملكية البرتغالية متجهة صوب عاصمتها في العالم الجديد. كان هذا تاريخًا مشهودًا في تاريخها وفي تاريخ الأنظمة السياسية، ذلك أن المبدأ الملكي كان يبرهن على تمتعه بفضائل حميدة، تكاد تكون معجزة أيضًا، على الشاطئ الآخر من الأطلنطي.

سرعان ما يختفي الطابع الاستعماري للبلاد وتضرب الهيئات التابعة للدولة بجذورها: ها هي الوزارات ومجلس الدولة ومحكمة العدل ومجلس الحرب والمالية وبيت سك العملة وبنك البرازيل والأكاديمية الحربية والمطبعة الملكية ومراكز التعليم العالي.... الخ، وهذه الهيئات لم يكن من الممكن إلغاؤها أو أن يقود مرة أخرى إلى لشبونة. إذ نجد أن استقلال البرازيل بدأ في ذلك اليوم الذي وطأت فيه قدم السيد/ راجوا السادس أرض البرازيل، وتمت الحيلولة بذلك دون أن تقع البلاد في فخ التشرذم والتفكك والتحول إلى جمهوريات صغيرة ذات حكومات غير مستقرة"[1] - طبعًا لجواو ريبيرد - وفتحت الباب أمام استقلال سياسي جيد ومرغوب فيه وبدون المتاعب والقلاقل التي تحدثها الثورات".

كان كافيًا أن يقبل الملك تغيير العلم البرتغالي بالعلم البرازيلي وكان ذلك في السابع من سبتمبر لعام ١٨٢٢م حيث تحقق استقلال البرازيل. لكن لم يخل الأمر من احتجاجات شعبية ومعارضة السود وتمرد القوات وحركات انفصالية في بعض المحافظات البعيدة وهزائم في أزمات دولية، لكن آل براجينثا Bragenza استطاعوا أن يحكموا، وسط كثير من العقبات، مسار سفينة الدولة البرازيلية؛ وفي عام ١٨٨٩م، أي بعد نصف قرن من الحكم، يتنازل السيد/ بدرو الثاني عن الحكم ويُنفى، ويترك وراءه موروثًا للجمهورية لا يتمثل فقط في نظام سياسي ضخم بل ترك أيضًا تراثًا مؤسسيا وعادات مدنية في باب التعايش والتفاهم.

ما الذي كان يمكن أن يحدث لو قام الملوك باتخاذ طريق لا صوب بايونا بل صوب ميناء إشبيلية واتجهوا إلى أمريكا مثلما فعل أبناء العمومة من البرتغاليين؟ كانت مهمتهم ستكون أكثر سهولة من ناحية، ذلك أن الكثير من الهيئات الحكومية التي كان على جواو

---

(١) جواو ريبيرا. العمل المشار إليه، ص ٣٥٤، ٣٢٣.

السادس تأسيسها في البرازيل، كانت موجودة في الممالك الهسبانية في الهند الغربية، وهي أكثر استقلالاً ذاتيًا ولها قامتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية الأقوى مقارنة بالأملاك البرازيلية؛ ومن جانب آخر كانت المهمة ستكون أكثر صعوبة، ذلك أن الأراضي الأسبانية متباعدة بشكل ملحوظ فيما بينها بالمقارنة بالبرتغالية، كما أنها عبارة عن ممالك مختلفة. ومما لاشك فيه أنه كان سوف يكون مستحيلاً الحفاظ على هذه الممالك تحت سيطرتها السياسية لمدد طويلة مهما بلغت درجة المهارة التي عليها حاكم أمريكي في بوينوس أيرس وكيتو والمكسيك.

وإذا ما كان المنطق هو الحكم في التاريخ لكان قد تم التوصل إلى الحل المقترح عام ١٧٨٣م الذي قدمه كونت دي أراندا إلى الملك كايوس الثالث والذي يتمثل في تعيين أمراء من مدريد بصفتهم ملوكًا في سدة الحكم في نيابات الملوك ويتم التوحيد بينهم في صورة كومنويلث هسباني بناء على الروابط الأسرية والاقتصادية والسياسية. وهذه هي الفكرة التي عادت للظهور على زمن جودوي Godoy، وكانت تضع، حتى ذلك الحين، في اعتبارها خطة guala التي اقترحها إيتوربيدي Iturbide عام ١٨٢١م حيث يتم على أساسها إقامة حكومة ملكية معتدلة على رأسها فرناندو السابع، وفي حالة غيابه يتولى الأمر أحد أمراء الفرع الأسباني من أسرة البوربون. كانت وقعت الكثير من الأحداث في أسبانيا الجديدة وكذا القديمة تحول دون قبول تلك الخطة في العاصمة، كما لم تؤخذ بشكل جاد من قبل الزعماء المتمردين الذين تمكنوا للتوّ من غزو عاصمة نيابة الملك. وعلى أية حال كانت الفكرة الملكية تداعب أذهان الكثير منهم، وفيما يتعلق بالإمكانيات الفعلية ومزايا تطبيقها فإن النموذج البرازيلي كان يؤكد كل هذا.

غير أن الحدث الذي دفع بالملوك البرتغاليين نحو البرازيل لإنقاذ تاجهم جذب الأسبان نحو بايونا Bayona وذلك لوضع تاجهم - تيجانهم المتعددة - في يد الإمبراطور الجديد للعالم الغربي (نابليون). وهنا يمكن سوق الحجة بأن أسبانيا كانت قريبة من جبال البرانس وعلى مسافة واحدة من الشواطئ، وأن التوجه السياسي الأسباني لم يكن يرنو إلى ما وراء البحار بشكل مثل البرتغاليين؛ فالمملكة الكاثوليكية كانت جسراً بين أوربا والهند الغربية، وعندما ترك ملوكها الانصياع للتوجهات النابليونية فإنهم كانوا يسيرون مغمضي العيون، وبعدم قدرة، على حتمية قانون تاريخي.

وعلى أية حال ليس هناك إلا القليل من الأحداث المصحوبة بالنتائج المأساوية في تاريخ القارة العجوز وتاريخ العالم الجديد مثل عمليات التنازل في بايونا، استنادًا إلى تراخي أطراف المملكة وقيمتها التي أهملتها أسرة البوربون الأسبانية. فالممالك التي كانت عمادها كانت مترابطة فيما بينها بفضل الملك حيث هو المثال والمحور، وعندما يتعرض محور المملكة للتحلل كان عليه أن يستعيد مركز الجذب الذي عليه استنادًا إلى قاعدة الشرعية الديمقراطية التي كان ينادي بها كثيرون مثل روسو ومابلي Mably وسيس Sieyes، وبيتوريا ومولينا وسواريث.

ها هي المجالس السيادية ومجالس الكنائس cabildos، المغلقة أو المفتوحة، والميليشيات الشعبية كلها تشكل رد فعل ذا تقليدية وثورية في آن معًا، عند هؤلاء الوطنيين على هذا الجانب أو ذاك من الأطلنطي، على عمليات استسلام ملوكهم وعلى عملية تنصيب ملك جديد في شبه جزيرة أيبيريا بمساعدة الجيوش الأمبريالية. أما فيما يتعلق بالكلمة والروح الكامنة وراء هذا فليس هناك اختلاف في المطالب التي تعلنها المجالس التي تتولى أمر السيادة المهجورة في كل من أستورياس أو فنزويلا أو ريودي لابلاتا. هناك نوع من المنطق الجيد في الكلمات التي وجهها إلى إيدالجو دي ثيسنيروس نائب الملك، كورنيليو سابيدرا أحد قادة "مجموعات المواطنين" عندما وصلت إلى بوينوس أيرس الأخبار التي تتحدث عن أن القوات الغالية احتلت كافة أنحاء أسبانيا ما عدا قادش وجزيرة ليون التي أصبحت المقر المهدد لمجلس الوصاية: "ما هو السبب الذي يجعل من هذه الأراضي المترامية الأطراف بما فيها من ملايين السكان تعترف بسادة تجّار قادش وصيادي السمك في ليون؟.. على أي أساس انتقلت إلى كل من قادش وليون، المنطقتين اللتين تشكلان جزءًا من إقليم الأندلس، حقوق تاج قشتالة، الذي انضمت إليه أمريكا؟ لا يا سيدي. لا نريد أن نسير على طريق أسبانيا، ولا أن يحكمنا الفرنسيون. لقد قررنا أن نمارس من جديد حقوقنا وأن نحمي أنفسنا بأنفسنا. فذلك الذي منح سيادتكم السلطة لتحكمونا لم يعد موجودًا وبالتالي فإن السند الذي تقوم عليه هذه السلطة لم يعد موجودًا". (١)

---

(١) كاريوس كالبو: حوليات تاريخية للثورة في أمريكا اللاتينية" الجزء الأول ص ٨٠. ورد عن ميليشور فرنانـدث أعاجرو: "استقلال أمريكا وانعكاس ذلك على الوعي الأسباني" مدريد ١٩٤٤م، ص ٣٩.

اختلفت نتائج المواقف السياسية المتشابهة في الممالك والأقاليم الكائنة على هذا الشاطئ أو ذاك من الأطلنطي وذلك حسب العقلية الاستقلالية المسيطرة في أمريكا التي أفادت من اللحظة المواتية التي قدمها لها التاريخ. غير أنها لم تكن لحظة جرت الاستفادة منها بخبث بل كان فيها نفسها ميول انفصالية ناجمة عن غرف المركز أو المفتاح الذي كان مبقيًا على وحدة هيبة المملكة الكاثوليكية. وإذا ما كانت الممالك والأقاليم في شبه جزيرة أيبيريا أظهرت ميلاً نحو الاستقلال الذاتي والانفصال، فكيف لا تنساق في هذا الطريق نيابات الملوك البعيدة في الهند الغربية؟ الأمر المؤسف هو أنهم ساروا على درب النموذج الذي حدث في شبه جزيرة أيبيريا حيث أخذت الممالك الأمريكية تتفكك بفعل قوة الطرد المركزي وتحولت كل واحدة منها إلى ثلاث جمهوريات مستقلة أو أربع ووصل العدد في البعض إلى ستة دول مثلما هو الحال في أسبانيا الجديدة.

كان هناك نموذج أيبيري خطير في باب استقلال أمريكا ألا وهو أسلوب الحرب الذي قاومت به أسبانيا الغزو الفرنسي. فعندما سقطت الدولة وجرى تدمير الجيش في ميدان المعركة وتحطمت الأجهزة الإدارية واختلت البنى الاجتماعية وأصبح الجسد عريانا في حالة طبيعية، كان رد فعل الشعب الأسباني البطولي الذي حارب الجيوش النابليونية، وابتكر، رغم قلة الوسائل، نمطًا جديدًا من الحرب أثار دهشة الأوربيين، يبدو وكأنه الصورة المضادة للصورة التقليدية، كما أنها من حيث المنطق والنتائج السياسية مناقضة بشكل جذري. "فعادة ما جرى استخدام مصطلح "روح الميليشيا" و "الروح الحربية" - كما يقول أنخل جانبت -[1] دون أية اختلافات بينهما ومع هذا فإنني لا أعرف مصطلحين متعارضين فيما بينهما أكثر من هذين. فلأول وهلة يمكن القول بأن "روح الميليشيا" هي روح تلقائية، أما الروح الحربية فهي روح متأنية، وأن أحد هاتين الروحين موجودة في الإنسان بينما الأخرى في المجتمع؛ وأن إحداهما هي جهد مبذول ضد التنظيم أما الأخرى فهي جهد تنظيمي".

والأمر المؤسف هو أن الكثير من حاملي الرسائل، بدءًا بسان مارتين نفسه، بطل معركة بالين Bailen وكذا بطل مائة مواجهة وقعت ضد القوات النابليونية، نقلوا إلى ما

---

(1) "يوميات إسبانية" مدريد، الطبعة السادسة، ص ٤٧.

وراء الإبحار النمط الجديد من الكفاح الذي بدأ في شبه جزيرة أيبيريا، وبالتالي كان استقلال إسبانو أمريكا تحت راية "روح الميليشيا" وليس تحت راية "الروح الحربية"، خلافًا لما حدث في أمريكا الشمالية حيث كان جنرالاتها قد تربوا في ساحة الحرب الدائرة بين فرنسا وإنجلترا وكانت حربًا تقليدية وكلاسيكية وذات طبيعة فيها فروسية. كانت حرب الاستقلال في أمريكا الشمالية في روحها ومناهجها الحربية تسير على النمط الذي عليه الحروب الدولية بين القوى الأوروبية التي جرت على المسرح نفسه طوال قرن من الزمان، أما حرب الاستقلال الإسبانو أمريكية كانت ارتجالاً حربيًا مفاجئًا على أرض شديدة السلمية ولا توجد بها قوات على مدار ما يقرب من ثلاثة قرون.

وخلافًا للنظرية القائلة بأن الهسبان لديهم ميل طبيعي للحرب يجب أن نذكر هنا أنه كان يوجد أمام نواظر الأوروبيين، ابتداءً من الحملات على إيطاليا في بداية القرن السادس عشر وحتى معركة روكروا Rocroi، أي بينما كان العالم الأسبانو أمريكي في حالة تشكل وتنظيم، تعادلية كاملة في عقر دار المملكة الكاثوليكية بين النظام السياسي والنظام العسكري، حيث تم تسريب طرائقها من خلال "جماعة يسوع" حتى وصل إلى النواة من الحياة الروحية. وإزاء وجهات النظر القائلة بأن الأسبان وفشلهم لديهم ميل طبيعي نحو التمرد والفوضى يجب الردّ بالإشارة إلى أنه خلال الفترة من ١٥٠٠ حتى ١٨٠٠ كانت هناك على جانبي الأطلنطي الكثير من المؤشرات على الاستقرار واتباع النظام المدني والحربي مقارنة بالألمان أو الإنجليز أو الفرنسيين الذين انساقوا وراء الثورات والحروب الأهلية.

غير أن الإله Marte لا يرحم عندما يقبض حقوقه، وبالتالي فخلال بداية القرن التاسع عشر قدم فاتورة متأخرة عن ثلاثة قرون، للأسبان في أوربا وأمريكا. الأمر المؤسف أنها كانت لحظة سيئة للغاية ذلك أنه كانت هناك حاجة ملحة للغاية للسلام والتعقل لبناء المجتمع البرجوازي. أضف إلى ذلك أن فاتورة الحساب هذه كانت تتضمن أرقامًا شديدة التعقيد في الجانب العرقي والجغرافي والاجتماعي والسلوكي والديني.... الخ. لا يستوي الأمر بين وضع قوات نظامية حول كل من كيبك ويورك تاون، المدينتين الواقعتين على مستوى سطح البحر ولهما شبكة اتصالات، وبين حالة سانتا في أو أياكوتشو الواقعتين على ارتفاع ٢٥٠٠ فوق مستوى سطح البحر مع وجود سلسلة جبال ضخمة في المنتصف. لا يستوى الأمر أيضًا بين الحرب في منطقة دافئة مثل هادسون أو سان لورنثو وبين منطقة

فيها الدم الساخن الاستوائي؛ أو حتى الحرب بين البيض أنفسهم وبين أناس متعددي العرقيات؛ فلم تطرد بوليفار وأعوانه من الكربوّ، من القارة عام ١٨١٤م، قوات قادمة من شبه جزيرة أيبيريا، حيث مات في معركة ماتورين Maturin الأغلبية العظمى من الجنود الذين كانوا في فنزويلا. من قام بطرده إلى عرض البحر جيش حقيقي مكوّن من سكان الريف مكونين من السود والسمّر والمولدين، Zamibon، والمولدين بين الزنجي والهنود الحمر حيث حارب كل هؤلاء بقوة وعنف قيادة بوبس Boves وهو من أستورباس لكنه كان يعيش في أمريكا وهو في الخامسة عشرة من العمر.

وبالنسبة للحرية التي جرى الصراع من أجلها في حرب الاستقلال الأسبانو أمريكية لم يكن لها إلا صلة واهية بالسبب الذي كان وراء الحرب في أمريكا الشمالية. لم تكن حرية مقيدة ومحسوبة ونفعية ومرتبطة بفرض ضرائب بل كانت حرية بلا حدود واضحة، لها ذلك الأسلوب الضخم الذي هو من سمة المدن في الهند الغربية وهذا المناخ الأسطوري الذي كانت عليه دائمًا مدينة بوتوسى أو ليما أو كيتو أو بوبيلا. كان الكربّو يريدون أن يكونوا أحرارًا في مواجهة الأوربيين، وكان يريد ذلك كل من الهنود المختلطين والمولدين أمام الكربّو؛ ونيابات الملوك أمام أسبانيا، والقيادات العامة والسلطات Audiencias المحلية أمام نيابات الملوك. كان كل فرد يأمل أن يكون ذا سيادة مطلقة بالنسبة لنفسه وعلى الآخرين.

وها هي المعتقدات الدينية التي كانت الرابطة والقاعدة لهذا العالم المختلط mestizo تصبح محل صراع. نُفيَ مفهوم الحياة التي سادت في الملكية الكاثوليكية وكانت الحرية ذات معنى راديكالي يرتبطَ ارتباطًا حميما بالغاية المطلقة للإنسان ألا وهي الحرية من أجل الخلاص أو الإدانة. وعندما يتم إضفاء الطابع الديني على هذا المفهوم للحرية ويتم نقله إلى النظام الاجتماعي والسياسي فإنه يحدث تغييرًا في المناخ والهدف لكنه يحتفظ بدرجة التوتر الداخلية لديه: أي سيظل يواصل تقديم المدلول النهائي والراديكالي نفسه. والأكثر من هذا نجده بقوة في العالم الجديد أكثر من شبه جزيرة أيبيريا نظرًا للمسافة الفاصلة والظروف الوجودية التي خلفتها أمام حركة الأفراد والجماعات وما يترتب أيضًا على المعتقدات الدينية والتناقضات الاجتماعية والإثنية الحادة.

وها هي روح التحارب تتبدى من خلال هذه التشكيلة التي هي من سمات الحياة الأمريكية حيث طالت حتى القديسات المبجلات. فإذا ما قام القسّ إيدالجو باتخاذ راية "عذراء جوادالوبي" فإن نائب الملك في أسبانيا الجديدة يختار "عذراء ريميديوس V. Remedios كحامية للجيوش الملكية. ووصل الأمر بالماسوني البارز سان مارتين بعبور جبال الأنديز وهو يرفع راية "عذراء دل كارمن" بألوانها البيضاء والزرقاء وهي الألوان الخاصة بالعلم الأرجنتيني.

وخلال ربع قرن من الزمان نجد أن أمريكا الأسبانية المسالمة التي رآها وتمتع بها ألكسندر فون همبولت، تتحول إلى هذا الوضع المتفجر الذي أثار استغراب ألكس دي توكيفيل A. de Tocqueville واستغراب الكثير من الأوربيين ومن أمريكا الشمالية. ومن حقائق الأمور أيضًا أن شبه جزيرة أيبيريا تستحق أيضًا هذا الاستغراب، إذ عاشت تحولاً تاريخيًا عنيفا طال كافة الشعوب الهسبانية، الأمر الذي أدى بهم إلى السير في طريق متعرج وخطر وابتعدوا عن الطريق الحقيقي الذي كانوا يسيرون فيه أثناء معركة روسيون Rosellon أو ترافالجار أو عندما زار همبولت "مدرسة التعدين" وكذا حديقة النباتات في المكسيك خلال الفترة الفاصلة بين تلك المعركتين.

كانت لعبة ملعونة في الكثير من جوانبها حيث قام القدر على هواه بجعل التاريخ الهسباني يتأرجح بين الحظ الطيب والحظ التعس. فذلك الحظ التعس الذي بدأ خلال العصور الوسطى في شبه جزيرة أيبيريا كان عنه عوضا الحظ الطيب الذي حظيت به مع نهاية العصور الوسطى: أي أن غزو العالم الجديد كان استمراراً لعملية الاسترداد Reconquista. وفجأة يتشكل الوضع الكوني للملكية الكاثوليكية، وفجأة أيضًا تتهاوى الأمبراطورية الهندية.

غير أن الشيء الذي يألم له الأسباني كثيراً عندما يقرأ تاريخ تلك الساعات المعتمة ويتأمل المشاهد التي جرت فيها الأحداث، أي ليست تلك التي وقعت في شبه جزيرة أيبيريا بل تلك التي حدثت في أسبانو أمريكا، يجد أن وراءها، بشكل كبير، عدم قدرة أسبانيا على الفعل. ليس من المشروع الحديث عن حرب الاستقلال الإسبانو أمريكية، إذ أن أسبانيا وجدت نفسها مقيدة اليدين والرجلين حيث لم تتمكن بالفعل من ممارسة فعل

الحرب أو السلام في نيابات الملوك مثلما فعلت كل من إنجلترا والبرتغال في أملاكهما الواقعة فيما وراء البحار.

لقد جرى غزو البلاد واستسلامها، وأصبحت غير قادرة على التصرف، بعد تحررها، وكان ذلك نتيجة حرب طاحنة وكذلك صراعاتها الأيديولوجية. لا توجد بها قوات أو جيش أو موارد اقتصادية فأخذت تراقب عن بعد، وقد غابت عنها مشاعر "الغيظ والنقمة والكراهية...." [1]، مشهد حرب الاستقلال الأمريكي الذي كان حربًا أهلية شاركت فيها قوة الأم والأرض أكثر من مشاركة في صورة جماعات إنسانية. كانت أرضًا من أصعب المناطق جغرافيًا جرت فيها تجربة فريدة في صورة مجتمع حيوي يضم جماعات إثنية مختلفة يقوم على قاعدة المعتقدات نفسها والقواعد السلوكية ويقوم بذلك بدور نبيل وإنساني أكثر من مجرد تصدير أدوات حضارة تقنية.

ولهذا فإن الفصل الأخير في الهند الغربية، وهو فصل استقلالها، الذي لم تستطع أسبانيا أن تكتبه بذكائها أو حميّتها أو حتى بدمها، يعتبر واحدًا من الفصول التعسة وغير الجديدة في التاريخ.

---

(١) Vid ميلتشور فرثاندث ألماجرو – العمل المشار إليه، ص ١٧٥.

الباب الثاني

آســــــيا

I- في الطريق إلى المشرق

أن يكون المكان espacio زمانا هو ما يمكن أن يشعر به الرحالة المسافر على متن السوبر بوينج تحديدا، في هذا العصر الخاص بنسبية الأشياء، فمنذ سنوات خلت عاشه الرحّالة على متن super constellactión، لكن كان ذلك في إطار أكثر اعتدالا وأقل إقناعا لأن ذلك لم يكن يؤثر بشكل مباشر على الجسم. كان من الممكن النوم على كنبة تمتد بشكل يكاد يقترب من حجم السرير، ورغم أن المسافة الزمنية الفاصلة بين مواعيد الطعام كانت أقل عند الطيران نحو الشرق، فإن المعدة لا تكاد تلحظ ذلك، حيث أنها كانت نهمة بسبب حالة الترقب بالنسبة للرحلة. غير أن القفزات في الطائرات الجديدة تتسم بأنها قصيرة للغاية لدرجة أن الشركات قررت أنه ليس من المجدي النوم على متن الطائرات وعلى هذا تصرفت مع المسافر بإعداد مقاعد يصعب أن تكون أفقية وبالتالي فإن الرغبة الملحة في النمو تضيع سدى. أما الوجبات فهي الواحدة تلو الأخرى الأمر الذي يسهم أيضاً في أن يظل المسافر في حالة يقظة شبه كاملة.

وإلى جانب التغيير في التوقيت من مكان لآخر يطرأ التغيير أيضاً على الذاكرة فإيقاع التذكر والنسيان يرتبط ارتباطا حميما بالبيانات الجديدة الآتية والتي تدخل في إطار الوعي. تتغير التأثيرات حسب البيانات البصرية أو السمعية، فعند سماع سيمفونية كثيرا ما تبدأ آلية التذكر في العمل، وهنا تبرز بعض المواقف العاطفية المنسية منذ زمن طويل لكنها تتمكن من الطفو في بحر الوعي بمساعدة حالتنا الانفعالية الحاضرة. وعادة ما يكون الأمر عبارة عن تجليات حقيقية لكنها غير مترابطة، كما أنها لا ترتبط في شكل سلسلة متتابعة. غير أن هذا عادة ما يكون كثيرا عندما تبدأ آلية الوعي في العمل من خلال سلسلة من الصور المرئية. وبعد وقت قصير، على سبيل المثال، من تأمل المشهد من نافذة القطار يبدأ فيضان

الذاكرة يستعيد قوته بحيث تبدو منظمة بشكل جيد. وتنفذ الصور من خلال العيون في تتابع سريع لكنه متسق وتستنفر حركة مشابهة في شريط ذكرياتنا. ولابد أن برجسون خطرت له نظريته حول "تدفق الذاكرة" وهو يراقب المشهد من نافذة القطار.

ولاشك أن الانطباع الذي يخرج به المسافر وهو يمتطي صهوة الجواد أمر مختلف، إذ يلاحظ الفارس تغيرات في المشهد لكنها تتتابع بشكل فيه نعومة لدرجة أن الاستمرارية لا يتم من خلالها إدراك التغيير بل الأمر مرتبط بإحلال مشهد مكان آخر وكلاهما في الحاضر. وبالتأمل في النظرية الكلاسيكية، منذ أرسطو، الخاصة بالتتابع الزمني من حيث هو سلسلة من أزمنة حاضرة تتجه إلى الخلف أو إلى الأمام، لوجدنا أنها نظرية الإنسان الذي كان ينتقل، كحد أقصى، على حصان. ومن المؤكد أن السفر السريع بالعربات التي تجرها الخيول كانت له آثاره في النظريات التي سادت خلال القرن الثامن عشر وبدايات القرن العشرين، فكيف إذن ستكون النظرية الخاصة بالذاكرة المتولدة عن التجربة المحدودة التي يحياها من ينتقل في الطائرات الحديثة؟

قبل التفكير في النظرية يصبح من المهم تمييز البيانات ذات الإشكالية وتقييمها بوضوح، وكذا حالة الانفعال التي تؤثر في ذاكرتنا، ومن البدهي أن آخر الذكريات يتم إهمالها. فالنظرة إلى الخلف لا يسترعي انتباهها تفاصيل الحياة العادية التي انتهينا منها للتو، حيث تصبح ذات حجم أصغر وتتفرق أمام البروز المفاجئ للخريطة البارزة لحياتنا كاملة. وهنا تتبدى مستوياتها الحياتية أمام عيوننا في مستويات مختلفة، كما أنه داخل كل مرحلة تبرز الأحداث الأكثر دلالة مثل قمم الجبال التي تبرز وسط هضبة أو وسط سلسلة جبلية.

وعندما تحاصرنا مشاغل الحياة اليومية نجد أن آفاق ذاكرتنا الحية تضيق، فنحن نتذكر تفاصيل ما حدث لنا بالأمس، وخلال الشهر الماضي أو السنة الماضية، لكن الأحداث الأبعد زمنيا في ذاكرتنا تكاد تتفلت منا. نعرف أنها وقعت ونعرف موقعها وارتباطاتها، لكننا لا نراها، أي كأننا لا نرى مشهدا واسعا إذا ما كنا في وادي الدموع in hac lacrimarum valle الذي هو الوجود العام عند المحترف. فالمناطق المرتفعة القريبة تخفي ما وراءها رغم أنه قد يكون أعلى، تعرف عن وجودها لكنها أخبار عنها مثل الأخبار في كتاب للجغرافيا، وليست الرؤية المباشرة التي يتمتع بها الرحالة.

تبدو هذه التشبيهات ذات الطابع الجغرافي، للوهلة الأولى، غير ملائمة لواقع شديد الحساسية الذي هو واقع الذاكرة. لكن من المهم قبل أن نصدر حكما أن نضع في الحسبان أن الواقع المؤلم لحقائق الجغرافيا - من جانب - تعرض لعملية تشتت، فالجبال وسلاسلها تتجلى أمام نواظرنا، ونحن على ارتفاع اثنى عشر كيلومترا وكأنها بيانات غير مستقرة بل هي في حالة حركة، في تنقل دائم وحالة انزلاق مؤقت. وهنا فإن انتقال الزمن إلى المكان والعكس ليس مجرد أمر نظري بل هو نتاج تجربة محددة للغاية وقابلة لأن يعيشها الإنسان في عصرنا.

وعلى هذا النمط تصبح الحدود بين ما هو مادي وما هو روحي غير واضحة للغاية ومن الممكن أن نستخرج من مصدر للمعلومات شديدة المادية في الظاهر كنوزا لم تعرف من قبل تتعلق بالأبعاد الدلالية. وقد أدى التقدم التقني الحديث إلى زيادة أفق حيواتنا وعلينا أن نبذل الجهد لاستخدام البيانات الجديدة حتى نستخرج منها أو نستخلص إمكانيات جديدة تساعدنا على حل المشاكل التي تواجهنا، كما تساعدنا مسبقا على معرفة المواقف التي نظهر فيها. وسرعان ما سنجد في أنفسنا ميزة استخدام عناصر جديدة لم تستهلكها يد الاستخدام أو تشكل العبارات البلاغية الزائفة غطاءً لها. إنها هيئات جديدة وبكر ويمكن أن تكون بمثابة مراكز للتكثيف في باب الصور الجديدة ويصل بها الأمر لتكون في إطار معالجة المعاني الشديدة الدقة.

من المهم أن تختبر الوظيفة ذات الطابع الثقافي الصرف والتي جاءت نتيجة التجارب الناجمة عن الرحلات على الكتّاب والمفكرين من الطراز الأول. وإذا ما تأملنا مونتين أو مونتسكيو لوجدنا الأمر بدهيا نظرا لطبيعة تفكيرهما. أما بالنسبة للكتّاب خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر بما يتوفر لديهم من جرعة رومانسية أو ما قبل الرومانسية، لوجدنا أن التأثير الذي أحدثته رحلاتهم نحو البحر المتوسط أمر بدهي أيضاً. كما لا يوجد مانع أيضاً من القبول بها في حالة الكتّاب العظام أو الفنانين الهسبان خلال العصر الذهبي - مثل ثربانتس ولوبي دي بيجا وبيلاثكيث وسابدرا - حيث يلاحظ البعد اليونفرسالي والدينامي في أفكارهم وصورهم. لكن الأمر الذي يصعب أن نقربه هو أن تجربة الترحال كان لها تأثير مباشر في تشكيل العقليات أو الأفكار التي عليها المفكرون الأكثر تأملا وتدبرا.

ومع هذا يبدو أن هذا التأثير كان حاسما في أكثر من مرة وخاصة في الفلاسفة الإنجليز، إذ بدون الرحلات الطويلة في القارة لكانت جد مختلفة الأعمال الفلسفية الصادرة عن جويس أو لوك أو هيوم أو استيوارت. وربما كانت مختلفة ألف مرة. غير أن من حقائق الأمور هو أن المفكرين الإنجليز كانوا مجبرين على السفر لأنهم كانوا يعيشون على الأطراف الفعلية والروحية لأوربا، وتركوا أنفسهم نهبا للحاجات والدوافع الدفينة لسلالتهم، غير أنه لم تغب الأسباب حتى نفترض أن المدلول التجريبي والنسبي والنفعي للفلسفة الإنجليزية مصدره الأساسي هواية السفر التي كان يمارسها أبطال هذا الفكر، كما يجب أيضاً الإشارة إلى أمر ورد ذكره كثيرا وهو أننا يجب أن نضع في الحسبان السكون الذي كانت عليه حياة كانط حتى يمكن فهم منظومته الفلسفية.

وعلى أية حال تشكل ثقافة أدب الرحلات فصلا مهما للغاية في الآداب والفكر الأسباني خلال القرن العشرين. وإذا ما نظرنا إليها من باب الموضوعات لوجدنا أنها أدب محلي في المقام الأول باستثناء كل من بلاسكو إيبانيث ورامون دل بايّي إنكلان وباروخا إضافة إلى بعض الكتّاب الآخرين من جيلهم. ومع هذا فإن هذا الأدب يقوم بدور جوهري في إجمالي إنتاج أونامونو أو آثورين ربما كانت نمطية التفكير الهسباني الحيوية والواقعية تتطلب معالجة مباشرة للسياق المحيط، وهي معالجة لا تعني التبادل مع الأشياء عندما يتم إدراكها وتصبح في آن معا مثيرة للانتباه والإدراك والتنقل: هذا ما يقوم به الرحالة. وهنا فإن أبرز أعمال العبقرية الهسبانية، الكيخوته، هي في نهاية المطاف كتاب رحلات.

وإذا ما كان لكاتب هذه السطور أن يدلى باعتراف - قابل للغفران بعد الإشارة إلى ما سبق - فإنه يجرؤ على القول بأنه كان يشعر منذ سنوات صباه بالأهمية التي كانت للرحلات على تكوين سيرته الخاصة. إنها لا تقوم بمثابة حدود هندسية على طريقة الخرائط بل هي بمثابة تقسيمات حقيقية تقوم بتوزيع المياه في اتجاهات مختلفة صوب المسار الرتيب للحياة العادية. إنها فواصل تقوم بدور وهي حية كما أنها جزء من الوجود الإنساني وعلى ذلك ترتبط بنظام وصفي. وبذلك يضحي من الممكن الانتقال بسهولة من دائرة حدودية إلى أخرى، بمعنى استدعاء التجربة المعيشة في رحلة سابقة بدقة شديدة عند القيام برحلة جديدة خلال الفراغ الذي تخلقه عندما تختفي الاهتمامات اليومية من دائرة اهتمامنا.

وسيرا على هذا الإيقاع المجازي في العرض يبدو بالفعل وكأن مشاغل الحياة اليومية قد غرقت واختفت في واد معتم، بينما يتركز الانتباه على سفح جبل بعيد في الزمان ومع ذلك فهو قريب وواضح في ذكرياتنا المعيشة مرة أخرى. يبدو الأمر وكأننا ننظر إليها من خلال منظار قناعي لم يتم فقط بتوجيه الأشعة البصرية نحوها بل تم توجيه حساسيتنا بكاملها. ولهذا فإن الرحلات تستعيد الشباب. إننا حينئذ نشعر بأننا أكثر قربا من ماضينا ومن بعض الخطوط التي تبرز وتتضح في عمق الماضي ويترتب على ذلك التقليص الآلي للفترات الفاصلة. نجد حياتنا الماضية وقد أصبحت وجيزة ويتم ضغط السنوات ونصبح أكثر شبابا. وربما أطفالا. ومن هنا فإن الرحالة الجيد هو الذي يتعامل مع العالم وكأنه حديث الولادة إلا أنه ناضج الوعي.

ولا يقتصر النضج على وعيه هو بل يشمل الإنسانية، فكيف لا يفكر المرء في الإسكندر الأكبر عند المرور فوق Indo ! فمن خلال تلك المياه، القليلة في هذه الفترة من العام، أبحرت مراكب الإمبراطور العظيم. وبعد مسافة بعيدة بعض الشيء نجد أطلال Mohen-Jo-daro، التي تعتبر واحدة من المناطق الأثرية المهمة خلال السنوات الأخيرة. وليس الأمر مجرد إبراز أن المرء ضليع، فالماضي التاريخي ينسب إلى الأرض من حيث أنه بعد خاص بها رغم أنه ربما زالت الظروف الجغرافية التي جعلت من الممكن مشرق حضارة بعينها، وهذا طبقا لما نراه في إقليم السند Sind الذي مرت الطائرة إلى جواره والذي يبدو الآن صحراء جرداء بينما كان أرضا خضراء يانعة منذ حوالي أربعة آلاف عام.

هناك تداخل بين الجغرافيا والتاريخ وربما كان ذلك بشكل أكبر إذا ما نظرنا إلى الأمر من الارتفاع الذي تطير عليه الطائرة. ومن الأمور الواضحة أن التفاصيل الصغيرة على الأرض لا تُرى عن بعد غير أن الشيء نفسه يحدث بالنسبة لتفاصيل الماضي الإنساني في صورة كتاب حقيقي للتاريخ. ما يتوفر إذن هو رؤية شاملة لكن هذا لا يعني رؤية مجردة، فها هو وادي جانج Ganges العظيم وفي العمق سلسلة الهيمالايا يبدوان في صورة شاملة لكن ليست مجردة. وفي الأسفل يجري النهر المقدس بتعرجاته الفريدة، وفي الأفق تتبدى ملامح السلسلة بحيث تبرز بشكل أوضح تلك القمة الشمّاء، قمة الإيفرست.

وحتى سنوات قليلة خلت لم تكن العين البشرية بقادرة على أن ترى في لمحة واحدة هذين العنصرين الجغرافيين الحاسمين في مجمل التاريخ السياسي والثقافي في الهند. انتهينا للتو من المرور فوق بيناريس Benarés، قدس الأقداس في الهندوسية، الكائنة بجوار المكان الذي كان فيه بوذا يلقى بعظاته. وخلال بضع دقائق سوف نمر بالقرب من بوت جايا Both-Gaya حيث نزل عليه الوحي. فما الذي كان سيشعر به لو تأمل الهيمالايا مثلنا من الجو وهي أعلى من كافة القمم المحيطة دون أن يسمع أي صوت اللهم إلا أزيز الطائرة دون أن يواتينا الإحساس بأننا ننتقل في إطار الظروف التي يمكن أن نتصور بها في وعينا ما عليه الملاك الطائر إذا ما توفر لدينا القدر الكافي من السعادة والطيبة؟

تطفر سلسلة جبال الأنديز إلى المخيلة والتي تعتبر العصب الآخر الكبير على الكوكب. كانت الطائرة تعبر بالقرب من المكان وكان من الممكن أن نرى بوضوح المناطق الجليدية في القمة والشعاب والوهاد. ها هي الهيمالايا تصبح في الخلف، لكن صورتها تثير الصورة الأكثر قدما ويشعر المرء بميلاد جديد للمشاعر التي كانت نائمة في أعماق الذاكرة. تلك، كانت رؤية ملفتة وربما كانت أكثر تأثيرا من خلال الحوار المستمر بين الجبال الشماء وبين البحر الواسع للغاية، كان الإنسان غائبا عن هذا بشكل شبه كامل. أما في الوادي، أي وادي جانج Ganges ، فهناك خلية نحل من المساكن. إذ تتابع القرى بشكل ملحّ لدرجة أن المسافة الفاصلة بين كل أقل من عرض الرقعة العمرانية.

لكن بين هذه القرى نرى الأرض بشكل دائم مع عناصر تثير الدهشة. أصبح من الأقوال المألوفة أن المفاهيم الهندوسية أو البوذية المتعلقة بأن الأشياء زائلة إنما ترجع إلى الخبرة الحيوية التي تعمل على النباتات القوية والمتغيرة في الهند؛ فكتاب رادكريشنان عن الفلسفة الهندية، وهو كتاب صديق الرحلة، يلح على هذا الجانب. وحقيقة الأمر هي أن صفحاته ينجم عنها الانطباع بالزوال السريع ولو كان الذهن كحد أدنى. لكن ما يتم اكتشافه من على متن الطائرة هو البنية العظمية للأرض حيث نجد العصعص الكبير الذي هو الهيمالايا في العمق. تبدو مجاري الأنهار شبه جافة، لكن هناك عروق مياه قليلة بالمقارنة بعرض المجرى. يبدو كل شيء قوي وأبدي وضخم.

وعندما كنا على بعد ساعة ونصف من نيودلهي أخذ المشهد يتحول إلى اللون الأخضر، فالأنهار بها المزيد من المياه، ويلاحظ وجود مجموعات شجرية غابية وكذلك بحيرات أو خزانات مياه، تنخفض سلسلة جبال الهيمالايا وتبتعد عن طريقنا. ومع زيادة الرطوبة والمياه تزداد كثافة السكان، وحتى المناطق شبه الغابية تصبح ذات رقعة أكبر، وتسيطر على الأرض، تتفرع أفرع الأنهار وتتسع وتلتحم بالسافانا قبل الوصول إلى مياه البحر.

يتلألأ المحيط الهندي تحت شمس المساء، غير أنه إلى جانب الضوء الأحمر الخانق نجد هناك بعض الألوان الرائعة الجمال، حقا هذا بحر هو ميروسي ،لونه لون النبيذ ولون البنفسج. ورغم ذلك فإن اللون الأخضر القاتم للغابة البرمائية المتموجة والكثيفة، سرعان ما يكذب الانطباع بوجودنا في حوض البحر الأبيض المتوسط الأسطوري، ويستثير ذكريات الغابات البرازيلية.

أخذت السحب تظهر من مكمنها الرطب أكثر من كونها مكثفة في الهواء مكونة بذلك أشكالا غريبة ذات سمات مادية أكثر غرابة. وها هو ظل الطائرة ينعكس على طبقات السحب، لكن مع الرطوبة فإن الظل ليس رماديا أو ممتدا بل شبكة من ألوان الطيف. أي مخلوقات استطاع خيال ميلتون أو جوته تخيلها عندما جرت هناك إطلالة على شبه جزر كاملة في المنطقة الاستوائية؟ ألا يمكن أن تظهر يوما ما ميتولوجيا فائقة عن مستوى التكنولوجيا الفائقة، رغم أن ذلك يمكن أن يكون شعريا فقط؟

II- مانيلا دون تعلق بالتقاليد

حل الظلام بسرعة استوائية بينما كانت الطائرة تحلق فوق غابات الهند الصينية، الأمر الذي عزز عودة الذكريات التي أخذت طريقها نحو مانيلا، المحطة التالية للرحلة. أخذت تتبدى قراءات وصور، وحكايات عن الفيلبيين جاءت على لسان شقيق لجدي من الأب، عاش سنوات طويلة يعمل كمهندس جبال في الجزر قبل استقلالها. ورغم أن هذه الذكريات غير المترابطة نبعت من الذاكرة أخذت تنتظم أجزاؤها حول صورة زوجين من الفازات Jarrones الصينية جلبها عمّي من الفيليبين خلبا عقلي عندما كنت طفلا في منزل جدتي حيث اعتدت قضاء فترات هناك كل عام.

كان ذلك هو أول اتصال لي بعالم الشرق الأقصى، ومما لاشك فيه أن هذه الفازت كانت عاملا حاسما في تشكيل رؤيتي لهذا العالم منذ طفولتي، غير أنه من الصعب تحديد ملامح الانطباعات الأولية. وهنا فإن الصعوبة لا تكمن فقط في الذكريات التي أتى عليها الزمن الذي مضى بل يتعلق الأمر بالشيء الذي يؤدي إلى ذلك. كان هناك نوع من عدم التحديد الشكلي مثير للحيرة، فلم أكن أفهم السبب في أن القاعدة كانت مثقوبة بشكل غير منظم كان يتسبب في عدم استقرار القطعة على الأرض، كما أن القطعة كانت مُهَدِّدَةً أيضاً بما عليه شخصية مرسومة ذهبية اللون وهي تشهر سيفها لتضرب أحدا لا ندري من هو. كما لم يكن واضحا أيضاً لم كانت حواف الفازة متعرجة، أو ما هي وظيفة فراشتين مكتملتي الشكل تقريبا تقفان في الجزء العلوي. إلا أنه كان هناك نوع الخلط الرائع للألوان الزرقاء والبرتقالية المنتشرة على السطح الخشن لقطعة البورسلين. وفي ثنايا الذكريات تطفر طرائف كنت أسمعها حول فترة الإقامة التي قضاها جدي من العمومة في جزر الفيليبين، بما في ذلك تلك التي كان يقصها قبل وفاته بوقت قصير، أي ليس منذ سنوات طويلة.

استمرت صورة الفازات تسترعي انتباهي طوال الليلة الفائتة في مانيلا حيث كنت مجبرا على راحة غير اعتيادية بالمرة لسبب غير متوقع في هذه الأصقاع ألا وهو البرد الشديد. غير أن الأمر الأكثر غرابة هو أن ذلك تصادف مع ظرف شبيه الأمر الذي جعل من الصعب أن ينام المرء أثناء أول ليلة فائتة في المنطقة الاستوائية الأمريكية حيث التقت بهذا بدايات تجربة الرحلة إلى هاتين المنطقتين.

من الأمور الحقيقية أيضاً أن البرد القارس في كلتا المنطقتين كان مختلفا ففي حالة أول ليلة أمريكية كان بردا طبيعيا ناجما عن الرياح التجارية alisios التي كانت تنفذ عبر النافذة المطلة على البحر ثم تخرج في شكل زوبعة صغيرة من خلال فجوات الباب الكائن في الحائط المقابل بعد أن تكون هزّت الستارة وكأنها شراع إحدى المراكب. كان من المستحيل أن يتم العثور على غرفة مثل هذه في كافة أنحاء المدينة وتقديمها للزائر الذي وصل للتوّ وهذا ما أكده لي عميد كلية الحقوق. لم تكن غرفة في فندق ذلك أن ناتال Natal التي شهدت تطورا سريعا طوال الحرب العالمية الثانية لم يكن بها فنادق مريحة خلال فصل الخريف من عام ١٩٥٥م. كانت الغرفة جزءاً من المصحة العقلية في المدينة، غير أن الوضع الذي هي عليه كان مريحا لدرجة تدعوني إلى التخلي عن تحفظاتي بشأن ما يثيره الاسم.

وبالنسبة لأول ليلة فائتة في الشرق الأقصى لم يكن من السهل أيضاً العثور على مُقام عادي، فالفنادق الأكثر شهرة كانت تعج بالكثير من الزبائن الذين أتوا من المحافظات المختلفة إلى مانيلا بمناسبة انتخاب رئيس الجمهورية وبالتالي تم اقتيادي إلى فندق غير مستخدم. ولما كان الأمر أن ناتال قريبة من البحر فإن الغرفة معرضة لخطر البرودة غير المتوقعة، إلا أنها برودة اصطناعية هذه المرة، حيث مصدرها جهاز تكييف. كان جهازا لا يسمح إلا بأمرين: إما أنه مغلق وإما أنه مفتوح يصدر منه هواء بارد للغاية، وخلال هذا الصراع بين النقيضين غير المحبب أي منهما، من أجل الوصول إلى منطقة وسطى قضيت جزءاً كبيرا من الليل دون نوم تطاردني ذكريات الفازات الصيفية التي تتقاطع مع خلفية هي جزء من مانيلا.

من الأمور ذات الدلالة البالغة هو أن هذا النوع من الملابس اكتسب أهمية من خلال واحدة من أفضل الروايات خلال القرن التاسع عشر للروائي بيرث جالدوس، وهي

فورتوناتا وخاثينتا" . ها هي بارباريتا والدة بطلة الرواية - طبقا لما يقص علينا الكاتب[1] - وقد تربت في مخزن أحد الدكاكين في مدريد في سياق "محمل برائحة الصندل والعطور الشرقية ومعها الألوان الزاهية للمناديل الصينية الأمر الذي كان له تأثير كبير على الانطباعات التي خرجت بها عن طفولتها" . تذكرت بارباريتا دائما لوحة لأيون Ayún "ذلك المطرّز العبقري للمناديل في مانيلا الذي ابتكر ذلك النمط من الأغصان الذي يعتبر أكثر الأنماط بهاء، وهو الشاعر المعطاء الذي طرّز هذه القصائد الغزلية من الكريب الأسود في صورة زهور وأغصان وعصافير" .

"الصناعة الحديثة - يضيف جالدوس - لن تخترع شيئا يماثل هذه العبقرية الشعرية للطرحة المطرزة بالزهور الملتصقة والمرنة وغير اللامعة، وكذلك الأهداب التي ترتبط بالأحلام وكذلك بزهو الألوان التي كان الناس يزدهون بها عندما كانت شائعة الاستخدام .. الطرحة يمكن أن تكون لباسا شائعا إذا ما ارتبطت بالتصميم، لكنها لا تكون كذلك لأنها تحافظ على الفنون البدائية والشعبية. إنها مثل الأسطورة، وقصص الطفولة، ذات ألوان زاهية ومرحة يسهل فهمها وعصية على تغير الموضات" .

هذه الصفحة ليست فقط من الصفحات الأدبية الرائعة في هذه القصة العظيمة لجالدوس بل هي تشعل المركز من الدائرة لأسباب عميقة. الأمر هو أن شال مانيلا يعتبر مفتاحا لفهم العمل كله. أي الرابطة بين البطلتين في الرواية وهما، سيدة من الطبقة البرجوازية في العاصمة مدريد، خاثينتا، وامرأة من الريف هي فورتوناتا، والملابس التي ترتديها كل واحدة منهما كانت ملتصقة بأجسادهما لإبراز مفاتنهما وذلك من خلال شعرية عبقرية شبيهة بما يتفجر في قلب خوانيتو سانتا كروث، الرجل القادر على أن يستوعب المرأتين المحبوبتين، مثلما هو الحال بالنسبة للطرحة الفيليبينية ، ولكن بإيقاع مختلف.

ومما لاشك فيه أن طرحة مانيلا تعتبر من العلامات الفارقة في باب التوجه البونفرسالي الذي عليه الشعب الأسباني، وهذا في إطار ربما كان أكثر عمقا مما عليه إيقاع الشركات الاستعمارية والتيارات المهاجرة. كانت الطرح الصينية Chinoiseries في كل من هولندا وفرنسا وإنجلترا مجرد زينة في الصالونات الأرستقراطية أو منازل الطبقة

---

[1] فورتونانا وخاثينتا، مدريد، ١٩٥٥م، الجزء الأول، ص٢٧.

البرجوازية، لكنها لم تنفذ إلى الطبقات السفلى من المجتمع. وما نجده فقط في أسبانيا الجديدة وأوربا العجوز هو ملابس جرى إرسالها بكميات كبيرة من الشرق الأقصى، الأمر الذي جعلها تتحول إلى أدوات حية لشعر شعبي ولم يكن ذلك عن طريق إثارة الفضول أو الرمزية بل من خلال الطريقة الأكثر واقعية حيث أصبحت وكأنها طبقة أخرى من الجلد من الكريب الأسود "مكونة من الزهور والأغصان والعصافير" الغريبة بالنسبة لأجساد الدوقات ونساء *manolas* الطبقة البسيطة في مدريد.

لكن الذي يتجول في شوارع مانيلا وهو يضمر مسبقا أحكاما ترتبط بالإعجاب ما فيها من بورسلين وطرح سرعان ما يخيب أمله؛ ففي فنادق المدن الأسبانوأمريكية نجد البوابين وحاملي الشنط يتحدثون الأسبانية المصحوبة في أحيان كثيرة بكلمات قديمة وهذا يساعد الرحَّالة على نسيان المودرنيزم النقي والمحايد التي عليه هذه اللغة في المطارات وفنادق هيلتون، وأن يتهيأ جيدا لزيارة المباني الهسبانية القديمة للمدينة. إلا أن اللغة السائدة في فنادق مانيلا بين البوابين والسعاة هي على أفضل الأحوال الأسبانية المصحوبة بالإنجليزية والتاجالو.

في بداية شهر نوفمبر عام ١٩٦١ كان الرحالة الذي يطوف بشوارع مانيلا يصطدم في كل خطوة بالإعلانات الخاصة بالدعاية الانتخابية والتي كانت تغطي الحدائق والشوارع الرئيسية بشكل غير معقول، كما أنها كانت تثير الحيرة بسبب ما بها من مكونات مختلفة. تكاد كافة الألقاب تشير إلى أصولها القشتالية الخالصة، لكن ملامح الوجوه المرسومة في الإعلانات كانت للسكان الأصليين، أما العبارات فكانت بالإنجليزية، وفي الابتسامة الأبدية التي يتوجه بها المرشحون للناخبين كانت تتلألأ الكثير من قراريط السعادة والثقة الظاهرية مقارنة بما عليه صورة سناتور أمريكي.

كانت الصورة تلك الخاصة بالسناتور مصحوبة بالمباني الحديثة التجارية التي تُرى من وراء اللوحات الإعلانية الانتخابية، بينما نجد هناك السيارات الفارهة ماركة كريزلر أو جنرال موتورز تشق الطرق التي تم اقتطاعها من البحر. الأمر كذلك فيما يتعلق بالبشر الذين يسكنون هذا المشهد حيث كان هناك، بعيدا، ذلك الرحالة من مناخ هسباني محض، وهو أبعد كثيرا هنا، مقارنة بأي مدينة في جبال الأنديز أو الكاريبي. من الغريب في مانيلا

أن نكتشف وجود ملامح أيبيرية في السلالات المختلطة، ولا يكاد المرء يسمع الحديث بالأسبانية ولو كان بشكل سيئ في الشوارع، ورغم أن المدينة كانت أسبانية حتى ما يزيد قليلا على نصف قرن من الزمان فإن أصداء أسبانيا أقل بكثير عندما نقارنها بما عليه سانتياجو دي شيلي أو بوجوتا.

الشعور بالسخط على الفور هو ما يميز السلتي الأيبيري من سلالة خالصة لما قامت به الإدارة الأمريكية من هيمنة ودهس تلك القطعة القصية من العالم الهسباني. ورغم أنه لا يعدم المرء الأسباب الكامنة وراء هذا السخط، عليه أن يبدأ بتحديد جوانب المشكلة العرقية والثقافية التي وجدها الأمريكان أمامهم norteamericanos وذلك حتى يتم تحديد درجة مسؤوليتهم التاريخية. مارس الأمريكان ضغطا أعلى من ذلك على جزيرة بويرتوريكو، حيث كانوا شديدي الاهتمام بضمها إليهم لغويا وثقافيا بشكل أكبر عن تلك المنطقة الموجودة في الشرق الأقصى، لكن النتائج التي توصلوا إليها حتى هذه اللحظة كانت ضعيفة للغاية مقارنة بتلك النتائج البدهية التي وقعت في حالة الفيليبين.

كانت بويرتوريكو مدعومة بمحيط قوي لغويا وثقافيا كانت جزءاً منه كما أنه كان يمتد حتى "أرض النار". ومن جانب آخر هناك مجموعة متكاملة من السكان الهسبان مطعمة بعمليات هجرة قوية قادمة من القارة عندما حصلت على استقلالها، في بداية القرن التاسع عشر، وانفصلت عن أسبانيا، وبعد ذلك ظلت طوال القرن الماضي (التاسع عشر) في حالة مقاومة فعّالة لمحاولات الأمريكان للنفاذ إليها، واستطاعت أن تُبقي في سان خوان - بمبعد عن أية تنازلات تتم خارج حدود المدينة - على النواة الحية لعاصمة واحدة من محافظات شبه جزيرة أيبيريا. أما الأمر بالنسبة لجزر الفيليبين البعيدة كانت الهجرة الأسبانية إليها ضعيفة للغاية نظرا للمسافة البعيدة ووجود العالم الجديد كذلك، وبالتالي كانت السلالة المختلطة من البيض والسكان الأصليين ضعيفة العدد للغاية، وكذلك الأمر بالنسبة لاستخدام اللغة القشتالية. وإذا ما نظرنا لحالة المقاومة التي وجدتها الولايات المتحدة أمامها في الأراضي المؤسبنة على الجانب الآخر من المحيط الباسفيكي كانت، لكل هذا، أضعف كثيرا من المقاومة التي وجدتها في الجزيرة الموجودة في الكاريبي.

هناك عنصر آخر كان لصالح الأمريكان في الفيليبين، هو قانون تاريخي جغرافي لم يكن موجودا في الجزيرة الجميلة بين جزر الأنتيل رغم قربها منها. فجزر الفيليبين على مدار تاريخها الغربي كانت مرتبطة بشدة بالنصف الشمالي للقارة الأمريكية، ومن خلالها، أي من خلال أسبانيا الجديدة، كنت ترتبط بأسبانيا حتى جاءت لحظة الاستقلال ووجدت أسبانيا نفسها مجبرة على إقرار الاتصال بالجزر البعيدة حيث كانت تدور حول رأس الرجاء الصالح في رحلتها إلى هناك ثم بعد ذلك عبر قناة السويس، وتحولت الفيليبين لبعض الوقت إلى مستعمرة أوربية صرفة.

III- الفيليبين وأمريكا

فيما يتعلق بوصول الهسبان إلى جنوب شرق آسيا من الشرق إلى الغرب، وهو الطريق المقابل لذلك الذي سار فيه البرتغاليون وسار على نهجهم الهولنديون وباقي الشعوب الأوربية الاستعمارية لم يكن ذلك يستلزم مجرد اختلاف الطريق فقط ولكن كان يرتبط بأمر جوهري له صلة بالمغزى والدافع الاستعماري. لم يمكن جديدا هذا التوسع الأوربي نحو الشرق من خلال المحيط الهندي، إذ بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح يتم الدخول إلى المحيط الهندي، وكان البرتغاليون يواصلون طريقهم التوسعي سيرا على نهج التوسع الإسلامي الذي انطلق من قواعده في الشرق الأوسط وتقدم بشكل مستمر نحو الشرق الأقصى على مدار القرون.

وقد سبق الإسلام البرتغاليين في غضون سنوات قليلة وأصبح وجوده ملحوظا في كافة أرجاء جزر سوندا Sonda، ووضع قدمه في أقصى الجنوب في ميندناو Mindanao. لم يكن الإسلام إلا نموذجا لعالم البحر الأبيض المتوسط، لكن لم يكن هناك مستوى ثقافي رفيع خلال ذلك العصر، أي الغرب؛ وليس ذلك بمستغرب لهذا أن يستمر في التقدم كل من الاستعمار البرتغالي والهولندي حيث كان الوسيط الإسلامي حليفا أكثر منه مناوئا. وعندما قام خلال عام ١٥٧٠م مائة من المحاربين Castilas بقيادة مارتي جويتي M. Goiti، متوجهين انطلاقا من جزيرة باناي Panay ليجاثبي Legazpi، تمكنوا، بعد معركة قصيرة، من الاستيلاء على حصن كان يحمي بلدة مانيلا، واكتشفوا بين الجثث التي قتلت بين "المورو" من بورينو، جثة برتغالي. كان البرتغاليون أدخلوا الأسلحة النارية الأوربية في الشرق الأقصى الأمر الذي كان يسمح للمورو أن يفرضوا سيطرتهم بشكل تدريجي على جزر الفيليبين، مما كان للأمر أثر طيب في جعل

الجزر فريسة سهلة دون أن يصل الأوربيون الذين يقطنون في أمريكا في الوقت المناسب للقيام بالعمليات الاستعمارية والتبشيرية.

لم تتوقف موجة التوسع نحو الشرق من جانب الغرب، نحو الشواطئ الآسيوية، إلا بموجة أخرى مضادة هي أيضاً جزء من التوسع الغربي لكنها قادمة من المحيط الباسفيكي، أي من خلال النمطية الغربية المتوسطية في التوسع؛ كانت هذه النمطية تتطلب - خلافا للنمطية الشرقية - غزو مساحات كبيرة من الأراضي وكذلك التبشير والاستغراب الجماعي للسكان وما ساعد على ذلك هو التخلف الثقافي لهؤلاء، يذكر الكاتب بيير شاونو أن الانتقال الي الفيليبين هو بالتالي الانتقال الي قمة منتهي الموجات المتتالية التي وصلت الي سبر أغوار العالم بطريقة فجة. هو الانتقال من البنية الحجرية للإنسانية في الزمن القديم إلى البواكير الأولى للبنية المتواصلة من الحضور الإنساني. بينما أراد طرف العالم هذا، والذى يعد صدفة وقيمة، للبشر أن ينفتحوا علي أوربا عبر الأطلنطي وامتداده في الطريق الذي خطه كولومبس قبل ذلك، أي عبر أمريكا -[1].

بدت الفيليبين على مدار تاريخها كحالة فريدة لمستعمرة من الدرجة الثانية، أي مستعمرة لمستعمرة حيث تأسست بفضل العالم الجديد وبفضل مغامرة كل من ليجاثبي واوردانيتا اللذين كانا المنفذين الحقيقيين والشاهدين على الحلم الذي لم يتمكن كولومبس من تحقيقه. ولما كان فيليبي الثاني الأب الحقيقي والمؤسس لهذه الجزر التي تحمل اسمه، كان كذلك من أنصار المهمة التي بدأها والد جده، في معسكر سانتا في، في مواجهة الغرب المعتم، حيث جرى إهدار الطاقات المتراكمة صوبه على مدار تاريخ مكثف وبشكل مستمر ولا يتوقف وكانت طاقات قوية حتى بعد غزو العالم الجديد أدت إلى عبور أكبر المحيطات والوصول إلى شواطئ آسيا.

كلف الأمر الكثير من الجهد والعمل، بالنسبة لحكّام الفيليبين وكبار القامات في الجماعات الدينية، على إبقاء الجنود والرهبان الذين وصلوا للتو إلى مجموعة الجزر، رغم انقضاء عامين استُغلا في الرحلة إلى المكان انطلاقا من شبه جزيرة أيبيريا.. كانت الفيليبين تعتبر، على مدار فترات طويلة، مجرد ذريعة لعملية التبشير والسيطرة بالكامل على القارة،

---

(١) الفيليبين والباسفيك الأيبيريين (القرون ١٦، ١٧، ١٨)، ص١٩.

مثلما حدث الأمر نفسه بالنسبة لجزر الكاريبي حيث كانت مكان التجهيز لغزو القارة الأمريكية، وهنا نجد منطقية تلك العبارة التي أوردها المؤرخ الأمريكي جون ليدي فيلان .J Ledy Phelan في ختام كتابه المعنون "أسبنة الفيليبين The hispanization of the Philippines"[1]. نقلا عن نيتشه "يا لهؤلاء الأسبان! يا لهؤلاء الأسبان! كانوا أناسا يطمحون إلى أمور تزيد عن الحد".

كانت مهمة غزو الإمبراطوريات الآسيوية تبدو قابلة للتحقق أكثر من أي وقت مضى ذلك أنه عندما اعتلى الملك في مدريد عرش البرتغال تم الوفاق على التوجهات الاستعمارية من جانب الشعوب الأيبيرية التي تقاسمت العالم فيما بينها مع نهاية القرن الخامس عشر. ونظرا للتوجه التعددي الذي كانت عليه المملكة الكاثوليكية فإن ذلك الاتحاد لم يستلزم إلغاء الخط الفاصل المنصوص عليه في معاهدة "توردیسیاس" Tordesillas والذي كان يعبر مجموعة الجزر الكائنة في جنوب شرق آسيا، لكن كان يبدو من الممكن الجمع بين جهد البلدين المتآخيين على أرض شبه جزيرة أيبيريا ومن خلال التاريخ وكذا طموحاتهما التوسعية.

وعلى هذا تحولت الفيليبين إلى المفتاح في عملية السيطرة على منطقة المحيط الباسفيكي بالكامل. وظلت فرموزا لبعض الوقت رأس حربة بالنسبة لمانيلا بينما تدور المشاريع الطموحة للحاكم جومث بيرث ديسمارينياس G.P. Desmarinas، ومعه ابنه لويس الذي خلفه في المنصب، حول الهند الصينية، توغل المبشرون والجنود الأسبان في الغابات الكمبودية وقضوا على ملك مغتصب وأقاموا علاقات سياسية وتجارية مع ذلك البلد، وقد ظلت جزر Molucas تحت السيطرة الأسبانية طوال عقود من الزمان، حتى نجحت عام ١٦٦٢م في الحفاظ على إمبراطوريتها في جزيرة تيرنات Ternate ومجموعة الجزر المحيطة بها. وفي نهاية القرن السادس عشر كان السيد/ فرانثيسكو دي ساودي .F de Soude أرسل حملة إلى بورينو borneo وتمكن من جعل ملكها الضعيف من حلف يمين التبعية، كما أن غينيا الجديدة دخلت في الفلك الأسباني نظرا لأولوية اكتشافها.

---

(1) The University of Wiscosin Press, Madison, 1959, page 153.

وفي نهاية المطاف نجد قطاعا أقل في دائرة هذه السلسلة من الأملاك المنتشرة على طول الباسفيك وهي اكتشافات مندانيا Mendana وكيروس Quirós حيث كانت استكمالا لاكتشافات أخرى وأكدت بذلك لأسبانيا لقب ملكيتها لمجموعة من الجزر التي تمتد إلى الجنوب الشرقي لأمريكا الجنوبية الأمر الذي أثار خيال البحارة في رؤيتهم لقارة جديدة، وأدت مجموعة من الحملات إلى نتيجة مهمة وهي اكتشاف جزر سليمان Salomón ولاس ماركيساس Marquesas ولاس نوبياس إبريداس Las N. Hèbridas وجزر سوسيداد I. Sociedad وكذا مجموعات أخرى من جزر البولينسية Polinésicos. كانت العيون الأسبانية هي العيون الأوربية الأولى التي رأت المشهد المدهش للطبيعة الفردوسية التي كانت عليها جزر "بحر الجنوب" التي كانت تسكنها نساء جميلات مثل نساء ليما، حيث كن أجمل نساء الدنيا. كانت العيون الأسبانية أيضاً هي التي رأت لأول مرة شواطئ القارة الأسترالية.

كان ذلك هو الحلم، وحققه في شكل إمبراطورية أسبانية في المحيط الباسفيكي تحده شواطئ القارة الأمريكية وكذلك مجموعات الجزر التي تم اكتشافها وسبر أغوارها على يد الهسبان الذين حولوا ذلك المحيط الضخم إلى "البحر الأسباني" طبقا للتسمية التي أطلقها الأب منشيتا Mencheta حيث أضفى البعد البلاغي على ما تم إقراره من خلال عدة قرارات اتخذت على أنه اعتبارا من عام ١٥٤٠م يمنع منعا باتا على أي مركب أجنبي الإبحار إلى الهند الغربية وإلا عرضت نفسها للاختطاف. "هذا المفهوم الخاص بالبحر الأسباني أو البحيرة الأسبانية – طبقا للمؤرخ الأمريكي ويليام ليتل شورز W.L.Schurz[1] - لم يكن مجرد خيال كيخوتي لشعب مهيأ للقيام بتحقيق رؤى عظيمة، إذ أن ما قام بتنفيذه في بداية القرن السابع عشر هو برهان قاطع على معدنه، وإذا لم يكن تمكن من تنفيذ رؤيته بالكامل على أرض الواقع، فذلك لأن البحارة والقبطانات كانوا يعتبرون أنفسهم في درجة أعلى من الملوك والمستشارين الذين كانوا يخدمونهم. غير أن الوضع كما ظهر على أرض الواقع بملامحه الجوهرية ظل واقعا فعليا على مدار ما يقرب من مائتي عام. كان جروثيو Grocio على حق عندما صاح قائلا: هل سيصل الأسبان للسيطرة على العالم بالكامل؟

---

(1) The Manilla Galleon, New York 1939, page. 292.

عارض جروثيو بقلمه وأبناء بلده، بمراكبهم وروح المغامرة والإبحار، تنفيذ الطموحات الأيبيرية في المحيط الباسفيكي؛ ففي عام ١٥٩٥م، أي بعد أن تعلم بحّارتهم السفر عبر طريق "الهنود" على متن مراكب برتغالية، خرجت من أمستردام أول حملة بحرية متجهة إلى جاوه وبعد ذلك بثلاث سنوات خرجت من الموانئ اثنتان وعشرون سفينة، أبحرت منها تسعة من خلال مضيق ماجلان رغم أن كانت هناك سفينة واحدة هي التي أكملت هذا الطريق الخطير الذي كان يتقن الإبحار فيه كل من الأسبان والبرتغاليين، حيث لم يكن هناك ميناء للتزود بالمؤن. ومع هذا رغم الصعوبات لم يتأخر الهولنديون من طرد الأيبيريين من الجزر التي كانوا شديدي الاهتمام بها من الناحية التجارية، وتبديد نواياهم على الملأ من الإعلان عن حرية التجارة من خلال قلم واحد من أهم المفكرين في ذلك القرن. وقد أدى أسر غليون برتغالي رائع عام ١٦٠٣م في "مضيق مالاكا" Malaca على يد سفينة تابعة "لشركة الهند الشرقية" التي تأسست حديثا إلى إعطاء الفرصة لهذه الأخيرة لتكليف جروثيو بتحرير معاهدة "Deivre Predae" حيث يشير الفصل الثاني عشر فيها، والمنشور عام ١٦٠٩م عنوان "البحر حر" si ve de iure quod Bitavis competit ad Indiana commercia، وهو واحد من أشهر النصوص في تاريخ القانون الدولي.

ورغم تمكن الهولنديين من السيطرة والبقاء في "الهند" التي تحمل اسمهم، ورغم توسيع نشاطهم التجاري الذي امتد حتى اليابان، ورغم هجماتهم المتكررة على مانيلا وقيام بعض قادة البحر منهم بالعمل على اكتشاف أراض جديدة وما ترتب على كل هذا من خسارة فادحة للأيبيريين في الأرض والتجارة، لم يترتب على كل هذا أي تعديل جوهري على وضعية المحيط الباسفيكي من حيث كونه "بحيرة هسبانية". ولما كانت "شركة الهند الشرقية" معنية بمصالحها التجارية فنادرا ما كانت تغامر بمواردها في خوض غمار مغامرات ذات مردود غير مؤكد. فالحملات التي دارت حول أمريكا الجنوبية وأبحرت في الباسفيكي الجنوبي لم تكن إلا مغامرات منعزلة لا تشكل جزءاً من خطة عامة تناهض السيطرة الأسبانية على المحيط الباسفيكي، غير أنه كان هناك استثناء مثلما هو الحال بالنسبة للحملات التي تمت خلال عامي ١٦٤٢ و١٦٤٤ تحت رعاية الحاكم العام في الهند نير لانديساس I. Neerlandesas فان ريمن، والتي قادها أبل جانسون تاسمان،

حيث تم من خلالها اكتشاف الجزيرة التي لا زالت تحمل اسمه حتى الآن، وقام بالدوران حول القارة الاسترالية، وتم سبر أغوار جزر فيجي وغينيا الجديدة. كان الدافع لهذه الحملات خطط طموحة تتضمن اكتشاف "كل ما لم يتم اكتشافه حتى ذلك الحين على ظهر الكرة الأرضية" إلا أن المساهمين في أمستردام رفضوا إنفاق المزيد من المال" فيما اعتبروه مهاما شديدة الخطورة لا يقدر عليها إلا أسباني"[١].

من البدهي أن المهمة الأسبانية في الفيليبين كانت تجارة خاسرة، إذ كانت تكلف أكثر مما تعطي، لكنها كانت أكبر من مجرد كونها مهمة كيخوتية، ولم يكن ذلك من المنظور الديني والإداري والثقافي فقط ولكن من المنظور العلمي. من المهم أن نبرز هنا "أطلنطس الجديدة Nova Atlantis، أي اليوتوبيا السياسية التقنية، التي نشرت عام ١٦٢٧م، والتي ألفها فرانسيس بيكون أحد آباء الفلسفة والعلم الحديث، تقع في جزيرة في خضم "البحيرة الأسبانية" التي هي الباسفيكي.

بدأ مكتشفو هذا الفردوس اليوتوبي السياسي رحلتهم من البيرو حيث ظلوا هناك حوالي عام كامل وكانوا يتفاهمون بالقشتالية مع سكانها المثقفين، حيث كان قضاتها، "آباء بيت سليمان"، يضعون فوق رؤوسهم علامة مميزة عبارة عن قبعة تشبه "القبعة أو ما يسمى montera الأسبانية"[٢] لا ترجع هذه الملامح الأسبانية الواردة في كتاب المفكر الإنجليزي إلى نوع من حمل الكاتب إلى ما هو أسباني أو ما كانت تتمتع به المملكة الكاثوليكية من شهرة في العالم ذلك أنها كانت قد تقلصت بشدة عندما نشر "أطلنطس الجديدة"، وإنما ترجع إلى ذلك الترابط الإجباري الذي كان يلاحظه الفيلسوف الإنجليزي بين الاكتشافات الجغرافية والتقدم العلمي. "ولهذا - كتب بيكون[٣] - تنبأ النبي دانيال في معرض حديثه عن آخر الزمان: plurimi Pertransibunt et augebitur scientia وكأنه من الأمور المكتوبة أن الانفتاح والطواف بالعالم وزيادة المعارف سوف يكونان في عصر واحد".

---

(١) ويليام ليتل شورز، العمل السابق ٤٧، ص٢٩٤.

(٢) يوتوبيات عصر النهضة، المكسيك ١٩٤١م، ص٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٨.

(3) De dignitate et augmentes scienciarum II, 10.

لم يساهم أحد مثل الأسبان في الانفتاح والتطواف بالعالم، حيث كانوا يواصلون السير في مناكب الأرض والبحار بلا كلل، رغم ما عانوه من انحطاط، وظلوا على هذا النحو حتى ردح مهم من القرن التاسع عشر. ولم يكن هناك مسار بحري أطول وأخطر على ظهر الأرض من ذلك المسار الذي اعتادوا خوضه بغليوناتهم صوب مانيلا في سباقهم نحو أكابولكو. هناك رحالة إيطالي يدعي ديميلي كاسري G. Caseri قام برحلة في نهاية القرن السابع عشر ووصف لنا الوضع على هذا النحو: "يجب أن يتم النظر إلى الرحلة من جزر الفيليبين إلى أمريكا على أنها الرحلة الأطول والأخطر في العالم سواء كان ذلك بسبب ضخامة المحيط حيث يجب اجتيازه مع الرياح المعاكسة كما أنه يساوي ما يقرب من نصف الكرة الأرضية، كما أن هناك عواصف شديدة الواحدة تلو الأخرى، إضافة إلى الأمراض الخطيرة التي يتعرض لها المسافرون وطاقم الرحلة طوال سبعة شهور أو ثمانية التي تستغرقها الرحلة... كل هذا يمكن أن يكون كافيا للقضاء على إنسان من الصلب وليس إنسان من لحم ودم..."[1].

وفي عام ١٦٠١ م تمكن غليون من مواجهة ثماني عشرة عاصفة، وفي عام ١٧٤٦م واجه الغليون "سانتو دومنجو" ست عشرة عاصفة استمر بعضها ثمانين ساعة. كان الأمر الأشد خطورة السير في مجموعة من المضايق التي تفصل بين مجموعة الجزر قبل الخروج إلى البحر المفتوح وذلك بانتهاز فرصة هبوب الرياح الموسمية في الصيف التي كانت تعصف بالمراكب وتلقي بها على الشاطئ. كانت كل مرحلة من مراحل المرور بالمضايق مرتبطة باسم مركب غارقة. أضف إلى ما سبق، هناك مخاطر أخرى يقوم بها البشر وخاصة أثناء الحروب مع هولندا في بداية القرن السابع عشر، ثم تلا ذلك المخاطر التي وقعت في نهاية القرن نفسه وبداية القرن التالي قام بها القراصنة الذين نفذوا إلى برزخ بنما، ثم ما جاء بعد ذلك خلال الحروب التي دارت مع الإنجليز خلال القرن الثامن عشر.

ورغم كل هذه العقبات والمخاطر كانت تتم الرحلة الطويلة بانتظام على مدار قرنين ونصف من الزمان. كان الأمر قضية حياة أو موت بالنسبة لبقاء النظام الأسباني في الفيليبين حيث كان سكانها مرتبطين، بشكل مؤسف، بما يحدث للغليونات بشكل لم يحدث لأي

---

(1) ورد من خلال ويليام ليتل شورز. العمل المشار إليه، ص٢٥٣.

شعب من شعوب الدنيا. كرّس بعض علماء الاقتصاد بعض جهدهم لدراسة هذا النقل البحري الغير عادي رغم انتظامه، وعبروا عن شكوكهم في أن المحرك الأول كان عناصر اقتصادية مهمة وأن هذه الحركة التجارية النشطة التي تدخل وتخرج من مانيلا كانت السبب في تغيرات مؤقتة في التجارة في حوض المحيط الأطلنطي؛ غير أن نتائج الأبحاث كانت سلبية تماما فيما يتعلق بالتساؤلات والأوضاع الاقتصادية، لكنها أسهمت في إلقاء الضوء على الأحداث والوقائع نفسها التي كانت عليها المهمة الأسبانية في جزر الفلبين، ووضعتها في مكانها الصحيح بدلا من نسبتها إلى تأملات أيديولوجية.

الأمر المثير هو صدور كتاب ضحل، مؤخرا، مكون من مائتي صفحة تقريبا يتضمن أرقاما تتعلق باقتصاد جزر الفيليبين وفيه عبارة وردت في كتاب "العمل التبشيري" Labor Evangélica لـ. ب. كولن P.Colen "السيد فيليبي الثاني... كان يقول أنه مستعد أن ينفق كل دخل ممالكه من أجل الإبقاء على كنيسة ولو صغيرة في الفيليبين من أجل ذكر الرّب المقدس". غير أن الأمر الأكثر غرابة هو الاستنتاج الذي يصل إليه المؤلف بير شانوPierre Channu[1]. "هكذا وبفضل النهج الأسبانى للكاثوليكية المتشددة الثيوقراطية فإن الفيليبين كان لابد أن تصبح اليوم أكثر بلاد الشرق الأقصي تغريبا. لقد كانت تلك المسيحية المتشددة والصليبية التي تنتمي الي العصر الوسيط قريبة العهد من قرون الاسترداد السبعة، هي وحدها القادرة علي رسم حد " مندناو" علي أرض استطاع الإسلام الحسي والفطري أن يربحها نتيجة ألف مقابل واحد، بل واستطاعت أيضا أن تمثل الجسد الرخو العليل المرن جدا والأشبه بالإسفنج الذي يمتص ويستوعب تلك البصمة المسيحية. وربما لم يحدث للغرب الأوربى خلال جهوده الحثيثة لتصدير ثقافته أن وجد أرضا أكثر صعوبة وأكثر جحودا ولا قدم جهدا مثل ذلك أكثر من أن يحصى من أجل الخروج بنتيجة أكثر استمرارا عن حق. لقد حققت الحملة الصليبية التي حلت بالشرق الأدني مبتغاها. لقد أنجحت الكاثوليكية الأسبانية المالاوية بزلزالها المزدوج الحضور السياسي واللغوي لأسبانيا"

---

(١) "الفلبين والباسفيكي الخاص بالأيبريين"، ص٢٢.

أمكن تحقيق ذلك الهدف إذ بالإضافة إلى الإيمان وإلى التوجه التبشيري الواضح كانت هناك ماكينة إدارية لخدمة ذلك، وكان أداؤها بصفة عامة ورغم الصعاب الكبرى في شتى الحقول، تؤكد وجودها جبال من الوثائق شديدة المواءمة لتلبية الاحتياجات العلمية للباحثين مقارنة بوثائق مثيلة، لكنها أقل، في أوربا. كان من الضروري أن يكون تحت كل من الأديرة والسلطات المحلية Audiencias وضباط التاج أفراد يعملون بلا كلل ولهم إرادة من حديد وذكاء جماعي قادر على تلبية الاحتياجات الخاصة بالدفاعات الحربية وكذلك عن تلك الاحتياجات الأقل حدة والخاصة بالوضع الاقتصادي الهش نظرا لما عليه مجموعة الجزر من فقر.

وفي نهاية المطاف نشير إلى أنه لو لم تكن هناك إمبراطورية ضخمة ولو لم تكن هناك قاعدة أساسية لكان من المستحيل البقاء في هذه المجموعة من الجزر. وكانت الفضة المكسيكية هي المقابل لتغذية نقل الحرير الصيني وباقي المنتجات الأسيوية التي تعتبر عصب اقتصاد البلاد، رغم أن هذا الصنف من التجارة كان غير كاف لتلبية احتياجاتها، وكان في عجز مستمر وبالتالي يجب تغطيته من خلال المبالغ القادمة، على متن المراكب، من أكابولكو والتي تم استخراجها من المناجم الغنية في أسبانيا الجديدة. لم يكن ممكنا القيام بهذه المهمة الفريدة في تاريخ إضفاء الطابع الغربي بشكل عميق، في الجوانب الروحية، على إقليم في آسيا لولا وجود مفهوم التعددية والوحدة في الغايات العامة المتوخاة التي تهدف إليها المملكة الكاثوليكية القادرة على نقل موارد من أقاليم إلى أخرى في إطار الإمبراطورية المترامية الأطراف رغم أن الأمر في هذه الحالة يتعلق بالتجار الأشبيليين.

وبعد تحليل دقيق تم التوصل إلى أن قيمة استعمار الفيليبين في أحسن حالاتها كلف أسبانيا ما بين ١٠٪ و١٥٪ من إجمالي هامش أرباحها القادمة من الهند الغربية؛ وكانت الهند الغربية هي الممول الرئيسي لعملية غربنة مجموعة الجزر القصية، ولم يكن ذلك في صورة أموال سائلة ورجال بل أسهمت في ذلك الخبرة التاريخية للمملكة. ولما كانت الفلبين قوة من الدرجة الثانية، أي أنها مستعمرة لمستعمرة، تهيأ لها الأمر لتسير دون قفزات شديدة التغير مثل تلك التي كانت في الكاريبي أو المكسيك أو البيرو من حيث دخولها في طريق عالم ثقافي جديد. وكانت التعليمات المكتوبة التي يحملها الحاكم Adelantado ليجاثبي كانت ردا على حالة القلق التي تصل إلى درجة الهوس بألا تتكرر الأيام الدموية التي كنت

ضد الأثتيك وضد الإنك، والتأكيد الذي لا رجعة فيه على عملية اعتناق المسيحية بشكل سلمي "هذه الوثيقة المهمة للغاية – طبقا لجون لديّ فيلان[1] – كانت تبدو انعكاسا حرفيا لخطب فرانثيسكو بيتوريا". كانت هناك مجموعة من الظروف المواتية ذات طابع إثني واجتماعي واقتصادي.. الخ، أدت على أن يتقولب الواقع إعمالا للتعليمات الطيبة بشكل أكبر بكثير مقارنة بباقي أغلب الأراضي الأمريكية.

لم تعش الفيليبين تلك التقلبات الديموجرافية والبيئية التي عانى منها السكان الأصليون الأمريكان خلال السنوات الأولى للاحتلال الأسباني؛ فتلك الخصوصية المحلية للسكان التي تقوم على زراعة الأرز والتي تتطلب وجود المزارع إلى جوار حقله كانت السبب في مقاومة، لا مناص منها، ضد محاولات التمركز أو وضع السكان الأصليين في قرى منعزلة مثلما حدث في أمريكا. حال هذا المطلب الخاص بالبيئة، ومعه قلة تعداد السكان البيض، أن توجد في الفيليبين أملاك كبرى على طريقة ما حدث في نيابات الملوك في الهند الغربية. كانت السيطرة الاقتصادية والسياسية في الجزر الآسيوية غير مباشرة كما أنها كانت تحترم البنية الطبيعية للسكان المحليين، وهذا ما لم يحدث في حالة أسبانيا الجديدة والبيرو؛ كانت السلطة تتم من خلال وسطاء محليين، الذين هم "الرئيسيون" حيث ساهموا بفضل المثالب التي عليها القيادات المحلية caciquismo في خلق نوع من الاستقلال الذاتي. إن الأمراض التي جلبها الأوربيون معهم كانت أقل حدة مما حدث في أمريكا وذلك بفضل الاتصال المسبق للفيليبينيين مع سكان القارة الأوربية الآسيوية.

وبالنسبة للهيئات الاستعمارية التي جرى تطبيقها في أمريكا- الوصاية والحصص والضرائب.. الخ – فقد تم تطبيقها في الجانب الآخر من المحيط الباسفيكي بمجرد إدخال التعديلات عليها من جراء خبرة خمسين عاما وكذلك المعرفة الجيدة للحالة النفسية التي عليها السكان الأصليون الأمر الذي يسّر لمن استعمروا هذه المجموعة من الجزر أن يتواءموا بمهارة مع الفسيفساء المتناثرة من القرى والسلالات التي تسكنها. قامت كل جماعة دينية بالتخصص في مجموعة لغوية معينة وذلك لتوصيل المفاهيم العقدية باستخدام اللغات المحلية. ومن جانب آخر هناك تهديدات الغزاة من الصين أو ساكني الجزر وكذا السكان

---

(١) العمل المشار إليه، ص٨.

غير الخاضعين لشيء من الذين يقطنون في جبال لوثون Luzón، وقد أسهم هذا في قبول السكان الأصليين للطرح الأسباني وخاصة سكان الأقاليم المطلة على البحر التي اعتنقت المسيحية. كما أسهم استغلال المصالح المتعارضة والطباع المختلفة التي عليها المجموعات العرقية في الإبقاء على السلام في جزر الفيليبين . كان هناك عدد من الجنود الأسبان يعاونهم السكان الأصليون من محافظات أخرى يشكلون ميليشيات، يمكن أن يصل البعض منها إلى مراكز قيادية، ساهمت في إطفاء نيران حالات التمرد القليلة التي نشأت على مدار ثلاثة قرون ونصف من الحكم الأسباني.

IV- داخل الأسوار وكافتي

بعد أن قام أرنولد توينبي بالترحال برا إلى دول جنوب شرق آسيا انضم إلى الآراء التي قال بها عدد غير قليل من المؤرخين الأجانب والتي تثني على ما قامت به أسبانيا في الفيليبين ولو أن هذا جاء متأخرا. فقام بعقد مقارنة بين أوضاع السكان في هذه الجزر وغيرهم من البلاد المحيطة، ولاحظ في الجزر حيوية وتفاؤلا فريدين نسبة إلى تاريخهم الطيب، فالكنيسة الكاثوليكية التي أبرزت قدرتها الكبيرة على دمج شعوب من مختلف السلالات، جعلت الفلبين على شاكلة ما عليه الدول الأمريكية. "يمكننا أن نسمي الفيليبين - يقول توينبي - بأنها بلد لاتيني أمريكي تم انتزاعه من الأمريكتين ووضعه على الجانب المقابل من المحيط الباسفيكي من خلال مد أسطوري ضخم أو عاصفة تفوق الحد - لكن الفيليبين تشكل حالة فريدة لأنها تضم في تاريخها فصلا يتعلق بأمريكا الشمالية بعد الفصل الأسباني وكان ذلك عبارة عن عملية دمج جيدة للغاية ذلك أن اسبانيا والولايات المتحدة تكاملتا بشكل متبادل حيث هما تمثلان عناصر مختلفة للحضارة المسيحية الغربية".

يا له من اعتراف خرج من ريشة المؤرخ الإنجليزي يجب أن يأخذه في الحسبان بدقة زعماء هذه الجزر وكذلك من جانب ذلك البلد الكبير الكائن على الطرف الآخر من الباسفيكي ويتولى حمايتها عسكريا واقتصاديا، وهذا لأسباب مختلفة منها المصلحة الخاصة به. الأمر إذن عبارة عن تتمة يصعب فيها الحفاظ على التوازن، فمن جانب هناك المعتقدات التي تخلخلت في الأعماق على مدار القرون، حيث هناك الكثير من العادات وأنماط الحياة، غير أن كل ذلك يستند على الطبق الذي يرجع إلى الماضي؛ ومن جانب آخر هناك المصالح والتقنية والرياضة وتزجية الوقت واللغة والعقلية الجديدة. هناك أيضاً السلطة الحربية ونوع من التزمت الديني الفخور بنفسه والذي لا يجد أي غضاضة في اتخاذ قرار مفاجئ في باب

اللعبة المعقدة للتوازن، لأنه غير قادر على الاعتراف بما يعنيه وجود أنماط أخرى للتفكير أو العيش وأنها يمكن أن تعني شيئا إيجابيا وربما لا غنى عنه في الحياة الفيليبينية.

وإذا ما طاف أحد من الناس بالأطلال داخل الأسوار فلا يسعه إلا أن يأسف على تلك الضربة الفظة التي وُجِّهت إلى هذا التوازن الشديد الحساسية. كان تدمير داخل المدينة القديمة "إنتراموروس" في أغلب جوانبه محصلة مقاومة شرسة من جانب المحتلين اليابانيين، غير أنه إلى جانب أعمال التدمير الحربي التي لم يكن هناك مناص منها، هناك أخرى قامت بها مجموعات تابعة لجيش الولايات المتحدة تتولى عملية الهدم، فمن خلال مساعدة البلدوزرات والجرارات التي تقوم بالتدمير من خلال جذب الأحبال جرى تدمير الحوائط والأسوار التي كانت لا تزال قائمة، والتي كان يمكن أن تسهم في إعادة بناء الآثار القديمة. بدأت بعد ذلك مرحلة الاستفادة من الكتل الحجرية المقطوعة وجرى بيع الكتل الحجرية للكنائس بسعر زهيد. ثم صدر قانون بأن تتم عملية إعادة البناء طبقا للأسلوب الأسباني، غير أن تنفيذ ذلك اصطدم بمقاومة قوية جاءت من التقدميين الذين يريدون إقامة الكتل الأسمنتية مهما كلف الثمن من أجل إنشاء الكثير من المكاتب[1].

وبعد ستة عشر عاما على هذا التدمير أصبحت الأرض التي شهدت إقامة قصور الحاكم ومجلس الكنيسة والحاكم المحلي والأديرة والمستشفيات وبيوت المتعبدات مأوى للبؤس بين كتلها الحجرية لأناس أقل من البروليتاريا حتى أصبح المشهد مبعثا للتعاسة والألم.

أعيد بناء الكاتدرائية لكن جرى استخدام مواد جديدة وبأسلوب لا يمت إلا بصلة ضعيفة للماضي. هناك استثناء وهو أن الكنيسة القديمة لدير "الأغسطيين" لا زالت تحمل في ذاتها شاهداً على التاريخ الفلبيني. وحقيقة الأمر أن تلك كانت الأثر الأقوى والأفضل بناء والأعلى قيمة في مانيلا الأسبانية، ولما كانت تؤدي الكثير من الحيوات تحت أقبيتها استطاعت أن تنجو بشكل نسبي من الطلقات، مثلما نجحت قبل ذلك في أن تنجو من الحرائق والزلازل والهجمات وغزو القوات الأجنبية للمدينة.

يتضح البناء القوي لمبنى الكنيسة من الخارج في صورة الدعامات التي ترتفع حتى السقف دون أن يصغر حجمها، وتتأكد هذه المتانة بمجرد الدخول من السياج المحيط بالكنيسة. تأخذ

---

(١) Vid : بدرو أورتيث أرمنجول، "داخل أسوار مانيلا" مدريد، ١٩٥٨م، ص١٠٥ والتالية.

الحوائط في الانحناء عندما تبلغ منتصف ارتفاعها، بمجرد تجاوز الكورنيش الذي يتسم بأنه قصير نسبيا، وذلك حتى يكون هناك حامل قوي ومتين للقبة التي ترتفع فوقه، حيث تقوم على أكتاف (أعمدة مشيدة) قوية، كما أن القبة الرئيسية مربَّعة ومقواة بأوتار إضافية. ومن أسفل الأرض هناك الأساسات المتشابكة مكونة ما يشبه قبة تحت الأرض وذلك بغية أن يكون المبنى أكثر استغلالا حيث أن الأرض معرضة للهزات. وعلى هذا فإن الكنيسة عبارة عن برميل كبير بعقودها المترابطة التي يمكن أن تلف قبل أن تسقط على الأرض.

يُنسب المبنى إلى النمط المعماري الموروث عن إيرِّيرا وهو السائد في كاتدرائيات أسبانيا الجديدة، لكن فيما يتعلق بالكنيسة الفيليبينية هناك صلة أسلوبية وليس ذلك فقط بل هي صلة دم بالمهندس المعماري لفيليبي الثاني. من الأمور الشائعة أن الدير القديم في مانيلا كان من أعمال أنطونيو دي إيرّيرا الذي هو الابن، أو ابن شقيق من أمر ببناء الاسكوريال، حيث ظهر في عام ١٥٩٩م في عاصمة الجزر، وبذلك أمر - طبقا لما كتبه الأب إلبيروخ. بيرث - في العام نفسه ببداية الأعمال الفنية الزخرفية لكنيسة القديس أغسطين حيث هما من الأعمال الفنية الرائعة، ليست فقط لمتانة البناء والزخرفة بل لأنهما الأثران الوحيدان اللذان ظلا قائمين رغم الزلازل العنيفة التي تتكرر في تلك الأصقاع"[1].

غير أن علاقة النسب هذه لا تعضدها مستندات موثوق بها، ومع هذا فرغم أنها مبالغة تتعلق بالأسطورة الأيبيرية التي تجعل من إيرِّيرا المهندس المعماري للجرانيت الصلد وأنه سينكي السلالة senequista ، نجد أن قصة الأثر تؤكد نجاح نسبته إليه نظرا لمتانته التي تجلت أمام الأعاصير والحرائق والزلازل والقصف بالقنابل. وفي تلك الأصقاع المقابلة والتي تقع فوق المنطقة الآسيوية جرت إقامة الحصن الذي لا مثيل له بين كافة الآثار الهسبانية، حيث جرى النظر إليه على أنه مركز المملكة من خلال اسم الملك الذي أعطاه اسمه وحمايته لمجموعة الجزر الآسيوية. كما أن مواد البناء الهشة كانت تبدو متناغمة مع الإرادة الصلبة التي تسيطر على العمل الأسكوريالي. وعندما ذهب بنا "الأب الأكبر"،

---

(١) ورد عن ماريّا لوردس دياث - تريشويلو إسبينولا "العمارة الأسبانية في الفلبين" (١٥٦٥-١٨٠٠) أشبيليه ١٩٥٩م، ص٢٢٨.

الذي يقودنا في زيارة الدير، حتى الكورس العلوي للرهبان وضرب بأحد المفاتيح أحد الكراسي الخشبية المشغولة والمطعمة بالصدف اهتزت أركان الكنيسة من خلال استجابة صادرة عن الحجر الجرانيتي.

يواصل "الأب الأكبر" شرح ما في الصحون الخاصة بالدير والغرف والمطاعم والسلالم... الخ، التي هي مكونات مدينة الرهبان، أو دير جماعة سان أغسطين، أي أول جماعة وصلت إلى المكان وأكثر الجماعات نشاطا في باب التبشير، وهنا فإن الذاكرة تستدعي صور الكثير من المدن الدينية التي أقيمت على الجانب الآخر من المحيط الباسفيكي، ورغم أن هذا الصنف من البناء كان صغيرا في الفلبين فإنه يوجد في حائطه القوية ومقاعده وحامل الكتاب المقدس المصنوع أيضاً من خشب قوي من المنطقة الاستوائية، وفي طريقة الراهب نفسها وهو يتحدث نغمة أكثر قوة وقطعا من تلك التي تُسْمع في الأديرة الكبرى في البيرو أو المكسيك. وبالفعل فإن الرهبان كانت لهم صلاحيات أكثر في الفلبين عنها في إسبانو أمريكا نظرا لاستقلالهم عن الأساقفة حيث تولوا أمر العناية بالكنائس وأغلب المهام المتعلقة بالتبشير. وإذا ما نظرنا إلى الفيليبين في أيامنا هذه وجدنا أنها نتاج عمل استمر على مدار ثلاثمائة عام قام به ما يتراوح بين ٣٠٠ و٤٠٠ راهب، وكذا الجهد الذي قامت به "الخزانة الملكية" للذهاب بهم إلى المكان المراد وتشييد الأديرة الكبرى التي كانوا يقيمون بها. وإذا ما كان من الصعب وضع رمح في فلاندس Flandes فإن الأصعب من ذلك كثيرا وضع أحد الأغسطين أو الفرنسيسكان في جزر ثيبو Cebu أو جزر ميندناو.

كانت المالية والأديرة والتعليم والروح الفيليبينية عناصر شديدة الارتباط ببعضها على مدار الفترة الاستعمارية، مثلما هو الحال في أيامنا هذه طبقا لما يمكن أن يلاحظه من يطوف بأرجاء المدينة ويرى بشكل مستمر تلك المباني العظيمة التي تحولت إلى مقار للجامعات بفضل المرونة التي عليها التشريعات في الولايات المتحدة في باب التعليم، وهذه الجامعات تديرها الجماعات الدينية. وأيا كانت درجة التنوع في جودة العملية التعليمية فإن ذلك الجانب في الحياة الفيليبينية هو الذي يظهر فيه الموروث التراثي الأسباني وقد تناغم معه الموروث الأمريكي. وفي هذا المقام ينبغي دعم أواصر الوعي الأخلاقي والديني للبلاد وتزويده بمجموعات من المهنيين المتوسطين لسد الاحتياجات الأكثر إلحاحا في باب التقدم الاقتصادي على أرض ليس بها الكثير من الميزات مقارنة بالمناطق المجاورة.

"كافتي Cavite هي طرف متقدم يحيط بها البحر من كل جانب عدا مدخل سهلي جدا يربطها بالأرض ولابد أن عرض هذا المدخل يصل إلى مائتي براثا (مقياس طوله ٦٧,١م)" هذا الوصف الموجز والذي يتسم بأنه وصف بحري يرجع إلى السيد خوان نينيو دي ثامورا[1]، لعام ١٦٢٩م وهو وصف أغلى من ألف صفحة وصورة.

يرى القارئ لسانا من الأرض يدخل بطريقة هادئة في البحر لكنه دخول حاسم مثلما عليه مدينة قادش، رغم تعرض المكان لمخاطر تآكله بسبب الأمواج مع السكان الذين توفرت لديهم الجرأة في بناء مدينة على هذا اللسان. ويبدو أن صورة أقدم مدينة في شبه جزيرة أيبيريا تلك المدينة التي لعبت دورا حاسما في حقل التجارة مع ما وراء البحار وخاصة خلال القرن الثامن عشر، قد انتقلت بكاملها من خلال ذاكرة البحارة الذين كرسوا جهودهم لاكتشاف ألسنة من الأرض شبيهة بذلك اللسان الذي شيدت عليه قادش في الخليج الأندلسي، حيث أقاموا هناك أكثر من قادش الجديدة سواء في أمريكا أو آسيا. قرطاجنة هي قادش الهندية بخليجها ومراسيها وشوارعها المستقيمة وشرفاتها ومرحها وشبابها. ورغم أنها صغيرة جدا بالمقارنة فإن قادش الآسيوية، وهي كافتي Cavite، ليست في مرتبة دنيا، ذلك أن الوجوه السوداء أصبحت زيتونية الشكل وصفراء اللون.

تتفوق كافتي على كل من الميناء الموجود في الأنتيل والأندلس بسمة خاصة وقد أسهمت الكتب المدرسية في تثبيتها في الذاكرة دائما وهي التآكل المستمر للشاطئ واستمرار غزو البحر لها. البحر هو المسيطر الأكبر على كافتي مقارنة بقادش وقرطاجنة الهند الغربية. وبالنسبة للأسوار التي جرى بناؤها حول المدينة تعرضت هي الأخرى للتآكل من جراء موجات البحر بشكل أكثر مما عليه الأسوار في قادش، كما أنها مهددة بالغرق بسبب عدم جودة الكتل الحجرية وعنف البحر العاصف وفعل التآكل بسبب المياه التي تتولى شمس المنطقة الأستوائية تسخينها. وخلال القرن السابع عشر، وبسبب ضيق هذا المكان جرى بناء الكنائس والأديرة لكل من اليسوعيين والدومنيك والفرنسيسكان بالقرب من البحر لدرجة أن أمواجه كانت تبلغ الأسوار. والأكثر من هذا أنه مع بداية القرن التالي - طبقا لما يقصه علينا أحد المؤرخين - كان مبنى الكوليج وكنيسة جماعة يسوع ودير رجال الدين سانتو دومنجو

---

(1) من خلال ماريا لوردس دياث تريشويلو سبينولا. المعمل المذكور ص١٨٦.

الذي كان شبه معزول، كانت كلها معرضة للدمار" حيث كانت الأمواج تضرب أساساتها بقوة بما في ذلك في المد العادي. وفي منتصف القرن الثامن عشر نجد مستشفى "سان خوان دي ديوس"، الذي شيد في ذلك الجزء الأكثر عرضة لخطر البحر، ومعه الخندق الدفاعي عن شبه الجزيرة وقد غطتها مياه البحر رغم أنه جرى بناؤه عدة مرات.

ولم تكن المياه كريمة أيضاً مع أسوار الحصون المشيدة من الدبش، وكذلك الأمر مع شوارع المدينة. وفي عام ١٧٠٢م، فرغم كافة الإصلاحات المستمرة، حيث جرى بناء الخوازيق والأحزمة، لمقاومة البحر، كان تقدم المياه شديد الخطورة لدرجة أن المدافع جرى تفكيكها في بعض المواقع وقد دمرتها المياه بشكل جزئي، وهي مياه كانت تغمر الشوارع الجانبية للمدينة أثناء المد الكبير، ولم يكن ينجو منها إلا الشارع الكبير. جرى وضع مشروع وراء الآخر لحماية المكان من خلال استشارة أفضل الخبراء، وهنا تأتي إلى ذاكرة تلك الدروس المستفادة من الموانئ الأمريكية المهددة أيضاً بأمواج البحر مثل قرطاجنة الهند وبيراكروث. لكن الأموال المتوفرة في الفيليبين كانت قليلة دائما، وكان البحر يتكفل بالقضاء على الدفاعات في عاصفة واحدة.

وفي عام ١٧٦٧م أصبحت شبه الجزيرة التي تقوم عليها مدينة كافتي على وشك التحول إلى جزيرة، وجرى وضع مشروعات لمواجهة الموقف الجديد والدفاع عن المدينة. تاريخ هذه المدينة هي عبارة عن كفاح مستمر يقوم به الإنسان ضد البحر في المنطقة الاستوائية وهو بحر لا يكاد يهدأ، لدرجة أنه مع نهاية القرن أوصى الخبراء – ومن بينهم البريجادير أليخاندرو مالاسبينا الذي زار المكان أثناء رحلته الشهيرة في الدوران حول الأرض في نهاية القرن الثامن عشر – بهجرها. غير أنه خلال القرن التاسع عشر تمكنت التقنيات الحديثة في البناء من إضفاء هالة من الاستقرار على كافتي المعذبة، والتي قامت بأداء دورها كميناء وكحصن دفاعي، رغم كل شيء، وكمكان لمد يد العون للغليونات المتوجهة إلى أكابولكو من خلال إصلاحها بعد رحلة طويلة، وقيامها بتصنيع المدافع لحماية نفسها وحماية الجزر المحيطة من هجمات الأوربيين أو الآسيويين.

استمرت كافتي في أداء دورها الحاسم الذي لعبته على مدار تاريخ أسبانيا في هذه الجزر حتى النهاية؛ قامت بحماية القاعدة البحرية من الهجمة التي قام بها الأسطول

الأمريكي، حيث انتشرت سفن القائد البحري مونتوخو عام ١٨٩٨م وهي سفن تحمل أسماء ذات دلالة بالغة وهي "قشتالة" و"الملكة كريستينا" و"السيد خوان النمساوي" و"السيد أنطونيو دي أيّوا" و"جزيرة كوبا" و"جزيرة لوثون" . . . الخ . كان مشهد اللقاء يبدو في حقيقة الأمر منتسبا إلى الماضي وليس إلى الحاضر، إذا ما نظرنا إلى عدم فعالية مدافع المراكب ومدافع التحصينات حيث كانت قصيرة المدى ولم تتمكن بذلك من النيل من المراكب الأمريكية . لم يكن هناك عدد كبير من القتلى لكن كافة المراكب الأسبانية تم إغراقها في مذبحة تاريخية وجغرافية وكذا مذبحة للأسماء التي تحملها .

ومع هذا فإن الهسباني الذي يتمشى في شوارع كافتي لا يشعر بالحزن إذ يحول دون ذلك وجود هذه السمة الأندلسية المرحة للمدينة بشوارعها التي تغمرها أشعة الشمس ومنازلها غير العالية المدهونة بشكل جيد والمعتنى بها أيضاً، وليلاحظ المرء أنها منازل أعيد بناؤها، ذلك أن كافتي تدمرت تماما أثناء حرب الباسفيكي ؛ غير أن إعادة بنائها كان سريعا للغاية عما كانت عليه "إنترامورس" ذلك أنها كانت ضرورية لحياة القاعدة البحرية الأمريكية . ونظرا لهذه السرعة في إعادة البناء جرى السير على الإيقاع المعماري الذي كانت عليه قبل الحرب . وفي هذا المقام كانت عملية إعادة البناء برهانا حاسما على قوة سيطرة التراث .

لا يقتصر الأمر فقط على الأسلوب الذي عليه المنازل وتأثيره على الرحالة الهسباني الذي يطوف بشوارع المدينة أو يطوف بأرصفة ميناء كافتي ويشعر بأنه راض أو كأنه عاد إلى البلاد؛ هناك أيضاً اللغة التي يتحدث بها سكانها، ففي هذه المدينة كانت الأسبانية شديدة الشيوع نظرا للاتصال المستمر بين أهلها وبين البيض الذين يعملون في الميناء وفي الورشة وظل على هذا الحال حتى أيامنا هذه إلا أنه اختلط به الكثير من المصطلحات التاجالية وكذلك الصينية . كان العمل الأكثر قسوة في الورش يقع على عاتق أبناء الجزر لكن الفنيين الذين يُكلفون بالمهام الأكثر صعوبة كانوا من الصين حيث اختلطوا بالسكان الأصليين وأدى ذلك إلى وجود سكان مختلطين لا زالوا يستخدمون أسبانية، مليئة بمصطلحات أجنبية، يطلق اليوم عليها اللغة "الكافتينية" نسبة إلى المدينة .

وغير بعيد عن المكان الذي يتم فيه الاحتفال بوداع الغليونات بحضور الأسقف والحاكم العام وكافة سلطات مانيلا، أخذنا نتحدث ونحن إلى جوار البحر حول مائدة

توجد في تراس "النادي الأمريكي". وفي الخلف يقفز المصطافون من الشباب والشيوخ في مياه حمام السباحة. وأمامنا يمتد الخليج البحري لمانيلا بضخامته وكذا شبه جزيرة باتان Batan الواقعة في العمق، وإلى اليسار هناك كافتي التي لا تكاد ترى. أخذت الشمس ترسم الأفق بأشعتها حال الغروب من خلال ألوان متتابعة غير واضحة المعالم، والخافتة رغم عمقها الشديد.

ومع هذا فاليوم ليس يوما طيبا، إذ هناك أمسيات فيها الغروب أجمل بكثير مما هو عليه اليوم، طبقا لما يرويه لي محدثي وجميعهم من الأسبان، أغلبهم من قطالونيا وكذا ممن يعملون في "شركة الفلبين للتبغ". هم هنا منذ سنوات طويلة، يكادون يقضون حياتهم كلها هنا وقد ترقوا في مختلف المناصب الإدارية حتى بلغوا مراكز القيادة التي يشغلونها حاليا. يعرفون جيدا الحياة في هذه البلاد حيث لم يقتصروا في عملهم على التعامل مع السكان الأصليين من العمال الذين يعملون في المزارع بل تعاملوا أيضاً مع المنتجين المستقلين، الذين يشترون منهم التبغ المخزن في مناطق مختلفة منتشرة تابعة للشركة في كافة أنحاء مجموعة الجزر، وكان ذلك طبقا لنظام للتدخل غير المباشر في الحياة الاقتصادية للبلاد حيث كان ذلك النظام هو المتبع خلال العصر الاستعماري. تحدثوا عن العادات القديمة وعن الثقة الأبوية التي كانت موجودة في الأقاليم القصية للبلاد منذ عدة سنوات، لكنها ثقة أخذت تختفي هذه الأيام. قصّوا طرائف من الحياة في المدن القديمة للمحافظات حيث كان التراث الأسباني أكثر حيوية مما عليه في مانيلا.

يشعرون بانتمائهم لمهامهم الأمر الذي يتجاوز حدود الروتين المهني، وكأنهم الذين يحملون على رؤوسهم كبرياء "السادة القشتاليين"، وليس هذا فقط بل المتعة التي يعيشها الكثير من الأسبان عندما يدخنون كمية مهمة من التبغ الفيليبيني، وهم لا يكادون يدرون ذلك، ذلك هو إسهام في إضفاء الفرحة الوطنية وهذه تشبه - رغم أنها أقل ظهورا ووضوحا - تلك الفرحة المرتبطة بإرساليات الطرح من مانيلا التي أخذت تجارتها في الأفول في غضون بعض السنوات، والسبب هو أن الرياح الوطنية التي تهب في الجزر غير مواتية للشركات الأجنبية، وهذا أمر معتاد في كافة الدول التي حصلت على استقلالها حديثا، ويشمل هذا كذلك الحالة الأسبانية رغم تراثها الطويل ورغم الصلة الحميمة بالفيليبين.

تمضي الساعات ممتعة بينما نتحدث عن Tagaytay المشهد الأكثر شهرة في منطقة الجوار للعاصمة، وكذا عن المشاكل الناجمة عن تزايد مشاركة الصينيين المقيمين في الحياة الاقتصادية للبلاد وعن ألف موضوع آخر مثل المهمة المعقدة التي تقع على عائق الإكليروس في المناطق الريفية نظرا لعزلتها وسط قرى متفرقة، وعن الصعوبات التي تقف دون تعيين الخريجين الجامعيين من الجامعات الكثيرة المنتشرة في مانيلا، وعن وظيفة "الكازينو الأسباني"... الخ.

وعندما تهدم مبنى ذلك الكازينو أثناء الحرب، كان على الجماعة الأسبانية المقيمة في الفيليبين أن تبيع جزءًا من أرضه، وإقامته على مساحة أقل؛ ومع هذا لازال يحتفظ بسمعته وجاذبيته التي امتدت إلى الأسبانو أمريكيين وإلى الفيليبينيين أنفسهم. وأمام هذا المد الكبير للأمريكية الأنجلوساكسونية، اصبح "الكازينو الأسباني" جزيرة يبحث فيها الناس عن مأوى ولا يقتصر ذلك على الشعور بذكرى الأيام الخوالي التي كانت لهم في الوطن الأم، طبقا لما نراه في الكازينوهات الأسبانية في أسبانوأمريكا، بل يشمل ذلك كل هؤلاء الذين يدركون القيمة العليا التي تتضمنها البلاغة الوطنية المتمثلة في محاضرة يتم إلقاؤها على الجانب الآخر، أو الاحتفال بخطوبة بنت من أصول سلتية أيبيرية أو المحمّرات المقلية بزيت الزيتون الصافي أو قضاء فترة الظهيرة ممددا على أريكة كبيرة بينما في الجوار يسمع صوت قطع الدومينو على ترابيزة من الرخام وكل ذلك مصحوب بعبارات التعجب بالقشتالية الخالصة.

رغم أن هذه العادات تنكمش يوما بعد يوم فإنها قيم لا زال لها قوة في الانتشار بين مجتمع الجزيرة، بما في ذلك لعب الكرة الباسكية في مانيلا. وطبقا لما يقصه علي رفقائي في المائدة فإن المهرجان الرئيسي للمدينة هو الخاص بسانتياجو حامي القشتاليين هو يسمى بالتاجالية Castila وCasila بلغة البيسايو - وكان هذا المهرجان يقام في الفيليبين لكل فئات الأسبان. تعقد الاحتفالية في "الكازينو الأسباني" ويرأسها القنصل القائم بالأعمال التي خولها له مؤقتا الحاكم العام. ويوضع فوق واجهة المبنى تمثال ضخم للقديس الرسولي الذي يبدو أنه يجري أثناء ليلة استوائية في خضم كميات تضيء وتنطفئ. الحصان السائر نائما والخاص بالقديس الرسولي هو الوحيد الذي يسير بخطى ثابتة إلى الأمام في طريق الهسبان الذي فتحوه نحو جزر الفلبين بمراكب ليجاثبي منذ أربعة قرون مضت.

V- الخط القُطْري لطوكيو

إذا ما قام الرحّالة في باب البحث عن وجوه شبه تساعده على فهم الظاهرة الحضرية الغريبة التي هي طوكيو بمراجعة الصورة النمطية للمدن الأوربية الكبرى، لوجد أن برلين هي الصورة التي تكون عونا له في هذا المقام، فالعاصمة الألمانية تشبه طوكيو من حيث موقعها في منطقة سهلية وكثيرة المياه وأصولها الحديثة وطبيعتها السياسية الحربية.

قام الشجونس (الشجون Tokugawa, shogunes) بتوسعة طوكيو، مقارنة بمدينة كيوتو، مدينة الأباطرة، مثلما فعل ملوك بروسيا لبرلين مقارنة بفيينا الأمبراطورية. وقد أدت عدم الشرعية التاريخية الدينية الي حمل كلا النظامين على التصرف بشكل تكميلي في باب التنمية وفخار كل بما له من رأسمال ضخم. يجب أن يوضع التوازي بين الطرفين في الحسبان بشكل كبير، كما أنه يتموقع في المصير المأساوي الذي تعرضت له هذه المدينة أو تلك. فلقد جرى تدمير كلتيهما منذ زمن قصير، ولو أن طوكيو تعرضت للقسط الأكبر، فقد سبقت الطبيعة في هذا المقام بالزلزال المدمر الذي وقع عام ١٩٢٣م، وتلا ذلك الدمار الناجم عن البشر أثناء حرب الباسفيكي.

وسرعان ما أعيد بناء المدينة، فالمدن المشيدة من الخشب من السهل تدميرها ومن السهل أيضاً إعادة بنائها باستثناء الرقعة القديمة التي لم يعد لها وجود في طوكيو باستثناء المعابد التي نجت بفضل انعزالها أو أنها خرجت من بين الرماد بشكل معجز. أما الرقعة الحضرية الكبرى فقد أعيد بناؤها حيث هناك مركز حضري يليق بها وينظم مسارها. ومن ناحية أخرى فإن هذه المدينة لا تتوفر على مناطق مرتفعة يمكن أن تكون بمثابة مرجعية للرحّالة، كما لا تتوفر على نهر كبير يقسم المدينة ويكون بمثابة محور، أو وجود موانئ

كبرى وحولها تمتد خريطة المدينة أو إطار من الطرق تحيط بها والتي تصبح ذات غاية سليمة رغم أنها حلت محل الأسوار التي كانت وكذلك الخنادق الدفاعية.

لا يعني هذا أن البعد الحربي غائب عن طوكيو؛ بل العكس من ذلك، فهناك واحدة من الصور التي بقيت مطبوعة في عيون الرحّالة، وخاصة إذا ما أقام في فندق "بالاس هوتيل"، هي السور الذي يحيط بالقصر الإمبراطوري، حيث يسير في خط مواز للواجهة التالية لذلك الفندق ثم ينحني على الفور ويبتعد ويتوه وراء الكتل المعمارية للمباني العالية، المشيدة بمواد معمارية ثرية وجيدة التشطيب والتي تقف على النقيض مع السور المعماري الدفاعي الروستيك. ويتوج ذلك أشجار الصنوبر بجذوعها وأغصانها القليلة الملتوية وكأنها نوع من التشبه أو التخفي في صورة جنود محاربين فاقدي الأمل. هناك حزام من البوحي مربوط بالجذع في المنتصف وذلك للحيلولة دون نفاذ الحشرات، مما يجعل الأمر يبدو - على سبيل التخيل - وكأنه له وظيفة حربية كبرى.

وتحت، هناك الكتل الحجرية الموضوعة بشكل مائل entalud، حيث توجد غرف كبيرة بينها مما يعطي الانطباع بأن هناك عملية إصلاح مؤقتة أو أن هناك قطاع من حائط لحوض زرع. وما ينفي ذلك الانطباع هو الدقة في وضع الكتل الحجرية في الزاوية، فقبل أن تغوص في الخندق نجد لها منحنى لطيفا كأنه مقدمة لمركب تسير بالمجاديف تتباهى المرة تلو الأخرى بتلك الرقاب التي تشبه رقاب البجع التي تعوم في المياه الهادئة إلى جوار المقدمة الحجرية.

ومن الناحية الفعلية فهذا القطاع من السور الذي يمتد بقوة ليس هو المحيط بقصر ميكادو MiKado بل كان الذي يحيط الفضاء الخارجي الذي تم إلحاقه بالحصون اليابانية الكبرى، حيث كان يعيش أتباع سيد القلعة، وهم في هذه الحالة أسر "الدايموس" daymios التي كان الشجون Shogunes يمسكون بها في قصورهم لتكون ضمانا لولائها. إلا أن هذه الأسوار تتصل بتلك التي تحيط بشكل مباشر في الوقت الحالي بالقصر الإمبراطوري ومعها هناك الخنادق التي لا تنفصل عنها مشكلة بذلك حدود رقعة خضراء كبيرة وسط المدينة. وفي بعض الجوانب هناك أشجار الحديقة فوق هضاب غير مرتفعة وممتدة إلى ما لا نهاية. ومن جانب آخر هناك طرق جديدة وفسيحة تشق هذا المقر الواسع.

عندما يلقي المرء نظرة على خريطة طوكيو يكتشف أن خير مرجعية تساعده على التطواف في هذا الخضم الحضري هي المساحة الخضراء التي هي الحديقة الإمبراطورية. وهذا وجه شبه آخر ببرلين، حيث هناك أيضاً كتلة خضراء واسعة هي Tiergarten تقوم بوظيفة مماثلة، ومن ناحية أخرى فإن التجربة كثيرا ما تزيل اللبس عن الذي وصل إلى المكان حديثا، فعندما يعود المرء من حضور مناسبة أكاديمية عقدت في واحدة من الجامعات الموجودة خارج نطاق المدينة، أو العودة بعد تناول طعام الغذاء في مطعم ياباني هناك في إحدى الحواري التابعة لحي لا تستطيع الذاكرة حمله، تطالعه الكتل الحجرية الرمادية للأسوار الإمبراطورية، وهنا يشعر بالسعادة لهذا النوع من اللقاء الذي يكاد يكون حميما إضافة إلى ذلك الشعور البسيط الناجم عن وجود جزيرة قريبة لهذا الفريق، الذي هو الزائر الأوربي، وسط هذا المحيط الحضري الضخم لطوكيو بعدد سكانها الذي يبلغ عشرة ملايين.

يُراد زيادة هذا الرضا من خلال اكتشاف المحاور الكبرى التي تبدأ من القلب الحضري والسياسي الذي تمثله الحديقة الإمبراطورية، لكن لا يوجد في طوكيو "Unter den linden أي "البوليفار" المسمى بهذا الاسم في برلين، أو ما يسمى شارع kurfürsten damm في برلين؛ فالطرق الفسيحة والشوارع التي تبدأ من تلك الحديقة سرعان ما تبدأ منحنياتها وتفرعاتها أو أن تذوب في شوارع أخرى، ومن يركب سيارة سرعان ما يتوه. كما أنه ليس من الممكن أن يتخيل المرء طبيعة توافق التقاطعات في المركز الحضري، وهذا يرجع في المقام الأول إلى أن الحديقة الإمبراطورية التي هي قلب المكان، تستعصي على أية قياسات هندسية بمحيطها المتعرج بشكل غير منتظم؛ أضف إلى ذلك أن الخطوط التوجيهية بالنسبة للرحالة تتوه بعد أن يغادر الرحالة المكان بوقت قليل ليدخل في شبكة من الشوارع وتصبح بذلك الجهات الأربع عائمة وغير موثوق بها وكأنها بتلات وردة حملها الهواء.

غير أن الشعور بفقدان الاتجاه لا يتوفر عند الياباني رغم أنه ربما يزور عاصمة بلاده لأول مرة، فالأمر بالنسبة له هو أن الجهات الأربع ليست في حاجة إلى مرجعية لتحديدها، وإنما هي حاضرة في حد ذاتها، دون أية مساعدة طبوغرافية أو معمارية. فالياباني يعرف دائما إلى أية واحدة من الجهات الأربع ينظر؛ "فوردة الهواء" (دوّارة الرياح) عنده لا علاقة لها بما هو بحري أو جغرافي، وهي شديدة الارتباط به وعادة يومية وهو يحملها في بصره. وعندما

يكون هناك مسافر في تاكسي، في شوارع طوكيو، يقوم بتوجيه السائق باستخدام عبارات مثل هذه "نحو الشمال، نحو الشمال هناك"، وعند الوصول إلى تقاطع يقول له ادخل سيادتك نحو الشرق". عند دخول الغرفة الرئيسية في المنزل بعد المرور بمسارات وحدائق معقدة عادة ما يقول رب المنزل للزائر "تفضل بالجلوس ذلك أن الجنوب هو مكان جلوس الضيوف" أو أن يقول الزوج لزوجته "هذه اللوحة ليست في مكان مناسب أمام الصوان، ضعيها نحو الشمال" فتطيع الزوجة وتقوم بوضع اللوحة في المكان المحدد بشكل تجريدي دون أي تردد وكأنها تحمل في مآقيها يقين البوصلة.

ومع هذا يبدو أن الياباني يشعر بشيء من عدم اليقين عند استخدامه مصطلحات "اليمين" و"اليسار" التي هي من سمات الأوربي في كافة مناحي الحياة. ولاشك أن ذلك يرجع إلى أن الثقافة الغربية أكثر ميلا إلى إضفاء الصفات البشرية على كائنات أخرى antropomofica والعقلانية وأقل طبيعية من الثقافة الشرقية. الأوربي إذن هو مخلوق أكثر ابتعادا عن حضن الطبيعة عن الياباني، الأمر الذي أدى إلى فقدانه غريزة تحديد الاتجاه، وبالتالي لا يستطيع أن يحدد مكان الحيّ الذي يطوف به في طوكيو، ولو كان يتحرك في اتجاه يوكوهاما أو في الاتجاه المعاكس. وتستعصى عليه عملية العثور على مناطق مرتفعة في الأرض، أو حدائق، أو أبراج تصبح مرجعية في سيره؛ الأمر هو أن الحدائق كثيرة ومتشابهة، والأبراج كذلك، وعندما يتم اتخاذ أحدها كمرجعية تتعلق بالشمال أو الشرق تظهر أخرى شبيهة في حيّ قصيّ وبالتالي يزداد اللّبْس وليس العكس.

غير أن هناك ما ترتبط به العين وكأنه اللوحة المنقذة؛ هو برج يشبه برج إيفل، رغم أنه أعلى. ويمكن القول بأن هذا البرج قد رفع قدميه إلى أعلى رغبة في منافسة البرج الباريسي. إنه برج طوكيو الذي يقف أمام فندق "بالاس هوتيل" في عمق الطريق الذي تم تعبيده بعد الحرب عابرا الحديقة الإمبراطورية. وقد تجلى البجر للرحّالة عندما نظر من نافذة غرفته حيث تتبدى قامته بشكل رائع في الظلمة بفضل الأضواء التي تعكس بنيته الجذابة بشكل تصاعدي مع زيادة المساحة المضاءة بفضل كشّافات السيارات المارة بشكل مكثف في الطريق.

وعلى هذا تكونت مساحة كبيرة مضاءة في العتمة المسيطرة على الحدائق الإمبراطورية، وكذا من السماء وهو أمر يلفت أيضاً انتباه المسافر الذي وصل لتوه؛ كانت

مساحة قُطرية تبرز أيضاً في وضح النهار، ثم أخذت تكتسب أهمية بمرور الأسابيع التي قضاها الرحّالة في المدينة. والأمر هو أنه لما كان من المستحيل إسكات حالة عدم اليقين أثناء تجواله في الشوارع المتشابكة والشوارع الكبرى، فإن البصر يرتبط بذلك المحور الواضح والجوهري الذي يبدأ من نافذة الفندق ويعبر فندق القصر والسور، ويترك على الجهة اليمنى المباني الكلاسيكية اليابانية التي أقيمت إلى جوار مدخل ذلك المكان، وبعيدا بعض الشيء، إلى اليسار، هناك مجموعة من المباني التجارية التي تمتد على طول الطريق الواسع وتستمر حتى تصل إلى جوار البرج الشاهق حيث يصعد إلى أعلاه ويختفي في سماء الخريف الياباني التي لا تصمت.

هو محور يبدأ من مآقي عيون المشاهد حتى آخر الأفق بعد أن طاف بمشاهد ذات أهمية خاصة، وحوله أخذت تتشكل ملاحظات وتأملات، ولو لم يكن كذلك لتاهت في الغابة الحضرية المزدحمة. هناك أيضاً الثمار التي تم اختطافها في رحلات إلى مدن يابانية أخرى أخذت تتجمع وتصبح كأنها حبات مسبحة في هذا المحور البصري.

يمر هذا المحور البصري إلى جوار الإطار الألمنيوم للنافذة، الذي جرى تركيبه بدقة لا مثيل لها كما أنه ناعم الملمس لدرجة يكاد معها لا يكون من المعدن بل من الخشب، وهذا من سمات شعب عرف ما لم يعرفه شعب آخر، أي أن يستخرج من الخشب مسطحات شديدة الملامسة حيث يمكن أن يشعر المرء من تحتها بنبض العصارة الشجرية التي تسير بإيقاع هادئ للغاية. وإذا ما تناول المرء طعام الغداء في الطابق السفلي فإن المحور البصري يعبر حديقة صغيرة من الكتل الحجرية والرمال توجد إلى جوار نوافذ كبيرة شديدة النظافة لدرجة أنها لا تكاد تكون موجودة وكأن داخل المكان قد انصهر في المشهد الخارجي.

تتوافق الحديقة مع أقصى متطلبات الروح البوذية "زن" Zen التي تُلهم الحدائق الشهيرة، بدون حشائش، التابعة لمعبد ريوانجي Ryoan-ji ومعبد دايتوكوجي Daitoku-ji في كيوتو. ولما كانت الرمال متحركة بعض الشيء بسبب مرور مقشة عليها يتولد الانطباع بوجود مسطح متموج للبحر. جرى اختيار الكتل الحجرية بعناية فائقة من خلال أشكالها الطبيعية، وجرى تقديمها منسقة في توازن بين الأحجام وخاصة عندما تمطر وعندئذ تلمع المسطحات وتعكس ضوءها على رمال أكثر رخاوة وسمرة بفضل الرطوبة. تتسم

الحديقة بأنها شديدة التقليدية في إطار الأسلوب الياباني لكنها لا تنفصل، على الإطلاق، عن الحداثة المعمارية، إذ يبدو أنها جاءت من لدن فنان شديد الحداثة.

وعندما أمطرت السماء أخذ البصر ينزلق بنعومة ابتداء من الحديقة التجريدية إلى خندق المياه وتتزحلق بسهولة شديدة على مسطح السور القائم فوق الخندق مهما كانت حجارته خشنة وغير منتظمة. لا تعتبر المياه الموجودة في الخندق الواسع عنصرا غريبا على المشهد بل هي شيء طبيعي تماما، فلم يكن من الضروري جلب المياه من خلال قنوات اصطناعية بل اقتصر هم الرجال على ترك المياه على ما هي عليه؛ فالاسم القديم والحقيقي للمدينة يعني الحميمية نحو هذا العنصر السائل. اسم طوكيو حديث ومجرد إذن، وهو يعني العاصمة الشرقية، في تقابل مع مدينة كيوتو القديمة والمقدسة، وهل هذا الاسم محل الاسم الذي كان يطلق على العاصمة القديمة Shoguanto شوجوانتو وكان ذلك في بداية عصر ميجي Meiji، وهذا الاسم هو يبدو Yedo الأكثر واقعية وارتباطا بالجغرافيا. هذا الاسم يعني بالفعل مصب نهر ويصف بدقة وضع المدينة عند مصب النهر الذي تحمل مياهه الرمال مغلقة معها الخليج ولا تترك إلا القليل من المراكب ذات الغاطس البسيط لتصل إلى موانئ العاصمة.

المياه الموجودة في الخنادق مياه راكدة تعوم فيها طيور البجع برشاقتها مضفية جوا من الحنين إلى سنوات "نهاية القرن"، وهي طيور ذات حجم كبير وكأنها مرسومة على برفان، وقام برسمها فنان عصر موروماتشي Muromachi. لا يمكن لنا معشر الغربيين أن نكوّن فكرة عن الأهمية والقيمة التي يتمتع بها هذا الطائر الكهنوتي في نظر الشرقي، ولهذا فإنه يبرز بشكل خاص العبوس الذي عليه السور الحجري، من خلف البياض القوي الذي عليه البجع.

ورغم أن السور غير مرتفع، فإنه يقاوم هجوم النظرة التي تنفذ في الشقوق وتحيط بالكتل الحجرية ذات الحواف القوية وتلمسها. تحتفظ الكتل الحجرية التي تستخدم في الحوائط اليابانية باستقلالها الطبيعي والذي يعتبر المقابل الآخر للحوائط الصلدة لثقافة الإنك في كوثكو. وعلى أية حال تتسم الكتل الحجرية للأسوار الإمبراطورية في طوكيو بأنها ذات تمنّع خاص، فلا يدري المرء هل يصنف ذلك على أنه علامة على احتجاج الكتلة

الحجرية على استخدمها في غرض ما التصق بها منذ عصر ميجي Meiji ، عندما أقام المُلاّك ذلك السور، وهم "الشوجوني" ، رؤساء النظام السياسي والعسكري في البلاد، عندما جرى الاستيلاء على مقرّهم من قبل الرؤساء الروحيين الذين هم بابوات أكثر منهم أباطرة بالمفهوم الغربي والذين ظلوا طوال قرون محبوسين في السجن الذهبي الذي كان مدينة كيوتو عندهم.

لكن تعلق الجماهير ولاءها الروحي لذلك الرجل سليل الآلهة أماتيراسو، والذين يتواجدون ويسيرون في الطريق المؤدي إلى مدخل القصر، كنوع من التكريم الصامت له عن بعد. وهؤلاء الذين يسيرون بهذا الشكل الجماعي في إطار حربي قديم وكأنهم فيالق يتوافقون ويتناغمون في ظل حركة القطرية البصرية، التي تتسم بكثرة السيارات التي تمرّ بها لتصل إلى الخط المتفلت الذي عليه البرج المعدني الضخم. وعلى هذا ينتهي الخط البصري بما هو شديد الحداثة، بعد عبور الحديقة البوذية للفندق والخندق وما به من طيور البجع والأسوار القديمة ثم بعد ذلك المشهد الذي تتجلى فيه العديد من الظواهر الوطنية، من مظاهرات سياسية والانتحار بكرامة hara-kiris من خلال الطقوس. كما يبدو أيضاً أن البصر لم ينته مساره عند أعلى البرج بل يمتد إلى عنان السماء في الهواء اللانهائي، وكأنه ينطي صهوة الموجات التي تحمل الأصوات والصور إلى عدد لا نهائي من المساكن في اليابان التي كان انفتاحها على العالم الخارجي متوجا بأجهزة التلفزيون.

VI- القرى وحقولها

تعتبر منطقة طوكيو الكبرى أكبر من محافظة جيبوثكوا الأسبانية، كما أن الخروج من المدينة يستغرق وقتا طويلا. وتبقى في الخلف المستودعات والمخازن وعنابر السكك الحديدية والمباني الحديثة للمركز التجاري والأحياء السكانية المتعاقبة. المنازل غير مرتفعة فنادرا ما نرى مبنًى مكونًا من أكثر من طابقين، كما أنها ذات حدائق بشكل شبه دائم أو نوع من المساحات التي تقوم مقامها، هناك الحدائق والمدافن أيضاً التي تحتل مساحات واسعة.

وفي نهاية المطاف أخذت تظهر الحقول المزروعة لكن بها أيضاً منازل الأرباض التي ينعكس عليها أهداب النسيج الكثيف الموجود في العاصمة ولا تكاد الأرباض تنتهي ذلك أن الأرباض ترتبط بها أو تليها القرى الزراعية والتي يمر من محطتها القطار. يمكن أن يتأمل المرء سهل كانتو Kanto الممتد أمام البصر لدرجة لا تكاد تُرى معه الجبال المحيطة. إنها المنطقة الأكثر اتساعا في البلاد والشديدة الثراء زراعيا وكذلك فيما يتعلق بالأحداث التاريخية وإذا ما كان سهل ياماتو Yamato المحيط بنارا وكيوتو Nara مسرحا دينيا وثقافيا لليابان القديمة، فإن سهل كانتو كان المسرح السياسي لليابان الحديثة والذي يقوم "الشوجونس" طوكوجاوا Tokugawa بإدارته من ييدو Yedo.

يعبر القطار منطقة من الأرض جرى اكتسابها من البحر Polders حيث تبدو وقد تم تجفيفها بعد عناء منذ زمن غير طويل؛ ثم نجد بعد ذلك أن طريق القطار يسير وسط أرض مرتفعة بعض الشيء وجافة ومهيأة على شكل مصاطب. وترتفع هنا وهناك جبال صغيرة تتوجها الأشجار والمعابد لكن لا يكاد المرء يواتيه الانطباع بأنه أصبح يمرّ بالحقول، ذلك لكثرة القرى وكثرة ما بها من مساكن سواء متفرقة أو في شكل مجموعات رغم أنها جميعا شديدة القرب من بعضها ولا يكاد يفصلها عن بعضها إلا الحقول الزراعية. الأمر

ليس ظاهرة ديموغرافية ترجع إلى فترة قريبة؛ إذ أنه في عام ١٦١٢ شعر السيد/ رودريجو دي بيرو إي بيلاسكو، الذي كان حاكما للفيليبين، بالدهشة عندما رأى توالي القرى الواحدة تلو الأخرى في كل أربعة فراسخ وعلى مدار المائة فرسخ المسافة الفاصلة بين زورونجا Zurunga ومياكو meaco (كيوتو) ولم يتوجه ببصره إلى أي شيء إلا واكتشف مجموعة من الناس كثيرة العدد مثلما هو الحال في المدن الأوروبية الكثيفة السكان.

كما تبدو عربة القطار منزلا أيضاً. فالحرارة مرتفعة وهناك الكثير من المسافرين الذين تحللوا من لبس الجواكت وأخذوا يقرؤون الصحف أو المجلات المصورة وهم جالسون على كراسي مريحة، أو يستمعون للراديو من خلال السمّاعات الموجودة معلقة في المقاعد. يبدو أنهم لا يولون اهتماما لما يفعله أو يفكر فيه الجار وكأنهم يخضعون لحماية برفانات غير مرئية تعمل على خلق جو منزلي. ومن العلامات البارزة للغاية على أنهم في المنزل هو أن الكثير منهم خلع حذاءه وأراح قدميه على مسند مُعَدّ عبارة عن قطعة نسجية كأنها سجادة حلت محل الحصيرة Tatami المنزلية. وهي مصنوعة من قش الأرز الذي هو مادة ضرورية في المنزل الياباني لكنها مادة هشة لدرجة أن شركات السكك الحديدية لم تجرؤ على وضع تلبيسة لمكان راحة القدمين، بمعنى واحد من المكانين المخصصين لراحة القدمين بالنسبة للمسافر ذلك أن القطار الياباني يقدم مكانا آخر يرتبط بالأول من خلال آلية عبقرية، وعليه طبقة من الكاوتش حتى يمكن وضع القدمين عليه وهما منتعلتان، هذا إذا لم يرد المسافر المشاركة في هذا الجو العائلي وفضل الاستمرار على الحالة التي هو عليها، وهي أنه يمرّ مؤقتا.

يُحدث الجو العام في القطار تأثيره على الصورة التي عليها المشهد الخارجي، إذ في هذا هناك خَليط مشابه من الداخلي والخارجي، لما هو عام وما هو خاص. هناك زراعة الأرز التي تُغلُّ جيدا لدرجة أن الجزء المملوك لكل أسرة وتعيش عليه هو الحد الأدنى ويبدو وكأنه ملحقَ بالمنزل أكثر منه حقلا بالمعنى الفعلي. أو إذا ما شئنا القول فإن المنزل هو ملحق بذلك الحقل المزروع؛ فالبيت مشيد من أساسه وحتى سقفه من الخشب والمنتجات النباتية، و يبدو شديد الارتباط بتلك المواد التي يتغذى عليها سكانه. كما أن المنازل الريفية المشيدة من الكتل الحجرية أو الآجُرّ تذهب إلى ما هو أبعد من ربط سكانها بالأرض المزروعة إذ تقام في الأرض الجيولوجية، أما المنازل الخشبية فهي تجعل الرجل ريفيا حقيقيا. يسكن

الإنسان بين حائط وأسقف مكونة من عناصر عضوية نبتت في الأرض واحتفظت بعصارتها لكنها عصارة في حالة جافة. إنها مسكن هش ومؤقت مثل الخشب، وهي مثل الطعام ومثل الإنسان.

توجد في الدول الغربية، الأوربية أو الأمريكية، كثير من الأقاليم يعيش فيها الفلاحون في منازل خشبية أيضاً، لكن نادرا ما نجد العمارة الريفية تصل هناك إلى إزالة أي عنصر من العناصر الإنشائية غير العضوية بشكل كامل مثلما هو الحال في المساكن الريفية اليابانية. هناك برهان قاطع في هذا المقام في الحالة اليابانية، رغم أن الرحّالة قد تأخر في إدراك ذلك، ألا وهو غيبة مداخن المدافئ. كان يلاحظ وجود شيء ينقص هذه المنازل المتناثرة إلى جوار نافذة القطار، وهو شيء أساسي للغاية لم يتمكن المسافر من تحديده حتى تم في نهاية المطاف اكتشاف أن الأسقف خشبية أو من نبات الخلنج لا يوجد أي ملحق من ملحقات تصريف الدخان.

هذا لا يعني أنه ليس هناك نار توقد في المنزل الياباني، غير أنه لما كانت كافة مكونات المنزل قابلة للاشتعال وجب العناية الشديدة بهذا الأمر سواء تعلق بالطهي أو التدفئة. هناك المواقد المصنوعة من الفخار التي توضع بالقرب من الذين يتناولون الطعام وهم جالسون على الأرض إذ تبدو وكأنها مخصصة لعملية طقسية أكثر منها لتدفئة الجسم؛ وهنا نجد أن الياباني يقتصر على فرد أصابعه ومدّها من حين لآخر نحو الجمرات وكأنه قسّ في لحظة تطهّر. أما فيما يتعلق باستخدام النار في الطهي فالأمر لا يتطلب مكانا ثابتا ومركزيا - أي البيت - في المنزل الياباني، ولا يمكن الصعود بحرية إلى أعلى من خلال المدفأة، التي هي العمود الفقاري للمنزل الأوربي، والسبب أن المبنى مشيد من الخشب. وهنا يمكن تذكر الصور الكثيرة التي ترجع إلى فترة الحرب العالمية والخاصة بالقرى الروسية التي احترقت وتحولت مداخن المنازل إلى وحدات منزلية مرتفعة في الفضاء ومنعزلة وسط المباني التي تحولت إلى كومة من الرمال.

لا يقتصر وضع المدفأة الغربية على كونها محور المنزل بل تسهم أيضاً في إضفاء سمة تتجاوز ذلك من خلال عمود الدخان الذي يصعد إلى السماء. لكن المنزل الياباني يفتقر إلى هذا التسامي، إذ هو منزل شديد القرب من الأرض والالتصاق بها وبالحياة العضوية؛

الشيء نفسه نراه واضحا بين من يزرع الأرز، إذ يحتم عليه هذا الالتصاق بالأرض وهو عبد لها أكثر من ذلك الذي يزرع القمح. وفي الأراضي التي يتم فيها زراعة القمح نجد العامل يشعر ببطن الأمومة التي عليها الأرض حيث يقوم بحرثها وزراعتها، وبعد ذلك بتسويتها ثم تصبح هي وحدها البطلة، أما زراعة الأرز فتتطلب تعاملا أكثر حميمية واستمرارية ليس فقط مع الأرض بل مع المياه التي تجعلها مثمرة. وعندما يقوم الفلاح بالعمل في حقل من حقول الأرز وقدماه مغروستان في الطين فإنه يتبدى على أنه حالة قصوى من حالات التداخل وقيام الإنسان بضرب جذوره في الأرض. عندئذ يتحول الإنسان إلى نبات أكثر منه حيوان.

هناك دائما على الأرض الأوربية عملية انتقال بين الأرض الزراعية والغابة، إذ هناك أشكال من الزراعات المكثفة والمراعي المتنوعة والجبل غير الأشم. أما في اليابان فهناك نجد أن مزارع الأرز والغابات يفصلهما ببساطة خط؛ يتم الانتقال مباشرة من الأرض التي تردى والمترعة بعرق الأجيال إلى الأرض في حالتها البدائية حيث تنمو الأشجار على هواها. وإلى جوار الحقول الرطبة أو "التا" ta هناك الحقول الجافة أو "هاتا" Hata في المناطق المرتفعة حيث تزرع أنواع رديئة من الأرز وكذا الحبوب التي عادة ما تنمو في المناطق الحارة، كما تزرع أنواع معينة من الشجيرات. وفي الوديان المرتفعة في المناطق الكائنة بين الجبال تزرع أشجار التوت والذرة واللوبيا، إلا أن المناطق الزراعية الرئيسية في اليابان توجد في الأراضي الوطيئة أي في مناطق زراعة الأرز مع وجود جهد بشري غير عادي.

وعلى مدار قرون عديدة كان ممنوعا في اليابان تخصيص الأراضي الجيدة لزراعات أخرى غير الأرز، بمعنى أن هذا المنتج أكثر حيوية عندهم من القمح في الغرب بالنسبة للحياة الاقتصادية في البلاد. ولا يعتبر الأرز مجرد غذاء حصري بالنسبة لقطاع عريض من السكان بل هو وسيلة تبادل تقوم بدور العملة، وظلت كذلك حتى القرن السابع عشر. ومما لاشك فيه أنه كان منتجا كريما يساعد على بقاء عدد كبير من السكان أكثر كثافة من أوربا، لعدة قرون. وخلال القرن الثامن عشر ومن خلال صناعة أقل تطورا ومساحات للزراعة كانت ضئيلة جدا كانت تعداد سكان اليابان يماثل تعداد فرنسا البلد الأكثر كثافة سكانية في أوربا. لكن بفضل الأرز وبفضل الإبحار المكثف بالقرب من الشواطئ في بداية

القرن الثامن عشر بلغ تعداد سكان في كل من أوزاكا و "يدو Yedo" مثل تعداد كل من سكان باريس ولندن، أي المدينتين الأكثر كثافة سكانية في أوربا.

وفي الوقت الحالي يعتبر اليابان من أكثر بلاد العالم كثافة سكانية إذا ما وضعنا في الحسبان مساحات الحقول المزروعة حيث لا تتجاوز الستين ألف كم[٢] لتلبية احتياجات كتلة بشرية تزيد على تسعين مليون نسمة، والسبب أن سدس مساحة البلاد فقط صالح للزراعة. هناك ستين في المائة من البلاد عبارة عن غابات، بينما نجد في فرنسا ٢٥٪، أو ٢٨٪ في ألمانيا. الغابة هي المالك الحقيقي وسيد الأرض اليابانية كما أنها تنزل إلى الهضاب حتى تصل إلى الخط الفاصل بينها وبين الأرض المزروعة والمخصصة للزراعات المكثفة للأرز.

وعلى هذا فإن المفاهيم المعتادة المتعلقة بالطبيعة والزراعة غير موجودة في اليابان. أما في أوربا، سواء كانت الجنوبية أو الأسكندينافية. نجد القوى الطبيعية والبشرية تتداخل فيما بينها بشكل متوازن وذلك من خلال تنويعات تبدأ من الغابة التي تحتل مساحات أكثر من اللازم، وحتى الأراضي الزراعية. أما في اليابان فإن العلاقة بين الإنسان والطبيعة متأرجحة، ودون مرحلة انتقال بين الغابة المحلية الغير مأهولة بشكل شبه كامل وبين زراعات الأرز حيث ينتشر السكان بكثافة وكأن الأرض تحولت إلى جحر من النمل. يتم هناك استغلال كافة المناطق، كما أن الاستخدام المكثف للأرض القائم على جهد إنساني ضخم يصل إلى درجة غير معروفة على الإطلاق في أوربا.

تتسم هذه العلاقة بين الإنسان والطبيعة بأنها قوية عندما يغيب الوسيط المتمثل في الحيوانات، التي نادرا ما تستخدم في الأعمال الحقلية وتكاد تختفي كقطعان مخصصة للتغذية ماعدا في هوكايدو Hokkaido المنطقة الكائنة في شمال جزر اليابان. وهذا الاستثناء يعود إلى تاريخ قريب ذلك أن عملية الربط المتوازنة بين الزراعة والماشية كانت أمرا غير معروف لدى الصينيين واليابانيين حتى جاءت الأساليب المستوردة من الغرب وحلت بالكاد محل العادات المحلية السائدة في هذا المقام. لكن هذه العادات تضع أمامنا أرضا مؤنسنة بشكل لا يصدق حيث أن المزرعة قد ارتفعت مكانتها إلى درجة الحديقة.

VII- على شطآن المحيط الباسفيكي

يتضح التناقض بين الحقول المكثفة الزراعة وبين الطبيعة البكر بشكل أكثر جلاء عندما نجد الغابة ملتحمة بالبحر، فالأشجار تنزل حتى آخر جزء من الشاطئ وتكثر في الجزر الأكثر وعورة وكأنها تتغذى على ما يبدو أنه صخرة. المشهد يتسم بأنه مفاجئ وهذا ما يظهر في عدد غير قليل من الأصقاع حيث ينفذ البحر في الأرض مشكلا فراغات اعتباطية ذات حواف ناعمة من خلجان وجبال داخل البحر وجزر بشكل ليس له مثيل في الشواطئ المشابهة في النرويج أو اليونان.

فأمام قوة هذه المشاهد الموجودة في أوربا والتي تتسم بأنها خشنة بشكل ما نجد أن الحالة الشبيهة في اليابان تبدو قابلة للدخول إليها دون أن تكون على مقربة من تلال الرمال أو المناطق الضحلة أو بحيرات ملحية أو هضاب أحرقها هواء البحر. وها هي مرتفعات ماتشوشيما matsushima أو كاشيكوجيما Kashikojima تتبدى بسرعة على حافة الطريق مصحوبة بالأشجار العالية على الحافة نفسها وكأن مياهها ليست بحرية بل مياهها عذبة، وكأنها مروّية دائما. وتعتبر المناطق المسماة sankei، أي المشاهد الثلاثة الأكثر جمالا في البلاد، والتي تغنّى بها الشعراء منذ قرون طويلة والتي زارها الآلاف والآلاف من اليابانيين، تعتبر من ذلك الطراز.

غير أن التداخل المشترك بين الأرض والبحر لا يقدم لنا ثمار الجمال فقط في اليابان بل المأساة أيضاً، فكل السهول الساحلية للبلاد وخاصة في الجهة الشرقية منها معرضة للموجات السيزمية أي التسونامي وهذا نوع من raz de marée التسونامي حيث تسبب أحدها عام ١٨٩٦م في القضاء على أربعمائة كم من الشاطئ وتسبب في وفاة ثلاثين ألف شخص. هناك تمثال بوذا الضخم في كاماكورا kamakura أي العاصمة القديمة لليابان

التي ترجع إلى العصور الوسطى، يقف في العراء فرغم أنه على مسافة غير قليلة من الشاطئ تمكن البحر من تدمير المعبد المكون من أشجار ضخمة كانت تحيط به.

يؤدي الوضع الذي عليه اليابان على طول خط من الخطوط غير المستقرة على ظهر الكرة الأرضية، وهو خط ليس ببعيد عن حُفر الباسفيكي، أي أعمق المناطق البحرية، إلى حدوث كارثة زلزالية كل ست سنوات أو سبعة طبقا للإحصاءات التي ترجع إلى عام ١٤١٦م. وهي كوارث لا تقتصر على تحريك كل واحد من العناصر القائمة بل يتأتى عنها خلل في نظام الأشياء وخلطها وكسر الخط الفاصل وهو الشاطئ. وهنا ليس بمستغرب أن تنشأ الأسطورة الشعبية القائلة بأن البلاد تقف على ظهر سمكة ضخمة تغضب من جنون الناس وأفعالهم السيئة فتنتفض بغضب، من حين لآخر، من هؤلاء المتطفلين المذنبين.

وعموما كانت الهزات الأرضية أيضاً السبب في سيادة الغابة على الأراضي اليابانية؛ فالشعور بالحماس للشجر عند الياباني وكذا للنباتات هو نوع من ردّ الفعل على الأرض غير المستقرة التي يسكنها. فالإنسان لا يثق في الحجر ولا في الطين المحروق أو الطوب اللبن ليودعه حلمه أو آلهته، إنه يهرب من كل ما هو جيولوجي ويلجأ إلى ما هو نباتي. وإذا ما كان للحجر جدوى فإنه يضعه في الحديقة على مسافة معقولة، دون أن يعمل يده فيها، ويتركها بشكلها الطبيعي الذي عندما تراه العين الأوروبية لا تعرف له معنى رغم أنه بالنسبة لقوم يعيشون على أرض كثيرة الحراك يعني أنه محمل بإمكانية الحركة.

لكن مياه الباسفيكي المجاورة لخط السكك الحديدية لا تكاد تتحرك، فأمواجها لطيفة دون قوة أو تيارات سفلية. تواريها الأشجار من حين لآخر ثم تتركها تعود للظهور فجأة هادئة بزبدها الذهبي. تتسم بشيء من طابع البحر الأبيض المتوسط رغم البعد الشاسع الذي يفصلها عن الجانب الآخر من الشاطئ؛ وبالنسبة لرؤية الهسباني المتأثرة – ربما – بمفاهيم تاريخية، تنجح في العثور على هواء شبيه بهواء بلاده في هذا المناخ.

كانت غليونات مانيلا تقترب في رحلات الذهاب لها من الشواطئ التي يسير القطار بمحاذاتها. كتب الأب خوسيه دي أكوستا أنه "لكي يتم تفادي العواصف من قبل هؤلاء الذين يعودون من الفلبين أو الصين إلى المكسيك فإنهم يسافرون نحو الشمال حتى يصلوا إلى الأصقاع اليابانية ويتعرفون على كاليفورنيا وعندما يصلون إلى أسبانيا الجديدة يعودون إلى

ميناء أكابولكو الذي كانوا خرجوا منه"[1]. وخلال السنوات الأولى في هذا المسار Carrera، كانت المراكب تصل إلى جزيرة هوكايدو Hokkaido؛ وبعد ذلك بزمن لم تكن تصل إلى خطوط العرض التي تقطع الجزيرة الرئيسية لهذه المجموعة من منتصفها. ورغم أن المراكب لم تكن تقترب إلى شواطئها عادة، كانت تُرى من المراكب قمم الجبال اليابانية وعندما لا يحدث الشيء نفسه كانت مقدمة المراكب تبحث في البحر عن شيء يحمل اسم اليابان مثل: كورو سوا Kuro Siwa أو "التيار الياباني" الذي ينساب صوب أمريكا وكان يساعد المراكب في الانتقال إلى الجانب الآخر.

كان يمكن أن تُرى من مسافة طويلة السفينتان كابتن Capitan وألميرانتا Almiranta- حيث اعتادتا على القيام بهذه الرحلة سويا ذلك أنهما كانتا من أكبر المراكب في ذلك العصر إذ كانتا ذات حمولة أعلى بكثير من تلك التي تقوم بالنقل عبر الأطلنطي، كما أنهما أكبر كذلك من مراكب Carreira de India البرتغالية. وفي بداية القرن الثامن عشر وصلت حمولة هذه السفن إلى ما يتراوح بين ١٧٠٠ طن، و١٨٠٠طن الأمر الذي أثار استغراب الأعداء من البحارين كما أنها كانت تبدو أكبر مما هي عليه في واقع الأمر وذلك بسبب مالها من هيكلين خشبيين عاليين في المقدمة والمؤخرة. ويؤكد أحد كتّاب ذلك العصر أن كل واحد من هذين الغليونين كان "يشبه حصنا فوق البحر"، وحقيقة الأمر هو أن الصورة لا مبالغة فيها ذلك أن المركبين جرى تصنيعهما باستخدام خشب غاية في المتانة من المناطق الأستوائية – من التيكا والمولومبي ولانانج وأباكا... الخ – وبفضل ذلك كانت قادرة على مواجهة مخاطر هذا الإبحار الطويل وكذا مخاطر التعرض للمراكب المعادية.

وأحيانا ما تدفع بها الرياح نحو الجزر اليابانية، ففي عام ١٥٩٦م، ألقى بالغليون "القديس فيليبي" إلى شواطئ كيوشو Kyushu وكان حظه غاية في السوء ذلك أنه لم يقتصر الأمر على مصادرة حمولته التي كان يبلغ ثمنها مليون ونصف مليون بيزو على يد سلطان البلاد بل لأن الكلمات التي نسبت إلى القبطان حول سلطة مليكه والوسائل المستخدمة لزيادة أملاكه أثارت نقمة المحارب هيدوتشي Hideyoshi ونتج عنها استشهاد أعداد كبيرة من المسيحيين. وأكثر من هذا فإن سلطة السياسي الياباني كانت ذات طبيعة

---

(١) التاريخ الطبيعي والأخلاقي للهند، الكتاب الثالث، الفصل الرابع، الطبعة المذكورة، ص ٥٨

تهديدية بالنسبة للفيليبين المنطقة التي قام حاكمها بإرسال سفارة السيد/ لويس نابارّتي فاخاردو وهو يحمل معه هدايا قيمة من بينها فيل من سيام، جدير بكثير من الإعجاب لغرابته لدرجة أن سبعة من سكان كيوتو أصيبوا بالاختناق من كثرة الأعداد المتواجدة. لم تفلح هذه الهدايا العظيمة في تسهيل عملية التوصل إلى اتفاق بين أناس شديدي الإفراط في الغيرة على كبريائهم مثل القشتاليين واليابانيين، كل مع مفهومه لمصطلحين هما Pundonor أي الحرص على الشرف، bushido (طريق المحارب)؛ وفي عام ١٦٠٢م، أي عندما وجد الغليون الأسباني "الروح القدس" نفسه مجبرا على اللجوء إلى ميناء هيرادو، كان قرار القبطان، السيد الجليقي/ لوبي دي أيوّا.. الحيلولة دون الوقوع في موقف شبيه بما حدث للغليون "سان فيليبي".

لكن كان اليابانيون أكثر ترحيبا بالغليونين الأسبانيين اللذين اضطرا اللجوء إلى شواطئ اليابان عام ١٦٠٩م؛ كان أحدهما هو الغليون "سان فرانثيسكو" الذي غرق أمام شواطئ كونتو konto وكان تحت قيادة الحاكم السابق للفيليبين السيد/ رودريجو دي بيبيرو، الذي خلف لنا ملاحظات مهمة عن إقامته في اليابان حيث عومل معاملة جيدة للغاية من قبل إييياسو Iyeyasu. كما وصل به الأمر إلى توقيع معاهدات تجارة وصداقة، ذلك أن مؤسس "الشوجوناتو"، توكوجاوا Tokugawa، كان يريد تلقي مساعدة فنية من الأسبان بغية استغلال المناجم وبناء السفن، كما أبدى اهتمامه أيضاً بالتجارة مع أسبانيا الجديدة، ومن أجل هذا تم السماح لرسوّ المراكب القادمة من أكابولكو في اليابان.

لم تكن السلطات الأسبانية مستعدة - بالطبع - لكسر احتكارها للتجارة بين آسيا وأمريكا، وأكثر من هذا كانت غير مستعدة لتطوير القوة البحرية لشعب محنّك للغاية وكثير العدد مثل الشعب الياباني. ما كان يريده الأسبان هو استخدام الشواطئ اليابانية لبناء السفن مثلما حدث مع بعض السفن المخصصة لطريق المحيط الباسفيكي على زمن الحاكم ألونسو فاخاردو، وكذا الحصول على موانئ للجوء إليها في الجزر اليابانية. وحتى يتم التعرف على هذه الشواطئ وسبر أغوارها جرى إرسال حملة عام ١٦١١م من أسبانيا الجديدة بناء على مبادرة صادرة عن "مجلس الهند الغربية"، بقيادة سباستيان بيثكايينو، الذي قطع وقتا طويلا في اليابان حيث كان هناك توجسّ ليس بالقليل من قبل سكانها.

وحقيقة الأمر هو وجود شعور بالاستغراب لوصول هؤلاء الأوربيين القادمين من أمريكا والعمل الذي يقومون به. ولم يقتصر الأمر على دراسة جغرافيا القارتين بل كانت هناك حمية لا تكل أدت إلى قيامهم بالبحث، خلال رحلات الذهاب والعودة، وعلى مدار عمليات استكشاف واسعة بدأها بيثكايينو من اليابان، في جزيرتين عظيمتين لهما أشياء تثير الخيال، هما "الغنية بالذهب" و"الغنية بالفضة". وبالنسبة لمن اكتشفوا الكثير من الأراضي لا يمكن لهم أن يتصوروا أن حياة "الخليج" خلو من بعض الجزر، وهو الاسم الذي أطلقه الأسبان على الباسفيكي الشمالي، كما أن الرحّالة كانوا يتخيلون أنها أراضي رائعة، كما أنهم تخيلوا ما عليه الأفق لحظة الغروب، أو أن الرسائل القادمة من خلال الطيور أو النباتات العائمة كانت تأتي منها. تأخر البحث عن تلك الجزر التي كان ينبغي أن تقدم بالإضافة إلى الكنوز المعدنية، ملاذا للغليونات، وأدى ذلك إلى تأخر استعمار كاليفورنيا على مدى قرن ونصف من الزمان.

لكن القرى والموانىء، التي ترى من نافذة القطار هي برهان جيد، بما عليه من بنية وأنماط حياة ظاهرية، على أن هذه الجزر لم توجد لا في خيال سكانها أو الواقع الملموس. ويمكن القول بأن ما يخيم على تلك القرى هو الفضاء الهائل للباسفيكي هذا إذا ما كان الفضاء يمكن أن يخيم على المكان.

لا يعني ذلك أن اليابانيين أداروا ظهرهم للبحر، بل كانوا يفضلون المياه الأقل اتساعا والتي كانت تفصلهم عن أقاليم أسيوية أخرى، فخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تمكن بحّارة ذلك البلد وتجاره من إقامة مجتمعات صغيرة في جنوب شرقي القارة، وابتداء من منتصف القرن السادس عشر كان لدى ملوك كل من برمانيا وسيام وكمبوديا حرسهم الخاص من اليابانيين. كانت هناك أيضا فرقة من الجنود اليابانيين في معسكر مالاكا Malaca وكذا محلات تجارية في كثير من الأقاليم القريبة من خط الاستواء. كما أن استيراد السفن الأوربية كان يسهل القيام بهذه المهام التوسعية، وبعد ذلك قام "الشوجونسي" توكوجاوا باتخاذ قرار مفاجىء بقطعها لأسباب سياسية تتعلق بالأوضاع الداخلية.

هناك بعض المؤرخين مثل ريتشارد ستوري R. Storry[1] حيث أطلق العنان لخياله مفترضا ما كان يمكن أن يكون عليه تاريخ الباسفيكي إذا لم يكن هناك تدخل عنيف ودؤوب من جانب حكومة ثيوقراطية الأمر الذي أسهم في قطع حبل التوسع الطبيعي، نحو الجنوب، من قبل سلالة كلها حيوية وذات طبيعة بحرية. ويرى الكاتب المذكور أن غزو الفيليبين كان في متناول اليابان خلال القرن السابع عشر، وفي القرن الثامن عشر كان يمكن لها أن تتقدم على إنجلترا في البحار الجنوبية. إن تاريخ الاستعمار الأوربي في جنوب شرقي آسيا وأستراليا ونيوزلندا كان يمكن أن يتخذ مسارا مختلفا لو أن حكومة توكوجاوا لم تجبر اليابان على الانكفاء على الذات. غير أن هذا الافتراض لا يضع في اعتباره، بشكل ملحوظ، الجوانب الثقافية والسلوكية والتقنية للتوسع الأوربي الأمر الذي جعل منه - أي هذا التوسع - ظاهرة فريدة وظل ذلك لزمن طويل، غير قابل للتقليد. ما هي جدوى الحديث عن حكومة تجبر شعبا أن يقف ضد توجهاته الطبيعية التوسعية على مدار قرنين ونصف من الزمان؟

وفي حقيقة الأمر، أنه في عام ١٨٥٣م، عندما اقتربت سفن القائد البحري/ بري Perry من الشواطئ اليابانية، وجدت مجموعة يقتصر نشاطها على الملاحة قرب الشواطئ وعلى الصيد، ومع هذا كان هذان النشاطان يتمان بهمة عالية. كان الصيد والملاحة بالقرب من الشواطئ أمرا مهما لتغذية ييدو Yedo التي كان يزيد عدد سكانها على نصف مليون نسمة، ولم يكن القائد البحري بحاجة إلى قذفها بالقنابل حتى تستسلم، إذ كان يكفيه قطع خط الدخول إلى الميناء للمراكب التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام مدافعه.

غير أن هناك نصف عشر السكان اليابانيين في الوقت الحالي يمارسون العديد، أضف إلى ذلك أن إحدى النقاط الجذابة التي وجدها الهسباني في ذلك البلد هو اكتشاف أنواع جديدة من الأسماك وغيرها مما هو غير موجود في وطنه. إنها رابطة قديمة بين اليابان وأيبيريا، ذلك أن مسمى tempura ، الذي يطلق على السمك المقلي وعلى المطاعم التي تقدمه، مصدره لفظة tempora، أي الاحتفالات الطقسية التي يقوم فيها البرتغاليون

---

(١) "تاريخ اليابان الحديث" بليكان بوك، ص٦٥.

والأسبان بتناول أسماك متبلة بهذا الشكل. ومما لاشك فيه أن اليابانيين لم يكونوا يأكلون السمك على هذا النحو، وها هم حتى اليوم يفضلونه مدخنا أو نيئا.

الياباني يريد أن يكون قريبا من الطبيعة، ولا يقتصر ذلك على ما يتعلق بالجماليات، وبنمط مسكنه وطقوسه الدينية فقط بل يشمل أيضاً ما يتعلق بغذائه، وخاصة إذا ما كان غذاء بحريا. وفي فندق ماتسوشيما Matsushima نتعشى محارا، وليس ذلك لميل شخصي وإنما للسير على عادة شعبية في قائمة الطعام، ومن المحار هناك ما هو نيئ ومن أصناف مختلفة، وهناك مقلي، وآخر في الشوربة أو الكريمة... الخ. ولهذا لا يحدث للمرء أي تلبك معوي، ذلك أن الأطباق المطهية المختلفة تبدو أساساً موجهة للبرهنة على أن المحار لا زال هو هو مهما بلغت درجة التنويع في طهيه، حيث يحتفظ بطعمه المركز وجودته التي تُحسّ باللمس. كنا نتناولها سيرا على عادة الأصدقاء اليابانيين، أي ببطء وبشكل طقسي وكأننا نتواصل مع السرّ الحيوي لأكبر المحيطات دون أن يبتعد عنا الإحساس بنوع من المذاق الأسباني، ولست أدري فيما إذا كان ذلك من خلال الهواية تناول المحار أو ذكريات الأيام الخوالي التي كانت فيها الغليونات الهسبانية تجوب الباسفيكي بثقة عالية، طبقا لإحدى الوثائق، وكأنها تجوب مياه "نهر في إشبيليه".

VIII- ماتسوشيما أو المشهد المثالي

إنه لمؤلم أن تبقى صورة المشهد الشهير لماتسوشيما الذي يعتبر أجمل ثلاثة مشاهد من الناحية الرسمية في اليابان، غير واضحة في الذاكرة. وليس الأمر أن ملامح هذا المشهد لم تعد محفورة في الذاكرة لكنها متنوعة وشديدة الحساسية، كما أن إيحاءاتها شديدة النعومة لدرجة يتولد معها الانطباع بأنها على وشك الزوال.

يبدو الأمر وكأن هناك فرد لا يعرف اليابانية ويريد أن يتذكر واحدة من أجمل التكوينات الكتابية الموجودة في المتاحف إلى جوار اللوحات المرسومة. إنها تتسم بالجاذبية الشديدة كما أن الزائر يستمتع بتأمل خفة روح المنحنيات الكتابية وتنوع الملامح وفي العلاقة الهارمونية بين مجموعة من الرموز وبين الفجوات البيضاء الموجودة بينها. غير أنه عندما يريد تذكر ذلك السطح الرائع لا يرى إلا بقعة متحركة، لدرجة تبدو معها كأنها حمية أو حماسة السمك الذريعة alevinos في بحيرة. يحدث الشيء نفسه مع المشهد المكوّن من عشرات الجزر ذات الأشجار التي تنتشر في خليج ماتسوشيما، حيث كل واحدة منها لها سمتها المحددة وكأنها خطاف espolón يسقط فوق مياه البحر، كما أن السطح ظليل بشكل مختلف سواء كان في الكهف أو في الجسر الطبيعي، مع وجود فريد لشجر الصنوبر الذي يتوج المشهد. ورغم كثرتها فكل جزيرة تبدو وكأنها تضم في جنباتها مدلولا جماليا خاصا بها، مثلما تضم الكنجس Kanjis سرها رغم أنه غير قابل للفهم لدى من لا يعرف اللغة.

ليس الأمر عبارة عن مقارنات عفو الخاطر، إذ يبدو من المؤكد وجود تراسل بين أسلوب المشاهد الأكثر تمثيلا في بلد ما وبين رموز الكتابة المتبعة فيها. وعندما يدرك المرء وهو في متحف بيروت التكوين السريع للأبجدية السريانية على مجموعة من الكتل الحجرية المرتبة ترتيبا تاريخيا يشعر الزائر بإعجاب أقل من ذلك الذي يمكن أن يكون عليه أمام تلك

الأعجوبة الثقافية والتي ربما كانت أكثر أعجوبة في التاريخ الإنساني، ذلك أن الحروف الهجائية التي ظهرت على الشواطئ الفينيقية النبيلة والواضحة والمرتبة، تبدو وكأنها تنبت كزهرة من الأرض؛ كما أن المصير اللاحق الخاص بهذه الحروف الهجائية يبدو متناغما لدينا مع السياق الجغرافي لتلك البلاد التي تستولى عليه. إن دقة واستقامة الحروف الهجائية اللاتينية التي انتهى بها الأمر بالبقاء في مختلف أنحاء العالم تشبه الوضوح الجغرافي للمشهد الإيطالي، كما أن الحروف القوطية نفسها تبدو حميمة عندنا لدى قراءتها عندما يكون المرء قد قضى فترة في ألمانيا.

سوف يكون من المبالغة ، واضعين في الاعتبار عقدة التفوق الأوربية، التفكير بأن بساطة الرموز الكتابية ترتبط بالتفوق في النظام الجمالي والروحي كذلك. من البدهي أن من المريح تعلم المرء الكتابة بحروف بدلا من الأشكال، غير أن استخدام هذه الرموز يساعد على تطور ملحوظ في معدل الذكاء والحساسية. " لقد ساعدت مارسيل جراسيه [1] بمعظم المفردات علي الاحتفاظ بكامل قدرتها التعبيرية الحقيقية وذلك بنوع من الطزاجة وطبيعة المفردات الحية. وقد منعت المفردات من تشكيل مادة مجردة. ويبدو أنها استطاعت تحويل تلك المفردات الي فكر لم يعد ينحو نحو الحد من العمليات العقلية"

ويمكن أيضا أن نضيف أن ذلك يتلاءم مع حساسية لا يبدو ميلها إلى الاقتصاد في العمليات الانفعالية. ومما لاشك فيه أن عملية تعلم الكتابة بالأشكال هي واحدة من الأسباب الكامنة وراء الحساسية الفنية الرفيعة التي نلاحظها في الصينيين واليابانيين، فبدون روح العزيمة والإصرار على التركيز الروحي التي يستلزمها استخدام حروف الكانجي Kanjis الذي يترتب عليه أمور كثيرة منها حدة الذاكرة ورصد المجموعات، لافتقد التاريخ العالمي بعض فصوله الجميلة وخاصة في باب الرسم والشعر الخاص بالطبيعة كأحد أغراضه، ولكان ذلك خسارة كبيرة.

لا ينجح الأوربي أن يقرأ بشكل دقيق ذلك المشهد الرفيع في ماتسوشيما ذلك أنه معتاد على استخدام حروف تجريدية؛ أما الشرقيون فعلى العكس إذ هم معتادون على رموزهم الكتابية، ففي الكنجي Kenji (الحروب اليابانية) الخاصة بـ "إنسان" أو "منزل"

---

1 الفكر الصيني، مذكور في سلسلة " تطور الإنسانية، باريس ، ص ٤٦

هناك حتى الآن لمحة من الواقع المحدد الذي تشير إليه، أي أن القدرة على التجريد الثقافي لم تتمكن حتى الآن أو لم ترد أن تفصل ماديا بين الرمز والمعنى. وبهذا تقل الدقة في المفاهيم Conceptuales والاقتصاد المنطقي في باب التفكير لكن هناك مكسب واضح لدرجة الحساسية.

عندما أكد جاليليو أن كتاب "الطبيعة" مكتوب بحروف حسابية فهو لم يفعل غير نقل شيء، وتجسيده في شكل، كان يتكهن به الشعراء والرسامون الغربيون منذ مدة طويلة من خلال حدسهم وتقنياتهم كما أنه مُضمَن في اللغة الكتابية لكنه غير قابل للولوج إليه من خلال مسار الشعر والفنون التطبيقية والكتابة في الشرق الأقصى. كما أن مشاهد الشرق الأقصى بعيدة عن التقولب في الشكل ولا يتبدى ذلك فقط في عيون السكان الأصليين بل يشمل الإنسان الغربي المعاصر.

هناك في هذا المقام مثل بسيط وهو الحالة التي عليها يوم من أيام الخريف في مرحلة متقدمة وكيف هو المشهد الأكثر كلاسيكية في شمال اليابان. من الممكن أن ترصد العين أثناء الصيف صورا أكثر دقة واستمرارية لجزر ماتسوشيما، غير أن الغيم في السماء والمطر وأشعة الشمس القوية والجليد والبَرَد والأضواء شديدة التنوع التي تتابع بإيقاع سريع خلال ساعات الصباح كان كل ذلك يتولى محو الصور التي يتم تلقيها، وبمقولة أخرى، تتراكب الصور الواحدة فوق الأخرى وكأننا نشاهد مقطعا من فيلم جرى فيه فتح الكاميرا مرات عديدة. ويضاف إلى هذا التنوع في التفاصيل الملموسة والتنوع اللانهائي للأشكال في المشهد، ذلك الطقس الذي يمر خلال ساعات قليلة بكافة الحالات الطقسية المتخيلة.

كان الناس يسهمون بدورهم في جعل المشهد أكثر تعقيدا، ففي الخلجان المحمية تتبدى للعيون سلسلة لا نهائية من مزارع تربية المحار أو الطحالب وقد شيدت في الأساس بالبوص (البامبو)، وعندما تطل عليها الشمس كانت المسطحات الرطبة والمستديرة تلمع وكأنها عيدان من ذهب، لكنها تحت المطر تشبه مخابئ تحت المياه. يزداد المشهد غرابة عندما نرى قوارب الصيد وعليها أطقمها من ذوي السمة السلالية المحلية وهم يرتدون معاطف لامعة، كما يزداد المشهد غرابة عندما يتم تأمله من وراء زجاج قاربنا المغطى برذاذ المطر، والأمر هو أن المطر المفاجئ أجبرنا على اللجوء إلى كابينة القارب.

إلا أن الشمس سرعان ما فكّت قيودنا ورسا القارب على مرسى صغير حيث يوجد هناك طريق متعرج يقود إلى معبد Daig Yo-Ji دايج يوجي، وإلى جواره نقطة من النقاط التي يُوصى بها من يذهب إلى هناك لتأمل مشهد ماتسوشيما. وهذه النقطة يوحي بها لا عن طريق الأدلة السياحية أو وكالات السفر بل من خلال موروث شعري طويل يبدأ من قبل القرن العاشر، والأمر بالنسبة لليابان هو أن الشهرة لا تقتصر على إبراز ملامح مشهد في المجمل بل تتم من خلاله الإشارة إلى زوايا المشاهدة بحيث تتضح مدى جماليته. لا يتوقف الأمر على مجرد إشارة بل هو أكثر فعالية. ولما كان الأمر يتمثل في انتقال زوايا مشاهدة جرت منذ سنوات طويلة وأنه جرى إقدامها والحفاظ عليها من جيل لجيل من المشاهدين فإن المناخ العام يتضمن شيئا وكأنه الطريق الذي نمر به ويحتوي على زوايا رؤية تأملية.

وعموما فإن التقنية الحديثة التي يتحمس لها اليابانيون كثيرا هيأت للسائح العادي عدسة كبرى في الأماكن المنصوح بها لتكون منها زوايا الرؤية، فعندئذ يضع المرء بعض السنتات، ثم تحدث جلبة ميكانيكية غامضة وعندئذ تنفتح العدسة على مشهد مكبّر وقريب وأكثر إمكانية للفهم. وبالنسبة للمشاهد الطبيعية اليابانية التي تأصلت من خلال التراث الجمالي المكثف والطويل تبدو وكأن رؤية المشهد الطبيعية بكثرة لست محصلة ظاهرة ملموسة فقط وإنما من جراء الإفادة من التراث الممتد. ويمكن القول بأن الأشعار التي تناولت هذه الانطباعات الجمالية الرفيعة وكأنها تهمس في الآذان مصحوبة بالصور الأكثر وضوحا وتقرِّبها من مشاعرنا.

ومع هذا نجد المشهد في ماتسوشيما لا يتوقف عن الإفصاح عن نفسه أمام نواظرنا كأوربيين، وانطلاقا من معبد دايج يوجي نجد أن المشهد قابل للإلمام به، فالجزر القريبة تتجلى بإذعان أمام نواظرنا، وتخفي مكوناتها ذات الأصل البركاني تحت قمم الأشجار. هناك مسبحة أخرى من الجزر ترى عن بعد دون أن تختفي أي واحدة منها وراء خط الأفق وهو خط غير محدد بدرجة كبيرة بالنسبة للمذاق البصري الأوربي. فالأفق لا يأخذ شكله الدائري بالشكل الذي يتطلبه الطموح الغربي للبانوراما؛ هناك رغبة في أن يكون أعلى حتى يمكن رؤية المشهد كاملا وكأن المرء يشاهد خريطة حية على طريقة لوحات الحروب الفلامنكية. لكن زوايا الرؤية من جانب المُشَاهد في ماتسوشيما لا تضعه فوق الطبيعة مثلما

يحدث لمن يتأمل لوحة مرسومة لمشهد طبيعي غربي دون أن يدري، مهما كانت درجة البساطة في زاوية الرؤية، بل تضعه في وسط الصورة وقد لفته تضاريسها.

من الأمور الواضحة أن الرسم الإنطباعي جعل الأوربي يعتاد على رؤية الطبيعة بهذا الشكل وذلك أمام العملية التعليمية المطوّلة التي تلقاها من المدارس السابقة ابتداء من مدارس الرسم الفلامنكي البدائي المحملة بالصوفية المسيحية، ولهذا فإن المرجعية الخاصة باللوحات الانطباعية دائما ما تطالع المشاهد. هذه الشبكة الواهية المكونة من نقاط وخطوط صفراء والتي تمثل مزارع المحار والطحالب المنتشرة بين الجزر لا يمكن إلا أن تذكرنا ببعض لمحات، يقدمها سيسلي Sisly فوق زرقة الأنهار. تبدو البقع الداكنة لأشجار الصنوبر شبيهة بتلك التي اعتاد رينوار أن يرسمها على بعض شواطئ نهر السين، خلال مرحلة من مراحل حياته. كما أن أضواء المشاهد الطبيعية والظلال في شمال فرنسا، الموضوع المفضل لدى الانطباعيين، بها درجة شبه محددة للغاية بما هو في شمال اليابان. وفي عمق المشهد، أي على الجانب الآخر من الخليج نجد البقعة البيضاء لمبنى قوى، يذكرنا باسم سيزان، وقد استقرت فوق السطح.

لكن ليس الأمر كذلك، فدرجة الشبه مع ما رسمه الفنان الفرنسي الكبير غير مقبولة، ذلك أن السبب الذي نوّه بهذا الاسم هو سبب خارج تماما عن المشهد الطبيعي موضع التأمل، إذ هو مصنع حديث ذو شكل غربي بالكامل وهو مصنع سماته الهندسية لا تتلاءم إطلاقا مع المشهد الطبيعي الخلاب والراقي والمتحرك الذي عليه الخليج. وبالنسبة للعمق فإن تذكر أسماء رسامين آخرين من المدرسة الانطباعية أمر غير ملائم. ذلك أن لوحاتهم تحمل جرعة من الذاتية في خضم موضوعيتهم المزعومة، وهي رؤية جزئية بشكل مقصود ومؤقت للطبيعة ولا تتفق مع المدلول الحقيقي للرسم الياباني أو مع المشاهد الكلاسيكية لليابان.

تتجلى المشاهد الانطباعية الأوربية، ما عدا استثناءات قليلة للغاية، وهي ذات طبيعة دنيوية كاملة، أما بالنسبة للمشاهد اليابانية فإن السمات الدينية تطالعنا في كل خطوة. نعم هو نوع من المفاهيم الدينية اللمّاحة، والتي لا تتجلى بوضوح من المنظور الغربي، بقدر ما تتجلى من منظور التديّن الطبيعي، لكن ذلك لا يعني غيبة التدين الكامل عند الروح اليابانية بل هو نوع من النمطية والاستقطاب الخاص لهذا التدين.

يحتل الاستمتاع بالمشهد مكانا رئيسيا في الحياة اليابانية التي تقف موقفا وسطا بين الصحة الجسدية والروحية حتى أقصى درجة من التدين.

وبالنسبة للأوربي من الصعب فهم تلك الصفحة من "قصة جنجي" أي العمل الأوربي الأكثر شهرة في الأدب الكلاسيكي الياباني والتي كتبت حوالي عام ألف من عصرنا بقلم سيدة شهيرة من القصر هي موراساكي شيكوبو، حيث تقص علينا فيها كيف أن الخوف الذي أثر في الخدم من الدنجوان الأمير، بطل القصة، "بأن تعود له الحمى، فقرروا أن يحملوه إلى أعلى قمة الجبل حيث تُرى من هناك عاصمة الإمبراطورية. "يا لها من جميلة تلك المناطق البعيدة - قالها جنجي متعجبا - التي تتوه في الضباب وفي رقعات الغابات وقد حل بها نور خفيف يمتد على هذا النحو وذاك! كيف سيمكن أن يتخلى المرء عن الإحساس بالسعادة بهذه الأماكن التي يعيش فيها ولو للحظة واحدة؟". "هذا ليس شيئا؟" قالها أحد المرافقين. "آه لو تمكنت من أن أريكم البحيرات والجبال في محافظات أخرى، عندئذ يمكنكم أن تدركوا حجم الفرق الجمالي المتفوق عن هذا المشهد الذي ترونه". ثم أخذ يحدثه أولاً عن جبل فوجي Fuji وعن جبال أخرى كثيرة، ثم بعد ذلك عن إقليم "الغرب" بكل شواطئه وخلجانه الرائعة حتى نسي الأمير ساعة الحمى[1].

وفي مكان آخر من الكتاب يظهر لنا جنجي وقد استغرقته حالة الإعجاب بالغزلان التي تتحرك في واد تكسوه الزهور، وكانت تسير ببطء أو تتوقف فجأة "لدرجة أن متعة رؤية هذا المشهد أتت على ما تبقى من المرض"[2].

يمكن أن يكون المشهد الجميل في اليابان أمرا صحيا للجسد والروح، فالمكان المقدس تراثيا الذي منه نتأمل خليج ماتسوشيما يزينه معبد، وهو ليس فضلة في المشهد بل نوع من التتويج للمكان؛ على حافة الهضبة التي يرتفع عليها تمتد جزيرة أوشيما Oshima التي تتخللها كهوف صناعية كان يلجأ إليها الرهبان البوذيون للتأمل، ممن كانوا يقيمون في دير تهدم منذ سنوات قليلة بفعل حريق شب به، وفي عمق الوادي، خلف الفندق، هناك الدير الكبير زويجان-جي Zuigan-ji (صخرة الحظ الطيب) الذي يعتبر من أفضل الأديرة في اليابان.

---

(١) ليدي مورازكي "قصة جنجي"، ترجمها آرثر ويلي، لندن، ١٩٥٧، ص٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٠.

وفي اللحظات التي كنا نقترب فيها من الدير تغير الطقس تغيرا مفاجئا وأخذ الثلج بتساقط وأخذت ندف الثلج تسقط بين الأهرامات الملساء التي هي أشجار الصنوبر اليابانية التي تسبق الدير، ويفضل الندف التي تتساقط ببطء يمكن للعين أن تقيس بشكل أدق حجم هذه الأشجار السامقة والقوية وذات الرشاقة الرفيعة، هناك، نعم هناك خطوط هندسية، وهي خطوط هندسية عضوية وحية تتضح بجلاء أكثر عندما تتم مضاهاتها بالجيولوجيا المتنوعة التي عليها الخليج وما عليه من طبقة نباتية. وبدورها نجد أشجار Criptomerios السامقة التي تنتظم لتستقبل الزائر للمعبد على النقيض من أية نباتات عشوائية، إذ تقوم في شكل عمودي ينبت من الأرض له ارتفاع معقول وأسطوري في آن معا كأنها مسلة، مؤكدة استقلالها الواضح وهذا بعد دلالي أمام السياق المحيط حيث يمنحها الثلج المتساقط مسحة من القداسة.

لكن دير زويجا-جي لا يستحق هذه المسحة من القداسة إذ يبدو أنه حصن يرتدي قناعا أكثر منه ديرا، حيث يختبئ وراء ستار من التقوى الخادعة حتى يفر من أمر كونه حصنا يثقل على "الأسماء الكبرى" daimyos ابتداء من بداية عصر توكوجاوا Tukugawa؛ وبالنسبة للعاهل الكبير (Daimyo) الذي أعاد بناء معبد زويجان-جي، وهو داتي ماساموني، فقد كان واحدا من أهم الكبار في كافة أنحاء اليابان، وهو من يملك في سنداي Sendai واحدا من أهم الحصون في اليابان كافة، طبقاً لما تشهد به ركيزته العملاقة. كما كان مالكا لخليج ماتسوشيما الذي أصبح في يد من خلفوه، حتى بداية عصر ميجي Meiji.

وحقيقة الأمر هو أنه قرر إرسال سفارة إلى أوربا عبر الباسفيكي وربما كان دافع ذلك أن تأمل المياه الرائعة للخليج أثار في "السيد الكبير" daimyo روح المغامرة، أو كان الأمر يتعلق بأسباب اقتصادية أو سياسية رفيعة المستوى أو لأسباب أخرى روحية. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها اليابانيون على متن مركب صنعت في بلادهم، فقد تمكنوا عام ١٦١١م من بناء مركب تحت إشراف قبطان إنجليزي هو ويليام آدمز، قام باستخدامه السيد/ رودريجو دي بيبيرو للانتقال إلى أسبانيا الجديدة، إلا أن الرحلة التي بدأت بعد ذلك بعامين على متن مركب دُشن باسم "سان خوان المعمدان" الذي أمر ببنائه داتي ماساموني، كان يتسم بالعظمة ذلك أنه كان على متنه سفارة كبيرة مكونة من ثمانية وستين

فردا الذين كان يرافقهم الراهب الديناميكي المشاء/ لويس سوتيلو، إضافة إلى طاقم المركب من السكان الأصليين.

وفي ديسمبر ١٦١٣م خرجت الحملة وعلى رأسها هاسيكورا Hasikura، وبعد أن مرت مركبه بجزيرة لوثون واصلت طريقها صوب أكابولكو، حيث جرى استقبالها استقبالا عظيما من لدن نائب الملك في أسبانيا الجديدة الذي وضع تحت تصرفه مركبا في ميناء بيرا كروث لمواصلة الرحلة إلى أشبيليه. وفي مدريد استقبل فيليبي الثالث الوفد، ولم يتأخر هاسيكورا في تعميده مسيحيا وتم إطلاق اسم آخر عليه هو فيليبو فرانثيسكو. واصل المبعوث الياباني رحلته عبر سويسرا حتى وصل إلى روما حيث استقبل استقبالا حافلا كضيف خاص على البابا باولو الخامس، وبعد أن قضى عامين في جنوب أوربا استقل هو وحاشيته المركب من أشبيليه في طريق العودة عبر المكسيك في بداية عام ١٦١٨ ليأخذ في أكابولكو مركبا يابانيا آخر أرسله داتي ماساموني، لأغراض تجارية كانت السفارة تحمل معها، إلى الوطن، خطابات وهدايا مقدمة من ملك أسبانيا ومن البابا والتي منها لازال موجودا، في معبد زوينجان-جي، الشمعدانات التي أهداها قداسة الباب.

وبالنسبة لهاسيكورا، الذي يبدو أنه ظل وفيا لديانته الجديدة رغم المطاردة العنيفة التي تعرضت لها المسيحية أثناء غيابه عن البلاد، فإن جثته مدفونة فى مقبرة بالقرب من سنداي Sendai حيث ذهبنا إلى هناك لتكريمه في صحبة زملاء يابانيين. هناك لوحة حجرية تذكارية منقوش عليها البيانات الرئيسية لرحلته، إضافة إلى لوحة أخرى أصغر منها تذكارا لسوتيلو Sotelo رفيقه في الحملة والذي استشهد في نجازاكي، ذلك أنه رفض مغادرة اليابان رغم أوامر الطرد الصارمة. يبدو السور الجنائزي الموجود في وسط المقابر ظليلا بعض الشيء بفضل شجرة صنوبر زرعت عام ١٩١٦ وقام بذلك/ القسّ بيتوريلّي المبعوث الخاص للبابا بندكتو الخامس عشر.

وبالنسبة للجو العام الذي يتم اكتشافه من خلال الرسائل التي كان يحملها معه هاسيكورا، فهو أكثر غموضا، فالوضعية التي ينسبها داتي ماساموني لنفسه في النص، أو أن المترجمين هم من فعلوا ذلك، هي وضعية أنه ملك، الأمر الذي يكشف عن الطابع السياسي والنفعي للسفارة، أو لبعض أعضائها على الأقل. وجه فيليبي الثالث بدوره

رسالة إلى الملك بوجو Bojú، لكنه يشير فيها إلى رسائل أخرى كتبها قبل ذلك إلى "سيد اليابان العالمي" وهو نوع من التعامل غير واضح، لكنه إجباري نظرا للتعقيدات المتعلقة بالألقاب السياسية في اليابان. كان "الدايموي" Daimoy يفكر في المكسيك أكثر من تفكيره في أسبانيا ذلك أن الرسالة الموجهة إلى فيليبي الثالث، والمكتوبة بقشتالية رصينة تتحدث عن "إقرار السلام وعن مناطق" مع السيد نائب الملك في أسبانيا الجديدة - يقدم ذاتي نفسه معلنا استعداده لاستقبال السفن التي كانت تبحر من لوثون Luzón إلى أكابولكو، كما يعرض تقديم مواد يستخدمها الأسبان في بناء سفن على شواطئهم ومنحهم حقوقا خارج أرضهم إذا ما أرادوا البقاء والعيش على أرضه بينما تكون المعاملة مختلفة إزاء "الإنجليز والهولنديين وآخرين ممن هم أعداء ملك إسبانيا، فإذا أتوا إلى مملكتي سوف أقبض عليهم جميعا وآمر بقتلهم".

ومنذ بداية القرن كانت المراكب الهولندية تبحر في المياه اليابانية وكانت هناك احتجاجات كثيرة من قبل "حكام الفيليبين"، ففي عام ١٦٠٢م كتب السيد/ برو دي أكونيا إلى إمبراطور اليابان ليقول له بأنه لما كان يعرف "أن على هذه الأرض هناك بعض الرجال الهولنديين من رعية ملكنا، أرجو من جلالتكم التكريم بأن ترسلوهم إليّ على أول سفينة تخرج من هناك ذلك أنهم أناس يثيرون القلاقل ومن الذين لا يعيشون باستقامة، كما أنهم رفضوا طاعة مليكهم وخرجوا إلى عرض البحر للقرصنة ومن هناك كان مجيئهم إلى المكان. . . وكبادرة لحسن النية، حيث أنكم من الناس الطيبين أردت أن أرسل إلى جلالتكم بعض الأشياء البسيطة من قشتالة. . . ".

هدايا قليلة ولغة متعجرفة موجهة إلى عالي المقام. تسامح اليابانيون مع وصول أوربيين آخرين إلى شواطئهم وهم يقدمون لهم إمكانية التخلص من الاحتكار الأيبيري وإدخال المزيد من المواد والمعارف الغربية في البلاد. وفي عام ١٦٠٩م أسست "الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية" مقرا تجاريا في هيرادو Hirado، وبعد ذلك بأربع سنوات سارت على دربها شركة أخرى إنجليزية لها نشاط مماثل. كانت المعاملة التي تلقاها الأوربيون في البداية معاملة بالمثل، غير أنه ابتداء من عام ١٦١١م، حيث كانت ترغب حكومة "توكوجاوا" في تمتين نظامها الجديد من المنظور الديني، فقررت منع إقامة الشعائر

المسيحية، وأعلنت ميلها بوضوح نحو الأوربيين الذين لا تهمهم كثيرا المسائل ذات الطابع الديني مثل الهولنديين.

ربما كان داتي ماساموني يبحث عن تحالف مع الأسبان - إضافة إلى أسباب ذات طبيعة أخرى يمكن أن تكون موجودة - من أجل توطيد موقفه ليكون "الرجل الأكبر daimyo أمام "الشوجون" الجديد، رغم أن السلطة التي كانت في يد هذا الأخير، عام ١٦١٣، تجعل من الصعب التفكير في أن سيد سنداي Senday يمكن أن يتصرف على هواه. وعلى أية حال لم تأت المصلحة الاقتصادية الكائنة وراء موقف داتي ذلك أن السلطات الأسبانية كانت تقاوم السماح بتبادل تجاري مباشر بين اليابان وأسبانيا الجديدة، وها هي السلوكيات الأنانية والمواجهات الاقتصادية والسياسية والدينية بين الشعوب المسيحية تنتقل إلى الشرق الأقصى ولكن بعنف شديد وأسهمت كثيرا في التقليل من شأن أوربا البعيدة. وفي عام ١٦٣٨ انتهى الأمر بـ "الشوجون" بطلب العون من مركب هولندي بقصف حصن هارا Hara في شبه جزيرة شيما بارا Chimabara حيث كان هناك ثلاثون ألف مسيحي يدافعون بحمية ضد القوات الأكثر تفوقا، حتى قضوا جميعا ماعدا القليلين.

IX- البحر المتوسط الياباني

إذا ما نظرنا إلى أكبر القارات وإلى أكبر المحيطات وجدنا أن مجموعة الجزر اليابانية لا يقتصر تفرّدها على الحالة الاستثنائية التي هي عليها في تلك الأصقاع من الشكل العام والتضاريس بل تتسم بأنها تقدم في وسطها المشهد الكبير بوجود بحر داخلي، أي بحر أبيض متوسط لكنه صغير الحجم وحميم لا يكاد يلمح في الخريطة، يتكون من الجزر الثلاثة الأكثر أهمية الكائنة في الجنوب: هوندو وكيوشو وشيكوكو.

هو بحر ضيق وقصير لدرجة أن الاسم الذي يطلق عليه باليابانية هو seto-naikai بمعنى أنه بحر بين قنوات. وهو بالفعل يتكون من مجموعة صغيرة من الأحواض البحرية التي تربط فيما بينها قنوات، لكن الأوربيين – ربما لوجود صورة البحر المتوسط في أذهانهم – كانت لهم رؤية موحدة أكثر بالنسبة لهذه المياه، وترجموا الاسم الياباني على ذلك بـ "البحر الداخلي" أو "البحر المتوسط". وهناك الكثير من وجوه الشبه التي تؤيد هذه التسمية سواء من وجهة النظر الجغرافية أو السياسية أو الثقافية، ذلك أن المياه محل الذكر قامت بدور شبيه بما كان في المنطقة اليونانية الرومانية، من إسهام في تطوير الحضارة اليابانية.

لا تقتصر وجوه الشبه بين الجغرافيا والعقلية اليابانية وحوض المتوسط على هذه الأصقاع الموجودة في مجموعة الجزر بل تمتد إلى الأغلبية العظمى منها. وليس الأمر هو موازاة لا أساس لها ترد على شفاه الرحالة الذين يتركون أنفسهم لانطباعات مؤقتة بل هي عبارة عن رؤية ناضجة توصل إليها متخصصون مشهورون بعد سنوات طويلة من التخصص في دراستها. وإذا ما أردنا تحديدا لوجدنا أنها في نظر المستشرقين الذين اعتادوا على المشاهد الخاصة بالقارات في الحضارات الآسيوية الكبيرة، تتميز ببدهية خاصة ألا وهي أن مجموعة الجزر اليابانية ذات تركيب معقد سواء بالنسبة للتضاريس أو المناخ ومملكة

النباتات فيه ولها سمات تنعكس على عقلية وثقافة الشعب الذي يعيش فيها الأمر الذي يستثير مقارنتها بحوض البحر المتوسط الشرقي.

كان المستشرقون اللاتين، وخاصة رينيه جروست R. Grousset، هم الذين لفتوا الانتباه نحو هذا التوازي بين اليابان واليونان. فهذه الأبعاد المعتدلة تتجلى في الجغرافيا الهلنستية واليابانية، حيث الشواطئ متشابهة من حيث قصرها، والوجود الكاسح للجبل والبحر. كما أن طوكيو توجد على خط العرض الذي عليه نابولي، كما أن خط العرض لجبل الأولمب يقطع الجزيرة اليابانية الكبرى نحو الشمال قليلا. وكما هو الحال في اليونان، لا يوجد ركن في اليابان يبتعد عن أكثر من مائة كيلومتر عن البحر، أضف إلى ذلك أن أكبر سهول هوندو Hondo وكانتو Kanto لا تكاد تتجاوز أبعاد تيساليا Tesalia، اكبر مكان إيلادي Helade. كما أن كلا من بحيرة بيوا Biwa إلى جوار كيوتو، ومعها "البحر الداخلي" قد تشكلتا في منخفض شبيه بما كان عليه أصل الجزر اليونانية.

ويشير العالم الفرنسي بإعجاب إلى التوازي الهارموني بين الهلنستي والياباني سواء في البحر أو الجو أو الشواطئ. وعلى أساس هذه الظروف الجغرافية المتشابهة نجد الفنون والثقافات لهذين الشعبين تقدم وجوها شبه جوهرية. ورغم المادة المستخدمة في البناء فإن بعض معابد نارا Nara، مثل معبد كوندو في توشوداي – جي Toshodai-ji يشبه ما عليه الأعمدة الرخامية للبارتينون من جلال. وبالنسبة للجبال الداخلة في البحر فإن التوري-إي tori-i، أي الأبواب الخشبية المنعزلة التي تتقدم المعابد اليابانية، جعلت جروست يفكر في بعض بوائك في المعابد اليونانية، كما أن هناك وجوه شبه فنية ليست شكلية وإنما تقوم على نفس القاعدة الروحية إضافة إلى أنها تتناغم مع بعضها بفضل نوع من الهارمونية الموضوعة سلفا.

كتب جروست "وعلى طرفى نفس القارة وعلى سمات بعيدة في الزمان والمكان، وعلى قطرين سعيدين بخبرتهما في البحر كان هناك شعبان أحبتهما الآلهة، استطاعا إدخال العقل والنظام والنور عبر مفاهيم الفكر الآسيوي التي كانت في أغلب الأحيان غامضة الي حد ما، وقد حولا تلك الثروات الطائلة الي نقود من المعدن اللامع وابتسمت ابتسامة الربة أثينا علي بلاد الأماتيراسو"[1]

---

1 مسيحيو الشرق، المجلد الرابع، اليابان، باريس، ١٩٣٠، ص ٦

ولابد أن الاستناد إلى تلك الفرضيات في التطواف بالإقليم الأكثر كلاسيكية في اليابان، أي بحوض البحر الأبيض المتوسط الخاص بهذا البلد، ثم مواصلة السير على الطريقة الكلاسيكية في الانتقال، أي الإبحار، يؤدي إلى نوع من الإثارة والمشاكل في آن معا.

وحتى تكون التجربة كاملة فإن المسار يبدأ من الصفر، ففي أوزاكا نجد الصباح وضاء لكن السماء أخذت تتلبد بالغيوم عند الوصول إلى كوبي Koby؛ وعندما خرجت السفينة من الميناء وكان الضباب يلفها، وأحيانا ما يكون ذلك بقوة لدرجة أن "السرينة" كانت تعمل بلا توقف معلنة عن مرورنا بأصقاع شديدة الخطورة بسبب كثافة النقل البحري. وعندما كانت تخف حدة الضباب كان يُرى ولو للحظات الشكل العام لجزيرة أواجي Awaji. وعند المرور بالمضيق الكائن بين هذه الجزيرة وجزيرة أوندو Hondo أخذت تظهر الجبال في الميمنة والميسرة؛ كنا بالفعل نبحر في حوض بحر متوسط لكنه كان يشبه أكثر بحر البلطيق أو مضايق fiords النرويجية مقارنة بالبحر المتوسط.

بالغ جروست، وبذلك فإن من قدموا هذه الرؤية الموازية بين اليابان وبين الدول الأسكندنافية في أوربا كانوا أكثر صوابا، فمجموعة الجزر اليابانية ابنة الباسفيكي الذي يلفها بضبابه وعواصفه وأعاصيره. كما أن الأمطار التي تسقط على أغلبها وتصل في العام إلى متر ونصف جعلتها تساوي ما عليه الإقليم الأكثر رطوبة في أوربا الأطلنطية. أضف إلى ذلك أن النباتات الرائعة في اليابان لها ثمن هو سوء الأحوال الجوية مثلما هو الحال في شمال أوربا؛ هناك أيضاً القبطانات الذين يعبرون من الضباب الذي يلفنا كان شكلهم بريطانيا أو أسكندينافيا. دعونا لنصعد إلى غرفة القيادة كلما عنّ لنا ولما كان الضباب يلف كل شيء لم يكن هناك مخرج لتزجية الوقت إلا التأمل في الجوانب النفسية والاجتماعية لهم، فهم جادون وفخورون بالمهنة والمسئولية الواضحة التي لا تتوافق إلا في القليل مع الإحساس بالمسئولية على الطريقة اللاتينية. يرتدون ملابسهم بشكل رقيق، ملتزمون في الأداء، متشائمون بسبب المبالغة في التدقيق في أهدافهم، كانوا يتوقعون أن سوء الأحوال الجوية لن يتغير على مدار الرحلة كما أن المساء لا يأتي بسرعة.

منذ أن كنا في المدرسة كنا نسمع أن اليابانيين هم الألمان أو الإنجليز في الباسفيكي. وحقيقة الأمر هو أن جراثيان Gracian أكد في كتابه "الناقد اللوذعي" Criticón أن الجرأة

أهدت "القلب إلى اليابانيين الذين هم أسبان آسيا" وأن ليس هناك قليل من الكتاب اللاتينيين الذين أشاروا إلى وجوه شبه بين اليابانيين وشعوب كل واحد منهم. إلا أن تلك هي آراء شخصية فيها شطط وبالتالي لم تتحول إلى معتقدات نمطية. فالطقس الذي استمتعنا به في ماتسوشيما وكيوتو، وفي "البحر الداخلي" الآن، يدخل في إطار الطقس المسموح به؛ ويحدث الشيء نفسه بالنسبة لما يتعلق بالتاريخ: من المؤكد أن البرتغاليين والأسبان أوائل الأوروبيين الذين اتصلوا باليابانيين، غير أنه عندما تمكن هؤلاء من الاختيار فضلوا الهولنديين على الأيبيريين، وبعد ذلك، في عصر Meiji، اتجهوا لتقليد الإنجليز والألمان، وبعض الشيء بالنسبة للفرنسيين، ولم يكادوا يسيرون على إيقاع الأوروبيين المتوسطيين تماما.

في شمال أوربا هناك أيضاً بحور متوسطية لعبت دورا مشابها للحوض المتوسطي الكلاسيكي، في تطور ثقافة الدول الأسكنديناقية خلال العصور الوسطى والعصر الحديث. كما أن المشاهد التي لديهم بشرية مفصّلة على مقاس من يسكنها ويبحر فيها. وربما كانت أشكالها الطبيعية أكثر تواؤما مع عقلية الإنسان الحديث، ذلك أنها تستنفر الخيال أكثر من الاعتماد على الحساسية. لا تفرض المشاهد نفسها على البصر بأحجام ثقيلة وبألوان بنفسجية لها فواصل محددة، فكافة الحدود مختلطة ببعضها والألوان تتداخل لتصنع درجات رمادية والأشكال على ما تم التفكير فيها أو تخيلها.

إنه المناخ الملائم للخيال الرومانسي لكنه مناسب أيضاً للتقنية التي تعتبر في نهاية المطاف خيالا محسوبا تحوّل فيما بعد إلى واقع ميكانيكي. إنه الإطار الأكثر ملاءمة بالنسبة للموانئ الكبرى والمراكب التي تعمل بالبخار التي يقومون بتصنيعها عندما يبحرون في الجنوب وسط الضباب الشمالي. هناك الكثير من المراكب التي تمر من حولنا (ذلك أن "البحر الداخلي" هو طريق للاتصال بين المنطقة الصناعية الأهم في اليابان وبين موانئ آسيا واوربا) بثقة وبخفة ورغم أن مداخنها لا يخرج منها دخان نظرا لأنها تعمل بموتورات ديزيل حديثة جدا، كان الضباب يساعد المسافر على تخيل وجود كمية كبيرة من الأبخرة التي تخرج منها، وكأن المسافر أطلق العنان لخياله كطفل أمام ورقة بيضاء.

أحيانا ما تنفذ أشعة الشمس بين فتحات الضباب محدثة ظهور لون قوي على جانبي مركب، وهو لون اصطناعي وغريب في ذلك العالم ذي اللون الرمادي المخفف، وعلى أية

حال فإن كتلها المنتفخة كان يمتصها الجو المحيط، وكانت أعواد الأسل ذات سنابل رمادية اللون في منطقة مخصصة لصيد الأسماك الوفيرة للغاية في "البحر الداخلي"، رغم أن خيوط ضوء الشمس يمكن أن تضرب المشهد بشيء من القوة. وأحيانا ما تكون أشكالها غير الاعتيادية التي تشبه أجنحة الوطاويط شديدة التواؤم مع هذا الفانتازي وعالم الأحلام حيث تمخر المراكب من كل لون وحجم ونوع من السمك عباب المياه بين الأفقين اللذين يمتدان مع مرور الوقت.

لم يتأخر بروفيل جزيرة شودو Shodo في الذوبان في الأفق، وهي واحدة من أهم الجزر في "البحر الداخلي" حيث تبدأ منطقة "الحديقة البحرية الوطنية". كانت شواطئ الجزيرة واضحة للعيان مقارنة بشواطئ أواجي Awaji، كما أن المركب تسير بالقرب من المكان. كانت الألوان الزرقاء والخضراء المضمخة باللون الأشهب. ولا تكاد الأرض التي تضم الأحواض الزراعية تفصح عن لون أقوى، حيث هناك أشجار فوقها لاشك أنها أشجار زيتون. ولأسباب سحرية تتعلق بشجرة مينرفا Minerva أخذ الجو يبدو أكثر صفاء وأخذت تتبدى بقع من الزرقة اللبنية في السماء، وفي الوقت ذاته أخذت المياه تغمر بالكثير من الجزر الصغيرة. كنا في تلك اللحظة ندخل المنطقة الكلاسيكية لحوض المتوسط الياباني كما أن الظروف المناخية أخذت تتواءم مع الصورة النمطية لحوض البحر المتوسط عندنا. وفي الجانب الأيسر، فوق خلفية من السحب ذات اللون الداكن التي تغطي الجزء العلوي يمكن رؤية جبال شيكوكو Shikoku وقد اتسمت بأنها جبال أسطورية.

كان البروفيل الفريد المحدد الملامح والخاص بالجزر التي تتبدى هنا وهناك فوق مياه هادئة وراكدة تحمل زينة هي أشجار الصنوبر، يقطع ويكسر نمطية اللون الرمادي السائد في الجو وفي البحر. إلا أن ذلك الذي هو فيه كان محددا بطريقة غريبة ومختلفة عن ذلك الذي نجده في جزيرة في حوض البحر المتوسط. لا يتعلق الأمر أساسا بنوع من البعد الجيولوجي بل هو متعلق بالنباتات في الأساس، إذ تبدو وكأنها أكثر من مجرد صخور لها أساس قوي تحت سطح البحر تبدو كأنها أصص تحمل تلك النباتات الغريبة، توجد هذه النباتات في كافة الجزر مهما كان سطحها صغيرا لقربها من مستوى سطح البحر؛ لا تعرف كم من الوقت يمكن أن يستغرق هذا المشهد، ذلك أن كان هناك انطباع بأنه عند المد أو أثناء عاصفة شديدة يتمكن البحر من القضاء على هذه الأجزاء من الأرض التي تبدو أنها طافية فوق

المياه وليست ذات أساس في قاع البحر. أو ربما لا تبدو عائمة بل تبدو وكأن هناك يد في الهواء تمسك بها وتحول دون غرقها.

كان الأمر يبدو وكأنه معجزة باقية وتبدو كنموذج ليعظَ البشر متى يُبقون على صمودهم وأملهم عندما يواجهون المواقف الصعبة وخاصة ما يتعلق بمشاعر الحب مثلما نجدها في هذه القصيدة مجهولة المؤلف التي ترجع إلى القرن التاسع.

ولأنه سقطت بذرة،
أمكن أن تولد شجرة صنوبر،
على هذه الصخور الجرداء:
إذا ما كنا أوفياءً لحبنا،
فمن الذي يمنع أن نلتقي[1]

وبعد هنيهة انتصرت الشمس تماما وأصبحت السماء صافية زرقاء لدرجة الملل، وكان يصدر منها شعاع لست أدري هل يمكن نسبته إلى سمات خاصة بها أو بسبب التناقض مع الموقف الناجم عنه الانطباع طوال هذا الصباح؛ وربما كان كل ذلك نوعا من الإعداد حتى يمكن تذوق المشهد الذي كنا نراه بنهم؛ وعند اقتربت السفينة من إيمابوري Imaburi تأكد جمال المشهد بكل أبعاده. هناك اللون البني المعدني والألوان الخضراء القوية لأشجار الأرْز، والبيضاء الخاصة بمحاجر الجرانيت، والزرقاء في الخلجان الصافية، والخبيزية الصافية في الكتل الحجرية لأحواض الزرع والأصفر النحاسي في غصون الاسفندان arces والأصفر المتلألئ في المياه التي كانت تلمع تحت ضوء الشمس الممتد. وبالنسبة للمراكب التي كانت تعبر إلى جوارنا كانت تبدو وكأنها مدهونة للتو، إلا أن ألوانها مهما كانت قوية تتكامل مع الجو المضيء.

من البدهي أنه كان هناك وجه شبه قوي بحوض البحر المتوسط عندنا، ولا يقتصر هذا على ما يتعلق بالبعد الجغرافي بل يشمل أيضاً ما يختص بأنماط الحياة. هناك قرى الصيادين بموانئها الصغيرة والشباك الممتدة تحت ضوء الشمس والملاحات والزراعات في

---

(١) كارل بتيت "الشعر الياباني: مختارات منذ البدايات الأولى وحتى العصر الحاضر"، باريس ١٩٥٩، ص٩٣.

الأحواض والأشجار المثمرة والمنازل المفتوحة والبساطة والثقافة في الوقت نفسه، في الطبيعة التي تعلن عن نفسها من خلال الرمزية الهادئة التي عليها tori-i فوق الصخور. أما الاختلافات التي تراها العين، يمكن أن تكون، كان يمحوها ضوء أثيري متجانس وكامل يبدو جديرا بأن تتضمنه أشعار بندارو أو هولدرلن.

لكن الأمر يتجاوز ما هو شعري ليصل إلى درجة الفهم فهذا الوجود الإنساني، بغض النظر عن غرابة اللغة التي يجري الحديث بها وعن العقلية، يبدو أمراً مفهوما. هناك أنماط حياتهم وكينونتهم وسط الطبيعة وقدرتهم على الإفادة من كنوز الأرض والبحر، كل ذلك يبدو أمرا مألوفا وكأننا نعبر مضيق ميسينا E. de mesina أو ندخل في خليج جزيرة إيبيزا Ibiza. كنا نبحر وكأننا نبحر في "بحرنا"، وبالتالي فإن هناك أساس قوى لما يؤكده الكونت كيسرلنج Keyserling "إن العلاقة التي توجد بين الثقافة الموضوعية والذاتية البشرية، في اليابان هي علاقة ملائمة، ومما لاشك فيه أن على المرء أن يتحول إلى ياباني ليشعر بهذه العلاقة العلوية، لكن في اليابان ليتحول المرء إلى ياباني، فلا توجد روح في العالم قادرة على الاحتضان تحول دون هذا المصير"[1].

وعندما اقتربت السفينة، مع حلول المساء، من شاطئ جزيرة شيكوكو لترسو على رصيف ميناء تاكاهاما Takahama، كان الأمر يبدو وكأننا نقترب من ميناء في بحر إيجه أو في جزر البليار. أخذت تتلألأ أنوار النيون على مداخل بارات الميناء، وأخذ الناس يسارعون في النزول من السفينة وتوجيه التحية للأقرباء والأصدقاء بتلقائية مهذبة تباعد نفسها عن الرسميات وتلغي الحواجز بين الحضارات. ووصل الأمر إلى أن اللغة أصبحت أقل غرابة. فاللغة الجلية ليست أمرا جوهريا في الجو الأسري الذي نشعر به، في حوض البحر الأبيض المتوسط، ويحدث الشيء نفسه على الشواطئ الهسبانية حيث لا تبدو اللغة غريبة.

غير أنه عندما أبحرت السفينة من تاكاهاما Takahama صوب بيبو Beppo، كان المشهد مختلفا للغاية، وليس الأمر لحلول المساء بل للشكل المفاجئ الذي اختفى معه الضوء وبسبب الظلال الغريبة التي ظلت تطفو في الأفق، كانت ظلال الجزر التي تكسوها أشجار

---

(1) "يوميات رحلة فيلسوف" ترجمة - مدريد، ١٩٢٨، الجزء الثاني.

الصنوبر وهي ظلال أخذت تظهر فيها من جديد الألوان الرمادية للصباح لكنها أكثر رمادية وأكثر قوة وكأن الجزر التي كانت تطفو، من الصلب، فوق عنصر مائي يبدو الآن أكثر فحشا بسبب الضوء وأكثر هوائية من السماء. وفي هذا النطاق يتذكر المرء الخلجان fiords النرويجية أكثر من صورة الخلجان الموجودة في البحر الأبيض المتوسط. غير أنه بالنسبة لشمال أوربا كان الشفق طويلا ورفيع المستوى ومسليا بينما نشهد الآن شفقا سريعا ومثيرا للحيرة.

أخذ عالم الصور المتلألئة الذي كنا نتأمله في المساء يغرق في فضاء الليل، كما أن ظلمة الليل، التي أخذت تقترب، كانت تبدو أكثر بعدا عنّا بكثير مقارنة بأية أصقاع أخرى على ظهر الأرض فيها الأشكال الواضحة والبدهية، وكأن هذه في انتظار نوع من الوحي، حيث أخذت تظهر ببطء من قاع غامض ثم عادت لتختفي فيه من جديد ولكن بشكل مفاجئ وكامل.

X- الطبيعة والإنسانية

كل بلد له منتصف نهاره وليس ذلك مجرد تحديد جغرافي بل من حيث أنها لحظة جوهرية في سلسلة التقابلات التي تتضافر في البلد؛ فذلك الجزء القصّي من جبال البرانس في إقليم الباسك يعتبر - من حيث الانطباع عنه - بأنه جنوبي أكثر من الجانب الموجود على الطرف الآخر لأنه يقوم في البلد الذي هو فيه - فرنسا - بدور إقليم الأندلس في بلاد الغال، بينما نجد الجانب الموجود في إقليم الباسك من الجنوب (مجموعة المحافظات) يقوم بالدور المضاد حيث أنه إقليم صناعي كثيف السكان وديناميي ورطب يفكر في العمل أكثر من الاستمتاع بالحياة. يصطدم الرحّالة وهو يتجول في أغلب الدول الأوربية بأوضاع مشابهة للسابقة، ففي Valais يجد أنه جنوبي استنادا نمط الحياة فيه إضافة إلى انه غير معروفة تلك المواصفات الجغرافية مقارنة بلومبارديا Lombardía. هناك جنوب السويد مقارنة بـ ميكلمبورجو Mecklemburgo، وإقليم Sussex مقارنة بنورماندیا.

إننا نواجه هنا حالة قصوى تتمثل في تشرّب بشري للمشهد الطبيعي، فالمجتمعات السياسية في المنطقة الدافئة من كوكب الأرض تدور من الناحية الاجتماعية حول قطبين ينفذان بمفاهيمهما الخاصة في الأقاليم التي يستقر فيها هذا القطب أو ذاك، فكلما تعلق الأمر بالمتعة والدعة والتواؤم الطبيعي للحياة والتراث فإن هذا يميل بثقله إلي المجتمعات السياسية، ويتكثف ذلك حول النصف الجنوبي، أي المناطق الجغرافية، بمعنى الأقاليم المشمسة بشكل أكبر والمريحة في المنطقة الدافئة في النصف الشمالي. بينما نجد أنه عندما يعني الأمر بذل الجهد والتوتر والوعي التأملي والتقنية فإن التوجه هو تكثيف ذلك في قطب شمالي سواء كان ذلك من الناحية الجغرافية أو الاجتماعية. وعلى هذا الأساس فالازدواجية التي نراها في السكان والوسط الملموس تتم في إضفاء الوحدة على الجغرافيا البشرية.

في بيبو Beppo هناك إحساس واضح بأن المرء موجود في جنوب البلاد، وهنا يرد على الذاكرة وضع المدن المتوسطية وخاصة بالرمو. فالفندق اللطيف الذي نقيم فيه، وهو واحد من أحدث الفنادق في اليابان، فندق سوجينوى suginoi، الذي يرتفع حتى منتصف السفح ويطل علي الخليج الممتد والحوض الصغير المكون من منطقة محاطة بالجبال. هناك غابات خلف الفندق تمتد حتى قمة الجبال رغم أنه غالبا ما تكون هناك مساحات خالية تكشف أكثر عن جيولوجيا المكان مقارنة بأصقاع أخرى في اليابان. هناك أشجار أقل، كما أن الحشائش تميل أكثر إلى اللون الأصفر، وفي عمق الوادي يمكن رؤية مجموعات شجرية عديدة بين الرقع العمرانية، لكن القطاعات الأرضية، التي تدخل البحر وتشكل الخليج، تتسم في معظم قطاعاتها بأنها جبلية.

لا يكتشف المرء مداخن أو مصانع أو نشاطا زراعيا مهما. المدينة متوسطة الحجم رغم أن مساكنها مبعثرة للغاية، هناك مبان ضخمة، ومن البدهي أنها فنادق، تخرج عن الرقعة الحضرية لتصبح في أماكن مميزة فوق الهضاب التي تشكل مدرّجا حول المدينة. من البدهي إذن أنه مكان مخصص للراحة والاستمتاع بالطبيعة. وحقيقة الأمر أن بيبو هي المنتجع الرئيسي أو بمعنى أصح مركز المنتجعات في البلاد، حيث يمكن أن نحصى وجود ثمانية من هذا النمط بين المدينة والمناطق المحيطة بها. إلا أن مفهوم "المنتجع" الذي يتوفر عليه الياباني هو مفهوم أكثر تفاؤلا مقارنة بالمفهوم الغربي؛ هناك مياه معدنية termales وفيرة ومتنوعة في بيبو إلا أنها غير مستخدمة، مثل الأوربية، في علاج الأمراض، بل الفائدة منها هنا هي الاستحمام والإفادة من حرارتها والمواد المعدنية التي تحتوي عليها من أجل راحة الجسد والروح لمن يزورونها.

يوجد في كل فندق حمامات من المياه المعدنية، وإليها ينزل المقيمون ويتجهون نحو حمّام السباحة وهم يرتدون الكيمونو Kimonos أو يذهبون إلى الأماكن المخصصة لهذا الغرض، ثم يعودون للصعود في الأسانسيرات ووجوههم محمرّة وناعمة الملمس تعلوها علامات الرضا الحيوية التي تتبدى على وجه الياباني بعد أن يمارس نشاطه في تناول حمّام. أما "الفورو" furo أي حمام المياه الساخنة والبخار الناجم عنها، الذي يدخل في كل جنبات الغرفة الصغيرة والمُحكمة الغلق، يعتبر طقسا حقيقيا بالنسبة للياباني، وهو طقس شائع ويومي وشعبي. لكن في "بوبو" نجد أن هذا الطقس له بعد أكثر عمقا، ذلك أن المياه

تنبع ساخنة من بطن الأرض، ولا تسهم فقط في تنظيف الجسد وتحسين الدورة الدموية واستعادة التوازن النفسي بل للاتصال بالقوى الغامضة للطبيعة.

ننتقل من طبيعة جنوبية تتسم، رغم دعوتها إلى الدعة والراحة، بأنها غير مستقرة بسبب الهزات الأرضية في اليابان وهي نفسها في البحر المتوسط الأوربي. ومن "بيبو" لا تُرى الكتلة البركانية "أسو" Aso التي توجد وسط جزيرة كيوشو الرطبة في بعض مرتفعاتها وكذا البركان الخامد الأكثر ضخامة في العالم والتي عليها يعيش أكثر من ستين ألف نسمة. إلا أن الغليان الداخلي للأرض يظهر في كل مكان في المناطق المحيطة بالمدينة. يحج المستحمون إلى تلك الأماكن التي تنبع فيها المياه الساخنة - وذات درجات حرارة ونوعية مختلفتين. وتفجر ينابيع المياه المعدنية يحدث أيضا في رمال الشواطئ وحتى تتم الإفادة من هذه المياه يلجأ المستحمون إلى دفن أجسادهم في الرمال أملا في الحيوية والطاقة وهم واثقون من بعث جديد للحيوية.

نواصل في القطار الذي يسير بمحاذاة شاطئ "البحر الداخلي" حيث كان الخط في البداية شديد الالتصاق بالشاطئ الذي يتلألأ تحت أشعة شمس منتصف النهار، لكن سرعان ما تترك العين عن يمينها الجزيرة الصغرى كاونيزاكي Kaunisaki لتنفد إلى واد ضيق مأهول ذي عمارة تقليدية لم تُمَس؛ ومن بين المنازل الموجودة على المصاطب المتالية هناك مجموعات من الأشجار الأسفندان، المسماة momiji، تضفي على الأسطح الرمادية المشيدة من نبات البريزو brezo ألوانها الزاهية مختلفة الدرجات، ابتداء من الأصفر وحتى الأحمر القاني الذي يصبح مثل مشهد النيران الحقيقية عندما تتخلله أشعة الشمس، وهي نيران صامتة وحزينة. هناك القليل من تلك الأماكن التي تتجلى في هذا المشهد المثير في البلاد؛ لكن الوادي يأخذ على الفور في الاتساع ويدخل القطار السهل ثم يقترب من الشاطئ من جديد وهو لا يغادر الشاطئ إلا لمسافات قصيرة ويظل على هذا الأمر حتى يصل إلى هيروشيما.

إنها ساعات طويلة ليترك المرء نفسه يتشبع من جديد بصور محددة من الجغرافيا والحياة المتعلقة "بالبحر المتوسط" الياباني. غير أن الانتباه لا يُسلّط عليه أو حتى على الأرض المحيطة به بل على الصلة الحميمة عليهما معا، وإذا ما كان المرء وهو في طريقه إلى

سنادي Senadi يشعر بالبعد اللانهائي للبحر، فإنه هنا يراه صغيرا ومجزّءًا ومأهولا بالجزر وأشباه الجزر. إنه طريق ووسيلة للمواصلات والحياة مثله في هذا مثل اليابسة. تشكل الأرض والبحر عالما معقدا محددا بشكل ثري وشديد الإنسانية. تسترعي المشاهد الأبصار ليس فقط من خلال كونها "إستامبات" جمالية بل من حيث كونها حقول زراعية كما أن رجل الحقل الذي نحمله نائما في داخلنا يبدو وقد استيقظ أمام مطلب أو وسيلة زراعية مهيأة على المقاس البشري.

المشهد في حقيقة الأمر هو عبارة عن حقول الأرز في المقام الأول، وبهذا فإن الحبوب الرئيسية الأكثر شيوعا وهي الأرز والقمح كانت خميرة لكثير من الثقافات شديدة التنوع. هناك الأرض والحيوان والبذْر والحصاد والطعام والفضاء والسماء، وهي كلها شديدة الاختلاف عندما تتم زراعة الأرز وعندما تتم زراعة القمح؛ هذه الغلة الأخيرة يزداد انتشارها كل يوم في اليابان غير أن بنية ملكية الحقول والأراضي والقرى لا تزال هي العنصر الحاسم في تهيئة المناخ للزراعة التقليدية. وتعتبر ديانة الشنتو اليابانية مجموعة من الطقوس المرتبطة بزراعة الأرز.

ظهرت أنماط حياة حول هذا النوع من المزروعات يصعب علينا أن نصل إلى جوهر دلالتها، لكننا نشعر أنها أنماط حياة إنسانية رغم أنها تسير في تيار آخر مختلف عما عليه الحياة في الغرب. لا يبدو أن الأعمال الحقلية قاسية ويمكن الافتراض بأن العودة إلى المنزل القريب لا يصاحبها نَصَب يحول دون الاستمتاع بالأزهار الخريفية التي نراها في الأشجار اليابانية ذات الخضرة الموسمية، وأنها بما هي عليه من مواصفات ودرجات لونية تتسم بجمالها وأنها من صنف آخر غير ذلك الذي يوجد في الغرب ونعرفه، ومع ذلك فهذا الأمر يتحول إلى موضوع محل تساؤلات لدى الرّحالة.

ومما لاشك فيه أننا لا نفهم حقيقة مغزى الصور الشعرية التي أخذت تتصفى على مدار القرون من جراء تأمل ذلك المنظر الرائع - ومهما اجتهدنا لن نبلغ من خلال الترجمات الوصول إلى هذا الإيقاع الحميم الودود الذي تعبر عنه تلك الصور، وهو رعشة أكثر رقة مقارنة بما عليه الحال في الشعر الغربي كما أنه عنصر دائم في الأدب الياباني منذ خطواته

الأولى المتلعثمة في بداية عصورنا الوسطى، عندما لم تتوقف أية نظرة غربية من أجل تأمل أوراق شجر أو منحنى صخر والتعبير عن الإعجاب بها.

هناك قصيدة ترجع إلى القرن التاسع تعبر من خلال هذه الطريقة الشديدة الرقي عن علاقة الحنين التي يكنها أحد الملاك لشجرته البعيدة المزهرة:

لا تتخلي عن الفوح بعبيرك
المعطر، يا زهرة الكمثرى،
وتطلقينه في موجات رياح الشرف
رغم أن مالكك غير موجود
لا تنسي الربيع[1]

هناك قصيدة أخرى ترجع أيضا إلى القرن التاسع وهي عينة شعرية مثيرة للهوس الياباني بالأشجار والمزهرة:

في هذه الأماكن القصيّة
اضطررت لقضاء الليلة،
عندما سقطت زهور
الكرز أصابتني بالذهول
وجعلتني أنسى طريقي إلى المنزل[2]

هناك إمعان في "المانيرسم" Manierista في هذه القصائد وفي كثير غيرها، لكنه "مانيريسم" يقوم على معايشة شخصية أو جماعية، كانت عملية الإزهار في الشجر والنباتات مدرسة للتربية الفنية في متناول الجميع والتي يتم الحضور إليها بانتظام شديد، وفي اليابان نجد أن المسافة الزمنية الفاصلة بين إزهار وآخر ليست كالتي في أوربا نظرا لما عليه الحدائق، من حالة أكثر طبيعية وتلقائية بشكل ظاهري. فمن الحديقة الرائعة والتي تغطي

---

(١) سوجاوارا نوميتشيزاني، Vid، كارل بيتيت، العمل المشار إليه، ص١٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص٩٣.

بعناية كبيرة على الزهور العادية هناك سلسلة متدرجة من الدرجات ولكن ليست ذات طابع استمراري، الأمر الذي تترتب عليه نتائج مهمة سواء على الجانب الجمالي أم الاجتماعي؛ فكل زهرة تتفتح في إصيص من البامبو تعتبر حبل وصل بالطبيعة الحيوية والوافرة المتواجدة في الحقول. ومن جانب آخر نجد أن حياة هذا الشعب مرتبطة بهذا الشكل بهذا التنوع الذي عليه الطبيعة. يترك الناس المدن بشكل جماعي في شهر فبراير ليعبروا عن إعجابهم بأزهار شجر البرقوق وفي أبريل يخرجون للغرض نفسه ولكن بالنسبة لأزهار الكرز، وفي مارس، في بداياته زهور الأزاليس Azaleas وزهور الوستاريا glicina وزهور اللوتس أثناء الصيف، وفي نوفمبر زهور الكريسنتيم Crisantemos وأوراق الأسفندان arce. ورغم ما قد تكون عليه الحياة الاجتماعية في البلاد من التزام وصراحة فإنها تتجلى وقد تخللتها الروائح العطرة الجميلة.

ولنلاحظ أسماء الأشخاص المشتقة في أغلبها من التضاريس الطبيعية، فإنه أثناء الطقوس الدينية نجد أن هذه الأسماء عبارة عن تقدمات ثمار الأرض، وفي مسميات الجماعات الاجتماعية وفي الرموز والتروس الخاصة بالنبلاء. وبالنسبة للحياة الغربية في هذا الشأن الأخير نجد أن أغلبها مشتق منذ العصور الإمبراطورية القديمة من الحياة الحيوانية وخاصة الحيوانات المفترسة. لكن الأمر بالنسبة للنبلاء اليابانيين هو على العكس من ذلك تماما. فهي نباتية بشكل خاص. وليس الشيء نفسه أن يرى المرء رمز السلطة العليا في شكل صقر أو أسد يزأر أو أن يراها في صورة زهرة الكريسنتيم ذات الستة عشرة بتلة، التي هي رمز الميكادو Mikado.

كانت رموز الأسر الكبرى التي مارست السلطة الفعلية في اليابان على مدى ألف عام عبارة عن زهور، فهاهم آل الفوجي وارا Fujiwara، أي غصن نبات الوستاريا، وها هم آل ميناموتو حيث رمزهم ثلاثة زهور من الجنثيانا Ginciana فوق ثلاث أوراق من البامبو، وآل أشيكاجا Ashikaga حيث رمزهم زهرة البولونيا Paulonia. وبالنسبة لآل توكوجاوا فإنهم كانوا يخففون من نظام حكمهم البوليسي الصارم بثلاث ورقات من الناردين البري asaro، حيث تُرَى في دائرة ضمن شعارهم.

كان للساموراي زهرتهم الخاصة وهي زهرة شجر الكرز، ولا يعني هذا أن الحياة اليابانية كانت أقل صرامة أو أقل قسوة مقارنة بالحياة في الغرب بل إنها في أقصى أشكالها القاسية كان يصل إليها أريج الزهور والنباتات، كما أن العلامة التي تبرق التي توجد في السيف الذي يحمله الأشداء من الساموراي تتسم بأنها صافية صفاء معجزا مثل البتلات.

وفي أيامنا هذه نجد أن الماكينة البيروقراطية للإمبراطورية اليابانية لا زالت تُعنى برمزية الزهور ابتداء من الهيئات العليا بها، فمنذ شهور قليلة كانت الصحف تزف في أنحاء العالم خبرا رسميا صدر عن القصر وهو أن الإمبراطور هيروهيتو كان سوف ينشر في عيد ميلاده الحادي والستين مجلدا كبيرا مصورا من ٤٢٨ صفحة مخصصا لدراسة حياة الزهور، وهذه الصور هي من قبل الإمبراطورة نجاكو. كان ذلك هو الكتاب الرابع الذي كتبه الإمبراطور، ومن المنظور الخاص بالقانون السياسي العميق، الذي يذهب إلى ما هو أبعد من الإجراءات القانونية الشكلية فإن هذا النشر الذي أعلن عنه بكل مظاهر الرسمية كانت له أهمية عظيمة، فهناك الكثير من الناس الذين أثلج هذا الحدث صدورهم عندما رأوا أنه أمام التقليل من الصلاحيات الدستورية المخولة للإمبراطور يتجلى نوع من إعادة الأحياء لشخصه من خلال طريق النباتات الغير قابل للهجوم عليه.

هذا التأثير الآتي من الطبيعة واضح الملامح في الأوساط الثقافية، وفي هذا المقام يمكن ذكر تجربة محددة للغاية تحمل في طياتها شهادة مقنعة. كان ذلك أثناء عشاء أكاديمي مع أساتذة "جامعة كيوتو الإمبراطورية" وكان على رأس هذا الحفل رئيس الجامعة، الطبيب ذو الحسّ الفكاهي والشديد الحيوية والشهرة. فالحوار الذي اتسم في بداياته بالنمط البرتوكولي طبقا للاحتفالية وبناء على المشاكل المتعلقة باللغات أخذ يتجه نحو تبادل، محل ثقة، للأفكار والمشاعر. وأخذت الضحكات والإيماءات والنظرات تكاد تحل محل الكلمات أو أنها أخذت تصبح ذات مغزى خاص عندما انتشرت في ذلك الجو الودي.

كان جوا شديد الطابع اللاتيني والجنوبي، وهذا أمر أقل احتمالية للوقوع في عشاء أكاديمي في شمال أوربا. فالقفشات والتنويهات الساخنة والمعاملة الشخصية وروح الصداقة التي نراها بين الحضور كان يجب أن تبدو مفاجئة بالنسبة لمن يطبق على اليابان الأصول والقواعد النفسية والاجتماعية السائدة في أوربا. وأثناء المحادثات السريعة كثيرا ما يتم

التخلي عن اللغات الغربية وذلك لمزيد من الدقة والتحديد من خلال اللغة المحلية؛ غير أنه في أغلب الأحوال كان هناك من يقوم بترجمة التراكيب ذات الدلالة المزدوجة في اللغة اليابانية إلى عبارات مفهومة. وكان رئيس الجامعة هو صاحب أكثر هذه العبارات وصاحب ترجمتها، في جو مرح وخفيف الظل من خلال نظراته المؤثرة بوجه أحد العاملين. لم يكن الأمر عبارة عن افتراض، فرئيس الجامعة كان يتباهى المرة تلو الأخرى بتلقائية يتصورها أحد في اجتماع غربي، بينما يداعب كأس Saké، بأصوله الريفية ويتحدث عن ذكريات شبابه في القرية مسقط رأسه ويفصح عن رغبته في الانسحاب من الحياة المهنية ليعيش في قريته.

وعلى هذا كان طابع الريف الياباني ينتقل إلى عقر دار أعرق المؤسسات الثقافية في اليابان وكان يخلق جوا من الإنسانية الودودة والاتصال الخفيف الروح. لم يكن شيئا استثنائيا بل كان تتويجا. ففي الصباح كنا زرنا، بصحبة اثنين من الزملاء، حدائق "المدينة الأمبريالية الشوجاكوين Shugakuin"، وكنا بدأنا نتحدث عن تجارب متشابهة، وأمام هذه الأشجار الجميلة الواقعة على حافة البحيرات كان للكلمات، رغم المطر، شفافية أكثر مما كانت عليه في مكان مغلق. ويصل الأمر إلى أنه لم تكن هناك حاجة إليها، فالصمت كاف.

وبعد تأمل سفح جبل مليء بالزهور الرائعة للأشجار الخريفية والمهيأة بشكل يجعل من حجمها ولونها عبارة عن سيمفونية لونية كانت النظرات المتبادلة وكان الناس يشعرون بأنهم أقرب إلى بعضهم وكأنهم عبارة عن اثنين مهووسين بالموسيقى انتهيا للتو من سماع سيمفونية جرى عزفها بشكل جيد أو ربما كانا عبارة عن اثنين من المؤمنين اللذين انتهيا للتو من سماع مقطوعة "آلام المسيح" لباخ في إحدى الكاتدرائيات القوطية.

XI- الميتولوجيا في جزيرة مياجيما

في كتاب صدر حديث للأب الدومنيكاني/ إم. إتش. ليلونج M.H.Lelong بعنوان "الحياة الروحية في اليابان Spiritualito du Japan، هناك إلحاح أنه لكي يتم فهم هذه الحياة الروحية لابد من الإطلاع على تاريخ اليونان وخاصة الجانب الديني منها. يسير الكتاب على إيقاع كتب أخرى صدرت في هذا السياق لكن له سمتان هما: تركيز بؤرة المشكلة على الحياة الدينية، وإبراز جوانب الشبه ليس انطلاقا من أحد المصطلحات والمقارنة بينها بل من خلال مصطلح ثالث، ومنه يتم اكتشاف وجوه الشبه التي تقوم على تقابلات عامة. كما أن وجهة النظر المسيحية التي يصدر عنها الأب ليلونج تساعده على رصد أوجه الشبه بين المفاهيم الدينية الهلنستية واليابانية. غير أنه ليس الوحيد في استخدام هذا المنظور.

ويصر الأب ليلونح على أنه من الضروري الانطلاق من أن الكريتونيس Kreittones الهلنستي وكذا ديانة الكامي kami الشنتو اليابانية تنتسبان إلى منظومة الظواهر الدينية نفسها، إذ أنه بغض النظر عن أن المصطلح اليوناني والحروف اليابانية يعبران عن فكرة التفوق والعلوية فالنتائج الأساسية التي يمكن استخلاصها في هذه الحالة وتلك تبدى وكأنها قابلة لتدخل في دائرة تبادلية كاملة " إذا كان الإنسان معاديا لجميع ألوان القطبية ولكل أشكال التوليف الدينية فإنه يتساءل عما إذا كان يجب أن يقرأ باليابانية أو اليونانية عبارة " كل شيئ يزخر بالآلهة " . علي أن كلمة الآلهة لا تفي بالتأكيد لا المبدأ المتسامي ولا حتي الشخصي "[1].

---

(١) الحياة الروحية في اليابان، باريس ١٩٦١، ص١٥.

وفي إطار عرض أفكاره يقوم الأب الدومنيكي بالاعتماد على حجج رجل آخر من جماعته الدينية نفسها، وهو الأب فستوجيري P. Festugiére، إذ بمناسبة وجبة حقلية تغنى بها تيوكريت Teocrito، استدعى جو الهجر والمتعة من حيث هو "وقفة في إطار الجهد القوي، الذي يراه أفلاطون على أنه أمر جوهري في أية احتفالية دينية". يعتبر الأب ليلونج أنه من غير الممكن العثور على مصطلحات مناسبة للغاية بالنسبة لمهرجانات ماتسوري Matsuri بمناسبة الاحتفالات بالكرز Sakura وأطباق الموميجي Momiji عندما تزهر أشجار الكرز أو عندما تحمّر بعد ذلك أوراق الأسفندان. هناك "الزيز Cigarras ذات اللون القاتم" و"نقيق ضفدعة الغابات" التي أوردها الشاعر الرعوي، واحتفى بها باشو Basho الشاعر الغنائي الشهير خلال القرن السابع عشر، من خلال هاي-كاي أي النمطية الشعرية التقليدية في اليابان. "الماء المقدس الذي يشرب قرب مذبح المتريس له نفس مذاق الماء الذى يجري في نهر إيزيه.."

لن تنفد أبدا عملية العثور على صور مماثلة ومتشابهة مع الماضي الإغريقي في التاريخ الياباني، وهذا ما يؤكده الأنصار المتحمسون لمثل هذه التشابهات. هناك مثل يتعلق بأوربيدس عندما ترك أثينا من أجل عزلة مقدونيا، وكذلك حالة إيون Ion الذي تنازل عن كونه ابنا لملك أثينا ليقوم بدور الخادم في معبد دلفوس، حيث توجد مواقف متماثلة في سير الكثير من المشاهير اليابانيين الذين فضلوا حياة البساطة على المجد والفخار، وتحولوا إلى أباطرة من رجال الدين وليس نتيجة ضربة ثورية بل لجاذبية البساطة.

هذا الميل إلى البساطة، الذي يعتبر أمراً جوهريا في الحياة اليابانية، والذي يتم التعبير عنه من خلال الجمع بين صفتين، بحيث يتم نطقه seihin (النهايات السعيدة)، هو الموتور الكبير Leitmotiv الذي يظهر بشكل ملح على صفحات المتحمسين من الآباء الدومنيكان. تتغذى النهايات السعيدة Seihin على الحدس الجمالي المحض بالطبيعة وتتقابل مع البعثرة للأشكال الأنانية والنفعية التي تدهورت إليها البساطة الهلنستية المسيحية الأصيلة للعالم الغربي" إن الإحساس بالطبيعة الباعثة علي السكينة والتي أصبحت بعد أن تعرضت عندنا لخسوف علماني شأنا أدبيا أكثر من حياة الشعب الحقيقية، هو طريق للبعث والإحياء، وهذا الإحساس يمثل في اليابان تنفس البلاد وثقافتها[1].

---

(١) المصدر نفسه ص١٦.

ولنكرر مرة أخرى قائلين إن هذا الأمر عبارة عن شعور حميم يرتبط، في نظر المعلقين المشار إليهم بما اكتشفناه في التدّين الإغريقي. ويكشف لنا أفلاطون عن الراحة والعادة في الراحة العذبة في أحضان الطبيعة حيث يتواجد الآلهة في كل مكان، فكل مكان مليء بالآلهة الذين يدعوننا أن نهدأ في معيّتهم، ولهذا يمكن للقديس بابلون أن يقول في استهلال خطبته أمام الملأ قائلا "أيها الأثينيون، أرى أنكم أكثر الناس تدينا". ويمكن توجيه هذا الخطاب بشكل أكبر إلى اليابانيين، ذلك أنه مما لاشك فيه أنهم يذهبون إلى أقصى حد في الطريق الهلنستي من حيث الرؤية المتعددة والمباشرة لما هو إلهي، فالمبجل Kami ليس أكثر من قطرة أكثر تركيزا بعض الشيء من ذلك العنصر الإلهي الذي يتخلل الطبيعة بالكامل.

من البدهي أن مصطلح kami يعبر عن إلهام ديني أكثر انتشارا لكنه أقل تكثيفا دينيا مقارنة بآلهة الميتولوجيا القديمة، فتعدد الآلهة اليابانيين أكثر غموضا، إذ يوجد أكثر قربا من الأشكال المحددة، التي يتم الإحساس بها عن طريق الحدس، في الطبيعة مقارنة بما هو هومبري، ولا يلاحظ فيها التوجه نحو استخلاص القوى الإلهية في صورة آلهة يقومون فيما بينهم بتقاسم الأقاليم الكبرى في الطبيعة والوجود الإنساني في إطار هذا التوجه المثالي المحدد في خطوط عامة بالنسبة لكافة أنحاء العالم الهلنستي. وفي هذا السياق كتب دبليو. إف. أوتو[1]: "أينما كانت مبجلة الأفكار الروحية اليونانية لا يمكن نسيان أن كلا من زيوس وأبوللو وأثينا وأرتميسا وديونيسيوس وافروديت . . . كانت هي الأفكار الكبرى في هذا المقام، وهي ،بشكل ما، نواة باقي الأفكار، وأنها ستستمر على هذا النحو طالما أن الروح الأوربية التي وجدت فيها موضوعيتها الشديدة الدلالة لم تكن تخضع للروح الشرقية أو لنوعية نفعية من التبرير العقلاني".

يسير عالم الميتولوجيا الألماني الكبير وراء رؤية شديدة الاستخفاف بالشرق والاحتقار له، وهي رؤية تبسيطية للتوجه الذي عليه الإنسانيات ذات الطابع الكلاسيكي الذي كان يشعر بتقاطع المعجزة اليونانية مع الخلفية المظلمة والموحدة في آسيا. من الضروري أمام هذا الاطراد في النسق بذل الجهد للتمييز بين الأعضاء الشديدي التنوع من

(1) Die Götter Griechenlands. Das Bild des Göttlichen in Spiegel de griechischen, Frankfurt a.M. 1947, pag17.

الذين يشكلون جزءًا من هذه الكتلة التي جرى جمعها في مسمى عام هو الشرق. ومن خلال هذا الطريق سوف يتم اكتشاف الجانب الآخر من القارة الأوربية الآسيوية وتقييمه، وتحديدا في الشرق الأقصى، حيث هناك ميتولوجيا شعب يعيش في جغرافية شبيهة باليونانية كما أنه تتجلى فيه وجوه شبه مثيرة بما هو هلنستي.

لكنها ليست كثيرة مثلما يقول بذلك بعض الكتاب الذين أشرنا إليهم، وهنا من الضروري توخي الحذر ليس فقط بشأن توجه مغرق في الحصرية والإعجاب بالتوجه الذي عليه الإنسانيات في حوض البحر المتوسط وإنما أيضاً أمام حالة وعي تبدو مناقضة لكنها في حقيقة الأمر رؤية مشوهة للشيء نفسه والتي هي عبارة عن اكتشاف معجزات من توجهاتنا الإنسانية الكلاسيكية في أقاليم بعيدة عنا في هذا الكون. وفي هذا المقام يمكن أن يكون الرحّالة وكذلك المتخصص قد لاحظا وجوه شبه مفاجئة بين العقلية الجمالية الدينية في اليابان وفي اليونان القديمة، غير أنه في الوقت الذي يتم فيه الحرص على الإبقاء على هذا الجسر الذي يفترض وجوده من جراء هذا التشابه لفهم مجموعة من الظواهر شديدة البعد جغرافيا وتاريخيا، من المهم كبح جماح الرغبة التلقائية في الاستفادة منه إلى أقصى حد في باب إلحاق مفاهيم وقيم على الواقع الغريب، قادمة من التراث الكلاسيكي الغربي، بدلا من تسهيل عملية فهم الظواهر الغريبة، وبذلك يسهم في تشويه أو طمس المعنى الحقيق لتلك الظواهر.

هذه التعددية الشنتوية Sintoista التي كان مسموحا بها أو مقبولة من قبل البوذية اليابانية هي أمر ذو طبيعة أكثر ديمقراطية، ويمكن القول في هذا المقام بأنها أدنى أقلية وأكثر تشكلا من اليونانية. غير أنها تفتقر إلى البعد الشكلاني والنظري الذي تولى تشكيل مجمع الأولمب وانتهى به الأمر من خلال التوجه الديني إلى المنظومات الفلسفية السابقة على سقراط ثم يعود للتجلي مرة أخرى من خلال المدارس الكبرى في آخر مرحلة من مراحل العصر القديم. ظلت الميتولوجيا اليونانية دائما في حالة فطرية ingenuidad شعورية وخيالية دون أن تعمد إلى التشكيل النظري أو الأخلاقي.

وهذه هي - بشكل كبير في العالم الهلنستي - نتيجة التقابلات بين مختلف طبقات الاعتقاد؛ ونذهب إلى أكثر من هذا بالقول إلى أنه لو لم تكن هناك هذه الطبقات المتنوعة في

عالم مفتوح على كافة التأثيرات وهو العالم الياباني فإنه لا يلاحظ فيه هذا التقابل الجدلي الذي أفرزته المأساة الأتيكية في العالم اليوناني بأشكالها الفريدة في باب الوعي الأخلاقي والديني وكذا في ظهور فكر نظري وأساليب فنية كبرى. التوجه الديني الياباني هو توجه حدسي أكثر، وأكثر طبيعية وبساطة، مقارنة باليوناني، وبالتالي رسا بشكل أكبر على مرفأ الجمالية، وهي جمالية بالمعنى الأصيل - اليوناني في حقيقة الأمر - للمصطلح، الذي جدده كانط، بمعنى من حيث أنه إحساس وانخراط أمين في عالم الطبيعة الخارجية.

وعلى هذا الأمر تتبدى لنا الثقافة اليونانية على أنها ثقافة جمالية بدرجة كبيرة، وهي نوع من الجمالية لا يتم التعبير عنها في صورة سلسلة من الدرجات والأساليب مثلما هو الحال بالنسبة للأشكال البسيطة اليومية وليس فقط من خلال الآثار الكبرى والمعابد والقصور، بل من خلال الأدوات الأكثر بساطة والعدد الأكثر نفعية في تناغم كامل بين المادة والشكل والوظيفة. ولا يقتصر الأمر على الأشياء بل يشمل تصرفات الإنسان وإشاراتهم وطرائقهم. كتب ليلونج[1].

لا يوجد مكان آخر أكثر ملاءمة لإدراك تلك السمة الجوهرية للحياة اليابانية إلا جزيرة مياجيما التي تقع في "البحر الداخلي"، وهي ذات اسم جميل يعني "جزيرة المعبد" ذلك أنها تضم أحد أشهر المعابد في البلاد وهو معبد إيتسوكو شيما Itsukushima - الذي حاز شهرة في مختلف أنحاء العالم بفضل فيلم "راشمون Rashomon".

كانت الليلة السابقة التي قضاها المرء في فندق ياباني يقع في مواجهة الجزيرة ولا يفصل عنها إلا مضيق صغير، بمثابة عملية تهيئة جيدة لزيارة المعبد الشهير، كما أن المركب التي تقودنا إليها، على شكل تنين ولها ذيل منتصب وجوانبها كأنها من حشف لامع. وفجأة أخذ يتجلى العقد "Tori-i" (العقد الياباني التقليدي) وأخذ يكبر ويتلألأ على صفحة المياه الصباحية الشديدة الهدوء كلما اقترب المركب من المكان، رغم أنه تركه جانبا بعد دوراته حتى يرسو على المرفأ المجاور. العقد المذكور إذن هو عقد معبد إيتسوكو شيما لكن لم يتم تصميمه ليكون باب دخول من يحجون إلى المكان، مثلما يحدث في معابد يابانية أخرى، بل هو باب دخول الذات الإلهية نفسها، بمعنى البحر الذي يتم التعبد له في المذبح

---

[1] العمل السابق، ص٢٧.

الرئيسي للمعبد في شكل ثلاثة آلهة أنثوية حاميات البحّارين، وهن إيكيشيما Ichikishima وتاجوري Tagori وتاجستو Tagistu .

وكان من الأمور المعتادة في ديانة الشنتو sintoista أن تكون أشكال هذه الإلهات الثلاثة غير واضحة المعالم؛ إذن فهي تزيد قليلا على مجرد المسميات. الأمر المهم في جزيرة مياجيما ليس مقر المعبد أو المذبح الموجود داخله في العمق مع ما به من رموز بسيطة للإله بل لوجود منصات ذات أذرع تخرج من الجسم الرئيسي للمعبد المقدس وتمتد فوق البحر في محاولة دائمة، وغير راضية، لعناقه. والأمر هو أن المياه التي تدخل عبر العقد المذكور، "التوري " tori-i، أو تدور حول قواعده الخشبية الحمراء الصلبة، تنزلق إلى أسفل المباني الخشبية التي تقوم على دعامات ضخمة من المادة نفسها، ثم تنسحب بدقة وتنضم إلى النظام السائد في البحار. وعلى هذا فإن المعبد مكرس وغير مكرّس على مدى مرتين في اليوم ويحدث ذلك بإيقاع غاية في الطبيعية.

في مصر، حيث كانت تحظى مياه النيل بتقدير ديني كبير، كانت المعابد تتعرض للغرق خلال موسم الفيضان مقدمة بذلك مشهدا مشابها للبعد الديني للطبيعة. ومن الأمور ذات الدلالة في هذا المقام أن المعبد الذي ظل في حالة جيدة للغاية ووصل إلينا، معبد إدفو، نجا من قسوة الطقس والإنسان حيث غطاه طمي النيل. إلا أن إيقاع القدسية وتدنيس مياهه كان يفتقر إلى البعد الحيوي والطيب الذي عليه المدّ في حالة جزيرة مياجيما، وذلك لأن "البحر الداخلي" الياباني يتعرض من خلال عدة قنوات لهذا الاختلال المتكرر في التوازن في المحيط الذي يلف المكان، رغم صغر مساحته.

ورغم أن اليونانيين اعتادوا بناء معابد البوسيدون poseidón على الشاطئ، نظرا لقلة حركة المياه في البحر المتوسط، لم يكونوا يحظون بالإيقاع الحي للقدسية التي تقدمها البحار، أضف إلى ذلك أن المستوى الكبير لدرجة الشبه بين البشر والآلهة اليونانية يجعلها مستقلة بدرجة جيدة عن القطاع الخاص بالطبيعة. فها هو شكل "البوسيدون" كاملا وله سماته التقليدية: ها هو الرمح الثلاثي الشعب الذي يحمله الصياد، وها هي العربة التي تجرها الخيول التي كانت منذ القدم رمزا للمياه ثم أصبحت، من المنظور الواقعي، رمزا للأمواج. لم يكن في حاجة ليرطب جسده بالمياه والأمواج ليؤكد ذاته كإله البحر، إذ كان

بكفي وجود قوته الروحية potencia luminosa التي تم التعبير عنها في شكل جمالي ديني محض يتجلى على الواقع الفعلي للبحر.

غير أن الأمر يختلف في حالة من يحج من اليابانيين إلى هذا المكان، معبد إتسوكوشيما، فالبطل ليس ذلك الرمز المجرد وغير المحدد الذي يختبئ في ظلمة المعبد؛ فهذا الأخير مشيد من أجله، ولهذا أتى إلى هذا المكان وليس إلى مكان آخر، غير أنه عندما انحنى ورعا أمام المذبح قام بتربيتة ذات طابع طقسي ووضع صدقته، ثم يعود الياباني المؤمن ويخرج من المعبد ويسير في هدوء منحنيا على سياج البرنده ليتأمل ولو جزءاً من البحر. إنه يشعر بالتحرّر من جراء وجود المعبد نفسه، فالمياه التي تصعد وتنزل بإيقاع يومي من خلال بوابة العقد الكبير، ثم تتناثر تحت الإنشاءات ليست مثل باقي المياه التي تقوم بوظيفتها في باقي أنحاء البلاد، ذلك أن الجمال الطقسي للعقد الكبير يضفي عليها نبلا، ويجعلها مقدسة، أو بمعنى أصح يتمكن من أن يستخرج من أحشائها قدسيتها الجمالية ويعكسها من جديد في عملية عبادة للذات auto-adoración على صفحته النظيفة.

ومن يدخل الجزيرة ويسير في جنباتها التي تغرقها النباتات يخرج بالانطباع نفسه، فمفهوم الحوريات البحرية وحوريات الغابات وأشباه آلهة الحقول fauno . . . الخ، من تلك الصور التي يمكن أن يحملها الرحّالة الغربي في ذهنه، يتوارى أو يفقد نمطيته الكلاسيكية وملامحه المحددة الشبيهة بالآلهة، ثم تتناغم مع الأشكال المحددة لأشجار السفندان arce المُحمّرة – حيث أن كل واحدة تتميز عن الأخرى بدرجة لون أوراقها – وكذا الانحناء الذي لا تخطؤه العين في كل شجرة صنوبر، والمسطحات الخشنة لصخورها حيث تتساقط شلالات المياه عندما تمطر، إلا أنها الآن مغطاة بالطحالب ذات الألوان المتنوعة، والأمر أنه يوجد في اليابان هذا الصنف من النباتات الصغيرة ذات الألوان المتنوعة ومختلفة الدرجات.

أشجار السفندان، momiji، لا تكتسي باللون الذهبي أو المائل إلى الحمرة لتصبح متسقة مع الأغصان مثلما يحدث في الأشجار التي تنبت على الأرض الأوربية. فكل غصن وكل ورقة لها سماتها الخاصة من حيث اللون الذي يتناغم مع الورقة المجاورة حيث تتكون بذلك سيمفونية ألوان من أوراق الشجر. وبالنسبة لأشعة الشمس التي تخترق هذه الأوراق

تبدو وكأنها تتخلل زجاجا قوطيا متعدد الألوان، وبعد ذلك تقوم بصهر كافة الألوان ثم تعكسها على الأرض المتعددة الألوان وعلى وجوه المارّة الذين استوعبهم الجو الأسطوري. ولما كنا غربيين كنا نسأل بعذوبة وعلى طريقتنا العقلانية والمنطقية في التفكير، عن القوى الخفية وعن العقلية المنظمة التي يجب أن يُنسب إليها هذا المشهد. فأي بستاني، شديد الحساسية والمعرفة، تمكن من تنظيم المشهد المكون من الأشجار والصخور والحشائش والطحالب والضوء والظلال والصمت بهذا الشكل الكامل؟

هذه أسئلة لا يوجهها المشاهد الياباني، وفي الوقت الذي لا يستطيع الأوربي أن ينساها فإنه لا ينجح في الاستمتاع بالمشهد الذي تقدمه الطبيعة اليابانية أمام ناظريه. من الضروري إلغاء هذا التوجه الذي نحن عليه، وهو التوجه العقلاني والممنهج الذي عليه المشاهد الغربي، وأن ننفتح على المتعة المحضة بالأشياء في حد ذاتها وبحيويتها الداخلية والغامضة لكنها صافية حتى عندما تتجلى في صورة عمل بشري، وهي محصلة سنوات طويلة من التعلم. وطبقا لما كان يؤكده الكونت كيسرلنج "هذا الكمال الذي لا مثيل له في طريقة تنظيم الزهور في اليابان يرجع إلى أن روح الزهور نفسها هي التي تربط الباقات"[1].

وهناك روح الجبل - وليست روح طبيعة في شكلها المطلق - التي تتكون منها السفوح بتنوعها وترتيب نباتاتها. إنها السكك الحديدية المعلقة funiculas التي تحملنا ونحن معلقون، في الهواء في كابينة مربوطة بسلك، الأمر الذي يسمح لنا بأن نستمتع بشكل هادئ بالتناغم أثناء فصل الخريف. وكلما زاد الارتفاع كلما ازداد المشهد ضخامة ولكن دون أن يفقد المرء المشاهد الأولى عندما يسافر بالظاهرة، ومهما كبر حجم البانوراما هناك في الأسفل الأشجار القريبة بألوانها المحددة وعلى مسافة ملائمة لإمتاع البصر؛ وبعيدا بعض الشيء وعلى مدار عدة دقائق، ومن خلال فتحة أكبر بين عمودين من أعمدة القطار المعلق يقترب المشهد من جديد حتى أن القارب الصغير يأخذ مكانه.

هناك طريق قصير يؤدي إلى مرصد الرؤية حيث منه نكتشف جزءًا كبيرا من "البحر الداخلي". وهناك العديد من الجزر تتبدى للناظرين بأشكالها الجذابة وجوانبها المحددة وكثرة ما بها من نباتات. ونحو الشرق، أي على سطح المياه التي تفصل بينها، هناك لوحة

---

(١) العمل المذكور سلفا، الجزء الثاني، ص١٤٢.

ضخمة للغاية من الذهب تعمى البصر؛ إنه مشهد يستجلب الأنشودة أو النشيد ويذكرنا ببحر إيجه وجمالياته الفريدة، أي أن "أرخبيل هولدرين"، لا مناص من تذكره في هذه اللحظة. تختفي الاختلافات بين البحر المتوسط هنا وهناك وبين الميتولوجيا في الجانبين بفعل قوة الشمس التي تعطي البعد الكوني والجغرافي القوي في هذا المشهد".

وعلى بعد كيلومترات قليلة في العمق نجد خليج هيروشيما ومنازل المدينة الشهيرة مرئية للعيان. كما نتأثر أيضاً بذكرى ذلك الانفجار الذي وقع للشمس الأخرى التي قام البشر بتصنيعها، وهو انفجار مخيف للغاية بالمقارنة بالذي يلفنا الآن. نتذكر أيضاً المأساة التي افتتحت عصرا جديدا يرنو إلى المستقبل وليس فقط بسبب قرب المشهد الذي وقع فيه الانفجار وإنما بسبب اليقين بأنه لم يكن ممكنا اختيار مكان آخر ليتم فيه انفجار آخر أكثر منه جمالا على ظهر الأرض.

XII- معبد الغابة

إذا ما أمعنا البحث في مخزون الذاكرة لنكتشف ما هي الصورة التي حُفرت بعمق وكانت أكثر تمثيلا لليابان فليس هناك أدنى شك فيها، إنها الصورة المطبوعة والقوية التي تتكرر على طول البلاد وعرضها وتتجلى في صورة مشتركة للغابات والمعابد.

لا يمكن الفصل بين المصطلحين، فالأمر ليس وجود شيئين بل وجود شيء واحد مقدم بطريقة مزدوجة، فعندما نقول غابة في اليابان فهذا يعني المعبد. وبعد أيام قليلة من الترحال عبر هذا البلد اعتاد البصر كثيرا على رؤية معبد إلى جوار مجموعة من أشجار الصنوبر أو السرو أو الأرْز حيث لا يكاد يُبذل أي جهد لاكتشافه، ذلك أن وجوده أمر شديد البداهة. ليس شيئا مضافا، فالمعبد مرتبط بالغابة أو الغابة الصغيرة أكثر مما هو عليه المعبد الكلاسيكي أو المصلى الروماني الذي عادة ما يوجد إلى جوارها. فمن ناحية نجد أن الغابة في اليابان أكثر انتشارا مقارنة ببلادنا في العالم الغربي، ولهذا السبب نفسه ونظرا للنضرة غير العادية التي عليها الغابة اليابانية وخاصة الصنوبريات criptomerias، التي عادة ما تكون رفيقة للمعابد، هناك حيوية طبيعية أعلى من تلك التي يمكن أن نكتشفها في غاباتنا الأوربية ذات الأشجار المتوسطية أو الأطلنطية؛ أضف إلى ذلك أن المعبد نفسه مشيد من الأشجار وهو بذلك استمرار مباشر للغابة التي توجد دائما في محيطه حامية له ومساندة.

تعتبر عمارة الخشب في اليابان أمرا استثنائيا في التاريخ العالمي للفن ويشمل هذا كافة الأنحاء بما في ذلك مصر وآشور Asiria واليونان وروما والهند والإسلام في المغربOccidente على مدار مراحل تطوره الأسلوبي، فكانت العمارة فنا يتمثل في إقامة المباني الحجرية، وكان من الممكن، في العصور البدائية، في أقاليم نائية ومليئة

بالغابات أن تشيد مباني من الخشب، لكن عندما كانت تسنح الظروف الاقتصادية والفنية المناسبة تتم إقامة المعابد بالحجارة، إلا أن هناك استثناءً كاملا وهو اليابان حيث ظل توجهها مستمرا على مدار القرون سواء تعلق الأمر بالعمارة المدنية أو الدينية، ابتداء من دور العبادة البدائية وحتى تلك التي قامت الجماعات الدينية الحديثة أو الديانات الحديثة، مثل ديانة تنريكيو Tenrikyo ببنائها. هناك أسباب مختلفة يجب أن توضع في الحسبان لتفسير ظاهرة غير عادية وممتدة على مدار قرون: الأمر هو الهزات الزلزالية وكثرة الأخشاب الممتازة والميول الفنية والاجتماعية. إضافةً إلى ما سبق، من الضروري الإشارة إلى أسباب أكثر راديكالية ترتبط بالمفاهيم الدينية الخاصة بالبعد الديني للغابة اليابانية، وهو أمر ملموس أيضاً بالنسبة لعيون الغرباء.

وإذا ما كان الكامي Kami قطرة مكثفة من السائل الإلهي ،الذي يعم الطبيعة بالكامل، فإن المعبد الياباني هو عبارة عن ملاحظة معمارية أكثر تكثيفا وأكبر قوة في هذا المقام الواسع المقدس الذي هو الغابة اليابانية. ولا يشمل الأمر حالة دور العبادة الشنتو، بدءًا بأكثرها تفرّدا، وهو معبد إيزي Ise المحاط بالأشجار السامقة الجديرة بتأملها بل يشمل أيضاً تلك المعابد والأديرة البوذية الخاصة بكافة الطوائف وكافة العصور. وحقيقة الأمر هو أننا يمكن أن نرى الكثير من المعابد والأديرة في اليابان دون أن تكون هناك غابة في المنطقة المجاورة مباشرة، لكن سرعان ما يتولد الإحساس بأن ذلك استثناء أو أنه أمر سيئ.

ولهذا لا يمكن أن تتكون لدينا فكرة كاملة عن العمارة في اليابان من خلال الرسوم أو الصور الفوتوغرافية، فالعمارة تحتاج دائما أشياء أكثر من الفنون الأخرى، أي المناخ العام والتجربة الحيوية، غير أن هذا يتسم بأنه ضروري للغاية في الحالة اليابانية مقارنة بأية حالة أخرى. فالعناصر الطبيعية لا تقدم فقط المناخ العام ولا تقتصر على كونها إطارا يتم من خلاله تنفيذ الشكل المعماري بل هي من مكوناته، وهي ليست مجرد مكونات هامشية بل مكونات أصيلة تلعب دورا جوهريا.

في بداية الأمر يشعر المشاهد الغربي بالأشجار على أنها عائق أو أنها كائنات تلقائية تجاوزت حدودها وانتشرت وانزلقت بشكل ملفت في الإطار الطقسي للمشهد. هذا هو الانطباع الذي يتولد عند صعود السلالم المؤدية إلى معبد نيكو Nikko واكتشاف أن

الأشجار لم تقتصر على أن تكون ستارة ضخمة في المشهد الذي ترتفع في داخله المباني محل الذكر بل وصل الأمر بها إلى الدخول في المشهد نفسه ونمت بقوة في الفسحات المقدسة إلى جوار الأبواب الخشبية المتناثرة المنحوتة والمدهونة. وتزداد المفاجأة بوجود الأشجار الكبرى عندما نرى أن مقاييس البناء ومعالجته اللونية وصلت إلى درجة باروّكية غير مسبوقة الأمر الذي يتناقض مع حالة "الروستيك" التي عليها الأشجار. غير أنه بعد بعض الوقت ينتهي الأمر بالزائر إلى اكتشاف أن ذلك التناقض يحمل في طياته توازنا ويقدم درسا.

وفي إطار هذا الاختيال المثير المتعالي، حيث تتجلى مقابر أوائل الشوجونس أمام الجمهور، تعلن الأشجار مبدأ الارتباط الطبيعي والتقليدي للعمارة اليابانية.

وعلى أية حال فإن زيارة "نيكو"، بغض النظر عن القيمة الفنية لمعابدها ومقابرها، هي عند الأيبيري أمر ضروري لكثافة النباتات وخاصة تلك التي تنمو في سفوح الجبل المقدس بسبب وفرة المياه هناك، وفي هذا المقام كتب الروائي الأسباني بلاسكو إيبانيث أفضل صفحاته عن اليابان التي تضمنها كتابه "**كاتب روائي يطوف حول العالم**" كانت تلك المخصصة لأشجار بيكّو: "يسير المرء في المدقّات الطبيعية تحت ضوء يميل إلى الخضرة مثلما هو الحال في التجوال في أعماق البحار، وتشكل الأغصان قبة وأحيانا ما يمكن للمرء أن يرى قبة السماء وكأنه يتأملها وهو في أعماق أحد الآبار"[١].

كان بلاسكو إيبانيث من المتتبعين الدائمين لما هو غريب وملفت للانتباه، وبالتالي اهتم في الأساس بطريق الصنوبريات criptomerias المزروعة عند مخرج نيكوّ على يد ساموراي خلال القرن الثامن عشر[٢]. "نسير في طريق ممتد بين صفين من المسلات النباتية المعتمة تكاد تتلامس فيما بينها، وهو ممر يعود إلى ثلاثة قرون وبالتالي ازداد امتدادا، وفوق رؤوسنا نرى الجذور المتعرجة لأشجار الأرز العملاقة، أما الجذع الحقيقي فإنه يبدأ في الأعلى. ورغم ضخامة هذه الأشجار المقدسة فإنها تهتز عند حدوث أية تغيرات مناخية حتى ولو كانت بسيطة. . . . هذا المشهد المهيب الذي عليه هذه الأشجار المقدسة التي تمتد

---

(١) برشلونة، ١٩٥٧م، ص١٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٨.

صفوفها أربعين كيلومترا صعودا إلى الهضاب وهبوطا إلى الوديان حتى يتوه المرء في اللانهائي، إنما هي أمر غير عادي يمكن أن نقول عنه إنه فريد في نوعه".

غير أن هذه العظمة ارتجالية وشديدة الهندسية وتفتقر إلى الجلال الذي عليه المعبد. فهناك تبدو الأشجار كأنها مسلات أي أساطين ضخمة في هذا الفضاء المقدس، وهنا يكفي قطع قممها ووضع بعض الجذوع بالعرض، عندئذ يتكون المقرّ المعماري. كما أن الطبيعة، من خلال أعاصيرها، تتكفل بتنفيذ العملية إذ تقتلع بعض الأشجار وذلك لتوفر على الرهبان الكثير من الجهد في الحصول على الأغصان لاستخدامها في البناء، وكان هذا يحدث في الدير الشهير المسمى إنرياكوجي enryakuoji الذي أقيم فوق جبل هيي Hiei، القريب من كيوتو، حيث هناك شجرة أرزْ ضخمة سقطت بسبب الأعصار قبل أسابيع قليلة على زيارتنا وتعرض أحد أبواب المعبد للتهشم؛ كانت تبدو أكثر من شجرة أي تبدو كأنها عمود ملقي على الأرض لكنها بعقدها المتصلة ببعضها سليمة وفي انتظار أن تتم إقامتها في المعبد. أو أن نرى ذلك في إيزيي Ise حيث تولى الإعصار أيضاً بإحداث دمار بإخلاء المناطق المحيطة بالأشجار التي قاومت قوة الإعصار وكذلك الأمر بالنسبة لما حول المعابد، غير أن الأمر في مثل هذه الحالة كانت الأخشاب تتبدى للناظر جديدة ومتلألئة (هنا نقول أن معابد Iso يتم إعادة بنائها بالكامل كل عشرين عاما) مما عليه الأشجار التي سقطت، حيث تبدو أنها تأخذ مكانها في المباني المقدسة.

هناك أسباب مختلفة تكمن وراء التجديد الدوري لمعابد إيزيي Ise نظرا لتداخل المعتقدات الدينية القائمة منذ فترة مبكرة في البلاد. فمن ناحية يجب أن نضع في الحسبان المرحلية الزمنية لذكرى المتوفين من البوذيين خلال العام الأول والثالث والسابع والسابع عشر والثالث والعشرين. . . الخ ابتداء من تاريخ الوفاة؛ ومن جانب آخر هناك كيان معبد الشنتو "مي - يا" (أي المكرّم أو البيت المقدس) والإدراك بأنه بعد عشرين عاما يجب أن تحدث هنَاك حالة وفاة. وفي هذا المقام نجد أن مفهوم الموت عند الشنتو يعرض المكان المقدس للتدنيس وبالتالي يصبح من الضروري أن تكون هناك عملية تطهير راديكالية تتمثل في إعادة بناء المبنى فوق أرضية مجاورة في المكان نفسه، وعلى هذا يصبح خاليا كل عشرين عاما ويكون مغطى على مدى هذه الفترة بغطاء أبيض ويمنع منعا باتا أن تطأه قدم.

لكن المشاهد البسيط الذي يرى معابد إيزيي Ise بخشبها الأملس والطازج والذي لا غبار عليه أبدا في وسط الغابة الغناء لا يسعه إلا أن يفكر في أنه تستكن وراء الأسباب المشار إليها أسباب أخرى أكثر بساطة وشديدة البدهية من خلال المشهد الذي يتم تأمله. إن عملية إعادة بناء معبد لا تعني فقط عملية تطهير المعبد القديم من خلال إلغاء رقعته بل إعادة الحيوية له أيضاً بحيث يتم إدخال حيوية الغابة مرة أخرى في المادة التي منها جرى تشييد المعبد والتي أخذ يتنابها الضعف والزوال مع مرور السنين. وعلى هذا فإن المعبد يستعيد قدسيته السابقة بتجديده الغابي.

هناك الشجرة حاضرة أيضاً كبطل على مسرح NO العمل الإبداعي الأعلى خلال العصور الوسطى اليابانية بمدلوله الشبيه بالمسرحيات الدينية ذات الفصل الواحد عندنا autosacramental. فالمسرح بكامله، أي بأرضيته وحوامله وسقفه وخلفيته وكذا الدهليز الطويل الذي تسير فيه الشخصيات بشكل طقسي بطيء، كلها مشيدة من الخشب، أضف إلى ذلك أن المشاهد عندما ينظر أمامه (يمكن له أيضاً أن يحضر المسرحية جانبيا) يمكن له أن يشهد الحائط الخلفي المصنوع من الخشب النبيل (كاجامي - إيتا)، أي من الصنوبر، وقد رسمت عليه شجرة الحياة، وعلى الجانبين هناك رمز الحياة الحيوية والسعادة وهو البامبو[(١)].

تُعتبر الشجرة عنصرا جوهريا في الرسم الياباني بأنواعه المختلفة، وعلى الشاكلة نفسها طريقة معالجتها الأمر الذي ساعد على التمييز بين مدرستين مهمتين للغاية في هذا المقام هما مدرسة توسا Tosa ومدرسة كانو Kano، يقوم إن. تسودا، في كتابه ideals of Japanese painting[(٢)]. بتحليل جوهر المدرستين في ضوء التحليل الذي يتم بالنسبة لشجرة واحدة هي الصنوبر: "إن مدرسة كانو التي ازدهرت في ظل سلالة المحاربين كانت تميل إلى تمثيل الصنوبر على أنه تعبير عن الحيوية القوية، أما مدرسة نوسا التي كانت تعكس ما يفضله نبلاء القصر والشعب، فقد جعلت من الشجرة نفسها رمزا للرقي والسخاء".

---

(١) هرنان بوهنر، No. Einführung، طوكيو، ١٩٥٩، ص١٠٢.

(٢) من خلال فوسكو خوسكو مارايانى "اليابان" ترجمة- باريس ١٩٥٩م، ص٣٤٦.

هذه الرابطة القوية بين الغابة والأثر لا تقتصر على المباني اليابانية التقليدية التي تنتشر في أنحاء البلاد بل تتجلى، وبشكل حاسم، في تلك التحولات التي تُفرض على الأشكال المعمارية ذات الأصول الغريبة، ومن أمثلة ذلك المعبد أو الهيكل. إذن فإن نمط المبنى الأكثر تمثيلا لليابان هو بكل المعايير عبارة عن شجرة معمارية، ولا يقتصر بناؤه فقط على استخدام الخشب بل هو عبارة عن تركيب شجرة اصطناعية ضخمة، حيث يوجد العمود أو الصاري الضخم في وسطها وهو صار مرن وطيّع مع هجمات الأعاصير وكأننا وسط الغابة.

وهذا، من المنظور الشكلي والمادي، شديد البعد عن النمط البدائي البوذي في الهند؛ وبالنسبة لمفهوم القبة السماوية وجبل العالم الذي هو ملحوظ من الناحية المعمارية، في عمارة سانشي Sanchi، نجده يتقلص إلى أقصى حد في اليابان بينما يتطور العمود الأوسط mástil أو الصاري –yasti- إلى أقصى درجة تتجاوز هيمنة القبة من خلال المستويات الدائرية أو ما يسمى chatras التي ترمز إلى devalokas أو سماوات الآلهة المختلفة. تطورت هذه الدوائر بشكل كبير في اليابان وتحولت إلى أهم شيء في المبنى أي في مختلف طوابق المعابد التي تمتد في الهواء وكأنها أغصان أشجار الصنوبر.

ولا تتجلى البنية الإنشائية الشجرية في مجملها في المعابد فقط بل تمتد إلى مبان أخرى، فالعمارة اليابانية هي في جوهرها عمارة أسطح حيث يمكن توسيعها في شكل كتل عائمة لها منحنيات تأتي عفو الخاطر ولا تؤثر على الأعمدة الحاملة، وغير الكافية من المنظور المعماري الغربي لتحمل هذه الحمولة الثقيلة. غير أن الانطباع بعدم الكفاية هذا مصدره أن العمارة الغربية تقوم منذ العصر اليوناني على مفهوم الشجرة كعنصر ميت. وكان المعبد الدوري عملية تجسد، من خلال الرخام، في معبد مشيد من جذوع من الخشب حيث نجد عارضة الارتكاز على الأعمدة arquitrabe وباقي العناصر العلوية للبناء كانت عبارة عن كتل ثقيلة من الخشب المتسق من حيث الكتلة، وكذا مع قانون الجاذبية الخاص بالعوارض. العكس من ذلك نجده في العمارة اليابانية ذلك أن المبدأ الجوهري هو أن السقف وباقي عوارض الارتكاز غير متسقة فيما بينها وبالتالي نتحدث عن قوانين الكثافة والجاذبية.

هذا التنوع لا يعني انعدام الوحدة المعمارية بل مضمونها العضوي والحي وليس المضمون الميت. وهذا تحديدا مغزى العمارة الشجرية، حيث الأوراق الكبيرة أكثر خفة من الجذع ويبدو أنها تطفو في الهواء، غير أنها يتم إدخالها تدريجيا في بدن العمود الذي يحملها.

وانطلاقا من هذا من الضروري بمكان تأمل العمارة الدينية في اليابان التي تأخذ الغابة كإطار لها. وعندما نتأمل المعبد الياباني، سواء الشنتو أو البوذي، بشكل منعزل، نجده شديد البساطة وشديد النفعية كما أنه يفتقد للطموح؛ غير أنه في إطاره الغابي نجد أن الخطوط الأفقية والمعنى الخاص بالطفو والاستقرار للكتلة المعمارية تزداد عظمة بكتلة الأوراق، كما تتقابل معها كنوع من النقيض الخطوط الرأسية للجذوع الواقفة؛ لا تتوقف النظرة عند العمل الذي أقامته يد الإنسان بل تنطلق منه إلى الغابة المحيطة وتنزلق إلى داخلها ثم تعود إلى المعبد وتراه على أنه مركز تكثيف لسائل إلهي طبيعي.

إذن نجد أن المعبد الياباني يتضمن معنى متواضعا للعمارة، فهو عمل غير كامل ويفتقر إلى الاستقلال بنفسه مثل أي عمل فني، لكن تكمن العظمة في بساطته. كما تكتشف هنا أيضاً سبب استمراريته على مدار القرون وكذا حالة اليقين الغريزية التي حالت دون ارتكاب أخطاء وبعض السقطات. في الصين، نجد أن معبدا أو قصرا يراد له أن يكون فاخرا مثلما عليه الحال في نيكوّ - هذا ما يلاحظه أحد المتخصصين المشهورين في هذه المادة[1] - يمكن أن يقام على مكان اصطناعي مربع من خلال حوائط عالية وأرضية من الرخام ومعه السقف (السماء). وفي نيكوّ نجد مقر الأضرحة والمعابد محاط بكتل من الشجر التي تلفه في إطار ظل عميق حيث يغرق التعدد في ألوان المباني دون أن يكون هناك أي صدى. وعموما فإن التأثير الذي يحدثه هذا الأثر الياباني الأخير مختلف للغاية، مع ما به من عناصر باروّكية، عن تلك الأنماط البدائية والبسيطة للغاية لمصليات إيزيي Ise.

---

(1) روبرت ثريت بين وألكسندر سوبر: "الفن والعمارة في اليابان". سلسلة بليكان - تاريخ الفن، لندن، ص٢٧٤.

XIII- الخشب والحجر

الاستيقاظ في منزل ياباني يعني انتقالا هادئا بشكل أكبر، بين النوم واليقظة، عما هو في الغرب. إنه باب آخر موارب، وأكثر بساطة ذلك الذي يعود بكم مرة أخرى إلى عالم اليقظة. نمتم على الأرض، ورغم أن المرتبة سميكة بما فيه الكفاية ومرنة حتى لا تعاني الأكتاف من القرب من الأرضية الشديدة الحساسية من خلال المراتب القليلة العادية رغم نعومة الحصير، وهنا سرعان ما تدركون بعد النظرات الأولى حولكم أنكم من البسطاء الموجودين في الغرفة ولستم ذلك السيد المبجل الذي يحاول أن يكونه الأوربي حتى وهو في المخدع. ولابد أن المشارقة يشعرون بهذا الشعور بالتميز الذي عليه الحياة الأوربية هو عندما يزورون تلك القصور البارّوك أو ذات الطراز الكلاسيكي الجديد حيث أن المخادع تحولت إلى عروش تتوجها تيجان من أعلى، ومنها تنزل ستائر تذهب بالوضع الإنساني البسيط إلى درجة كبيرة من الهوس.

أن ينام الياباني، هو أمر أكثر بساطة وارتجالا مقارنة بالأوربي، فليس هناك أثاث لذلك اللهم إلا بعض الأدوات المتواضعة التي يجرى حفظها في الدولاب، والتي يتم فردها على أرضية الغرفة التي يقضي فيها المرء نهاره وذلك قبل دقائق من خلوده إلى النوم. المخدة هي الشيء الوحيد القوي المسموح به في النوم بالنسبة للعادات اليابانية وهي مخدة من خشب حدثنا عنها كثيرا بيير لوتي في رواياته وهي أداة تستخدمها النساء حتى تضعن فوقها رؤوسهن من أجل الحفاظ على تسريحة الشعر التي كلفت الكثير. غير أن العادات الحديثة أسهمت في مواراة استخدام هذه الأداة الوحيدة الصلبة كجزء من المخدع المرتجل للياباني، وما بقي يتسم بالليونة والقابلية للحركة ماعدا الأرضية.

ولاشك أن الحديث حول درجة الشبه بين النوم والموت يتسم بأنه حقيقي في اليابان أكثر منه في قارتنا بمبعد عن التعقيدات الفنية والأخلاقية. فأغلب اليابانيين ينامون ليس فقط على مستوى الأرضية بل يذهبون إلى ما هو أكثر بالنوم تحت مستوى الأرض ذلك أن هناك عدة سنتيمترات عادة بين مستوى الأرضية في الغرفة وبين مستوى الأرض؛ وبالنسبة للحصير المصنوع من قش الأرز ذي الرائحة الناعمة فإنه يتم تغييره كل فترة للاستمتاع بطزاجته ويجعل النوم الريفي هادئا مصحوبا أيضاً بتلك الروائح الصادرة عن الأخشاب ذات الأريج مثل خشب السرو. وبالنسبة للياباني النائم فإن جسده يخرج من نطاق الحضارة ليدخل أكثر إلى بطن الأرض الأم مقارنة بالأوربي؛ أو أن الحضارة التي يعيش فيها ذاك، استنادا إلى أنها تعتمد على قاعدة طبيعية أكبر، يسمح بأن يكون النوم مجرد حدث بسيط وبالتالي الاستيقاظ كذلك.

وعموما، فإن الفجر يتكفل بالدخول عبر النوافذ الورقية الواسعة التي تسمح بنفاذ ضوء غير واضح الملامح وحفيف يشبه ذلك الضوء الذي يدخل عبر ألواح الألباستر التي كانت موجودة في نوافذ الكنائس خلال بدايات العصور الوسطى، والتي عادة ما يتم وضعها (أي هذه الألواح من الألباستر) عند القيام بترميمها. أو ربما يكون من الأفضل الحديث عن الضوء الذي ينفذ من خلال الأهداب المغمضة. وعلى هذا يستيقظ النائم شيئاً فشيئا دون أن يدري، وليس من خلال تربيتة غير ناعمة بل بفضل انتشار خيوط الضوء في مقلة العين شيئا فشيئا وإعدادها تدريجيا للاستمتاع بالنور. يبدأ الياباني يومه بهذه الطريقة ابتداء من أول لحظة، فالفجر عنده أمر مهم في الحياة الفعلية والحياة الأدبية وهو أكثر في هذا مقارنة بالغربي الذي يميل إلى الاستمتاع أكثر بالشفق في المساء وليس في الصباح.

وعند النظر إلى شخصيات "قصة جنجي"، بما في ذلك مغامراتهم، فهم من المؤمنين بالفجر، حيث نجد تحليلات مفصلة في الكتاب؛ فالشفق الصباحي في عمل مورازكي ليس مجرد بداية لليوم بل هو أول فصل من فصول اليوم ومضمونه ونهايته الحزينة، ذلك أن وفرة الضوء تقتل كل شيء في صباح يتسم بحساسيته وتفرّده.

ها هو وصف لذيذ لإشراقة الصباح تتعلق بشخصية مهمة في الأجزاء الأخيرة من الرواية؛ إنها شخصية كاورو Kaoru الذي ربّاه جنجي وأنه أصبح ابنه: "كان الصباح

يبدأ وها هي زهرات الحديقة واحدة واحدة تبدأ في البروز وسط الضباب بعد أن كانت مجرد أشياء رمادية اللون؛ بينما كانت تتجلى بعض البراعم، شاحبة، من الإيبوميا Ipomeas التي تزهر في غضون ساعة ثم تذبل؛ وتشغل هذه الزهور مكانة خاصة في مخيلة البطل Kaoru الذي يشغله دائما المعنى الدائم لما عليه الحياة من عدم اليقين، أغلق النوافذ بالشيش الخشبي وعاد إلى الاستلقاء ثم نام بعض الوقت، وعندما استيقظ كان الوقت نهارا وذبلت زهور الإيبوميا وتهاوت. كان كاورو الشخص الوحيد الذي شهد تفتحها"[1].

أخذ الضوء ينتشر في الغرفة بشكل بطئ ومتجانس دون أن يصطدم بالستائر أو الأثاث أو المرايا المعلقة في الحائط ووصل بشكل مباشر إلى الخشب السميك الطبيعي (رغم أنه ناعم بشكل جيد)، أو أنه وصل إلى الخشب الأكثر بياضا لكنه أيضا ناعم وعضوي، وكأنه شرائح من جلد مدبوغ، في الأبواب المنزلقة المغطاة بورق سميك، أو أنه وصل إلى الأجزاء الأخرى من الغرفة المغطاة أيضا بهذه المادة. ويشمل ذلك أيضا أنه عندما تكون الحوائط مشيدة من الأرض الجافة، التي تقدم بشكل طبيعي ولكنِ دون بروز للسمات العضوية.

وأثناء النهار وعند السير بخشونة مثل التي عليها الغربي الذي يتجول في المنزل بخطوات واسعة وهو ينتعل الحذاء الذي يسير به في الشارع يواتي المرء الشعور بضيق الغرفة. الأمر هنا يتجاوز مجرد الانطباع، فالاصطدام المتكرر بالعتب العلوي للأبواب يؤكد بشكل مؤلم للغاية أن أبعاد الغرفة لا تتناغم مع مقاسات جسمك، لكن عندما تُرى الغرفة بينما الرأس مستندة على المخدة تبدو وكأنها ذات مساحة كبيرة ومتوازنة. هي عبارة عن فراغ دافئ وطبيعي ومنتظم هندسيا رغم أن المسطحات ليست تجريدية أو مثيرة للملل. يلاحظ أيضاً نوع من اللعب العشوائي بمواد البناء المركبة ببعضها بشكل دقيق وتسير على هوى النجّار أكثر من السير على هوى من يقوم بوضع الديكور المنزلي.

وهنا نجد أنه إذا ما كانت الغرف اليابانية لا تضم أثاثا فليس مردّ ذلك غيبة التفكير فيه بل لأنه يطبق على الغرفة بالكامل من يحث أن كل جزء فيها معالج بدقة شديدة. وهنا

---

(1) لبدي مورازاكي. العمل المشار إليه، ص٩١٢.

نجد أن أحد الخبراء في هذا المقام وهو المهندس المعماري بدونو توت B. Tout[1]. كتب يقول "إن مفهوم الأثاث بالنسبة لغرفة غربية هو بالنسبة للغرفة اليابانية عبارة عن بنية من الحوائط وتشطيبها بشكل غاية في الدقة". كما يتبدى السقف وقد خرج من بين يدي نجار ماهر لدرجة أن من يستيقظ يتولد لديه الشعور بأنه ليس في غرفة بل في نوع من الخزانة المشغولة.

هناك أشرطة مشغولة بعناية تقوم بتقسيم السقف إلى مستطيلات، كما أن حوافها ليست حادة بالنسبة للنظرة الموجهة إليها من قبل من استيقظ للنوم لأنها حواف غير حادة. كما أن الأشرطة كلها ليست على شاكلة واحدة، فتلك التي تتوجه نحو الدهليز الخارجي تتسم بأنها أعرض وتبرز على تلك التي تتقاطع معها رأسيا. أضف إلى ذلك أنها لا تسير على الشاكلة نفسها ذلك أن السقف، قبل وصوله إلى الحائط الخارجي، يميل بدرجة خفيفة نحوه. كما أن المسطحات الورقية الشفافة بعض الشيء تتخللها الأشرطة وليس ذلك بسبب القوائم الخشبية المشدودة إليها بل من خلال تلاقي أجزائها المختلفة التي تعكس نحو الداخل ببعض أشرطة الظلال الخفيفة التي تلقي بها القوائم.

وفي عمق الغرفة، هناك كمَرَة ملتصقة بالجدار تعكس بقوة الدور التركيبي الذي تلعبه. هناك كمرة أخرى، ربما بدون تشطيب، تبدو وقد زال لحاؤها لكن عقدها بارزة كأنها جروح لم تلتئم تضفي على داخل الغرفة الموضوع الحيّ للشجرة، رغم أن كافة المواد المستخدمة في تشييد الغرفة تبدو وكأنها معالجة على أساس أنها شيء حي وليس فاقدا للروح. من الممكن أيضاً أن تتضمن بعض النوافذ المستديرة الموجودة في القطاع الخارجي بعض أعواد البامبو لتقوم بدور الشبكة الحديدية وتنوه داخل الغرفة بقرب الحديقة، بينما نجد أعلى إحدى الحوائط رسما رقيقا ذا منحنيات يميل إلى مدرسة الروكوكو بشكل أو بآخر حيث يتبدى كأنه المقابل للذوق الروستيك.

غير أن الطابع "الروستيك" في اليابان يتسم بأنه رفيع بدرجة جيدة ولو كان ذلك يتعلق على الأقل بتلك المنطقة التي تحيط بالمنزل على شكل حديقة. الطبيعة الغناء في الغابة موضوعة في مكانها بالمقاس والدرجة، رغم أن المقاس والدرجة يعملان داخل النباتات

---

(١) "المنزل والناس في اليابان"، طوكيو، ١٩٥٨م، ص٢١٠.

نفسها، بشكل متسق ومتزن دون أن يفرضا نظامهما الخارجي. المخطط والتنظيم الثقافي للخطوط والمسطحات الأحجام والعلاقات القائمة بين كافة هذه العناصر هو من سمات الحديقة الإيطالية والفرنسية من حيث أن ذلك واقع رئيسي. ومهما كانت درجة مواءمة الطبيعة فإنها لا تقوم هناك إلا بدور الزينة، فالزهرة وحدها يمكن أن تظهر في الأماكن المخصصة لها، أي في الأصص والمتنزهات، أما الحجارة فهي في المدقّات، وشجر الحور في الأسيجة وفي الحدائق وفي الشوارع. ويرى إف. مارايني F. Maraini[1] "أنها زينة من الطراز الأول، فهنا يفرض الإنسان قانونه على مادة ترفض هذا القانون، وهو يفعل هنا ما هو في مصلحته: أي فكرة. وبالنسبة للحديقة الشرقية يمكن القول بأن الزخرف يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فهو زخرف من الدرجة الثانية ذلك أن الطبيعة يمكن أن تمكّن نفسها وقد هزمت بشكل مزدوج؛ ففي المرة الأولى هي خضوعها للإنسان والثانية أنها لم تحظ بالموافقة على أن تعبر عن ذلك".

هذا حقيقي، لكن هذه الهزيمة المزدوجة هي هزيمة ثلاثية الأبعاد، فالبستاني لم يتمكن من التوصل إلى ذلك إلا من خلال ثقوب وإذعانه للقوانين الخفية للحياة النباتية وذلك حتى يوقف تلك العناصر التي تساعد شجرة ما على أن تنمو دون حاجة إلى تقليمها بعنف. كما أن المياه الموجودة في البحيرات غير موزعة بشكل هندسي على الحشائش بل تبدى كأنها أصابع بين الحجارة والحشائش، وهذا يعني تدخلا سافرا من قبل البستاني مقارنة بدرجة تدخله في حالة piece d'eau، لكنها نتاج عمل بستاني يتسم بالحساسية الشديدة لدرجة تجعله يغوص في أعماق الطبيعة حيث تدخل كافة عناصرها بشكل صامت وحميم وهي الصخرة والنبات والمياه والسماء التي تنعكس على صفحتها. وها هي الطبيعة بالكامل بكل مكوناتها ومقوماتها تعزف بين جنبات الحوائط، وكأنها آلة موسيقية، في حديقة يابانية، الأمر الذي يبدو أكثر طبيعية وأكثر إنسانية وأكثر حميمية domestico من أي حديقة أوربية.

يقوم عنصر نباتي بوظيفة حاسمة في هذا المقام، إنه البامبو، الهبة الكريمة التي قدمتها الأرض اليابانية، والمادة الملائمة للعقلية الفنية لهذا الشعب. البامبو ليس شجرة بالمعنى

---

(١) العمل السابق، ص٣٣٣.

النباتي للمصطلح بل هو نوع من الحشائش التي تنمو ويبلغ طولها طول شجرة في غضون عدة شهور. أطراف النبات مرنة للغاية لدرجة يمكن معها أكلها، لكن بوصفها المرن يمكن أن يكون شديد القوة مع مرور الزمن. واستخدام البامبو في حديقة يابانية يفصح عن خيال خصب وشديد الاحترام لما حوله وهو خيال غير مسبوق بالكامل بالنسبة للأوربي ذلك أن هذا النبات غير معروف في أوربا ولا يوجد نبات آخر يحل محله.

هناك وضع خاص للأسياج والخوازيق المكونة من البوص بالكامل أو أجزاء من البامبو والمرتبطة ببعضها البعض بطرائق شديدة التنوع وألوان مختلفة ترتبط بعمر النبات ونوعه، هذه كلها تقدم صورة تسرّ الناظرين. كما تفعل ذلك الأرضيات في الدهاليز التي تربط بين المنزل والحديقة حيث هي عادة مصنعة من قطع قوية من بوص البامبو، كما أن الأسقف أحيانا ما تكون مشكلة من البوص الصغير أو الرافدة Viga الكبرى التي ربما تخترق غرفة، ومن بين أدوات الحدائق هناك السلالم والأصص والقصاع والحوامل الثلاثية والأنابيب والتعريشات والشبكات الروستيك . . . . الخ. ليس من المبالغة القول بأن الاستخدامات الشديدة التنوع للبامبو في المنازل والحدائق اليابانية تشكل في نظر الغربي أمر مذهلا كما أنها مصدر لا ينضب معينه لعناصر جمالية بسيطة مرضية، تقوم بدور جوهري في رسم الصورة العامة والفريدة للمشهد الياباني، والأمر هو أنها تشكل رابطة الاتحاد بين الطبيعة والحديقة، وبين الحديقة والمنزل، وبين المباني والعُدَد وبين الخُص والقصر.

لكن كلمة قصر تتسم بأنها ذات طابع إشكالي جدا في إطار عمارة تستخدم الخشب بشكل شبه حصري كمادة بناء، وهو توجه أقل مواءمة مع البذخ والفخار الذي عليه الكتلة الحجرية والرخام والجص . . . الخ. ومن حقائق الأمور هي أن أبدان الأعمدة fustes التي تقدمها غابات البلاد ساعدت على إقامة مباني واسعة مثل القصر الإمبراطوري في طوكيو ومعبد توداي-جي Today-ji في نارا Nara الذي يضم التمثال الضخم لبوذا. ومن الأمور الحقيقية أيضاً أن أضرحة "الشوجونس" توكو جاوا في نيكو، مشيدة بأبعاد مرتفعة وملونة بشكل كبير؛ لكن ليس أقل من ذلك ما هو في هذه الحالة وتلك حيث هناك انطباع بوجود مبالغة وكأن هناك خرق للقوانين الجوهرية للمواد المعمارية.

وعلى أية حال فإن الأصدقاء اليابانيين الذين رافقونا على مدار إقامتنا في بلادهم قاموا رؤيتنا لنيكو وكذا المباني الضخمة المشيدة من الخشب سواء كانت مدنية أو دينية في كيوتو، وكان من اللازم بذل جهد طيب لتغيير خططهم والتمكن من مشاهدة تلك المباني. وعكس هذا قضينا ساعات طويلة في زيارة منتديات الشاي Pabellones وفي الأماكن الصغيرة المزخرفة بالرسوم الشديدة البساطة التي تنسب إلى مدرسة كانو التي تسير عليها الأديرة في المدينة الإمبراطورية القديمة، وكذلك الأكشاك وأماكن العشاء وكذا المباني الأخرى في المدن الإمبراطورية كاتسورا Katusra وشوجاكين Shugakuin.

من البدهي أنه لا يمكن أن تصدأ عمارة تلك المدن التي تعتبر من أفضل الأماكن المحفوظة بين المنشآت المدنية في كيوتو وبين تلك الأوربية الشديدة الجاذبية؛ إنها نمطية عمارة القصور اليابانية. كان من الضروري أن تتسم هذه المباني بأنها فسيحة وعظيمة شأنها في هذا شأن العمارة السياسية التي تعتبر رمزا. وهنا نجد أن جيروهورادا J. Horada[1] أخذ يعدد الأسباب التي حالت دون إقامة مباني ضخمة في البلاد وذكر من هذه الأسباب "القيود المفروضة على المباني من باقي المواطنين حتى يتم التمييز بين ما هو عام وبين القصور الإمبراطورية". وعلى أية حال فإن الحجم الصغير للغاية للمنزل الياباني يقدم لنا شاهدا على أن العظمة التي عليها القصور الملكية لم يكن فيها مبالغة في البلاد، هذا إذا ما قارناها بما هو معتاد في أمر مقارّ الإقامة للملوك الأوربيين، حيث أن هذه لا زالت قصورا رغم تقليل حجمها وأبعادها وتحويلها إلى "التريانون الصغير" أو "المنزل الصغير للأمير" في الأسكوريال..

لا يمكن لهذه المباني نفسها التي توجد في السياقات الملكية الغربية وتعمل على أن تكون مزرعة أو "منازل العامل الزراعي"، من أجل تزجية وقت الفراغ للمقيمين الملكيين، لا يمكن أن تنفصل عن الطلعة التي تحول دون الانخراط الحقيقي في أحضان الطبيعة، وهذا شيء يتم الحصول عليه أيضاً في المباني الأكثر أهمية في قصر كاتسورا katsura. فها هي دعاماتها الخشبية وكذا هيكلها، من المادة نفسها، يجعلان الأمر وكأن هناك اتصال وتناغم كاملين بين المبنى وبين محيطه الطبيعي. يتطلب أمر تفضيل المواد

(1) A. Glimpse of Japanes Ideals" Tokyo 1938, page. 73.

العضوية على غير العضوية وجود مفهوم بسيط واقتصادي للعمارة والإطار المباشر للمبنى في المشهد.

هذه الطبيعة الأساسية في الحياة اليابانية التي قدمت لها هذه الصفة التي تُذكر كثيرا وهي البساطة تتبدى بجلاء في الأشكال الفنية. فما هو فخم لا يتم البحث عنه من خلال الضخامة والتجهيزات بل من خلال الجودة والتركيز وكذا من خلال التعليم الذاتي الشخصي وهذا ما حفزت عليه البوذية زن، ويتجلى في طقس تناول الشاي الذي أسفر عن وجود عمارة للصالات الروستيك الشديدة الانتشار في المدن الإمبراطورية. ولابد أن هذه الصالات في البداية كانت أخصاصا أقيمت بطريقة إرتجالية ومؤقتة وكانت ملجأ لقضاء ليلة مقمرة أو بداية نهار قصيرة. هذه المباني هي أبعد ما تكون عن العمارة السياسية الفخمة.

ولهذا فإن زيارة هذه الآثار اليابانية تختلف بشكل راديكالي عن تلك التي يمكن القيام بها لمثيلاتها في أوربا؛ فالأماكن الملكية في البلدان الأوربية مفعمة بالمظاهر الفنية والتاريخ لدرجة أن الطبيعة تبدو وكأنها تلعب دورا هامشيا؛ فالقيمة الفنية لواجهة أو لقبة مرسومة أو الطرفة الخاصة بـ maîtresse أو أمير هي أمور ذات قيمة أعلى هنا من لون الزهور أو زقزقة العصافير رغم أن هذه الأخيرة موجودة بينما تلك الأخرى مجرد ذكرى منذ عدة قرون. غير أنه بالنسبة للقصور الملكية في كاتسورا أو شوجاكين ورغم ذهابنا إليهما بصحبة متخصصين لا يكاد يكون هناك حديث عن التاريخ الياباني أو عن المهندسين المعماريين أو عن الرسامين. وهنا يتساءل المرء عن السبب في صمت تلك الرفقة الأكاديمية، ثم يؤول به الأمر إلى اكتشاف أن ما يُقدم لكم بكل أدب ووقار ليس له علاقة بالكلمة بل النظرة.

لا يكادون يتكلمون وإذا ما حدث فهي تعليقات موجزة تشير إلى بعض تفاصيل في أوراق شجرة أو مسار السحب فوق الجبال وأنتم جالسون في الأماكن التي اختاروها لكم، ومن المؤكد أن اختيارها لموقعها فقط بل أيضاً بسبب العناصر الضوئية للسحب التي تمر في تلك اللحظات فوق الحديقة. يستوي الأمر فيما يتعلق بما تراه عيونكم أمامها سواء كانت البحيرة وأنتم في خص الشاي أو رؤية خص الشاي - أو ما يسمى ميوكيدين Miyukiden، أي صالة الاستقبال في قصر كاتسورا - وأنتم في البحيرة. ليس هناك فرق من المنظور الجمالي والطبيعي بين الحديقة وإنشاءاتها.

وحتى يتضح بجلاء وقوة ذلك التوجه، الذي عليه الياباني في تفضيله لاستخدام الخشب فإن الحجر غير غائب عن عمارته بل هو موجود لكنه مقتصر على أماكن ثانوية؛ إنه القاعدة التي تقوم عليها الشجرة الكبرى والتي حولها يُقام المعبد والأساس الذي يقوم عليه العمود الخشبي، وهو درجة السلم في المنزل وهو المدخل الذي يسبق المعبد. ومن الناحية الموضوعية نجد أن هذه لا تعتبر عناصر معمارية بل هي سابقة تدخل أكثر في مسار الطبيعية عنها في مسار الفن. كما أن معالجة الكتلة الحجرية تجعل ذلك أمرا بدهيا ذلك أنه أمام ما يحدث في باب المسطحات الخشبية المشغولة بدقة ومهارة لا مثيل لها، فإن الوضع الخاص بالكتل الحجرية، بما في ذلك تلك الكتل ذات الوظيفية الأرقى، يجعلها تبدو وكأنها مهملة وكأن أزميل الفنان يخشى العمل في هذه المادة الميتة.

لا يعني هذا أن الياباني يفتقر للحساسية بالنسبة لشكل الحجر، لكنه يقتصر على الأشكال الطبيعية، التي جاءت من وحي الارتجال الذي عليه الجيولوجيا أو العناصر المتعلقة بالطقوس، وليس عن قصد بشري. يتم البحث في كافة أنحاء البلاد عن صخور فريدة من حيث جودتها وعرقها وتكوينها ومسطحاتها الغريبة وأشكالها، ثم يجري جمعها بعناية بين النباتات أو - ببساطة - على أرض رملية متحركة، مشكلة بذلك حدائق تسر الناظرين وتدخل السرور على قلب من يتأملونها.

كيف يمكن المزاوجة بين تلك المعالجة الغير عادية للخشب وهذا الاحترام للشكل البدائي للكتلة الحجرية؟ يبدو أن هناك استمرارية للأصداء البدائية للقوى الحجرية من خلال الإجلال والاحترام للصخرة الكبرى بشكلها غير المنتظم الذي لم يُمَسّ، حيث توضع وسط الحديقة بمثابة البطل و يتم اقتلاع الحشائش الضارة ممن حولها بعناية فائقة، وربما لهذا السبب، أي قدسيتها الطبيعية المحضة، لم يجرؤ الياباني على معالجة جوانبها وجعلها تدخل ضمن المباني المقدسة كعنصر مجهول.

ومن ناحية أخرى يجب أن نضع في الحسبان أنه يبدو أن الياباني لديه حسّ مرهف فيما يتعلق بدرجة الكثافة المختلفة التي عليها مواد البناء. فالكتلة الحجرية عند الياباني وزنها أكبر مما هي عليه عند الغربي، ولابد أن وجود كتلة من الحجر الرملي أو من الجرانيت المرفوعة تعني في نظره تهديدا بالسقوط والتدمير. ولا يقتصر الأمر على حالة المباني الدينية

والمدنية بل يشمل العسكرية أيضاً؛ فالمحارب الياباني لم يكن يشعر بالراحة وهو وسط دفاعات حجرية. والحصون هي أيضاً مثل المنازل والمعابد والقصور في مادة البناء وهي الخشب. وحقيقة الأمر أن هذا ليس لغيبة الحجر في المباني، ولكنه موجود في الأساسات الخاصة بالحصن وبالتالي فعندما تُرَى هذه الأساسات تبدو وكأنها جبل أكثر من كونها مبنى؛ أي أنه أيضاً جبل صغير، من mota، مثل تلك التي كانت تقام في الأقاليم السهلية في أوربا من أجل إقامة الحصن فوقها ولهذا فإن الحصون الحجرية لليابانيين وكذلك أسوارها مشيدة، بشكل منحدر، بكتل حجرية لا تكاد تكون معالجة ومرصوصة جيدا فيما بينها.

غير أن هناك نوعا من الخشب يعالج على أنه صخرة حيث لا يجرؤ النجارون على معالجته أو ربطه من حيث أنه قطعة إنشائية: إنها جذور الأشجار، وهي جذور لها مدلولاتها المختلفة والرمزية طبقا لكل صنف ولها أشكالها التي لا تخطؤها العين والتي تفتح الباب لخيال من يتأملها، وما بها من مكملات ولمسات إنسانية أتت حتى من يد فنان وليس ذلك من أجل فرض نمط على الطبيعة وإنما العون على إبرازه بشكل أفضل، ألا وهو الجذور الشجرية اليابانية التي ترقد على الأرض متشبهة بالصخور أو منافسة لها. ولما كانت الجذور قضت حياتها تحت الأرض فإنها تكاد تنسب إلى عالم الجيولوجيا، لكنها جيولوجيا حية وفاعلة حيث تتجلى فيها القوة الخفية للطبيعة ببداهة لا نظير لها.

وعكس هذا هو ما نجده من نوعية معينة من الحجارة، حيث أن خفة وزنها وتشكيلها الطبيعي يمكن أن تكون في الأجزاء العلوية مع الخشب: ها هو الحصى الذي تجرفه الأنهار، أي الأنهار القصيرة الطول لكنها قوية في نزولها حيث تتولى تهذيب عدد غير قليل من الكتل الحجرية على مدار مسارها العريض والمتغير. ويمكن القول بأن من خلال هذه الكتل ينبع حب المادة المهذبة التي تتوفر لدى الياباني، حيث أنه لا يجرؤ على القيام بهذه العملية بنفسه في تعامله مع الحجر، وإنما يقتصر على قبول ما يأتيه في هذا المقام والتعبير عن الإعجاب به عندما قامت الطبيعة بفعله. وحقيقة الأمر هي أن أضرحة "الشوجونس" في نيكوّ محاطة بخنادق مليئة بهذا الصنف من الحجارة وكذلك الأمر في المنطقة المحيطة بـ Nô. أضف إلى ذلك أن الصالات العليا في المتحف الوطني بطوكيو، حيث هناك معرض الفن الفرنسي المعاصر، وضعت فيها كميات كبيرة من الحصى الذي جرفته الأنهار. كان من المثير تأمل

لوحة رينوار La Grande Femme accroupie وهي تستعرض جسدها البرونزي اللون فوق تلك الخلفية الجافة الآتية من نهر ياباني.

إلا أن الأرضية الخاصة بهذا الصنف من الحجارة التي ظلت محفورة في الذاكرة أطول وقت هي التي توجد عند مداخل معابد إيزيي Ise، داخل المقر المقدس حيث لا يمكن للزائرين الدخول. وقد حُفر هذا في الذاكرة وليس ذلك فقط من خلال الانطباعات البصرية، والتواؤم الشديد القائم بينَ الحجارة المبرودة وبين الروافد الخشبية للمعابد، ومن خلال التواجد اللوني والمبجل للأميرة كيتاشيرا كام Kita shira kam ابنة الإمبراطور ميجي، بل في الأساس من خلال الانطباعات السمعية أي الجلبة التي تحدث فوق الكتل الحجرية من خلال القباقيب الكبيرة الطقسية التي ينتعلها الرهبان بعد أن يتم رفع الحجاب الأبيض الذي تهزه الرياح والذي كان يغطي مدخل المعبد، حيث لا يرى من ورائه شيء، غير أنه يقوم كذلك بدور الشاشة حتى ينعكس على صفحته ظل الإلهة.

ومن الأمور ذات الدلالة المهمة في هذا المقام هو تلك الجلبة الصادرة عن القباقيب التي ينتعلها ماركليز أو جيماتشي ogimachi ممثل نيكادو Nikado، عندما اقترب من الستار المتموج ليقوم بقراءة النص الطقسي الخاص بتقدمة أجولة الأرز وبراميل الساكي، Saké (المشروب الكحولي) كنوع من الشكر على الحصاد الذي تم منذ فترة وجيزة. كانت جلبة جافة ذات صدى ومهيبة وقوية تنادي بهزيمة الجيولوجيا أمام الحضارة النباتية في المقام الأول.

XIV- نارا Nara، المتحف الأوربي الأسيوي

عند دخول نارا فإن الزائر الأوربي يشعر بنوع من المفاجأة، وليس ذلك لوجود المكان وسط غابة مسحورة حيث تتكامل المقابر وكأنها أشجار اكتملت من خلال الشكل الفني الذي أخذت تميل أكثر إلى الشكل المثالي وخاصة عندما تنعكس على صفحة مياه البحيرات، وليس هذا فقط بل من خلال رعشة آثارية. وهنا فإن الآثار في الغرب هي بدرجة جيدة عملية نعي المتوفين، فالأوربي معتاد على السير في مقابر حقيقية عندما يزور الآثار التي ورثها عن الأقدمين وعن بدايات العصور الوسطى، وإذا ما كان الأمر كذلك فرغم صلابة وقوة المواد المستخدمة في البناء، فياله من مشهد مؤلم وحزين لن تقدمه الآثار المشيدة باستخدام مواد قابلة للهلاك في العاصمة القديمة لليابان والتي هُجرت قبل تتويج الملك شارلمان، إمبراطور الغرب!

ومن الأمور الحقيقية أن هذه الآثار ترى قائمة عند المرور عليها في الطرق التي تمر بالمخطط الواسع كله، والتي أصبحت الآن شبه صحراء كاملة، مقارنة بالمدينة القديمة. غير أن هذا ليس مثار مفاجأة ودهشة ذلك أنه يمكن إعادة نقل رافدة السقف بسهولة أكبر من إعادة نقل كتلة حجرية؛ وفي الوقت ذاته يمكن أيضاً إعادة بناء الأثر بأكمله دون أن يلاحظ ما حدث من تجديد بعد مرور سنوات قليلة. علم الآثار يعتبر مادة من المواد الخادعة للغاية إذا ما نظرنا إليه من حيث أنه عبارة عن مواد قابلة للفناء مثل تلك التي تدخل في بناء المعابد اليابانية. وبالنسبة للقطع المنحوتة والرسم فإن ضمانات أن القطعة الآثارية أصلية أعلى، أي أن الأوربي شديد الاعتياد على أن الفضاءات الداخلية التي تحيطها حوائط صلدة من الحجارة خاوية على عروشها، ومن هنا فإن هذا الافتراض أقوى عندما يتعلق الأمر بآثار مكونة حوائطها من أعمال النجارة.

شهد الرحّالة في كتب الفن إعادة تقليد منحوتات يابانية خلال القرنين السابع والثامن، لكنه يميل إلى الافتراض، طبقا لما يحدث في أوربا، بأن عدد القطع الموجودة لا يتجاوز بشكل كبير تلك القطع المصوّرة. وغير الخبير في باب الفن في الشرق الأقصى يرى وجود عدة سمات للعمل المنحوت نفسه، وهي في الوقت ذاته قطع مختلفة. أضف إلى ذلك، وطبقا لما يحدث في أوربا، أنه لا يفلح في تصوّر أن الأعمال النحتية التي تمكنت منها عاديات الزمن استطاعت أيضاً أن تنقذ محيطها الأصلي. فكل ما لدينا باقيا لا يمس من زمن الميروفنجيين merovingior أو زمن القوط لا يتجاوز مجرد مصليات ضائعة في الفضاء الحقلي، إضافة إلى عدة قطع محفوظة في المتاحف. وما يمكننا قوله هو أننا نطرح الافتراض المتعلق بشكل دار العبادة التي تحولت إلى دار عبادة كاثوليكية Recaredo أو المكان الذي تم فيه تتويج الإمبراطور شارلمان. وها هو عالم بدايات العصور الوسطى الأوربية يذهب ويغوص في الأعماق ولم يصل إلينا منه إلا بقايا قليلة ومتهالكة.

ولهذا فإن أكثر شيء يدهش الأوربي في مدينة نارا هو أن يرى تلك المراكب المعمارية التي لا زالت شبه كاملة والتي كانت معاصرة لتلك الآثار الأوربية التي ذهبت ولم تعد، رغم أنها مراكب حقيقية مصنوعة من الأغصان كما أن طاقم البحارة التي عليها مصنوع أيضاً من المادة الخام نفسها. وعندما يدخل الزائر الأوربي في صالة الكوندو Kondo، بمعنى الصالة الذهبية، لهورجو-جي لا يمكن إلا أن يكون فاغر الفاه من كثرة وجود هذه القطع النحتية في أماكنها الأصلية. يبدو الأمر وكأنه معجزة كبيرة من معجزات الاستمرار. إلا أن المعجزة تتكرر في الصالة الذهبية في توشوداي-جي وفي هوكيدّو Hokkedo التابع لـ: توداي-جي في ياكوشي — جي وفي العديد من الأديرة الأخرى.

لا يتمكن الزائر من رؤية كل قطعة نحتية في حد ذاتها والنظر إليها من حيث أنها مجرد قطعة فنية، إذ أنه سوف يشعر بالغرابة الشديدة من جراء الظاهرة السابقة على ذلك والأكثر راديكالية المتمثلة في الحفاظ على عدد متزايد من التماثيل والرسم في إطار معمارية هشة، والتي بدورها تدخل في إطار حضري تم إخلاؤه من وظيفته القيادية أو من أغلب سكانه، وتُرك في يد الطبيعة بعد زمن قليل من إقامة الآثار. إنها ظاهرة لا يمكن تفسيرها عند الأوربي وهي القدرة على الحفاظ على الذات من قبل هذه الآثار، ومن هنا فإنه يمكن له أن يأسف لما عليه المصليات الموروثة من العصور الوسطى رغم أنها كانت مشيدة من الكتل الحجرية الصلبة مثل مصلى ريبول وكلوني وكليرفو Ripoll, Cluny, Clairvaux... الخ.

إنها قوة لا تُهزم تلك التي كانت في تلك الأديرة البوذية في نارا عندما وجد البلاط نفسه مجبرا على الهجرة للتحرر من سجنه الخانق، ولم تكن أقل تلك التأثيرات التي كانت للأديرة التي شيدت بعد ذلك بقليل داخل كيوتو أو في محيطها، أي العاصمة الإمبراطورية الجديدة. يقارن الكونت كيسر لنج[1] الأديرة اليابانية بالأوربية، واكتشف في معرض هذا وجه شبه جديد بين الغرب وبين الشرق الأقصى، وهو شبه لا يُدرك في حالة المؤسسات الملكية في بلدان آسيوية أخرى؛ فأديرة الرهبان المحاربين كانت عبارة عن ظاهرة متناقضة نظرا للحالة الصوفية والمنظومة الأخلاقية البوذية المسيطرة عليها، ومن هنا فإنها تشبه الأديرة الغربية حيث كان السيف والعكاز في عملية تبادلية بين الأيدي نفسها. ومن المؤكد مع هذا أن الأديرة اليابانية كانت تضم بين أجنحتها الكثير من الرغبة في الاستقلال الذاتي الإقطاعي والطاقة الروحية المتمردة والوثّابة، وذلك عندما وجد مؤسسو الدولة اليابانية المركزية أنفسهم، في نهاية القرن السادس عشر، مضطرين إلى محاربتهم والقضاء عليهم بلا رحمة أو هوادة رغم أنهم ما كانوا ليعودوا لبناء هذه الأديرة بعد إطفاء الحالة الحربية التي هم عليها.

واصلت الأديرة التي كانت في العاصمة القديمة المهجورة عملها ونجت من صراعات البشر وعاديات الزمن وظلت تعوم بين أمواج الغابة التي تحيط بها واحتفظت ببنيتها الخشبية. وما حدث كان العكس إذ زاد عددها مع مرور الزمن ذلك أن هناك واحدة من الإمكانيات الغربية التي عليها تقنية التجارة الآثارية ألا وهي تقنية تفكيك المباني ونقلها وهذا ما حدث في اليابان بكثرة، وخاصة في نارا حتى وصل بها الأمر إلى أن تتحول إلي مستعمرة من المعابد والأديرة.

غرق المركب القائد في حقيقة الأمر، إذ كان حجمه أكبر من اللازم، فكان، نوعيا، العملاق من العصر الحجري القديم وبالتالي كان من الصعب أن يبقى على قيد الحياة. كان يضم دايبوتسو Daibutsu أو بوذا الأكبر، الذي هو عبارة عن تمثال ضخم من البرونز يزن ٤٥٠ كجم، وتم صهره بعد بذل جهد عظيم والكثير من الإسراف خلال القرن الثامن. احترق المعبد عدة مرات على يد البشر وأصاب التمثال الدمار من جراء هزات أرضية وكأن الأرض لا تقبل بوجوده بأبعاده الضخمة التي لا تتلاءم مع التوجه المعتدل والمسيطر على

---

[1] العمل المشار إليه، المجلد الثاني، ص١٤٩.

الطبيعة والفن في اليابان. وبالنسبة للآثار الأخرى في نارا، فهي أقل حجما وأقل طموحا ولم تكن ذات يوم مرهونة بمصير المعبد الكبير توداي-جي، رغم أن الحفاظ عليها تطلب عمليات إصلاح مستمرة.

هناك واحدة من النتائج المترتبة على البناء باستخدام المواد العضوية، وهي أنه إذا لم تتم العناية بدقة بالحفاظ على تلك المباني فإنها سرعان ما يعتريها التهالك والتدهور، وبالتالي يوفر الياباني على نفسه التأمل الحزين للمشهد الذي تحوّل إلى أطلال. ولما كانت المباني من الخشب فليس هناك إمكانية أخرى غير البقاء أو الفناء، أي لا توجد حالات وسط. ومن هنا فإن الأدب الرومانسي والوعظي المتعلق بالأطلال يتسم بأنه ذو طابع خاص في اليابان وفي سلسلة Manyoshu أي "سلسلة العشرة آلاف ورقة، التي تم جمعها في منتصف القرن الثامن والتي تضم موادا ترجع إلى مرحلة زمنية قديمة للغاية، هناك الكثير من المرثيات أو البكائيات على الأطلال في مدينة نارا، العاصمة التي هُجرت، إلا أن الموضوع في الأساس هو غيبة المبنى المتهدم أكثر من المبنى في حالة قديمة. وبذلك فإن الحصون هي الوحيدة التي استطاعت أن تظل في حالة تقادم لا تنتهي إلى الزوال الكامل بفضل صلابة بنيتها، الأمر الذي جعلها هدفا لأدب البكاء على الأطلال، على الطريقة الغربية، التي "ألقى عليها القمر بضيائه الفضي، : كو-جو-نو-تسكي"، هذا هو عنوان أنشودة يتعلمها أي ياباني في المدرسة الابتدائية ويحفظها عن ظهر قلب.

وفي حالة المباني المشيدة من الخشب من الألف إلى الياء مثلما هو الحال في المعابد فليس هناك مكان للمرثيات على طريقة المرثيات الشهيرة: هذه يافابيو، يا للألم! التي تراها، هي حقول وحيدة، وهي رُبى حزينة... " تتبدى أمام نواظركم في نارا رُبى يشار إليها بتاريخها القديم، لكنها لا تبدو حزينة أو وحيدة، فالنباتات تحيط بالمكان بشكل طبيعي للغاية دون أدنى تهديد لحوائطها المتهدمة وكتلها الحجرية المبعثرة أو أية حفائر آثارية، فمع وجود المباني المشيدة من الخشب لا يمكن القيام بحفائر وبالتالي القيام بحفائر آثارية بالمعنى التقليدي للمصطلح.

في مدينة نارا، ما هو قديم هو جديد وما هو جديد هو قديم، وما ينقص هو البعد الزمني والحنين والكتل الحجرية ينتهي بها الأمر إلى أن تغرق في الزمان، وتطفو الروافد

الخشبية. ففي العاصمة القديمة كانت مباني المعابد تبدو وكأنها أخذت تستعيد حيويتها رغم عدم امتداد الأيدي إليها؛ ويأتي ذلك من خلال النباتات التي تحيط بها طبقا مع إيقاعها الحي. أما الإنسان فقد كان من جانبه يرى أنه مجبر على الإسهام بالدور المنوط به، وكانت النتيجة تحديدا هي أن آثار "نارا" تتجلى في حالة حفظ غير عادية رغم هشاشتها الجوهرية، كما أن بداخلها قطعا فنية محفوظة تعتبر كنزا لا يقارن سواء في حقل الفن الياباني أو بشكل عام في الفن الأوربي الآسيوي.

أضف إلى ما سبق يوجد في نارا أيضاً آثار متخصصة في الحفاظ على الأثر؛ إنها "الكنوز" التي ترتفع إلى جوار المعابد، وكأنها أبطال أسطورية من خشب أقيمت على قواعد من المادة الخام نفسها. هناك الروافد الأفقية المتراكبة والمتعاضدة حتى تشكل حوائط قوية ومتينة وخاصة في الأركان حيث تتقاطع مع روافد أخرى متعامدة عليها. وهنا فإن الحلول العبقرية التي يتم تقديمها في هذا المقام عند استخدام الحجر كمادة بناء لا يمكن لها أن تلهمنا الانطباع بأننا في هذه الحالة التي نستخدم فيها المادة العضوية لا يمكن أن نصل إلى النتائج نفسها ذلك أن الأخشاب تتشابك بشكل متكرر في تصرف يمكن أن يكون مثيرا للكدر، وكأنها لكي تحافظ على الكنز يجب عليها أن تبذل جهدا عضليا كجهد هرقل، وبالتالي يمكن أن تجعل المهاجمين المتمرسين الذين يقومون بالسطو يرعوون.

الشوسوين shosoin هو أحد أكبر هذه الكنوز وأهمها نظرا لثرائه الفني، حيث هناك مجموعة من القطع التي تنسب إلى الإمبراطور شومو shomu، حيث تم التبرع بها، عند وفاته في منتصف القرن الثامن، لمعبد تودي-جي todai-Ji وجاء ذلك من خلال قرينته كوميو-كوجو komyo-kogo وابنته الإمبراطورة الوريثة كوكن Koken. ظلت هذه القطع محفوظة بدقة متناهية طوال عدة قرون ماعدا فتح المكان مرة واحدة سنويا لتهويتها وتنظيفها حيث كان ذلك يتم في نهاية شهر أكتوبر من كل عام في ظل إجراءات أمنية وقواعد طقسية. ولهذا السبب وصلت إلينا هذه المجموعة الفريدة المكونة من أعمال فنية شديدة التنوع والتي ترجع ليس فقط إلى أصول يابانية وصينية وإنما إلى أصول هندية وفارسية وكذلك العالم الهلنستي والروماني.

الشوسوين في نارا ليس إلا القمة والجزء العلوي لعدد كبير من الكنوز الموجودة في العديد من الأديرة والقصور والمتاحف والمنازل في اليابان. كما أن القطع الفنية اليابانية لا

تعرض بشكل دائم على شاكلة ما يحدث في الغرب أو تعرض في القصور أو المتاحف أو المنازل الخاصة. هي قطع فنية عادة ما تكون مصنوعة من مواد هشة قابلة للتدهور في وقت قصير إذا ما بقيت معرضة بشكل دائم للهواء والضوء. أضف إلى ذلك أن الفن الياباني مرتبط باللحظة circunstancial، حيث نجده شديد الارتباط بفصل من فصول العام وبأحداث معينة. إن الفن بالنسبة لشعب مستغرق بشكل قوي في الطبيعة يجب أن يتأقلم على ما تمليه هي عليه وليس ذلك فقط من خلال مقصد العمل وموضوعه بل أيضاً ما يتعلق بالاستمتاع به.

هذا هو في الأساس، السبب الرئيسي الكائن وراء المبدأ القائل بأن الرسم الياباني ليس له إطار حقيقي. وهنا نجد أن خوسيه أورتيجا إي جاسيت لفت الانتباه في مقاله "تأملات في الإطار" إلى هذه الخصوصية التي تعتبر نوعا من الاختلاف الجوهري بين الفن في الشرق الأقصى والفن الغربي. ورغم أنه لم يتعمق بالفعل في جوهر المشكلة، أشار إلى حل لهذه المشكلة في صفحات سابقة من المقال نفسه: "العمل الفني يعتبر جزيرة متخيلة تطفو محاطة بواقع من مختلف الجوانب. وحتى يتأتى ذلك من الضروري أن يكون الجسد الفني منعزلا عن الإطار الحيوي. ولا يمكن لنا أن نخطو خطوة خطوة من الأرض التي نسير عليها إلى الأرض المرسومة. والأكثر من هذا أقول إن عدم تحديد خطوط فاصلة بين ما هو فني وما هو حيوي يفسد علينا متعتنا الفنية، ومن هنا فإن اللوحة التي بدون إطار، تتولى خلط خطوطها وحدودها مع الأشياء النفعية غير ذات العلاقة بما هو فني، وبالتالي تفقد الرشاقة والإيحائية. وهنا من الضروري أن ينتهي الحائط الفعلي على وجه السرعة وبشكل راديكالي وأن نشهد أنفسنا فجأة وبدون أي تلعثم في الأراضي اللاواقعية للوحة، لابد من وجود عازل؛ إنه اللوحة"[(١)].

غير أن عزل اللوحة، المهمة التي يقوم بها الإطار الغربي، يعني رفضا لجوهر الفن الياباني، فالعمل الفني في الشرق الأقصى ليس جزيرة خيالية تطفو محاطة بواقع من كافة الجوانب بل هي فقط مركز تكثيف، ونوع من التكوّن مشكلّ من المادة نفسها التي عليها واقعنا اليومي، إلا أنها أكثر كثافة واندماجا مع بعضها. غير أنها ليست بهذا تتسم

---

(١) الأعمال الكاملة، مدريد، الجزء الثاني، ١٩٤٦م، ص٣٠٤.

بالموضوعية والقوة، بل تتغذى بشكل دائم على الواقع المحيط؛ وهذا الأخير، من جانبه، يتجلى بقربه من العمل الفني ويفيد منه بشكل مباشر من خلال أصدائه وإيقاعاته.

اللوحة اليابانية تتجاوز نفسها وتنفد في الظرف المحدد المحيط بها وتتقولب بشكل طبيعي عليه دون أن تتمكن من إرادة تغييره ولهذا فإن المشاهد الفنية يجب أن تعرض في الفصول الزمنية الخاصة بها، وغير ذلك يكون اعتداء على الطبيعة أن يتأمل المرء مشهدا للشتاء في الصيف والعكس بالعكس. اللوحة الشتوية إذن ليست إلا صورة مكثفة ومختصرة (وكأننا نشهد أنفسها في مرآة مقعرة) للشتاء الفعلي. ويحدث الشيء نفسه في إطار ما يتعلق بالحياة الاجتماعية. وعندما يحضر زوجان حديثا الزواج بشكل مفاجئ إلى دار يابانية فليس من المعتاد استقبالهما على الفور، فعليهما أن ينتظرا حتى يتم تعليق لوحة مناسبة في الصالة، بها - على سبيل المثال - أغصان صنوبر وشجرة كرز وبامبو، وهذا ثلاثي نباتي يرمز إلى عمر مديد وسعيد لهما بما في ذلك المستقبل.

والأسباب نفسها التي تستكن وراء عدم وضع إطار للوحة يجب أن تكون مأخوذة في الحسبان لتفسير الفضاء الواسع للعمل الفني في اليابان، فالمفهوم الخاص بالعمل الفني عن العمل الفني في الشرق الأقصى هو شديد الرحابة مقارنة بما عليه في العالم الغربي، وهذا يعني افتراض وجود القليل من التمييز إزاء الأداة المستخدمة. هناك مسافة فنية فاصلة بين لوحة لجورجيوني أو رامبرانت وبين مركب أو كوب يرجع إلى عصره، وهي مسافة أكبر بكثير من تلك التي توجد بين قطع يابانية مشابهة. وفي اليابان من غير المتفق عليه وجود تمييز واضح الحدود بين الفن العظيم والفنون الدنيا من صناعية وزخرفية. وهنا فإن رسما أو صفحة عليها نقوش كتابية ومروحة وسيفا يحمله ساموراي توجد كلها على الدرجة نفسها من حيث القيمة الفنية. وبالتالي فإن ذلك الخط شديد الطول ومن الضروري تجزئته وإبرازه في شكل قطع في صالات المتاحف أو في الغرف الخاصة أيضاً.

إن اللوحات والتماثيل والأدوات الموسيقية والقطع النسجية والصناديق والأسلحة والقطع الطقسية والعظات (البوذية) والمخطوطات المقدسة... الخ، من تلك التي يمكن الاستمتاع بمشاهدتها في كل من مدينة نارا وكيوتو، يصعب للغاية أن يكون لها قرين، في جودتها وحالة الحفظ التي عليها، في العديد من البلدان التي وردت منها. ومهما كانت

درجة الغرابة، ليس الأمر أنها تشكل عينات باردة توجد في المتاحف، بل مجموعات متكاملة ومتسقة. لا تتناقض وأساليبها المتنوعة والعقليات المختلفة التي تعبر هذه القطع عنها وكذا تواريخها المختلفة فيما بينها مثلما عليه الحال في الصالات أو الفترينات في متحف علمي، وإنما تتناسق بشكل هارموني، تبدو الحواف الحادة للقطع وكأنها مبرودة، وتبدو المسافات بين القرون مختصرة والأساليب الفنية ذات التوجهات المختلفة أسلوبيا متقاربة وكأنها ريش مروحة تتجه نحو ذلك المركز وهو مركز الالتقاء، وقد أتت هذه القطع من مسافات بعيدة من الأراضي الأوربية الآسيوية. وبالنسبة للأرخبيل الياباني غير العادي من المنظور الجغرافي فقد كان له دور فريد في إطار التاريخ الثقافي والفني المعقد في القارة العجوز، لكنه ليس دور المبادرة والتحفيز لكن دور الحفاظ والتنمية والتكامل.

في نارا ولدت الثقافة اليابانية ولكنها تأخرت كثيرا زمنيا عن الثقافات الآسيوية الكبرى. إلا أن هناك حالات قليلة، يمكن رصدها، حققت تقدما سريعا على مدار حياة الشعوب، وهو تطور غذته الإسهامات المتنوعة للقارة القريبة، ومع هذا هناك بصمة أصيلة يدعمها ما عليه البلاد من كونها جزيرة، حيث يمكن رصدها في الإرهاصات الأولى سواء في الأدب أو النحت أو الفنون الزخرفية. فالقصائد التي يتضمنها "المانيوشو" أو "سلسلة العشرة آلاف ورقة" تعكس التأثيرات المختلفة وأحيانا التقليد الواضح ولكن هناك حساسية أصيلة بدأت تظهر من خلال الإسهامات الشديدة الاختلاف. وفجأة تظهر أشكال شعرية تسيطر على الساحة طوال مئات السنين وتتعرض مع مرور الزمن (طبقا لما يؤكده أحد الباحثين ممن لهم باع في هذا المقام وهو دونالدكين)[1] للتدهور والضعف بدلا من التطور في جوانب أكثر أهمية.

هناك نوع من الانفراجة الفنية نراها في منحوتات نارا فالأشكال في التراب engreda في بونتين Bonten وفي تايشاكوتن Taishakuten التي يحتفظ بها متحف هوكيدو hokkedo في معبد تودي-جي إنما تبرهن على وجود هارمونية كاملة بين الحياة الروحية والشكل الجسدي الذي ربما لن يعود إلى الوجود في الفن الياباني[2]. فالشخصيتان

---

(١) "مختارات من الأدب الياباني" نيويورك، ١٩٥٥، ص٣٣.

(٢) "روبرت تريت بين" - العمل المشار إليه، ص٢٩.

هما عبارة عن آلهة هندوسية قبلتهما البوذية في عصر قديم، ثم وصلت إلى اليابان مع سفر طويل من خلال التبت والصين وكوريا. وعند تأمل الصلابة الممتعة التي عليها التمثالان والتي تتسم بالاستدارة نجد أنها تتناغم مع المثالية البوذية في الهدوء الذي تتم الدعوة إليه في الهند من خلال منحوتة جوبتا gupta. كما هاجرت أيضاً التقنية التي بها تم نحت هذين التمثالين إلى اليابان قادمة من المدارس الكبرى التي كانت على عصر أسرة تا أنج T'ang الشهيرة بتماثيلها. ولنترك جانبا الفن الروستيك الإقليمي الخاص بـ تون هوانج Tun-huang، لنرى أنه لم يصل إلينا إلا القليل من المنحوتات الخاصة بهذه المدرسة والتي تعتبر مبررا لهذا المديح الذي نجده عند المؤرخين في ذلك العصر، والسبب أنه لما كانت منحوتة من مادة هشة لم تتمكن من الصمود أمام العنف والمطاردة الدينية التي ألهبت الأرض الصينية وخاصة في القرن التاسع. عكس هذا نجد الأشكال المنحنية de greda de Nara التي استلهمت الفن الحضري في العواصم T'ang وصلت إلينا كاملة لم تُمسّ وحظيت بحماية الجزر والروح المحافظة للبلاد وأوضحت لنا ببداهة قيمة فن شرقي عظيم[1] وذلك من خلال ازدهار غصن يبدو أنه بلغ حدا لا يضارعه فيه شيء. كتب جروسيه: " سوف يكون التميز الياباني هو أن اليابان في أوج عظمتها الفنية التنويرية التي أتت إليها من آسيا، حملت على عاتقها أن تمنحنا هندا وصينا أسمي في أغلب الأحوال من الهند والصين الأصليتين، وأن تخلق في ذات الوقت من هذه الاستعارات الظاهرة فنا يابانيا عميق الأصالة "[2]

تعلمنا نارا أن نتجاوز فنيا وثقافيا الحكم المسبق السائد والخاص بعملية التناقض بين الأصالة والتقليد، وبين اليونفرسالية والقومية. ورغم كثرة الآثار التي ظلت باقية هناك القليل من المشاكل الصعبة الحل مقارنة بتلك الخاصة بدرجة القومية اليابانية في باب فن نارا، إذ ساهم فنانون كوريون وصينيون ويابانيون ورهبان من الهنود أو التبت في هذا الازدهار الفني الفريد، وليس هناك خير دليل على هذا إلا إقامة التمثال الضخم لبوذا فى دير تودي-جي، الذي يعتبر مركز شبكة الأديرة البوذية التي كانت تمتد بشكل واضح في كافة أنحاء البلاد. وهنا يمكن القول بأن أساس استلهام هذا الأثر مرده، بلا شك، إلى لو-يان Lo-yan في الصين حيث تعرف أن قد أقيم هناك عمل نحتي ضخم لبوذا من الحجر.

---

(1) Art Treasures of Japan, edited by Yashiro Jukio, Tokio, 1960, I, pag 72.

(٢) العمل المذكور، ص٣٦.

وقد أدى الحافز الخاص بالتقدمة للتمثال إلى نوع من العدوى المتنامية والقاسية، وتجاوز الأمر مجرد إقامة التمثال، إذ كان الأمر يتطلب موافقة باقي الآلهة المحلية في اليابان؛ وهنا نجد أن جيوجي Gyogi الراهب الشهير أرسل إلى إيزيي Ise وذلك حتى يعرف وجهة نظر الإلهة الكبرى للشمس Sol، أي جدة الإمبراطور. وبعد سبعة أيام من الصوم انتهى الأمر بالمبعوث أن سمع النبوءة الصادرة عن هذه الإلهة والتي تبارك الأمر، كما أنها نبوءة جاءت في صورة أبيات شعر صينية تنادي بالتوحد بين الشمس وبوذا[١].

وعلى هذا أخذ يتكون ويتشكل المذهب التوفيقي بين الأديان والذي عليه سوف ينبني الفن والثقافة اليابانيين. وفي عام ٧٤٢ صدر أمر إمبراطوري ليعلن النية في بناء الصورة، وهي خلط في النص بين المعتقدات والأشكال الطقسية البوذية والشنتوية والكنوشية. ورغم الجهد الذي بُذِلَ في هذا العمل أدت عمليات فشل فني متلاحقة إلى إبطاء ذلك حتى عام ٧٥٢ حيث أُقيمت احتفالية التكريس، وخلالها تم عزف طقسي لعيون الصورة وذلك كنوع من الرمزية لانفتاحها وحياتها. كان جميع رجال البلاط حاضرون وكذلك عشرة آلاف راهب، إلا ان من قام بتنظيم هذه الاحتفالية كان متصوفا هنديا يدعى بوديسينا Budhisena، كما كان معروفا في اليابان باسم بارامون Barammon Sojo أو الكاهن الأكبر براهمان Brahman.

كانت لا تزال هناك آفاق كبيرة معلقة على ذلك الأثر الذي ورد ذكره كثيرا في التاريخ الديني والثقافي لليابان، فخلف الملامح النبيلة لوجه التمثال والتي تتسم بقليل من اللطف مثلما نجد ذلك في كل تماثيل بوذا بما تحمله من سمات السكان الأصليين، يمكن أن نلمح، ولو بشكل ضعيف للغاية، ملامح وجه تماثيل الإله أبولو في حوض البحر الأبيض المتوسط والتي كانت في الهند بمثابة النموذج الذي يحتذي في التماثيل الشبيهة بالبشر في جاوتاما Gautama. اتسم التطور الأيقوني والفني الخاص بالصور بأنه سار مشوارا طويلا، فالطبيعية الغربية أخذت تكتسب طابعا طقسيا وأصبحت كهنونية. والعيون الواسعة الغاضبة التي توجد في الرؤوس الموروثة عن آخر مرحلة في العصور القديمة

---

(1) G.B. Sansom, "Japan. A Short Cultural History".
لندن – ١٩٥٢، ص١٣٣.

الكلاسيكية أصبحت مغمضة عند المرور بواحات آسيا الوسطى، أي حيوان Miran ونروفان وكوهيتان وكيزيل. . . الخ. وبالنسبة للنظرة التي تغوص في اللانهائي، تتحول إلى نظرة داخلية خاصة، رغم أن الأهداب تنطبق على بعضها بشكل شبه كامل. هناك انطباع بأن النظرة لا زالت تائهة في اللامحدود، أي أنها نظرة حميمة مثل الإطلالة على بئر عميق يتمكن من إحداث ثقب في الشخصية ثم تتوه في هذا الأفق اللانهائي.

ومن الأفضل أنه، بدلا من الوقوف أمام رأس بوذا الكبير التي أعيد صهرها عدة مرات نظرا لما تعرضت له من هزات زلزالية متتابعة، يجب أن نستغرق في تلك الاعتبارات من خلال تأمل تمثال ياكوشي نيوراري Yakushi Nyorai، أي بوذا الشفاء المحفوظ في دير باكوشي- جي. وفي هذه الحالة نجد أن هذه السلسلة من التأملات أمر إجباري نظرا لما عليه القاعدة البرونزية العاملة للتمثال. فعلى وجوهها الأربعة هناك موضوعات زخرفية تعلن بوضوح عن أصولها المختلفة. هناك "الحيوانات الإلهية الأربعة" التي تمثل الجهات الأربع (التنين يمثل الشرق، والعنقاء Fenix يمثل الجنوب، والنمر يمثل الغرب، والسلحفاة تمثل الشمال) حيث تبدو محفورة في الواجهات الأربع لقاعدة التمثال والتي تشهد على الإسهام الصيني. غير أنه يوجد في وسط كل وجه من وجوه القاعدة أشكال بارزة لعبيد، وهي تؤكد من خلال ملامحها العرقية والأسلوبية الإسهام الهندي، بينما نجد شرائط من المعينات والبراعم الزخرفية التي تنبئ عن التأثير الإيراني. وفي الأعلى قليلا، تحت تمثال بوذا، هناك موضوع كلاسيكي نقي مكون من حليات حلزونية عبارة عن سيقان عنب وأوراقه.

ويؤكد هذا الصنف النباتي، الغريب للغاية في اليابان بشكل قاطع الأصول المتوسطية لهذا العنصر الزخرفي الذي يجد تراسلا مثيرا يتمثل في أعمدة من الخشب غير البعيدة زمنيا. إلا أن الموضوعات الفنية المختلفة، ومعها التنوع الأسلوبي الذي يوجد في القاعدة المذكورة تتكامل كلها في صورة واحدة، وهنا فإن العين والنظرة الخبيرة يمكن أن تفكك مكوناتها. هناك أيضاً نوع من التكامل الأفضل الذي يتمثل في العديد من الإسهامات الفنية والثقافية في تمثال بوذا الطيب، حيث يبدو أنه يطفو في الفضاء رغم كتلته السوداء في وضعية تتسم بالهدوء والرفعة الروحية. وها هي الأصداء المتعددة والآتية من القارة بأكملها تتكامل

وتنصهر فيما بينها بشكل يمكن أن يقال عنه أن التمثال يستجيب لأقصى المتطلبات الجوهرية الخاصة بالحساسية الفنية اليابانية .

XV- الشرق الأقصى والغرب الأقصى

الشرق والغرب هما مصطلحان متبادلا العلاقة، لكن مسار كل واحد منهما بالنسبة للآخر هو جد مختلف؛ فالصورة الشمسية التي تعني وجود هذه العلاقة تفترض أن الشرق هو الأصل وهو نقطة الانطلاق، وهنا فإن تاريخ الإنسانية سار من الشرق إلى الغرب، ولهذا السبب نفسه يجب أن يتم النظر إلى الغرب كنهاية وتتويج للشرق وكأنه النهاية التي يتم من خلالها تأمل المسار الكامل للخط ويصدر حكمه عليه.

وهنا فإن الشرق يصبح كحقل منظوري من جهة الغرب وذلك نظرا لتكوّنه المرحلي؛ هناك شرق أدنى وشرق أوسط وشرق أقصى، لكننا عندما نتجه نحو الغرب لا نجد درجات مماثلة. كما أن انطلاقة أوربا نحو أمريكا تتسم أكثر بأنها عملية تكرار أكثر منها امتداد، فالشعوب الأوربية أخذت تتناسل وتعيد نفسها في العالم الجديد، أي في أسبانيا الجديدة وإنجلترا الجديدة. وفي ذلك الأوان كان هناك ما يسمى Far West، إلا أن هذا المعنى التوسعي والمؤقت الذي كان المصطلح يتضمنه يبرز أن الغرب هو منصة الإطلاق الوحيدة التي من خلالها تجري عملية التأمل والتي منها لا توجد مقاربات أو مباعدات حقيقية مثلما هو الحال في المشرق.

نعم، يمكن للغرب أن يقترب وأن يبتعد عن الشرق، أو يمكن قول الشيء نفسه بشكل آخر، أن هذا الشرق بكل ما فيه من تدرّجات يتبدى في عيون الغرب في وضعية بعيدة بدرجة أو بأخرى. وفي هذا المقام نجد أن تاريخ قصة البعد أو القرب في العالم الشرقي، بكل ما فيه من مستويات أو جغرافيات، مقارنة بالغرب، هي تعبير واضح عن الفكرة التي تمليها الغرب عن نفسه.

وفي إطار المناظير التي عليها المنظومات الفلسفية التاريخية القائمة خلال القرن التاسع عشر، فإن الشعوب الآسيوية تتبدى في أبعاد غامضة. فالهند - يقول هيجل - "تعيش منذ آلاف السنين في مخيلة الأوربيين من حيث أنها أرض الأعاجيب دون أن تكون معروفة بالضبط؛ وقد جذبت الشهرة التي كانت عليها دائما، لكنوزها الطبيعية وحكمتها، البشر نحوها. فمنذ زمن بعيد توجهت الأنظار نحو الهند وأصبح حافزا دائما في التاريخ العثور على الطريق إلى الهند والولوج إلى كنوز ذلك البلد العجيب". كانت هذه الشهرة تعني البعد والغرابة التي تساندها الحوائل الجغرافية القوية. واستنادا إلى قاعدة البيانات والملاحظات التي تم الحصول عليها من كتابات لور إلفنستون L. Elphinstone، وهذا ما لخصه هيجل بدقته المعهودة في باب عملية التقابل بين بلاد الفرس والهند بقوله "إن الأوربي الذي ينتقل من بلاد فارس إلى الهند يلاحظ تناقضا ضخما، ففي اللحظة التي يشعر فيها وهو في هذا البلد الأول وكأنه في منزله حيث يلتقي بأرواح أوربية وفضائل وشغف إنساني يصطدم سريعا عند انتقاله إلى الهند بنقيض ذلك في كافة التفاصيل"[1].

هذا التشابه القائم بين الفرس وأوربا كان يعني بالنسبة لهيجل وجود مصير مأساوي ناتج عن التاريخية المشتركة، حيث كان الفرس أول شعب تاريخي، ولهذا فإنهم أذعنوا وأظهروا من خلال هذا التصرف كبرياءهم الكبير "أمكن للإمبراطورية أن تذعن، ذلك أنه كان بها مبدأ الروح الحرة فوق الروح الطبيعية، ومبدأ استقلال الروح".

هناك أيضا جوته الذي لمس الخط الفاصل مع الهند ولكن بدرجة أقل من هيجل، كما أن الحماس الذي كانت تشعله فيه بلاد الفرس لم يكن أقل مما عليه الحال عند الفيلسوف الألماني. ولما كان جوته شاعرا كانت إمكانية الإدراك والتمثل أعلى وهذا ما نراه في West-östliche Divan " الذي استلهم فيه عمل حافظ Hafis، الشاعر الفارسي الذي عاش خلال القرن الرابع عشر. تبدو صفحات الكتاب وهي في حالة تأرجح دائم بين الموضوعات الشعرية الشرقية والغربية، أي بين التعطش للمغامرة التي يقوم بها البدوي وبين عشق العاشق، بين الأفكار الصوفية الفارسية وتلك الخاصة بالعصور الوسطى، التي

---

(١) "دروس في فلسفة التاريخ العالمي" ترجمة- بوينوس أيرس، ١٩٤٦م، الجزء الأول، ص٢٨٨، ٣٤٩.

عادت لتسيطر على الروح الناضجة للشاعر مثلما كان عليه الحال في سنوات صباه. إنه يؤكد ذلك بقوة من خلال هذه الأبيات التالية:

Wer sich selbst und andre kemnt
Wird auch hier erkenneni
Orient und okzident
Sin nicht mehr zu trennen

(من يعرف كيف هو وكيف هم الآخرون/ لا يسعه إلا أن يعترف/ أن الغرب والشرق/ لا ينفصلان)

هذا الشرق الأخ لا يذهب بعيدا جدا، ولا يتجاوز الهند Indo. ففي الـ noten und Abhandlungen التي كتبها جوته للإسهام في فهم كتابه، يتضح بجلاء التناقض الواضح الذي كان موجودا - طبقا لكلامه - بين فارس والهند، وبين التوحيد العظيم الإيراني والشعبوية في تعدد الآلهة التي عليها الهنود. وفي هذا المقام نجده عندما يتحدث عن الفرس القدامى بقوله: هناك الكثير من مدنهم منتشرة كأنها مراكز حيوية في كثير من الأقاليم، لكن ما يبدو لي أمرا مثيرا هو أنه لا يؤثر عليها قربها من أماكن التعبد للآلهة الهنود"[1].

يفصل نهر Indo، لدى كلا المفكرين، بين شرقين مختلفين: أحدهما لا يكاد يكون شرقا بل هو بالأصح امتداد للغرب والثاني هو شرق حقيقي، أي عالم غريب وغير مفهوم. وهنا ربما كان من اللازم أن تمضي عدة عشرات من السنين حتى يصعد الأوربي على درجة السلم التي كان يقوم عليها الشرق الهندي، لم يكن الأمر مركزا كثيرا في أن التقنية هي المزيد من المعرفة والمعاملة الأكثر تؤدة والمرتبطة بالظروف بذلك العالم الغريب، أكثر من كون الأمر مرتبط بعملية نضج الوعي الأوربي الذي جعل الأمر مناسبا لفهمه بشكل أفضل. ومن المؤشرات القائمة على ذلك هو أن عددا غير قليل من المفكرين الذين نفذوا بشكل أكبر إلى أعماق الروح الهندية وأصبحوا أكثر حماسا وإيمانا بما تنبئ به إنما ينتسبون إلى أمم في وسط أوربا وليس إلى الأمم الأطلنطية والاستعمارية.

(1) der West-Östliche Divan, Deutcher Taschenbuch Verlag, 1961, pag.133.

غير أنه كان من اللازم صعود درجة أخرى من السلم وهي درجة أكثر صعوبة، ألا وهي الشرق الأكثر بعدا وغرابة؛ إنه الشرق الأقصى مع ما يتضمنه من جوانب عرقية وثقافية وسلوكية. . . الخ، وهي جوانب شديدة التنوع عما عليه الغربيون. كان شرقا دون الأساس الهندي الجرماني، ودون تلك الطرق الواسعة في الاتصال التي فتحت الطريق أمام الغزو الهلنستي في حالة الهند وكذا أمام الإسلامي فيما بعد ثم الإنجليزي. ثم إنه ما زال هناك خلف آخر أراضي القارة الأوربية الآسيوية بلد آخر أكثر بعدا، وهو بلد غريب وفانتازي حتى بالنسبة لسكان الإمبراطورية الصينية أنفسهم: إنه هذه المجموعة الغريبة من الجزر اليابانية التي تعتبر جسرا غامضا للوصل بين أكبر القارات قاطبة وأكبر المحيطات قاطبة انطلاقا من موقعها الجغرافي والأنثربولوجي.

غير أنه لهذا السبب – الشرق الأقصى – تحديدا كانت اليابان ذات سمات شديدة التفرّد، ومن بينها أنها انغلقت انغلاقا تاما عن الغرب، الأمر الذي بدا أنه يزيد من غرابتها وبالتالي من شرقيتها. لم تكن هناك أية معارف عن اليابان في زمن هيجل وجوته. ولا يعني الأمر فقط أنه ليس هناك فصل مخصص لذلك البلد في كتاب "**دروس حول فلسفة التاريخ العالمي**" لهيجل بل لأنه لم يُذكر اسم اليابان في صفحاته أو في أي صفحة أخرى من مؤلفات الفيلسوف الألماني رغم أنه تحدث عدة مرات عن الصين. لقد انغلقت اليابان على نفسها انغلاقا محكما مع بداية القرن السابع عشر وحافظت على عزلتها بشكل صارم لدرجة أنه لم يظهر لها أي أثر في أعمال واحد من العقليات الأكثر رغبة في المعرفة بغض النظر عن كونه الأكثر عبقرية وتمثيلا لأوربا القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٦٣٦م صدر أمر من "الشوجون" بمنع أي مركب أو أي من الرعية اليابانية الخروج من البلد وإلا فالموت هو مصيره، وحتى يكون الأمر نافذا صدرت التعليمات بعدم بناء أي مركب لديه القدرة على عبور المحيط، وهنا صدرت الأوامر بطرد من كانوا من سلالة الأسبان كافة من البلاد. وبعد ذلك بعامين جرى تطبيق إجراء مماثل على البرتغاليين؛ وعندما أرسل هؤلاء مركبا من مكاو محملا بالهدايا وليس بالمواد التجارية من أجل طلب رضا "الشوجون" كان الردّ الفوري قطع رؤوس أغلب أعضاء الطاقم باستثناء هؤلاء الذين من الضروري وجودهم حتى تعود السفينة إلى مكاو وهي تحمل رسالة تقول بأن على البرتغاليين "ألا يعودوا للتفكير في اليابانيين، وكأنهم غير موجودين على

ظهر الأرض". هناك استثناء فقط للهولنديين في جزيرة صغيرة للغاية، تقع أمام نجازاكي، حيث كان التجار قد اصطنعوها ليعيشوا تحت رقابة صارمة، وكانت تشكل وسيلة الاتصال الدنيا بين اليابان والغرب.

لكن هذه العزلة التي عليها اليابان، والتي كانت تجعل من البلاد "شرقا بعيدا للغاية" وشرقا أقصى "شديد الغموض"، كانت ممكنة نظرا لوجود عدة سمات جغرافية وثقافية وسياسية عجيبة تجعل منها شبيهة بالبلدان الأوربية؛ تم اتخاذ قرار بعزلة اليابان بعد تجارب عديدة وحسابات وتأملات، وكان ذلك يعني أن هناك تنظيما سياسيا كفؤا قادرا على تنفيذ ذلك وكذلك وجود وعي بالاكتفاء الذاتي الثقافي الذي يتطلب نضجا تاريخيا فعليا. كان يفترض أيضاً وجود الأدوات الحربية والتقنية الضرورية لتنفيذ سياسة لا تتوافق أبدا مع المرحلة التاريخية، وكذا من أجل الحيلولة دون أية محاولة لتدخل القوى الأجنبية.

يرجع الانغلاق الياباني بدرجة كبيرة إلى قابليته لنفاذ الأفكار وأنماط الحياة القادمة من أوربا سواء كان ذلك مرتبطا بالمنظومة الروحية أو المادية. وسرعان ما شعرت جماعة اليسوعيين بالاستغراب للحفاوة التي قابلهم بها السكان الأصليون. "بالنسبة للناس الذين تحدثنا معهم حتى الآن – هكذا كتب سان فرانثيسكو خابيير[1] - هم أفضل ما اكتشفناه حتى الآن، ويبدو لي أنه من بين الناس غير المؤمنين ليس هناك آخرين أفضل من اليابانيين. إنهم أناس حسنو المعشر وعادة من الطيبين وليس الأشرار، وهم أناس شرفاء لدرجة تثير الإعجاب".

شعروا أيضاً بالاستغراب للحفاوة التي استقبلوا بها من قبل التجار والصنّاع والبحارة والجنود الأوربيين وسرعان ما قلدهم السكان الأصليون. كان أول إنزال بحري للبرتغال في اليابان عام ١٥٤٣م في تاناجا شيما Tanagashima وهي جزيرة صغيرة تقع جنوب الأرخبيل، وكان أبرز شيء أثار إعجاب السكان الأصليين، كان شيئا يحمله الأجانب في أيديهم "مستقيما من الخارج وله مجرى من الداخل ومصنوعا من مادة ثقيلة" إنه وصف للبندقية القديمة arcabuz الذي نجده في وثيقة يابانية تعرض بالتفصيل رد فعل السكان الذين حاولوا التقليل من شأن هذا الشيء الجديد بأن طبقوا عليه مفاهيم تاوية taoistas، كما أنهم أصيبوا بالذهول بما عليه هذا السلاح الناري وفائدته القاتلة.

---

[1] رسالة بتاريخ ٥/١١/١٥٤٩م.

وعندما أطلق الأوربيون البنادق المذكورة أمام أعداد كبيرة من المشاهدين "أصيب الجميع بالاستغراب ثم الفزع لينتهي بهم الأمر إلى الصراخ بصوت واحد قائلين "نريد أن نتعلم ذلك! "[(١)]. وعلى الفور قام سيد الجزيرة بشراء البندقيتين من البرتغاليين رغم السعر الباهظ، وأمر الصنّاع بتقليدها. ومن الجزيرة الصغيرة انتقلت حمى استخدام الأسلحة النارية في كافة المحافظات، وتقدمت صناعتها لدرجة أنه في عام ١٥٧٥م أمكن الانتصار في المعركة التي دارت حول بلدة نجاشينو Nagashino بفضل استخدام المدافعين عنها لحوالي ثلاثة آلاف بندقية، الأمر الذي حال دون تمكن هجمات الفرسان من المكان. كما استخدمت هذه البنادق في معارك يابانية أخرى لكنهم لم يكونوا يعرفون استخدامها بشكل فعّال. كانت هذه الأسلحة فعّالة في المعركة التي دارت حول نجاشينو، وأحدثت تحولا حاسما في التاريخ الحربي والسياسي للبلاد.

وما حدث في أوربا حدث في اليابان حيث أدى استخدام الأسلحة النارية إلى إلغاء الفروسية وإحلال المشاة محلها من حيث هي تشكيل حربي قوي، وكما حدث في أوربا أيضاً كان ذلك يعني انتصار سلطة سياسية مركزية على النظام السياسي اللامركزي والفوضوي الذي كان عليه الفرسان الإقطاعيون. وبالفعل نجد أن الثلاثة آلاف بندقية التي كانت تدافع عن مدينة ناجاشينو كانت تنسب لجيش نوبوناجا Nobunaga الذي وحّد اليابان.

ها قد بدأت خطوات في طريق التوحيد عندما دخلت البلاد في اتصال مع الغرب لكن الأداة المستخدمة هي السلاح الناري الذي هيأ وساعد بطريقة غير عادية على تطور تلك البلاد[(٢)]. كان هناك اتجاه مواز لهذا الخط مثل الذي كانت تسير فيه الملكيات الأوربية ذات السلطة المطلقة مبرهنا في هذا الجانب وذاك على وجود توجه حربي وتوسعي.

هناك روح تنظيمية وجماعية شبيهة بما هو موجود في أوربا وكانت تسيطر على معسكر ناجويا Nagoya وقد حدث ذلك عام ١٥٩١م حيث كان هيدي يوشي Hideyoshi يقوم بتجميع جيشه العظيم لغزو كوريا. وقد جمع مؤنا لحوالي ٤٨٠ ألف رجل وكان عدد الذين جرى تجنيدهم وتحريكهم، طبقا للوثائق السرية ٢٢٥ ألفا إضافة إلى

---

(1) Vid Sources of Japanese Tradition, Columbia University Press, 1961, pag. 320.

(٢) جورج سانسون "تاريخ اليابان" لندن، الجزء الثاني، ١٩٦١، ص٣٢٩.

تسعة آلاف مرتبطين بالأسطول. لم يكن الأمر عبارة عن مجرد عملية تجميع عددي بل كان عبارة عن ماكينة حرب معقدة تتطلب حسابات وتجهيزات كبيرة. تمت مصادرة المراكب وأطقمها من المحافظات المطلة على البحر وكان ذلك طبقا لدخول القادة daymies وكذلك الأمر بالنسبة للعدة والأدوات المساعدة الضرورية لهذه الحملة البحرية. "جرى رسم الخطط بكل تفاصيلها- كتب جورج سامسون[1] - وطبقا للوثائق كان التنفيذ جرأة في التنظيم وهو تنظيم مماثل إن لم يكن أفضل من أية عمليات تنظيمية في أوربا المعاصرة".

فشلت الحملة الحربية كما أن الميل الحربي لليابان والمتراكم على مدار حروبها الأهلية العنيفة والطويلة والتي حاول هيديوشي hideyoshi أن يوجهها نحو الخارج، أخذ يهدأ، أو بمعنى أصح انقلب إلى الداخل وأصبح في خدمة نظام استبدادي ومتجرد زاهد quietista بدأه لياسو Leyaso، الذي خلف نوبوناجا Nobunaga وهيديوشي، وتم استدعاء هذا التوجه أيضا لوضع أسس اليابان الحديثة. تولى هذا الأمر السياسي وضع الأسس القوية للنظام العسكري الباكوفو bakufu في توكوجاوا الذي استمر قرنين ونصف من الزمان، وحافظ على مدار ذلك الزمن على عزلة اليابان. وحقيقة الأمر أن هذه السياسة كانت مناقضة لتلك التي تسير عليها الملكيات الأوربية التي كانت تمرّ بمرحلة توسع في العالم؛ ولهذا السبب نفسه وهو أنه إذا لم يكن في اليابان نظام سياسي شديد الكفاءة وله سمات شبيهة بدرجة ما بالأنظمة الأوربية المعاصرة لما كان قادرا على إقامة نظام يقف ضد توجهات الزمن.

كانت توجد في البلاد قيم سياسية لا تقتصر على الزعماء أو الطبقات الرفيعة في البلاد بل كانت منتشرة في كافة أرجاء المجتمع. وفي هذا المقام كان الأب أليخاندرو بالجنانو يكتب في "**موجز الأمور في اليابان**" عام ١٥٨٣م، قائلا: "الناس جميعا من اللون الأبيض وفي حالة يقظة ذلك أن العامة والفلاحين تربوا سويا على قيم فاضلة لدرجة يبدون معها أنهم تربوا في بلاط ملكي، وهم في هذا يتفوقون ليس فقط على أهل الشرق بل على أهلنا في أوربا". ومن جانبه نجد القبطان الإنجليزي ويل آدمز كان يؤكد على أن اليابانيين في عام ١٦١١م". "هم محكومون من خلال مدنية عظيمة ولا توجد بلد في العالم تضاهيها في هذا".

---

(١) تاريخ اليابان، الجزء الثاني، ص٣٥٢.

الشيء الملحوظ هو أنه عند قراءة كافة الرسائل التي كتبها اليسوعيون لا يوجد أي شعور بالتفوق السلالي أو الثقافي على اليابانيين. بل وليس هذا فقط إذ أحيانا ما يحدث العكس وهذا ما يكتبه الأب أورجانينو إلى رفاقه في أوربا، في معرض مقارنة معهم، هذا إذا ما نحينا جانبا ميزة الدين، " siamo barbarissimi ". وكتب ج. ب. سامسون[1] "لا يجب أن نشعر بالمفاجأة بالترحاب الذي وجده المبشرون في الشعب الياباني، فليس هناك أي بلد آخر في آسيا كان أفضل استعدادا منه بكل فئاته الاجتماعية لتلقي دروس التبشير والمعاملة الودودة. ومن حقائق الأمور أيضا أنهم طوردوا مطاردة بشعة بشكل لم يحدث لهم في أي مكان في العالم. ويمكن فهم هذا التناقض من خلال الطابع الثنائي dualista للمجتمع الياباني حيث يجمع بين حسّ قوي في باب الأخلاقيات الاجتماعية وبين انعدام الرحمة بشكل مطلق في تنفيذ القانون".

كانت السهولة في استقبال المسيحية من قبل الشعب الياباني، وخاصة في المحافظات الجنوبية، الذي جعل لهذه الديانة أهمية سياسية مفاجئة من حيث قدرتها على أداء دور في دعم التحالفات الأجنبية في باب مقاومة السادة الإقطاعيين "للشوجونابو" الجديد، نقول كانت هذه السهولة هي السبب الذي دفع بزعماء هذه البلاد اتخاذ إجراءات راديكالية ضد ديانة الغربيين، وكان من الممكن أن يستخدموا في تأييد هذه الإجراءات أسانيد ذات أصول غربية، ذلك أن هذه الفترة كانت تشهد التطبيقات التي نفذها الأمراء الأوربيون لمبدأ "cujus region ejus religio". وعموما كان الانطواء السياسي والديني لليابان نوعا من البرهان على وجوه الشبه القائمة بين الغرب والشرق الأقصى، وهذا ما تبدى أيضا في باب المعرفة العلمية.

وهنا نجد أن ج. ب. سامسون، أبرز المتخصصين في هذا الموضوع، يلح دائما على أنه كيف أن سياسة الانطواء الثقافي التي مارستها الأسرة الحاكمة "توكوجاوا" أسهمت في البرهنة على حالة العطش التي يشعر بها اليابانيون للمعارف الأوربية، مقارنة باللامبالاة التي تجلت في موقف الصينيين رغم أنهم استمروا في اتصالاتهم مع الغرب حتى عام

---

(1) The Western World and Japan, New York 1915, pag174.

وفي هذا أشار المؤرخ المذكور[1] إلى أنه أثناء حكم أسرة مانشو manchú قامت ١٧٢٣م. مجموعة من الجهابذة اليسوعيين. . . بتقديم جزء طيب من المعارف الغربية ووضعه رهن إشارة المثقفين في البلاد، إلا أن هذا الإهداء الكريم قوبل بازدراء من قبل البيروقراطيين الصينيين المعجبين بأنفسهم، ولا يكاد يُلمح أي تأثير للعلوم الغربية على الحياة في الصين وظل ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر. عكس ذلك حدث في اليابان ذلك أن أوربا كانت ممثلة من خلال عدد من التجار وقباطنة السفن الذين يسكنون في حي ضيق في منطقة الميناء، وبالتالي كان السكان الأصليون هم الذين بذلوا الجهد من أجل النفاذ إلى العلوم الأوربية".

تمكنت اليابان من خلال كتب علم الفلك أو الطب التي ترجمها اليسوعيون إلى الصينية، أو من خلال تلك التي قدمها التجار القادمون من "البلاد الوطيئة" (هولندا) إلى مجموعة رانجاكوشا Rangakusha أو "العلماء الهولنديون، وكذلك بفضل الاتصالات مع بعض الرجال الأوربيين البارزين، تمكنت من الإبقاء على الاتصال بالعلوم والتقنية الغربية رغم الصعوبات، الأمر الذي يفسر تلقيها السريع عندما سقطت الحواجز التي جعلت البلاد معزولة حتى بداية عصر أسرة "ميجي Meiji".

ربما كان من الأمور والأحداث المأساوية البارزة في التاريخ العلمي ألا تتمكن وجوه الشبه البارزة هذه بين اليابان والدول الأوربية من أن تُترجم منذ وقت مبكر في عملية تبادل أكثر صراحة ومباشرة. ذلك أنه أيا كانت الجهود المبذولة التي قامت بها أقلية من الناس أصبحت البلاد مغلقة الأبواب أمام الاتصال الخارجي، غير أنه استمرت حضارة يابانية منظمة وراقية لكن في إطار راكد؛ أما الأوربية فقد ظلت في مسارها الصاعد الذي يفيض من جانبيه وارتبطت بتوسعها في الكرة الأرضية. ومن البدهي أن النصر كان حليفها، لكن كان يمكنها تعلّم الكثير من هذا الأرخبيل الذي أغلق أبوابه أمامها بقوة وكبرياء. وسرعان ما أصبحت مختلفة تماما تلك الفكرة القائلة بأن أوربا تكونت من الشرق في الوقت الذي ظلت فيه على مدار القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر وقد نضج وعيها التاريخي البونفرسالي، مصحوبا بمجموعة من المفاهيم الخاصة من مختلف الحضارات والتي اجتمعت في تركيبة معقدة وواحدة.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٣.

عكست هذه التركيبة مضمونا أكثر إمكانية وإنسانية، فمن خلال التجربة التاريخية اليابانية يتضح بجلاء أن مصطلحي الشرق والغرب مرتبطان ببعضهما، وأن الحد الأقصى من الشرقية يعني في حد ذاته بداية الاستغراب. الأرض كروية وإذا ما استمر المرء في سيره نحو الشرق ينتهي به الأمر في الغرب، وكان الأسبان يعرفون منذ القرن السادس عشر أن اليابان ليست فقط مجرد أرض بعيدة إذا ما اتخذنا المسار المتجه إلى المشرق بل هي ايضاً الأرض الغربية القصية إذا ما اتخذنا الوجهة المضادة.

الأمر هنا هو أن المرء يأسف لعدم وجود أي ذكر لليابان في كتاب "**دروس حول فلسفة التاريخ العالمي**، ذلك أن معرفة هذا البلد كانت ستتولى توسيع إطار الحضارات الشرقية وتغير المنظور العام حيث يتبدى الشرق من خلال التأويلات التاريخية الحاسمة في تكوين أوربا المعاصرة. لم يكن الشرق ليظهر في منظور متفلت وكأنه مجموعة من المناطق الجغرافية الأكثر بعدا والأكثر تكتلا والأكثر طبيعية – بالمعنى الهيجلي للمصطلح – وأكثر لا إنسانية في حقيقة الأمر ولكن يتبدى كعملية توسع لدائرة يمتد خطها لينتهي به الأمر إلى نقطة البداية ثم تنغلق الدائرة على نفسها بقانون هندسي أدى إلى تشكّلها وبقانون جغرافي يرتبط بكروية الأرض. وخلاصة القول كان يمكن أن تكون هناك رؤية أكثر توحيدا وأخوية في باب الجغرافيا والتاريخ البشري.

يمكن تخيل بعض صفحات لم تنشر بعد في ديوان جوته West-Östliche Divan وهي صفحات يمكن أن تحمل في طياتها مقصد التبادل الروحي إلى أقصى درجة والذي تتناغم معه روح هذا الكتاب الناضج للشاعر الألماني. كان يمكن أن يكون تبادلا بسيطا رغم بعد المسافة وأحيانا ما يكون تماثلا حقيقيا. ويا لها من تلك القصائد التي كان يمكن أن يكتبها ذلك الكلاسيكي الألماني العظيم الذي استطاع أن يجمع بين فاوست وهيلانة، ولو عرف ليس فقط المشهد الإنساني للبحر المتوسط الياباني بل الإنتاج الأدبي الذي يوحي به المكان والذي يفصح عن حدس شعري شديد الاختلاف عن الحدس الشعري الغربي، إلا أنه يثير دهشة مشابهة وغير متوقعة! وبمبعد عن الهند، أي على الجانب الآخر من الصين كان هناك بلد غريب مكون ليس من خلال كتل قارِّية متلاحمة بل من جزر ووديان وسهول وجبال رائعة التكوين، كان يعيش فيه بشر لهم مشاعرهم ومعتقداتهم وعاداتهم التي تعكس نتفا من ملامح أقصى الغرب رغم الاختلافات الأخرى.

XVI- التقنية والثقافة الشرقية

أرادت اليابان أن تلعب دور فاوست الأكثر ذكاء من مفيستوفلس Mefistofeles. كان يهم إمبراطورية الشمس المشرقة، وبشكل أساسي، آخر شخصية لفاوست، المهندس والمسيطر على العناصر، كما أنه أيضاً كان مهتما بظاهرة استعادة شبابه طالما أن ذلك لا يتطلب أن يبيع روحه الشرقية. واختصارا للقول نجد أن التقنية الفاوستية للغرب كان يجب أن تسهم في تطوير القوة الإمبراطورية اليابانية، التي تغذت على العصارة الأكثر نقاء من الناحية التاريخية لها. وبالنسبة للتحولات التي بدأت بطريقة ممنهجة في عصر أسرة 'ميجي' كان يجب أن تقتصر على البنية العلوية الاجتماعية وتحتها يظل الجوهر التقليدي في البلاد سليما لا يمس، وليس هذا فقط بل يصبح مدعوما بفضل الأدوات الجديدة التي تخدم في باب حداثته واستمراريته.

إلا أن مصير الحضارة التقنية الغربية له صلة بالشيطان أكثر مما كان يظنه المستفيدون اليابانيون، الذين لم يكونوا يؤمنون به نظرا للأسباب الواحدية monisters والطبعية المرتبطة بمفهومهم عن العالم؛ فالتقنية الحديثة بما عليه من دينامية داخلية وتلقائية، تميل إلى الفرار من رقابة الإنسان بنفس درجة تطورها. فعندما يتم إنتاج ثلاثة ملايين طن من الصلب أو أربعة كان من الضروري استخدام هذه المنتجات في صناعة دبابات مصفحة ومدافع وكباري وقضبان سكك حديدية وقاطرات دون أي مساس بنمطية الحياة في اليابان؛ إلا أن أفران الصهر العالية تتوالد بفعل قانون التوالد، وعندما يصل الأمر إلى إنتاج ثمانية وعشرين مليون طن، وهو حجم إنتاج اليابان عام ١٩٦١ أو إلى ٤٣ مليون طن، الإنتاج المتوقع عام ١٩٧٠ فليس من الممكن استهلاك كل هذه الكتل الحديدية في صناعة الأسلحة وفي المشروعات العامة وها هو المدّ الذي عليه المعدن المصهور يهدد بإغراق ودفن الافتراضات والأسس التي عليها حضارة نباتية في جوهرها.

ومن الأمور المثيرة والمدهشة هو أن اليابان، ذلك البلد المنتج للخشب بطبيعته، أصبح البلد الذي صعد بسرعة عالية سلم إنتاج الصلب، حيث تضاعف إنتاجه مقارنة بما كان عليه وضع البلاد خلال السنوات السابقة على الحرب. لم يكن الأمر محاولة لملء فراغ قائم أكثر منها الوقوف في مصاف الطليعة في حقل تقني واقتصادي يبدو أنه غريب على الطابع الأصيل لذلك البلد. ولهذا فإن هذه الظاهرة مهمة من المنظور الصناعي والثقافي، أى العنصرين شديدي الارتباط ببعضهما في الحياة اليابانية. ولا يرتبط الأمر فقط بمصير اليابان بل يرتبط أيضاً بالتقنية الغربية نفسها والتي تتركز في الأساس حول صناعة الحديد والصلب منذ الثورة الصناعية الأولى.

هل يحمل معه هذا التقليد لهذه التقنية من قبل الغرباء أكثر مما هو مجرد استخدام خطوات صناعية واقتصادية بمعنى أنه يمتد أيضاً إلى الأشكال الجمالية والثقافية بعامة في الغرب؟ أو هل توجد إمكانية أن تكون هناك أنماط شديدة الخصوصية، مثل تلك التي توجد في اليابان في هذا المقام، قادرة على مقاومة المدّ القوي الذي يتمثل في المواد الميكانيكية الجديدة، وليس ذلك بشكل سلبي وخامل، مع وجود مخاطرة مؤكدة في الضياع بشكل متسارع بدرجة ما، بل يمكن أن يكون هناك رد فعل شجاع قادر على استخدام المادة الجديدة من المنظور التقليدي الذي يتسم بأنه - انطلاقا من تقليديته - قادر على أن يواكب التطور والتفاعل مع المتطلبات الجديدة؟

هذا هو السؤال الذي يوجهه المثقفون اليابانيون للأوربي بشكل يومي. وهو السؤال نفسه الذي يردده الرحالة وخاصة عندما يصعد أو يهبط المرة تلو الأخرى مستخدما المصاعد في الفنادق اليابانية الحديثة.

الإجابة في مثل هذه الحالة تميل إلى الإيجابية لأسباب من بينها أن المصاعد سليمة ودقيقة للغاية لدرجة أنك لن تنتظرها، فعندما نضغط على الزرّ يُضاء المفتاح، بمعنى أنه يتحول إلى شيء لا مادي ويصبح رمزا محضا واعدا بسهمه اللامع. ولا يتأخر الوعد في التحقق بوصول المصعد في صمت ويتوقف دون أدنى خلل عند مستوى الأرضية. وسرعان ما يعتاد المسافر دخول المصعد بثقة دون أن يدقق فيما إذا كان هناك عدم استواء بين الأرضية وبين أرضية المصعد حتى يتجنب أي خلل، إذ أن هذا الخلل يحدث بشكل شائع ليس فقط

في المصاعد السلتية الأيبيرية بل يحدث أيضاً في تلك التي تنسب إلى البلاد الأكثر تقدما في المجال الصناعي. وعندما نقارن هذه بالمصاعد اليابانية، فإن الأغلبية الساحقة من تلك المصاعد الأخرى يتولد عنها الانطباع بالفظاظة، أما اليابانية فهي تهبط بسلاسة وسرعة دون أن يتأتى عنها أبدا ذلك الإحساس غير الطيب بأن هناك هوة تحت القدمين، كما تتوقف وكأن هناك مخدات من الريش مُعدَّة لذلك وليس السوستة المعدنية؛ يتولد لديكم الانطباع بأن من يرشدكم واحد من أدق مقدمي الخدمة الذين كانوا ينقلون الكراسي الرقيقة اليدوية التي يراها السائح في متحف توكوجاوا في بيكّو.

تتسم حوائط كابينة المصعد بأنها ذات جودة خاصة نجهلها في البلدان ذات التقاليد الميكانيكية الكبرى، يحيط بكم المعدن، لكنه معالج بشكل لا يبدو أنه هو، إذ به، لست أدري، لمسة طرية وحية تشعرون بها في ألواح الألمنيوم أو الصلب الخاص يجعلها تشبه الألواح الخشبية. يتسم الدهان أيضاً بالكثافة واللمعان الذي يذكرّ بتلك اللاكيهات الرائعة المدهونة بها تلك الكراسي الخاصة بالسفر، كما أن المصعد يستجيب بخفة لضغط الأصبع لدرجة أن المرء يشعر بنوع من لمسات ذلك المجتمع التوكوجاوا الشديد التنظيم لدرجة ان أوامر رؤسائه كانت تنفذ قبل النطق بها. وبالفعل يمكن أن تتأقلم التقنية مع الميول المختلفة دون أن يتدهور وضعها، بل يحدث العكس إذ تتقوى وتكتمل.

وما يتمخض عنه أمر تحليل المصعد يمكن أن ينطبق بداهة ماكينات التصوير اليابانية، إذ من المذهل أن نشهد مراحل تصنيع كاميرا "كانون" ونلاحظ السرعة المذهلة للأصابع الناعمة للعاملين وهي تقوم بتركيب مئات القطع المكونة لكاميرا تصوير حديثة. ليس الأمر مجرد مهارة يدوية بل يتجاوز ذلك إلى ما هو قدرة روحية. وبالنسبة لحقل الاهتمام لمن هو معتاد على القراءة باليابانية هو أكثر اتساعا وتعقيدا مما عليه الغربي، فالكتابة بالكانجس Kanjis هى عمل فني يتطلب مهارة غير مسبوقة عند من يقوم بوضع النقوش التي عادة ما تكون هي ملامح الكتابة في الغرب. كما أنه يتطلب أيضاً آلية ذهنية سريعة لربط وتركيب القطع التي يمكن أن تكون ذات فائدة في النشاط الصناعي.

يمكن أيضا أن نستشف أعماق هذا العمل اليدوي للعاملين، ألا وهو أن العناية الفائقة التي يولونها عندما يقومون بتنعيم زجاج العدسات تذكرنا بالعناية التي يولونها لعملية النظر

على مدار تطور ثقافة شديدة الجمالية والبصرية كما هي الثقافة اليابانية، إذ تصبح كلها عبارة عن عملية تنعيم لا تكل للوصول إلى كمال أداء العدسة التي هي زجاج العين البشرية.

غير أنه ربما كانت العمارة المدنية اليابانية أفضل حقل لسبر أغوار المشاكل الناجمة عن التقاء التقنية الغربية بالثقافة الشرقية.

فالبناء التقليدي باستخدام الخشب يظل باقيا بكل نقائه، ومن المنتظر أن يستمر وقتا طويلا رغم أنه أغلى من البناء على الطريقة الغربية. إلا أن الأمر المهم في الحقيقة ليس الحفاظ على أنماط تقليدية وصراعها مع الأنماط المستوردة بل في ظاهرة التناضح والتكامل، وهما ظاهرتان لا تقتصران على العناصر الزخرفية أو غير الجوهرية بل يتعلق الأمر بمفهوم المنزل نفسه؛ إذ هناك حرية الاتصال بين الفراغ الداخلي والخارجي وهناك إحلال للبساطة الناجمة عن التركيبة الوظيفية محل المتعة الجمالية التي تقدمها العناصر الزخرفية؛ هناك تناغم بين المكونات المختلفة للمنزل طبقا للنمطية التي هو عليها، فالمنزل الياباني مشيد انطلاقا من نمط الحصيرة أو التاتامي؛ هناك مفهوم الحركة والثانوية لقطعة الأثاث والقطعة الزخرفية. . . الخ، وهذه كلها من سمات العمارة الحديثة التي ترى نفسها مسبوقة بالعمارة التقليدية اليابانية.

تعتبر الـ seihin، أي "روح البساطة" التي هي حجر الزاوية في كافة مكونات الثقافة اليابانية وخاصة في العمارة، في حالة تراسل تام مع متطلبات الإنسان الغربي، وذلك للارتباط القوي لهذه الروح بالمفهوم التقني المحض، ذلك أنه من المهم الإلحاح على أن الأمر عبارة عن تأثيرات لا تقتصر فقط على الميول والمذاق ولكن تمتد في الوقت ذاته إلى التقنية الإنشائية، كما أن تلقي دروس العمارة التقليدية اليابانية التي كانت محل عناية خاصة من قبل المعماريين الأوائل في العالم الغربي كان ممكنا بفضل التطور في استخدام المواد وتقييمها النوعي. هناك استخدام المعادن الخفيفة، وخاصة الألمنيوم حيث جعل الأنظار تتجه نحو تقدير العمارة اليابانية التي تستخدم الخشب، وهي عبارة تسبق في حد ذاتها ذلك الفهم، وذلك لممارسة عملية التنعيم والتركيب للأخشاب المستخدمة بدقة ومهارة لدرجة تبدو معها أمرا ميكانيكيا في نظر الغربيين.

وقد أشار برونو تات B. Tout[1] إلى أن العدة التي يستخدمها النجار الياباني تتسم بالتنوع والدقة الشديدة والتخصص أكثر من "الأوربي الذي يقوم بسبر أغواره ويتناوله من خلال عدة ميكانيكي"، ويعتبر الورق كمادة شيئا شديد الاختلاف عن الزجاج. غير أنه من المنظور المعماري فإن مدلول الحائط والضوء والاتصال بالفضاء الخارجي.... الخ، الذي يتطلبه استخدام أي من المادتين فيه شبه كبير بينهما، وهذا ليس من المبالغة القول بأن الفيلا الأمبراطورية دي كاستورا في كيوتو تعتبر أقرب إلى فيلا حديثة في دوسلدروف أو ميلان مقارنة بـ "التريانون الصغير" في قصر فرساي أو "منزل الفلاح" في أرانخويث.

يبدو أن التقنية الحديثة في زماننا هي في أغلبها موجهة إلى الإنسانية بعامة وأن علينا معشر الأوربيين أن نوسع من منظورنا ونسأل أنفسنا عن الإسهامات الممكنة الآتية من شعوب غير الشعوب الغربية. ولدت التقنية الحديثة في الغرب لكنها كانت مدعوة إلى تجاوز الإطار الذي ولدت فيه بسرعة، وقامت أوربا بلعب دور كأنها ممثلة للبشرية جمعاء، وهذه الأخيرة كانت مهيأة بشكل جيد لتلقي ذلك والعمل على ازدهارها بشكل لا لبس فيه؛ وحقيقة الأمر أن هذا لا يشمل كافة الشعوب بل يقتصر على بعضها وأحيانا تلك التي توجد في مكان قصيّ، مدفوعة بأسباب سرية من الصعب تحديد ماهيتها، وهنا يجب على الأوربي أن يقوم بتحليل الموقف وألا يقتصر التحليل على فهم مصير تقنيته في العالم الشرقي بل حتى يميز بشكل أفضل، من خلال المقارنة، أصولها في العالم الغربي نفسه.

إنها مهمة لا يمكن للرحالة إلا أن يقوم بها على مسئوليته الخاصة في كيوتو بعد زيارة فيلا كاتسورا الإمبراطورية، بينما يقوم بالهيام على وجهه في الشوارع الجذابة أو في الصحون والغرف التابعة للأديرة. من الناحية الظاهرية تبدو كيوتو بعيدة عن العلوم والتقنية، هي مدينة جمالية في المقام الأول ودينية وملكية؛ كذلك كان الأمر بالنسبة لروما عندما شيدت لتكون المركز الأساسي لثاقفة عصر النهضة والتي من خلالها أخذ الغرب يخطو خطواته في العالم الحديث. وهنا فإن كيوتو تذكرنا بروما، وربما، بشكل أفضل، بشيء وسط بين روما وفلورنسا وذلك تفاديا لهذا الصنف من التشبيه حتى لا تثار حوله الزوابع. وإذا ما كان الكتاب الذي ألفه فوسكو مارايني Fosco Maraini مؤخرا بعنوان

---

(1) العمل السابق، ص١٩٧م.

" اليابان " يُعَد واحدا من أفضل الكتب عن ذلك البلد البعيد فإن مردّ ذلك في الأساس هو أن منظوره إيطالي.

الأمر المهم في المقارنة لا ينسحب كثيرا على المضمون الفني مثلما ينسحب على الوظيفة التي كانت مهيأة لها تلك المدن في تطور العوالم الثقافية التي إليها تنسب. إنها إذن مدن تستكن وراءها كتل ضخمة من الثقافات الكلاسيكية. وهذا هو بشكل أكبر في حالة المدينة اليابانية، ذلك أن الثقافة الصينية تعني بالنسبة لها كما لو أن الإمبراطورية الرومانية، ومعها أثينا، لم تتدهورا بل ظلتا قائمتين بدرجة أو بأخرى بن درجات الحيوية. كما أن كيوتو تبدو شبيهة بكلتا المدينتين الإيطاليتين في أمر ليس فيه خلل؛ وهو أن "الميكادو" أو "السلطة الدينية"، مارست على مدار القرون في كيوتو وظيفة شديدة الشبه بتلك التي مارسها البابوات والتي كانت على شاكلة الوظيفة التي مارسها الأباطرة الرومان الاستبداديون في الغرب. لم يكن الإمبراطور الحقيقي يقيم في كيوتو بل في كاما كورا Kamakura، أو في ييدو Yedo. وبمقولة أخرى فإن مفهوم الازدواجية بين السلطة الكنسية والسلطة السياسية هو، بشكل عام، أمر مشترك بين أوربا واليابان. وفي هذا نجد كيوتو تشبه روما أكثر من شبهها ببكين أو بغداد أو إسطنبول.

هناك أيضاً وجه شبه آخر يتم اكتشافه بالسير في الشوارع أو الأديرة التي توجد في كيوتو وهو شبه يجب أن نضعه في الاعتبار مثل ذلك الوجه الذي أشرنا إليه آنفا، وذلك حتى يمكن فهم الانضمام السريع لليابان إلى الحضارة الغربية: إنه أمر يتعلق بالذاتية اليابانية التي تتجلى بوضوح من خلال الفن، كتب جروسيه: " : " إن الفن الصيني كان فن مدرسة حتي لدى أكبر الفانين العظماء فهو دين شامل. أما الفن الياباني، حتي وهو في شكل أعمال مشتركة لمدرسة فنية ما لا يزال يخون شخصية الفنان الصارمة وذلك بنفاد صبر" (1).

ففي لوحات المشهد الطبيعي نجد أن الموضوع وطريقة معالجته يعكسان دائما معنى الذاتية ويشمل ذلك عندما يتعلق الأمر أيضاً بتكليف بعمل ما طبقا لأشكال نمطية، إذ هناك دائما الكثير من المشاهد الطبيعية الموروثة في مدرسة كانو والتي يمكن مشاهدتها في أديرة

---

(1) العمل المذكور سلفا، ص١٨٦.

كيوتو حيث تُرَى بشكل محدد ذكرى أحد الخلجان، وذلك الطريق الجبلي وهذه القرية التي يسكنها الصيادون.

هذا الملمح الذاتي أو الفردي موجود بشكل أدق وأكثر أهمية، في إطار تلك الاعتبارات، في اللوحات الخاصة بالشخصيات. تختلف الأعمال النحتية والمرسومة اليابانية في هذا الأمر عن الصينية ابتداء من أصولها الأولى وخاصة في العصر الذهبي الذي عاشته كاماكورا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. الأمر هو أن اللوحات الميتافيزيقية الصينية تتحول في اليابان إلى دراسات نفسية محددة، فالمشاهد يشعر بأنه في حضرة أفراد يتقنون السمات البشرية وهذا لا يحدث في القليل من الحالات لكنها شخصيات فردية حقيقية ليست مثل تلك التي توجد في أعمال أسرة سونج Sung، أي ليست مجرد أمر ظاهري أو ذريعة إنسانية للإعراب عن القوى الكونية.

هناك صلة حميمة بين هذه الفردية الجمالية وبين الفردية الدينية التي عليها البوذية زن. وهنا يقول د. ت سوزوكي[1] أكبر مطلع على هذه الطائفة "إذا ما كانت طائفة زن في البوذية أحدثت تأثيرها على الحياة اليابانية قاطبة، وخاصة في الجانب الجمالي، بدرجة غير مسبوقة لدى كافة الجماعات الأخرى، فإن ذلك مرده أن الزن يتوجه مباشرة إلى الأفعال وليس إلى مفاهيم الحياة". توضح البوذية زن موقفا مباشرا وحدسيا أمام الحياة وتقوم في ذلك على أساس سيطرة حاسمة للفرد انطلاقا من جذور اللاوعي نفسها حيث تنشأ البساطة في التعبير والميل إلى التنويه ورقي الأسلوب والحرية الفريدة للفن الياباني الجيد. والفن عند البوذية زن هو عمل يمثل الخلاص والإلهام وهو نوع من تقنية الحرية.

قد يكون غير مسموح بوضع مقارنة قريبة بين هذا الصنف من الذاتية اليابانية والأوربية، أو بين ازدواجية السلطات الاجتماعية القائمة في التاريخ الأوربي وبين اليابانية. أضف إلى ذلك أن تاريخ اليابان شهد سلسلة من التحولات الحاسمة وحدد توجهات شديدة الاختلاف في مراحله المختلفة وبالتالي فإن هذا التوازي أو المقارنة أمر يصعب اتخاذه وخاصة عندما نرى أن التاريخ الأوربي قد اتسم بانكساراته السريعة. وبغض النظر عن إمكانية اصطدامنا في هذا المقام بنوع جديد من درجة التشابه لا يسعنا إلا التعبير عن

(١) "مقال عن البوذية زن" الطبعة الثالثة ١٩٤٣ باريس، ص١٣٤١.

الإحساس بأن الفن والسياسة والثقافة في اليابان تحركت بصفة عامة في إطار جو أكثر حرية مما عليه الوضع في الدول الشرقية.

وأبرز شيء في هذا المقام هو القدرة الإبداعية للإقطاعية اليابانية؛ ففي أغلب الدول الإقطاعية هذا يعني التفكك والفوضى ومرحلة انتقالية مدمرة بين فترتين إمبراطوريتين. لكن كانت قرون الخلل في النظام الإقطاعي في اليابان، مثلما عليه الحال في أوربا، قرونا تتسم بالثراء الفكري الكبير. وهنا كتب إي. رسيشير E.I.Rischauer[1]. يقول بأنه "عندما دخلت اليابان عصر الإقطاع خلال القرن الثاني عشر كانت أمة صغيرة وضعيفة ومتخلفة اقتصاديا وتقع على حدود العالم المتحضر؛ لكن مع القرن السادس عشر خرجت من الفوضى الإقطاعية أمة متطورة اقتصاديا يمكن أن تطاول الأمم الأوربية في كثير من الجانب. فقد زاد تعداد السكان من خمسة ملايين إلى عشرين مليونا كما حققت كافة أفرع التقنية تقدما ملموسا.

ربما كان مفهوم الدولة في اليابان أقل أوربية، وهذا ما اكتشفناه في عصر "توكوجاوا" مقارنة بالدينامية للفردية. وانطلقت من هذا المفهوم الأخير حيث أثمرت على مدار القرون ثقافة أرستقراطية عالية الجودة توجد أصداؤها في أنماط حياة كافة الفئات الاجتماعية. إلا أن هذه القيم الأرستقراطية التي جرى وضع درجات لها وتقنينها، مع قيام الدولة الاستبدادية لأسرة "توكوجاوا"، على الأساس الروحي للكنفوشيوسية الجديدة. افتقدت اليابان لشرطين أساسيين كانا موجودين في العالم الغربي حتى تكون الدولة الاستبدادية ذات طبيعة فردية في جوهر الأمر؛ وهذان هما مفهوم القانون الطبيعي الرواقي المسيحي الذي تعقلن في بداية القرن السابع عشر، وكذا التوسع في أنحاء الكرة الأرضية.

كانت الفردية الشديدة الأسفنجية والإبداعية خلال العصور الوسطى اليابانية ضحية مبالغ فيها لصالح نظام الدولة، إذ أصبح الفلاحون كأنهم تحت حكم بلد استعماري، أي هدفا للاستغلال. ثم ظل هذا النظام سائدا بدرجة ما في ظل "الإصلاح الذي أتت به أسرة "ميجي" حيث استوردت ليس فقط العلوم والتقنية من الغرب وإنما أيضاً النظام الرأسمالي الذي عمل أكثر من مرة على تغيير أشكاله العنيفة حتى يؤدي الموقف إلى النمو الاقتصادي.

---

(١) اليابان: الماضي والحاضر، نيويورك ١٩٥٣م، ص٧٦.

ومن جانب آخر هناك الضغط الجماعي الذي يزداد من جراء اختفاء الازدواجية المكونة من الميكادو-الشوجون (الدين والدولة) والتي أدت إلى إضفاء الطابع الديني على السلطة السياسية الفعلية، وكذا إلى تغييرات خطيرة مثل تلك المتعلقة بازدواجية السلطة المدنية والسلطة العسكرية، الأمر الذي أدى إلى القضاء على النظام الدستوري، الذي كان قد تقدم ونضج بشكل نسبي، خلال العشرينيات.

لكن لم يكن هناك شيء يحول دون التنامي التقني (مع كل ما يحمله من مخاطر ونتائج مدمرة في حقيقة الأمر) وأن يستند في هذا على مفهوم الفردية والحرية الذي يتجلى على مدار قرون كثيرة في الحياة اليابانية، كما أنه ظل حيّا تحت البنية العليا الجماعية. أي أن هذه الفردية كانت ذات سمات خاصة في حقيقة الأمر مثل مفهومها الأرستقراطي للتوازنات الاجتماعية وميلها إلى دمج الشكل والمادة والمواءمة بين النفع المادي والمتعة الجمالية.

يجب وضع التقنية الغربية في خدمة الحياة، وقد ظلت هذه التقنية تقوم بدور السيدة وليس دور الخادمة، إلا أن انتشارها في أصقاع جغرافية وثقافية متنوعة وتطورها السريع خلال السنوات الأخيرة جعل من الضروري الإسراع في بذل جهد حاسم لجعلها أكثر إنسانية. المهمة غاية في الصعوبة والتعقيد، وحتى يمكن معالجتها بشكل جيد هي في حاجة إلى إسهام كافة الشعوب، كل في إطار مفهومه الخاص به لما هو إنساني، وذلك من أجل تحجيم هذه الفردية الخطيرة. وربما كان الإنسان الغربي غارقا بشكل يزيد عن الحد في سيرته وأصبح جزءا مبالغا فيه من موكبها. هناك شعوب أخرى أدارت ظهرها لها، بشكل يزيد عن الحد، أو أنها تركت نفسها نهبا لها وآمنت بها بشكل كبير. وربما نجد اليابان على مسافة ملائمة للإسهام في هذه المهمة المشتركة والشائكة على شاكلة ما يقوم به عدد قليل جدا من البلدان.

XVII- على أبواب الصين

لا تقبل هونج كونج بإقامة المزيد من ناطحات السحاب مثل باقي مدن العالم وذلك لإيواء عدد السكان الذي يتزايد، والذي انتقل من ثمانمائة ألف إلى ثلاثة ملايين في غضون خمسة عشر عاما. تتبدى المدينة نفسها وكأنها ناطحة سحاب ضخمة وواسعة، وعندما تُرى المدينة ليلا من الجانب المطلّ على القارة تتراكب أضواء النوافذ إلى ما لا نهاية دون أن يسهل تحديد الحي الذي إليه تنسب هذه المجموعة الحضرية أو تلك. غير أن اللغز سرعان ما ينفرج في الصباح، فالجزء السهلي من الجزيرة، الذي فيه المركز الحضري، فكتوريا، "يتسم بأنه صغير جدا نظرا للمتطلبات الجديدة للسكان، كما أن الكتل الخاصة بالمباني الجديدة تنقل الانطباع بتراكبها من حيث أنها مقامة على مصاطب متوالية تم تصميمها في سفح الجبل الذي يحمل، بشكل شبه كامل، الجزيرة الرئيسية في هونج كونج. تمتد المباني على سفح الجبل، وتقترب بعضها من "فكتوريا بيك V. Peak" متقاطعة مع المكان وخلفية السماء الزرقاء.

وحتى يكون هناك المزيد من الجرأة في صورتها ارتفعت المباني على الأرض الصعبة تاركة المباني الثانوية التي جرؤت على تسلقها. إلا أنه يبدو أن هذه الأخيرة لم تستسلم، إذ انتصبت أبراجها كأنها تنافس تلك التي تتمتع بميزة أنها الأعلى من حيث الموقع. هناك أبراج أخرى في مرحلة الإعداد وسط الغابة وفوقها بدأ تركيب الروافد الأسمنتية أو الحديد؛ يبدو أن الجبل بكامله قد أسلم نفسه لحمّى البناء. ويمكن القول بأن البشر، الذين يتمتعون بالكثير من الوسائل والتقنيات أكثر مما كانوا عليه أيام بناء بابل الحقيقية، يحاولون التشييد ليس انطلاقا من السهول كما حدث في ذلك العصر والأوان بل من خلال الإفادة من ارتفاع الجبل، وانتهى الأمر باعتبار ناطحات السحاب التي كانت مبعثرة آنذاك على الجبل تبدو وكأنها قطع صغيرة جاهزة للتركيب ضمن لعبة من لعب الأطفال مشكلة بذلك مبنى وحيدا عملاقا.

لكن هونج كونج هي بابل، وليس ذلك من خلال أسلوبها المعماري بل من خلال تنوع لغاتها وحالة التنوع في العقليات والأيديولوجيات والرقع الجغرافية التي يفترضها كل ذلك، إنها تقف في وضع وسط بين أنظمة جيوسياسية وعوالم أيديولوجية ومفاهيم تتعلق بالزمان والمكان شديدة الاختلاف فيما بينها، كما أن التوترات الموجودة تحت السطح تبدو وكأنها تبرر ذلك النوع من التجشؤ المعماري الذي عليه الجبل. فمن ناحية هناك القارة بكل ضخامتها ومن ناحية أخرى هناك المحيط، ومن ناحية ثالثة هناك المفهوم الخاص بسكنى الأرض الذي يتسم بالاتساق والتسلط في الحياة السياسية، وهناك المفهوم المرن لـ telasocracia الأنجلوساكسونية؛ أنها الأنماط الأكثر دينامية والخارجة عن المدار والمبالغة في الجور، والتي هي للراسمالية بلاشك، أمام تلك العناصر التي لا زالت قائمة في هذه المستعمرة التي تنسب إلى العالم الصيني القديم الذي ينفتح عريضا وغامضا ويخضع لثورات رهيبة من وراء "ستار البامبو".

وضعت السلطات البريطانية نظاما بدهيا في ذلك العالم الذي يتسم بالفوران، فهونج كونج هي مستعمرة تابعة للتاج البريطاني، وهناك آلاف الصينيين الذين يدخلونها وبالتالي تتغير تبعيتهم بدلا من النظام الثوري في بكين لتصبح مرتبطة بلندن المحافظة البعيدة، ويتحولون إلى رعايا الملكة إيزابيل. هرب موظفوها من طاحونة الحياة في المدينة وقرروا الذهاب إلى أعلى الجبل والعيش هناك حيث أمر الحاكم Almirantazgo ببناء مباني قوية وموزعة توزيعا جيدا، جيدة التهوية من خلال نسمات الباسفيكي، وذلك حتى يعم بين سكانها الهدوء والتوازن النفسي الضروريين لمتطلبات المهمة الخاصة "بالسلام البريطاني".

لا يُعرَف كم من الوقت يستغرق ذلك، فالإمبراطورية البريطانية، التي كانت منذ سنوات قليلة تحكم مئات الملايين من الآسيويين، تركت معظم أملاكها ما عدا هونج كونج رغم أنها تدخل في البلد الأكثر إثارة للقلاقل في آسيا. ومن البدهي أن هذا موقف مؤقت للغاية بالنسبة لوضعية من التعايش مع الصين التي يحكمها ماوتسي تونج؛ لكن البعد الاحتمالي الذي تتضمنه لوائح هونج كونج يبدو أنه وراء هذه الحمى التي تهزها وكأنها لما كانت غير واثقة من المستقبل أسلمت نفسها لتعيش اللحظة الحاضرة بكل ما فيها.

هونج كونج هي الباب الوحيد للاتصال بين العالم الحر وبين الصين الشيوعية، وهو باب ضيق مقارنة بالفراغات الكبيرة المتاحة والمرتبطة بالأمر ولهذا تتكاثر الكثير من المراكب في الميناء وفي الخليج، والكثير من الشركات والمصانع في المدينة وعلى أرضها. يُلاحظ وجود ضغط غريب وكأن القارة بكاملها تتنفس من خلال هذه المساحة الصغيرة التي تمثلها المستعمرة. تريد الولايات المتحدة أن تغلق المكان، وفي المحلات يلاحظ وجود السياح الذين يريدون الحصول على شهادات منشأ وذلك حتى يتمكنوا من إدخال البضائع التي يشترونها من هذه المدينة إلى بلادهم. وبالفعل يبدو أن عددا كبيرا من المنتجات المصنعة في هونج كونج يباع فيما وراء البحار، لكن المدينة لم تكن لتنمو بسرعة كبيرة كما أن وضعيتها الاقتصادية ليست شديدة الازدهار اللهم إلا إذا كرّست نفسها للتجارة غير المباشرة مع القارة التي تمتد في الخلف.

وتحت الفندق، وتحديدا إلى جوار الميناء، هناك محطة السكك الحديدية، تصل القطارات وتخرج من المكان ليل نهار. والقطار هو من أهم الوسائل التي تدعو للسفر أكثر من أية وسيلة أخرى إذا ما امتدت خطوطه بين البلدان. وبعد خمس وثلاثين كيلومترا يعبر القطار "ساتر البامبو"، وبعد مائة وخمسين كيلومترا يصل إلى كانتون عاصمة الصين الجنوبية، ويبتعد عن هذا ينطلق الخيال وقد انفك عقاله مدفوعا بالوصف الذي نقرأه في الدليل السياحي للمدينة.

هذا الخط يسير شمالاً عبر هانكو وبكين ومروراً بروسيا ثم إلى كالاي وجبل طارق.

إنها فكرة منتشرة وشديدة البريطانية ذلك أن الإنجليزية في أي مكان على ظهر الكوكب يمكن أن تعطي قفزة للإنسان. لكن الرحالة الأيبيري الجيد لا يسعه إلا التفكير في الطرف الآخر الذي ينتهي إليه خط السكك الحديدية الأوربي الأسيوي، وما يدفعه في هذا الاتجاه لا يقتصر فقط على الشعور الوطني بل نظريات محددة للغاية في هذا المقام؛ الأمر هو أن جبل طارق تشبه هونج كونج كثيرا بما فيه من الصخرة ووضعها الجغرافي وموقفها السياسي. وفي هذه الحالة نجد أنها عبارة عن باب بين بحرين وقارتين، كما أن الوظيفة التي تقوم بها كل منهما متشابهة جدا وعلى شاكلة بلدة من التجار الإمبراطوريين. إنهما تكادان تكونان آخر المواقع التي بقيت للإمبراطورية البريطانية في القارة الأوربية الآسيوية، وهما

قطعتان متباعدتان لكماشة ضخمة كانت تضم بين فكيّها بعض المناطق، لكنها اليوم لا تكاد تضغط للوهن الذي أصابها.

هونج كونج هي أكبر مما يمكن للسائح أن يتخيلها عند وصوله، إذ تتجاوز مساحتها الألف كيلومتر مربعا. أضف إلى أنها مستعمرة بالمعنى الحرفي للكلمة نجدها مكونة من سلسلة من الجزر وشريط صغير على شاطئ القارة إضافة إلى قطعة أخرى أكبر على سبيل الإيجار من الإمبراطورية الصينية في نهاية القرن التاسع عشر؛ إنها ما يطلق عليها "الأراضي الجديدة" حيث يمكن للرحّالة أن يتحرك بارتياح ويطوف بالقرى والحقول الزراعية التي لا زالت فيها الحياة على الطريقة الصينية التقليدية. تعلن شركات السياحة عن رحلات لها وكأنها أمر فريد وليس فقط لأنه ممنوع على الرحّالة أن يزور باقي القارة الصينية بل لأنها القطعة الوحيدة من الصين التي لا تزال فيها الأنماط التقليدية للحياة قائمة ذلك أنه في الجمهورية التي يتزعمها ماوتسي تونج نجد أن التجربة الرهيبة للقرى (الكومونات) قد أصابت المجتمع بهزة قوية حتى في العلاقات الأسرية. أما بالنسبة لفورموزا، فإن طول مدة الاحتلال الياباني لها والسمات الخاصة بالنظام الحالي أدت إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها طبقا لما تراه وكالات السياحة والسفر.

ومما لاشك فيه أن هناك جرعة من الحقيقة تستكن تحت هذه الدعاية، فها هي حكومة المدينة تسهر على العناية بهذا الركن الصغير من الإمبراطورية المترامية الأطراف وكأنه متحف آثاري حقيقي. وأن يدخله الزائر الراغب في ذلك فهذا مصدر نفع كبير للمستعمرة أكبر من عائداتها الزراعية، ذلك أن كافة كميات الأرز المنتجة لا تكفي لتغذية سكان هونج كونج أكثر من عشرة أيام في العام. ها هي القرى قابعة هناك وحقول الأرز التابعة لها والبحيرات وما بها من بط يعوم على صفحة مياهها والإسطبلات والحيوانات التي شهدها الرحالة كثيرا في شكل وصفي في روايات بيرل بوك.

تعتبر قرية كام تن Kam Ten المركز الحضري المهم بأسوارها الحامية لها من اللصوص، ومنازلها مصطفة بشكل هندسي ومعتمة، أما نساؤها فهن يصنعن قبعات كبيرة من القش وقد علقن فيها أشرطة من القماش لسنا ندري وظيفتها وما إذا كانت الوقاية من الشمس أم لا، أو تفزيع الذباب أو أن هناك أسبابا جمالية أو طقسية. وفي آخر الشارع الرئيسي هناك مبنى متواضع

يقوم بدور المعبد ودور الغرفة الخلفية؛ إلا أن الأطفال الصغار الذين يبلغون من العمر خمسة أو ستة أعوام، ويهرولون مع شقيق أكثر صغرا مربوط على الظهر، يبدون وكأنهم في عيون الرحالة شهودا على استمرارية الروح الأسرية القديمة.

يتمتع وادي شتين Shetin بشهرة سياحية كبيرة إذ كانت حقوله شهيرة بالأرز الجيد الذي كان يرسل إلى مائدة الإمبراطور. هناك توجد قرى عمرها يزيد على ستمائة عام، تطبيعا للنمطية الأمريكية، كما يوجد معبد وقبر قديمان، أما في الجزء العلوي لإحدى الهضاب هناك صخرة ذات شكل غريب تسمى "أماح وطفلها – Amah y su"؛ ولها قصة يتم سردها بالتفصيل في ورقة إلى جانب ورقة قائمة الطعام الذي يتناوله السائحون المجلون من الأنجلو ساكسون على أساس أنه فاتح شهية رومانسي.

يكاد يكون كافة السياح الذين يمرّ بهم المرء من دول الكومنولث؛ أحدهما كندي من أصل سلافي، محام في إدمونتون (ألبرتا)، يتحدث دون توقف عن رحلته التي قام بها مؤخرا إلى روسيا، حيث ذهب إلى هناك تلبية لدعوة بطريارك موسكو وذلك حتى يعرف عن قرب الحياة الدينية في البلاد. وبالنسبة لتعليقاته حول الحياة الروسية ورغبته في أن يشاهد كل شيء والإفادة من الوقت نهارا وليلا، من خلال الجولات السياحية، هي جديرة بملاحظات متأنية وساخرة من طرف رحالة آخر أسترالي، قسماته تحمل هدوء الحقل؛ إنه حقل واسع ووحيد هيأ له نوعا من الكبرياء الإسلامي، رغم أنه لا يأنف من وصف الأمر بتفاصيله. في مزرعة ابنته ليس من المسموح بتغذية أكثر من أربعة نعاج لكل ميل مربع. الأمطار قليلة، وأحيانا ما يمر عام دون أن تمطر. وعندما يمرض أحد الفلاحين يتم إبلاغ الطبيب بحالتهم من خلال اللاسلكي ويقوم هذا الأخير بإملاء التذكرة الطبية عليهم بالطريقة نفسها استنادا إلى وجود مجموعة من العبوات الدوائية المرقمة التي توجد في خزانة الإسعافات الأولية المنزلية. وعليهم أن ينتظروا عدة ساعات حتى تصل عربة الجيب (الإسعاف).

هذا الجو، الذي يصفه الأسترالي، لا يمكن أن يتعارض أكثر إلا مع المشهد الذي نقوم بوصفه، وهو مشهد مليء بالناس في حقول الأرز والقرى بغض النظر عن الأحياء ذات المنازل الرخيصة التي شيدتها الحكومة للاجئين، وهي عبارة عن خلايا نحل حقيقية حيث الخدمات مشتركة ولكل أسرة غرفة واحدة. يشعر الكندي بالضجر ويحن للوحدة

والعزلة التي في أرضه رغم أنه مواطن (وليس من الرعية). هناك من يسلّي نفسه بالحديث عن مقارنات إحصائية. فتعداد السكان في استراليا لا يكاد يتجاوز ثلاثة أضعاف سكان هونج كونج اليوم، ويمكن لكل سكان نيوزلندا الجديدة أن تستوعبهم المستعمرة.

تقول ذلك سيدة تعيش في مزرعة بالقرب من ويلنجتون، وقد علت وجهها ابتسامة رقيقة. لقد ذهبت إلى هونج كونج عدة مرات خلال السنوات الأخيرة ولا تستطيع أن تتعرف على ملامح المدينة في الرحلة التالية. إنها تتغير بسرعة. يبدو أنها تبلغ من العمر ستين عاما، وقد مرت مؤخرا بمدريد في رحلة العودة، وهي سيدة اجتماعية تتحدث، دون سرعة ولكن بدون توقف، عن منزلها وحيواناتها وزهورها الزرقاء العذبة وخاصة عندما تسقط وتظل فترة طويلة على الأرض دون أن تذبل.

يفصح وصفها عن حساسيتها، وتسهم في ذلك أيضاً لحظة الغروب ووضعية الشجرة التي دارت حولها الدردشة. ليست مزهرة لكنها تعلو وسط البلاج لأن منطقة "ريبولز بيي" Repulse Bay لا يوجد مدّ. البحر في هونج كونج هو الباسفيكي حقيقة، في تقابل وتناقض مع العدد الهائل من السكان الذين يقطنون المستعمرة. وإذا ما كان الناس يعشقون الرموز الحية - هذا إذا ما كانوا يابانيين على سبيل المثال - لعشقوا تلك الشجرة التي يجب أن تضم ضمن زهورها، عندما يأتي فصل الربيع، جمال الأرض والبحر والهواء.

لطيفة وبناءة تلك الرفقة مع السكان الغربيين الذين يعيشون في منطقة المحيط، كما أنها فرصة لتأملات جادة. يبدو أن هناك الكثير من أفضل السمات الإنجليزية مستمر حتى في آخر أطراف العالم، وتمثلت هذه في الرعايا البريطانيين الذين يقطنون في الأراضي الجنوبية. هناك شيء ما لست أدري كنهه عبارة عن الهدوء والسلام والرضا الحيوي في هؤلاء الرجال والنساء الذين يعيشون على الطرف الآخر ويتمكنون من الجمع بين صفات الفلاح والسيد، وبين الراحة التقنية والبساطة الطبيعية، ولكن زال كل هذا من العالم الأوربي العجوز والصناعي؛ لكن عالمهم هذا يتسم بأنه خاو بشكل يزيد عن الحد، وبالتالي فهو معرض للخطر. ويكفي أن يكون هناك نصف عدد الزيادة السكانية السنوية في الصين لتحل محل السكان البيض في خمس العالم.

غير أن زيارة الريف الصيني التي تتم من خلال "ستار البامبو" رعوية للغاية ربما لأنها اقتصرت على إقليم يقع على الحدود، وهناك نهر صغير هو الحد الفاصل، ونحو مصبه في البحر تتوجه بعض الأعشاب بسنابلها المتعددة الزوايا والتي تسطع عليها أشعة الشمس. هناك زوجان من القرى يمكن أن نلمحهما في عمق المشهد ونحوهما طريق مائل بتوه في العمق وهو طريق مهجور للغاية وريفي. وبالقرب من النهر، على الجانب الآخر، هناك عدد من الفلاحين الذين يفلحون الأرض، هناك بعضهم في غدو ورواح في الطريق. يمكن أن نقرأ بشكل ملائم للغاية، فوق الجبل الذي نجد أنفسنا عليه، "معرفة الدولة" لكلوديل؛ وهنا فإن الرحّالة ينسى القلق بشأن المستقبل ويترك نفسه للذكريات الموحية من خلال واحدة من الكتب الجميلة في الأدب المعاصر.

وفي أبيردين Aberdeen، ميناء الصيد الذي أصبح عبارة عن خلية نحل، من جانب إلى جانب آخر، هناك آلاف من الشمبان sampans والحشائش، وهذا أمر يتسم بأنه تقليدي للغاية لكنه ربما كان مشهدا فيه إشكالية لدى من يراقبه، فهناك لا يزال الناس يعيشون طبقا للمبادئ الأكثر قدما مكوّنين خلية أسرية محددة مضادة للقواعد الواجب اتباعها في القرى النموذجية comunas. يولد المرء ويعيش ويموت على تلك القواعد ويستمر الأمر جيلا بعد جيل. هناك بيت متواضع وسط المراكب حيث يتم طهي الغذاء القليل عند حلول المساء. يعود الشباب لتناول العشاء وهم الذين كانوا يسيرون في الطريق، فيقفزون إلى المراكب بخفة ومرح، وهناك أطفال يلعبون مع الكلاب-الكلاب دائما موجودة - صعودا وهبوطا، المرة تلو الأخرى، على السلالم أو التزحلق على درابزين السلم.

وحقيقة الأمر هناك تقاليد طريفة وعادات ومعتقدات مستمرة، لكن الفقر مدقع وعدد المراكب كثير جدا. هناك أكثر من ١٢٠ ألفا يعيشون فوق الشمبان sampans والقش، ويبدو كأنهم أتوا إلى بلدة أبيردين، بحثا عن مأوى وهي مراكب أتت من كل الموانئ الصينية. وانطلاقا من جبل صغير إلى جوار الطريق يمكن رؤية ميناء أبيردين بالكامل. وما يمكن أن نميزه أسفل المكان الذي نحن فيه هو المياه. وبعيدا بعض الشيء تتولى المراكب تغطية المكان لدرجة يصعب على المرء رؤية الرّبى التي تحيط بالميناء. ويمكن القول بأنها تتكاثر وكأنها حقل مرجان تحت حقل آخر أوسع، لكنه أقل كثافة، وهو المقابر

البوذية. ولا زال المشهد حتى الآن مثيرا بسبب التناقض مع الغابة التي تُرى في الجبل والتي تقطعها بلوكات حديثة من المباني السكنية.

XVIII- الورع الرهيب لأنجوكور

منذ أن بدأ العصر الحاضر نجد الإنسان الغربي يشعر بحساسية شديدة إزاء الأطلال. وفي بداية الأمر تتجه هذه الحساسية نحو الأطلال التي تنسب إلى ماضيه هو سواء في العصور الوسطى أو العصر القديم. وكان الإنسان الرومانسي قادرا على الاستمتاع، في حقيقة الأمر، بالأطلال الغربية، لكن رؤيته التقليدية للماضي كانت تجعله يفضل أطلاله، فأمام أطلال أنجوكور Angkor أو ماتشوبتشو هناك قلب رومانسي شعر بأنه مفعم بمشاعره نحوها. ونظرا لعدم وجود علاقة تربطها بالماضي الغربي فإنها تدخل في سياق آخر يعتريه الحنين مقارنة بكنيسة أو بجسر روماني: وهو حنين لا يضيع في أعماق التاريخ لكنه يتوه في الجغرافيا الشاسعة. لا يتعلق الأمر إذن بالأطلال من حيث أنها أطلال محفوظة بشكل سري بين يدي الطبيعة، أو أنها بنية معمارية في حالة بيات شتوي وأنها ذات يوم من الأيام تجلت وخرجت من سباتها العميق.

هناك أيضاً مدينة طروادة وكنوسوس Knossos حيث تجليتا يوما ما لكن جاء ذلك بعد جهود مضنية وطويلة من البحث وإعادة تصوّرها علميا. لكن لم يحدث شيء من هذا بالنسبة للآثار المشار إليها آنفا حيث ظهرت في يوم طيب أمام الأعين المشدوهة للمكتشفين، بكل كتلها الآثارية القاحلة ولا تحظي بعناية الإنسان لكن تسكنها الطبيعة. بدأت عمليات بناء أنجوكور خلال القرن التاسع وهجرها سكانها في القرن الخامس عشر، وتولت الغابة أمرها بعد ذلك. كان من الضروري إخلاءها مرتين في وقت لاحق، إذ أنها كانت تعتبر سيدة أطلالها. كانت المرة الأولى في نهاية القرن السادس عشر وكان ذلك على يد ملوك كمبوديا حيث كانوا يصطادون الفيلة أحد الأيام فعثروا على المدينة القديمة دون أن يتمكنوا من دخولها نظرا لسطوة الأعشاب والحشائش التي تسيطر عليها وتغطيها. ومع هذا كانت

في حالة حفظ جيدة إذ بعد أعمال التنظيف التي وصفها المؤرخون وأثنوا عليها جرى اتخاذ قرار بنقل البلاط إلى العاصمة القديمة، حيث عبر المبشرون البرتغاليون والأسبان عن إعجابهم بها[1].

لم يمض زمن طويل إلا وهجرها البلاط واستعادتها الغابة من جديد وظلت كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث لم تظهر أمام أعين الأوربيين. وحتى بداية القرن العشرين، وبمناسبة زيارة بييرلوتي، كانت مدينة أنجوكورتوم A. Thom مغطاة بالكامل بعناصر الغابة وكان الضروري الخروج منها قبل أن تحل "ساعة النمر" والبحث عن ملجأ لقضاء الليلة في هنجر الزوار المشيد فوق دعامات، على يد رجال الدين البوذيين إلى جوار معبد أنجوكور بات[٢].

أضف إلى المخاطر والغرابة، لم يكن من المستطاع في أوربا أن تكون هناك اكتشافات مفاجئة للآثار مثلما هو الحال في أنجوكور، اللهم إلا باستثناء بعض الحالات غير العادية مثل بايستوم paestum، والسبب هو أن الإنسان شديد القرب كما أن الطبيعة أقل سطوة، فعند الاطلاع على أطلال كنيسة أو حصن نجد أن النباتات التي تغزوها تبدو وكأنها طفيليات وليست كأبطال للموقف، وعموما فإن أطلال الغرب هي ثمرة إنسانية إذ تحمل بصمة الإهمال أو استغلال الإنسان لها، ثم أتت الطبيعة بعد ذلك لتضيف شيئا على الأنسجة وهي في حالة تحلّل.

لكن الأمر مختلف بالنسبة لآثار لمدينة أنجوكور، فإن السبب في الموقف الذي هي فيه هو خارج عن نطاق الإنسان بوضوح؛ فهو لا يرجع إلى عمليات تدمير قام بها الناس على مدار الزمن بل يعود إلى كوارث ناجمة عن قوى الطبيعة التي تنتزع عن الآثار طبيعتها الزمنية؛ إذن نجد أن الانفعالات التي تستثيرها أنجوكور أو ماتشوبتشو أو بالميرا لا ترتبط كثيرا بتدهور المنتج البشري من جراء مرور القرون ولكن ترتبط بعدم الاستقرار الإنساني

---

(١) برنارد فيليب جروسلير "انجوكور وكومبادج خلال القرن السادس عشر، بعد الاكتشاف البرتغالي والأسباني". باريس ١٩٥٨.

(٢) "حاج إلى أنجوكور"، باريس ١٩١٢م، ص٨١ وما يليها.

من حيث هو كذلك. أي أن الحديث هنا يدور حول مشكلة إقامة الإنسان على ظهر الأرض وليس أساسا على إيقاع المسار التاريخي لشعب أو حضارة.

ومن الأمور الحقيقية أنه كان هناك سبب إنساني في البداية ألا وهو نظام الاتصالات الذي تفكك، وتنظيم المخاطر الذي لم يتم تفعيله، وإمبراطورية أصابها الدمار فجأة. لكن الكتلة الحجرية هي القطعة التي أخذت تتدحرج وبعدها يبدأ الانهيار. كانت الطبيعة في الانتظار، وهي العين المراقبة التي ترصد إهمالا بشريا لتلقي بنفسها برمالها أو أشجارها أو طمي أنهارها على المدينة أو المعابد التي كانت تعني تدخلا غير مسموح به من قِبَل الإنسان. كانت هذه المعابد بدايات للمجتمع في كفاحه ضد العناصر، وهي مواقف من الصعب للغاية الاستمرار فيها، التي تتهاوى عندما يغيب الوعي عن الإرادة الإنسانية في باب بذل جهودها. إن من يتأمل هذه الشواهد الآثارية لا يعنيه كثيرا أن يعرف فيما إذا كانت ترجع إلى ألف عام أو ألفين وما إذا كانت تنتمي إلى هذه الحضارة أو تلك. إنه يرى الإنسان وعمله. يرى مشكلة وضعه كساكن في هذه الأرض بغض النظر عن الاختلافات الفنية المستخدمة في البناء أو المعتقدات أو الأحاسيس الفنية الجمالية التي تعبر عنها الآثار.

يشعر المشاهد بوجهي الطبيعة، فمن جانب هناك الإجراءات الشديدة التنوع والعنف، حيث تتمكن من المنتج البشري، لكنها – في نهاية المطاف – لا تحطمه أو تستطيع أن تفعل ذلك؛ البشر فقط هم القادرون على استئصال ما أنتجوه بأيديهم. إنه نهر الحياة التاريخية بثوراتها وحروبها، لديه القدرة الكافية على القضاء على الآثار من جذورها وكذا المدن. الطبيعة هي أقل عدوانية حتى ولو كانت في أقصى درجات قسوتها. وهناك الكثير من الكوارث الطبيعية التي عانى منها البشر، غير أنها تضم ضمن إحدى نتائجها الكثير من الاحترام لأعماله مقارنة بما يفعله البشر أنفسهم مع هذا المنتج.

وبدون تجشؤ بركان فيسوبيو vesubio لم يكن بالمستطاع أن نتجول في مدينة رومانية كأننا مواطنون من الإمبراطورية؛ وبدون حماية طمي النيل الذي لا يرحم أو طمي الفرات لم يكن ليصل إلينا معبد مصري بالكامل مثل معبد إدفو أو لوحات الفريسك سليمة من تلك التي تنسب إلى العصر القديم مثلما هو الحال في الكنيس اليهودي Doura Europos. وبدون بحيرات بايستوم paestum والهزات الزلزالية في سلينونتي

Selinonte لكانت معارفنا عن الآثار اليونانية ضئيلة للغاية. وبدون الدفاع القطيع الذي قامت به البحيرات والساقانا في كمبوديا لم تكن لنرى تلك المجموعة الآثارية العظيمة الموجودة في آسيا.

ومن خلال التعامل الذي قدمته الطبيعة لهذه الآثار يمكن العثور على أنماط متنوعة وأحيانا ما تكون شديدة التناقض. نصطدم في بعض الحالات بطبيعة ميتة، وجيولوجية بالكامل، وليس هناك سطو حقيقي على العمل البشري رغم أن الرمال تغطيه، فالرياح نفسها يمكن لها أن تزيل الرمال وتكشف عن وجود الجدران وما عليها من مناظر مرسومة كاملة نظرا لجفاف الجو؛ والطبيعة في هذه الحالة غير قادرة على التأثير على الموروث الإنساني والاستيلاء عليه ذلك أنها أكثر موتا منه. وهنا فإن الحائط والأقبية تأخذ في التهاوي ولكن دون أن تفقد هويتها، التي كانت تبرزها قبل ذلك على الصحراء القاحلة وتحت قبة السماء الصافية. وبدلا من التأثير السلبي على القيمة الفنية للآثار وانحطاطها يبدو أنها تزيد بهاء وكأنها بذلك تتبدى بشكل أفضل من حيث تفوق ما هو روحي على ما هو مادي، وكذا تفوق تلك الملحمة اللامعقولة، لكنها رفيعة، التي هي حياة الإنسان على الأرض.

عندما نزور الأديرة المصرية في المنطقة المحيطة بأسوان، أو المدن السورية شبه المدفونة في الصحراء يبدو أننا أمام حالات قصوى في إطار المغامرة الأرضية للإنسان؛ هي عبارة عن وجود إنساني ملموس على الأرض التي لا نكاد نلمس سطحها؛ كل شيء نراه قد مات ولا يوجد به أي نبض لحياة في المنطقة المحيطة بنا، لكن هناك انطباع لا نهائي بالكبرياء يغمرنا ويصل الأمر إلى أن يكون كل شيء مهيبا بما في ذلك المحلات والإسطبلات الخاصة بالتجار. يكتسب هذه الهالة أيضا كل ما هو مادي ومن التراب إلى التراب، لكنه مرتبط بالوجود الإنساني حيث يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن مصير الإنسان ليس أن يضرب جذوره في الأرض ولكن أن يتخلص منها ويهاجر إلى عليين.

غير أن الأطلال في أنجوكور معلقة في الشبكة النباتية الكثيفة، فليس هناك طريق للهروب، إنها جذور قوية وأعشاب ذات أذرع وجذوع صلدة أو سقطت لتغلق باب المرور، وبالنسبة لما يتعلق بما هو فوقي نجد قمم الأشجار والنباتات التي تتعلق بها

وبغصونها والنباتات الطفيلية التي ترتفع مستندة على الجذوع وأحيانا ما تكون أقوى من الجذوع نفسها؛ كل ذلك يحول دون أي مهرب إلى السماء. إنها أطلال مدفونة في النباتات، استولت عليها الأرض، الأرض الحية والخصبة القوية وذات السيادة. وكأنها أذرع غول تنفذ الجذور لتتمدد في الفراغات وبين الفجوات القائمة بين الكتل الحجرية. ليست جذورا تخرج من بطن الأرض لتمتد على سطحها بحثا عن إذن بل هي جذور تدخل في الأرض وقد نبتت من جذع مستقيم يقوم على حائط كبير أو فوق قمة قبو. إنها تشبه مخالب حيوان مفترس تداخلت على ظهر فريستها، وهي شبكة من الحيات الطويلة جدا التي تلتف على أجساد أسيرة وتضغط عليها حتى تستخرج منها رحيقها الحيوي.

وبالفعل تبدو وكأن الأشجار، أي ما يسميه الفرنسيون figuiers du ruines أشكال الأطلال- وهو اسم شائع الاستخدام لديهم - تبدو أنها تعيش على الأطلال وكأن بها رحيق مكنون يجعلها تنمو بشكل خاص وتتفوق على الأشجار التي تقتصر على التغذي على العصارة الاستوائية. إن الأشجار التي تنمو فوق أطلال أنجوكور تتسم بأنها معقدة ومشوهة بشكل عام، إذ تشبه كتلا عضوية قد لا تنسب إلى مملكة النبات بل إلى مملكة أكثر تعقيدا وحركة وذات دلالة، وكأننا بالطبيعة الاستوائية تزدهر ولا تحترم الحدود الفاصلة بين ممالك وأخرى، حيث تختلط في الكيان الواحد حياة النباتات وحياة الحيوانات وكذلك حيوات البشر. وبالفعل، في بعض الأحيان، تبدو الأشجار أشباحا غريبة تغذت ليس فقط على الأطلال بل على أحلام الرهبان ورؤاهم وعلى حماس وجرأة المحاربين. ويمكن أن يقال أن الأغصان الكبرى أو الجذور المكشوفة أو الجذوع نفسها تبكي أو تهدد بحركة غير واضحة صادرة عن عبيد شبه ملائكيين صعدوا من أعماق المحجر النباتي.

وتأخذ هذه الأشكال (أشكال الأطلال)figuiers des ruines في تحريك الكتل الحجرية وهدم الحوائط وتدمر الكرانيش وتلتهم الأفاريز بما عليها من رسوم منحوتة والرؤوس الضخمة للإلهة التي تتوج الأبواب أو الأبراج. هناك الطحالب ونبات كثة العجوز Liguen التي تغطي الحجارة وتجعل من أشكالها وكأنها زنبركية وأكثر تعبيرا وكأن أحشاءها الصلبة أخذت تتحول إلى لحم نباتي. لا يتعلق الأمر بتدمير بل بنوع من التواؤم الذي يستمر يوما بعد يوم مثل أي مسار حى؛ ليس كل من دير تا بروهم Ta prohm أو براه كام Prah Kham حقولا مليئة بالأطلال بالمعنى التقليدي بل هي سلسلة

من المباني الحية، قابلة للسكنى فيها في الأغلب الأعم، وفي نهاية دهاليزها الطويلة يمكن أن يظهر الرهبان. وبالفعل، هم يظهرون رغم أنهم قد لا يعيشون هناك بل في دير مجاور مشيد من الخشب أقيم منذ سنوات قليلة. يرتدون ملابس مُذهبة ورؤوسهم حليقة ولامعة، وهم بهذا يبدون وكأنهم تجليات ملائكية في نهاية صحون الأديرة، في تلك المناطق الظليلة الكائنة بين الأعمدة. أحيانا ما يظهرون فجأة وسط النباتات التي تلف الدير، وكأن هناك شعاع من ضوء أنار تلك البقعة من السافانا، ثم تأخذ كافة الألوان في الانتشار بسبب هذه الإضاءة ذات الحرارة المرتفعة.

غير أن وجود الرهبان ليس ضروريا، فالأثر الذي تركه الآلاف من الرهبان الذين قاموا، على ما يبدو بشكل مفاجئ بهجر معابد وأديرة أنجوكور، يتسم بأنه واضح ومسجل على كتله الحجرية، ولا يبدو الصمت المخيم على المكان إلا نوعا من الوقفة المؤقتة. أو ربما كانت الجلبة التي تخيم على المكان دون تغييره آتية من أصوات طيور غريبة ومن أصوات القردة التي تتأرجح على الأغصان، أو من اليراع الضخمة بأزيزها. وهذه بقوتها تخترق الصمت وتجعله واضحا وكأنها ماكينة ذات ضربات جافة تقوم بقطع ألواح الصلب ذي الجودة – وهذه كلها عمليات انتقال مثلها مثل جذوع الأشجار أو الأغصان أو الصلوات أو التراتيل التي أتت على لسان مئات الآلاف من الرهبان على مدار قرون.

هناك جو من الورع وسط هذا الاحتضار الذي تعيشه الكتل الحجرية التي تكاد تموت بين الأذرع الهرقلية للأشجار وسط التشوهات، الواضحة للعيان، التي عليها الجذوع التي تتلوى بحثا عن النور وهي في عمق أعماق أحد المصليات. يستمر الصراع، غير أنه بسبب التوتر الذي عليه المحاربون تم التوصل إلى نوع من التوازن، أو ربما كانت معركة غير حقيقية ومتخيلة ذلك أن كل شيء هنا مهيأ ليكون في وئام مع باقي العناصر الموجودة. كانت الغابة أحد العناصر المدرجة في العناصر الزخرفية للأفاريز، وغالبا ما كانت تحتل أغلب أجزاء التكوينات الفنية. وبالنسبة لطبلات العقود Timpanos هناك توريقات باهتة.

هناك أيضا ما يسمى بـ apsaras، أي الراقصات المقدسات، والتي تتحول إلى زهور يوما بعد يوم منذ أن تم نحتها في سلاسل زخرفية ضخمة، وكأغصان استوائية حديثة

حيث تنبت من الجذع أذرع المحاربين الذين يحاربون في صفوف جيش Roma. وعندما أقيمت الشرفة الرائعة المسماة "بشرفة الفيلة"، فحتى تتمكن خراطيمها من تحمل الوزن الذي يوجد فوقها التصقت كمسامير بالأرض وسبقت في هذا جذور الأشجار التي تشق الهواء بشكل فيه سطوة حيوان مفترس. وقبل ذلك بوقت طويل، أي قبل هجر أنجوكور نجد أن الحيات، nagas، التي تقوم بدور الدرابزين الضخم الكائن أمام الخنادق أو أمام البحيرات كانت تشبه الجذوع الممددة والمتوجهة بالخضرة اليانعة وكأنها المروحة المكونة من الرؤوس المنتصبة.

أجبرهم الرجال على الانسحاب إلى الغابة، غير أن الأشكال النحتية لها، في المسقط الرأسي للأبراج، ظل هناك شيء من أنها مستلهمة هناك. كانت المعابد معزولة عن الغابة حيث كانت على مناطق هرمية الشكل ومحاطة بخنادق واسعة، غير أن هناك لغة رموز تقوم بدور الوسيط. وعندما عادت الغابة من خلال الصراع بين الشجار والكتل الحجرية أصبح هناك تداخل حميم. كان ذلك مصير حقيقي، ولهذا لم تتأخر الغابة عن أن تشغل ما كان لها من جديد بعد عملية الطرد الأولى، خلال القرن السادس عشر. وعندما جرى اتخاذ قرار، من لدن الأوربيين، خلال القرن العشرين، بإنقاذ أطلال أنجوكور، لم يتحقق هذا الغرض إلا بشكل جزئي ذلك أن الرجال لم يجرؤوا على كسر هذا التلاحم الرهيب بين الغابة والمعابد.

ومما لاشك فيه أن الأنماط الفنية والرموز النحتية وتنظيم الآثار لم تكن في حقيقة الأمر إلا إبداعا بشريا، غير أن الإنسان هنا اقتصر على استلهام الطبيعة. وكانت هذه العناصر تعني نوعا من التجريد والارتقاء للأشكال الطبيعية؛ إنها كانت تتطلع إلى الآفاق الغامضة للماورائية وغالبا ما كانت تضم في جوانحها المتاعب والآمال التي تعتلج القلب الإنساني، لكنها كانت ابنة الطبيعة وكانت هذه الأخيرة تشعر بأن من حقها المطالبة بها. كانت الطبيعة البكر تشغل مالها، وهو الكتل الحجرية والحدائق والبحيرات رغم أن هناك وسيط ذكي انضم إلى هذه الخطوات الخاصة بإعادة الغزو: هناك الشكل الفني والمعنى والمضمون الذي أعطاه الإنسان لتلك الحجارة والتي كانت الطبيعة الاستوائية تلتهمها في عملية تشكلها، ولكن دون أن تتخلى عن وضعيتها، بل إنها بلغت حد الكمال، وكأن الأشكال الفنية التي خرجت من بين يدي الإنسان من خلال الحجر زودتها بصورتها النقية

والمثالية والثرية بالمعنى الخاص بفكرة أفلاطونية. ويدخل في هذا أن قلب رجل الآثار استسلم أمام هذا المشهد العجيب.

وإذا ما كان مسموحا للمشاهد أن يطوف بكافة الأنماط الهلنستية المألوفة لفهم المشهد، بمبعد عن الأفلاطونية، فما عليه إلا أن يلجأ إلى ما يقدمه لنا التراجيديون الأثينيون. وعلى شاكلة ثلاثيات إسكيل Esquilo، نجد أن الصراع المأساوي الذي تمثله الأشجار والأطلال ينتهي به الأمر إلى التصالح. وهي مصالحة تغرق قلب الرحالة بورع غريب، إذ بغض النظر عن المشاعر التي يحس بها فإن النتائج تبدو وكأنها عملية ضغط خارجي، تتسم بالليونة لكن مستمرة، تؤثر في الأساس على جسده. يعتبر الرحّالة نفسه مستغرقا في جو كأنه الفردوس على الأرض. إنه فردوس غريب يتجاوز حدود البراءة، حيث كان يمكن أن تغتفر خطيئة الكبرياء الإنساني من خلال هذه المذبحة الديونيسية، ولكن في حجم الغابة الاستوائية والآثار التي يقيمها، ولا يقتصر الأمر على الغفران بل بقبوله، وأنه ابن الطبيعة التي تتبدى أكثر قوة وأكثر حكمة فوق الأطلال، وكأن المغامرة الإنسانية قامت بدور الإعلاء من شأنها، رغم فشلها.

ورغم وجود الكثير من الأطلال لا يوجد في أنجوكور جوّ من الحنين، فذلك أمر قد مضى، أو أنه، بمعنى أصح، عاد إلى صدر أمه. وربما تظهر في يوم من الأيام مخلوقات جديدة أكثر تميزا، أي "سوبرمانات" على طريقة نيتشه. وفجأة هناك جو من السلام والورع، يساهم فيه رجال الدين الذين يجلسون بهدوء على السلالم وقت حلول المساء، كما أن تماثيل بوذا المتحفظة تظهر في ظل المعابد ولا يكاد يؤثر عليها لهب الشموع الصغيرة. هناك أيضاً الجاموس الذي يلقى بنفسه في مستنقعات الطين والعصافير التي تقوم بنقر الديدان التي التصقت بمؤخرة الجاموس. وهناك الباعة الجائلون الذين يخرجون لاستقبالك من وراء الأشجار الضخمة دون أن يفزِّعوك أبدا رغم أنهم يعرضون عليك سكاكين ذات أنصال لامعة في أماكن معزولة. وهناك الشباب نصف العرايا وهم ينتظرون أن تتركوا الدرابزين المحيط بالبحيرة الملكية ليستمتعوا بالغطس في مياهها.

XIX- مَلَكيّة الغابة

لا يمكن للخرائط والمخططات والصور أن تؤدي إلى الخروج بانطباع عما عليه أنجوكور، فالرحّالة يحمل في ذاكرته البصرية صورة معبد أنجوكور بات، ويعرف من خلال قراءاته أن هناك المزيد من المعابد لكن لم يتمكن من تكوين فكرة واضحة عن عددها أو عن أهميتها، فقد كان على كل ملك أن يبني معبده الجديد، وهو معبد لا تطرأ عليه تجديدات كبيرة، كما يصعب تحديدها من خلال إعادة تصورها بمعنى أن هذه المعابد ينظر إليها على أنها وجهات نظر متتابعة للأثر نفسه، وهذا في حقيقة الأمر عبارة عن سلسلة لا تنتهي. من الضروري رؤيتها حتى ينتهي الأمر بالمرء إلى تكوين صورة عن وجودها المكثف؛ ويحدث الشيء نفسه مع الحوائط التي لا نهاية لها التي تحيط بالمدينة الملكية أو الأديرة أو المتعلقة بالبحيرات والخزانات المخصصة للرّي.

تبلغ مساحة المدينة الملكية أنجوكور توم A. Thom تسع كيلومترات مربعة، دون أن تدخل الخنادق في هذه المساحة وهي تمتد إلى مائة متر عرضا وتحيط بالمدينة من الأضلاع الأربعة في مسار يبلغ اثنى عشر كيلومترا. والباراى Baray الغربي هو بحيرة صناعية تبلغ مساحتها كيلو متر، من الشمال إلى الجنوب، وسبعة كيلومترات من الشرق إلى الغرب. أما محيط معبد أنجوكور بات فيصل إلى ثلاثة كيلومترات ونصف. وعن السكان الذين كانوا يقيمون في تلك المباني الضخمة يمكن أن نكوّن فكرة من خلال الوصف المحفوظ في تابُرهْم Ta Prohm حيث يشير إلى أن المعبد كان به، ألفان وسبعمائة مُبَلغًا و٢٢٣٢ مساعدا إضافة إلى ٦٦٦٢٥ رجل وامرأة كانوا يعملون في خدمة الآلهة. وفي إحدى الحفلات الليلية جرى استهلاك ١٦٥٧٤٤ شمعة.

وبالنسبة لحجم الأطلال وصل إلى درجة أنه في غضون ثلاثة أيام جرى التطواف بسرعة بها في سيارة. °لكن من غير الضروري أن يطوف بها الزائر حتى يتوفر على الإحساس بما هو كولونيالي، فكل واحد من الآثار يتجلى بنفسه وليس فقط من خلال كتلة البناء بل أيضا من خلال المعنى المقدس الذي إليه ينسب. والمعبد نفسه يريد أن يكون ميرو Meru أو كايلاسا Kailasa، أي الجبل الرئيسي في العالم، ويقيم أبراجه، مثل قمم أخرى كثيرة، من الكتل المقدسة الموزعة على شرفات كثيرة تذكر بالمناطق المختلفة للإقليم العلوي للكون، وهذا ما يتضح ببداهة من خلال المحاور الأفقية والرأسية للبناء وتوجهها نحو الجهات الأربع، أي القمة والنظير (السمت). وحول المعبد هناك السور الذي يتبدى على أنه cakravala، أي السلسلة التي تحيط بالجبل المركزي للعالم، وخلفها تمتد الخنادق تشبه مياهها التي تغطيها زهرة اللوتس المقدسة مياه المحيط الذي يحيط بالعالم. هناك أيضاً الشمس والقمر والنجوم ضمن البناء حيث يفترض أنها كلها تدور حول الميرو، (الجبل الرئيسي).

ليس من الصعب أن نخمن وجود صورة المحيط الأساسي في أنجوكور، فعلى بعد عدة كيلومترات من المعابد نجد مياه خنادقها تتصل بمياه "البحيرة الكبرى" أو Tonle Sap، وهي البقية الباقية من ذراع للبحر تولت رواسب نهر ميكونج فصله عن المحيط، لكنها لم تتركه يموت بل العكس إذ تَزّود بحيوية غريبة بفضل الفيضان وهبوط مستوى المياه في مجراه طبقا للإيقاع الأقصى للرياح الموسمية. تشكل البحيرة الكبرى واحدة من الظواهر الطبيعية الفريدة على ظهر الأرض إذ أنها عبارة عن رئة من المياه تنكمش شواطئها أو تتمدد حتى تصل إلى مكان قريب من أنجوكور من خلال التذبذب الناجم عن الإسهامات المائية بالزيادة أو النقص في مياه نهر الميكونج. هذه الظاهرة الهيدروليكية الغريبة التي تُرَى مصحوبة بظاهرة بيولوجية ليست أقل منها غرابة وهي ثروة سمكية في مياه البحيرة، حيث كانت عنصرا حاسما في تطور حضارة كمير (الخمير) Kmer، استنادا إلى المشاهد المنقوشة على أفاريزها واستنادا إلى الأهمية، التي تصل إلى درجة الهوس، التي عليها المعبد الجبل.

يمكن أن يُفهم بسهولة ذلك الطابع المقدس الذي عليه الجبل بالنسبة لسكان بلد سهلي، تغمره مياه البحيرة الكبرى التي تفيض، وحيث أيضاً لا تفيض ،حيث يتحول إلى بركة من جراء الأمطار الموسمية، التي تجعله مناسبا لنمو النباتات وللحياة الحيوانية. تزدهر الأشجار الكبرى

التي تغمرها المياه التي تجعل من كمبوديا بلدا شبيها بما تغنى به رامبو "مليئا بالسماوات الملبدة". وهنا فإن الفيل والحيّة هما من الحيوانات الأكثر تمثيلا لهذه الجغرافيا الغريبة، وهي التي نجدها في معابد أنجوكور، وهي توجد في الأعلى وفي المناطق الجافة ،على المعابد الجبل أو على الجسور والطرق التي تقود إليها. وهنا فإن المفهوم الأسطوري القديم للعالم على أنه جبل يبرز من بين المياه الأساسية كأن شيئا يدركه جيدا ذلك الذي يسكن في إقليم أنجوكور عاما بعد عام.

ولهذا السبب نجد أن تطور العمارة الدينية يدور حول فكرة المعبد الجبل. أي أن الشكل الهرمي القديم يحل ببنييته الهندسية محل الواقع الطبيعي، وفوق هذا الواقع تقام مباني ذات قباب تمثل رمزا لقمم جبل العالم؛ ثم يأخذ عدد هذه القباب في التكاثر بمرور الزمن وتتعقد بنيتها العامة حتى ينتهي بها المآل إلى ذلك التوازن المعقد المكون من شرفات وأبراج وسلالم ودهاليز. . . الخ، وهذا ما يتم التعبير عن الإعجاب به في أنجوكور بات. غير أن التعقيدات المعمارية التي عليها المعبد لا تحول دون التبسيط الطبيعي للرموز الأساسية له ودون فهم تقنياته الإنشائية. استخدم المهندسون المعماريون kmers (الخمير) تقنيات فيها الكثير من الخلل: فهناك طريقة تركيب الحجارة فوق بعضها وما يعتريها من جوانب قصور حيث لا يوجد اتساق بين الكتل الحجرية وبين الشكل المعماري، كما أن بناء القباب لم يتجاوز أبدا التقنيات البدائية.

ليس الضروري أن يكون المرء متخصصا حتى يلمح جوانب القصور المذكورة، إذ ينطق بها وبوضوح جسر سبام تما Speam Thma، دون أدنى مواد للربط (على الناشف) والذي يرجع إلى العصور الأولية ذلك أن الفتحات الصغرى التي تسمح بها تقنية بناء القباب كانت غير كافية حتى تمر مياه النهر منها، وبالتالي لم يكن أمام النهر إلا أن يفتح لنفسه مجرى آخر. وعند مقارنة هذا الجسر الصعب وغير المفيد بما عليه فتحات "القنطرة" وبما هو موجود في أماكن أخرى كثيرة شيدها الرومان يمكن إدراك ذلك التوجه التقني الغربي منذ قديم الأزل.

لكن ليست هناك علاقة قوية بين تقنية البناء وبين القيمة الفنية لمبنى ما، ويصل الأمر في هذا المقام، في بعض الأحيان، إلى شيء غير منصوح به. وإذا ما كان المعماريون الخمير قادرين على إقامة قباب مثل تلك التي توجد في "الضريح" أو في "سانتا صوفيا" أو قبابا مثل

قباب كاتدرائيات جيورنا أو بوفيه beauvais لكان التاريخ العالمي للفن حُرِمَ من تلك الحلول المثيرة للإعجاب والتي جرى تقديمها من خلال تقنيات بسيطة لمواجهة المَشكلة التي تعترضهم، وفي إطار جوانب القصور في تقنية القباب في المنطقة الاستوائية وبالتالي يندرج القصور على الارتفاعات الداخلية، فإنها ليست قصوراً بهذا المعنى وإنما نتيجة طريقة خاصة يتسم الإنسان بها في هذا المكان تتعلق بالشعور بأنه من سكان الأرض؛ فالمنزل بالنسبة له ليس إلا مقاماً مؤقتاً وعارضاً، وبالتالي فإن محاولة تحويل منزل إلى مقر إقامة ضخم للآلهة وإدراج القبة العادية لتصبح كأنها تحل محل القبة السماوية هو أمر لا يمكن تخيله وقبوله.

من الواجب في حقيقة الأمر أن تكون في المعابد فراغات معمارية مغلقة، لكنها صغيرة وفي الظل وكأنها على شاكلة كهف في الجبل. ليس الأمر عبارة عن استعارة بل معايشة أسطورية محددة للغاية: إذ أن أول شيء نجده في معبد للخمير kmer هو رمزية الجبل "ميرو" بقممه المختلفة، أما الفراغ الداخلي لمُصَلّىً ليس إلا مكاناً تم حفره فيه.

لا يوجد في تلك المعابد الضخمة والمعقدة من تلك التي ذكرناها أي تكرار غامض، ولا يوجد الشيء نفسه في كاتدرائية، أي أن العناصر التكوينية المختلفة في اتساق إيقاعي داخلي ويكاد يكون موسيقياً، والشيء نفسه بالنسبة للمعابد الخمير حيث توجد متسقة في هذا الإطار لكن هذا فقط في الشكل الخارجي والتشكيلي، فنجاح التوصل إلى حل يتجاوز إمكانيات الفن الغربي، الذي يعني في المقام الأول بالفراغات الداخلية منذ أن ظهر الحماس خلال العصر القديم لبناء القباب. وفي مواجهة المبدأ الغربي في التنظيم الداخلي للمبنى المقدس، نجد في أنجوكور بات أن المبدأ الهندي الخاص بالتنظيم الخارجي يصل إلى ذورته.

ومن حيث التوازن هناك تقابل وتكامل: فمن ناحية هناك الأشرطة الأفقية للشرفات والدهاليز بأعمدتها وأسقفها؛ ومن ناحية أخرى هناك الكتل الرأسية للقباب في شكل عمامة tiara. كما أن هذه الكتل تتسم بالتوازن الكامل فيما بينها حيث يتجلى مقياس البناء المركزي من خلال صور مصغرة له في مستويات أدنى تدريجياً وكذا في أركان الدهاليز. كتب برسى براون في "تاريخ العمارة الهندية"[1] عبارة عن طلاقة بين الأجزاء

---

(١) تاريخ العمارة الهندية، بومباي، ص ٢٢٠، ورد من خلال: بنيامين رونالد" الفن والعمارة في الهند"، بليكان، سلسلة تاريخ الفن، ص ٢٣٤.

والكل، من حيث الحركة الإيقاعية لمفهوم كامل، وفي كلمة موجزة نجد أن أنجوكوربات ليس لها مثيل إلا نادراً بين الآثار في معرض إيقاع بنائها articalacion" . لكن الإيقاع الخاص بها ليس ذاتياً وهندسياً وإنما هو صوفي تجريدي وكأننا في حضن كائدرائية قوطية دون إيقاع خارجي وكوني، ولا يشمل ذلك العالم الذي نعيش فيه بل الكون بأسره.

وعندما ترك البشر مدن أنجوكور ونفذت الطبيعة إليها وجدت كل شيء مُعَدّاً لإضفاء الطابع القدسي النهائي والماورائي والذي يتجاوز الحدود الإنسانية أي أنجوكور الغابة فوق المعابد. وهنا فإن الأرض تحت القبة الحجرية كانت تشعر بالألم لنفاذ الجذور من خلالها، وتتحول الشرفات إلى حدائق رائعة، وتتكامل القباب من حيث رمزيتها عندما تحمل فوقها شجرة استوائية بضخامتها لتبدو كأنها "شجرة العالم" التي تتوافق في الـ Upanishad مع البراهما Brhma

نجد أيضاً أن الزخرفة بها الرعشة الكونية، وهي عبارة عن زخرفة خارجية في المقام الأول، في شكل أفاريز طويلة داخل دهاليز ضيقة تقوم بدور حمائي لها أكثر من عزلها عن العالم الخارجي. أما المشاهد المنقوشة فعادة ما تكون مشاهد حرب، إلا أن الغابة حاضرة بشكل شبه دائم، وكذا قوة العضلات والوجوه والقسوة نفسها التي هي طابع المعارك والاستشهاد والذي يطبق على الأسرى، تتسم كلها بمذاق وحشي طبيعي.

الطابع الكوزمولوجي (الكوني) يتبدى بقوة في أنجوكور، وهو طابع مرتبط بالميتولوجيا الهندية والآلهة والشياطين، ومن خلال الأفاريز المكرسة لذلك نجد أنها عبارة عن قوى طبيعية رمزية. تجسدت هذه القوى في سلسلة من التماثيل أمام الأبواب الكبرى، وترتبط، المرة تلو الأخرى، بالحية باسوكي Vasuki التي التفت حول نفسها على جبل مندرا mandara وأخذت تجذبه نحو "بحر اللبن". كما أن المشاهد الحربية هي أقل واقعية من تلك التي نجدها على الأفاريز الأشورية وكذا المصرية التي تنسب إلى الدولة الحديثة. وعند الحديث عن الموضوعات المصورة بشكل قوي نجد أنها ليست الحملات التاريخية بل عبارة عن حملات أسطورية قام بها جيش روما وجيش كريشنا. ويحدث الشيء نفسه عند تجسيد أحداث حياة الملك، حيث أن ما يهم فيها هو مدى علاقتها بالأساطير وانخراطها في إطارها.

لم تكن حضارة الخمير محاطة بحضارات حربية أخرى مثلما حدث للأشوريين أو الحيثيين أو المصريين، حيث عاشت هذه المناطق توترات قوية في عالم شبه واحد ودينامي. وبالتالي لم يكن هناك أي مجتمع من مجتمعات الجوار بقادر على أن يضارعها أثناء قرون ازدهارها، كما لم تكن هناك أيضًا في تلك الأصقاع شعوب رحَّل قادرة على تهديدها، فالتهديدات مصدرها الأساسي الطبيعة وليس الإنسان. الأمر الصعب في إقليم أنجوكور كان ببساطة، وهو وجوده، أي أن يتنفس وسط ذلك البحر الطيني المتلاطم ويدافع عن المدن حتى لا تغرق ويحافظ على المياه للإفادة بها وقت الجفاف والدفاع عن نفسه ضد الغابة المستعدة دائمًا للانقضاض على الحقول الزراعية، والسيطرة على هذه النتفة من الحضارة فيما لو أهمل الإنسان أداء مهمته.

هذه الملحمة التي تنطق بها المشاهد على الأفاريز وعلى الأبراج والأهرامات والمعابد الكاملة في أنجوكور تعتبر نوعًا من الملحمة البشرية الكونية أكثر من كونها تاريخية. فحقيقة الأمر أننا لا نرى الحضارة التي نشأت منها معابد أنجوكور، أي أنماط التفكير والأدب والعلوم وطرائق العيش. هذه لا تهمنا، أو بمقولة أدق، تبدو وكأنها لم تكن موجودة إلا فى إطار الإسهام في بناء آثار. ولو لم تكن هناك الأطلال لكان من الصعب أن نعرف شيئًا عن تلك الحضارة. وهذا أمر أو حكم سليم في إطار العناصر الخاصة التي أدت إلى وجودها، إلا أن حضارة الخمير لم تتجاوز إطارها في الزمان والمكان.[1] ولا حتى بلغت في داخله قوة روحية أكثر من تلك القوة اللازمة لتأكيد وجودها. تتسم المعتقدات الدينية المرتبطة بمعابد أنجوكور بالبساطة، وهي تكرارية وأولية لدرجة تبدو معها متوائمة تمامًا مع الحجر، ومن هنا قوتها الرمزية وعظمة كتلها.

وجد مجتمع الخمير نفسه مجبرًا على تحمل أقصى الضغوط السياسية التي عرفتها جماعة إنسانية وخاصة خلال الألف سنة الأخيرة، في سبيل أن ينطق الحجر بأنشودته الرائعة. والسبب هو أن السلطة السياسية نادرًا ما بلغت درجة فرض استبداديتها المطلقة إلا في كمبوديا القديمة، ولم يقتصر الأمر على البشر وإنما شمل ذلك الطبيعة أيضًا.

---

(١) تاريخ العمارة الهندية، بومباي، ص ٢٢٠، ورد من خلال: بنيامين رونالد" الفن والعمارة في الهند"، بليكان، سلسلة تاريخ الفن، ص ٢٣٤.

وفي الشرق الأوسط القديم نجد أن الملكية قامت هي الأخرى بوظيفة كونية إذ كانت جسر الصلة بين النظام الاجتماعي ونظام الكون لكن وظيفتها في حضارة الخمير (الوظيفة الكونية) أكثر بداهة وحسماً. لا يقتصر الأمر على النظام الملكي في إحداث انسجام بين نظام الطبيعة والنظام السياسي بل هو من ضلع في بذل جهد تنظيمي يتعلق بالطبيعة نفسها التي تتجلى في أنماطها الحيوية والقوية تحيط بالحضارة التي كانت تمثلها ومن هنا كان لتقديس الملكية في معابد أنجوكور طابع غير مسبوق، يتسم بأنه أكثر قوة مما كان عليه في مصر رغم وجود خمسة آلاف عام تفصل بين حضارة وأخرى.

كان طقس "ديباراخا" Devaraja يتطلب التعبد إلى لنجام Lingam، كعنصر جوهري، وهو المركز الذكوري falico لشيبا، ويدخل في هذا تداخل رمزي للشجرة ومحور الكون ومن هنا يتم وضعه في مركز الجبل المعبد من حيث أنه الأمفالوس omphalos الكون. تلقت الملكية الخمير نوعاً من القدسية بهذا الشكل وهي أكثر دينامية وحيوية مقارنة بأغلب الملكيات المجاورة لها. أما الفراعنة والأباطرة من السريان أو الفرس، ومعهم أباطرة الصين واليابان كانت لهم صلة بالقوى السماوية ذات الطابع الرصين والدائم؛ ارتبط ملك الخمير بشكل جوهري بقوة إلهية حيوية ومأساوية كما أنها نمطية الاستوائية.

كانت ملكية الغابة وملكية الطبيعة الطاغية وغير الرحيمة والشديدة الكرم، وهي الملكية التي تتغنى بها الأفاريز والتماثيل والأهرامات والقباب التي لا تحصى التي ترمز بما لها من شكل عمامة قمة جبل الميرو. أما النشيد الفني أنجوكور فهو آخذ في النماء ويتحول كل يوم إلى نمط أكثر نحتية وأكثر باروكية حتى ينتهي به الأمر إلى نوع من التشبع الزائد في الأشكال والرموز التي تصل إلى أعلى غايتها في البيون Bayon.

تبدو الحوائط والأعمدة المربعة والأبواب الخاصة بهذا المعبد وقد عظمتها المنحوتات، كما أن القباب نفسها التي يبلغ عددها ٥٤ قبة، تحولت إلى تماثيل. هناك أربعة أقنعة كبرى في كل واحد منها للبوديستابا Lukesvara حيث تعيد إنتاج الصورة التي توجد في القبة المركزية والتي تكررت أيضا أربع مرات أخرى في كل واحد من الأبواب الكبرى التي تفتح وسط الأضلاع الأربعة للمدينة الملكية.

كانت تقوم بالوظيفة السحرية المتمثلة في إعلان جوهر السيادة، والسلطة الدينية لـ Devaraja من كافة زوايا المعبد، ومن أبواب مقره وتجعل ذلك ينتشر في كافة أرجاء المملكة والغابة. كانت ملكية مرتبطة ببهجة فنية حقيقية. وحتى يمكن الوصول بالأنشودة العظيمة لأنجوكور كان ما بقي هو أن تقدم الغابة نفسها في المعابد.

XX- سيام أو الاستقلال في المنطقة الاستوائية

يتمتع ذلك البلد الأسطوري، سيام، بميزة ملحوظة وهو أنه تمكن من الحفاظ على استقلاله طوال القرن التاسع عشر والقرن العشرين دون أن يسقط تحت سيطرة القوى الاستعمارية الأوربية. إنها ميزة، ترجع في الأساس، إلى السمات الحربية والمدنية التي عليها سكانها الذين استطاعوا المناورة بمهارة وسط الميول الأجنبية، كما نجحوا في الوقت نفسه في تمثل عدد غير قليل من التقنيات وأنماط الحياة في الحضارة الغربية سيرا على النهج الياباني.

كما كانت الكارثة الكبرى التي حلت بالبلاد في نهاية القرن الثامن عشر، أي عندما قام الغزاة البرمانيون بتدمير مدينة ayadhya وكذا التنظيم السياسي التي كانت مركزه مما أجبر على إعادة بناء الدولة من خلال أسرة ملكية جديد وتوجهات مختلفة، نقول كانت الكارثة سببا في دفع تايلاند لمواجهة مشاكل التوسع الاستعماري الأوربي في ظل ظروف أفضل مما كانت عليه دول آسيوية أخرى ذات أنظمة وعقليات سياسية متهالكة. يجب أن نضع في الحسبان أيضاً الحظ الجيد للبلاد حتى ندرك وضعها الفريد خلال الفترة المعاصرة، بمعنى أن ندرك تضارب المصالح الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا، إذ صدقتا عام ١٨٩٦ على معاهدة لضمان استقلال سيام كدولة فاصلة بين الهند الصينية والهند البريطانية، حتى لا تدخل القوتان الاستعماريتان في صدام.

وحقيقة الأمر أن هذه المعاهدة التي تمت التي ترجع في المقام الأول إلى المهارة والحس السياسي الذي كان عليه شولالونجكورن Choulalongkorn (راما الخامس)، أدت إلى تحييد وسط سيام، حيث اقتطع منه خلال العقد الأول من القرن العشرين خمسة وستون ألف كم٢ من الأراضي المجاورة للمستعمرات الفرنسية والإنجليزية. لكن المعاهدة المذكورة ساعدت على إنقاذ ما هو جوهري في البلاد حيث تهيأ الأمن ليقوم بمهمة غربنة مملكته. قام

بالعديد من الإصلاحات وألغى العبودية وأنشأ مجلسا تشريعيا وحكومة. أقام خطوطا للسكك الحديدية وخطوط تلغراف وأقر نظاما حديثا للاتصالات التلغرافية وأقر قانونا جديدا للعقوبات. اقترب النظام القانوني للبلاد، من الأنظمة الغربية بدرجة كبيرة حيث لم تتأخر كل من إنجلترا وفرنسا من تقليل مزاياه خارج الأراضي.

وفي هذا السياق، أي تحت بنية علوية ذات طابع غربي، نجح الملوك التايلانديون في إنقاذ مجتمع السكان الأصليين والحفاظ على أنماط حياتهم وميولهم وعاداتهم. إنها حالة فريدة في المنطقة الاستوائية الآسيوية، وسرعان ما يدرك الرحّالة الموقف من خلال الكيفية التي ينظر بها إليه السكان الأصليون حيث لا يرون فيه ذلك الأبيض الاستعماري أو وريثه بل يرونه على أنه عضو في مجتمع وأنهم لا يشعرون بأية عقد نقص أو عدوانية نحوه بغض النظر عما عليه من فضائل ونقائص. إنه موقف فيه كبرياء وفيه ثقة بالنفس وفيه لطف من قبل السكان الأمر الذي يجعل إقامة المرء طيبة في بانكوك.

تسهم الثروة الطبيعية في البلاد بالكثير ايضا وهي العدد غير المبالغ فيه للسكان وكذا خفة وظرف المنطقة الاستوائية، حيث نجد السياق الاستوائي يهيئ نمطية العيش الشديدة القرب مما يفترض أن الفردوس على الأرض موجود، ولهذا فإنها كانت قابلة للاختراق. فمن المنطقة الاستوائية بدأت السيطرة الأوربية في القارة الجديدة وفي القديمة أيضاً؛ فهاهم البرتغاليون والأسبان والهولنديون والفرنسيون والإنجليز كل يقيم إمبراطوريته على هواه فوق الصخرة المرنة في المنطقة الاستوائية الآسيوية وينجحون في الإبقاء على هذه الإمبراطوريات حتى وقت قريب، وفي الوقت ذاته نجد الأقاليم الدافئة في آسيا، من تلك التي تتمتع بتنظيمات سياسية أكثر ثباتا وكفاءة تقاوم بشكل أفضل المحاولات الاستعمارية للنفاذ إليها. لكن كان هناك استثناء في المنطقة الاستوائية، وهو عبارة عن واحة للحرية للسكان الأصليين، وذلك حتى نتمكن من التعرف على أنماط حيوات الأفراد والمجتمعات الشديدة الاختلاف عما عليه المجتمعات الغربية والتي نمت في ظل ظروف جغرافية مناسبة ومنها سهولة الحصول على الثمار الاستوائية.

يجدر بنا أن نتأمل تلك الأنماط من خلال الجوانب المختلفة للحياة، أي كيف يستحمون وكيف يقودون سفينة وكيف يتوج ملوكهم وكيف يتنزهون ويشاركون في الحياة العامة التي عليها الرهبان.

يبدو أن البوذية أو الهندوسية أو الإسلام، في كثير من البلاد المستعمرة، تعيش في ظل ما هو قديم وغير متطور عندها، بينما نجد أن أنماط الحياة الجديدة ذات الأصول الغربية والتي تُقدم لهم بشكل دنيوي بالكامل ودون أية خلفية دينية، تتبدى وكأنها تطفو في فراغ روحي، وكأنها شيء مادي سوف يؤول به الأمر إلى تدمير المعتقدات الدينية التقليدية والوعي الديني كافة. وهنا فإن البوذية، التي تتجه في الأساس إلى إبعاد المؤمنين بها عن همومهم الدنيوية، هي ديانة تتعرض في الأساس لهذه التأثيرات المدمرة، وتقدم نفسها غالبا على أنها التعبير والضمان للهدوء الاجتماعي.

إلا أن البوذية في سيام تبدو وقد اندمجت في الحياة الحالية للبلاد، فلم تنكمش في أعماق المعابد القديمة بل هي نوع حي ونشط في مواجهة مشاكل العصر. وهنا يمكن مشاهدة الرهبان البوذيين في كل مكان برؤوسهم الصغيرة واللامعة وميولهم لارتداء لون يثير الحيرة ومن الصعب تحديد هويته، أي بين الليموني والزعفراني. يسيرون حفاة وقد علقوا شنطهم التي يتلقون بها الصدقات على الكتف ويعلو وجوههم تعبير يستحوذ الإعجاب هو الزهد والتمنّع. لكن فيما يتعلق بشكل الشنطة وطريقة السير على الأسفلت هناك شيء يمكن أن نستشفه يجعلنا نقارنهم بالرهبان الفرنسيسكان في أمريكا الشمالية إذ أنهم رغم القماش الصوفي الخشن الذي يرتدونه وكذا لحاهم التي تخرج عن نطاق الزمن ودون التشكيك في وفائهم للعهد للقديس أسيس Asís يحملون بصمة نمطية الحياة الأمريكية American, Way of life.

لا شك أن المقارنة مبالغ فيها، فمن خلال الحساسية والزهد الفرنسيسكاني تأتي الكثير من ملامح روح الحداثة، أما البوذية فقد كانت على ما لدت عليه متوجهة نحو مسار مختلف جدا. وهنا فإن لون التوجه البوذي يعلن عن ذلك بوضوح، فلا يمكن لراهب مسيحي أن يرتدي ملبسا ذا لون له مغزى روحي وله رمزية في الإشراق الروحي كما لا يجرؤ على ذلك أيضاً حتى في ظل طقس ديني غير عادي. فالعين الغربية لا تقبل باللون الذي تميل إليه البوذية اللهم إلا إذا كان متعلقا بملابس خاصة بالمناسبات الكبرى: مثل العباءات الواسعة، والحُلَل الخاصة باحتفالية بالكلاب dogo الفينيسية والمعاطف القصيرة لبعض الآلهة الميتولوجية.

وفي واحدة من تلك المناسبات الشديدة الخصوصية تجرأ الجريكو أو تيزيانو أو بوسين Poussin على استخدام ألوان مشابهة لتلك التي نراها كل يوم في شوارع بانكوك من

خلال ملابس آلاف من الرهبان البوذيين. كما أن الأمر له أهمية حاسمة: وفي هذه الحالة فإن العادة أو الميل ليس هو ما يقولب الراهب بل يشمل الأمر المجتمع الذي إليه ينسب. هذا الميل الرائع يعبر لنا عن أن الحياة الدينية البوذية لها بعد حميم جدا وشخصي. إنها تبحث عن الرضا خارج الحياة وعن الإشراق الصافي للضمير وذلك من خلال النتيجة القائلة بأن الراهب البوذي هو عنصر أقل دينامية بالنسبة للحياة الاجتماعية من الراهب المسيحي وأنه متسول سواء على مستوى الحياة الدنيوية أو على مستوى الحياة الآخرة.

ومع هذا فإن رجل الدين في شوارع بانكوك له سمة أخرى غير تلك التي نجدها فيه في المدن التي خضعت للسيطرة الأوربية، فهو هناك يبدو على هامش المجتمع الحالي، ومجرد مسؤول، يسير على النمط القديم، تابع للمعابد القديمة وعضو في طبقة اجتماعية وثقافية مدفونة تحت تلك التي تحبذها الإدارة الأوربية، أو مسموح بها في إطار نوع من الأبوية الفلكلورية. غير أن عكس ذلك هو ما نجده في بانكوك حيث الراهب هو بطل كامل سواء في الحياة التربوية أو الاحتفالية سواء كانت فنية أو أخلاقية في البلاد. وفي هذه الأديرة التي لا تعد ولا تحصى في بانكوك نجد أن ما قدم لا يقتصر فقط على التربية الدينية بل يندرج أيضاً على التعليم العلماني بالنسبة لقطاع كبير من التلاميذ. هناك نصف مدارس الدولة مقرها الأديرة حتى عام ١٩٥٠م، وفي أيامنا هذه هناك الكثير من الطلاب الجامعيين - وهم أكثر بكثير من الدول الأخرى في جنوب شرقي آسيا - يعيشون في هذه الأديرة وكأنهم مقيمون أو في مدارس داخلية.

وبالنسبة للقانون البوذي Canon الذي يحتم على كل ذكر أن يعيش حياة الراهب على مدار شهرين على الأقل طوال مدة إقامته، يتم تنفيذه حرفيا في سيام، وعلى هذا فإن الأغلبية الساحقة من الناس ارتدى العباءة الذهبية وعاش حياة الزهد والمسكنة الديرية. هناك الكثير من الرهبان الذين نمر بهم في الشارع أو هؤلاء الذين يتحدثون وهم جالسون على المقاعد المتعددة الألوان إلى جوار المعابد، ينتهي بهم الأمر منذ قليل بتقمص العادات ثم يتخلون عنها بعد وقت قصير. لكن الأمر بالنسبة لمن يراقب المشهد هو أنه من المستحيل تمييزهم عن المبتدئين الحقيقيين أو عن هؤلاء الذين قضوا أعواما طويلة يعيشون حياة الرهبنة. هناك تداخل حميم بين المجتمع المدني والمجتمع الديني وهذا أمر يبدو- على الأقل

من وجهة النظر الغربية – من المستحيل رصد حدوده، أي الحدود الفاصلة بين الجندي المستجد والجندي المحترف.

ولما كانت بانكوك تأسست مع نهايات القرن الثامن عشر فإن معابدها وأديرتها مبان حديثة، أقيمت في ظل أسلوب تقليدي مشرقي – شبيه بالأسلوب القوطي الذي يرجع إلى القرن التاسع عشر – أو أنها مشيدة بمواد وبأسلوب غربيين الأمر الذي يذكرنا بكنيسة "القلب المقدس" في باريس، أو بآثار أخرى نمطية في إطار العمارة الدينية في الغرب. من الداخل، هناك بعض المعابد المضاءة سيرا على متطلبات الإنارة المعاصرة كما أنها مزودة بالوسائل اللازمة من أجل تدرّج الحرارة والمقاعد المريحة التي تثير حسد وغيرة أي قسّ حداثي. كما أن التراتيل التي يترنم بها الرهبان تتسم بطابع يجعلها تبدو وكأنها صادرة عن دار نشر بلجيكية.

يتولى الشعب والطبقات القادرة والتاج حماية المقدسات الدينية. وعندما بدأت الأسرة الملكية "شاكري"، بناء الدولة السيامية على أسس حديثة مع مطلع العصر الحاضر، وقامت في الوقت ذاته بإدخال إصلاح سياسي وإداري بذلت جهدها في هذا المقام بالنسبة للرهبنة وباقي الهيئات الخاصة بالديانة البوذية، حيث أمكن دمجها بشكل حميم في الحياة العامة للبلاد. وعلى الإيقاع الذي كانت فيه الدول الأخرى تعيش تحت ظل السيطرة الأوربية أخذ قدر الملكية السيامية يرتفع ووصل الأمر إلى اعتبارها الوحيدة المدافعة عن الإيمان.

وخلال ثلاث مرات على مدار العام، عند بداية موسم الأمطار والحر والبرد، يصعد ملك سيام إلى المذبح الكبير "لبوذا إسميرالدا" ليغير ملابسه طبقا لمتطلبات الطقس. وتحت المذبح، عن اليمين والشمال، هناك قدر كبير من Sévres وكذا ساعة إنجليزية. إنها هدايا قدمها نابليون الثالث والملكة فيكتوريا حيث كان الموظفون التابعون لكل طرف ينظرون إلى بعضهم البعض من خلال حدود سيام، دون أن يجرؤوا على اجتيازها بسبب الخوف المتبادل، اللهم إلا إذا كان في شكل ضغوط تتعلق بهذه الهدايا.

ومن بين هذه الهدايا هناك عملية إرسال مجموعة من المعماريين من ذوي الخيال الواسع والحسّ الفكاهي وذلك لمساعدة الزملاء من السكان الأصليين وكذلك القادمين من "العالم السماوي" في إقامة قصور ومعابد في العاصمة الجديدة للمملكة. ومن المستحيل

تصوّر وجود مجموعة من المباني المتعددة الألوان والمثيرة مثل تلك التي يتكون منها معبد "بوذا إسميرالدا" B. Esmeralda وباقي المعابد و estupas والمكتبات والدهاليز الكبرى والمنشآت من كل صنف وهي التي تتجاور وتتلاصق داخل المقر المقدس المجاور للقصر الملكي الكبير في بانكوك. هناك تراكب للأسقف ذات الانحناء المقعر والتي تنتهي بـ Chofas متحدية الأرواح الشريرة بحركة تنسب إلى عالم مصارعة الثيران. هناك منافسة بين عباءات رجال الدين الذين يتجولون في هذه الأماكن وبين ماء الذهب المدهونة به الأبواب والأعمدة، وبين قطع البورسلين المتناثرة و"الكفتة" في ملابس الجاكس yaks أو "العملاق" في إبر estupas.

كان من اللازم أن نلتقي الكثير من التيارات الشرقية في ذلك البلد ذي الخليط الثقافي الذي هو سيام، وذلك حتى تتجلى هناك عينة فنية مثيرة. كان من الضروري أيضاً أن يكون هناك تعاون أوربي في إطار ميله "لما هو صيني" والشرق الذي تمثله "ألف ليلة وليلة" وكذا الشهرة الدولية التي تحوزها منتجعاتها وكازينوهاتها التي ترجع إلى أسلوب القرن التاسع عشر حيث يبدو أحدها وكأنه "القصر الملكي" باستثناء شيء واحد وهو السقف الذي يمتد إلى الباب الرئيسي في بنية متشابكة فوق المبنى على شكل تاج على صدر راقصة تايلاندية.

ومع هذا نجد كل ذلك حقيقيا في بانكوك. وهو أكثر بكثير من أثر إسلامي أو هندوسي جرى ترميمه بعناية فائقة على يد السلطة الاستعمارية المختصة. هناك معتقدات حية تعضد الرموز الخاصة بالسلطة السياسية الدينية، وهي موروثات في معظمها من مملكة الخمير، حيث تختفي وراء الوميض المثير، في أعين الأوربيين الذي تعكسه المباني المتعددة الألوان.

نادرا ما حظيت الملكية بمثل هذه الأسس المتينة وأبرزت أنها أكثر كفاءة مثلما حدث في تايلاند. ويرجع تكوين الحروف الأبجدية السيامية إلى المبادرة الشخصية التي ظهرت خلال القرن الثامن عشر على يد ملك عظيم هو رام كام هاينج، كما أن هناك عصر أدبي جديد في تايلاند في الفترة الأخيرة على يدي الملك فاجيرابود Vajiravudh الذي ترجم أعمالا لشكسبير ولغيره من كبار الكتّاب الأوربيين وكذا ترجمات أخرى - من خلال اللغة الإنجليزية - لمجموعة من الأعمال الدرامية المكتوبة بالسنسكريتية القديمة. اهتم الملوك السياميون أيضاً بتنظيم الحياة في البلاط بطريقة دقيقة، فقد قام شولالونج كورنا بنفسه

بتحرير كتاب "**الاحتفالات الملكية أثناء شهور السنة**". وبالنسبة لما يتعلق بالحياة الاقتصادية فإن الوظيفة التي مارسها الملك كانت حاسمة، والأمر هو أنه حتى عام ١٩٣٢م كان يتمتع بحق مبدئي في احتكار كل ما يتعلق باستخدام الدخل القومي، ونادرا ما كان يحدث ذلك عمليا.

وحتى يتم تتويج الملك شولالونج كورن، أقيمت في عام ١٨٧٣ احتفالات غامضة طبقا لما هو متبع في التراث الرمزي الهندي؛ فعلى الجوانب الأربعة لجبل اصطناعي أقيم في بانكوك بهذه المناسبة جرى وضع تماثيل لأربعة من الحيوانات حول نافورة للتعميد وهي: الأسد والفيل والثور والحصان؛ أي أنها الحيوانات نفسها المنحوتة على واجهات تاج Capitel سرناطه Samath، القريب من بينارس، والذي أمر الملك أسوكا Asoka ببنائه خلال القرن الثالث قبل الميلاد. أثناء الاحتفالية جرى تعميد الأمير بالمياه التي تصبها الأفواه الأربعة لتلك الحيوانات طبقا للطقوس السحرية الخاصة بالتنصيب والتي ترجع إلى بدايات الميتافيزيقا والتاريخ الهندي.

إنها تطبيق لمبدأ **Pratibimba**- كما يشير إلى ذلك ب. رونالد[1] - وهو عبارة عن إعادة البناء الفني للتقسيم الذي يفترض أنه موجود لأقاليم ما وراء الطبيعة، وذلك حتى يتمكن البشر من دخولها والتمكن مما فيها من خلال الرمزية. كان الجبل الاصطناعي الذي أقيم في بانكوك هو الميرو، أي جبل العالم. أما الحيوانات الأربعة ونوافيرها فهي تمثل الأجزاء الأربعة والأنهار الأربعة في العالم بمعنى أن كل هذا هو صورة طبق الأصل للنظام الكوني. كما أن الدوران الطقسي الذي يقوم به أمير سيام كان من شأنه أن يجعل ماكينة الخيال تعمل لتؤكد سحريا سيطرته على الكون الذي أعيد إنتاجه في كون صغير جدا. ليس هناك ملك أوربي كان له هذا الطموح على الإطلاق.

---

(١) العمل المشار إليه، ص٤٥.

XXI- مجتمع برمائي

تتوفر الملكية السامية على طقوس أخرى أقل إثارة من طقس التتويج، منها اعتبار الملك بمثابة رأس لبلد برمائي. ورغم أن الرحّالة لا يتوافق في فترة وجوده مع تلك الاحتفالية، فإنه لا يترك زيارة المكان الذي تتم فيه وهي القوارب الملكية.

القاربان الأكثر أهمية يسميان ناجا Naga وهانسا Hansa ويمثلان، على التوالي، حية وبجعة أسطوريتين ابتداء من الرأس الذي يمتد بجرأة، وكأنه مقدمة مركب، حتى الذيل الذي يرتفع وكأنه مؤخرة المركب على شكل حركة توحي بالوداع. يبلغ طول القارب بالكامل خمسين مترا ويقوم بتشغيله ستون مُجدِّفا يرتدون حللا قديمة ذات لون قرمزي، ويقومون دفعة واحدة بتشكيل مجاديفهم الذهبية في المياه العكرة لنهر مي-نام Me-nam. هناك أطواق من الياسمين تعلق في المقدمة معلنة مرور الملك فوق هانسا، التي تتولى أمر الهداية الملكية على ناجا عندما تتوجه الاحتفالية نحو معبد يطل على شاطئ النهر.

وينتهي الحال بهذه الاحتفالية والقوارب تحت سقف خشبي لامع مدهونة بماء الذهب للحشف أو الريش المتخيل على ضلعيه. ولا زالت ترتفع وسط المكان السرايات المخصصة للشخصيات الملكية وكأنها تستوحي مَحَفَة الفيل. تستند المجاديف على الروافد الخشبية، وهناك بعض الزهور على سطح المياه الراكدة لا زالت تحتفظ برائحة الاحتفالية، ولا يكلف تخيل ما يحدث الكثير من الجهد، فليس الأمر باحتفالية سرية ذات مضمون سحري بل هي عبارة عن التتويج الرسمي لنمط حياة مقبول لدى كافة الرعية، وعندما تختال الملكية السيامية في قواربها الكبرى (الجندول) فذلك يعني أقصى قدر من التمثيل لها.

يفعل كافة التايلانديون الشيء نفسه، فالقارب هو واحدة من أدواتهم للذهاب إلى العمل أو إلى المعبد أو البيع أو الشراء أو نقل الماشية أو الصيد في أي ركن من أركان هذه

الشبكة المعقدة من القنوات ـKlongs – التي تقوم عليها بانكوك أو الأحياء المحيطة بها. ودائما ما تمر من تحت نافذة غرفة الفندق أو مراكب أخرى أصغر حجما ومسطحة، محملة بالأخشاب أو الفحم أو الصناديق حيث يتم نقل تلك المواد من شاطئ إلى آخر في التوجه المقدس وذلك لتصحيح انحرافات التيار، أو تمر القوارب الصغيرة، حمولة شخص واحد، حيث يترك صيادها قاربه نهبا للتيار بينما يقوم بإعداد الصنارة أو إلقائها في المياه أو أن يزيل من الشعب سمكة من تلك الشديدة الشيوع.

تمر صفوف المراكب الكبرى وسط النهر وهي مراكب واثقة من طريقها، تلمع فجأة تحت الشمس الاستوائية لأن الأسقف غالبا ما تكون معدنية، كما أن صورة المركب تفترض في حد ذاتها وجود الأضواء الخافتة كما هو في نهر السين أو نهر الرين، ثم تفاجأ العيون عندما تكتشفها في جو مختلف تماما. وكان الرسامون الانطباعيون الفرنسيون الذين كانوا يكنون حبا شديدا لمثل هذه المراكب، يرسمونها من خلال بقع قاتمة وكأنها سرب من طيور سوداء، لكنهم في بانكوك كان عليهم أن يستخدموا الألوان الرمادية الأكثر إضاءة ضمن الألوان التي يستخدمونها.

غير أن هذه الصور تذهب بنا بعيدا عن جو بانكوك، فالقارب هناك ليس مجرد وسيلة لنقل بضاعة بل هو عدة من أجل الحياة اليومية، إذ يقوم بوظائف عدة وأولها هو تسهيل قدرة الإنسان على الحركة، وتحت المنازل أو جوارها، من تلك المقامة على قواعد خشبية مدقوقة على الشاطئ الطيني أو في مجرى النهر، هناك القوارب التي تستخدم كأداة ضرورية ومستمرة وهي الاتصال الوحيد، ولو اقتصر هذا على الأقل على عدة شهور في السنة، بين المنزل والعالم. أجساد التايلانديين متسقة على مقاس القارب وكذا القارب أيضاً وكأنه جلد هذه الأجساد. أضف إلى ذلك أن التلقائية التي تتحرك في إطارها المراكب وسط القنوات الكثيفة الحركة تعني عملية دمج ناجحة بين العربة والسائق لدرجة ينتهي معها الأمر بأنهما يمكن أن يكونا الشيء نفسه أي الوحدة العضوية نفسها.

يسهم الطقس ودرجة الحرارة بدورهما في هذا المقام، فعلى مدار العام هناك متعة في التلامس بين الحياة والجسد رغم أننا في عز فصل الشتاء، فالناس ينزلون إلى المياه ويخرجون منها بثقة أكثر من أهل شواطئ البحر المتوسط في عز الحرّ. ينزل الأطفال إلى الحياة ليلعبوا وهم عراة سواء نزلوا من القوارب أو تعلقوا بها. الرجال كذلك، بمن فيهم كبار السن،

يستخدمون الصابون على نصف جسدهم بعناية وسط المياه بينما تدخل النساء بسيقانهن وربما يفعلن ذلك لغسل فرشاة الأسنان التي انتهين من استخدامها أو إناء إعداد الشاي، أو لمله بالمياه وغليها. يعيش التايلاندي على حافة المياه، أو فيها بمعنى أصح وكأنه كائن برمائي حقيقي.

فينيسيا هي الحالة الشديدة الشبه بما يحدث في بانكوك، إذ يتم الإعلان عن مقارنة بينهما في أدلة الرحلات المرة تلو الأخرى: بانكوك هي فينيسيا الشرق؛ لكن رغم أن وجوه الشبه يمكن أن تكون لافتةً للانتباه فإن الاختلافات قوية أيضاً.

في فينيسيا نجد أن استخدام القنوات له هذا المفهوم الواسع والحيوي مثل الذي هي عليه في بانكوك حيث لا نكاد نجد أي ممارسة حياتية إلا وهي قائمة هنا. القنوات في العاصمة التايلاندية هي في آن معا الشوارع والنوافير والحدائق ومشاتل الأسماك وغرفة الحمام وحوض الغسيل والسوق والمجاري. . . الخ، وليس ذلك بالنسبة لسكان أحياء بعينها أو لسكان الأرباض بل لمعظم سكان المدينة. ويحدث الشيء نفسه في كافة البلدان والقرى الواقعة على الدلتا الواسعة لـنهر مي-نام Me-nam.

وخلال فترة الفيضانات، أي أثناء شهر أكتوبر ونوفمبر، يصل وضع المياه بالنسبة لكافة سكان المنطقة الممطرة إلى أقصى مدى له، إذ تفيض مياه الأنهار ولا تحترم إلا السُّيَّج المشجرة للمزارع التي هي عبارة عن قطع من الأرض المرتفعة ومعها المنزل. وعندئذ تتم احتفالية أثناء الليالي التي يكون فيها القمر بدرا، وهي احتفالية "لوى كراتونج Loy Krathong"[1]، كما انها معروفة أيضاً في الصين والهند. لكنها في سيام تكتسب سمات شعبية وحماسية نظرا للتضاريس الجغرافية الفريدة للبلاد. المهرجان عبارة عن وضع كوب، مشكّل في الأساس من ورق البامبو، على صفحة المياه وفيه قنديل مضاء، وكذلك بعض البخور وإحدى العملات المعدنية. يطفو الكوب ببطء وبأعداد كبيرة في القنوات والأنهار في كافة أنحاء البلاد وهي عبارة عن مراكب صغيرة جدا وطقسية وذلك للاحتفال باللحظة الكبرى للفيضان في العام، أي عندما يكون قد انتهى فصل المطر ليترك المكان للشمس الساطعة وسط السماء الصافية التي تضرب بأشعتها فوق محيط الفلاحين حتى تنمو البذور.

---

(1) Phya Anuman Rajadhon; Loy Krathong; Bangkok; 4,a d., 1956

توافقت رحلة العودة مع فترة هذه الاحتفالات؛ وعندما أخذت الطائرة في الهبوط في الوادي حول بانكوك لم يكد المرء يكتشف مكانا حتى تتمكن الطائرة من الهبوط، كان المشهد كله عبارة عن بركة ضخمة. وفي نهاية ديسمبر كان الموقف قد تغير، إذ انخفض منسوب المياه وغاضت من الحقول ولم تكن الخضرة يانعة بل كانت لونا خفيفا ومصفراً، أما القنوات فكانت خطوطها المستقيمة واضحة المعالم.

وهنا فإن التناقض بين هذا المشهد وسابقه كان واضحا ذلك أننا شاهدنا قبل ذلك بعدة أيام المشهد الفوضوي الذي عليه وكان ذلك قبل كيلومترات كافية بعيدة عن مصب نهر ميكونج Mekong. فابتداء من سايجون وحتى بنوم بنه تختلط المياه بالأرض لدرجة أن المرء لا يدري هل يعتبرها على أنها دلتا نهر أو هي مجموعة من البحيرات أو نهر يفيض، ورغم أن المعالم المختلفة تبدو بعد ذلك أكثر وضوحا حتى ترى على شاطئ الكتلة المائية "للبحيرة الكبرى" رقع خضراء وكذلك مؤكسدة للنباتات التي لا زالت غارقة في المياه لكن من الصعب تحديدها من الطائرة، الأمر الذي يجعل المشهد غير واضح المعالم بالكامل.

غير أنه مع بداية الشتاء نجد حقول الأرز المحيطة ببانكوك منتظمة وكأنها رقعة شطرنج. تسير المياه صافية في شرايينها من القنوات تاركة الحقول الزراعية؛ ورغم هذا فإن المياه لا زالت هي البطل في المشهد الذي يمتد وكأنه ورقة خضراء ضخمة يُرَى فوقها النظام الجغرافي لشبكة الأوعية أو القنوات حتى تسير العصارة بقوة وحيوية لدرجة أن المنطقة المحيطة بالعاصمة تضاعفت مساحتها أربع مرات لتكون مزارع الأرز.

المياه المحيطة ببانكوك هي عصارة حية وليس ذلك للحقول بل للمجتمع بأسره. وعندما تسافرون بالسيارة في طريق ما سوف تفاجؤون بأنكم لا تصادفون بشرا آخرين غير هؤلاء الذين تحملهم السيارات أو الناقلات. لا تجدون عربات كارّو أو فلاحين يسيرون على أقدامهم أو يمتطون صهوة أحد الحيوانات. ترونهم وهم يعملون على مسافة بعيدة بعض الشيء في قطع من الأرض تخصهم، الواحدة منها ملاصقة للأخرى دون أن تكون هناك مسافة للطريق، وهناك لا يفهم المرء كيف يستخرجون المحصول أو كيف ينقلون الأدوات الحقلية الثقيلة. ومع هذا لا يتأخر المرء كثيرا حتى يفهم السرّ فالطرق تم بناؤها

مرتفعة وذلك لحمايتها من الغرق، وحتى يحصلوا على التراب اللازم لرفع مستوى الطريق قاموا بتجريف الجوانب المحيطة به، لدرجة أن هذه المساحات التي تم تجريفها تحولت إلى قنوات.

إنها طرق المواصلات المائية تسير بمحاذاة الطريق البري وهي طرق يصعب تمييزها لدى من يسافر بالسيارة وليس هذا بسبب عدم الاستواء بين الأرض والطريق بل لأن مياه هذه القنوات عادة ما تكون مغطاة ببعض النباتات وينظر إليها المرء على أنها جزء من الحقل. من الضروري أن يكون هناك قارب وتشق الطريق لنفسها بين النباتات المائية أو أي نوع آخر من النباتات، حتى يتأكد المرء أن هناك مياه تحت هذه الخضرة الأمر الذي يجعل هذه القنوات مريحة لنقل أهل البلد، ومن خلالها يقوم الفلاحون بنقل منتجات حقولهم أو عدة الفلاحة أو أن ينتقلوا هم أيضاً من خلالها. وعادة ما تكون قوارب خفيفة لها غاطس ضئيل جدا وعندما تبتعد عن القنوات الجارية الموازية للطريق البري فهي قادرة على النفاذ، ولو كانت هناك كمية مياه قليلة إلى وسط الحقل رغم أن المياه غاضت.

تفلت المياه من تخوم الحقول ومن بين المزروعات وتبدو كأنها كرات الدم الحمراء أثناء الدورة الدموية حيث تصل إلى كل مكان في الأنسجة. تتحرك المرأة العجوز والطفل ورجل الدين فوق الحقل، وكل جالس على شيء لا يُرَى لكنه يسير ويتقدم، بشكل غير مفهوم، بدون عجلات ويفتح لنفسه طريقا مباعدا الحشائش التي تغطى التيار الهادئ لمياه إحدى القنوات، من خلال مقدمته، مدفوعا بالضربات البطيئة والرتيبة لمجداف لا يُرَى.

هناك مجاديف أطول في الأعلى موجودة في "حسّاس" quisqueillero لتحدد للمسافر أن تلك القنوات ليست مجرد وسائل للاتصال بل إنها مجاري مائية شديدة الغنى والتوفر على الأسماك وهي أسماك تأتي من البحر لتبيض وتنفذ إلى آخر الدلتا حتى تصل إلى الأركان القصية في حالة عشق للأرض والمرتفعات التي تنتاب السمك في فترة التوالد. وعندما يهبط مستوى المياه تبقى الأسماك أسيرة في البرك أو البحيرات التي لا زالت قائمة ولهذا فإنكم يمكن أن تروا في أي من مناطق الروافد التايلاندية أحد الصيادين سواء كان طاعنا في السن أو طفلا، أو رجلا أو امرأة، سواء في الصباح أو المساء، وقد حملوا أدوات متنوعة، كما أنها مرتجلة في كثير من الأحيان. هناك عصا أو بوصة، وهناك خيط من أي نوع مربوط

به شص ، وضع الطُعم فيه بشكل سيئ لكنها تؤدي إلى نتيجة طبية غير بعيدة عن المكان الذي يعيش فيه وتحت قدميه دون الحاجة إلى نزول السلم .

الطبيعة سخية في تايلاند. هناك سكانها الذين لا يبلغون الكثافة التي عليها السكان في بلاد آسيوية أخرى، ولابد أنهم لم يعانوا الجوع أبدا، ولم يعانوا طبعا البرد وهما السمتان الرئيسيتان اللتان كانتا تسوطان الإنسان البدائي. هناك وفرة المياه وإليها تضاف الأرض المروية بها وهي أرض وفيرة الثمار تقدم كل أنواع الثمار. وتعتبر سيام أحد مراكز إنتاج الأرز في آسيا، لكن أشكال الاستغلال المقنن للأرض لم تلغ الطرائق العبقرية التي عليها الطبيعة بما تُمنّ به على الإنسان، ومن جانبهم يبدو السكان راضين ويتمتعون برفاهية بسيطة وطبيعية وسط مشهد نموذجي في حقيقة الأمر .

هنا نجد أن الناس لم يتعارضوا مع الطبيعة بتغييرها كما أنهم يشعرون أنهم في حضنها. كان الناس بالطبع قساة ولكنهم كانوا قساة مع أنفسهم؛ ففي Ayudhya عاصمة البلاد خلال الفترة من القرن الرابع عشر حتى القرن الثامن عشر، كان الدمار شاملا عندما استولى عليها البرمائيون عام ١٧٦٧م. جرى تدمير كل شيء سواء كانت الآثار أو الأسرة المالكة أو الإدارة أو الكنوز الفنية والأدبية التي تركزت كلها في العاصمة، على شاكلة ما يحدث في كافة البلاد الآسيوية؛ وبالتالي كانت هناك حاجة إلى وقت طويل وجهد كبير لإعادة حياة البلاد حول عاصمة جديدة؛ كانت العاصمة القديمة قد شهدت تدهورا ودمارا شديدين لدرجة عدم التفكير في استخدام المكان وهُجر بما فيه من أطلال نهبا للطبيعة .

إلا أن أطلال هذه المدينة القديمة تختلف كثيرا عن أطلال مدينة أنجوكور الغير بعيدة . إذ كانت هذه الأطلال تفتقر الحجمية والضخامة، كما أن الطبيعة لم تكن بالقوة التي عليها الأدغال في كمبوديا. لابد أن المدينة كانت ضخمة استنتاجا من المسافات الكبيرة الفاصلة بين أطلالها المختلفة، لكن المعابد المتهدمة كانت ذات حجم خفيف وتكاد تطير في الهواء . وفوق عدة درجات هرمية هناك قاعدة المبنى estupa المستديرة التي تنتهي بمسلة طويلة ورفيعة على شكل جرس مكتب ولكن بحجم كبير، وهذه هي النمطية التقليدية لهذا النوع

من المباني في تايلاند حيث تتجلى في فراثيدي Phra Cedi[1]، حيث نجد فيها مكونات من أصول سيلانية وأخرى من شمال تايلاند. وحولها تتضافر الخضرة بشكل رشيق وأملس وهي عبارة عن مجموعات من النخيل التي تنمو إلى جوار البحيرات أو الأنهار. ترعى الجاموس على هواها على الشاطئ وتدخل أحيانا في الحمأة أو تعوم في المياه لكن رأسها مرفوعة، ومتجهة نحو الشاطئ الآخر. الحيوانات في سيام هي أيضاً حيوانات برمائية.

هناك فتاة صغيرة تقوم بتحريك شبكة صيد كبيرة دون أن تبذل جهدا كبيرا، وهي شبكة مشدودة على قوس معلق على عارضة خشبية كبيرة يسهل تحريكها. تجذب الشبكة من المياه، ومن خلال حسّاس صغير quisquillero تأخذ الأسماك التي تتقافز. هناك امرأة عجوز تقف على قدميها وتقوم بالتجديف على مياه شديدة البطء وهي مياه نهر صغير، وتقوم بتوجيه قاربها الصغير ليمر من فتحة الجسر حيث مرّ من هناك للتو قارب آخر عليه امرأة وطفل صغير. وعلى الجسر، هناك بعض الأطفال يكادون يكونون عراة جميعهم وهم يحملون أسماكا من الصنف المعتاد تمكنوا من صيدها بصنّارة قويةحيث يتولي إخراجها بعض الشبان. يترك هؤلاء البعض ليقترب منهم من الغرباء ويعرضون الأسماك ويتضاحكون.

وغير بعيد عن المكان هناك على الأرض تمثال كبير لبوذا يرقد وراسه مستندة إلى ساعده في لحظة انتقاله إلى النرفانا Nervana. وهذا النمط شديد الشيوع في البوذية التايلاندية. وفي معبد وات فو Wat Pho. في بانكوك هناك تمثال ضخم راقد لبوذا يبلغ امتداده تسعة وأربعين مترا مطلي باللون الذهبي واللاكيه. كذلك الأمر بالنسبة للقطعة النحتية Ayudhya لكنها قطعة أكثر بساطة. كما أنها مجصصة وموجودة في الخلاء دون معبد يضمها. يمر الفلاحون إلى جوارها وهم عائدون من الحقل.

يأخذ الجهد الجسدي يتباعد عن أعضاء جاوتاما Gautama؛ تغمض العيون ببطء، وقد أصبحت شبه مغمضة وهذا متناغم مع لحظة مغيب الشمس، لكن النهار لا يبدو أنه يريد الذهاب، فمن وراء الأفق هناك نرفانا أخرى للطبيعة.

---

(1) Phya Anuman Rajadhou, "Phra Cedi" بانكوك، الطبعة الثانية، ص٥.

XXII- بينارس يلفها الضباب

كانت الرحلة بالطائرة من كلكتا حتى بيناريس Benares مصحوبة بقراءة التعليق الذي كتبه كونت كيسرلنج في كتابه "**يوميات رحلة فيلسوف**" حول المدينة المقدسة في الهند. وهو تعليق يتسم بطوله، كما أنه مفعم بالصور التي يستخدمها بحماس وإيمان والشمس ساطعة من خلال صفحات الفيلسوف البريطاني البلطيقي على شاكلة سطوع الملك النجم (الشمس) عند من ولدوا في المناطق الباردة في الشمال. وكثيرة هي الهبات التي يجب أن أشكر الشمس عليها. أنا هنا أشعر بأني شديد القرب من قلب العالم عن أي مكان آخر... ولم أعد أستغرب القول الذي يشير إلى أن كل حكمة عميقة مصدرها الشرق، آتية من المناطق القريبة من الشمس، فكل شيء مجسد، وهناك تتجلى الروح حيثما توجد قوة للتعبير عنها. وهنا أقول أن كل قوة هي مادية ومصدرها الشمس في نهاية المطاف"[1].

تنفذ الصور المضيئة إلى ذهن القارئ وتخلق جوا روحيا يتسق مع الظرف الذي يلفه. وهناك أيضاً أشعة الشمس الحقيقية التي تغرق الفضاء الداخلي الصغير للطائرة، وفي الأفق تتجلى سلسلة جبال الهيمالايا التي تشع نورا من خلال قممها الثلجية وكأن السماء تحظى بتعضيد مصدر آخر للضوء غير الشمس بل هناك قاعدة على الأرض. وبالفعل نجد الضوء لا يسقط فقط من السماء بل يصعد أيضاً من خلال الكوكب الزجاجي، وتحت الطائرة هناك طبقة مخرّمة من السحب التي تعكس الضوء القادم من عل ولكن بشكل طفيف، حيث يتبدى الفضاء الواسع مترعا بوضوح شامل ومتسق، ويمكن القول أننا كنا نبحر في النصف الذهبي للبيضة الكونية التي تصفها النصوص الهندية الأربعة Vedas.

---

[1] العمل المشار إليه، الجزء الأول، ص٢٣٨.

في هذا المقام لا يبذل خيال المرء جهدا كبيرا ليتصور المشهد الذي يصفه لنا الفيلسوف الرحالة: "مشهد رائع للشمس وهي تطل في الأفق بينما هناك المؤمنون كأنهم النحل حول الخلية ينحنون أمام عطية الحياة بورع وتقوى. الهندوسية لا تعرف بوجود إله شمس، ولا تتعبد أبدا - بصفتها روحية - لما هو مادة، لكنها تأمر بأن يقدس أتباعها الشمس ذلك أنها أبرز التجليات الملموسة للسلطة الإلهية الخالقة..." "وفي الصباح، أي عندما ينتشر المؤمنون ويغطون الدرجات ghats، أثناء الصلاة، في شكل موجات ذهبية، يصعدون نحو الشمس الوليدة، وهنا يتجلى المعنى في شكل جمالي بسيط؛ حيث يبدو أن الجو غمرته الروح الإلهية"[(١)].

يبدو المسار أيضا على هذه الشاكلة رغم وجود مقدمة مضيئة في الطريق الذي يربط بين المطار والمدينة ـ. الضوء هنا أكثر وضوحا مما هو عليه في كلكتا، كما تسهم درجة الحرارة المنخفضة في زيادة الشعور بنقاء الجو ولكن دون أن يكون على ذلك تأثير آخر آت من اللون الذهبي الذي نفترض دائما وجوده في إطار ما هو مقدس.

لكن أول اتصال ببينارس كان عند الغروب وقد تبدت ملامح الشفق الذي يبدو أنه يكثف ألوانه في القبة المقرّ في معبد دورجا Durga بقروده التي تتسلق فوق الحليات المعمارية أو تتكور في فجواتها هربا من البرد الذي أخذوا يشعرون به مع حلول المساء. وسرعان ما يسيطر البرد والظلام على المعابد الأخرى وعلى شبكة الشوارع الصغيرة المتشابكة التي تتوه فيها، إلا أن الظلام في مدينة معتمة تعتوره بعض الأضواء؛ فما يفترض أنه ضوء ليس إلا ظلا، فالظل الذي أخذ يلف الميدان شبه الخالي الذي به مسجد أورونجزب Aurungzeb وإلى جواره المعبد الصغير الذي يضم تمثالناندي (Nandi) ثورشيبا، وهذا ليس له تفسير إلا التدليل على الازدهار، إذ من خلال فجوة ضيقة - الطريق الوحيد ليلقى غير المؤمن نظرة منه - يمكن رؤيته وهو داخل "المعبد الذهبي" قدس الأقداس في مدينة بينارس المقدسة.

تخفت قوة الظلام من خلال النيران الموقدة للاصطلاء حيث يتحلق حولها الناس. لم يكن ذلك الوهج المقدس للشموع بل هو لمعان أقل طقسية وأكثر نفعية مصدره مواد

---

(١) العمل المشار إليه، ص٢٣٧.

قابلة للاشتعال تم جمعها كيفما اتفق وهي بوص البامبو وبقايا أثاث قديم ولحاء أشجار. إلا أن جو المدينة كان يضفى القدسية أيضاً على تلك النيران التي تدفع الرّحالة دائما للتفكير في الاحتفالية الكبرى التي تنتظره، أي عندما يصبح الجو المحيط وكأنه متوهج حراريا عندما تظهر على صفحة مياه نهر جانجس Ganges تلك الكرة النارية التي هي في كل أوان وخاصة عند القرب من الأفق شمس إيندوستان Indostan (أي شبه القارة الهندية).

إلا أن الطبيعة نفسها أخذت على عاتقها أن تخيب تلك الآمال على مدى صباحين متواليين، فعند الاستيقاظ كانت مدينة بينارس غارقة ليس في خيوط أشعة الشمس بل في ضباب كثيف يجعل من الصعب السير في الشوارع، وكانت تجبر على بذل أكبر جهد ممكن التأقلم على الوضع. إذ يمكن أن ينتظر المرء أن يظهر من خلال الضباب "fog" رويدا رويدا، كلما اقترب منا، تاكسي لندني، أو أحد المارة الذين يلفون أنفسهم في المعاطف، وليس "الريكاشو" تلك العربة ذات العجلتين التي يجرها سائق فقير يسير حافيا رث الثياب أو يظهر براهمي يضع على رأسه عمامة ملونة لدرجة أنها تحمل كافة ألوان السماء في منطقة ما تحت استوائية.

ومع هذا كان الوضع على ذلك الحال، كانت الشمس تقتصر على اختراق كتل الضباب كلما تقدم النهار واقترب المساء، كانت أشعتها تلمع بدرجة فيها فضية مُتْعَبة. وخلال الصباح لا يكاد المرء يرى الشاطئ الآخر لنهر جانجس، وكانت القوارب تبحر فيه وكأنها يقودها الرمز Carón نحو مملكة الظلال. وعندما يقترب منتصف النهار يتجلى المشهد حتى يصل إلى درجة شبيهة بتلك التي اكتشفناها في اللوحات الشمالية nordicos لكوروت Corot. لون صفحة المياه مصقول والنباتات البعيدة ذات لون رمادي يميل للخضرة، والسماء رمادية اللون، والوجوه البشرية واجمة ومزينة.

غير أنه عندما يقترب من كل ذلك القارب الذي نحن فيه ينقشع كل شيء كان الضباب يلفه. وإذا ما غابت الألوان واللمعان، من خلال رسائلهما البعيدة، وأصبح الواقع مرئيا عن قرب فإنه يرى بدقة شديدة وكأننا أمام لوحة لفنان يرسم الأشياء عن قرب، وعندئذ تتجلى بوضوح قدرته على الدقة المعمارية. وبالنسبة للطقوس الدينية، كانت عكس الطقس، إذ هي ذات طابع حاسم وجدير بالعناية. فأن يغطس المرء في مياه نهر جانجس ذات صباح حار ربما كان أمرا غير ذي قيمة كبيرة، ولو كان ذلك على الأقل

من وجهة نظر الزهد الأوربي، مقارنة بالقيام بالوضوء في الظروف الصعبة التي كانت تحيط بنا. وأحيانا نجد برودة المياه —التي يتسم الهندي بحساسية شديدة نحوها – كانت تثير رد فعل فيه القليل من الطقسية بالنسبة للأذرع حتى تتعود على الحرارة الجديدة. لكن لن تنمحي من الذاكرة تلك الصورة الطقسية الخاصة برجل متقدم في السن، له ملامح شديدة النبل تحت شكله الرمادي، حيث ضم يديه وبدأ تأملاته الروحية دون أي اعتبار للظروف المناخية قبل أن ينزل إلى المياه العكرة بخطوات ثابتة على سلالم Ghat Dasah Wamedb، حيث كان الخالق براهما يقوم منذ ملايين السنين بالاحتفال بالتضحية بالخيل.

لم يكن التقاة كثيرون على شاكلة ما كانوا في الأيام الحارة التي وصفها لنا كيسرلنج. فها هي الشمسيات الكبيرة المائلة للاحمرار كانت ملقاة ومهملة بدون رهبان يعنون بها وبدون جموع المؤمنين حولها. ولم يكن من الممكن لنا أن نعيش تجربة الانخراط في المشهد الذي يهز المشاهد، طبقا لما قاله الفيلسوف، عندما كانت الجموع تحيي ظهور الشمس بصيحاتها "om" وهو مقطع صوتي متكرر يدخل بالإنسان في حالة وجدانية هي النفس الروحية atman. وفي المشهد الذي كنا نتأمله كان يخيم الصمت والوحدة، إنها وحدة أو عزلة حميمة يعيشها كل واحد من التقاة القلائل الذين كانوا يقيمون الشعائر الطقسية هم أنفسهم دون أن يدخلوا في شعور جماعي؛ فهم كانوا يعيشون، كل فرد على حدة، الحالة التي هم عليها.

كنا نرى بينارس شديدة الاختلاف عن تلك المعتادة، فهي كانت بينارس مغمورة في ظروف خاصة غير مواتية، تعيش موجة من أشد الموجات برودة لم تشهدها منذ ربع قرن. لا يمكن للمرء إلا أن يألم لتلك الظروف التي انتزعت من العيون الاستامبا الكلاسيكية لبينارس. لكن يمكن أيضاً الإفادة من الوضع وتأمل المدينة ولكن من زاوية تكاد تكون غير مسبوقة. وربما إذا ما تأملنا بعيوننا من هذا المنظور يمكن اكتشاف جوانب غير معروفة، ومن يدر فيما إذا كانت أكثر أصالة من تلك المعتاد رؤيتها في الأستامبات المعروفة التي أصابها التآكل من كثرة الاستخدام.

لا يتأخر الرحّالة في اكتشاف مياه تنزل أسفل نهر الجانج وأعاليه، وأن الأمر المهم في مشهد درجات السلم لم يكن المشهد في حد ذاته والخاص بالناس وإنما كان هو أعمدة

الدخان التي كانت ترتفع من أعلى منصتين طرفيتين، لم يكد المرء، في البداية، يميزهما من كثرة الضباب، وعندما أخذ هذا الأخير ينقشع لم يكن من الصعب اكتشاف أن تلك هي كتل من الضباب بل هي كتل من الدخان التي تصعد إلى أعلى ثم تذوب في سقف الضباب. وعندما اقترب القارب من الأماكن التي يصعد منها الدخان بوضوح تم اكتشاف أصل الدخان: إنها كومات الحطب لإحراق الجثث.

تعتبر كومات حرق الجثث على شواطئ نهر الجانج واحدة من المكونات الرئيسية في المشهد في بينارس، لكنها نادرا ما تصل إلى درجة الأهمية التي وصلت إليها خلال 'أعياد الميلاد' Navidades من عام ١٩٦١م، ذلك أن الأسباب المناخية التي حالت دون رؤيتنا لظهور قرص الشمس المهيب وأدت في الوقت نفسه إلى غياب الكثير من المتحمسين من المؤمنين عن السلالم، وهي التي أدت إلى كثافة غير معهودة في كومات الحطب التي تحرق والناس من حولها. وعادة ما يتم حرق خمسين جثة يوميا في محرقات بينارس، لكن هناك محرقة واحدة فيها يمكن تمييز أكثر من ستة كومات مشتعلة إضافة إلى جثث أخرى إلى جوار النهر في انتظار دورها.

تتحدث الصحف عن مئات من الضحايا بسبب موجة البرد في شمال الهند، وكانت بينارس إحدى الأماكن التي تتعرض لهذا بشكل قوي سواء كان بالانخفاض الشديد في درجات الحرارة أو الوهن الجسدي الذي عليه الكثير من السكان. يأتي الناس إلى بينارس ليموتوا تجذبهم إليها شهرتها الدينية، وهم كثير من الطاعنين في السن من كافة أنحاء الهند، حيث بلغ بهم الوهن الجسدي ما بلغ كما أن حيواتهم تصبح حصادا سهلا في هذا الوادي أمام محشّة الموت الباردة. كانت الدخنات لا تحصى حيث نصادفها في الشارع، كانوا يمرون بها إلى جوارنا دون أدنى رهبة وهم يفتحون طريقا لهم بين الجموع الغفيرة، وكانوا يحملون الجثث على محفات من البامبو، كانت جثث الرجال ملفوفة في قماش أبيض، أما النساء ففي قماش أحمر مع شريط ذهبي. هناك بعض الزهور الصفراء شبيهة بزهور calendulas لدينا، كانت منثورة أو على شكل طوق، وكانت تزين الموتى بصفتها العلامة الوحيدة. وعلى البلاط كانت الزهور نفسها موضوعة فوق رأس مغطاة، حيث كانت هي السمة الجنائزية الوحيدة لمن توفى منذ قليل يوضع عند فلق الصباح إلى جوار رفاق آخرين حجوا إلى المكان لكنهم لا زالوا في حالة غفوة.

لا تكاد تكفي سلالم المحارق إذ كانت تدخل، بشكل دائم، جثث جديدة، كانت تغسّل سريعا ثم تترك إلى جوار الشاطئ حتى تجف، بينما يقوم أهل المتوفى بالسير في الإجراءات الرسمية وشراء الخشب والكريمات الصحية. وربما كانت هناك بقرة مقدسة تساعد بزفيرها في جفاف الكفن وقد حملت في فمها بعضا من القش الذي هو مخدع النعش.

الديانة الهندية شديدة الروحية لدرجة أنها لا تولي أية أهمية للجسد، فهذا هو مجرد لباس للروح تخلعه لتضع ثوبا جديدا، ولا يعرف أحد من أي صنف سيكون وهذا في إطار اللعبة الغامضة الكارما (الطاقة الحيوية) والتجسد في آخر. ثم تعاد الجثة إلى العناصر التي هي منها دون أي عناية أو اهتمام بمصير الفرد الذي تقمصته. يتم حرق الجثة العادية في الهواء الطلق من خلال النار، وفي النهر إذا ما كانت هناك ظروف خاصة مثل الأمراض المعدية أو القداسة أو الطفولة.

إلا أن نهر جانج يحتوي على مشهد آخر أكثر تأثيرا في عيون الغربي من محارق الجثث. إنه المزيج الحقيقي والإله الحقيقي لبينارس، وعلى شرفة ترتفع أعمدة الدخان من المحارق وكأنها أعمدة من البخور البشري.

تُعد المعابد في المدينة بالمئات لكنها صغيرة وحديثة البناء ودون قيمة معمارية كبيرة ذلك أن المعابد القديمة هدمت على يد التعصب الإسلامي، فأي بناء متواضع أو أي ركن يمكن أن يتحول إلى معبد، وهنا يصعب تحديدها اللهم إلا إذا كان ذلك من خلال تصرفات إيمانية يقوم بها أحد الحجاج حيث يركع على ركبتيه في الشارع. المعابد ليست من الديانة الهندوسية الأماكن التي يجتمع فيها المؤمنين إذ هي المكان الذي لا يقتصر على اجتماعهم فيها سريعا قبل الذهاب إلى النهر الذي هو الهدف. كما أن "المعبد الذهبي" نفسه ليس إلا نوعا من الملحقات لنهر جانجس حيث يقوم الحجاج بحمل مياهه في أواني من البرونز الأمر الذي يجعل المقر المقدس مبللا بالمياه في كل مكان.

أثناء الشتاء تقل المياه كثيرا في النهر، وهناك أغلب أجزاء مجراه جافة ولا يكاد المرء يلمح شاطئه على الجانب الآخر من المدينة بسبب الضباب. وبالنسبة للسلالم الكبرى التي توجد في حوائط المعابد وفي المقارات التي شيدها المهراجات لإيواء من يحجون إلى المكان ويمرون في أملاكهم ترى بوضوح آثار الشوارع الكبرى عندما يعبر النهر عن قوته ويجرف

الكتل الحجرية وأبراجا بكاملها. هناك خط يحدد أقصى ارتفاع للمياه يرجع إلى عام ١٩٤٨م حيث تجاوز الأبواب والنوافذ وتجاوز أيضاً السلالم الخاصة بمنطقة حرق جثث الموتى.

وهذا النهر يجرى اليوم هادئا وكأنه نهر فرنسي في يوم من أيام الضباب. وهنا ربما يزداد الخوف من تنامي قوة النهر المدمرة، والتي لا زالت تُرى آثارها على الآثار التي تطفح بالرطوبة. لا تقوم الشمس بمعالجتها بأشعتها العفية. كما أن الكتل الحجرية وباقي الأشياء عادة ما لا تضربها أشعة الشمس بقوة بل تعيش الآثار بعيدة عن بعضها وملفوفة في هالة من الظل وتغطيها طبقة من العرق البارد الذي يخرج من داخلها. ولا تزينها النبضات التي نوحدها التي تمثلها الشمس التي هي قلب العالم الهندوسي. ولهذا فإن نهر جانجس يبدو هادئا لكنه ذو قوة فريدة يلف طبقات الهواء بالبخار الذي يخرج من مياهه ويضع بصمة التآكل على الكتل الحجرية والحيوانات والحجاج. يختبئ النهر وراء ظلاله ليزيد من غموضه والانطباع بالما ورائية.

تبدو الآثار المبتلة أنها تابعة له أكثر من أي وقت مضى وكأنها خرجت من بين أمواجه وبتواضع جم سجدت إلى جوار الأمواج آملة أن تلين الحجارة وتصبح مادة هشة انتظارا ليوم ربما كان قريبا لتجرفها حياة النهر مثل الأجساد البشرية وتذوب في عمقه مشاركة بذلك في لعبة الحياة والموت التي لا تنتهي.

XXIII- قباب وحصون

إذا ما تأملنا هذا الفضاء الشاسع الذي هو شبه القارة الهندية لوجدنا أن الموت، كبنية اجتماعية، يتجلى بطرائق شديدة الاختلاف فيما بينها، وإذا ما كان الهندوس يرون أن مكونات الجثة يجب أن تختلط على الفور بعناصر الطبيعة، فإن الأمر عند الـ parsis (أصحاب ديانة بارسس) هو أن الجثة ليس لها مكان في العالم المحيط بنا، وليس ذلك بسبب ما كان لها من قيمة بل بسبب حقارتها. فأن تُحرق الجثة عند من يعبدون النار، الذين هم "البارسس"، تلاميذ ثور أسترو zoroastro، يصبح بمثابة تدنيس أطهر العناصر على الإطلاق، والذي يعتبر أبرز رمز لما هو إلهي. أما دفن الجثة فهو يعني أيضاً تدنيس الأرض الأم التي هي مصدر الحياة. وعلى هذا لا يدري "البارسس" ما الذي يفعلونه مع هذه النفاية الإنسانية مصدر عدم الطهارة فيقومون بتسليمها إلى القوى الطبيعية المجهولة لتفعل بالجثة ما تشاء. فعلى قمة برج، وهو الذي يطلق عليه "برج الصمت" في بومباي، يوضع الجسد باحترام ويترك لمصيره.

لاشك أن الأمر يتعلق بمفهوم عظيم للموت، غير أن الأمر السيئ هو أن الطبيعة ليست على مستوى هذا المفهوم البشري. وبالنسبة للطبيعة وعملية تقسيم المهام التي تسيطر على كل شيء فيها نجدها تتوفر على عوامل محددة للغاية توكل لها المهمة التي لا يتخذ البشر قرارا حاسما بشأنها. ولاشك أن من بين هذه العوامل ،أو العاملين، هؤلاء الذين أسسوا لذلك الطقس الجنائزي، إذ كانوا يضعون في الحسبان دور الطيور الجارحة التي تهبط من عليائها وقد تبدت مخالبها النبيلة القوية التي تخفي في لمعانها السماء. النسر هو طائر زيوسي ولم ينجح اليونانيون في ابتكار عقاب أكثر نبلا من أجل أنبل أبطالهم الأسطوريين إلا منقار النسر الذي يقوم بنقر لا يتوقف لأحشاء برموتيو.

غير أن جثث البارسس لا تعرف قوة طيران النسور التي تهبط بكبرياء من السماء. وعند وضع أصول هذه القواعد الجنائزية أتوا أيضاً بمشكلة عويصة إلى عالم الحيوان، إذ أصبحت غير قادرة على الطيران وفقدت كبرياءها، حيث أصبح ذلك غير ضروري، وفقدت البصر الفاحص القوى وأخذت تقف على أغصان الشجر التي فقدت لحاءها، إلى جوار "برج الصمت" وتودع طعامها المؤكد. وأصبحت لا تعاني المخاطر ولا تحلق في السماء بكبرياء وتحولت إلى طفيليات للموت، وتحولت هذه الطيور الشائهة إلى واحدة من الاستامبات الحقيرة للخلق. إن التشدد بشأن الموت وعدم تفهّم البشر للوضع الأخير لأجسادهم أسهما في إفساد الطبيعة.

تصبح عملية الدفن إذن وسيلة فنية في المقام الأول في باب التعامل مع الموت. و هناك عدد لا نهائي من المقابر يفصح عن ذلك في الهند بإلحاح لا يوجد في أي مكان ولا حتى في مصر؛ فعندما ينتقل الرحّالة من بينارس إلى أجرا Agra أو دلهى، عواصم الهند الإسلامية، ينتابه الاستغراب الكبير لكثرة وضخامة الأضرحة. ومن المؤكد أن الضريح في هذا السياق هو أكبر تعريف وتأكيد فني لبقاء الشخص، ويمكن أن تكون له معان أخرى كثيرة مثل الدينية والسياسية والكونية. . . الخ؛ لكن الأمر الذي لا مراء فيه هو أن الهند تولى اهتماما بهذا البعد الجنائزي وهو من المعنى الذي فيه تحد للعالم الهندوسي؛ فإذا ما كان العالم الهندوسي يُعني بإعادة الجثة إلى الطبيعة، فالأمر في العالم الإسلامي هو اعتبارها أمرا فوق الطبيعة، حيث يواري الجسد، عندما يكون جثة إنسان بارز، في وسط مبنى ضخم له سماؤه الخاصة به وكونه الرمزي الذي هو أعلى تأكيد للخلود.

أحيانا ما يكون للضريح صالة لأداء الصلوات مثلما هو الحال في المسجد الجامع في دلهى، إلا أن أغلب الأضرحة الكائنة في الشمال الغربي للهند تضم الدفنات الخاصة بها، أي واحد من أحد العارفين بالله أو وزير أو ملك أو إمبراطور أو ملكة محبوبة حبا رومانسيا مثلما هو الحال في تاج محل. ومن ناحية أخرى، عندما توجد هناك مقبرة ضخمة، مثل تلك التي أقامها الإمبراطور "أكبر" في "أجرا"، ليس لها قبة عندئذ يدرك الزائر أن هذا المبنى لم ينته العمل فيه، دون حاجة أن يقرأ أي كتاب عنه.

هناك أسباب كثيرة تجعل من الهندستان الإسلامية فردوس المقابر. إنه الميل الإسلامي للمباني الجنائزية ذات القباب (الأضرحة). هناك ميل لبناء القباب منذ زمن

طويل عند المنغوليين – أي "سكان المحلات" في آسيا الوسطى الذين وضعهم لنا ماركوبولو وكالبيخر وآخرين من الرحّالة الذين عاشوا في العصور الوسطى – حيث أصبح موروثهم هو المبنى الكوني المستدير وذو القبة[1]. وأخذوه معهم إلى جنوب الهيمالايا. هناك أيضا عملية تأكيد أتت من لدن شعب غاز لا يقنع بهزيمة شعب وإخضاعه أثناء حياته بل كان يريد أن يؤكد سطوة زعمائه الكبار حتى بعد الموت. وفي نهاية المطاف هناك أيضاً الطابع الانتقالي لعواصمهم – أي المسلمين – كنتيجة للمتطلبات الحربية والسياسية التي كان يجب أن يضعوها في الحسبان في الهند.

توجد في منطقة دلهي وحدها مخططات ستة عواصم إسلامية حيث تم الانتقال من واحدة إلى الأخرى في غضون قرون قليلة؛ كانت أولا مدينة "سيرى" Siri التي شيدها علاء الدين عام ١٣٠٤م، ثم تأتي بعد ذلك توجلا كاباد Tughlakábad التي شيدها توغلاك شاه عام ١٣١١م، وبعد ذلك جاهنبناه Jahanpanah، حيث أسسها محمد توغلاك عام ١٣٢٥م. وبعد ذلك فيروزباد التي أسسها الإمبراطور فيروزشاه توغلاك، ثم بورانا كيلا التي تأسست وشيدت في عصر حمايون Humayún وسحرشاه. وهذه المدينة لم تحظ بمباركة الأباطرة عقبة وجاهشير. ترجع المدينة ذات الأسوار التي هي دلهى القديمة والتي لا زالت قائمة حتى الآن إلى عصر بناء الحصن الأحمر على عصر شاه جاهان عام ١٦٣٩م وبالتالي أطلق عليها شاه جاهانباد Shahjahanabad.

ويعذرنا القارئ على هذه السلسلة المطولة من الأسماء والتواريخ ذلك أنها ربما تنفع في تكوين فكرة عن مساحة الأطلال، التي لا تقارن ، الخاصة بدلهى. وهي أطلال لا لمبان ضخمة منعزلة عن بعضها أو لمدينة كاملة بل هي خاصة بكثير من المدن التي تكاد تكون متجاورة، حيث أقيم الكثير منها لتكون عاصمة لإمبراطورية ضخمة. وفي منطقة الاتصال الأكثر مباشرة بين حوض "الإندو Indo" وحوض نهر جانجس، وغير بعيد عن الأراضي الخاصة بالمسيطرين الذين ظلوا على تهديداتهم في القيام بموجات جديدة من الغزو، نقول كان من الضروري إقامة عاصمة البلاد. غير أن في هذه الأصقاع المكونة من هضاب كثيرة

(1) Vid, E. Baladwin Smith: the Dome. A Study in the History of Ideas, Princeton University Press, 1950, pag. 81 y sigs.

الحجارة حيث كانت مهيأة لبناء الحصون، كان من الصعب إقامة مبان حضرية. وتتابعت المدن وحصونها الواحدة إلى جوار الأخرى في حمّى إنشائية خلفت وراءها منطقة أطلال غاية في الضخامة لا يرى لها مثيل على الإطلاق في العالم.

هي منطقة ضخمة لأسباب منها عمليات التأسيس ثم الانتقال ثم الإخلاء من السكان وهذه كلها نتيجة قرارات شخصية محددة. ليست إذن مدنا تشيد ثم تتهاوى مع مرور الزمن نتيجة مجموعة من العناصر المشتركة بل كانت مدنا تظهر ثم تختفي فجأة بناء على مرسوم فيه اعتساف صادر عن إنسان. إنه إنسان قادر على أن يجعل سكان دلهى ينتقلون ليس فقط لبضعة كيلومترات، وإنما لمئات الكيلومترات مثلما فعل ذلك محمد شاه توغلاك عام ١٣٣٨م حيث غضب كثيرا من بعض الأبيات الشعرية التي كانت تهجو حكمه فأجبر سكان العاصمة بالكامل على الانتقال إلى دولة أباد Daulatabad في دكّان Deccan.

كانت دلهى آنذاك في حالة منافسة مع القاهرة وبغداد من حيث الثروة وتعداد السكان. كان الجميع مجبرون على مغادرة المدينة في غضون ثلاثة أيام. وجرى تنفيذ الأوامر الصادرة بصراحة، فعندما وجد عبيد السلطان رجلا مصابا في الشارع حملوه إلى حضرة محمد بن توغلاك، الذي قرر مساعدته على الرحيل بأن أمر بوضعه في المنجنيق، وبذلك أصبحت المدينة خالية تماما من السكان.

وهنا كتب المؤرخ باران Barani[1] الذي يتسم بأمانته كمؤرخ يقول "هناك إنسان أثق فيه كثيرا أكد لي أنه ذات مساء صعد السلطان إلى شرفة قصره وبعد أن تأمل مساكن دلهى التي لم يكن يخرج منها أي دخان أو ضوء صاح متعجبا: روحي الآن سعيدة وقلبي هادئ".

يمكن للرحّالة أن يعاود عيش هذه التجربة الغريبة التي عاشها السلطان لكنه لن يصل إلى ذلك الإحساس، بل سيشعر أنه في سلام وأنه قد جرى الانتقام من هذه الأطلال الخاوية على عروشها من خلال الحركة المحمومة التي تعيشها الحواضر الحديثة. كان هؤلاء المسلمون الهنود العظام يعشقون، على مستواهم، العزلة في الحياة، وبعد أن يموتوا كانوا يدفنون في مبان

---

(١) ورد من خلال إتش. جي. رولنسون، الهند: تاريخ ثقافي موجز، لندن، ١٩١٤، ص ٢٣٢

ضخمة خالية تماما لدرجة أن ذلك يبرز الملامح الحجرية للمقبرة ويتواءم مع طبيعة ساكنها الذي لا يراه أحد، ولا يوجد أي شيء آخر اللهم إلا آية قرآنية وكأنها شريط بسيط.

وفي الوقت الذي نجد فيه دلهى حقلا شاسعا من الأطلال، هي أيضاً حقل كبير من المقابر، وهي مقابر ذات أضرحة بها قباب بصلية الشكل، غير ثابتة، تقوم إسطواناتها مثل القباب الغربية، بل منتفخة وكأنها على وشك السقوط من فوق المبنى، نفختها روح هؤلاء الموتى العظام حيث كانت تريد أن تدفعها إلى أعلى.

هناك مجموعات من المقابر محاطة بحدائق على الطراز الإنجليزي أو الإسلامي، وربما يتهددها التطور العمراني، حيث نجدها في أي حي من أحياء دلهى. هناك الكثير منها مهجور أو تحول إلى أطلال وربما سقطت القبة التي كانت تعلوها. غير أن القبة تقاوم السقوط على أية حال وتصمد أمام عاديات الزمن بشكل أفضل مما عليه الحصن رغم قوة الكتل الحجرية وسمك الحوائط المشيدة بشكل مائل إلى الداخل. أدى احترام ذكرى من هو مدفون هناك إلى الحفاظ على المبنى بينما نجد أن الحصون لم تعد ذات جدوى وبالتالي لا تحظى بأية حماية اللهم إلا إذا كانت هناك قريبة مثلما هو الحال في قلعة توجالاكاباد Tughlakabad حيث نجد أن القطاع الذي يوجد تجاه مقبرة توغلاك شاه ،الرجل الذي شيد المدينة وهو الذي أخلاها من السكان ومنها هناك جسر يعبر بحيرة صناعية مؤديا إلى الحصن وبذلك يبث فيه شيئا من بطولته الخالدة.

في دلهى نجد الارتباط شديدا بين الحصن والمقبرة، وينطبق الحال على كثير من الأقاليم في البلاد، إنه نوع من تأكيد السيادة سواء في الحياة أو الموت، ولهذا فإن خيال الرحّالة الأيبيري يربط بشكل عفوي كل ذلك بالذكريات الوطنية. تتسم الهضاب والمرتفعات التي تقام عليها حصون دلهى بالقوة وصعوبة الوصول إليها مثلما هو الحال في الأراضي السلتية الأيبيرية. هناك أيضاً شبه بين النباتات هنا وتلك القرى في حوض نهر دويرة. الفارق هو أن القردة التي تجري هنا وهناك على الأسوار وكذا صفير أحد مدربي الثعابين هما العنصران الوحيدان اللذان يصنعان المشهد الحربي محل المشاهدة في موضعه الجغرافي الصحيح.

توينبي، مولع بالحصون الهندية، ولذلك خصص لها أفضل فصول كتابه "**من الشرق إلى الغرب**" ، ولا يسع الرحّالة الأيبيري إلا أن يتفق مع رأي المؤرخ الكبير رغم أنه أقل إحساسا بالدهشة منه، والسبب هو أن توينبي، من حيث هو إنجليزي بالسليقة، يصدر عن رؤية سهلية للحصن، وبالتالي كان إعجابه أكبر بهذه الحصون المذهلة التي تعلو قمم الهضاب وتختلط بها لدرجة أنه "لا يوجد خط فاصل بين ما بدأته الطبيعة وما استكمله الإنسان، وهنا يبدو أن هذا العمل الإنشائي ينمو معتمدا على الصخرة الحية التي عليها يقوم"[1].

لا شيء من هذا يثير استغراب الهسباني، بما في ذلك الطابع الخاص الذي عليه الحصون الإسلامية اللهم إلا ذلك التوجه المتحدي الذي عليه الحصون في الهند حيث نجد أن الإسلام كان يؤكد وجوده ويمتد بينما نراه على الطرف الآخر، في أقصى الغرب كان يعاني من الانكماش. تتسم الأبعاد بأنها غير مسبوقة وكذلك التقنية المستخدمة في الإفادة من الكتل الحجرية الطبيعية لجعل عملية تسلق المكان أمرا مستحيلا ويسهل ذلك "الحمار والثعبان" وهذا ما نراه بشكل واضح في حصن دولتباد الذي يعتبر المفتاح الإستراتيجي للدخول إلى دكّان Deccan ومقصد الحجيج لهؤلاء التعساء من أبناء دلهى.

ربما يبدو مفاجئا للهسباني وجود علاقة حميمة بين القبر والحصن، ولا يقتصر الأمر على العمارة وإنما على حياة الناس أنفسهم حيث كان يجتمع آلاف من الفلاحين في مكان شديد القرب من الحصن في صفوف طويلة جالسين على الأرض، رجالا ونساء كل بمبعد عن الآخر في وضعية التقاط الأنفاس من خلال تلقي الطعام المتعدد الألوان الذي يوزعه عليهم القائمون على أمر الجماعة، حتى يقوموا على الفور بالصعود إلى الحصن وزيارة قبر الولّي الكائن هناك في الأعلى.

كان الوقت متأخرا، عند العودة إلى إلورا Ellora، للقيام بالصعود إلى الضريح، وكان الشيء الوحيد الممكن الاقتراب من الخندق مخترقا الأسوار المختلفة والمتعاقبة.

---

(١) من الشرق إلى الغرب، ص١٣٤.

لا يمكن للمرء أن يصل إلى هناك أبدا فوراء كل سور به باب منحن محصن جيدا هناك آخر ثم آخر ويفصل كل واحد عن الآخر صحن أو حقول مهجورة. أي أن الجهد المعماري بأكمله كان مبذولا في هذه السلسلة من الحلقات الدفاعية لجعل الوصول إلى الحصن أمرا مستحيلا. وفيما يتعلق بباقي منشآتها نجد أن الأمر ليس عبارة عن أسوار أقامها البشر بل التضاريس الوعرة للصخرة حيث قام الحجارّون باستخدام الأزميل لجعل الصخرة متعامدة على المكان وملساء.

لاشك أن هذا كان عملا سابقا على الغزو الإسلامي، نفذه حرفيّون قاموا بنحت معابد وأديرة إلورا Ellora. هناك خندق منحوت في الصخرة يحيط بالَمدينة تحت الصخور الهندسية، التي تلقى عليها الشمس آخر أشعة لها، بينما كان هناك ظل غريب يخيم على صفحة المياه الراكدة المائلة للاخضرار، بشكل يكاد يكون مقدسا.

وعند تجاوز الخندق من خلال جسر متحرك، يأخذنا المسار إلى نفق متعرج لنصل إلى قمة الصخرة حيث أنشئ هناك الحصن الحصين الأخير وكذا ضريح الولي. هناك شبكة حديدية يمكن أن تغلق المدخل. يتجاوز الأمر كونه واقعاً، إذ كان يبدو أنه نتاج خيال جامح في عالم الألوان فالصخور تميل للزرقة وكتلة واحدة وأثيرية في الوقت ذاته مثل تلك التي يمكن أن يتخيلها جويا في لوحاته التي تنسب إلى المرحلة السوداء في مساره الفني.

من المؤكد أيضاً أن صورة الهند سوف تبقى حية في مخيلة الرحالة الأيبيري وخاصة ما يتعلق بحالة الهوس ببناء الحصون.

XXIV- الحقول اللانهائية

لا نعرف في أوربا حقولا مثل التي توجد في الهند، ولا يقتصر الأمر فقط على بداية الثورة الصناعية بل ابتداء من الثورة الزراعية خلال القرون الوسطى من العصر الوسيط؛ وبناء على ذلك الهوس المنتشر اليوم في باب المقارنة والمساواة نرى أن مختلف الحضارات سارت في طرق موازية وعلى مراحل لا توجد بينها وبين بعضها مساحات زمنية كبيرة، وهنا نجد أننا لا نرتكب فقط خطأ تاريخيا بل نحرم أنفسنا من التجربة الحيوية التي تقدمها لنا الأنماط الشديدة الاختلاف فيما بينها ومع هذا فهي جميعها إنسانية لدينا معشر الذين نعيش على هذا الكوكب.

وعندما نتأمل استخدام مصطلح "العصور الوسطى" نجده مستخدما بطريقة عشوائية وغير تاريخية الأمر الذي يجعله غالبا يطبق على أنماط حياتية خارج أوربا شديدة الاختلاف والتنوع في محاولة للتوصل إلى مساواة جوهرية بينها وبين تلك الأخرى المحددة للغاية لأنها فترة عاشها الإنسان الغربي أثناء قرون من تاريخه تحمل تلك التسمية. وهنا فإن الرؤية التاريخية الحقيقية تعتبر شديدة الزيف وشديدة عدم الثراء؛ فقد كانت الحضارة الأوربية خلال العصور الوسطى حضارة ريفية بدرجة كبيرة، غير أنها ابتداء من القرن الحادي عشر - على الأقل - أخذت تتسم بسمات فريدة تجعلها مختلفة عن الحضارات الريفية الأخرى وخاصة الحضارة الهندية.

هذا هو الإحساس الذي يمكن أن يشعر به أبسط الرحّالة الذي يفتقر إلى معارف تتعلق بالتطور التاريخي للزراعة الأوربية؛ أما من يتوفر على تلك المعارف فإنه سوف يتوصل إلى نتائج حاسمة عندما يقارن طريقة استخدام الحيوانات والسماد في الهند، وكذا نوعية منازلهم وقراهم والسلوك الذي تتخذه الجماعات الاجتماعية التي كانت موجودة في

أوربا على زمن الرهبان السيستيريين. غير أنه ليس من الضروري أن تتوفر الكثير من المعلومات حتى يدرك الرحالة ما الذي يجده أمامه من أنماط حياة اختفت من الزراعة الأوربية منذ زمن طويل، وربما لم تكن موجودة على الإطلاق. يشعر الرحالة في هندستان بأنه يرجع إلى الوراء ليس فقط قرونا أو آلاف السنين بل إنه ينتقل إلى حالة وجودية لا يوجد فيها الزمن، حيث يجد أن أنماط التقدم التقني ليست متخيلة اللهم إلا إذا كانت مفروضة من الخارج؛ فالإنسان لم ينفصل بعد من الصدر الغذائي للأرض ويعيش ملتصقا به مثل الحيوانات أو النباتات ومن هنا نجد الجمال الرائع والكامل المحسوس للحقل في الهند.

هناك عنصر جوهري يدخل في إطار تلك التجربة: إنه الإحساس باللا نهائية؛ ففي أماكن أخرى على هذا الكوكب يمكن اكتشاف أنماط حياة مشابهة: في مصر على سبيل المثال. لكن هناك، يوجد الشعور بالمحدودية مثلما هو الحال في باقي أنحاء العالم العربي، فالصحراء ليست بعيدة أبدا عن الحقول، الأمر الذي يؤدي إلى الانطباع بضخامتها. إلا أنه عند النظر إلى حوض نهر جانجس، على هضبة دكَّان Deccan نجد الحقول تمتد دون حدود. هناك ستمائة ألف قرية، منتشرة بطول شبه القارة الهندية وعرضها، تعيش أنماط حياة متشابهة. الأمر إذن يتجاوز مجرد تكرار حسابي مجرد أو انطباعا ذاتيا عند المُشاهد، إذ بالنسبة لكل قرية هندية يبدو تأثير باقي القرى عليها وعلى كل فلاح وعلى مئات الملايين من البشر؛ فلا يقتصر الأمر على أن يكون كل واحد منهم عضوا في تلك الجماعة الضخمة بل هو ممثل لها ومثال حي على المصير الجماعي المشترك لهذه الحقول اللانهائية.

كتب جواهر لال نهرو[1] يقول: "كان هناك في قاعدة البنية السياسية للهند نظام القرى المستقلة ذاتيا والدائمة بينما يذهب الملوك عن العرش ويجلسون عليه. لقد اقتصرت الهجرات والغزاة القادمين من الخارج على إدخال نوع من التقليص لهذه البنية دون أن تمس الجوهر". وهنا يمكن القول أنها بدلا من أن تتعرض للضعف، أفاد الزمن في زيادتها قوة وانتشارا مع مجئ الثورة الصناعية رغم أن هذا يبدو أمرا متناقضا. فإذا ما قام الإنجليز في العاصمة بالتضحية غير الرحيمة بالحقل المسمى old merry England، لصالح نمو طبقة البروليتاريا الحضرية فإن هذا المسلك أتى بنتائج معاكسة.

---

(١) "اكتشاف الهند" – ترجمة – بوينوس أيرس ١٩٤٩م، ص١٩٥.

تعرضت الصناعات التقليدية للدمار بسبب التقنيات الحديثة فأصبح العمال والفنيون بدون عمل ولم يجدوا غير الحقل من أجل البقاء، وكان ريفا مكتفيا اكتفاء كاملا بحيث لا يقبل بالآخرين الجدد، "وبهذه الطريقة تحول هؤلاء إلى عبء على الحقل، وأخذ هذا العبء يزداد، ومعه أخذ الفقر ينتشر في البلاد حيث هبطت مستويات معيشتهم بشكل غير مسبوق. هذه العودة الإجبارية إلى الأرض والحقل التي قام بها الفنيون والعمال أدت إلى وجود خلل متزايد ودائم بين الزراعة والصناعة. ثم أخذت الزراعة تأخذها دورها في أنها العمل الرئيسي للشعب"[1].

يشعر الرحالة الذي ينتقل على الأرض الهندية بثقل يقع على كتفيه وهو الكتلة الضخمة من الفلاحين التي تتضاعف من خلال سلسلة من الأجيال المتماثلة والتي يزداد تعدادها من خلال الفلاحين الذين يدخلون المجال بشكل مرتجل. تبدو أقدامهم وقد غرست في التراب والطين بسبب ما تحمل من عبء وثقل.

يفر الزائر مرتبكا من تلك المنازل القروية الهزيلة التي دخلها بدافع الفضول ذلك أن حوائطها المشيدة من الطين الملتوت، دون أدنى دهان أو حرق، يتحول إلى تراب لمجرد الاحتكاك بها وتهدد بالسقوط عليه لتحوله إلى الوضعية التي عليها الفلاح الهندي. كما يبتعد وهو خائف من الحافة أو الفوهات المستديرة للآبار حيث هناك بعض الثيران الجائعة والمجهدة التي تستخرج المياه من أعماق البئر لريّ الأرض. ولما كان الرحّالة أتى قادما من الهند الصينية أو تايلاند، حيث المياه منتشرة في كل مكان، هنا يكون التقدير الإيجابي للجهد الإنساني وكذا القيمة الأساسية لهذا البئر العميق الذي يمتد في عمق الأرض من أجل استخراج المياه التي لا تكاد تنعكس السماء على صفحتها في هذا العمق.

يقوم الثيران بسحب الحبل الذي ترتبط به القرب المليئة بالمياه، حيث تمتد في خط مستقيم لإرضاء الدهشة الحسابية للعيون الأوربية. هي ثلاثين ونيف قربة، أي ما يقرب من أربعين مترا. ثم يضرب الحبل الأرضية حيث يهتز اهتزازا واضحا ويفتح فيها عمقا طينيا، بينما تقوم الحيوانات بالهبوط في منحدر حتى تصعد المياه من البئر. فالآبار في إقليم ألوار Alwar، جنوب نيودلهي، تتسم بأنها عميقة للغاية ولهذا فمن أجل تسهيل أداء الحيوانات

---

(1) المصدر السابق ص٤١٥.

ثم رفع فوّهة البئر لعدة أمتار عن مستوى سطح الأرض ومن هناك يبدأ خط منحدر يمتد بشكل كاف يسمح الظهور الكامل للحبل غير المشدود، بحيث يدخل لهذا الغرض في الأرض من خلال نوع من الدهليز ذي الاتجاهين، أي الدخول والخروج. وعندما يرى المرء البئر من بعيد تبدو الحيوانات وكأنها تختفي من على ظهر الأرض ثم تعود للظهور منها وترتفع رويدا رويدا حتى تصل إلى قاعدة مرتفعة فوق الأرض حيث يتم من جديد ربط الحبل بها لبدء العملية نفسها المرة تلو الأخرى منذ قرون عديدة.

تصب المياه في حوض مشيد من كتل حجرية ضخمة تم إعداده بمهارة حتى يستوعب كمية المياه كاملة دون أن تضيع منها قطرة واحدة، ثم تسيل بشكل هادئ بحيث يكون هناك وقت كاف لصب القربة التالية قبل أن تنتهي سابقتها، بحيث تسيل المياه بدون انقطاع في الحقل الذي يتم ريّه. وفي أعلى البئر هناك فتى انتهى للتو من تفريغ القربة على الكتل الحجرية اللامعة بعد أن يقوم بضبط توازنه. يغني الفتى وهو يقوم بالضغط على جلد القربة حتى يفرغها تماما من الماء الذي يكاد يفيض منها؛ وفي هذه اللحظة يصعد زوجان من زوجي الحيوانات بصعوبة على الجبل. كان هناك بعض الرجال المتقدمين في السنّ، أحدهما طاعن في السن، يتأملون العملية وهم جالسون إلى جوار فوهة البئر. أحدهم هو مالك الأرض أو البئر أو الثيران وربما كان المشرف على المياه في القرية.

وعند حلول المساء كان الرحالة على الأخص يريد الجلوس إلى جوار هؤلاء الرجال وأن يتوه بصره في اللانهائي في إطار هذه العملية القديمة للغاية. ومع هذا ليس ذلك أمر بدائيا فالتقنية والجهد الإنساني واضحان، وهنا فإن حوائط البئر تبدو لذلك الفضولي الذي يطل من فوهة البئر بمثابة حائط مشيد من الدبش بطريقة متينة لا غبار عليها، فهو حائط نظيف كما أنه يغوص في الأرض هندسيا. كما أن العمليات المختلفة تتطلب اقتصادا في الجهد كما يبدو من الواضح أنها ذات خطوات محسوبة بدقة وكأنها ساعة. لكن نظرا لهذا الإنجاز الجيد والطبيعي في توافقات خطواته التي تحسنت كثيرا مع مرور آلاف السنين يعتقد المشاهد أنه أمام مشهد طبيعي أكثر من كونه آلية تقنية محسوبة.

وعلى زمن "الفيداويين" védicos كان الهنود قادرين على حفر آبار شديدة العمق لبلوغ المياه العميقة، وهنا نجد النصوص القديمة تصف لنا خطوات استخراج هذه المياه التي

تتسق مع ما يحدث اليوم في إقليم "ألوار"[1]؛ لكن نظرا لقدم الإجراءات التقنية تحديدا يبدو الإنسان وهو يقوم بتفعيلها وكأنه، ينفذ قانونا لا يخطئ أبدا. يقوم هو بتنفيذه لكن بشكل تلقائي، يكاد يكون غريزيا حيث لا يكاد المرء يميز بين المهمة التلقائية التي يقوم بها الإنسان وتلك المهمة الملقاة على عاتق البقرات.

وحقيقة الأمر، هناك مهندسون متخصصون في الأعمال الهيدروليكية في الهند، حيث قامت خلال الخطة الخمسية الثانية بتنفيذ أعمال لري مساحات ضخمة من أراضيها. غير أنه في عام ١٩٦١من أي مع نهاية الخطة الخمسية المذكورة آنفا، ظل هناك مليون ونصف المليون هكتار من الأراضي الجديدة القابلة للري دون استغلال. ولم تتمكن الحكومة من مضاعفة الإنتاج إلا في ١٢٪ منها[2]. وإذا ما كان مكلفا للغاية تغيير العادات عندما يتم تقديم المياه للفلاحين من خلال أنظمة مريحة للري، فالصعوبة تزداد في باب تغيير طريقة رفع المياه من الآبار التي يشيدها الفلاحين أنفسهم.

لا يخطر على بالهم أبدا إمكانية ظهور مشكلة جديدة تتعلق بشكل الحوض ودرجة الميل حيث تنزل الحيوانات أو التغذية أو المعاملة التي يجب أن يتلقوها؛ إذ أن كافة هذه المشاكل تم التوصل إلى حل لها يوما ما لا يدري أحد حتى أي يوم كان، إلا أن الحلول تشكل نوعا من النظرية المقدسة والمقبولة والأبدية. ومن هنا فإن وجوه من يتولون أمر الحيوانات ابتداء بالفتى الذي يفرغ القرب من المياه وهو يغني مرورا بكبار السن الذين يراقبون العملية وهم جالسون، نقول تعلو وجوههم اللامبالاة وكذلك الثقة والكبرياء، فأعينهم لا ترى المشهد المحدد والنفعي للأشياء بشغف بل تنظر من خلال ذلك نظرة عميقة، أي بينما يعملون يتأملون كما تتأملون شجرة مزهرة أو الأطفال وهم يلعبون.

تسهم المياه أيضاً في إضفاء الجدارة على المشهد، فالمياه تضفي نبلا على الشخصية الإنسانية، خاصة المرأة عندما تكون شحيحة ويصعب الحصول عليها، ففي أي مكان على ظهر الأرض هناك النساء وهن يتبادلن أطراف الحديث سويا إلى جوار النبع أو البئر وهذا يشكل صورة جميلة: لكن الهند بلد ليس له مثيل، فلا يمكن أن يكون هناك أي بلد قادر

---

(١) جان أوبوير "في الهند القديمة" باريس ١٩٦١م.

(٢) كسوم ناير Blossoms in the Dust ، لندن، ١٩٦١، ص١٩٢.

على أن يباهي هذه الأعداد الهائلة لنسائها وفتياتها الصغيرات وشاباتها والطاعنات في السن اللاتي يرتدين الساري sari بمختلف الألوان ويحملن الجرّة البرونزية على رؤوسهن وقد انعكست عليها أشعة الشمس وكل ذلك مرتبط ببعضه البعض في توازن صعب ورشيق. كذلك الأمر عندما تقوم المرأة باستخراج المياه حيث يكلفها ذلك جهد كبير، ذلك أنها تجد نفسها مجبرة على جذب الحبل، وهي في ميدان القرية، على الطريقة التي تقوم بها البقرات في الحقل ومع هذا فإنها لا تفقد جاذبيتها.

تشكل الآبار في القرى الهندية محور الحياة ومصدر الجمال، وهنا فإن الإنسان التوّاق يتوقف إلى جوار البئر ويبقى في حالة تأمل بطيء، وهناك يجد لغة يفهمها: هي في الوجوه والتصرفات وهمهمة الأصوات وهي تتحدث مع بعضها. لقد جعلته التوراة شديدة الحساسية نحو آبار الشرق، فإذا ما كان الرحالة يطوف بأنحاء الهند يواتيه الإحساس بشكل شبه دائم بأنه يشاهد مناظر تتعلق بالعهد القديم أو العهد الجديد، ويرجع هذا في المقام الأول إلى الآبار والقيمة التي تكمن وراء الاهتمام بها وهي الجفاف. وعندما يدخل المرء إلى إقليم وفير المياه يزول ذلك الإحساس، لكن يمكن أن تستمر الوجوه نفسها والحيوانات وأنماط حياة شبيهة، لكن وجود المياه على سطح الأرض يطفئ الأصداء التوراتية.

ومن بين الجوانب التي تسهم إسهاما فعالا في الخروج بهذا الانطباع عن أن الهند هي حقل لا نهائي هو كثرة مبالغ فيها للأذرع البشرية فيما يُرَى في أي من الحقول أو الشوارع الضيقة، أو عربة هو مجموعة بشرية، فمن غير الشائع في الحقول الهندية أن نجد العامل وحيدا، وهذا لا يقتصر فقط على من يركب الجرار بل يشمل أيضاً ذلك الذي يمسك بيد المحراث. هم في طريقهم وفي أرضهم حيث يعملون وتراهم يتسمون بوجود وفرة من العناصر البشرية؛ تتوالى عربات الكارّو في سلسلة طويلة ترتبط الواحدة بالأخرى وكأن السكان جميعا في حالة هجرة من القرية خوفا من جيش من الغزاة. تسير النساء في الطريق وهن يحملن جرارهن أو الأجولة فوق رؤوسهن في صفوف طويلة وذلك لحمل تراب للمشاركة في أعمال بناء أو الذهاب إلى قرية مجاورة.

هذه السلسلة الطويلة من النساء وهن يحملن جرارهن Cuenco على رؤوسهن في صف منتظم هى من المشاهد الجميلة التي ينبغي أن يشاهدها المرء وهو يطوف بأنحاء البلاد.

ترى النساء في تلك الصفوف في كل الأنحاء، تسرن صامتات دون النظر إلى الأرض حتى بستقيم وضع الثقل على رؤوسهن كما أنهن لسن في حاجة إلى النظر إلى الأرض اللهم إلا إذا كانت الأولى التي تتقدم الصف وتفتح الطريق أمام الأخريات. هن متماثلات القوام والحركة والاتجاه والألوان الزاهية لملابسهن، وهن بذلك يشكلن كائنا جماعيا غريبا وممتعا.

الثقل الذي يحملنه لا يؤثر على رشاقة حركاتهن لأنه قليل، فالتراب أو الرمل الذي يحملنه في صفوف طويلة يمكن نقله ببساطة في عربة كارّو بشكل جيد، إلا أن هذه الوسيلة الإنسانية في النقل، المحزنة، آخذين في الحسبان الأبعاد الاقتصادية لها، لها بعدها الذي يضفي النبل والذي لا أدري كنهه. تضفي المبالغة في استخدام الأيدي البشرية بعدا إنسانيا على العمل المراد، فالكتل الحجرية التي تستخدم في بناء الطريق لم يتم الإلقاء بها حيثما اتفق بحوافها الحادة بل جرى وضعها بعناية فائقة تزيد عن الحد وربما بنوع من الملاطفة أيضاً وكأننا نتأمل تكوين لوحة فسيفساء. ولو جرى وضع وابور زلط لتعبيد الطريق لكان أمرا غاية في الفظاظة.

هناك نوع من التناقض فيما يتعلق بالانطباع بوجود حقل لا نهائي في الهند، إذ يبدو أكثر منطقية أن يكون ذلك في أقاليم أقل كثافة بشرية مثل الأنديز أو سهول أمريكا الشمالية حيث يقل تعداد الموارد البشرية. هناك، نجد الأرض وفيرة بشكل يزيد عن الحد، لكن الأرض ليست الحقل، فالحقل هو الأرض ومعها الإنسان الذي يرتبط بها وهو الفلاح. وإذا ما كانت ثروات كبار الملاّك في روسيا القيصرية تعد بروؤس الجليد من الفلاحين فإن الثروة الريفية في إقليم ما، وهي التي تجعل من الأرض حقلا، تقاس بعدد البشر الذين يخدمونها. ولما كان الفلاحون الهنود - وهذا جانب آخر من جوانب الحقل المطلق - يخدمون الحقل أكثر من إفادتهم منه فإنهم يبدون وكأنهم أدوات ملحقة له وفضلة.

ولهذا فإن البؤس والقذارة تتوارى بعد قليل من الولوج إلى الحقل الهندي، لكنها رهيبة في المدينة، فهي لا ترى إلى جوار الأرض، بل هي عبارة عن الولوج الإنساني المباشر في وسطه الطبيعي الأمر الذي يجعله يندمج معه مشكلا جسدا واحدا ومطلقا من الجغرافيا البشرية. وها هي الأقدام والشعر وغطاء الرأس والملابس الرثة والمهلهلة لهؤلاء تشهد بشكل صارخ على قوة الأرض ونفاذها. لا توجد في الحقول الهندية تلك الأقمشة البيضاء

مثل التي نجدها في الأقاليم الأشد فقرا في أوربا من تلك التي نراها فوق أحجار النهر أو على الصدور أيام الآحاد والتي تعبر عن نوع من التمرد على الأرض وتعتبر ملاحظة مصطنعة وتجريدية تناوئ الكتلة المطفأة، أو أنها تحاول أن تقلد المراعي التي غطاها الثلج أو شجر البرقوق المزهر أو أي شيء آخر مبكر من تجليات الطبيعة.

لا تسمح الطبيعية الراديكالية التي عليها الحياة الهندية بمثل هذه الميول، فغسيل الملابس هو عبارة عن قيام رجل بدهسها بقوة في الماء وذلك حتى تستجمع الذراع أكبر قوة عنف على حجارة النهر. وبالنسبة لمن عليهن أن يقمن بغسل الثياب ليس بأيديهن الأنثوية إذ أن هذه الأيدي شديدة الارتباط بالأرض. كما أن الأيدي، أي أيدى الغسّالات، هي التي تثمر في جعل الأقمشة بيضاء في أي قرية من القرى الفقيرة في قشتالة أو كالابريا.

وبعد فترة قصيرة يتم نسيان المفاهيم الأوربية المحددة سلفا، فالألوان موجودة في طرق الهند، وهناك الألوان الزاعقة والعنيفة وخاصة في ملابس النساء وفي قرون الستنتور وبقرات الجرّ cebu، وفي شيلان (عمائم) السائقين، لكن كل شيء مفعم بالتراب. وكذا الشمس نفسها عند الغروب إذ لا يبدو الأفق واضحا بل تبدو وكأنها تعزق في الأرض.

XXV- الروح الحيوانية

في الحقل في الهند هناك اهتمام كبير بقيمة ديكارت من حيث كونه الفيلسوف الذي حدد العالم الحديث، ولم يكن ذلك بما قاله عن الوعي وعن الأنا، ذلك أن الهنود هم في هذا الشأن، مثل غيره من الشئون الأخرى، يريدون القول بأنهم كانوا سابقين على الفكر الغربي، ولكن برؤيتهم أن هناك تماثلا بين الحيوان وبين الماكينة: وحول هذه النقطة الأخيرة نجد أن المفكرين الهنود الولعين بالأمر يعترفون بالسمات النوعية للفكر الغربي وكذا بسلسلة النتائج المترتبة على هذا التماثل. لم يفعل ديكارت إلا صياغة مفهوم شديد الشيوع، لكن صياغته هيأت الطريق أمام قدوم الجرار الزراعي والثورة الزراعية المعاصرة. وقد جاء هذا بشكل خاص عندما جاء هوبس Hobbes بعد ديكارت بوقت قصير وجعل من المجتمع المدني، أي من الإنسان الكبير، ماكينة أيضاً أصبحت مع مرور الزمن ماكينة زراعية شديدة التعقيد والتركيب.

غير أنه بالنسبة للحقل في الهند يجب أن نباعد أنفسنا عن كل تلك المفاهيم، فليس هناك علاقة للحيوان أو للإنسان بالماكينة؛ كما أنها غير سليمة تلك المفاهيم الأخرى الأوربية الأكثر قدما ونبلا والتي حلت محلها مفاهيم أخرى في أيامنا هذه رغم أنها لا زالت قائمة حتى اليوم في شكل التعامل مع الخيل على سبيل المثال. فالحصان في نظر الهندي لا يجب اعتباره حيوانا حقيقيا، إذ هو شديد النبل وبالتالي أهانه الإنسان. على الهندي الحقيقي أن يرى الحصان على أنه قنطور مكون من نصفين، أي شبه كائن موزع بشكل غامض بين مملكتين من ممالك الخلق. وهنا نقول أن الهنود في العصر الكلاسيكي كانوا معجبين بالخيل على أنها كائنات غريبة لا يمكن تربيتها في المنازل، بل كان من الضروري الذهاب للبحث عنها في بلاد بعيدة أي في أواسط آسيا وذلك حتى يمكن استخدامها في

الاحتفالات والأعياد وكذا في فرق الخيالة التابعة للملوك والأمراء المحاربين[1]. غير أن هذا كان يعني نوعا من التدهور مهما كانت النوايا. فالحصان المحض والخالص ليس في حاجة إلى مزايا أخرى غير التي فيه وهي السمة الحيوانية المحضة.

الإعجاب بأحد الثيران المخصصة للمصارعة ليس له أي قيمة من منظور حيواني صرف، فهو ليس - هذا ربما ما يفكر فيه الهندي - إلا شكلا من النرجسية؛ فما نعجب به في الثور المصارع هو الإعجاب بالإنسان القادر على تحدي شجاعته، أو، إن شئنا القول، نعجب بقرون الثور ورأسه حيث يمكن أن تقضي على حياة إنسان سريعا إذا لم يتفاداها بجسده في لعبة بسيطة تصل في مستواها في الذكاء إلى مستوى الغريزة الحيوانية. أثناء مصارعة الثور يبرز الإنسان أنه أرقى من الثور لا من حيث قدرته على ابتكار أسلحة معقدة ولكن لأن ذكاءه ينزل حتى تلك الأنماط التلقائية في الحركة الجسدية، حيث يتعامل الإنسان مع الحيوان بندية فيها تساو. وإذا لم يكن التشبيه من هذه الزاوية فلن نعجب بالثور المدرب على المصارعة وبالتالي لن يكون موجودا.

من البدهي أن مصارعة الثور تتطلب التعامل المباشر والحميم مع الحيوان ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى تعامل ديني معه. ففي الاحتفالات المفضلة نجد أن أهل شبه جزيرة أيبيريا يحملون سمات تشبه ما عليه أهل الهند؛ غير أن التناقض واضح أيضاً بفضل تلك الاحتفالية، فالهندي يجب أن يكون المشاهد الذي يعبر عن سخطه وهو يشاهد مباراة مصارعة الثيران، وليس ذلك بسبب النهاية الحزينة بل ابتداء من اللحظة الأولى للانتصار، أي عندما يستعد الجميع لتحية الصورة العظيمة للثور. فالحيوانية من حيث كونها مشهدا جماليا محضا يجب أن تكون أعلى أمر فاضح عند ذلك المؤمن الهندي.

وهنا فعلى الأقل نجد البقرات التي تسير هادئة نحيلة بما بها من جدية مترهلة هي نفاية(روث) الحيوان من الناحية الجمالية. لكن لا يهم، أو بمعنى أصح نعم يهم من المنظور الإيجابي، إذ بهذه الطريقة يتضح بجلاء أن ما هو جوهري في الحيوان المقدس ليس شكله الجمالي وحيويته وخصوبته بل هناك ما يسبق كل ذلك وهو جوهره الحيواني المحض. من الشائع أن يأسف الرحّالة للمعاملة التي تخلو من كثير من العناية بالبقرات من جانب

---

(١) جنين أبوبير. العمل المذكور سابقا، ص١١٤.

المؤمنين بها وينكبون على الهنود بالنقد لعدم رحمتهم. غير أن الأمر هو عكس ذلك في حقيقة الأمر فالقذارة والهزال وهيام البقرة على وجهها هو أفضل برهان على أن الناس يؤمنون بالفعل بوضعها الإلهي.

تحمل البقرات هالة من القداسة بين قرونها المعوجة، وهي تطوف، حسبما اتفق، بشوارع المدن الكبرى بالهند حيث يجري العمل على حمايتها من عدوانها الغاشم على حركة المرور وأماكن بيع الخضروات. وطبقا للأخلاقيات التقليدية الهندوسية فإن قتل بقرة هو إثم أكثر خطورة من اغتيال شخص ينسب إلى العرقية الأعلى، ومن يقترف ذلك عليه أن يدفع ثمن ذلك في صورة أن يبوء بمقعده من النار عددا من السنين يبلغ عدد شعر ذلك الحيوان. ولكن قبل ذلك، أي في الحياة الدنيا، يتعرض المجرم للتكفير عن ذنبه بالعيش لمدة ثلاثة أشهر وسط قطعان الأبقار وأن يكون حليق الشعر ويرتدي جلد الحيوان ولا يمكن له أن يتناول مياها إلا منقوع الشيلم. ودون الدخول في تفاصيل طقسية نقول هناك إجراءات قانونية تم إعلاؤها بعد استقلال الدول الأكثر أهمية في شمال الهند ووسطها حيث يمنع منعا باتا ذبح الأبقار، طبقا لما تنص عليه المادة الثانية والأربعون من النص الدستوري للاتحاد[1].

هذه اللوائح والإجراءات القانونية الممنوحة للبقرة تتسم بأنها أكثر قوة من تلك الأخرى المتعلقة بالعناية بالبقرة وحالتها الصحية والعطف عليها فهي ليست في حاجة لذلك. وحقيقة الأمر أن الجمعيات المعنية بالرفق بالحيوان ليست أكثر إحتراما مما عليه مصارعة الثيران من منظور ما يمثله الحيوان عند الهندي.

وحقيقة الأمر أن المرء يكلف نفسه جهدا عندما يحاول تمثّل ما يحدث في وعي من يقوم بعبادة حيوان؛ وعندما يكون هدف العبادة نموذجا، أي ظاهرة عظيمة في الكون فإن الأمر يتسم بالقبول من المنظور الديني، لكن عندما يطل الإنسان بصراحة وبفضول من فوهة البئر الغامض التي هي إطلالة على بقرة فإن الإجابة التي يتلقاها غير كافية. وهذه هي الإجابة التي كان يفكر فيها هيجل.

---

(1) Donald Eugen Smit, India as a secular state, princeton University Press 1963, pag 49, y sigs.

يقول هيجل[1]: "إن عبادة الحيوانات هي تقديس للداخل الحيّ غير المرئي... فالحيوانات هي بالفعل الشيء غير المفهوم، فلا يمكن لأي إنسان أن يتخيل نفسه أو أن يتمثل نفسه جزءا من الطبيعة الحيوانية مهما كانت درجة التشابه معها؛ فما هو حيواني هو أمر غريب تماما بالنسبة للإنسان". غير أنه لهذا السبب تحديدا فإن ما هو إلهي يتجلى للإنسان في حالة بدائية من خلال الحياة الحيوانية،"؛ وهنا يضف هيجل قائلا "إن الوعي الأصم لما هو إلهي بذاته، والذي لازال مستغلقا على الفكر الإنساني يقدس الروح التي تتقمص وتلبس أبسط نمط للحياة، من خلال الحيوان". يرى في هذه الحياة لغزا، وما ورائية "وما هو حقيقى أصبح مملوكا" و"محددا في حدس الحيوان".

ورغم أن هيجل يعتبر واحدا من المفكرين الأوربيين الذين يحظون بتقدير كبير في الهند، فالاحتمال كبير في أن يكون مثقفوها الفخورون بالديانة الوطنية معترضين عليه بقوة في بعض الجوانب. كما أن الرحّالة البسيط يمكن أن يعترض هو الآخر عليه، وهنا فإنه لا يفعل ذلك بل يقتصر على استخلاص النتائج التي تتبدى للناظرين. فمن البدهي أنه رغم ما يرى الهندوسي في الحيوان من "روح متقمصة"، رغم أن ذلك في نمط حياة بسيطة، " فذلك لا يعطي الانطباع على أنه أمر غاية في الغرابة وغير مفهوم لدى الإنسان. فالما ورائية الخاصة بالحيوان ليست (مثل أي ما ورائية بالنسبة للإنسان) شيئا غير قابل لبلوغه في حقيقة الأمر، كما أن الما ورائية هي بعيدة بشكل أكبر عن الحيوان، الذي نراه شديد القرب وشديد التحديد ووفيرا.

تطفر على السطح واحدة من سمات التدين الهندي وهي التعامل المستمر والمبتذل مع الما ورائية، وهنا من المحتمل أن الماورائية التي يكتشفها الهندي في حياة الحيوان شديد العمق، لكنها لا تتوه وراء آفاق بعيدة بل هي قريبة منه، كما أنها تتكرر مرات لا نهائية. فالتدين الذي يميل نحو الحيوان يسم الحياة الهندية بنوع من النشوة بالمطلق لكن ذلك لا يتمثل في الشكل الخاص بذلك المشروب الوارد من العالم الآخر أو من رحيق جرت سرقته من الآلهة بل من نبيذ يومي وشائع أو ربما يمكن القول بأنه من مياه لها مواصفات النبيذ.

---

(١) "دروس في فلسفة التاريخ العالمي"، الجزء الثاني، ص٢٣.

من البدهي أن إدراج الحيوان في تجربة ما ورائية مهما كانت متخفية في روحه يتطلب نوعا من التجلي التلقائي لها في حركات الحيوان وفي سلوكه. فالحيوان هو، تحديدا، الكائن الذي يتبدى للإنسان على أنه "الحركة الذاتية" automovimiento، ومهما كان آخر "محركٌ" مختبئا فإن الحركات الصادرة عنه يمكن أن تكون ملموسة ومألوفة، ولهذا لا يبدو حقيقة. طبقا لقول هيجل "أن الحيوان يمكن أن يكون غريبا بالكامل عن الإنسان". هذا هو تأكيد يترتب عليه تعميم على مشاعرنا الغربية، ولا يتعلق ذلك بهذا الذي يبدو أن الهندوسي عليه، وهو الذي عبر عنه غاندي بعبارات فيها أقصى قدر من التأكيد والرؤية الثاقبة عندما قال "أنظرُ إلى البقرة بنفس التبجيل الذي أنظر به لأمي".

وبدون الدخول في تحليل المواقف العاطفية التي لا يمكن سبر أغوارها فإن من يطوف بالهند في سيارة يكتشف في كل لحظة مسلكا واثقا من المارة إزاء قطعان الماشية التي تنتشر في الطرق. كما أن السائق نفسه الذي يذهب بنا من نيودلهي إلى جيبور يتفادى الأعداد الكبيرة من الحيوانات من كل نوع من تلك التي تتحرك في الطريق، ويقوم بذلك بمهارة عالية. لكن ما يهم ليس المهارة في استخدام المقود بل الحدس والصورة المحددة للحيوان وما تعنيه هذه الحركات.

عندما نتحدث عن الطرق العامة وشوارع قرية في محافظة سانتاندير (أسبانيا) نجد الأبقار تشكل مشكلة لسائق سيارة مثلما يحدث في الهند، غير أن رد الفعل شديد الاختلاف، فالسائق الهندي نادرا ما يستخدم الفرامل وإذا ما فعل فإن البقرة أو حيوان Cebú توقفت وسط الطريق. ولا يكاد يحدث أن تستخدم الفرامل بطريقة غير ضرورية من جراء وجود العقبة الحقيقية وهي الحيوان. أحيانا ما تبدو السيارة وكأنها ستصدم الحيوان لكن لا يحدث ذلك، فلقد غير الحيوان وجهته بتلقائية نحو حافة الطريق دون الحاجة إلى أي نوع من التحذير، ويواصل طريقه.

هناك نوع من الاتساق المسبق حيث يبدو أنه يقوم بمهمة تنسيق حركات المواشي والسيارات، بمعنى سائق السيارات. الحيوان، من الناحية الموضوعية، لا يوجد كمشكلة بل هو عبارة عن كائن يقوم بتصرفات نمطية واعتيادية يسير السائق على إيقاعها. أما عند الغربيين فإننا عندما نقود سيارة نتساءل، بدرجة أو بأخرى من الوعي، عن الوجهة التي

ستتخذها البقرة، وما إذا كانت ستتوقف أو تواصل سيرها. إننا نقوم باستخدام الفرامل لا لنتفادى الصدام بل بشكل مسبق نفعل ذلك حتى يقوم هذا الكائن الذي هو البقرة بتحديد وجهته ونعرف بعد ذلك ما الذي سنفعله.

الأمر الغريب هو أن ذلك يحدث لنا معشر الذين قضينا قرونا نؤكد فيها أن الحيوان هو ماكينة: أي مجموعة من التركيبات التي تتجاوب مع الحسابات العقلانية وأنها قابلة للسيطرة عليها واستخدامها من قبل الإنسان، بينما نجد الهنود يرون أن الحيوان هو نوع من التجلي المحدد لعالم ما ورائي، وهنا فإنهم يتأملون بدقة حركاته وليس ذلك تطبيقا لقانون عقلاني يتعلق بالحسابات والاحتمالات بل لأمر بسيط، وهو نوع من اللطف مع مركزه الحيوي. إنه تناقض ملحوظ يتضمن عظة مهمة بالنسبة للإنسان المرتبط بالتقنيات الحديثة في عصرنا. حياة الحدس تقودنا بشكل أكثر مباشرة إلى جوهر حياة الحيوان، وتخدمنا في سلوكنا نحو هذه الحياة بشكل أفضل بكثير من الحياة العقلانية والعملية التي تنبع من أساس ميكانيكي بحت لبنية الحيوان.

أضف إلى ذلك أن هذا الطريق الحدسي والطريف يضفي ثراء ملحوظا على خبرتنا الحيوية. إنني أحاول أن أكون في مكان السائق الهندي الذي يقود السيارة، ومن خلال حركاته وكذا من خلال الأنماط التخيلية المفترضة أحاول النفاذ إلى معرفة الحياة الحيوانية الوافرة التي تحيط بنا، وهذا أمر حقيقي نراه في السائق الذي لا يخطئ أبدا فهو يعرف تماما اللحظة التي سوف تطير فيها مجموعة من الطواويس البرية التي أحيانا ما تصادفنا على قارعة الطريق. لا يفزّعها، كما أنها ليست طيورا شديدة الجرأة؛ فعندما تدرك هذه الطيور أننا شاهدناها تبدأ طيرانا غير متسق لا يتوافق مع جمالها.

ليس من الضروري أيضاً استخدام آلة التنبيه حتى يبتعد عن طريقنا ذلك القرد الكبير ذو الوجه الأسود وطويل الذيل والذي يجري أمامنا على الطريق، ويتركنا نمر. وفي هذه الحالة فإن التدخل الإنساني هو نوع من تدنيس المقدسات، ذلك أن هذا الصنف من القردة ينسب إلى درجة عالية في قائمة الحيوانات المقدسة. ولهذا فعندما أخذنا نراقب بإعجاب الحركة الإيقاعية الغريبة للقرد على مدار مئات الأمتار نجده يأخذ جانب الطريق أو يقفز قفزة إلى غصن شجرة. لا يشعر السائق بالمفاجأة، فهو يعرف تماما اللحظة المناسبة التي

سوف تتم فيها قفزة القرد ثم تأخذ السيارة بزيادة سرعتها دون أن تضيع لحظة في التوافق مع حركات القرد.

يحدث الشيء نفسه مع حيوان السنمّة Cebú والجمال وابن آوي والسنجاب الظريف الذي يقلد العصافير في سرعة حركته وشعره. كذلك الأمر في حالة ظهور أحد النمور. يؤكد السائق أنه رأى مرتين نمورا على الطريق الذي نسير فيه، وهذا ليس بمستغرب ذلك أننا نمر بمنطقة ضخمة مخصصة للصيد" Sanctuary of game، طبقا للوحة كبيرة معلقة بها طنطنة كنسية، وهذا ما كان متوقعا في الهند، يمكن أيضا العثور على الحيوانات المفترسة خارج تلك المناطق وهذا ما تؤكده الخرائط السياحية التي يعلقونها في الفنادق في أي إقليم، حيث نجد الكثير منها تضم صور النمور والدببة والفهود والضباع. . . الخ.

كما أن طبيعة الأرض التي عليها منطقة الصيد تفصح عن أن وجود الحيوانات البرية في الهند أمر طبيعي، فلا توجد نباتات من نوع معين حتى تضفي البهاء على مكان إقامة النمر، فالجبل الذي يمتد من ألوار وحتى جايبور ليس عاليا أو أشما عن أية مناطق جبلية في شبه جزيرة أيبيريا؛ وربما لهذا السبب سرعان ما يتبدد الخوف الطبيعي الذي عليه الرحّالة، إضافة إلى اعتياده على التعامل مع الحيوانات الذي اكتسبه وهو يطوف بأنحاء البلاد. مررنا بالكثير من الحيوانات دون أية حوادث أو الاستخدام المفاجئ للفرامل الأمر الذي يجعل المرء على ثقة في أنه إذا ما ظهر نمر سوف يكون هناك تفاهم بيننا وبعد أن عرفنا على مدار عدة دقائق طريقة حركته وشبعنا من سمته كنمر سنواصل سيرنا نحو وجهتنا.

ليس للهندي حياة واحدة فقط، وهي حياة الحيوان العاقل، فهو، بدرجة كبرت أم صغرت، مفعم بهذه الحيوات المختلفة للحيوانات، يراها على شاكلته ويجعلها جزءا منه. ومن جانب آخر نجد أن الإنسان الأوربي يحاول أن يجعل حياة الحيوانات جزءا منه لكنه يقلل من شأنها مسبقا ويحصرها في مرتبة الماكينة ويحرمها من الروح وبالتالي من الأهمية يتعامل مع الحيوانات من منطلق ذكائه - لهذا يراها ماكينات - وليس من خلال غرائزها وردود أفعال الحيوية ووضعها الشبيه في الطبيعة.

يعني كل هذا وجود خطر داهم فاستنادا إلى المفهوم الميكانيكي لحياة الحيوان، أي ذلك القطاع الكبير في الطبيعة، والشديد القرب منا، نجده يفقد طبيعته عندنا ويتحول إلى مجرد شيء في إطار ذكائنا النظري أو العمل. وحقيقة الأمر أن الإنسان ينتصر ويعلو شأنه باستخدام المصطلح المضاف للحيوان، "حيوان عاقل"، طبقا لتعريف أرسطو، لكنه يقلل من شأن المصطلح الأول الذي يتسم بالجوهرية في نظر أرسطو على الأقل، وبالنسبة للمفهوم الميكانيكي المحض - لا كما هو موجود في كتب الميتافيزيقا بل في البعد العملي - للحياة الحيوانية، نجده أحد الأسباب بالإحساس بالعزلة التي يعشها الإنسان الحديث وقلة تفاعله واندماجه في الطبيعة.

الحيوانات عند الهندي ليست فقط مجرد كائنات حية أخرى مثله، أو كائنات تشاركه مصيرا مشابها بل هي شيء أكثر راديكالية: إنها العنصر الذي يضع الوجود الإنساني في اتصال مباشر مع القوى الغامضة للطبيعة؛ بمعنى أن الحيوانية هي الجذر والأصل بالنسبة للهندي ومن هنا كانت رؤيته الدينية. عادة ما نكون ظالمين مع ما تعنيه هذه الدينية، وهنا يشير هيجل[1] إلى أنه يتم القبول بسهولة بصورة الإنسان الذي يبجل السماء والشمس والنور والبحر ذلك أن "هذه الأشياء، من حيث كونها، عناصر تتسم بما هو يونفرسالي وتجريدي". غير أن حقيقة الأمر هي أن الحيوان كفرد حي أرقى من الشمس، "ومن الأمور الحقيقية أن الشعوب التي عبدت الشمس والنجوم لا يمكن اعتبارها أرقى من تلك الأخرى التي تعبد الحيوان، العكس هو الصحيح".

هناك نوع من الخير، في إطار الأصداء الدينية، يمكن أن يجنيه الرحالة من هذا التدين الحيواني، إلا أن ما يحدث هو أن الذاكرة والخيال مترعان بآلاف الانطباعات اللطيفة والمحببة؛ فهناك ثقة حيوية كبرى تلفه وهناك إيقاع أكثر طبيعية وهدوءا ينبض في عروقه. تغرد الطيور الليلية وهي على الأشجار بنغمة غامضة لكنها ليست مخيفة، وربما يأتي من بعيد عواء ابن آوى، كما أن الجداجد تخرق الظلام وتعطي الانطباع عن المكان وكأنه سماء تتلألأ فيها النجوم.

---

(١) المصدر المشار اليه سابقا، I، ص ٢٣

هو انطباع له مبرراته لأن الشمس المرصعة بالنجوم في الهند لا ترتبط كثيرا بذلك النظام الذهني الذي عليه أوربا كانط . ومهما بلغت درجة وميض الشهب فالعنصر المسيطر هو الظلمة التي يخرج من بينها ذلك الوميض . هناك في سماء الليل معنى غامض ، وغريزي وأعمى يدخل في إطار الحياة الحيوانية ، ولكن ليست في إطار الميكانيكية السماوية ولهذا غنى شريهارشا Shriharsha الشاعر الكبير الذي عاش خلال القرن الثاني عشر :

انظر ! فمع النجوم

في السماوات البعيدة

نظم الليل قصيدة تتغنى بالظلام .

XXVI-الاستئناس وفن إلورا

إذا ما أردنا أن نصل إلى فهم شيء مما يشعر به الهندي إزاء الحيوان علينا أن ننسى فكرة الاستئناس، فالاستئناس على الطريقة التي نفهمه بها في الغرب، هو مفهوم ضيق للغاية، إذ يعني التمييز الحاسم بين الحيوانات البرية والحيوانات المستأنسة من منظور لا يتعلق بالحياة الإنسانية من حيث هي بل من منظور "البيت" الذي له مفاهيمه على الطريقة الأوربية؛ وهذا هو نوع من المنازل الذي يفترض وجود طريقة خاصة تتعلق بإحساس الإنسان كساكن على هذه الأرض وسيدها، بمعنى أن كل ما يحيط به هو تابع له وهذا شيء يفهم على أنه إيجابي.

يمكن اعتبار هذه التبعية من منظور سلبي، ووصف الحيوان البري "بالحر" أو "الطبيعي". لكن ذلك كله لا يقبل به الهندي، فالإعجاب بالحيوان البري أمر رومانسي وغربي، صنوان لما شعر به الكثير من المفكرين إزاء "البرِّي الطيب"، وإذا ما كان الغربي، المتعب من حضارته، يحن لحالة الإنسان البدائي الذي يسكن الغابات ولم تؤثر فيه سلبا الفنون والتقدم، فكيف لم يكن ليعجب بالحيوان البري؟

من الطبيعي أن يكون كذلك، أي أكثر مما عليه الهندي، ذلك أنه لا يبدو له وجود تلك التقابلية بين ما "هو منزلي" وما "هو بري"، وبين ما هو "متحضر" وما هو "طبيعي". في الهند ثمة حيوانات برية أكثر مما عليه الحال في إنجلترا، حيث مات آخر ذئب منذ عدة قرون، إلا أن الإنجليزي يشعر، وبكل أمان، بالمزيد من الإعجاب بالحيوان البري من حيث هو كذلك مقارنة بالهندي؛ النمر لا ينظر إليه هذا الأخير على أنه حيوان مفترس بل هو، ببساطة، حيوان، مثله مثل ذلك الكائن تحت "المستأنس" الذي هو البقرة المقدسة، كما يتم الشعور به أيضا من حيث هو حيوان محض.

هذه البقرة المتسولة والتي تتنقل في الشوارع ليست حيوانا مستأنسا بالمعنى الحرفي للكلمة فليس لها مأوى تركن إليه، تنام على الرصيف، حسبما أمكنها، وتشارك "الحمالين" في النوم في العراء؛ وعندما ينامون تحت سقف من السقوف أي في أملاك أصحابها من الصعب أن يطلق على الكثير من الأبقار الهندية سمة "الحيوانات المستأنسة" ذلك أنه إذا ما استندنا إلى الخلط القائم بين الأسرة والحيوانات فإن المنزل هو للبقرة مثلما هو أيضاً بالنسبة لمالكة. تتطلب فكرة "الاستئناس" أن تكون عملية الاتصال بين الإنسان والحيوان في نقطة قريبة من الأول، إلا أن الاتصال الحميم للغابة القائم بين هذا الأخير وبين الهندي يتم في منتصف الطريق بين الطرفين. والشيء نفسه يمكن القول فيه بالنسبة لاستئناس الحيوان وكذا "حيوانية" الإنسان.

لهذا أيضاً من الضروري الاستغناء عن مكون جوهري في عملية الاستئناس ألا وهو النفعية، وهي مفهوم يقلل الكثير من نيل علاقات الصداقة التي يمكن أن تكون قائمة بين الإنسان والكلب أو الحصان. فرغم أن المالك لا يجبر الكلب على القنص أو الحصان على الحرب، فخلاصة القول نجد علاقة ودية يمكن أن تكون قائمة بينهما حيث تركن إلى نوع من التبعية الأصيلة ذات المصلحة. هذا الصنف من التبعية هو أقل وضوحا بكثير في الهند؛ فالبقرة الهندية تنتج من اللبن أقل عشرين مرة، في المتوسط، مقارنة ببقرة دانماركية. وهذا تقدير مؤلم للغاية من المنظور الاقتصادي، لكن الأمر لا تنتهي دلالته على هذا المستوى من القضايا؛ ذلك أنه لكي يتم حلها لابد من الانطلاق من منظور آخر مختلف حيث تتضح من خلاله الدلالة الواضحة له قياسا على وقوفه على النقيض من حالة من يقوم بملاطفة الثعابين.

وحتى يمكن فهم هذا المشهد الغريب تجب المقابلة بين مصطلح ملاطف الثعابين encantador وبين المصطلح الغربي، مروض، domador، هذا الأخير هو مصطلح فظ يوضح بجلاء مفهوما فيه انحطاط للحيوان على أنه مجرد شيء فيه خضوع ولكن ليس خضوعا للمتطلبات النبيلة للإنسان بل لتلك المتطلبات الفظة التي يتفتق عنها ذهنه.

وعندما تستخدم الكلمة بالنسبة للحيوانات القريبة من الإنسان يكتسب معناها نبلا واختصارا إذ يقال Doma del caballo أي يختصر من اللفظة المقطع الأخير وكأنه نوع من

التدليل، وبالتالي يتسم ذلك بأنه يحمل رسالة عبارة عن تصرف إنساني يستهدف أن يجعل من الحصان حصانا حقيقيا، أي بإبراز أفضل صفاته. لكن الأمر بالنسبة للحيوانات البرية نجد أن لفظة doma المختصرة (المروض) تفقد معناها، ففعل الإنسان، المروض، هو عبارة عن إجبار الحيوان على فعل شيء مناقض لطبيعته الحقيقية.

لكن الأمر بالنسبة "لملاطف الثعابين" يختلف إذ لا يجبر ثعبان الكوبرا على القيام بعمل غير جديد لا يتوافق مع طبيعته مثلما يفعل من يقوم بترويض الأسد المسكين المحبوس في قفصه. إنه لأمر مثير للحسرة والأسف لكنه في الوقت ذاته يقدم درسا للإنسان الغربي الذي اعتراه التشوه منذ العصر الروماني من خلال مشاهد السيرك، فمن يقوم بملاطفة الثعابين لا يجبرها على القفز من خلال قوس أو شيء من هذا القبيل بل يقتصر عمله على استخدام آلية الموسيقية حتى يجعل الثعبان في وضع قائم وهو الوضع الجيد الذي يمكن أن يكون عليه في واقع الأمر. وبالنسبة لهذا المصطلح العذب "ملاطف encantamiento" فإنه لا يعني أن يتخلى الشيء عن ذاته على شاكلة ما نجد في الأقاصيص الأوربية بل أن يكون ذاته في حقيقة الأمر، وعندما يقوم ملاطف الثعابين بلف الثعبان حول رقبته وكأنه رابطة عنق فإنه لا يتباهى بذلك ويطلب التصفيق له مثل "المروّض" الغربي بل يقتصر على طلب بعض قطع العملة حتى يواصل حياته هو وصديقه ثعبان الكوبرا.

ليس بلاغة أن يكون الحيوان في مركز الحياة الهندية، فهو في وسط الشارع ووسط المعبد وفي وسط الحياة الاقتصادية، وهو بالمعنى الحرفي للكلمة في هذا القطاع الأخير أما في الغرب إن مربي قطعان الماشية ينهمكون في معرفة شجرة العائلة لحيواناتهم وغذائها المناسب والحفاظ على حالتها الصحية والحصول على أعلى منتج. لكنها عندما تموت يتم تقطيعها بلا رحمة، وتتم الإفادة من كل مكوناتها لأقصى درجة وبشكل سريع دون أن يتبقى في هذا الاستخدام أي صدى لها من الحياة الحيوانية. وحتى وقت قريب كانت قرب النبيذ أو الزيت تعني شيئا من البقاء بالنسبة للحيوان إلا أن التقنيات الحديثة في صناعة العبوات جعل كل ذلك يختفي. في الهندستان نجد القرب موجودة وشائعة عن أي وقت مضى في الحياة الغربية، حيث كان استخدامها هناك يحمل نوعا من الازدراء يختبئ وراء الأحتقار المقنع عند استخدام لفظة "جلد" pellejo.

أجهل ما هي اللفظة الهندية، لكن يمكن الظن بأنها ستكون لفظة أكثر احتراما بكثير، ولو اقتصر ذلك على المعاملة للشيء. فعندما يذهب فرد إلى ينبوع الحياة وهو يحمل قربة فارغة، يواتي الإنسان الانطباع بأنه يتأبط حيوانا نائما أو ميتا، وعندما يتم صب الماء فمن خلال رقبة القربة ويتجلى الشعور بأنها تنتفخ باردة تحت يده فهناك احتمال كبير بأنه يشعر كيف تعود الحياة للحيوان وأن الماء الذي يسيل بين يديه يهتز كأنه دم حيوان. هناك احتمال كبير أيضاً بأن الشاب الذي يجذب الحبل وهو فوق البئر في إقليم ألوار يشعر بين معصميه بالرعشة السحرية التي تنتقل من الحيوانات التي تجر القرب (الجلد) الخاصة بالحيوان الميت وقد امتلأت بالحياة، والتي سيتم تفريغها خلال لحظات وهذا يعني دورة بعث وحياة ثم موت في تكرار لا ينتهي.

وفيما يتعلق بالروث فلابد أن الهندي يرى فيه أنه فضلات حيوية وهو شيء لا يصل إلى أن يكون ميتا بالكامل، ولهذا فالهندي ليس في عجلة لردمه؛ فاستخدام الروث كسماد عند العامل الأوربي لا يقتصر فقط على البعد النفعي بل يشمل ذلك أيضاً الرغبة في التخلص منه في أقصر وقت ممكن. يحدث العكس في الهند، فإذا ما كان يتم حرمان الأرض من الروث الأمر الذي يضر بالزراعة فليس ذلك فقط لغياب منظور عقلاني بل هناك أيضاً رغبة، ربما يفخر بها شعب يقدس الحيوانات، في أن يمتد كل شيء يتمخض عن الحيوان قدر الإمكان وتتم أقصى إفادة منه من خلال الأشكال المتنوعة.

ولأسباب ميتافيزيقية أو فلسفية أو اجتماعية من البدهي أن الهندوس يتوفرون على مجموعة من الموانع الحسية أكثر شمولا من تلك التي تترتب على أنشطة مثيلة في العالم الغربي، فأحيانا تكون الأسباب ذات الصبغة الاجتماعية هي الأكثر أهمية مثلما هو الحال في الأفيال الممتازة لمهراجا جايبور، حيث كانت هناك رابطة بينها وبين أفضل الاحتفالات في أحد صحون القصر.. ثم كان هناك تدخل سريع من قبل الحرّاس، دون اللجوء إلى أدوات خاصة، الأمر الذي كان ضروريا للحيلولة دون اتساخ الأغطية الجميلة التي وضعت لهذه الحيوانات ذات الجلود السميكة والتي طُرحت أرضا لتسهيل العملية.

وأيضا بالنسبة للأفيال التي استأجرها المهراجا لاستخدامها في حمل السياح من أجل صعود ذلك المنحدر المؤدي إلى قصر أمبير Amber الشهير رغم ما هي عليه من أغطية،

كانت في حاجة إلى معاملة مشابهة. وها هي كرات روثها تسطع عليها أشعة الشمس التي تنفذ من بين الشرُّافات انتظارا لحدوث شيء لا يدري المرء ما هو.

أما روث الأبقار فهو متنوع، إذ أحيانا ما يكون سميكا في شكل كومات كبيرة، تأخذ سيارات النقل والعربات الصغيرة من طرق الهند لبيعه كمواد للوقود. كما أن نقص الأخشاب هو السبب في هذا الاستخدام القليل الجدوى الاقتصادية، أضف إلى ذلك وجود عامل الاعتقاد بأن النار التي تتغذى على هذا فإن لهيبها ليس بالأمر العادي بل تنقل شيئا من ذلك الذي يطلق عليه أيضاً في الغرب، الأرواح الحيوانية. إذن نجد أن فكرة القذارة غائبة للغاية لدرجة أن الروث البقري يستخدم كنوع من الصابون لتنظيف الأواني؛ كما أن الهندي الطيب الذي يشعر بسكرات الموت يمسك بذيل البقرة حتى يكون واثقا من أنه سوف يذهب إلى عالم أفضل[1].

يدخل الروث البقري أيضاً في المشاهد الجمالية التي تعبر عن السعادة. فها هي لوحات الفريسك لأجانتا Ajanta، الذي يعتبر علامة بارزة في الرسم الهندي، نجدها فوق عملية تحضير في الحائط المشيد أساسا من هذه المادة غير النبيلة. ولا يرجع هذا فقط لأسباب تقنية ولكن لأسباب أكثر عمقا، أي أكثر قدسية وسحرية.

يتم في كثير من الحالات اكتشاف علاقة ملحوظة بين هذه المادة المذكورة وبين الصورة المرسومة، فإذا ما تأملنا جيدا في تلك اللوحات القديمة والمتدهورة لأجانتا مثل لوحات "الكهف X" سنرى قطيعا رائعا من الأفيال وسط الغابة؛ إنها حيوانات قوية ومهيبة، وها هي أعضاؤها الكبرى ترتبط ببعضها وكأنها قطاعات من كرة باستثناء أنياب الفيل، حيث تصبح وظيفتها هي الإحاطة الدائرية. هناك فيل من الأفيال المرسومة له ستة أنياب، وهو الفيل المركزي في اللوحة والأقوى من ذلك الفيل الذي هو بوذا نفسه في تجسده.

وانطلاقا من المفاهيم الدينية الهندية من البدهي التفكير في أن الفنون التمثيلية تدور حول الحياة الحيوانية، لكن مع هذا نجد الأوربي يشعر بالاستغراب، وهو الذي اعتاد على

---

(1) راولنس، العمل المذكور، ص١٢٩.

الأشكال الحيوانية في الفن البوذي من تلك الشائعة في المتاحف الأوربية، رغم أن هذا الفن ظلّ يدور طوال قرون في بلده الأصلي حول الأشكال الحيوانية. وحتى وصل الهنود إلى قرار بتمثيل بوذا في صورة بشرية سيرا في هذا على منهاج آلهة أبولو الهلنستية والرومانية، تصوّروه في شكل غزال وفيل وكذا في صورة أنواع أخرى من الحيوانات التي يتجسد فيها. كما أن أشكال بوذا سرعان ما أخذت شكلا حيوانيا غريبا رغم ما يبدو عليها من بعد صوفي.

وبالنسبة للتماثيل الرائعة لبوذا التي تنسب إلى مرحلة جوبتا gupta (من القرن الرابع حتى القرن السادس الميلادي)، نجدها بعيدة جدا عن تلك الفورة الغريزية التي عليها الحيوان، غير أنه يوجد في إطار هذا النقاء اللاجنسي شيء بالنسبة لمن اعتاد على الفن الكلاسيكي في حوض البحر المتوسط يذكره بنبض اللحم. فالملبس ملتصق بجسد الشكل لدرجة يصبح معها جلده، وهي ليست تماثيل عريانة مثل تلك اليونانية الرومانية، إلا أن الملبس يفصح عن تقاسيم الجسد لدرجة يبدو معها أنه غير موجود؛ وعكس ذلك يحدث، حيث لا يتجلى الهيكل أو يتم الشعور به مثلما يحدث في حالة الحيوانات، فالبنية العظمية ملحوظة أكثر في الإنسان عن الحيوان ولو كان ذلك – على الأقل – في نظر وحساسية النحّات الذي يعيش في حوض البحر المتوسط. غير أن تماثيل بوذا التي ترجع إلى عصر "جوبتا"، أي العصر الكلاسيكي للهند، تبدو وكأن ليس لها هياكل عظمية، فكل شيء فيها هو اللحم، وهو لحم ناعم وحسّاس ويشف. ليس إذن لحما فسيولوجيا محضا، بل مفعم بالروح والتأمل لكنه لحم حيّ تتخلله نغمة حيوية رقيقة.

ومع هذا ما يتضح أن ذلك الصنف من المنحوتات الهندية غير كاف؛ ومن جانب آخر فإن المنحوتات الهندية البوذية autropomorficas والروحية سوف تواصل مسارها الفني في كل من الصين واليابان؛ ففي الهند نجد أن الهندوسية تنتصر بوضوح ومعها ذلك التوجه الفني المرتبط بالحيوان. كان ذلك أبرز تعبير عن توجه للسكان الأصليين أكثر من كونه، بشكل أو بآخر، تعبيرا أكثر حرصا وتخفيا أو أكثر انفتاحا وربما فظاظة، على مدار تاريخ الفن الهندي. وفي هذا المقام كتب ب. رولاند[1] "إن الفن الهندي في كافة عصوره

---

(١) العمل المشار إليه، ص٦٧.

يجعلنا نشعر بالدهشة لدرجة تمكن الفنان الهندي وقدرته على تصوير الحيوانات في الكثير من هيئاتها التي ترتبط كل واحدة منها بسمات النوع الذي تنسب إليه".

وهي أوضاع حقيقية وصحيحة ومتحركة ولها تنويعات لا نهائية. وعندما نرى أعلى أعمدة أسوكا Asoka الشهيرة أشكال حيوانات كهنوتية يمكن أن نكون واثقين بأن ذلك له تأثير خارجي. وبالفعل نجد منحوتات أسوكا تسير على نهج نماذج فارسية حيث هناك مضمون رمزي للحيوان وهذا نقيض العبقرية الهندية. لكن هذه العبقرية سرعان ما تهضم التأثيرات الغربية وتقدم لنا الحيوانات في صورة طبيعية مفعمة بالحياة وبعيدة عن أي قولبة وشكلية تقليدية، فالأوزان التي نجدها في سقف "أجانتا" تدور في حلقة تبدو وكأنها تريد أن تكسر الخطوط الهندسية التي تلفها، تلوى أعناقها وتنزل بها أو ترفعها، تعود إلى ما كانت عليه وتفرد ريشها في إطار حرية حركة وطرائق غير معروفة في فنون الشعوب الأخرى.

يحدث الشيء نفسه للزهور والنباتات، إذ تبدو هذه وتلك، في الفن الهندي، مليئة بالدم والنبض أكثر منها مليئة بالعصارة. تقدم الحيوانية التي هي من سمات الفن الهندي نوعا من الوحدة الغريبة بين كافة تجلياتها بغض النظر عن التوجهات الدينية المختلفة – وبغض النظر عن المملكة الطبيعية التي إليها تنسب. وإذا ما كانت تتجلى، كما أشرنا سلفا، في حالة الصوفية البوذية، في نوع من الموجة الحيوية الكامنة وراء المواقف التأملية الرفيعة، فإنها بهذا تتجسد؛ وفي حالة الزهور والنباتات يتم ترجمة ذلك في صورة تنفس يرتفع بها إلى مستوى عضوي أعلى. وهذا تحديدا ما يناقض الروح النباتية المسيطرة في الفن الياباني.

ولهذا السبب فإن الفن الياباني هو في الأساس فن العفاف مثل الزهور، بينما نجد الفن الهندي إيروتيكي للأسف. ومن المهم أن يكون المنطلق هو وجهة النظر الحيوانية الهندوسية حتى نفهم الإيروتيكية التي تلحظها العيون الغربية والشائعة في الصور البشرية والإلهية التي تنتشر في المعابد. الأفلاطونية إذن هي أمر غير مقبول تماما في الفن الهندي، وعندما يبدأ المرء بمعطيات الفن الهندي يتحول الحب الروحي إلى أشكال جسدية صارخة.

تجري عملية إضفاء القداسة على الحيوان في الفن دون أي تحوير، إذ ليس من الضروري التضخيم أو إضفاء النبل أو الإعلاء من شأن ناندي Nandi، أي الثور الذي يقوم بدور الوسيلة لشيبا، حتى يكون مقدسا في النقوش البارزة الكبرى في إليفانتا

Elefanta . الفنان لا يرغب في شيء آخر إلا التعبير عن جوهر الحيوان الذي نراه كل يوم . والشيء نفسه يحدث لثعبان الكوبرا الذي يرقد على كف الإله نفسه في تريمورتي Trimurti في إليفانتا، وهو في شكل يمكن أن نراه في أي من الثعابين الكوبرا التي ترفع رأسها على إيقاع موسيقي "ملاطفها" .

وعندما تنظر إلى معبد كايلاسا Kailasa الشهير في إلورا، تبدو الأبعاد الضخمة له وكذا بهاء تكرار الموضوعات وكأنها تضفي على منصة الأفيال التي يجلس عليها معنى مختلفا؛ غير أنه إذا ما قمنا، بعد الانطباع الأول المفاجئ، بتحليل كل واحد من الأشكال وكذا الإجمالى، إضافة إلى الوظيفة التي تقوم بها في إطار الطابع العام للأثر، فسرعان ما نكتشف وجود معنى يتوافق مع ما أشرنا إليه للتو . فالحيوانات تظهر في صورة طبيعية شبيهة بالنفوس البارزة في بهرهوت Bharhut وسانشي sanchi وكذلك باللوحات الأولى في أجانتا . إنها عبارة عن حيوانات فردية مختلفة الواحدة عن الأخرى والتي تأخذ كل واحدة منها سمات خاصة مميزة مثلما هو الحال في صراعها مع بعضها أو لعبها وتمسك بزلومتها أسدا عابرا .

ليست حيوانات رمزية وكهنوتية على طريقة ما نراه في أحد الأفاريز الفارسية، إذ هي تقوم في حقيقة الأمر بحمل المعبد على ظهورها، غير أنها ليست حيوانات يتم التعامل معها بالشكل الواقعي الذي عليه الفن في حوض البحر المتوسط؛ ولو كان الأمر كذلك لتهاوت بفضل الثقل الواقع على كواهلها. الطبيعية naturalismo فيها مقدسة ولها قوانين جاذبية وجهد لا تنسب إلى العالم الذي نعيش فيه، أو أنها من هذا العالم على شاكلة ما عليه البقرة المقدسة بالنسبة للهندوسي مع كل ما يترتب على ذلك بالنسبة للما ورائية .

إنها حيوانات استخرجها الفنان من العمق الغامض الذي عليه الطبيعة . وليس هناك فنان بشري قام بملحمة فنية مماثلة ذلك أن المعبد بكامله، وهو أكبر من البارتينون، منحوت في كتلة صخرية . إذ قام المعماريون النحاتون بفتح فجوة في الجبل بحثا عن الجبل الأسطوري لكايلاسا Kailasa، مقر إقامة شيبا، واكتشفوه محمولا على كواهل الفيلة، وحولوا المعتقدات القديمة إلى واقع فني يقول بأن العالم قائم على أجساد حيوانات .

هناك واقع رائع ينقله هذا الأثر إلى المشاهد، وليس مثله كثير على ظهر الأرض، وهو العالم الأسطوري الحقيقي. يبدو المعبد نفسه بكل ما فيه من أعمدة ودهاليز وغرف وأبراج وآلهة وكأنه يتأرجح هو والفنانين بالمعنى الحرفي للكلمة ومعهم مخططاتهم على الحمالة من فوق ظهر الفيلة.

XXVII- أوربا من منظور الهند

هناك فارق كبير بين معبد كايلاسا في إيلورا وفكتوريا ميموريال V. Memorial في كلكتا، وهذا الفارق هو فارق زمني وفني وتمثيلي. فهذا الأخير - طبقا لـ ك. م. بانيكر[1] - "يرمز في آن معا لطموحات إنجلترا وإخفاقاتها. ليس له روح إلا الجمال كما أنه يقع في إطار رفيع ويمثل خلاصة قرن من الجهود في الهند، لكن لا يتم استخلاص أي قيمة منه أو أنه يشع أي جمال، ومنذ اللحظة الأولى، وبالمعنى الحرفي للكلمة، لم يكن شيئا آخر إلا قطعة متحفية. كان تقليدا، الأمر الذي يبرهن على خيبة الأمل الكبرى لدى البريطانيين لأنهم لم يتمكنوا من أن يقيموا في الهند شيئا يضارع "الأعمال العملاقة" chefs-d'ouvre الهندية وبالتالي هناك فقدان عميق للثقة فيما يتعلق بعبقريتهم، حيث أظهرت عدم قدرتها على الوصول إلى قلب الهند أو روحها".

أغلب هذه الآراء صحيحة، وهناك بعضها كان أقل في حكمه، فمبنى "فيكتوريا ميموريال" ليس فقط مجرد قطعة متحفية بل هو نفسه متحفا يضم تلك القطع التي أتت من كل مكان والتي تنسب إلى العاهلة التي كانت تقيم على الشواطئ البعيدة لنهر التايمز. وبالنسبة لعدم الأصالة الفنية فإن ما يبرهن على ذلك بشكل قاطع هو مجموعات التماثيل التي توجد فوق واجهة المدخل وكذا القطع التي تحيط بالقبو، حيث تم تصميمها وتنفيذها في إيطاليا. لكن كل ذلك لا يعني فشل هذا المبنى في كلكتا بل توافقه مع التوجه السائد في العمارة الأوربية في بداية القرن العشرين. وبالنسبة للمباني المشابهة له في لندن نجدها تعاني

---

(١) "آسيا والسيطرة الغربية من القرن الخامس عشر حتى يومنا هذا" ترجمة، باريس، ص١٥٦.

جوانب القصور المذكورة، ولن يكون المبنى أجمل لو كان جرى تصميمه وتنفيذه من خلال أناس من القارة الأوربية.

ربما أرادوا بهذا المبنى الاقتراب أكثر من قلب الهند وروحها، مع مخاطرة العناية بطبيعتها الحميمة، وربما كان المبنى ليظهر أقل فخامة وأقل بذخا وأكثر تجريدا إمبراطوريا وفيه حالة رضا عن نفسه دون أن تكون له غايات ترانسندنتالية. وخلاصة القول هو أن هذين البعدين الخاطئين، استنادا إلى النص المذكور، لهما جانبهما الإيجابي طبقا لمؤلفه وكذلك طبقا لكثير من الكتّاب في الهند المعاصرة الذين يعترفون بذلك. هناك القليلون الذين انتقدوا روح التسامح التي حدت بالنظام البريطاني باتخاذ موقف الابتعاد عن المشاكل الحميمة للروح الهندية، وهناك القليلون جدا ممن يعبرون عن عدم رضاهم عن الوقاحة الإمبراطورية التي فيها نواب الملك و"الخدمة المدنية الهندية" في إضفائها على السياسة البريطانية في القارة الآسيوية.

كتب بانيكر[1]: "إذا ما كان ليتون Lytton هو مخترع النظرية الإمبراطورية، كان كورزون curzon هو ممثلها الأبرز وهو يكاد يكون رمزا للسلطان البريطاني في هند إمبراطورية تضفي على جيرانها نفحة من عظمتها وفخارها. ومن الأمور ذات الدلالة المهمة هو أن كورزون، قبل أن يعين نائبا للملك، كان يتهيأ لمهمته الكبرى المتمثلة في رحلات تشمل كافة حدود الهند. وفي هذا قال لورد مورلي في اللحظة التي وجهت فيها الحملة إلى التبت، أنه لم يكن يأنف من القيام بلعبة "جران موجول" (الماسة الكبرى) وأصبحت إمبراطورية بكاملها رهن طموحاته السياسية الكبرى، فقد طالب بأن يكون للهند الأولوية الأولى في الموضوعات المتعلقة بجنوب قارة آسيا وكأنها أصبحت بلدا مستقلا". وإذا لم تكن اللائحة الخاصة بالهند قد طرأ عليها أي تحسن ملحوظ في إطار مثل هذه السياسة الطموحة، لم يحدث الشيء نفسه في حالة اللائحة الخاصة بالإمبراطورية الهندية، التي تحولت إلى قوة آسيوية كبرى. وهنا يرى جوى ونت Guy Wint أن

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٤.

«الإنجليز كانوا يعملون في آسيا على وجه الخصوص لصالح الهند وكانوا يقدمون خدماتهم إلى إمبراطور الهند أكثر من تقديمها لملك إنجلترا»[1].

كانت هناك، وراء هذه السياسة التي انتهجها الإنجليز، دوافع خاصة بهم وهي المتعلقة بذلك المسرح العظيم الذي كانوا يمارسون عليه سلطانهم وكذلك السير على نهج من سبقوهم في المكان نفسه. فلم يكن لورد كورزون الوحيد الذي لعب لعبة «الماسة الكبرى». فها هو مبنى فيكتوريا ميموريال» بكل ما فيه من رخام إيطالي يستلهم أبرز أثر للأسرة الملكية وهو تاج محل وكذا ملك إنجلترا نفسه المحاط بكافة أنواع الملابس والرموز الطقسية يستدعي البرلمان durbar الإمبراطوري في قاعة عرش الشاه جاهان، في القلعة الحمراء في دلهى، وذلك لتلقي تكريم كبار أمراء الهند وعلية القوم بها. كما كان لانتقال العاصمة من مدينة كلكتا التجارية، التي ولدت تحت السيطرة البريطانية، إلى دلهى الإمبراطورية، بمناسبة «التتويج البرلماني للملك جورج الخامس، والذي يبرز ازدهار السيطرة البريطانية في الهند، دلالة عميقة أخرى، إذ بالإضافة إلى مدن دلهى القديمة التي تحولت إلى أطلال جرت إقامة «دلهى الجديدة» التي تفوقت على سابقاتها في العظمة والبهاء.

وها هو الخيال الرومانسي المهيب الذي عليه الأرستقراطي الإنجليزي يتحرك على هواه في عالم خيالي بشكل أو بآخر هو الشرق الخاص بألف ليلة وليلة، إلا أنه جرى عليه التصحيح بفضل القوة البريطانية على خلق سلوكيات وهيئات اجتماعية موجهة لأغراض عملية تدخل في توافق مع موقف متسامح وذلك لأسباب منها أنها كانت تتعلق بقضايا غير ذات قيمة كبيرة. كما كانت «الإمبراطورية الماسة» مدفوعة بروح التسامح، وكان ملوكها من كبار المشرِّعين والمنظمين؛ غير أنه كان هناك اختلاف كبير بين الإمبراطورية القديمة والحديثة. ولم يقتصر الأمر على أن الوسائل الاقتصادية والتقنية والاجتماعية أصابها التغيير مع مرور الزمن، بل هناك ما هو جديد وهو البعد الخاص بالمكانية والتنظيم المؤسسي نظرا للدينامية الفاوستية التي عليها الأوربي؛ وإذا ما أردنا التحديد نقول إن التاج الإمبراطوري كان في لندن، الأمر الذي يعني وجود مسافة بعيدة في الهند بين المجتمع القائم

---

(1) «بريطانيا في آسيا»، لندن، فابر آند فابر، ص٢١.

وبين الجهاز السياسي الإداري الذي شيد بشكل فيه تقشف في المكونات وخاصة على الصعيد البشري.

ومن هنا فإن من يطوف بحقول الهند سوف يفاجأ بوجود القليل من الأثر الملموس للمسيطرين القدامى، وإذا ما ركزنا النظر على التفاصيل الصغيرة الظاهرة التي تحيط بنا نشعر أننا في مجتمع من المجتمعات الخاصة بالسكان الأصليين. فما فعله الإنجليز هو القيام ببناء المدن الكبرى والمباني الإدارية أو التجارية العملاقة وشبكة الاتصالات والسدود والترع والنظام القضائي والمالي. . . الخ، وقدموا، إضافة إلى ذلك، لغة تساعد السكان الأصليين من مختلف الأقاليم اللغوية في شبه القارة على التفاهم فيما بينهم، لكن كل ذلك كان بمثابة الحوائط الخارجية لمبنى ضخم تعلوه قبة أثيرية يمكن تحتها للتقاة أن يواصلوا حياتهم القديمة وعاداتهم الموروثة والاستمرار على سلالاتهم ومعتقداتهم بما في ذلك التدهور وتركها تتدهور وتفسد.

ورغم كثرة القباب في المنشآت الإسلامية والإنجليزية في دلهى وغيرها من المدن الهندية – هذا يوجد أيضاً في "فيكتوريا ميموريال" – فإنها تبدو تبريرا لمرجعية معمارية لها صلة بلغة الرمزية السياسية، ربما كان من الأمثل، في باب الإبراز التصوري للطبيعة السياسية للنظام البريطاني في الهند، الإفادة من أمثلة شبيهة مأخوذة لا عن العمارة الأرضية وإنما عن العمارة البحرية. فتركيبة هذا النظام السياسي لا يمكن إلا أن تذكر بفكرة المركب الكبرى من منطلق أنها لا تثبت على قرار وأنها سريعة التصنيع وأنها قوية الأضلاع حيث توجد بين جنباتها مواد حقيقية للحشو وأنها ذات خطوط عامة رشيقة وكذلك من أجل الأغراض الضخمة من وراء هذا الهيكل الذي كان العيش فيه يتم في أسوأ الظروف مثلما كان هو المعتاد في السفن في ذلك العصر.

إن عملية المقارنة بين الدولة والسفينة هي أمر شديد الشيوع في المصطلحات السياسية ابتداء من العصور القديمة، لكن الصور فيما يتعلق بالتركيبة السياسية التي أقامها الإنجليز في الهند تتطابق تماما وليس ذلك من وجهة النظر المعتادة جماليا ولكن من المنظور التحليلي.

بدأ الأوربيون العصر الحديث بعقلية بحرية، لكنهم وجدوا في العالم الجديد أرضا سهلة ومفتوحة كانت تدعوهم إلى الإقامة فيها وأن ينسوا البحر؛ أما في حالة الهند، فإنه إذا

ما كان المحيط مليئا بالمراكب التي هزمت الأساطيل الهندية والعربية فإن الأرض أغلقت أبوابها أمامهم بفضل القدرات الحربية التي عليها سكان تعدادهم كبير ومنظمون، وكان على الأوربيين أن يقنعوا باستيلائهم على بعض المواقع على الساحل من تلك التي سمح لهم بالتواجد فيها بشكل أو بآخر، الأمر الذي هيأ لهم الرقابة على النقل العالمي والبعد عما هو داخلي. وفي عام ١٦٨٥م تمكنت أورونجزب Aurungzeb من هزيمة البريطانيين الذين كانوا يريدون توسعة مناطق سيطرتهم على الشاطئ، هذا رغم حالة الأفول التي كانت عليها السلطة المغولية.

كانا عالمين مختلفين، فعلى مدار مائة عام لم يقل أحد بأهمية الإنجليز في الهند، وإذا ما كانوا هم الذين يسيطرون الآن على خطوط الملاحة البحرية بعد أن طردوا البرتغاليين لم يكن لذلك أهمية لدى الملوك المغول ومستشاريهم الذين هم حريصون على البعد القاري للسياسة الهندية التي أعطت ظهرها للبحر اللهم إلا استثناءات قليلة على مدار القرون. غير أنه عندما قدمت الإمبراطورية المغولية وكذا باقي السلطات السياسية في الهند الفرصة المتاحة بسبب ما عليه من ضعف ومن تناحر داخلي، تمكن الإنجليز الذين كانوا حبيسي مراكبهم وموانيهم طوال فترة طويلة من الزمن من الانطلاق نحو غزو شبه القارة وأبرزوا مواهبهم الحربية والسياسية من خلال المناورة والحصول على معلومات من المعسكر المعادي ومهارة لا تقارن في توجيه الضربات وشغف بالإفادة والاستغلال حيث كان كل ذلك يتسق مع أسلوب الشركات، وكذلك الأزمات البحرية. نجد إذن أن السيطرة البريطانية في الهند تتسم بالطابع البحري والتجاري الذي عليه "شركة الهند الشرقية" وهذا لم يُمْحَ رغم أن البلاد ارتدت الثوب الإمبراطوري.

عاش الآسيويون في أقاليمهم ومقار إقامتهم ولم يكن باستطاعتهم أن يفهموا المعنى التاريخي لتلك الأنشطة التي يقوم بها الأوربيون الذين يتسمون بالولع والخفة والنفعية واللا أخلاق من حيث أنهم يسيرون على قواعد غير ملزمة اللهم إلا الأخلاقيات السائدة والمتأصلة. ووصل الأمر في هذا المقام إلى أنه بعد معركة بليزي Plassey، 1757م، لم يقم أحد بتقديم تنازلات في الهند للبريطانيين إلا للمهراجات من حيث كونهم المسيطرون القادمون على شبه القارة. كما لم يفلح المؤرخون والسياسيون الهنود في أيامنا هذه والذين

هم من أنصار الاعتراف بالجوانب الإيجابية التي كانت في النظام البريطاني، في فهم العقلية السياسية التي كانت مصدر إلهام المهمة البريطانية.

لجأ هؤلاء المؤرخون إلى استخدام أطروحات ووجهات نظر أيديولوجية خاصة بالجيوبولتيكا الأوربية السائدة في بداية القرن العشرين، وميزوا بوضوح بين القوى البحرية والقوى القارية معلنين انتصار القوى القارية انتصارا لا مناص منه. هناك سمة عامة تتسم بها السيطرة الأوربية في آسيا، ابتداء من أيام فاسكو دي جاما، واستمرت في المراحل المختلفة ألا وهي عملية محاصرة القارة، وكان الفشل، لذلك، أمرا محتوما. وهنا يقول بانكير[1]: "لقد تمكنت الشعوب التي تقيم على الأرض في آسيا أن تؤكد ذاتها وبنجاح ضد إغواءات القوة البحرية. وعموما فإن انسحاب الأوربيين هو محصلة يقظة الأمبراطوريات الأرضية التي تحررت بقوة من قيود التجارة البحرية".

إن عملية المقابلة بين العقلية الأرضية والعقلية البحرية، اللتين هما من سمات العالمين الشرقي والغربي على التوالي، لا تقتصر على العصر الحديث الذي انطلق فيه الأوربيون بسفنهم وأخذوا يجوبون بحار الكرة الأرضية، بل يمتد ذلك إلى كافة مراحل تاريخها ابتداء من العصر القديم. وليس من الغريب أن نكتشف في الكتب التي ألفها آسيويون وجود نظرة إعجاب وحنو نحو اليونان ذلك أنها، بغض النظر عن اكتشاف البحار، عانت ازدهارا قصير الأمد ولم يتبق منه إلا إنجازاتها العظيمة، بينما نجد أن الحضارتين الهندية والصينية برهنتا على قدرتهما على البقاء والتأقلم وتمكنتا، رغم الأزمات والتغيرات الكثيرة، من البقاء طوال فترة طويلة من الزمن، محافظتين على "سماتهما الأساسية".

هناك أمر مثير للجدل حول مفهوم هذه "السمات الأساسية"، ومع هذا فإن هذا الطرح يسهم في تقويض قيمة الإبداعات الأوربية وخلع الصفة التاريخية عن مسار الزمن. بالنسبة للتاريخية الأوربية يصعب على الأجانب إدراكها اللهم إلا علوم الفيزياء والتقنيات التي عليها - والعمل على إرضاء الضمير من خلال مفهوم التفوق. فالثورات العلمية والصناعية الأوربية ينظر إليها على أنها مجرد أحداث تاريخية، وأنها وقعت نتيجة دوافع

---

(١) العمل المذكور سلفا، ص٣٢.

انفجرت في العالم الأوربي، لكن لا يتمكن أحد من اكتشاف وجودها في السياق العام لتاريخ الغرب، وهنا يتم النظر إلى أن تلك الدوافع كان من الممكن أن تحدث أيضا في الشرق إذا ما كانت قد سمحت بذلك واحدة من العقليات الإصلاحية الكبرى مثل عقلية "أكبر" Akbar.

ورغم وجود الإهمال من جانبه، ومن جانب كثيرين آخرين من الممكن تعويض الزمن الضائع دون إضعاف "السمات الأساسية" للحضارات العظيمة والدائمة في آسيا. وهنا يؤكد رجاراو Rajá Rao[1]. بقوله بأن "الهند باستقرارها الذي لا يصيبه الخلل وسياقها الفلسفي مفتوحة على كافة التأثيرات. وإذا ما كان من الظلم الحديث عن نفورها أو نواياها العدوانية أو احتقارها للثقافات الأخرى فإنها يمكن أن تمتص تأثيراتها لكن في إطار معاييرها الفلسفية وتراثها.

ومع هذا فإن الحضارة الصناعية الحديثة - مستخدمين هذا المسمى - ليست ثقافة أخرى إلى جانب الثقافات بل هي مجموعة من العناصر المتباينة مدمجة فيها تتسم بالدينامية والتآكل، وصالحة أيضاً في باب الحضارات القارية رغم أنها نشأت من خلال القوى البحرية. وإذا ما كان تطورها أحدث تأثيرا في الأسس الروحية في البلاد التي ولدت فيها فلا يمكن فهم كيف أن غير المهيئين وغير القادرين على التأقلم معها من البلاد الغربية يمكن أن يقاوموا خطوات الغربنة.

وعلى أية حال، هذه أزمة يجب إيضاحها على مستوى القيم الأخلاقية والثقافية وليس على أساس المواجهات السياسية والمسئوليات الاستعمارية. كانت اليابان آخر الدول الآسيوية الكبرى التي دخلت طريق الأوربة وسارت فيه بشكل تأملي ومحسوب دون أن تصادر على تقاليدها وعلى نظامها القديم، ومع هذا فهي اليوم واحدة من البلدان التي أسهم فيها تطور الحضارة الصناعية في تآكل قيمها الروحية. وبالنسبة للصين فإن المنافسة بين القوى الأوربية من أجل السيطرة عليها حالت دون أن تقع في نفس المصير الذي وقعت فيه الهند منذ بداية القرن التاسع عشر، أي بالسقوط تحت نظام استعماري، وليس هذا فقط بل السقوط في نظام فوضوي تحت غطاء من السيادة الوطنية المصطنعة التي أدت إلى تفكيك كافة القواعد البسيطة لثقافتها

---

(١) "من أجل حوار بين الثقافات" جريدة المركز الأوربي للثقافة، أبريل ١٩٦٢، ص٩٢.

ومجتمعها، وتتحول البلاد بذلك إلى ما يشبه السبورة الخالية من أي شيء والمؤهلة لكتابة اليوتوبيات الأكثر ثورية القادمة من الغرب.

هذا الاحتضار البطيء الذي عليه الصين لم يتم السماح به للهند بسبب حرب الأيام السبعة وبعد ذلك الحروب النابليونية التي أطلقت العنان للأيدي البريطانية لتحكم سيطرتها على شبه القارة وبذلك هيأت الفرصة الممتدة والمكثفة لفترة السيطرة الأوربية على بلد آسيوي. وعموما فإنه مع كل ما هناك من متاعب وحالات الفقر التي لا تحصى نجد أن السيطرة الإنجليزية على الهند لم تكن الأسوأ في إطار الظروف التي مرت بها دول آسيوية أخرى. تمكنت الهند لأول مرة على مدار تاريخها من تحقيق وحدتها الوطنية وتكامل أقاليمها المختلفة ومراكزها الثقافية وتلقت الهيكل العام للدولة الحديثة على الأقل ذات الأبعاد الإمبراطورية التي سوف تسنح بفرصة تقديم مفهوم عظيم مناوئ للقومية الهندية. كان ذلك مناقضا لما كان سيحدث في البلاد العربية في آسيا، التي حظيت، حتى وقت متقدم من القرن العشرين، بدعم الإمبراطورية العثمانية - في حالة خفوت - ضد الاستعمار الأوروبي، الأمر الذي أدى إلى ميراث يتمثل في قومية خاصة مجزأة وغير مستقرة، بعد فترة وجيزة من السيطرة، وذلك لأسباب من بينها أنها كانت ضد التيار التلقائي الإسلامي الذي يميل إلى إنشاء تكتلات سياسية دينية كبرى.

أضف إلى ما سبق أن إنجلترا قدمت للهند أمرا ذا جدوى عظيمة من المنظور الأيديولوجي؛ أدى خضوع البلاد المستعمرة أو شبه المستعمرة إلى رد فعل معاد للدول الأوربية، مصحوبا بمحاولة السيطرة على تقنياتها وأنماط تفكيرها والتنظيم فيها. أما الماركسية، بما تحمل من أيديولوجية الصراع الطبقي والرأسمالية الإمبريالية، كان ردّها راديكاليا وغليظا إزاء تلك المشكلة الثنائية الجوانب. وهنا نجد أن إنجلترا تقدم من جانبها ردا أكثر مرونة، بحيث تجلت في نمطين إثنين هما إنجلترا شكسبير وميلتون أي إنجلترا الأمة السياسية والكفاح من أجل الحرية والعلم والتقدم التقني؛ أما الأخرى فهي إنجلترا قانون العقوبات الصارم والسلوك الذي لا يرحم، والإقطاع وردّ الفعل. ورغم أن كلا الاتجاهين عاشا معا ولم ينفصلا، كان على أحدهما أن يقوم بالدور الرئيسي أي بالسيطرة على الاتجاه الآخر، وهنا يؤكد نهرو "إن لم يكن هناك مناص من قيام إنجلترا السيئة بتمثيل ذلك الدور في الهند وتدخل في عملية اتصال بالهند السيئة حيث كان عليها أن تدفع بها للحركة".

لكن كانت هناك انجلترا الطيبة التي كان من الممكن أن توكل إليها الهند الطيبة، وبالفعل هناك الكثير من التوجهات المناهضة للسيطرة الإنجليزية تستخدم حججا استخرجتها من الأسلحة الإنجليزية الجيدة: أي من فلاسفة عصر التنوير ومن الشعراء الرومانسيين الليبراليين أي من إستيوارت ميل وسيدجويك وويلز ومدرسة الدفاع عن المرأة، واستخدام كل هذا ضد الذرائع السيئة التي كان يسوقها المسؤولون على السياسة الإنجليزية الكريهة في الهند. أضف إلى ذلك هناك بعض اللوردات الإمبراطوريين الذين كانوا يديرونها يتسمون ببعض الجوانب الطيبة طبقاً لما أشرنا إليه. من خلال الوضع في الهند يكتشف المرء الإمكانية الهائلة لانفتاح الفكر الإنجليزي وكذا التنوع الثري في ألوانه وتمحيصاته.

هناك أمر مفهوم بشكل أكبر هو الحوار الأوربي مع الهند وبالتالي فهو أكثر إثارة للضجر من ذلك الذي يمكن أن يجري مع دول آسيوية أخرى. فالعالم الأوربي ليس موجودا هناك اللهم إلا أنه عبارة عن مجموعة من المعارف العلمية والتقنية، طبقا لما يحدث في اليابان، في شكل تبادلي يعيد إلى الأذهان التعارض بين المسيحية والإسلام، أو أنه نوع من النظرية المضادة بشكل مطلق ومتناقض استنادا إلى نمطيات ثورية أوربية، تسعى للسيطرة المفاجئة على كافة ما هو أوربي، مثلما يحدث في الصين. ما هو أوربي نجده في الهند بشكل أكثر اكتمالا وبه تمحيص كما إنه إنساني. أي أن هناك حياة تاريخية طويلة، مؤلمة، قامت بمد جسور قوية يحاول البعض أن يقطعها بشكل عنيف. مناهضة ما هو أوربي تعتمد في كل مكان على روشتات أوربية، أي القومية، التقنية، الديمقراطية، الماركسية. . . الخ، لكن مناهضة ما هو أوربي ليست أكثر أوربية مما هو عليه في الهند.

ولهذا السبب هناك دراما عميقة تعيشها الهند. فالغالبية العظمى من المثقفين الهنود هم في أزمة مع أنفسهم ذلك أنهم موزعو الشتات بين حبهم لبلادهم واغترابهم occidentalismo حيث من الصعب وضع حدود فاصلة بين هذين الشعورين، ومن خلالها تنساب توجهات حاسمة في هذا الاتجاه أو ذاك. ولا يقتصر الأمر على أفراد بارزين أو جماعات اجتماعية بل يشمل المجتمع بأسره حيث يعيش متأثرا بعمق بهذا الانشقاق. وهنا يُرى بوضوح ما يتعلق بالدين الذي هو أمر جوهري في حياة الشعب الهندي. خلال

الفترة الأخيرة توصل باحث أمريكي[1]: إلى خلاصة مفادها أن الدولة الهندية أوشكت على تنفيذ المفهوم الغربي للدولة الدنيوية واضعة في اعتبارها ما يحدث في الدول الإسلامية والبوذية التي أضفت الطابع الديني على أبنيتها السياسية بعد الاستقلال. ما هي النتائج التي سوف تترتب على هذا التوجه لدى شعب يعتبر الدين أكثر من عقيدة أي أن الدين عنده سلسلة كاملة من القواعد تحكم بشكل كامل حياة الفرد والجماعة؟

يمكن الإجابة على السؤال بالقول بأن القواعد التشريعية لا يمكن لها أن تغير من عقلية شعب مثل الشعب الهندي مهما بلغت من الدقة والحزم. وهناك كتب جان جوندا J. Gonda[2]، الباحث المتمرس في هذا الشأن، يقول: "بالنسبة للملايين من الناس فإن الخوف من القوى الشريرة أو التي يمكن تفسيرها على المحملين هو الدافع الكامن وراء تصرفاتهم الدينية. ولا زالت الهند هي البلد التي يتناقش فيها الباعة وسائقو التاكسي في قضايا دينية أثناء عملهم، وهي البلد التي تكافح فيها الأحزاب السياسية فيما بينها باسم الدين واستخدام أسانيد ميتافيزيقية. . . حيث يقدس الفلاحون محاريثهم ويقدس صغار البيروقراطيين قلم الكتابة". ويستند كسوم ناير K.Nair إلى أسس محددة هي الدراسات الاجتماعية منتقدا الخطأ الفادح الخاص بوضع خطط خمسية زراعية - سيرا في هذا على معايير شبيهة بتلك التي تحكم التشريع الدنيوي للدولة الهندية- استنادا إلى الافتراض الذي ينحو إلى بلوغ مستويات رفاهية أفضل، وهذا يرتبط بشكل أو بآخر بالجماهير التي يُطرح عليها المشروع. ويخلص الباحث بالقول "بأن التنمية لن تكون self-generating process with its own momentum إذا لم يتم تغيير وضبط النظام القيمي في المجتمع والبنية الاجتماعية حتى تحدث هناك مواءمة مع الأهداف الاجتماعية والاقتصادية للتخطيط".

كيف يمكن تنفيذ ذلك دون الحاجة إلى اللجوء إلى الإجراءات الصارمة المطبقة في الصين: هذا لب المشكلة، وهو أكثر من الناحية الأخلاقية والتربوية عنه من الناحية الاقتصادية والتقنية، وهي المشكلة التي تصطدم الهند الموحدة ومعها الغرب بالكامل. فهذا

---

(١) رونالد يوجين سميث، العمل المذكور سابق، ص٤٩٩ وما يليها.

(٢) العمل المذكور، ص١٩٤.

الصنف من السياسة الدنيوية المجردة والراديكالية مدين بالفشل، اللهم إلا إذا واكب ذلك بعض الإجراءات العنيفة والثورية لتحول المجتمع. كما أن السلوك المحافظ الشديد مدين بالفشل أيضا مثل الخيار السابق. قام كبار المفكرين الهنود مثل طاغور واوربندو Aurobindo ورادا كريشنان Radhakrishnan ببذل جهد من أجل إيجاد طريق وسط بين التراث والزمن الحديث. غير أن هذا الحل يتجاوز إمكانية اكتشاف ثقافي وبالتالي - نظرا لضخامة القضايا المطروحة وأهميتها الكبرى - يتطلب التعاون الاقتصادي والتقني والثقافي والخيري من كافة أنحاء العالم الحر.

المحتويات

الموضــــوع	الصفحة

تم الانتهاء من طباعة هذا الكتاب

في ٢١ اكتوبر ١٩٦٣ في "ورش

الطباعة" ، دار نشر قشتالة، ش.م.

أدبُ الرحلاتِ يعدُّ تقليدًا قديمًا، وله سحرٌ خاص، والعديد من رحالّة العرب قد زودوا المكتبة العربية بروائع ملاحظاتهم عن أنحاء عوالمهم. في هذا الباب فإننا نقدم ترجمةً لكتاب مثير انتظرته المكتبة العربية طويلا، يتناول حقبةً ومناطق بعين تجتاز البصر إلى البصيرة. بين يدينا يمر "لويس ديث دل كورال" على الطبيعة الجغرافية التي حددت تاريخ الاستعمار والتاريخ المحلي لشعوب المناطق التي اجتازها، وهو إذ تهبط طائرته إلى تلك النواحي يلاحظ الطبائع المختلفة المرئية بالعين المجردة، ويتدرج في العمق التاريخي والأنثروبولوجي لهذه الأراضي، مزودا سرده الأخّاذ بالطرائف التي تناثرت بين شعوب هذه البقاع.

هذا الكتاب هو حصيلة رحلتين، أولاهما إلى الأراضي الأمريكية الجنوبية، خلال الفترة من التاسع من أكتوبر عام ١٩٥٥، وحتى الثامن من يناير لعام ١٩٥٦، أما الثانية فكانت إلى الأراضي الآسيوية خلال الفترة من بداية نوفمبر ١٩٦١ حتى الرابع من يناير لعام ١٩٦٢. تتضمن صفحات الكتاب أيضًا رحلتين أخريين استغرقتا ما يقرب من شهرين إلى دول الشرق الأوسط، وكان ذلك خلال فصلِ الربيع من عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦١.
سواءً أكنتَ قارئا مهتما بالتاريخ أو الجغرافيا أو أدب الرحلات، أم كنت تبحث عن كتابٍ يزودك بالمعرفة الطازجة عن أمريكا اللاتينية واليابان والهند والشرق الأوسط، فإنك ستجد ضالتكَ في هذا الكتاب.

لويس ديث دل كورال (١٩٩٨-١٩١١)، كاتب إسباني، كان مستشارا للعدل، وعالما في السياسة، عمل كمستشار عدلي، ونائب قاضٍ في المحاكم الإسبانية في أول جلسات قضائية في عصر فرانكو، استكمل دراسته في جامعة برلين، ثم عمل كمحامٍ في مجلس الدولة الإسباني في ١٩٣٦، أصبح أستاذ لتاريخ السياسة ونظم التفكير بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة مدريد، وحصل على دكتوراة شرفية من السوربون.

د. علي منوفي، أستاذ اللغة الإسبانية وآدابها بجامعة الأزهر الشريف، ترجم العديد من الكتب من الإسبانية، وحصل على وسام الاستحقاق من الملك الإسباني، صدر له "إسبانيا بشكلٍ جلي" و"مواطنون في العالم".



